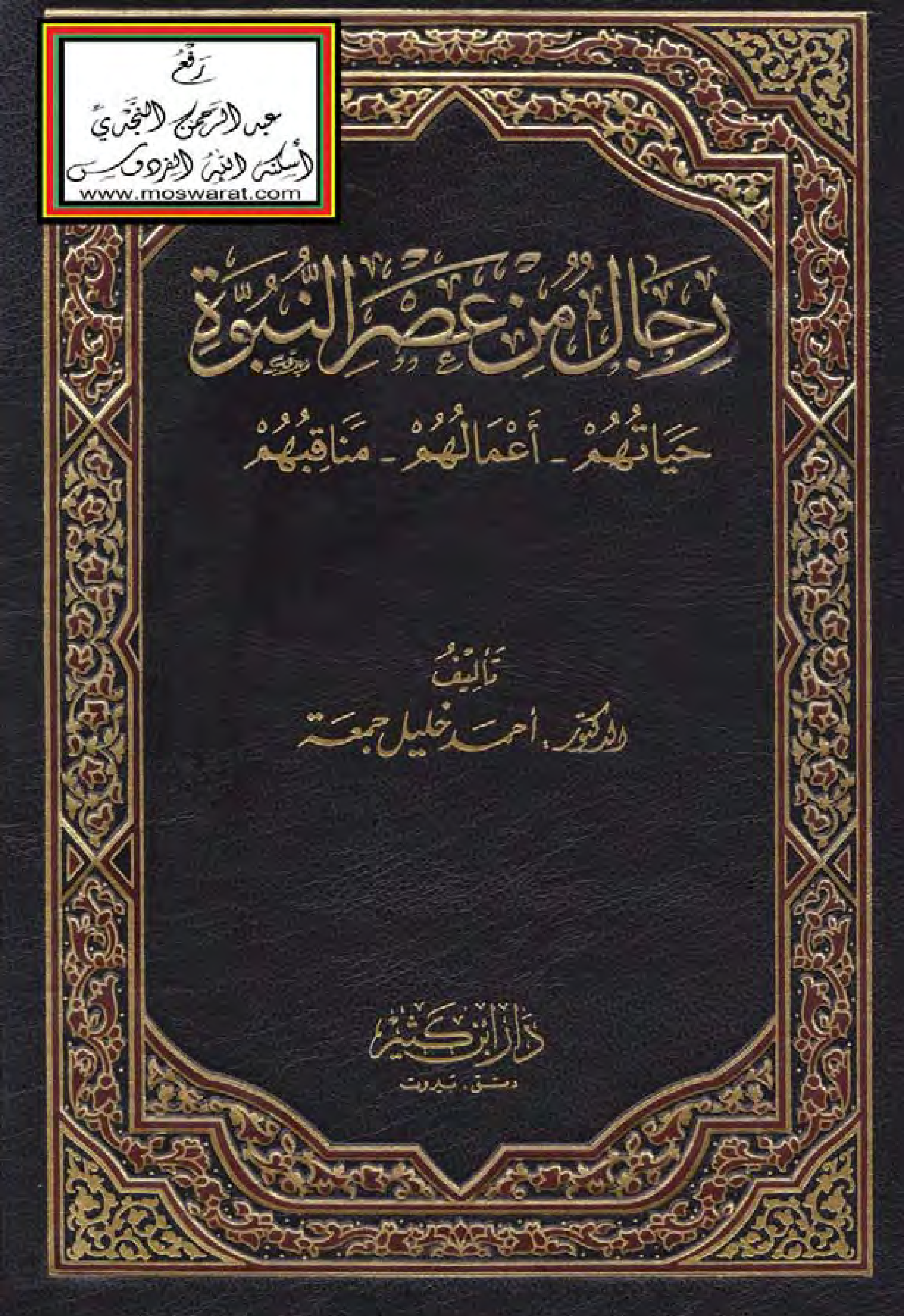
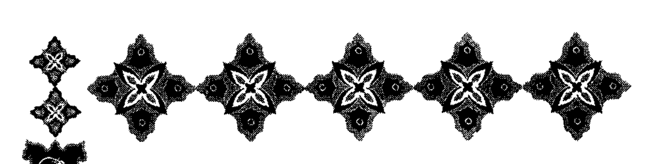


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
رجال من عصر النبوة
حياتهم - أعمالهم - مناقبهم
تأليف
الدكتور أحمد خليل جمعة
دار ابن كثير
دمشق - بيروت



الموضوع: تراجم

العنوان: رجال من عصر النبوة

التأليف: الدكتور أحمد خليل جمعة

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

الورق: أبيض
ألوان الطباعة: لون واحد
عدد الصفحات: 672
القياس: 17×24
التجليد: فني
الوزن: 1050 غ

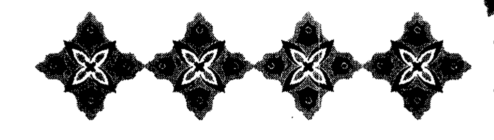


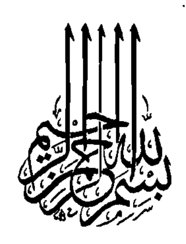
للطباعة و النشر و التوزيع

التنفيذ الطباعي :
دار الفن للطباعة - بيروت
التجليد :
مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت



دمشـق - سوريا - ص.ب : 311
حلبـوني - جادة ابن سـينا - بناء الجـابي
صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
الإدارة تلفاكس: 2243502 - 2458541
بيروت - لبنان - ص.ب : 113/6318
بـرج أبي حيـدر - خلـف دبوس الأصلي - بناء الحديقة
تلفاكس : 817857 01 - جوال : 204459 03
www.ibn-katheer.com
info@ibn-katheer.com





المقدِّمةُ وعرضُ الكتاب

* الحمدُ للهِ جامعِ الشَّتات ، ورافعِ مَنْ يشاء في الحياة وبعد الممات ، وجاعل لكلِّ زمنٍ رجالاً يرجع إليهم في النَّوازل والمهمَّات ، ومنهم رجالُ عَصْر النُّبوَّة الذين نصروا رسولَ ٱللهِ ﷺ في جميعِ الأوقاتِ والحالات .

* والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ حبيبنا محمَّدٍ سيِّدِ السَّادات ، ومعدنِ السَّعادات ، النَّبيِّ الأُمِّيِّ العربيِّ الذي جاء بالآياتِ البيِّنات ، المخصوصِ بأعلىٰ المراتبِ والمقامات ، والمؤيّدِ بأوضح البراهين والدّلالات ، والمنصورِ بالرُّعب والمعجزات ، النُّور السَّاطع ، والشَّفيع الشَّافع ، صاحب الحوض المورود ، والمقام المحمود .

* وعلىٰ أصحابه مطالع أنوار التَّنزيل ، ومغارب أسرار التَّأويل ، فهم النُّجومُ المُشْرقة بنور الهدىٰ ؛ والصَّواعقُ المحرقةُ لشياطين الرَّدىٰ ، أعلامُ الإسلام ، ومصابيحُ الظَّلام ، آمنوا بالرَّسولِ وبايعوه ، وساندوه واتّبعوه ، ونقلوا للأمَّة رسالته ، وبلَّغوها أمانته ، ونهضوا بنَشْر الدِّين في البلاد ، وبذلُوا في سبيله المالَ والمُهَجَ مع الأولاد ، فحظوا بمرضاة ربِّ النَّاس ، وكانوا بحقٍّ : ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ، فرضيَ اللهُ عنهم وأرضاهم ، ووالىٰ متَّبعيهم وأولاهم :

علىٰ حُبِّ أصحابِ النَّبيِّ انطوىٰ قلبي	علــىٰ أنَّــه قــد يَعْلَــمُ اللهُ أنَّنــي
فَسِلْمهــمُ سِلْمـي وحـربهــمُ حَـربـي	أُولئـكَ سَـاداتـي مـنَ النَّـاس كُلِّهـم

* وبعْدُ : إنَّ هـٰؤلاء الرِّجال الأفذاذَ هم الصَّفوةُ الصَّافيةُ من النَّاس ، اصطفاهم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ وانتقاهم ؛ واختارهم لِنُصرة دينِهِ ونبيِّه ، فكانوا له وزراء ونُصراء ، وكانوا علماء أتقياء : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ ﴾ [المجادلة : ٢٢] ؛ لا ينكرُ فَضْلهم إلا كلُّ معتدٍ أثيم ، وكلُّ عُتلٍّ زنيم ، وكلُّ مكابر لئيم .

* أوردَ أحد العلماء رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِقْراتٍ كاشفات ؛ هادفات هاديات ؛ عن مكانةِ الصَّحابة آساد الغابات ، وعن واجبنا نحوهم في جميع الأوقات ، فقال : « إنَّما يعرفُ فضائل الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ مَنْ تدبَّرَ أحوالَهم ، وسيرهم ، وآثارهم في حياةِ رسول ٱلله ﷺ ، وبعد موته منَ المسابقةِ إلىٰ الإيمان والمجاهدة للكفَّار ، ونَشْر الدِّين ، وإظهار شعائر الإسلام ، وإعلاء كلمة ٱلله ، وتعليم فرائضه ، ولولاهم ما وصل إلينا من الدِّين أصلٌ ولا فرعٌ ، ولا علمنا من الفرائض والسُّنن سُنَّةً ولا فرضاً ، ولا علمنا من الأحاديث والأخبار شيئاً ، فَمَنْ طعَنَ فيهم ، أو سبَّهم ، فقد خرجَ من الدِّين ، ومرقَ من ملَّةِ المسلمين ؛ لأنَّ الطَّعْنَ لا يكونُ إلا عن اعتقادِ مساويهم ، وإضمارِ الحقْد فيهم ، وإنكار ما ذكرَ ٱلله تعالىٰ في كتابه من ثنائهِ عليهم ، وفضائلهم ، ومناقبهم ، وحبِّهم » . ولله درُّ ابن جابر الأندلسيّ إذ قال ؛ وأجاد في مديح هـٰؤلاء الرِّجال :

بــذْلٌ وربْعُهــمُ بــالعــزِّ مــأهــولُ	قَــومٌ وجــوهُهــم بِشْــرٌ وأَنْمُلُهــم
نــاجٍ وشــانيهــمُ فــي النَّــار مملــولُ	ومــا مُــرادُكَ مــن قــوم مُحبِّهــمُ
كــأنَّمــا فــي الــدُّجىٰ منهـم قناديـلُ	تضــيءُ أحســابُهــم ليــلاً وأوجهُهُــم
بهـم غـدا الشِّـركُ قـدماً وهـو مخـذولُ	وســاعــدتْهــم مــنَ الأنصــار طــائفــةٌ
أنْ لا يكــون لِــدِيْــنِ ٱلله تبــديــلُ	تبــوّؤا الــدَّارَ والإيمــانَ واجتهــدوا
ما صاحتِ الحربُ في أبطالها جُولوا	يمشــون مشـيَ الأسـود الضَّـاريات إذا

هم بايعوا بيعةَ الرِّضْوان واتَّعدوا   لنَصْرِهِ موعداً ما فيهِ تأجيلُ

أ ـ من حُقوقِ هٰؤلاء الرِّجَال علينا :

* إنَّ علينا حقوقاً لهٰؤلاء الرِّجال ينبغي أنْ نعرفَها ، وأن نحافظَ عليها ونحفظها ، ونربِّي النَّاشئة علىٰ فحواها ومحتواها ، لنلقىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ معهم تحت لواء سيِّد السَّادات محمَّد ﷺ .

* فمن حقوقِ الصَّحابة جميعهم علىٰ الأُمَّة أمورٌ مهمَّةٌ من أبرزها ما يأتي :

أوّلاً : الإقرارُ بفضلهم العظيم ، والاعتراف بسبقهم الجسيم ، ومسارعتهم للإيمان بالدِّين القويم ؛ والعلْم اليقين بأنَّ حبَّهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ ، وبُغْضهم كفْرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ ، فهم خيرُ أمَّةٍ في خير القرون ، وأخشىٰ النَّاس لله بعد نبيِّهم ﷺ ، أنفقوا أموالَهم وما يحبّون في سبيلِ الله ؛ لينالوا البِرَّ ، وجاهدوا في ٱلله حقَّ جهاده ، وبذلوا أنفسَهم وباعوها له ليفوزوا ، فربحَ بيعُهم ورضي عنهم ، والحديثُ عنهم نورٌ علىٰ نور ، وحبُّهم تجارة لن تبور .

ثانياً : الدِّفاعُ عنهم بكلِّ سبيل ممكن ، فينبغي أنْ نعرفَ مكانتهم ، ونتأدَّبَ معهم ، فلا بدَّ من الذَّود عن حياضهم وأعراضهم ، وإجلال مواقفهم ومقامهم ، وإعلاء شأْنهم وأمرهم ، فهم أوفىٰ الأصحاب الأوفياء ، الذين دافعوا عن خيرِ الأنبياء ، وأحسنوا البلاغ والبلاء ، وصانوا ما أُمِروا به صيانةَ الأقوياء ، وحافظوا عليه حتَّىٰ وصل إلينا سالماً بعيداً عن عَبَثِ الخُلَطاء .

ثالثاً : الابتعادُ عمَّا شَجَر بينهم ؛ لأنَّ بعضَ النَّاس ـ ممَّن استخفَّ بهم الغرور ـ يوغلون في الحديث عمَّا شجرَ بين الصَّحابة ، فيرفعون هٰذا ـ بزعمهم ـ ويخفضون هٰذا ـ كما يحلو لهم ـ ، بل نصادفُ أنَّ أحلامَ كثيرين ، وأوهام مخذولين ، قد ضلَّت ضلالاً بعيداً ، فعمدوا إلىٰ سبِّ كبراء الصَّحابة ، وانتقاصهم ، وشتمهم ، وتناسوا قولَ الصَّادق المصدوق ﷺ في

النَّهي عن سبِّهم : « لا تسبُّوا أصحابي ، فإنَّ أحدكم لو أنفقَ مثل أُحدٍ ذهباً ، ما أدركَ مدَّ أحدهم ولا نصيفه »[١] . ومتىٰ كان السَّبُّ مِنْ سمات السُّلوك القويم ، أو مِنْ صفات مَنْ يحملُ رايةَ العِلْم والتَّعليم ، أو مَنْ يدعو بالحكمة إلىٰ السَّبيل المستقيم ؟ ! لقد صرنا نرىٰ مَنْ يتصدَّر المجالس فيجتهد ويسبُّ ويشتمُ أعيانَ الصَّحابة[٢] ، ويزعمُ أنَّه أصاب عينَ الصَّواب بمثل هـٰذه التَّفاهات والآفات ! ! ولـٰكنْ ؛ مهلاً ، إنَّ الفَرَجَ يتولّدُ منْ رَحِمِ الأزمات .

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصَّحابة برقم : (٢٥٤١) ، واقرأ شرح الإمام النَّوويّ رَحِمَهُ اللهُ لهـٰذا الحديث الشَّريف .

(٢) ممَّا يلفتُ الأنظار في هـٰذه الأيَّام ؛ أنْ ظهرَ عدد من تلامذةٍ بعض المُسلسلات والأفلام ، وصار معظمُهم من أهل الفتوىٰ والاجتهاد والأفهام . . . . فهـٰؤلاء (المُفْتُون المجتهدون ! !) ينفقون السَّاعاتِ الكثيرةَ ، وهم جالسون أمام الشَّاشات الصَّغيرة ، يشاهدون ما هبَّ ودبَّ من أفلام ومسلسلات دينية ـ مزعومة ـ ؛ وأحدهُم لا يدري [أَيَدوسُ أفعىٰ أمْ يلامسُ عقربا] ، ثمَّ يأخذُ هـٰؤلاء في إصدار أحكام وفتاوىٰ ، تضحكُ الثُّكالىٰ والحيارىٰ ، ويزعمون أنَّهم استقَوا (أحكامَهم المُوحِلة المُمْحِلة) ممَّا شاهدوه هنا وهناك ، وإذا ما أردتَ أنْ تصحِّح لهم المفاهيم المغلوطة رأيتهم يصدّون صدوداً عجيباً ، ويقولون بلسانٍ طويلٍ عريض : « هل أنتَ تفهمُ أكثر من المسلسلِ الفُلاني أو الفلم الفلاني أو كذا وكذا . . . . ! ! ؟ ! » .

ومن غرائبِ الأعاجيب العاجبة ، وعجائبِ الأمور الصَّاخبة ، أنَّ بعضَ مَنْ يعلنون التَّوبة مساءً علىٰ أوراق المجلاَّت ، أو وجوه الشَّاشات ، يفتُون صباح اليوم التَّالي بأعظم المعضلات ؛ ويصبحون ركناً ركيناً في إصدار الأحكام والفتاوىٰ وحلّ المشكلات ؛ وتنهال عليهم الاتّصالات ؛ من معجبين ومعجبات ، يسألون عن أمور لا يقدر الإجابة عنها إلا الجهابذة في الفقه والفَهم . . . . وإلا الرّاسخون في العلم ! ! !

نرجو ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يلهمنا الصَّواب ، وأنْ يتوبَ علينا جميعاً ، وأنْ يتقبَّلَ أعمالنا ، وأنْ يعفوَ عنّا ، وأنْ يعلّمنا ما ينفعنا ، وأنْ يدخلنا برحمته في عبادهِ الصّالحين .

ب ـ نقاطٌ بارزةٌ في منْهَج الكتاب :

* لمَّا شرعتُ في تصنيف هٰذه الرَّقائق ؛ مزجتُ المعنىٰ الفائق ، باللفظِ الرَّائق ، مع إيراد الحقائق ، والتزمتُ ـ بقدر الجهد ـ حدودَ المنهج العلميّ ، فاتَّبعت النُّقاط الآتية مستعيناً بِٱللهِ العليّ :

أُولاها : الجمعُ الوافي لمادَّة البحث في المصادر المتفرّقة ، وأعتقدُ أنَّ ما جمعتُه من معارف ، يجعلني أرتاحُ إلىٰ الجهد الذي بذلتُه ، وأنِّي أوضحتُ صورةَ كلِّ مَنْ ترجمتُ له ، وأبرزتُ الجوانبَ المهمَّة من حياته ، وجلوتُ الدُّروسَ المُسْتفادة منها بشكلٍ يوافق منهج الحقّ .

ثانيتُها : الحرصُ علىٰ انتقاء الأخبار الصَّحيحةِ ودقَّتها ، فكنتُ أقابلُ هٰذه الأخبار في المصادر علىٰ اختلافِ مشاربها ، وأختارُ منها ما وافقَ القرآن الكريم ، والسُّنَّة المطهَّرة :

وخيـرُ أمـورِ الـدِّيـن مـا كـان سُنَّـة وشـرُّ الأمـورِ المحـدثـات البـدائـعُ

ثالثتُها : دراسةُ بعض الأخبار دراسةً تقومُ علىٰ التَّعليل والتَّفسير ، وإيضاح الإشكال ، وبيان حياة الصَّحابي وتبيينها علىٰ نحو قريب من صورته في عصر الرِّسالة .

رابعتُها : نَقْدُ الأخبار التي تشيعُ الاضطراب في النُّفوس ، وتدعو إلىٰ الشَّكِّ في شخصيّات بعض الصَّحابة الذين ملؤوا الدُّنيا بأعمالهم العظيمة ، وأقوالهم القويمة ، والابتعاد عن العواطف التي تتضارب مع منهج العلم .

خامستُها : إغناءُ هوامشِ الكتاب بثمار الألباب ، وأزهار الآداب ، والتَّعليقات النَّفيسة ؛ والفوائد القيّمة ؛ والشُّروح التي تزيلُ اللبس ، وتوضِّحُ المبهمات ، وتعمِّقُ الفكرة ، وتُثري القارئَ ، وتغني الأحباب ؛ بما لذَّ للأسماع وطاب .

سادستُها : الدَّعوةُ إلىٰ الحقِّ ، فقد نعثرُ في حياةِ رجال عصر النُّبوّةِ علىٰ

بعض المواقف الحرجة ، فهٰؤلاء الرِّجالُ هم بشَرٌ يُصيبونَ ويخطؤون ، يحبُّون ويكرهون ، ولٰكنَّهم إذا دعوا إلىٰ الحقِّ فإنَّهم يثوبون ويرجعون ، وبحبلِ ٱللهِ يتمسَّكون ويعتصمون ، وعلىٰ طريقِ الهدىٰ يسيرون ويثبتون ـ رضي ٱلله عنهم وأرضاهم ـ .

ج ـ منهجُ البحثِ وخُطواتُه :

* كانَتْ خطّةُ البحث واضحةً سهلةً ، تضمَّنتْ مقدِّمةً ، وأربعةَ أبواب ، وخاتمةً ، وفهارسَ .

المقدّمةُ : بيَّنْتُ من خلالها المنهج الذي سلكتُهُ في إنشاء الكتاب ، ونبَّهتُ إلىٰ كثيرٍ من الفوائد المنوَّعة ، والمعلومات المهمَّة ، والمفاهيم القيِّمة التي تخصُّ رجال عصر النُّبوة ، وتذكرُ فضائلَهم وحياتَهم ، بالإضافة إلىٰ واجبنا نحوهم ، وكيف أثنىٰ اللهُ تعالىٰ عليهم فكانوا خيرَ أمةٍ أُخرجت للناس ، وكذلك كيف نالوا ثناء النَّبيِّ ﷺ ؛ إذ تربّوا في مدرسته المباركة ، فكانوا سادةَ الأمم .

البابُ الأوَّلُ
يحمــلُ عنــوان
« رجالٌ سـابقون من المهـاجرين »

* جُبْتُ مصادرَ كثيرةً متفرّقة ، وتأمَّلْتُ رياضها المونقة ؛ فوقع الاختيارُ علىٰ ستَّةٍ من كبار الصَّحابة السَّابقين إلىٰ دوحةِ الإسلام ؛ وهم : « أبو حذيفةَ بنُ عتبة ، وزيدُ بنُ الخطَّاب ، وعتبةُ بنُ غزوان ، وعثمانُ بنُ مظعون ، ومصعبُ بنُ عُمير ، ونُعيمُ بنُ عبد الله النَّحَّام » .

* تحدَّثْتُ عن دور هٰؤلاء الرِّجال في نشْرِ الدَّعوة إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، وكشفتُ النِّقاب عن فتوحاتِهم وآثارهم ، وكيف أثروا التَّاريخَ بجلائلِ الأعمال ، ولطائفِ الخصال ، ورقائق الأقوال ؛ فقد كانوا من كبار الصُّلحاء

الأخيار ، وممَّن ينتشر المسك طيباً إذا ذكرت عنهم بعض الأخبار ، فقد تألَّقَ كلُّ واحدٍ منهم في جانبٍ كريم ، فمنهم مَنْ سما بالجهاد ، أو سعىٰ في فتح البلاد ، ومنهم مَنْ أبدعَ في مضمار الدَّعوة إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، أو عمل المبرَّات ، ومنهم من عُرِفَ بالعلْم والمكارم والعبادات .

* افتتحتُ هـٰذا الباب بسيرة أبي حذيفةَ بنِ عتبةَ ، وهو رجلٌ من عليةِ قريش أخلصَ بكيانهِ للهِ ورسوله ؛ كان من السَّابقين الأوَّلين من أصحابِ الهجرتَيْن ، وممَّن صلّىٰ القبلَتَيْن ، وحضر المغازي جميعها بالمعيَّةِ النَّبويَّةِ ، وله من المواقفِ العليَّة ، والمقامات الجليَّة ، ما جعلته من طبقةِ فضلاء الصَّحابة ؛ وله يومُ اليمامة أثرٌ محمود ، فقد صَعِدَتْ روحُهُ إلىٰ بارئها تحملُ علامة الشَّهادة في سبيله ، ولقي اللهَ وهو يهتفُ بالمجاهدين الأبطال : « يا أهلَ القُرآن زيِّنُوا القرآن بالفعال » .

* وتسكبُ سيرة زيد بن الخطَّاب في الوجدان ؛ أجمل المواقف التي تمتعُ الأسماع وتروي الأبدان ؛ لِما فيها من سواجعِ الألحان ، فهو من فرسانِ المدرسةِ النَّبويَّة الشُّجعان ، وممَّن شهد بدراً وأحداً والخندقَ وبيعةَ الرّضوان ، ومات شهيداً وهو يقاتل المرتدِّين وأهل الطُّغيان ؛ وهو قاتلُ الرَّجَّال بن عنفوة مستشار مسيلمة الكذَّاب الجبَان ، وكان عمرُ بنُ الخطَّاب عليه سحائب الرّضوان ، يقولُ عن أخيهِ زيدٍ مقالةَ رجُلٍ ولهان : « أسلمَ قبلي ، واستُشهد قبلي ، وما هبَّتِ الصَّبا إلا وأنا أجدُ منها ريْحَ زيد » ، أسكنَه اللهُ أعالي الجنَان .

* وتحدثْتُ عن سيرةِ عتبةَ بنِ غزوان ، أحد السَّابقين إلىٰ نور الرَّحمـٰن ، وأحد الرُّماة المذكورين ، وأحد أمراء الغُزاة الفاتحين الزَّاهدين ، الذين تركوا في الدُّنيا دوياً مَلأَ سمْعَ المحبِّين ، فرضي ٱلله عنه وعن الصَّحابة أجمعين .

* وتأْتي سيرةُ الحَيي السِّتّير عثمان بن مظعون فَنَتَعَلَّم منها الصَّبرَ علىٰ البلاء ، ونستلهم منها جميع صور الوفاء ، فقد كان هـٰذا الرَّجلُ من خيْرةِ السَّلَف الصَّالح ، وهو أوَّلُ مَنْ دُفنَ بالبقيع ، في حياة المشفَّع الشَّفيع ﷺ ،

وأخبارهُ وأحوالهُ تشهدُ له بالفضلِ والمكارمِ ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ .

* وتَنْحَني الهاماتُ أمامَ السِّيرة المُصْعبيَّة ، وتعجزُ الأقلامُ عن الإحاطةِ بسيرتهِ النَّديَّة ، فمصعبُ بنُ عُمير هو الشَّابُّ الجميلُ العاقلُ الحصيفُ ، وهو السَّفيرُ النَّبويُّ النَّاجحُ الأليف ، علَّمَ أهلَ المدينة القرآن ، وشهد بدراً مع جنود الرَّحمٰن ، وحظي بالشَّهادة يوم أحد فاصطفاه المنَّان ؛ ليكون في الجِنَان ، وسيرتهُ مزدانةٌ بالمواقف التَّربويّة الهادفة ، وأخبارهُ تصلحُ أن تكونَ زاداً لشباب الإسلام في كلِّ زمانٍ ومكان ، وقد ذكرناها في تضاعيفِ سيرته المباركة ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ .

* أمَّا ختامُ الباب ؛ فكان عن نُعيمِ بنِ عبد ٱلله النَّحَّام ، صاحب الشَّمائل اللطيفة ، والخصائل الحصيفة ، كان بارّاً بأيتام قومه ، وكان مُوقظ سيِّدنا عمر بن الخطَّاب من غَفْوتهِ ، وسبب دخوله في الإسلام ، وسيرةُ نُعيم ممتعةٌ ممرعة ، نفَعَنا اللهُ بها .

البابُ الثَّاني

يحمل عنوان

« رجالٌ سابقون من الأنصار »

* ترجمتُ خلالَه لثلاثةٍ من مشاهير السَّابقين من رجالِ الأنصار وأعيانهم وخيارهم ، وهم : « أسعدُ بنُ زرارة ، وأُسيدُ بنُ الحضير ، وخُبيبُ بنُ عديّ » ؛ وكانت مساحةُ الحديث عنهم ضافيةً مفيدةً ، فلكلٍّ واحدٍ منهم سجلٌّ حافلٌ بالعطاء ؛ وصحائف مندّاة بالفداء .

* بدأْتُ البابَ في صحبةِ أسعد بن زرارة أحد النُّقباء الأخيار ليلةَ العقبة ؛ وأحد أجواد الأنصار وكبرائهم ، فأسهبتُ في سيرتهِ المونقة ، ونوَّهْتُ إلىٰ أنَّ بيتَه كان مصدرَ إشعاعٍ وهدايةٍ ، وينبوعَ نُورٍ وبصيرة ، فمنه استهلَّ مُصعبُ الخير دعوتَه إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وكان أسعد الخير عارفاً بأحوالِ قومه ، فيدلُّ مُصْعباً عليهم ، فكانت حصافتُهُ وخبرته سبباً في دخولِ سادةِ الأنصار في

دين ٱلله ، كما كان لأسعد موقفٌ نبيلٌ ، ومقامٌ جليل ، في بيعةِ العقبةِ الكبرىٰ ، وأخبارهُ ترشدُ المحبِّين في مجال الدَّعوة إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، وتنفعُهم في مجال الإيثار والصَّفاء .

* وكانَ الكلامُ حُلواً عن أسيد بن الحضير ، فهو أحدُ السَّادات الكملة ، وأحدُ الرِّجال الفُضلاء الذين عُرفوا بجودة الرَّأي ، والفراسة ، وكان ميمون النَّقيبة ، استطاع أنْ يجتذبَ سعدَ بنَ معاذ إلىٰ دائرةِ الإسلام وحياضِهِ ؛ ولأسيد كراماتٌ ثابتةٌ في الصَّحيحَيْن وغيرهما ؛ وله أحوالٌ صافيةٌ مع العبقريّ الصَّافي سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ، وهٰذا كلُّه منثورٌ في رياض سيرته الجامعة ، ذات الدُّروس النَّافعة .

* وتطلُّ السِّيرةُ الخُبيبيّةُ بأنسامها المنعشةِ ؛ لنستلهمَ منها روح محبَّته الصَّادقة للنَّبيِّ ﷺ ، ووفائه له ، وذلك في موقفٍ خطير ، أدهشَ مَنْ حوله من المشركين ، وعلموا أنَّ الإسلامَ دينُ حقٍّ ، فقد كان خبيب بنُ عديّ ينشدُ والموتُ قريبٌ منه قاب قوسين أو أدنىٰ :

ولستُ أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً ... علىٰ أي جنْبٍ كان في اللهِ مصرعي

البابُ الثَّالثُ
يحمل عنوان
« رجالٌ أسلموا عامَ الفَتْح »

* تضمَّنَ هٰذا البابُ ترجمةَ خمسة رجال من كبراء الصَّحابة وأغنيائهم ممَّن أسلمَ عام الفتح ، وهم : « أبو العاص بنُ الرَّبيع ، وجُبيرُ بنُ مُطْعِم ، وحكيمُ بنُ حِزام ، وسُهيلُ بنُ عمرو ، وصفوانُ بنُ أميَّة » ، وقد أفضتُ في الحديثِ عمَّا قدَّم كلُّ واحدٍ من هٰؤلاء الرِّجال للإسلام حينما مَنَّ اللهُ عليه بالهداية ، وأومأتُ إلىٰ أنَّهم كانوا ممَّن أسهمَ في كثيرٍ من الأعمال النَّاصعة التي جعلتهم خالدي الذِّكْر علىٰ مرِّ الزَّمان ، كلُّ هٰذا بفضل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ثمَّ بفضل رسولهِ ﷺ ؛ الذي ربَّىٰ هٰؤلاء الآساد الأسياد النُّبلاء ، الذين بلغوا بمجدهم متْنَ الجوزاء .

* أوردْتُ في البداية سيرةَ أبي العاص بن الرَّبيع ؛ صِهْر النَّبيّ المشفّع الشَّفيع ﷺ ، وهو رجلٌ عُرِفَ بالأمانةِ والصِّدقِ والوفاء ، وسردْتُ قصَّة حياتِهِ من الجاهليَّة إلىٰ أنْ شرح ٱلله صدره للإسلام ، وشرحتُ كيفَ عاش في المدينةِ تحوطُهُ الرِّعايةُ النَّبويَّةُ ، وكانت سيرتُه مزدانةً بالعطاء ، وفيها كثيرٌ من الأحكام والحِكمِ المفيدة المعطاء .

* ثمَّ تكلَّمْتُ عن جُبير بنِ مُطعم الرَّجُل الشَّهم العالِم المُعَمَّرِ ، وعن انتقالهِ من ظُلمات الوهمِ ، إلىٰ بركاتِ العِلْم ، وأشرتُ إلىٰ حفاوةِ النَّبيِّ ﷺ بِجُبير ، وأبرزتُ بعضَ الدروس الهادفة التي استخلصتُها من سيرتهِ الخصبة ؛ لتكونَ منارة هدىً لمن يحبُّ إحقاقَ الحقِّ ، ووضع الأمور في نصابها .

* وانتقلْتُ إلىٰ مضمار الحكمةِ والمعرفة ، فعشتُ مع سيرة حكيم بنِ حِزام الذي وُلدَ في جوفِ الكعبة ، وتطرقْتُ إلىٰ أخباره التي تُعدُّ جزءاً مهمّاً من أحداثِ السِّيرة النَّبويَّة ، وبالجملة ففي سيرته كثيرٌ من المعارف التي تمدُّ محبَّ الصَّحابة بالفرائد والفوائد والقلائد .

* وتزوِّدُ سيرةُ سُهيل بن عمرو العامريِّ محبّي الصَّحابة ، بشيءٍ من الإشراقاتِ اللطيفة ، فقد كان خطيبَ قريش السَّابق ، ولسانها النَّاطق ، وقصَّتُه جميلةٌ مشهورةٌ يوم الحديبية ؛ أمَّا مواقفه بعد أنْ أسلمَ فتشهدُ له بالفَضْل والسِّيادة ؛ والنُّبْل والرِّيادة .

* ويأتي ختام الباب موشًى مصفًّى بسيرةِ صفوانَ بنِ أميَّة الذي فتحَ ٱللهُ عليه عام الفتح ، وذكرتُ كيف سَعِدَ بالإسلام ، ولقي الإنعام ، من سيِّد الأنام محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام .

البابُ الرَّابعُ
يحمل عنوان
« رجالٌ منْ قبائلَ شتَّىٰ »

* تمَّ الحديثُ من خلال هٰذا البابِ الموثقِ عن ثمانية من الصَّحابة

البررة ، ممَّن كانت لهم كثيرٌ من الأخبار المشتهرة ، وأعمالٌ بارزة بالفَضْل مزهرة ، في بناء صَرْحِ حضارة الإسلام ، وهـٰؤلاء الأعلام : « ثمامةُ بنُ أُثال ، وجريرُ بنُ عبد ٱلله ، وخَبَّابُ بنُ الأرت ، ودحيةُ بنُ خليفة ، وسراقةُ بنُ مالك ، والطُّفيلُ بنُ عمرو ، وعُميرُ بنُ وهْب ، ونُعيمُ بنُ مسعود » ، وقد ألقيتُ الضَّوء علىٰ جوانب حياتهم ؛ ليتعرَّفَ المحبُّون ما قدَّموه للإسلام علىٰ الرُّغم من المصائبِ والمصاعبِ التي اعترضَتْ طريقهم ؛ فَتَخَطوْها وهم ثابتون علىٰ منهج الحقّ ؛ مهتدون بسنَّة خير الخلْق ﷺ .

* افتتحتُ الكلامَ عن ثمامةَ بنِ أُثال الحنفيّ ، البطل الكميّ ، والرَّجل الأبيّ ؛ الذي اجتذبتْهُ أنوارُ الإسلام ، ومعاملةُ سيِّد الأنَام ، فغدا من أبطالِ المسلمين ، ومن جنودهِ الميامين ، وقد استوعبَتْ كتبُ الحديث المعتمدة قصَّة ثمامة ، فساقَتْها مفصَّلةً مع الدُّروس المُستفادة منها .

* ودلفْتُ إلىٰ سيرةِ جريرِ بنِ عبد اللهِ البَجَليّ ، الرَّجلُ البهيّ ؛ الذي أسلمَ في عام الوفود ، وحظيَ بدعاءٍ مباركٍ من صاحبِ الحوضِ المورود ، كان جريرُ مجاهداً مظفَّراً وفتحَ عدداً من البُلدان والأمصار ، وله روايةُ أحاديث منثورة في كتب الحديث والآثار .

* وتحدْثتُ عن خبَّابِ بنِ الأرتّ المُعلِّم الهُمام ، وعن رحلتهِ العظيمةِ مع أنوار الإسلام ، وأبرزتُ آثارَهُ النَّبيلة ، وأخباره الجليلة ، كما رسمْتُ صورةَ جهادهِ وثباته ، وسقْتُ بعضَ مرويَّاته ، ودللتُ علىٰ الاستفادة من مسيرة حياته .

* وكان الحديثُ مفيداً عن دحيةَ بنِ خليفةَ الكلبيّ ، فهـٰذا الرَّجلُ كان يُشَبَّه بجبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وسيرتُه غنيةٌ ببدائع الأخبار ، وطاقات الأزهار ، وفيها مواقفُ أرقّ من نسمات الأسحار .

* صُغْتُ سيرةَ سراقةَ بنِ مالك المدلجيّ بطريقة تربويَّة ؛ فبسطْتُ الكلامَ عن موقفه يومَ الهجرة النَّبويَّةِ ، وأوضحتُ جانباً من دلائل النُّبوَّة في سيرته ،

وكيف رافقتْهُ العنايةُ الإلـٰهيَّةُ إلىٰ آخر حياته ومسيرته .

* ولمْ تَخْلُ قصَّة الطُّفيلِ بنِ عمرو الدَّوسي من فوائدَ جامعةٍ ؛ وحكَمٍ نافعةٍ ، تفيدُ كلَّ محبٍّ للصَّحابة ؛ ومنها اهتداؤهُ إلىٰ الحقِّ في قصَّةِ إسلامهِ التي تكسوه ثوباً من المهابة .

* وتكشِفُ سيرةُ عُميرِ بن وهْب الجُمحيّ كثيراً من الجوانب المشرقةِ في مسيرة السِّيرةِ النَّبويَّة ، كما أنَّها تكشفُ عن التَّربيةِ النَّبويَّة الهادية لمن جاء يريدُ الحقَّ في أي ثوب كان ، فَسيرةُ عميرِ بنِ وهْب تثري النَّفْسَ بالصَّفاء والنَّقاء ، وفيها عظاتٌ وعبرٌ تنفعُ المحبِّين والأصفياء .

* وختمتُ الرِّحلةَ في الحديثِ عن نُعيمِ بنِ مسعود الأشجعيِّ ، وقصَّة إسلامه ، وركوبه كلَّ صعب في سبيلِ إعلاءِ كلمةِ ٱللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وبذْر الشَّكِّ بين صفوف الأحزابِ في غزوةِ الخندق ، وكيف نتعلَّمُ من سيرته جوانبَ ناجحة في نصرةِ الإسلام ورسولِ الإسلام .

* اللهمَّ كما صلَّيت علىٰ سيّد الأنام ، خاتم الأنبياء الكرام ، ألهمنا أنْ نُصلّي عليه علىٰ الدّوام ، وارزقنا الاتّباع ، وجنّبنا الابتداع ، واصرف عنّا سوء القضا ، وانظر إلينا بعين الرضا ، وانفعنا بسير الصّلحاء ممن مضىٰ .

د ـ مصَادرُ الكتاب وتحليلُهَا :

* المصَادرُ والمراجعُ التي استقيتُ منها الكتاب كثيرةُ المنابع ، لم أذكرْ منها في ثَبْتِ المصادر سوىٰ شطرٍ يسير منها ، وقد اطَّلعْتُ علىٰ عددٍ منها ، ثمَّ طرحتُه دون أنْ أستقيَ منها فائدةً أروي بها الغلَّة ، ثمَّ أجوبُ واحاتِ مصادرَ أخر ، وآخذُ في البحث والتَّنقيب حتَّىٰ أَجِد ما يروي الظَّمأ ، ويشفي القَلْب ، ويريحَ الضَّمير ؛ ولله درُّ من أشادَ بجمال الكتب وفائدتها فقال :

جـزىٰ الله عنَّـا الكتـبَ خيـراً فـإنَّهـا ... تنـمُّ أحـاديـث الحبيـبِ بلفظـه
فمـوقعهـا أحلـىٰ مـن المـاء للـذي ... بـه ظمـأٌ وقْـتَ الهجيـرِ وقيظـه

* ويحسُنُ بنا أنْ نصنِّفَ أنواع المصادر التي عُدنا إليها في هـٰذا الكتاب ،

ونجدها مقسَّمة علىٰ بضعة أنواع ؛ لكثرتها وتنوّعها ؛ ومنها :

١ ـ القرآنُ الكريمُ وتفسيرُهُ .

٢ ـ الحديثُ النَّبويُّ وعلومُهُ .

٣ ـ كتبُ السِّيرةِ والمغازي .

٤ ـ كتبُ التَّراجم والطَّبقَات .

٥ ـ كتبُ التَّواريخ والبُلدان .

٦ ـ كتبُ الأدبِ واللغة .

* وإليكَ تحليلُ هٰذه المصادر بشيءٍ من الإيجاز :

أوَّلاً

القرآنُ الكريمُ وتفسيرهُ

* كتابُ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو المصدرُ الأوَّلُ في دنيا المصادر ، إنَّه كلامُ ٱلله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فُصِّلَتْ : ٤١ ـ ٤٢] .

* إنَّ مَنْ يحفظْ هٰذا الكتاب المبارك ، يجدْ فيه ثناء ٱلله تعالىٰ علىٰ رجالِ عَصْرِ النُّبوَّة في مواضعَ كثيرةٍ ، ومن أدلَّةِ ذلك قولُ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ [النور : ٣٧] ، وقولُه : ﴿ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ ... ﴾ [الأحزاب : ٢٣] ، وقولُه : ﴿ وَلَوۡلَا رِجَالٌ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤۡمِنَٰتٌ ... ﴾ [الفتح : ٢٥] ، وقولُه : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ... ﴾ [الفتح : ٢٩] ، وغيرها كثير . . . نلاحظُ أيضاً أنَّ القرآنَ العظيمَ أشارَ إلىٰ إخلاص هٰؤلاء الرِّجال الأفذاذ ، ونوَّه إلىٰ تمام ولائهم لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولرسوله ﷺ ، كما صرَّح بكمالِ إيمانهم ، فقال ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴾ [الأنفال : ٧٤] ، وذكر أيضاً

كريمَ خصالِهم ، ولطيفَ شمائلهم ، وعظيمَ جهادهم وصبرهم ، وغير ذلك من مكارم .

* وتَأْتي كتبُ التَّفسير الكثيرة ، فتمدّنا بمعلوماتٍ ذات قيمة كبيرة عن هٰؤلاء الرِّجال الأخيار ، ونستجلي في مقدمة هٰذه التَّفاسير : « تفسير الطَّبريّ » ، و« تفسير ابن عطيَّة » ، و« تفسير القُرطبيّ » ، و« زاد المسير » ، و« التَّفسير المُنير » ، وغيرها ، وقد ساقت هٰذه الكتب من فضائل الصَّحابة ما تكتحلُ بقراءته العيون ، ويُسرُّ به المعجبون ، ويستمتعُ به المستمتعون .

ثانيـاً

الحديثُ النَّبويُّ وعلومُه

* حفلَ الصَّحيحان وكتبُ الحديث الأخرىٰ بأخبار عصر النُّبوَّة ، فاحتفَتْ بشطرٍ من فضائِلهم ومناقبِهم وجهادِهم ، وفصَّلَتْ في كثير من الأحيان جوانبَ مهمَّة من حياة بعضهم قد لا نراها في كتبِ التَّراجم والطَّبَقَات ؛ ثمَّ جاءت شروحُ كتب الحديث ، ورفدتِ المتعلِّمين بمعينٍ غزيرٍ من المعارف النَّادرة الدَّقيقة التي غابتْ عن المصَادر الأخرىٰ .

* يتصدَّرُ هٰذه الشُّروح اليانعة الماتعة كتاب : « فتح الباري بشرح صحيح البخاري » لابن حجر العسقلاني ، فقد جوَّدَ وتألَّق وتأنَّق في هٰذا الشَّرح الوافي ، وفتح اللهُ عليه فتوحات طيّبة ، وأوردَ فوائد وإضافات قيمة ، جلَتْ كثيراً من المشكلات ، ودلَّت علىٰ ينابيع الخيرات .

* وكذلكَ جاب النَّوويُّ سماءَ المعارف ؛ في شرحه المُحكم الجميل « المنهاج » لصحيح مسلم بن الحجَّاج ، فقد وشَّىٰ شرحه ببدائع الفوائد ، ومنثورِ القلائد ، ودلَّ علىٰ كثير من المحاسن ، وظهرت محبّته للصَّحابة الكرام ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ .

* أضِفْ إلىٰ ذلك ما جاء من تُحفٍ مفيدةٍ تستحوذُ علىٰ الإعجاب في « سُنَن التِّرمذيّ » ، كذلك ما جادَ به المعبودُ من عونٍ في « شرح سُنن

أبي داود » ، وغير ذلك من شروحٍ في كتبِ السُّنن الأخرىٰ ، بالإضافة إلىٰ المعلومات المهمَّة التي تضمَّنَتْها المسانيد ، وفي مقدّمتها : « مسند الإمام أحمد » ، و« مسند أبي يعلىٰ » ، و« مسند الشِّهاب » ، وغيرها ، وكذلك : « معجم الطَّبرانيّ الكبير » ، و« صحيح ابن حِبَّان » ، و« مجمع الزَّوائد » للهيثميّ ، ثمَّ ما جاء من دراساتٍ قديمةٍ وحديثةٍ فيما يتعلَّق بالحديث النَّبويّ وعلومه .

ثالثاً

كتبُ السِّيرة والمغازي

* تُعَدُّ مصادرُ السِّيرة النَّبويّة ، وكتب المغازي والشَّمائل من الدَّعائم الأساسيَّة الثَّابتة في إنشاء هـٰذا البحث ؛ إذ نستخرجُ من كنوزها جواهرَ علميَّة لا يُستهان بها من المعارفِ والأخبارِ والأحداث والغزَوات في عصر الرِّسالة ، فهي تكشفُ النِّقاب عن محاسن وشمائل كثير من الرِّجال الذين أسلموا منذ مطلع فَجْرِ أنوار الإسلام ، إلىٰ حين انتقال الصَّادق المصدوق ﷺ إلىٰ الرَّفيق الأعلىٰ ، وشرحَتْ أحوالَ هـٰؤلاء الرِّجال ، وما قدَّموه من جلائل الأعمال ؛ لتكون كلمة ٱلله هي العُليا ، وكلمة الذين كفروا السُّفلىٰ ، كما أنَّ هـٰذه الكتب قد أسفرتْ عن كثيرٍ من جُمَان الأدبيَّات المفيدة التي توضِّحُ بعضَ الأحداث والأخبار ، ومنها ما وردَ عن غزوةِ بدر ، وأُحُد ، والخندق ، وحُنين وغيرها من غزوات وسرايا وفتوحات في الشَّرق والغرب .

* ومنْ مصادر السِّيرةِ المهمَّةِ كتاب : « السِّير والمغازي » لابن إسحاق ، و« السِّيرة النَّبويَّة » لابن هشام ، و« الرَّوض الأُنُف » للسُّهيليّ ، و« زاد المعاد » لابن قيِّم الجوزيَّة ، و« سبل الهدىٰ والرَّشاد » للصَّالحيّ ، و« المغازي » للواقديّ ، و« المغازي النَّبويَّة » لابن شهاب الزُّهريّ ، وغيرها من كتب السِّيرة القديمة والمعاصرة ، مع دراسات متنوّعة عن فقه السِّيرة وصحيحها .

رابعـــاً

كتبُ التَّراجم والطَّبقات

* ترسمُ هـٰذه المصادرُ للباحث والكاتب صورةً مجلوّةً عن الرَّجل الذي يترجم سيرته ، فتذكرُ اسمه ، ونسبه ، وقبيلته ، ثمَّ تتحدَّثُ عن إسلامه ، وتشيرُ إلىٰ مكانته في عالم الرِّواية ، ومضمار العلْم والفقه ، كما تسوقُ طاقةً من أبرز أعماله ؛ وأشهر أقواله ، وأجمل خصاله ، وأكرم خلاله .

* مِنْ هـٰذه المصادر الكثيرة ، كتاب : « الاستيعابُ في معرفة الأصحاب » لابن عبد البرِّ ، و« أُسدُ الغابة في معرفة الصَّحابة » لابن الأثير ، و« الإصابةُ في تمييز الصَّحابة » لابن حجر ؛ ومن كتُب الطَّبقات : « الطَّبقاتُ الكبرىٰ » لابن سعد ، و« سيرُ أعلام النُّبلاء » للذَّهبيّ ، و« وفَيَات الأعيان » لابن خَلِّكان ، وغير ذلك من مصادرَ أخرىٰ في هـٰذا الشّأن .

خامســـاً

كتبُ التَّواريخ والبُلدان

* اهتمَّتْ كتبُ التَّواريخ بتقديم مجموعة من المعلومات الموثَّقَة عن الشَّخصيَّة المُترجم لها ؛ وما أحاط بها من أخبار وأحداث ، ومن جوانب سياسيَّة وعسكريَّة وعلميَّة وأدبيَّة ، كما تحدِّدُ الأماكنَ التي قامَتْ علىٰ أرضها المعارك والفتوحات ، وتضبطُها ضبطاً دقيقاً ، وتذكرُ كذلك منازل الصَّحابة في البُلدان التي فتحوها ، وتعطي معلوماتٍ في غاية الأهميَّة تمدُّ الباحث بكنوز علميّة تثري عمله ، وتغنيه بالمفيد .

* ومن الكتب المهمَّةِ في هـٰذا المجال الرَّحب : « تاريخ الطَّبريّ » ، و« كاملُ ابن الأثير » ، و« بدايةُ ونهايةُ ابن كثير » و« تاريخ الإسلام » للذّهبيّ ، و« معجم البُلدان » لياقوت الحمويّ ، وغيرها كثير جداً .

سادساً

كتبُ الأدب واللغة

* هـٰذه مصادرُ لطيفةٌ مغْنَاجٌ غنيّة ؛ فيها إضاءاتٌ تنيرُ طريق العمل ، وتسهمُ في حلِّ بعض المفاهيم التي غابت عن المصادر الأخرىٰ ، وتوشّي الكتاب بحلىٰ الأدب وجواهره ولآلئه ، وتربّي الملكات اللغوية وتصقُلها ، وتساعدُ علىٰ تذوّق الكلام الفصيح ، وتدلُّ علىٰ جمال المعاني والألفاظ .

* وهـٰذهِ المصادرُ كثيرةٌ جدّاً لا تُحْصَر ، ومنها : كتابُ « عيون الأخبار » لابن قتيبةِ ، و« العقدُ الفريد » لابن عبد ربّه ، و« محاضرات الأدباء » للرَّاغب الأصبهانيّ ، و« البيانُ والتَّبيين » للجاحظ ، و« بهجة المجالس » لابن عبد البرِّ ؛ بالإضافة إلىٰ دواوين كثيرة جداً لعدد من الشُّعراء القدماء والمعاصرين ، كما رجعت إلىٰ مصادرَ كثيرةٍ متنوعةٍ أسهَمتْ في تكوين الكتاب وتوثيقهِ وتوشيحهِ وتشييده .

* وقُبيلَ الختام أودُّ أنْ أشيرَ إلىٰ أنَّني لمْ أتعاملْ مع المصادر حسْب قدمها الأوّل فالأوّل ، وإنَّما كنتُ آخذُ المصدرَ الذي اهتمَّ بأخبار الصَّحابي أكثر من مصدر آخر . فمثلاً أجدُ أنَّ ابنَ الأثير (ت : ٦٣٠ هـ) في « أسد الغابة » قد استوفىٰ سيرة صحابي ما ، أكثر من ابنِ سعد (ت : ٢٣٠ هـ) في « الطَّبقات الكبرىٰ » ، علْماً بأنَّ ابنَ سعد أسبقُ من ابن الأثير بمئات السِّنين .

* وكذلك كنتُ أتناولُ خبراً جاء في السِّيرة عند ابن سيِّد النَّاس (ت : ٧٣٤ هـ) في كتابه « عيون الأثر » ، أو محمَّد بن يوسُف الصَّالحيّ الشَّاميّ (ت : ٩٢٢ هـ) في كتابه « سبل الهدىٰ والرَّشاد » ، ولا آخذه من ابن هشام الحِميريّ (ت : ٢١٨ هـ) في كتابه الشَّهير « السِّيرة النَّبويَّة » ، وهـٰكذا دواليك .

* ثـمَّ إنِّـي ضبطـتُ بـالشَّكْـل : أسمـاء الأعـلام بعـامَّـة ، والبُلـدان ، والأماكن ، كذلك ضبطتُ الألفاظَ معظمَها ؛ لئلا يقعَ في الغلط مَنْ يريدُ

القراءة ، أو يتردَّد في المطالعةِ متردِّد ، لكي يستمرَّ القارئُ في القراءة دون أنْ يتعثَّر في كلمة واحدة .

* ونبَّهْتُ إلىٰ بعضِ الأوهام التي يقعُ فيها بعضُ النَّاس ، كما نبَّهْتُ إلىٰ بعض الأغاليط التي عانقَتْ قصص بعض الصَّحابة ، وأصبح كثيرٌ من النَّاس يعدُّها حقيقةً لا نقاشَ فيها ، ولا جدالَ في حيثياتها ؛ فالإشارةُ إلىٰ مثل هـٰذه الأمور تفيدُ محبِّي صحابةِ رسولِ ٱلله ﷺ ؛ الذين بذلوا الغالي والنَّفيس في سبيل إحقاق الحقّ ، وإتحاف الخَلْق ، بما تواتر من صحيح عن رسول ٱلله ﷺ .

* وأحبُّ أنْ أذْكُرَ وأُذكِّرَ بأنَّ للعِلْمِ حقّاً ـ علىٰ ناقليه وكاتبيه ـ أنْ يضبطَ ويتقنَ عند أدائهِ وتعليمهِ ونقله ، فنسألُ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يوفِّقنَا إلىٰ هـٰذا الأمر المهمّ ، وأنْ يسدِّدَ أقوالنا وأفعالنا لنكونَ من المفلحين .

* وأرجو من القارىءِ الكريم ـ الذي أحببتُه في ٱلله ـ إنْ قرأَ واستمتعَ وانتفعَ بما في هـٰذا الكتاب ، أنْ يدعو لي دعوة صالحة بظهر الغيب تعودُ عليه وعليَّ بالنَّفع والخيرِ الجزيل ، فٱلله عزَّ وجلَّ يقولُ في محكم التَّنزيل : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ، فاللهُ عزَّ وجلَّ يجيبُ دعوة الدَّاعي إذا دعاه .

* نرجُو ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يغفرَ لنا زلاَّتنا ، ويسترَ عوراتِنا ، ويدخلَنا برحمته في عباده الصَّالحين ، فهو أرحمُ الرَّاحمين .

* ومع أنسام الختام ، أودُّ أنْ أسجِّل شكراً للأستاذ الهمام « **علي ديب مستو** » (**أبو مالك**) صاحب دار ابن كثير العامرة بدمشق الفيحاء ، الذي آلىٰ علىٰ نفسه أن ينشرَ كنوزاً نافعةً من التُّراث الإسلامي ، وأنْ يسهمَ في رعاية أهل العلم ، وقد لمستُ من اهتمامه في هـٰذا المضمار ، ما هو فوق الثَّناء والامتداح ، فكأنَّ بينه وبين العلم وشيجة قربىٰ ، نسأل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يزيدَ من إنعامه عليه ، وأن يرحمه ويرحمنا يوم القدوم عليه .

* وأشكر كذلك الأستاذ « **محمود الجعبري** » (**أبو حمزة**) الذي داعبت

أنامله حروف هٰذا الكتاب وهو ينضده ، حتَّىٰ خرج في هٰذه الحلة القشيبة الجميلة اللائقة ، فجزاه الله خيراً ، وأحسن إليه .

* والشُّكرُ ذاتُهُ موصولٌ إلىٰ ابني الحبيب « **نور الدِّين جمعة** » (**أبو أحمد**) ؛ الذي قرأ مجملَ الكتاب ، وأشار إلىٰ بعض النَّصائح ، وأرشدَ إلىٰ الصَّواب ، فجزاهُ ٱلله خيرَ الجزاء ، وأجزل له الثّواب ، وجعله ممّن يعرفون حقّ الأصحاب ، الذين رضي ٱلله عنهم في مُحكم الكتاب .

* يا ربِّ : ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ [الأعراف : ١٥٥] .

* اللهُمَّ وفّقْنا لخير العمل ، واعصمْ ألسنتنا من الزَّلل .

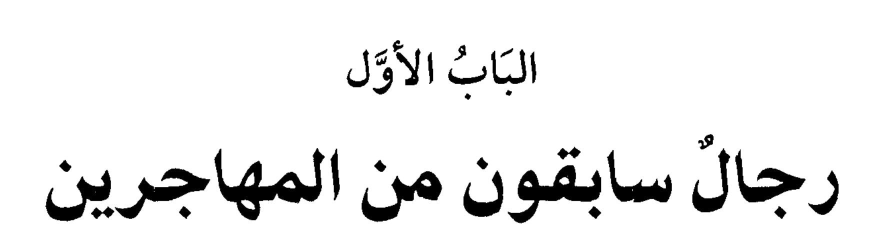
* اللهُمَّ أنت وليّنا في الدُّنيا والآخرة ، توفَّنا مُسلمين ، وألحقنا بالصَّالحين .

* اللهُمَّ اجعلْ آخرَ كلامنا : « لا إلٰه إلا ٱلله ، محمَّد رسول ٱلله » .

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

دمشق ـ حرستا ـ حي الشَّيخ موسىٰ
١ محـــرم ١٤٢٩ هـ
٩ كانون ثاني ٢٠٠٨ م

وكتَبَ
خادمُ الصَّحابةِ ومحبُّهم
أحمد خليل جمعة

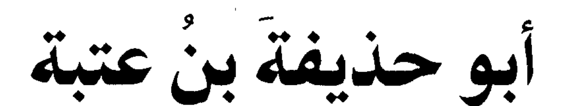


البَابُ الأوَّل

رجالٌ سابقون من المهاجرين

* أبو حذيفةَ بنُ عتبة رضي ٱلله عنه .
* زيدُ بنُ الخطاب رضي ٱلله عنه .
* عتبةُ بنُ غزوان رضي ٱلله عنه .
* عثمانُ بنُ مظعون رضي ٱلله عنه .
* مصعبُ بنُ عُمير رضي ٱلله عنه .
* نُعيمُ بنُ عبد ٱلله رضي ٱلله عنه .



أبو حذيفةَ بنُ عتبة

رضي ٱلله عنه

* من السَّابقين الأوَّلين ؛ ومن أصحاب الهجرتَيْن ؛ وصلَّىٰ القبلَتَيْن .
* كان من فرسانِ الإسلامِ ؛ وله شأْنٌ عظيمٌ في المغازي .
* استُشهِد باليمامةِ وهو ينادي : « يا أهل القُرآن زيِّنوا القرآن بالفعال » .





أبو حُذيفةَ بنُ عتبة
رضي ٱلله عنه

مع أنْداء السَّابقين :

* كان أبوهُ من ساداتِ قريشٍ وأشرافها ، وذوي أحكامها ، وكان يُقَال له : « السَّيدُ المُمْلِق » ، وكان أميَّةُ بنُ أبي الصَّلت يتوهَّمُ أنَّه يكون نبيّ هٰذه الأمَّة ، فلمَّا جاء الإسلامُ أدبرَ رأيه هو وأخوهُ وابنُه ، وكانوا أوَّلَ المقتولين من المشركين يومَ بدر علىٰ الرّغم من أنَّهم ذوو حَسَب تليد ، وباع في المجد طويلٍ مديد .

* إذن فمن الابنُ الكريمُ الذي نحفلُ به في هٰذه الطَّاقة المزهرة المعطار ؛ من رجالِ عَصْر النُّبوَّة الأطهار ؟ ! ومَنْ هو هٰذا الابن الذي يُعَدُّ من أبناء ذِرْوَةِ الشَّرف والمكانة في المجتمعات القرشيَّة ، التي تألّقت وبسقَتْ في دنيا الجزيرة العربيَّة ؟ !

* نأوي إلىٰ ركنِ المعرفةِ عند « الذَّهبيِّ » في سِيَر نُبلائهِ ، لنجلوَ هُوِّيَّـةَ هٰذا الصَّحابي ونستجليها ، ثمَّ نقرأ في بدايتها : « السَّيِّدُ الكبيرُ ، الشَّهيدُ أبو حذيفة ابنُ شيخ الجاهليَّة عتبةَ بنِ ربيعة بنِ عبد شمس بن عبد مناف بن قصيّ بن كلاب القرشيّ العَبْشَميّ البدريّ »(١) .

---

(١) « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ١٦٤ ـ ١٦٧) ، وانظر ترجمة سيّدنا أبي حذيفة في : « المعارف » (ص : ٢٧٢) ، و« المغازي » الفهارس (٣ / ١١٥٧) ، و« التّبيين » (ص : ١٨٦) ، و« الإصابة » (٤ / ٤٣) ، و« الاستيعاب » =

* اتَّفقتِ المصادرُ علىٰ اختلافِ مشاربها وينابيعها بأنَّه من السَّابقين إلىٰ دوحةِ الإسلام ، ومن المهاجرين إلىٰ الحبشَة ، وإلىٰ المدينةِ المنوَّرة ، ونعَتَتْه كتبُ التَّراجم بقولها : « أسلم أبو حذيفة قبل دخول سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ دارَ الأرقم بن أبي الأرقم المخزوميّ يدعو فيها إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وهو من مهاجرة الحبشَةِ في الهجرتَيْن جميعاً ، ومعه امرأته سُهيلةُ بنتُ سُهيل بن عمرو العامريَّة ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ »[1] .

* اختلفتِ المصادرُ فيما بينها علىٰ اسمه ، فقالت : « اسمُه : هُشَيم ، أو : مقسم ، أو : هاشم ، أو : مُهَشِّم ، أو : قيس ، أو : حسل »[2] . ولـٰكنَّها أجمعَتْ بأنَّ أبا حذيفة اشتُهِر بكنيته ، كما أجمعتْ بأنَّه كان من السُّبَّق الأوائل إلىٰ الإسلام ، وهاجر الهجرتَيْن ، وصلَّىٰ إلىٰ القبلتَيْن ، وأنَّه أسلمَ بعد ثلاثة وأربعين رجلاً .

* أوجز ابنُ عبد البرِّ ما فصَّلْنا القولَ فيه فقال : « أبو حذيفة بن عتبة العبشميّ القرشيّ ، كان من فُضَلاء الصَّحابة ، من المهاجرين الأوَّلين ، جمع ٱللهُ له الشَّرف والفضل ، صلىٰ القبلتَيْن ، وهاجر الهجرتَيْن جميعاً ، وكان إسلامه قبل دخولِ رسول ٱلله ﷺ دار الأرقم ، للدُّعاء فيها إلىٰ الإسلام »[3] .

= (٤ / ٣٩ ـ ٤٠) ، و« الاشتقـاق » (ص : ٨٢) ، و« أسـد الغـابـة » (٥ / ٧٠ ـ ٧٢) ترجمة رقم : (٥٧٩٩) ، و« المستدرك » (٣ / ٢٤٧ ـ ٢٤٩) ، و« تهـذيـب الأسمـاء واللغـات » (٢ / ٢١٢) ، و« طبقـات ابـن سعـد » (٣ / ٨٤ ـ ٨٥) ، وغيرها كثير جدّاً ممّا لا يحصىٰ .

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٢١٢) ، و« أسد الغابة » (٥ / ٧٠ ـ ٧١) ، و« طبقات ابن سعد » (٣ / ٨٤) ، وغيرها .

(٢) « الإصابة » (٤ / ٤٣) ، و« أسد الغابة » (٥ / ٧١) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٢١٢) ، و« المستدرك » (٣ / ٢٤٨) .

(٣) « الاستيعـاب » (٤ / ٣٩) ، وانظـر : « التَّبييـن » (ص : ١٨٦ ـ ١٨٧) ، =

* وسبْقُ أبي حذيفة [١] ، وهجرتُه إلىٰ الحبشة مرتَيْن ، وإلىٰ المدينة المنوَّرة ، هاتان الصِّفتان تجعلانه من الخيار الأخيار ، أضفْ إلىٰ ذلك أنَّه قرشيٌّ من أهل بَدْر المغفور لهم من العزيز الغفَّار ، يدلُّ عليه قولُ النَّبيِّ المختار ﷺ : « . . . لعلَّ اللهَ اطَّلعَ علىٰ أهل بَدْرٍ فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرتُ لكم » [٢] . فأكرمْ بمن غفر ٱلله لهم ! :

فَلْيَصْنَعِ الرَّكْبُ ما شَاؤوا بِأَنفُسِهم   هم أهلُ بدرٍ فلا يَخْشَونَ مِنْ حَرجِ

وأنشد الرِّياشي لرجلٍ من قريش :

أَيَـا سَـائلـي عـن خِيَـار العِبَـاد   صَـادَفْـتَ ذا العِلْـم والخِبْـرَه

خيـارُ العبـادِ جميعـاً قـريـشٌ   وخيـرُ قـريـشٍ ذَوو الهِجْـرَه

مكَـانةُ أبـي حـذيفة :

* أسلم أبو حذيفة إسلامَ الأصفياء ؛ وكان في ريعان الشَّباب حول الثَّلاثين من عمره ، لم يدفعْهُ إلىٰ الإسلام رغبةٌ من رغائب الدُّنيا ، فهو واحدٌ من أبناء ذروة الشَّرف والمكانة في قريش ، دلفَ إلىٰ الإسلام في مشرقِ فجره ،

= و« المستدرك » (٣ / ٢٤٧) .

(١) كشف ابنُ دريد الحجاب في « الاشتقاق » عن شيءٍ من سيرة سيِّدنا أبي حذيفة واشتقاق اسمه ، فكان ممَّا قال : « أبو حذيفةَ بنُ عتبة ، شهدَ بدراً مُسلماً ، وقُتِلَ يوم اليمامة . و« حذيفة » : تصغير حَذْفة ، واشتقاقه من هٰذا ؛ والحذْف : ضَرْبٌ من شاءِ الحجاز صِغار الجروم ، وفي الحديث : « تخلَّلكم الشَّياطينُ كأنَّها بناتُ حذْف » . أو يكون تصغير حَذَفة من قولهم : حذفْتُ لك حذفةً من لحم ؛ أي : حذّةً وحزّةً . وأعطيتُه حذْفةً من أديم ؛ أي : بعض أطرافه . وكذلك الحُذافة أيضاً ، وهو اسم . وحذفت الأرنب بالعصا ، إذا رميتَها بها ، ومن أمثالهم : « فلان بين حاذف وقاذف » إذا وقع بين أمرين مكروهَيْن . « الاشتقاق » (ص : ٨٢) بتصرّف يسير .

(٢) قطعة من حديث أخرجه مسلم برقم : (٢٤٩٤) ؛ كما أخرجه البخاريّ في « صحيحه » ؛ وغيره من أئمة أهل الحديث والعلم .

لا يريدُ سوىٰ وجْهِ ٱللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ومرضاتِهِ ، ومرضاةِ رسولِهِ ﷺ .

* وعلىٰ الرِّغم من سيادة أبيه عتبة ، ومكانته الكُبرىٰ في قريش ، فإنَّ أبا حذيفةَ وأمثالَه من السَّابقين كانوا يعيشون حياةَ البلاء والاضطهاد داخلَ بيوتهم وخارجها ، ويُؤْذَوْن فوق أرضِ مكَّة وبطحائها ، يتجرَّعون مرارةَ الصَّبر ، ويتوقَّعُون البلاء في كلِّ لحظة ، ويترقَّبون العذابَ يُصبُّ عليهم من كلِّ جانب ، وقد تفنَّن المشركون في إظهار الأذىٰ لهـٰؤلاء تفنُّناً عجيباً ، ثبتَ أمامه المسلمون ثبات الرَّواسي الأعلام .

* كان أبو حذيفة ثابتَ الأساس في إيمانه ، أسلم قبل أنْ يدخلَ رسولُ ٱللهِ ﷺ الدَّار الأرقميَّة مستسرّاً بدعوته ، متخفياً بأصحابه عن طواغيت الشِّرك وفجَّارهم الذين كان عتبةُ بنُ ربيعة في طليعتهم ، ويشدُّ أزره أخوه شيبةُ بنُ ربيعة ، وابنهُ الوليدُ ، وعددٌ من كُبراء بني عبد شمس ممّن لم تنفُذْ أنوار الإسلام إلىٰ قلوبهم القاسية ، وعقولهم المتحجِّرة .

* ومن خلال قراءة السِّيرة النَّبويَّة ؛ عرفنا أنَّ عتبةَ بنَ ربيعة واحدٌ ممَّن عارض الدَّعوةَ النَّبويَّة ، وحاول أنْ يسدَّ منافذَ النُّور عن قلوب أولاده وأعينهم وبصائرهم ، بل كان يصدُّ عن سبيل ٱللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ بكلِّ سبيل ، ولـٰكنْ لم يَصِلْ في الصَّفاقَةِ لدرجةِ أبي جهلٍ ، وعقبةَ بنِ أبي معيط ، وغيرهما من لئام المشركين وفَجرتهم وأخابثهم ، وإنَّما كان يسلكُ طريقَ الحوار والمفاوضات وتبادل الآراء مع النَّبيِّ ﷺ ، لذلك رضيتْهُ قريشٌ سفيرها النَّاطقَ بآرائها في محاورة النَّبيِّ ﷺ لِيثنيَهُ عن دعوتهِ إلىٰ ٱللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ويرغِّبَهُ في المُلك والجاه قائلاً له : « يا بن أخي . . . إنَّك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم ؛ فرَّقْتَ جماعتهم ، وسفَّهت به أحلامهم ، وعبْتَ به آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به مَنْ مضىٰ من آبائهم ، فاسمع منِّي حتَّىٰ أعرض عليك أموراً تنظرُ فيها ، لعلَّك تقبلُ منها بعضَها . فقال له الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ : « يا أبا الوليد أسْمَعُ » . قال : يا بن أخي ، إنْ كنتَ إنَّما تريدُ بما جئتَ به من هـٰذا الأمر مالاً ، جمعْنَا لك من أموالنا حتَّىٰ تكونَ أكثرنا مالاً ، وإن كنتَ تريدُ به شرفاً سوَّدناك علينا

حتَّىٰ لا نقطعُ أمراً دونك ، وإن كنتَ تريدُ به مُلْكاً ملَّكْناك علينا ، وإن كان هـٰذا الذي يأتيك رئياً تراهُ ، لا تستطيعُ ردَّه عن نفسِكَ ، طلبنا لك الطِّبَّ ، وبذلنا فيه أموالنا حتَّىٰ نبرئكَ منه ، فإنَّه ربَّما غلب التَّابع علىٰ الرَّجل حتَّىٰ يتداوىٰ منه »[1] .

* سمع الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ من عتبةَ وأسمعه ، ثمَّ أعاده إلىٰ ملأ قريش إعادةً عجيبةً وصحيحةً ، أعاده بوجهٍ غير وجهه الذي أتىٰ به إليه من عندهم باعترافِ الملأ القرشيّ أجمع ، فهو قد ذهبَ إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ بوجه المغرور ، المُتعالِم ، المتعاقلِ ، الذي يبرمُ ويفتلُ بِرقَّةٍ مصطنعة ، وعرض علىٰ رسول ٱللهِ ﷺ حماقات يحبُّها الجاهلون ، ويرضىٰ بها أصحاب العقول المنفوشة ؛ والمدارك الخاوية ، بيد أنَّ ردّ الصَّادق المصدوق ﷺ علىٰ عتبةَ كان ردّاً جميلاً أخرجَه من غروره وفتونهِ وطغيانهِ ، فقد قرأ عليه آياتٍ من نورِ الذِّكْرِ الحكيم التي أنزلَها ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليه ليخرجَهم ويخرجَ الحياةَ كلَّها معهم من ظلماتٍ تغلِّفُ العُقول والحياة ؛ إلىٰ نورٍ يكتسحُ الظُّلمات ، ويجعلُ الحياةَ فاضلةً كريمةً لها معناها في ظلال الهدي الإلـٰهيّ ، وفي فيء عبادته جلَّ وعلا .

* كان أبو حذيفة يرىٰ هـٰذه الأمور كلَّها ، ويدركُ ببصيرتهِ ظلْمَ أبيه وقومهِ لمربّيهِ ومعلّمه رسولِ ٱللهِ ﷺ ، ورأىٰ أذيَّة المشركين للمؤمنين ، وما كانوا يعاملونهم من الضَّرب الشَّديد ، والإهانةَ البالغةَ ، حتَّىٰ برقت فُرجَةُ أملٍ حينما رأىٰ رسولُ ٱللهِ ﷺ ما يصيبُ أصحابَهُ من البلاء ، فقال لهم : « لو خرجتم إلىٰ أرض الحبشَة ، فإنَّ بها ملكاً لا يُظْلَمُ عنده أحدٌ ، وهي أرضُ صدقٍ ، حتَّىٰ يجعلَ اللهُ لكم فرجاً ممَّا أنتم فيه » .

* سمع أبو حذيفة التَّوجيهَ النَّبويَّ بالهجرة ، فهاجرَ في الهجرة الأولىٰ إلىٰ الحبشة ومعه امرأته سهلةُ بنتُ سُهيل ، ثمَّ هاجر الهجرة الثَّانية مع زمرة

---

(١) انظر : « البداية والنِّهاية » (٣ / ٦٣) .

المهاجرين[1] ، ثمَّ عاد إلىٰ مكَّة ، ومن ثَمَّ هاجرَ إلىٰ المدينة مع جميع المسلمين ؛ ونَعِمَ هناك بالمعيَّة النَّبويَّة ؛ والأنوار المحمَّديَّة .

أبو حذيفَةَ بينَ رجال الإسـلام :

* انطوتِ المرحلةُ المكيَّةُ ، والهجرةُ الحبشيَّةُ ، واستقرَّ أبو حذيفة ـ رضي ٱلله عنه ـ بمكَّةَ المكرمة ملازماً النَّبيَّ ﷺ علىٰ شظَفِ العيش ، وقسوةِ الحياة ، وظلَّ ثابتَ العقيدة علىٰ التَّوحيد وعلىٰ الدَّعوةِ إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وخَلْعِ الشُّركاء والأنداد بشدائدها وأزماتها وقسوتها ، وثبت مع الصَّابرين علىٰ اضطهاد قريش ، وفنونِ تعذيباتها وبلاياها التي تصبّها علىٰ المؤمنين ، وعلىٰ كلِّ مؤمن اتَّبع الهدي النَّبويَّ ، وإن كان من كبراء القوم ، وعُلْيا بيوتاتهم .

* وعلىٰ الرَّغم من هـٰذا الجو الممضّ الخانق ، فإنَّ سيِّدنا أبا حذيفة ـ رضي ٱلله عنه ـ ظلَّ راسخَ الإيمان ، قويَ العزيمة ، نقيَ السَّريرة ، حتَّىٰ هاجر إلىٰ المدينة المنوَّرة فيمن هاجر إليها من رجال عصر النُّبوَّة ، ونزل هو ومولاه سالم علىٰ عبَّاد بن بشر[2] ، ولمَّا كانت المؤاخاة ، آخىٰ رسولُ ٱللهِ ﷺ بين أبي حذيفة ، وبين عبَّاد بن بشر ـ رضي ٱلله عنهما وأرضاهما[3] ـ .

* في المدينةِ المنوَّرة تبوّأ سيِّدنا أبو حذيفة منزلةً سامقةً بين الصَّحابة

---

(١) انظر هـٰذا في : « البداية والنِّهاية » (٣ / ٦٦ ـ ٦٨) وغير ذلك من مصادر السِّيرة النَّبويَّة العطرة .

(٢) اقرأ سيرةَ الصَّحابي الجليل والبطل المتألِّق عبَّاد بن بشر الأنصاريّ في الباب الثَّاني من موسوعتنا « فرسان من عصر النُّبوَّة » (ص : ٥٩٨ ـ ٦١٣) ، ففي سيرته أنْس الرُّوح ، وروح الأُنس .

(٣) انظر في هـٰذا الأمر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ٨٥) .

الأعلام ، وكانت له مكانةٌ لائقةٌ عند الحبيب الأعظم ﷺ ، وكان محلَّ الثِّقة في كثيرٍ من المهام الحربية ، فقد كان أبو حذيفة ـ رضي ٱلله عنه ـ أحدَ أفراد سريَّة حمزة بن عبد المطَّلب ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ سيف البحر (١) ، كما كان من أفراد سرية عبد ٱلله بن جحش (٢) ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ نَخْلَة (٣) ، وخرج بعد بدر مع سرية أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي (٤) ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ بني أسد (٥) .

* وشهد سيِّدنا أبو حذيفة ـ رضي ٱلله عنه ـ المشاهد كُلَّها مع رسول ٱلله ﷺ ، وكانت غزوةُ بدر أوَّل مشاهده وأعظمها ، وكان فيها جنديّاً مخلِصاً من جنود الرَّحمـٰن أهل الفضل ، وذوي السَّابقة الذين رضوا بالإسلام ديناً ، ومزَّقُوا حُجَبَ الجاهليَّة ، ومواريثها العمياء ، وصبروا علىٰ لأْوَاء المحن ، واعتصموا بحبل ٱلله ، حتَّىٰ أدالَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لهم طغاة الشِّرك ، وطواغيت الكفر ، فنصرهم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ في أوَّل معركة بين أولياء الرَّحمـٰن ، وأتْباعِ الشَّيطان ، وقُتل فيها أشراف قريش وصناديدهم ، وأُسِرَ فيها كبراؤهم ، وأَسْلَمَ الباقون أرجلَهُم إلىٰ الفرار ونجوا بنفوسهم ؛ وقلوبُهُم تخفقُ وَجَلاً وخيفةً من الهزيمة ، وكان عتبةُ بنُ ربيعة والد أبي حذيفة من أوائل

---

(١) انظر تفصيل ذلك في : « المغازي » للواقديّ (١ / ٩) .

(٢) اقرأ سيرةَ الصَّحابي الجليل عبد ٱلله بن جحش ـ رضي ٱلله عنه ـ في كتابنا : « رجال مبشَّرون بالجنَّة » (ص : ٢٦٢ ـ ٢٨٠) ؛ إذ إنَّ سيرته تصقل النُّفوس وتهذِّبها ، والكتاب مطبوعٌ بدمشق ـ دار ابن كثير ـ ط : ٥ ـ ٢٠٠٣ م .

(٣) « المغازي » (١ / ١٩) ، و« رجال مبشَّرون بالجنَّة » (ص : ٢٧٠) .

(٤) اقرأ سيرة الصَّحابي البطل الشُّجاع المقدام أبي سلمة المخزوميّ في الباب الأوَّل من موسوعتنا « فرسان من عصر النُّبوَّة » (ص : ٤٣٥ ـ ٤٤٧) ، ففي سيرته زاد لمحبّي الشَّجاعة والإقدام ومحبّي الوفاء .

(٥) « المغازي » (١ / ٣٤٥) .

المُجَنْدلين من المشركين ، وجُنْدِل إلىٰ جانبه أخوهُ شيبةُ بنُ عتبة ، وولده الوليدُ في المبارزة التي حصدهم فيها آسَادُ اللهِ وأبطالُ المسلمين : حمزة بن عبد المطّلب [1] ، وعليّ بن أبي طالب [2] ، وعبيدةُ بن الحارث الهاشميّون الأبرار ـ رضي ٱلله عنهم وأرضاهم ـ .

* في بدايةِ هٰذه المعركةِ الفاصلة كان لسيِّدنا أبي حذيفة ـ رضي ٱلله عنه ـ موقفٌ يقطرُ بالجَمال والرّواء والإخلاص الكامل لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وللرّسول ﷺ ، وهٰذا الموقفُ لا يثبتُ أمامه إلا الرِّجالُ الأصفياء الأقوياء الذين يختصُّهم ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ بشمائلَ كريمةٍ ، ومحاسنَ فريدة ، ليكونوا قدوةً لمن خلفَهم من النَّاس في جميع الأزمانِ والأعصار .

* قدَّم الواقديُّ في « مغازيه » صورةً متألِّقةً للموقفِ الفريدِ الذي قامَ بهِ أبو حذيفةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ يوم بَدْرٍ فقال : « وكان عتبةُ بنُ ربيعة حين دعا إلىٰ البراز ، قامَ إليه ابنُه أبو حذيفةَ يبارزُه ، فقال له رسولُ ٱلله ﷺ : « اجلسْ » . فلمَّا قامَ إليه النَّفر أعان أبو حذيفة بنُ عتبة علىٰ أبيهِ بضربةٍ » [3] .

* وذكرَ ابنُ الأثير ، وابن عبد البرِّ ، وغيرهما : أنَّ أبا حذيفة قد دُعي إلىٰ برازِ أبيه يوم بدر ، فمنعه الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ ، فبلغ أخته هند بنت عتبة ذلك ، فهجَتْه ببيتَيْن من الشِّعْر لم تَصْدُقْ فيهما الوصفَ ، فقالت :

فمـا شكـرتَ أبـاً ربَّـاك مـن صِغَـرٍ حتَّـىٰ شببـتَ شبـابـاً غَيْـرَ محجـون

---

(١) اقرأ سيرةَ سيِّدنا حمزةَ بنِ عبد المطّلب ـ رضي ٱلله عنه ـ في الباب الأوَّل من موسوعتنا اللطيفة : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٤٣ ـ ١٢١) فسيرتُه إمتاع للأسماع .

(٢) اقرأ سيرة سيِّدنا عليّ ـ رضي ٱلله عنه ـ في الباب الثَّاني من كتابنا : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٢٧٩ ـ ٥٠٧) فسيرته تحفة علميَّة لمن يحبُّ أهل البيت أجمعين .

(٣) « المغازي » (١ / ٧٠) .

الأحْـولُ الأثْعَـلُ المشـؤومُ طـائـرهُ   أبو حُذَيفةَ شرُّ النَّاس في الدِّين [1]

* وكتب ابنُ الأثير عقب هٰذين البَيتَيْن ما صورته : « كذبَتْ ! بل كان من خير النَّاس في الدِّين ـ رضي ٱلله عنه ـ » ، أمَّا ابنُ عبد البرِّ فأفادَ بهٰذه الكلمات : « بل كان من خير النَّاس في الدِّين ، وكانت هي إذ قالت هٰذا الشِّعر من شرِّ النَّاس في الدِّين » .

* ونحنُ نقول : « لقد هدىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ السَّيِّدةَ النَّجيبةَ هندَ بنتَ عتبة للإسلام ، وفتح علىٰ قلبِها وبصيرتها يوم فتح مكَّةَ المكرّمة ، فأسلمتْ وحسُنَ إسلامها ، وكانت من المبايعات المهديَّات اللواتي لهنَّ في تاريخ نساء الإسلام نصيبٌ ، وقصَّتُها في بيعةِ النِّساء مشهورة متعالَمةٌ عند الخاص والعام ، وأخبارها مشهورةٌ ، وأحوالُها مذكورةٌ ـ رضي ٱلله عنها » [2] ـ .

* لقد كان موقفُ سيِّدنا أبي حذيفة ـ رضي ٱلله عنه ـ يُوزنُ بميزانِ الصِّدقِ والإخلاص ، وهو يرىٰ أباهُ وأخاهُ وعمَّه صرعىٰ كأنَّهم أعجاز نَخْلٍ خاوية ، رآهم فوقَ صعيد بَدْرٍ مع أكابرِ المجرمين ، ورسول ٱلله ﷺ يخاطبُهم بعد أنْ عدَّدَ أسماءهم : « . . . هل وجدتم ما وعدَكم ربَّكم حقاً ، فقد وجدتُ ما وعدني ربِّي حقّاً ؟ » .

* قال ابنُ إسحاق رَحِمَهُ ٱللهُ : « فبلغني أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ نظرَ عند مقالته هٰذه في وجْه أبي حذيفةَ بنِ عتبة ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فرآهُ كئيباً قد تغيَّرَ ، فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « لعلَّك دخلَكَ من شأْن أبيك شيءٌ ؟ » .

---

(١) « أسد الغابة » (٥ / ٧١) ، و« الاستيعاب » (٤ / ٤٠) ، و« طبقات ابن سعد » (٣ / ٨٥) ، و« المستـدرك » (٣ / ٢٤٧) ، و« سيـر أعـلام النُّبـلاء » (١ / ١٦٦) . وقولها : « الأثعل » : مرادف الأسنان . و« محجون » : معوجّ .

(٢) للمزيد من أخبار السَّيدة الحصيفة هند بنت عتبة اقرأ كتابنا : « بيعة النِّساء في القرآن والسِّيرة » ترجمة هند (ص : ٢٢٠ ـ ٢٣١) تجد فوائدَ حِسَان ، ومفاهيم ينبغي أنْ تصحَّح .

قال : لا ، وٱلله ما شككتُ في أبي ولا مصرعه ، ولٰكنِّي كنتُ أعرفُ من أبي رأياً وحلْماً وفضْلاً ، فكنْتُ أرجو أنْ يقرِّبه ذلك إلىٰ الإسلام ، فلمَّا رأيتُ ما أصابه ، ذكرتُ ما ماتَ عليه من الكفْرِ بعد الذي كنتُ أرجو له ، أحزَنَني ذلك . فدعا رسولُ ٱلله ﷺ لأبي حذيفةَ بخير وقال له خيراً » [١] .

* أزفَ الوقتُ الآن كي نستظلَّ تحت ظلالِ هٰذه الدَّوحة الأدبية الوارفة ، لِنرىٰ موقفَ هٰذا الصَّحابيِّ النَّبيل إزاء مقتل أبيه ، وكيف دَعَا له رسولُ ٱلله ﷺ بالخير :

قــد كــان عُتبــةُ أوَّلَ القَتْلــىٰ مــن المتقــدِّميــن
يــومَ المبــارزةِ الشَّهيــرة مــن صُنُــوف الكــافــريــن
قــد كــان مــنْ خيــرِ الــرِّجــالِ المشــركيــن المُصْلحيــن
وأبــو حــذيفــةَ ابنُــه فــي المسلميــن السَّــابقيــن
لمَّــا رأىٰ لأبيــهِ بيــن المُشْــركيــن الهــالكيــن
ورآهُ أُلقِــي فــي القَليــب وجُــرَّ مثْــلَ الآخــريــن
عَلَــتِ الكــآبــةُ وجهَــهُ حُــزْنــاً رأىٰ ذاك الأميــن
ســألَ الــرَّسُــولُ أبــا حــذيفــةَ فــي هــدوءِ المُستبيــن
هــل أنــتَ فــي شــكٍّ لقتــلِ أبيــكَ بيــن المشــركيــن
فــأجــابَ كــلاَّ يــا رســولَ الله إنِّــي فــي يقيــن
لٰكنَّــه قــد كــان ذا عقْــلٍ وفضْــلِ العــارفيــن
قــد ســاءنــي مــا نــالــه إذْ صــار بيــنَ المُجــرميــن
قــد كنــتُ أرجــو أنْ ينــالَ الفَضْــل بيــن المسلميــن
لمَّــا رأيــتُ ممــاتَــه فــي الكفْــر صِــرْتُ أنــا الحــزيــن

---

(١) « أسد الغابة » (٥ / ٧١ ـ ٧٢) ، وانظر : « السّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة » لإبراهيم العلي (ص : ٢٥١ ـ ٢٥٢) ، والحديث أخرجه الحاكم في « المستدرك » (٣ / ٢٤٩) ، وقال : « صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه » .

فــدعــا لــه الهــادي بخيــرٍ والهــدىٰ فــي المهتــديــن [1]

* إنَّ الإيمان في منهج الإسلام لا يميتُ المشَاعرَ البشريَّة ، ولٰكنَّه يجعلُها تحلِّقُ عالياً في سماءِ الفضائل ، ومنْ سنا هٰذه المشاعر ، نقتبسُ ممَّا قبسته الرّيشةُ العرجونيَّةُ المتألِّقةُ البارعةُ التي تقولُ : « هٰذه فريدةٌ من فرائد بَدْرٍ تمثّلُ قوّةَ التَّجاذب بين الإيمان في ذِرْوَةِ اليقين ، والعاطفةِ البشريَّة في قمَّة الوفاء البَنَويّ ، وقد ارتفعَ فيها الإيمانُ إلىٰ مجالاته من السُّمو والرُّسوخ ، فكان في يقينه ظلَّةٌ أظلَّتْ هٰذا المؤمنَ النَّقيَ فحمتْهُ من هزَّاتِ المشاعرِ العاطفيَّة ، ومضىٰ مع إيمانه إلىٰ منازلِ الشُّهداء ؛ لأنَّ الإيمانَ في منهج رسالة الخلود لا يميتُ المشاعر البشريَّة ، ولٰكنَّه يهذّبُها ، فيحوّلُها من عصبيةٍ جاهليَّةٍ إلىٰ وفاءٍ لا ينكرهُ المنهجُ في تطبيقه العَمَليّ ، فإيمانُ أبي حذيفة ـ رضي ٱلله عنه ـ إيمانٌ لا تهزُّهُ زلازلُ الأحداث ، فهو إذْ يرىٰ أباه يُقْتَلُ في أشرافِ قريش كافراً ، ويُلْقَىٰ معهم في قُلَيْبِ بَدْرٍ ، يأخذُه أسفُ العاطفة البشريَّة وفاءً لهٰذا الأب ؛ ويظلُّ أبو حذيفة مُزمَّلاً بإيمانه الرَّاسخ رسوخَ الأطواد الشَّامخات ، فلا يزيدُ علىٰ أنْ يعروه الاكتئابُ علىٰ ما فات أباه من خيرٍ كان يرجوهُ له بالهداية إلىٰ الإسلام . هٰذا موقفٌ من المواقف الآزمة التي يعتلي الإيمانُ صهوتَها ؛ لتكون سطراً من أسطر منهجِ الرِّسالة في التَّطبيق الذي لا يلوي عنق الطَّبيعة البشريَّة في عاطفتها وحنانها اللذَيْن عبَّر عنهما اكتئاب أبي حذيفة ، وتغيَّر لونُ وجهه حينما رأىٰ أباه يُسْحَبُ إلىٰ القليب . والواقع الذي عبَّرت عنه الرِّواية أنَّ اكتئاب أبي حذيفة ؛ إنَّما كان أثراً من آثار إيمانه ، تمثَّل في تطبيق منهج الرِّسالة في صورة معبِّرة عن حبِّ أبي حذيفة ـ رضي ٱلله عنه ـ لعقيدته ودينه ، ورغبته في أنْ تسريَ رسالةُ الهدىٰ التي آمن بها إلىٰ القلوب ؛ لتنيرها بإشراقها ، وأحقّ القلوب وأحبّها أن تتبوَّأه رسالة الإيمان والهدىٰ هو قلبُ والدٍ كان له من فضائل الإنسانيَّة قسطٌ جعلَ ابنَه المؤمنَ الصَّادق يرجو له أنْ يكون متبوأ لها ، ولٰكنَّ

---

(١) « تغريدةُ السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ٢٤٤) .

سوابقَ الأقدار لا تخضعُ لرجاء الرَّاجين ، وقد قال اللهُ تعالىٰ لنبيّه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص : ٥٦] »[١] .

* كان موقفُ سيِّدنا أبي حذيفة بنِ عتبة ـ رضي ٱلله عنه ـ يوم بدر موقفاً محفوفاً بالأزمات النَّفسيَّة الشَّديدة العاتية ، وهـٰذه المواقفُ الخاصة يمتحنُ اللهُ بها عباده المؤمنين من المسلمين السَّابقين الأوَّلين ؛ ليمحِّصَ بها إيمانهم ويصقلَهم ويخلِّصَهم من شوائبِ الجاهليَّة وموروثاتها الضَّلاليَّة التي كانت متمكِّنةً من قلوب بعض العرب وعقولهم ، ولا سيما مجتمع مكَّة الوثنيّ الجاهليّ الممزوج بأكدار الشِّرك وظلماته .

* استطاع سيِّدنا أبو حذيفة أنْ ينجحَ ويفوزَ بشهادة الامتياز ، فتخطَّىٰ تلك المصاعب ، وحظي بالسَّعادة ، وفاز بتقدير رائع يوم بدر ، وتغلَّب علىٰ العاطفة الشَّخصيَّة عند مقتل أبيه ، غير أنَّ له موقفاً آخرَ خَافَ منه في ذلك اليوم ، ترىٰ ما الموقف ؟ وما التَّعبير ؟

كلمةٌ وكفَّـــارتها :

* مَنْ ينظرْ إلىٰ حياة الصَّحابةِ الكرام مع الحبيب المصطفىٰ ﷺ يلْقَ أنَّهم خرجُوا من الشَّهوات النَّفسانيَّة ، ومن الآباءِ والأقربين والعشَائر والأموال ،

---

(١) « محمَّد رسول ٱلله » (٣ / ٤٤٧) . وهـٰكذا عاد سيِّدنا أبو حذيفة بعد حواره مع النَّبيِّ ﷺ إلىٰ إشراقة الإيمان ، عاد وهو هادىء وادع بعد الحديث الرَّحيم الرَّخيم مع النَّبيِّ الرَّؤوف الرَّحيم ﷺ ، وأجاب عن تساؤل النَّبيّ ﷺ بأنَّ ما ظهر عليه من الحزن والاكتئاب ، لم يمسَّ إيمانه ، ورسوخ يقينه من قريبٍ أو بعيد ، ولـٰكنَّه كان حُزْناً علىٰ فوات ما كان يرجوهُ لأبيه في شرفه بين قومه ، وفضله في عقلهِ من الدُّخول في الإسلام ، فلمَّا رأىٰ مصيره في نهايتهِ التي لا سبيلَ إلىٰ تلافيها أحزنه ذلك ، وهـٰهنا دعا له سيِّدنا وحبيبنا رسول ٱلله ﷺ بخير ، وقال له خيراً ، وطيَّب خاطره ، وآنَسَهُ بحسنِ الحديث وجميل الأحدوثة ، فصلَّىٰ اللهُ علىٰ معلِّم النَّاس الخير ، وحشرنا تحت لوائهِ . وعفا عنَّا بفضله وكرمهِ ومنّه ولطفِهِ .

وتعلَّقُوا بحبِّ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وحبِّ رسوله ﷺ ، وشيَّدوا محاسن المكارم ، وفتحوا البلاد ، وقادوا بحصافتهم العباد .

* كان سيِّدنا أبو حذيفة ـ رضي ٱلله عنه ـ من هٰؤلاء الرِّجال الأفذاذ الذين صدقوا ما عاهدوا ٱلله عليه ، وبرُّوا رسول ٱلله ﷺ في جميع المواقف يُسْرها وعُسْرها ، وإذا ما بدرتْ من أحدهم هفوةٌ ، استدركَ ذلك ، وثابَ إلىٰ جادَّة الصَّواب ، وآب إلىٰ باب الكريم الوهّاب .

* ففي غزاة بدر ، ألقىٰ سيِّدنا أبو حذيفة كلمةً في موقفٍ حرج ، ولٰكنَّه عاد إلىٰ المسار الصَّحيح ، فقد سمع أبو حذيفة ـ بعد أنْ فرغَ من محنةِ أبيه ومقتله ـ أنَّ رسولَ ٱللهِ ﷺ ينهىٰ عن قَتْل أحدٍ من بني هاشم ؛ لأنَّه ﷺ قد عرفَ بالقرائن والإمارات أنَّهم قد أُخرِجُوا إلىٰ بدرٍ كُرهاً ، لا يريدون قتاله ، ولا حاجةَ لهم بقتال أحد من رجاله وأصحابه من المهاجرين أو الأنصار ؛ ويؤكِّدُ رسولُ ٱللهِ ﷺ نَهْيَهُ العام لعدم قَتْل أحدٍ من بني هاشم بنهي خاص ، يخصُّ به عمَّه العبَّاس بن عبد المطَّلب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وبعضَ رجالٍ من أشراف قريش كانوا مقاربين . فيقولُ ﷺ ، كما ذكر ابنُ إسحاق عن ابن عبَّاس ـ رضي ٱلله عنهما ـ أنَّه ﷺ قال لأصحابه يومئذٍ : « إنِّي قد عرفتُ أنَّ رجالاً من بني هاشم ، وغيرهم قد أخرجوا كُرهاً ، لا حاجة لهم بقتالنا ؛ فمن لقيَ منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومَنْ لقيَ أبا البَخْتريِّ بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتلْه ، فإنَّه إنَّما خرج مستكرهاً » .

* في هٰذه اللحظات تنبثقُ العاطفةُ البشريَّةُ ، وتستحوذُ علىٰ مشاعر أبي حذيفة لِلَحظَات ، فقد تصوَّرَ أباهُ وأخاهُ وعمَّهُ يُقْتَلُون آنفاً في المبارزة العادلة بسيوفٍ هاشميَّةٍ مَنَافِيَّةٍ ، ويتمثَّلُ العبَّاس يُجاري الملأ القرشيّ ، ثمَّ يُطالبُ بالفداء . . . تمثَّل سيِّدنا أبو حذيفة هٰذا كلَّه ، وهو إنسانٌ ذو مشاعرَ وعواطفَ كغيره من بني البشَر ممَّن يتأثَّرون بالمواقف العاطفيَّة التي تتعلَّق بالأبوَّة والأخوة والعمومةِ والأمومةِ وما شابَه ذلك ، فلمْ يملكْ نَفْسَه أنْ قال : « أنقْتُلُ آباءَنا ، وأبناءنا ، وإخواننا ؛ ونتركُ العبَّاس ؟ وٱلله ! لئن لقيتُه

لأَلْحَمَنَّهُ ـ أو : لألجمنّه ـ بالسَّيف » .

* بلغت كلماتُ أبي حذيفة سمعَ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ فلم يؤاخذْهُ ، وخشي أنْ يولِّدَ ذلك في بعض قلوب النَّاس شيئاً من وساوس الشَّيطان وتسويلاته ، فيوقعُهم في مصايده وحبائله ، ويجعلُهم يضطربون في الأوهام والظُّنون ، فالتفتَ ﷺ إلىٰ سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ وقال في تساؤلٍ لطيف : « يا أبا حفص ! أيُضْربُ وجه عمِّ رسول ٱلله بالسَّيف ؟ ! » . فنظر سيِّدنا عمرُ إلىٰ أبي حذيفةَ نظرةَ غَضَبٍ ، وقال للحبيب المصطفىٰ ﷺ : « يا رسولَ ٱلله ! دعني فلأضرب عنقَه بالسَّيف ، فواللهِ لقد نافق » .

* لٰكنَّ رسولَ ٱلله ﷺ كان مُدْركاً لِما قاله أبو حذيفة ؛ إذ إنَّ أبا حذيفة لم يَقُلْ ما قال إلا في لحظةِ ضعفٍ عاطفيَّة ، وثورة نفسيَّةٍ تغلَّبت عليه ، ولم يقصدْ بقوله مخالفة الأوامر المحمَّديَّة ، ولا النَّواهي النَّبويَّة ، فتركه ﷺ حتَّىٰ ثاب إلىٰ جادَّة الحقِّ ، بعد أنْ هدأَتْ عاطفته ، ومن ثمَّ ركَنَ إلىٰ محضنِ الإيمان ، وارتمىٰ بين أحضانِ النَّدم علىٰ ما أسلَفَ من القول بحقِّ سيِّدنا العبَّاس ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وأدرك أنَّ قولَه هٰذا لا يكفِّرُهُ إلا أنْ يُكتَبَ في عداد الشُّهداء ، وكان ـ رضي ٱلله عنه ـ يقول : « واللهِ ، ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة التي قُلْتُ يومئذٍ ، ولا أزال منها خائفاً ، إلا أن تكفِّرُها عنِّي الشَّهادة » .

* ظلَّ سيِّدنا أبو حذيفة كذلك حتَّىٰ أنالَه اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ كفَّارته التي تمنَّاها ، فَقُتِلَ يوم اليمامة شهيداً ـ رضي ٱلله عنه [1] ـ .

* والآن يحلو لنا اللقاء مع النَّفحة المنعشة التي تستوعبُ عصارةَ ما فصَّلناه في السُّطور السَّابقة ، فنرتوي من زلالِ معينها ؛ وننعم في جمال معانيها ورقَّة مغانيها :

---

(١) انظر : « البداية والنِّهاية » (٣ / ٢٨٤) ، و« المستدرك » (٣ / ٢٤٧ ـ ٢٤٨) ، و« طبقات ابن سعد » (٤ / ١١) مع الجمع والتَّصرُّف .

هٰــــذا رســــولُ اللهِ يُــــوصـــي صحبَـــه المتحمِّسيـــن
فيقـــولُ إنَّ بنـــيَّ هـــاشـــمَ أُخــرِجُــوا مُستكــرهيـــن
أيضـــاً رجـــالٌ غيــرُهُــم جـــاؤوا لحـــربٍ كـــارهيـــن
لا تقتلُـــوهـــم إنْ لَقُـــوكُـــم واتْـــركُـــوهُـــم سَـــالميـــن
لا تقتلُـــوا العبَّـــاسَ أيضـــاً فـــي عـــدادِ المُشـــركيـــن
فـــي السَّـــامعيـــن أبـــو حـــذيفـــةَ فـــي عِـــداد المسلميـــن
فيقـــولُ إنَّـــا قـــد قَتَلْنَـــا لـــلأبـــوَّةِ والبَنيـــن
أفنتـــركُ العبَّـــاس يَحْيَـــا دونَهـــم هٰـــذا مُهيـــن
فـــلألجمَـــنَّ السَّيـــف للعبَّـــاس مثـــل المُلْجَميـــن
هٰـــذي المقـــالـــةُ بُلِّغَـــتْ للمصطفـــىٰ مِـــنْ صـــادقيـــن
المصطفـــىٰ نـــادىٰ أبـــا حفْـــصٍ نـــداءَ العـــاتبيـــن
فيقـــول قـــال أبـــو حـــذيفـــة مثـــل قـــول الـــرَّافضيـــن
هـــل يُضْـــرَبُ العبَّـــاس عـــمُّ محمَّـــدٍ كـــالمجـــرميـــن
عُمـــرٌ يقـــولُ إلـــىٰ النَّبـــيِّ فـــذاكَ كُفْـــرٌ عـــن يقيـــن
دعنـــي لأضْـــرِبَـــه بسيفـــي فهـــو حَـــدُّ الكـــافـــريـــن

* تابع أبو حذيفة رحلتَهُ الإيمانيَّة ، فشهد المشاهد جميعَها بالمعيَّة النَّبويَّة ، ويوم فتح مكة أتىٰ بأخْتيهِ فاطمةَ وهنْدٍ بنتَي عتبةَ ، وبايعتا الحبيب الأعظم ﷺ ، وكُتبتَا من أهل السَّعادة ممَّن نِلْنَ الصُّحبة النَّبويَّة ، وأكرمْ بها من صحبة !

* أمَّا أبو حذيفة فنال الرِّضا النَّبويّ ؛ إذ توفي سيِّدنا رسولُ ٱلله ﷺ وهو راضٍ عن فَتَاهُ أبي حذيفةَ أحدِ المخلصين في عقْدِ رجاله الميامين ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ .

* وفي عهد خليفةِ رسولِ ٱلله ﷺ سيِّدنا أبي بكر الصِّدِّيق عليه سحائب الرّضوان نَجَمَ المرتدّون ، فدعا الرِّجال الأبرار ، من المهاجرين والأنصار ، إلىٰ رفع كلمةِ العزيز الجبَّار ، وقتال المرتدّين الأشرار ، بزعامة مسيلمة

الكذَّاب الختَّار ، فأسرعَ سيّدنا أبو حذيفة في مقدمةِ المجاهدين المهاجرين والأنصارِ ، لعلَّه ينال الشَّهادة من الرَّحيم الغفَّار .

* وتحت القيادة الخالديَّةِ البارعةِ أخذ أبو حذيفة يحملُ علىٰ المرتدّين أمام المهاجرين ، فلمَّا نال زيدُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ الشَّهادة ، حمل أبو حذيفة اللواء ، وصاحَ بأصحابِ رسول ٱلله ﷺ يحمِّسهم : « يا أهل القرآن ، زيِّنُوا القرآن بالفعال » ، وصاح وقتها سيِّدنا خالدُ بنُ الوليد سيفُ ٱلله صيحتَه المباركة : « وامحمَّداه » ، فدكَّ جموع المرتدّين بصيحته ، وصالت سيوفُ المسلمين في رؤوس بني حنيفة المرتدّين ، فما لبثوا أن ولّوا منهزمين ، ونصر اللهُ المسلمين ، وحظي أبو حذيفة بالشَّهادة ، وعمره (٥٣ عاماً ، أو٥٤ عاماً) ، وبلغ الرَّجلُ مناه ، فعاش حميداً ، ومات شهيداً ، وزيَّن القُرآن بالفعال ، فرضي ٱللهُ عنه وأرضاه ، ونفعنا بسيرته وسيرة الصَّحابة أجمعين .

✍ ✍ ✍



زيدُ بنُ الخطّاب

رضي ٱلله عنه

* أخو عمر وأكبرُ منه ؛ أسلمَ قَبْلَه واستُشهد قبله .
* شهدَ بدراً ، وأُحُداً ، والخندقَ ، وبيعةَ الرّضوان ، وسائر المشاهد .
* قال عنه عمر : « ما هبَّتِ الصَّبا إلا وأنا أجدُ منها ريحَ زيدٍ » .

زيدُ بنُ الخَطَّاب
رضي ٱلله عنه

منْ أعيان السَّـــابقين :

* لمَّا بزغتْ شمسُ الإسلام في العلاء ، أرسلتْ سناءَها إلىٰ بيتٍ يطاول الجوزاء ؛ وهـٰذا البيتُ رفيعُ العماد ؛ له شأْنٌ ومكانةٌ في أم القرىٰ ، إنَّه بيت آل الخطَّاب الذي أتحفَ الدُّنيا برجالٍ زينوا جِيْدَ الدُّنيا في عصر النُّبوَّة ، ولا يزال أَلَقُهم تتفتَّحُ براعمه الجميلة إلىٰ ما يشاء ٱلله تعالىٰ .

* من هـٰذا البيتِ المباركِ نلتقي أوَّل رجالهِ إسلاماً وإيماناً بدعوة الحبيب ﷺ ، إنَّه زيدُ بنُ الخطَّاب بن نفيل . . . السَّيِّدُ الشَّهيدُ ، المجاهدُ التَّقيُّ ، والمحبُّ الحفيُّ ، والمخلصُ الوفيُّ ، أبو عبد الرَّحمـٰن القُرشيّ العَدَويّ (١) ، أخو سيِّدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطَّاب لأبيه ، وأمُّه أسماء بنت وهْب الأسديَّة ، وأمُّ عمرَ حنتمةُ بنتُ هاشم المخزوميَّة ، وكان أسنَّ من عمر ، وأسلم قَبْلَه ـ رضي ٱلله عنهما ـ .

* كان لزيدٍ من الولد عبد الرَّحمـٰن ، وأمُّه لُبابةُ بنتُ أبي لبابة بن

---

(١) « أسدُ الغابة » (٢ / ١٣٣ ـ ١٣٤) ترجمة رقم : (١٨٣٤) ، و« سيرُ أعلام النُّبلاء » (١ / ٢٩٧ ـ ٢٩٩) ، و« طبقاتُ ابن سعد » (٣ / ٣٧٦ ـ ٣٧٨) ، و« الاستيعاب » (١ / ٥٢٢ ـ ٥٢٥) ، و« الإصابة » (٢ / ٥٤٧ ـ ٥٤٨) ، و« التَّبيين في أنساب القرشيين » (ص : ٣٧٤ ـ ٣٧٥) ومصادر لا تحصىٰ .

عبد المنذر ، وأسماءُ بنتُ زيد ، وأمّها جميلةُ بنتُ أبي عامر بن صيفي ؛ وقد وصف الرُّواة والمصنِّفون سيِّدنا زيداً فقالوا : « كان زيدُ بنُ الخطَّاب رجُلاً طويلاً ظاهرَ الطُّول أسمرَ » .

* ظلَّ سيِّدنا زيدٌ مقيماً في مكَّة مع ثلَّةِ السَّابقين الأوَّلين ، وثبتَ علىٰ إسلامه ثباتَ الرَّواسي ، ولم تَلِنْ قناتهُ مرّةً واحدةً ، ولمَّا أذن ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالهجرة إلىٰ المدينةِ المنوَّرة ، كان سيِّدنا زيدٌ من المهاجرين الأوَّلين إليها ؛ إذ خرجَ مع أخيه القوي الأمين ، وعزِّ المسلمين عمرَ بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ في عشرين راكباً ، وكان من هـٰؤلاء الرّكب : عبدُ ٱلله بن عمر ، وعيَّاشُ بن أبي ربيعة الملقّب بـ : « ذي الرُّمحين » لشجاعته . وكانت هجرةُ هـٰؤلاء هجرةَ قوَّةٍ وعزّ بصحبة فاروق الإسلام سيِّدنا عمر ؛ لأنَّه لمَّا همَّ بالهجرة تقلَّد سيفَه ، وتنكَّبَ قوسَه ، وحمل في يده أسهماً ، وتجهَّزَ بكاملِ سلاحه ، ثمَّ مضىٰ وطاف بالكعبة ، وتحدَّىٰ أكابر مجرمي قريش وقال لهم : « شاهتِ الوجوه ، لا يُرغمُ ٱلله إلا هـٰذه المعاطس ، مَنْ أراد أنْ يُثكِلَ أمّه ، أو يوتم ولده ، أو يُرملَ زوجته ، فَلْيلقَنِي وراء هـٰذا الوادي »[١] .

* ولمَّا تكاملتْ هجرةُ الصَّحابة وتُوِّجتْ بهجرة الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، كانت المؤاخاةُ بين المهاجرين والأنصار ، فآخىٰ النَّبيُّ ﷺ بين سيِّدنا زيد بن الخطَّاب وبين مَعْنِ بنِ عديٍّ العجلانيّ[٢] أحد رجال الأنصار الذين أحبّوا ٱلله

---

(١) انظر : « سبل الهدىٰ والرَّشاد » (٣ / ٣١٦) .

(٢) **معنُ بنُ عديّ بن الجدّ الأنصاريّ العجلانيّ البَلويّ** : من حلفاءِ بني مالك بن عوف من سادةِ الأنصار ، كان يكتبُ العربيةَ قبلَ الإسلام ، والكاتبون عصر ذاك كانوا معدودين . شهد معنٌ العقبةَ وبدراً وسائر المشاهد بالمعية النَّبويَّة ، وخاضَ حرب المرتدّين يوم اليمامة ، وأبلىٰ بلاءً حسناً في تلك المعركة ، واتَّخذه ٱلله شهيداً ، وآخىٰ النَّبيُّ ﷺ بينَه وبين زيد بن الخطَّاب ، فقُتلا يومئذٍ .

قال مجَّاعة بن الزُّبير الحنفيّ يصفُ شجاعة سيِّدنا معن لأبي بكر =

ورسولَهُ ، وأخلصوا للإسلام ، واستُشْهِدوا من أجلِ إعلاء كلمةِ اللهِ في أرجاءِ الأرض .

حضُـورُهُ المغَازي النَّبويَّـة :

* سيِّدنا زيدُ بنُ الخطَّاب ـ رضوان ٱلله عليه ـ من رجال عصْرِ النُّبوَّة الميامين الذين لم يغيبوا عن مشهدٍ من المشاهد النَّبويَّة ، وإنَّما كُتِبَ له شرف الجهاد تحت رايةِ رسولِ ٱلله ﷺ ، فقد شهد بدراً وأحداً والخندق وما بعدها من المشاهد ، كما شهد بيعة الرّضوان بالحديبية [1] ، وانضوىٰ تحت قائمة المرضيين الذين رضي ٱلله عنهم ؛ إذ بايعوا الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ تحت الشَّجرة .

* وكان لسيِّدنا زيد شأْنٌ عجيبٌ يوم غزوة أُحُد [2] ؛ إذ تألَّق بفروسيَّته

= الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ : « لقد رأيتُ معنَ بن عديّ يُعنق ـ يسرع ـ أمام القوم » فقال أبو بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ : « لقد ذكرتَ رَجُلاً صالحاً » ؛ وكان معنٌ ممَّن استُشهد يومَ اليمامة سنة (١٢ هـ) .

وعن ابن عبَّاس ـ رضي ٱلله عنهما ـ أن معنَ بنَ عديّ أحد الرَّجلين اللذين لقيا أبا بكر وعمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، وهما يريدان سقيفةَ بني ساعدة ، فقالا لأبي بكر وعمر : « لا عليكم ألا تقرّبوهم ، واقضوا أمركم » .

ولمَّا توفي رسولُ ٱلله ﷺ بكىٰ النَّاس عليه وقالوا : « واللهِ وددنا أنَّا متنا قبله ، نخشىٰ أنْ نفتن بعده » ، فقال معنُ بنُ عديّ ـ رضي ٱلله عنه ـ : « لـٰكنِّي وٱلله ما أحبُّ أنِّي متّ قبله حتَّىٰ أصدّقه ميتاً كما صدّقته حيّاً » . رضي ٱلله عن سيِّدنا معن وحشرنا في معيتـه . « الاستبصـار » (ص : ٢٩٧ ـ ٢٩٨) ، و« سيـر أعـلام النُّبـلاء » (١ / ٣٢٠ ـ ٣٢١) مع الجمع بينهما .

(١) « الاستيعاب » (١ / ٥٢٣) بتصرُّف يسير جداً .

(٢) « أُحُد » : سُمّي أحد أحداً لتوحّده بين تلك الجبال ، وفي الصَّحيح قال الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ : « أحدٌ جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه » . =

ذلك اليوم تألُّقاً كريماً ، في قصَّةٍ جميلةٍ آسرةٍ للمشاعر ، ذكرها ابنُ سعد في « الطَّبقات » بسنده عن ابن عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : « قال عمر بن الخطَّاب لأخيهِ زيدِ بن الخطَّاب يوم أحد : أقسمتُ عليك إلاَّ لبسْتَ درعي ، فلبسَها ، ثمَّ نزعها ، فقال له عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ : مالَكَ ؟

قال : إنِّي أريدُ بنفسي ما تريدُ بنفسِكَ »[1] .

* في روايةِ الطَّبرانيّ عن ابن عمرَ ـ رضي ٱلله عنهما ـ : « أنَّ عمرَ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال يوم أُحُدٍ لأخيه : خذْ درعي يا أخي ! قال : أريدُ من الشَّهادة مثل الذي تريد . فتركاها جميعاً »[2] .

* قُلْ لي بربِّك : بأيِّ الرَّجُلَين نُعجب بزيدٍ أم بعمر ؟ ! إنَّ كلّ واحد منهما حريصٌ علىٰ الشَّهادة ، وعلىٰ أنْ يحظىٰ بمرضاة ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ويودُّ أنْ يتَّخذه اللهُ شهيداً ، لذلك اندفع كلاهما اندفاعَ الفدائيين ، وظلَّ يجاهدُ بسنانه وسيفه دون درع يَقيهِ ضربات السُّيوف ، ولَسَعات الرِّماح والحِراب ، وانحسرت المعركةُ عن استشهاد عددٍ كبير من الصَّحابة ، إلا أن سيِّدنا زيد بن الخطَّاب كان من الذين أبلوا بلاءً حسناً ، ولم يصبْ في هـٰذه المعركة التي حرص من خلالها علىٰ الشَّهادة .

حظُّهُ من روايةِ الحَديث :

* لعلَّ اهتمامَ سيِّدنا زيد بالجهاد والمغازي شغلَه عن روايةِ الحديث

= قيل : معناه أهلُه ؛ وقيل : لأنَّه كان يبشّره بقرب أهله إذا رجع من سفره ، كما يفعل المحبُّ . وبين أحدٍ وبين المدينة المنوَّرة قرابة ميل من شمالها .

وذكر الزُّبير بنُ بكَّار أنَّ قبر نبيَّ ٱلله هارون عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بأُحُد ، وأنَّه قدم مع موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في جماعة من بني إسرائيل حجَّاجاً فمات هناك . وكانت غزوة أحد هـٰذه في شَهْر شوالَ من السَّنة الثَّالثة للهجرة النَّبويَّة .

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٧٨) .

(٢) انظر : « شرح حياة الصَّحابة » (١ / ٧٩١) .

النَّبويّ وحفظه ، لذلك لم يذكرْ أهلُ الحديث له إلاَّ حديثاً . قال ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « له في الكتُب حديثٌ واحدٌ في النَّهي عن قتل ذوات البيوت »[1] .

* وقال الإمامُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « حدَّثَ عنه ابنُ أخيه عبد ٱلله بن عمر خبر النَّهي عن قَتْل عوامر البيوت ، وروىٰ عنه ولده عبد الرَّحمـٰن بن زيد حديثَيْن »[2] .

* وحديث قتل عوامر البيوت من الحيَّات وغيرها أخرجه شَيْخَا أهلِ الحديث في « صحيحيهما » من حديث ابنِ عمرَ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « اقتلوا الحيَّات ، وذا الطُّفْيَتَيْن ، والأبتر ، فإنَّهما يستسقطان الحَبَل ، ويلتمسان البصر » .

قال : « فكان ابنُ عمر يقتلُ كلَّ حيَّةٍ وجدَهَا ، فأبصرهُ أبو لبابةَ بنُ عبد المنذر ، أو زيدُ بنُ الخطَّاب ، وهو يطاردُ حيَّةً ، فقال : إنَّه قد نُهيَ عن ذوات البيوت »[3] .

---

(1) « تهذيب التَّهذيب » (٣ / ٤١١) ، و« الإصابة » (١ / ٥٤٨) .

(2) « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٢٩٨) ، و« تاريخ الإسلام » عهد الخلفاء الرَّاشدين (ص : ٦٠) .

(3) أخرجه مسلم بهـٰذا اللفظ في السَّلام برقم : (٢٢٣٣) ، وعلَّقه البُخاريّ في بدء الخَلْق برقم : (٣٢٩٩) ، وأبو داود برقم : (٥٢٥٢) ، والتِّرمذيّ برقم : (١٤٨٣) .

ومعنىٰ قوله ﷺ « ذا الطُّفيتين » : بضمِّ الطَّاء ، وإسْكان الفاء . قال العُلماء : هما الخطَّان الأبيضان علىٰ ظهر الحيَّة .

و« الأبتر » : قصير الذَّنب ؛ وقال نضرُ بنُ شميل رَحِمَهُ ٱللَّهُ : هو صنفٌ من الحيَّات أزرق مقطوع الذَّنب ، لا تنظر إليه حامل إلا ألقت ما في بطنها .

و« يستسقطان الحبل » : معناه : أنَّ المرأةَ الحامل إذا نظرت إليهما وخافت أسقطت الحمل غالباً . =

* وفي روايةٍ أخرىٰ ؛ قال سالمُ بنُ عبد ٱلله : قال عبدُ ٱلله بنُ عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ : « فلبثتُ لا أتركُ حيَّةً أراها إلا قتلتُها ، فبينا أنا أطاردُ حيَّةً يوماً من ذوات البيوت ، مرَّ بي زيدُ بنُ الخطَّاب ، أو أبو لبابة وأنا أطاردها ، فقال : مهلاً يا عبدَ اللهِ .

فقلت : إنَّ رسولَ ٱلله ﷺ أمَرَ بقتلهنَّ .

قال : إنَّ رسولَ ٱلله ﷺ قد نهىٰ عن ذواتِ البيوت » .

* وفي روايةٍ : « حتَّىٰ رآني أبو لبابة بن عبد المنذر ، وزيد بن

= و« يلتمسان البصر » : معناه : يخطفان البصر ويطمسانه بمجرَّد نظرهما إليه ، لخاصَّة جعلها ٱلله تعالىٰ في بصريهما إذا وقع علىٰ بصر الإنسان ؛ قال العُلماء : وفي الحيَّات نوعٌ يُسمَّىٰ : النَّاظر ؛ إذ وقع نظره علىٰ عين إنسان مات من ساعتِه .

و« يطارد حيَّة » : يطلبُها ويتتبعُها ليقتلها .

و« ذات البيوت » ؛ أي : اللاتي يوجدن في البيوت ، وقد تحدَّث العُلماء والفُقهاء في أمْرِ قَتْل الحيَّات وغيرها من الهوام والعوامر ، وأفادوا إفاداتٍ نافعةً تصلحُ للمتعلِّمين وتنفعهم لما فيها من أحكام .

قال المازريّ رَحِمَهُ ٱللهُ : « لا تُقتل حيَّاتُ مدينة النَّبيّ ﷺ إلا بإنذارها ، فإذا أنذرها ولم تنصرفْ قتَلَها » .

وأمَّا حيَّات غير المدينة في جميع الأرض ، والبيوت ، والدُّور ، فيندبُ قتلُها من غير إنذار ؛ لعموم الأحاديث الصَّحيحة في الأمر بقتلها .

أمَّا صفةُ الإنذار ؛ فقال القاضي : روىٰ ابنُ حبيب ، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه يقول : « أنشدكنَّ بالعهدِ الذي أخَذَ عليكنَّ سليمانُ بنُ داود ألاَّ تؤذونا ولا تظهرن لنا » .

وقال مالك رَحِمَهُ ٱللهُ : يكفي أنْ يقول : « أحرج عليك بٱلله واليوم الآخر أنْ لا تبدو لنا ولا تؤذينا » ، وٱلله أعلم .

الخطَّاب ، فقالا : إنَّه قد نَهَىٰ عن ذوات البيوت » .

* قال ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « الفتح » « وليس لزيد بن الخطَّاب ـ أخي عمر ـ روايةٌ في الصَّحيح إلا في هـٰذا الموضع » [1] .

* بينما أخرجَ له ابنُ سعد بسندٍ رفعه إلىٰ عبد الرَّحمـٰن بن زيد [2] بن الخطَّاب ، عن أبيه قال : قال رسولُ ٱللهِ ﷺ في حجَّةِ الوداع : « أرقَّاءَكم أرقَّاءَكم أطعموهم ممَّا تأكلون ، وألبسوهم ممَّا تلبسون ، وإنْ جاؤوا بذنب

---

(١) انظر : « فتح الباري » (٦ / ٤٠٢) .

(٢) **عبدُ الرَّحمـٰن بنُ زيد بن الخطَّاب القرشيّ العدويّ** : ابنُ أخي سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، أمُّه لبابةُ بنتُ أبي لبابةَ بنِ عبد المنذر الأنصاريّ . أتىٰ به أبو لبابة إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فقال له : « ما هـٰذا منك يا أبا لبابة ؟ » .

قال : ابنُ ابنتي يا رسول ٱلله ، ما رأيتُ مولوداً أصْغَر خلقاً منه ! فحنَّكَهُ رسول ٱلله ﷺ ، ومسحَ رأسه ، ودعا له بالبركة ، فما رُؤي عبد الرَّحمـٰن بن زيد مع قومٍ قطّ إلاَّ فرعهم طولاً ، وكان أطول الرِّجال وأتمَّهم .

ولمَّا توفي رسولُ ٱللهِ ﷺ كان عُمْرُ عبد الرَّحمـٰن بن زيد ستّ سنين ، وكان عبد الرَّحمـٰن شبيهاً بأبيه زيد ، وكان عمرُ بنُ الخطَّاب إذا رآه أو نظر إليه قال :

أخوكُم غيرَ أشيبَ قد أتاكم ... بِحَمْدِ اللهِ عادَ له الشَّباب

وزوَّجه عمرُ بنُ الخطَّاب بابنته فاطمة ، فولدتْ له عبد ٱلله بن عبد الرَّحمـٰن .

ومن ولده : عمرُ ، وعثمانُ ، وأبو بكر ، ومحمَّدٌ ، وإبراهيمُ ، وزيدٌ ، ومسكينٌ ، وعبد الحميد ، بنو عبد الرَّحمـٰن بن زيد . وكان ابنه عمر من أحسن النَّاس وجهاً ، وكان يُقال له المصَوَّر من حسنِ وجهه . وأمَّا عبد الحميد فولي الكوفة لعمرَ بنِ عبد العزيز ، وروىٰ عنه الحديث .

وهـٰكذا بارك ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ في ذريَّة سيِّدنا زيد بن الخطَّاب فكان منهم العالم والورع والفقيه والوالي . . . . « التَّبيين » (ص : ٣٧٥ ـ ٣٧٦) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٣٤٦ ـ ٣٤٧) مع الجمع بينهما والتّصرّف .

لا تريدون أنْ تغفروه فبيعوا عباد الله ِولا تعذِّبوهم »[1] .

كيـفَ حظـيَ زيـــدٌ بالشَّـــهادة ؟

* بعد وفاةِ رسولِ ٱلله ﷺ ، ظهرت ردّةُ بعض القبائل ، وكان من أخطرها وأشرسها ردّة بني حنيفة تحت قيادة نبيّهم المزعوم مُسيلمة بن ثمامة الحنفيّ الوائليّ أحد المُعَمَّرين ، فرماها خليفةُ رسولِ ٱلله ﷺ سيِّدنا أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ بأحد رجالات الإسلام عبقريّ الحرب وسيف ٱلله خالد بن الوليد ، وبثلَّة من رجال عصر النُّبوَّة الصَّادقين ، فأخمدوا نارها ، وأسكتوا أُوَارَها ، وقلعُوا أنيابَها ، وأحرقوا إهابَها ، وكان من بين ليوثِ الله ِ هـٰؤلاء سيِّدنا زيد بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ الذي كان له دورٌ متألِّقٌ في هـٰذه المعارك الفاصلة التي قَضَتْ علىٰ المرتدّين ، وأقضَّتْ مضاجع المتنبّئين .

* ومن الجدير بالذِّكر أنَّ أمر مسيلمة الكذَّاب قد استفحل باليمامة ؛ قال أهلُ السِّير والتَّواريخ ما ملخَّصُهُ ومفادُهُ : « ولد مسيلمة في القريةِ التي تسمَّىٰ اليوم في اليمامة ، بالجُبَيلة بوادي حنيفة ، ونشأ مسيلمةُ هنالك ، وقد تلقَّب هـٰذا الكذَّاب في الجاهليَّة برحمـٰن اليمامة ، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّه شديد الطُّموح إلىٰ السَّيطرة والحكم منذ نشأته ، وكان دميماً قبيحاً علىٰ حدِّ تعبير مؤرِّخي العرب ؛ إذ وصفوه بقولهم : « كان رُويجلاً ، أُصيفر ، أُخينس » ، وقد تعلَّم هـٰذا الكذَّاب الحِيَلَ ، فغدا من فَجَرَةِ المشعبذين ، وفئة المحتالين ، ولمَّا جاء ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالإسلام ادَّعىٰ هـٰذا الفاجر النُّبوَّة ، ثمَّ تجرّأ وكتبَ إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ كتاباً يخبرُهُ فيه بأنَّه أُشْرِكَ في الأمر معه ، فأجابه الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ بأنَّ الأرض لله ـ عزَّ وجلَّ ـ يُورثُها مَنْ يشاء من عباده . . . . ومن العجيب أنَّ أَمْرَ هـٰذا المتنبّئ قد فشا في أهل اليمامة ، واجتمع حوله من المفتونين أربعون ألفاً ، وممَّا زاد من رصيد مسيلمة الإعلامي ، وافتتان العامة

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٧٧) .

به ، فتنة نهار الرّجّال ، أو الرّجّال بن عنفوة اليماميّ ، وكان هـٰذا المجرمُ قد التحق بالنَّبيِّ ﷺ ، وأسلم ، وقرأ القرآن ، وفَقِهَ الدِّين وأحكام الإسلام ، وكان ذكيّاً ذا بصيرة وحيلة ، فأرسله النَّبيّ ﷺ معلِّماً لأهل اليمامة ، ويردّ منهم من اتَّبع مسيلمة ، ويشدّ من عزائم المسلمين ، ويشغب معهم علىٰ المتنبّئ الكاذب المزعوم . لـٰكنَّ نهاراً اليماميَّ كان أشدّ فتنةً وفساداً علىٰ الحنفيّين اليماميّين من مسيلمةَ نفسِهِ ، ذلك أنَّ سواد أهل اليمامة يتبعُه ، فأقرَّ نبوَّة مسيلمة وزكَّاها ، ودعا النَّاس إليها ، وغرَّرَ بأكثر بني حنيفة ، وأقسم لهم بأنَّ رسولَ ٱلله محمَّداً ﷺ قد أشْرَكَ معه مسيلمة في الرِّسالة ، فأقبل النَّاس علىٰ مسيلمة أفواجاً يصدِّقونه رسولاً إليهم ، وبذلك صار في متناول يده كلّ ما يشاء ويهوىٰ ، وغدا السَّيد الذي لا ينُازع . ووضع مسيلمة ثقته كلّها في نهار الرّجّال ، وألقىٰ إليه مقاليد الأمور ، واتَّخذ مؤذِّناً شهد في أذانه أنَّ مسيلمة رسولُ ٱلله ، وكان يسجعُ لقومه سجعاً مضحكاً سخيفاً يضاهي به القرآن ، ويزعم أنَّه وحيٌ نزل عليه من السَّماء »[1] .

* وعن صفَاقةِ مسيلمة وإفكه يقول الطَّبريُّ رَحِمَهُ ٱللهُ في « تاريخه » : « وكان مسيلمة يصانعُ كلَّ أحدٍ ويتألَّفه ، ولا يبالي أن يطَّلع النَّاس منه علىٰ قبيح »[2] .

* أخذ مسيلمةُ يسجعُ للنَّاس السَّجعات ، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن : « إنَّ بني تميم قومٌ طهرٌ لَقَاح ، لا مكروه عليهم ولا إتاوة ، نجاورهُم ما حيينا بإحسان ، نمنعهم من كلِّ إنسان ، فإذا متْنا فأمرهُم إلىٰ الرَّحمـٰن » .

* وكان يهذي ويقول : « والشَّاء وألوانها ، وأعجبها السُّود وألبانها ؛

---

(١) انظر : « البداية والنِّهاية » (٥ / ٤٨ ـ ٥١) ، و« تاريخ الطّبريّ » (٢ / ٢٧٥ ـ ٢٧٧) ، و« حروب الرِّدة » (ص : ١٥٤ ـ ١٥٧) مع الجمع والتّصرّف .

(٢) « تاريخ الطّبريّ » (٢ / ٢٧٦) .

والشَّاة السَّوداء واللبن الأبيض ، إنَّه لعجبٌ محضّ ، وقد حرَّم المذق ، فما لكم لا تمجّعون » ! ! ؟ ! ! . . . . .

* كان قومه يطربون لهـٰذه السَّجعات الصَّفيقة الهابطة ، ومن ثمَّ يقرؤونها في مجالسهم ، ومنها قوله المضحك : « والمبذّرات زرعاً ، والحاصدات حصداً ، والذَّاريات قمحاً ، والطَّاحنات طحناً ، والخابزات خبزاً ، والثَّاردات ثرداً ، واللاقمات لقماً ، إهالة وسمناً ، لقد فُضِّلتُم علىٰ أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعترّ فآووه ، والباغي فناوئوه ، والنَّاعي فواسوه »[1] .

* ذكر ابنُ كثير والباقلاني أشياء عن سماجةِ كلام مسيلمة وسخفه ، فقالا ما فيه اللُّباب ، وجزيل الخِطَاب : « لمَّا قدمت وفود بني حنيفة علىٰ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ ، قال لهم : أسمعونا شيئاً من قرآن مسيلمة .

فقالوا : أو تعفينا يا خليفةَ رسولَ ٱلله ؟

قال ـ رضي ٱلله عنه ـ : لا بدَّ من ذلك .

فقالوا : يا خليفةَ رسولِ اللهِ كان يقول : يا ضفدعُ بنت الضّفدعين ، نقّي لكم تنقين ، لا الماء تكدّرين ، ولا الشَّارب تمنعين ، رأسك في الماء ، وذنبك في الطِّين .

وكان يقول : والفيل وما أدراك ما الفيل ، له زلوم طويل .

وكان يقول : والليل الدَّامس ، والذّئب الهامس ، ما قطعت أسد من رطب ولا يابس .

وذكروا أشياءَ من هـٰذه الخرافات التي يأنفُ من قولها الصِّبيان وهم يلعبون ، وأشياء من هـٰذا الكلام السَّخيف الرَّكيك البارد السَّميج ، فيقال : إنَّ

---

(١) « تاريخ الطّبريّ » (٢ / ٢٧٦) ، و« البداية والنّهاية » (٥ / ٥٢) .

أبا بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ كان إذا قرعَ سمعه هـٰذه التُّرهات قال لهم : ويحكم يا بني حنيفة ، أين كان يذهب بعقولكم ؟ أشهد أنَّ هـٰذا الكلام لم يخرجْ من إلـٰه » [١] .

* وساق الثَّعالبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ طرفاً من قرآنِ مسيلمةَ وأسجاعهِ ومخاريقهِ وتمويهاته [٢] ، وكيف كان يعتضدُ برجَّال بن عنفوة [٣] ، ويقرأ أقاويله التي منها قوله : « والشَّمس وضحاها ، في ضوئها ومنجلاها ، والليل إذا عداها ، يطلبُها ليغشاها ، فأدركها حتَّىٰ أتاها ، وأطفأ نورها فمحاها » [٤] .

---

(١) « البداية والنِّهاية » (٦ / ٣٢٦) ، و« إعجاز القرآن » (ص : ١٥٦ ـ ١٥٨) مع الجمع والتّصرّف .

(٢) كان مسيلمةُ أخزاهُ ٱلله يقول لقومه : « يا بني حنيفة ، ما جعلَ ٱلله قريشاً أحقّ بالنُّبوَّة منكم ، وبلادكم أوسع من بلادهم ، وسوادكم أكثر من سوادهم ، وجبريل ينزلُ علىٰ صاحبكم مثل ما ينزل علىٰ صاحبهم » .

(٣) كان هـٰذا المجرمُ رجَّال بن عنفوة من أصحابِ مسيلمة ، ومن رائشي نبله ، والحاطبين في حبله ، والسَّاعين في نصرته ، وقد ذكرهُ رسولُ ٱلله ﷺ بأنَّه من أهل النَّار .

(٤) « ثمار القلوب في المضاف والمنسوب » للثَّعالبيُّ (ص : ١٤٧) . وأوردَ الثَّعالبي أيضاً بعض ترّهات مسيلمة وهذيانه فقال : ومنها : « سبِّح اسمَ ربِّك الأعلىٰ ، الذي يسَّر علىٰ الحبلىٰ ، فأخرجَ منها نسمةً تسعىٰ ، من بين أحشاء ومِعَىٰ ، فمنهم مَنْ يموت ويدسّ في الثَّرىٰ ، ومنهم من يعيش ويبقىٰ إلىٰ أجل ومنتهىٰ ، واللهُ يعلم السِّرَّ وأخفىٰ ، ولا تخفىٰ عليه الآخرة والأولىٰ » .

ومنها : « اذكروا نعمةَ ٱلله عليكم واشكروها ؛ إذ جعل لكم الشَّمس سراجاً ، والغيثَ ثجَّاجاً ، وجعل لكم كباشاً ونعاجاً ، وفضَّةً وزجاجاً ، وذهباً وديباجاً ، ومن نعمته عليكم أنْ أخرجَ لكم من الأرض رمَّاناً وعنباً وريحاناً ، وحنطةً وزؤاناً » . « ثمار القلوب » (ص : ١٤٧) .

وأضاف ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ رصيد مسيلمة هـٰذه الأقصوصة الجميلة التي تشهدُ=

* وهٰكذا تفشَّىٰ خطر المرتدّين وتمشَّىٰ مرضهم في بني حنيفة ، فكان رجالُ الإسلام يتصدُّون لهم ، وفيهم سيِّدنا النَّجيبُ الحسيبُ زيدُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ الذي أسهم في بتر الخائن ابن عنفوة .

* فلمَّا اشتدَّ لهيب المعركة واستعرت نيرانُها ، اختلط المسلمون بالمرتدّين ، وأخذتهم الحميَّة لدين ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فأخذوا يحصدون رؤوسَ المرتدّين حصداً ؛ ويجعلونهم بإذن ٱلله كهشيم المحتظر ، وكانت راية المهاجرين مع سيِّدنا زيد بن الخطَّاب الذي اندفع وسط المرتدّين اندفاع السَّيل الهادر ، وعلىٰ الرّغم من كثافةِ الأعداء إلا أنَّ سيِّدنا زيداً شتَّت شملهم ، ولم يستطعْ أحدٌ أن يقفَ أمام حملاته القوية .

* هبَّتْ ريحٌ أثناءَ المعركة ؛ فأثارتِ الرِّمال في وجوه المسلمين ، فذهب قومٌ يتحدّثون إلىٰ سيِّدنا زيد بن الخطَّاب ما يصنعون أمام الرّيح وإزاءها ؛ فما كان جوابه إلاَّ قوله : « لا وٱلله لا أتكلَّم اليوم حتَّىٰ نهزمَهم ، أو ألقىٰ ٱلله

= بإفكه وكذبه وسخرية النَّاس منه فقال : « وفدَ عمرو بنُ العاص ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ مسيلمة في أيَّام جاهليَّته ، فقال له مسيلمةُ : ماذا أُنزِلَ علىٰ صاحبكم في هٰذا الحين ؟

فقال له عمرو : لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة .

فقال : وما هي ؟

قال : أنزل عليه : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر : ١ ـ ٣] .

ففكَّر مسيلمة ساعة ، ثمَّ رفع رأسه فقال : ولقد أُنزل عليَّ مثلها .

فقال له عمرو : وما هي ؟

فقال مسيلمة : يا وبر يا وبر ، إنَّما أنت إيراد وصدر ، وسائرك حفر نقر .

ثم قال : كيف ترىٰ يا عمرو ؟

فقال له عمرو : وٱلله إنَّك لتعلمُ أني أعلم أنك تكذب » . « البداية والنِّهاية » (٦ / ٣٢٦) .

فأكلمه بحجَّتي ، غُضّوا أبصاركم ، وعضّوا علىٰ أضراسكم أيها النَّاس ، واضربوا في عدوكم ، وامضُوا قدماً » (١) .

* وبينما كان سيِّدنا زيد يعضُّ علىٰ أضراسه ، ويمضي قدماً في قلب المرتدّين التقىٰ عدوّ ٱلله الخائن نهار الرَّجَّال بن عنفوة اليماميّ الحنفيّ ، الذي كان أشدّ فتنةً علىٰ بني حنيفة من مسيلمة الكذّاب نفسه ، فقال له سيِّدنا زيد : « ٱلله ٱلله ! فوالله لقد تركتَ الدِّين ، وإنَّ الذي أدعوك إليه لأشرفُ لك ، وأكثرُ لدنياك » . فأبىٰ ابنُ عنفوة إلا الكفْرَ والنِّفاق والرِّدَّةَ ، واجتلد زيدٌ وابن عنفوة جلاداً شديداً ، واستطاع زيدٌ أنْ يرديه ثمَّ يقتله ، وكان هـٰذا المرتدُّ الخائنُ يقودُ أحدَ فرق جيش مسيلمة الكذَّاب ، وكان مستشار مسيلمة الأوَّل الذي لا يعصي له أمراً ، فكانت نهاية هـٰذا الفاسد المفسد علىٰ يد سيِّدنا زيدِ بنِ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وخلَّصَ المسلمين من شرِّه وكيده وكفره ؛ ثمَّ قاتل حتَّىٰ قُتِلَ شهيداً ـ رضي ٱلله عنه ـ .

ريــح زَيْــد :

* كانت معركةُ اليمامة من أعظم المعارك في حروبِ الرِّدَّة ، قُضِيَ من خلالها قضاءً حاسماً علىٰ المتنبِّئين في بلاد العرب ، ولـٰكن استُشْهِد من المسلمين يومئذٍ أكثر من ألف ومئتي رجل ، بينهم تسعة وثلاثون من كبار الصَّحابة ومن حفَّاظ القرآن الكريم .

---

(١) انظر : « الصِّدِّيق أبو بكر » (ص : ١٥٠) لمحمد حسين هيكل ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ط : ٨ ـ دون تاريخ . ورسم ابنُ سعد شجاعةَ سيِّدنا زيد فقال : « كان زيد بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ يحمل راية المسلمين يوم اليمامة ، ولقد انكشف المسلمون حتَّىٰ غلبت حنيفة علىٰ الرّحَال ، فجعل زيد يقول : أمَّا الرِّحالُ فلا رِحالَ ، وأما الرّجالُ فلا رجالَ ؛ ثمَّ جعل يصيح بأعلىٰ صوته : اللهم إنِّي أعتذر إليك من فرار أصحابي ، وأبرأ إليك ممَّا جاء به مسيلمة ومحكَّم بن الطّفيل ، وجعل يشتدُّ بالرَّاية يتقدَّمُ بها في نَحْرِ العدوِّ ، ثمَ ضاربَ بسيفه حتَّىٰ قُتل شهيداً ـ رضي ٱلله عنه ـ » . « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٧٧) بتصرّف يسير جداً .

* وقد جزع أهل مكَّة والمدينة لمن استُشهد من رجال الصَّحابة باليمامة ، واشتدَّ حزنهم علىٰ الشُّهداء الأبرار ، ولم يكن يعدل حزن المسلمين علىٰ هـٰؤلاء الشُّهداء إلا فرحهم بما آتاهم ٱلله من النَّصر .

* كان من بين الشُّهداء سيِّدنا زيد بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وكان معه في هـٰذه المعركةِ الحاسمةِ ابن أخيه سيِّدنا عبد ٱلله بن عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، بيد أنَّ ابن عمر عاد من اليمامةِ بعد أنْ أبلىٰ بلاءً حسناً ، فلمَّا لقيه أبوه سيِّدنا عمر قال له في حزمٍ ممزوج بالإيمان : « ما جاء بكَ وقد هلكَ زيدٌ ؟ ! ألا واريتَ وجهَك عنّي ؟ ! » فأجاب عبدُ ٱلله إجابةً ألبسَها البدرُ رواءَهُ ؛ وأوقد الإيمانُ فيها أضواءَه : « وٱلله يا أبتِ قد حرصتُ علىٰ ذلك أنْ يكون ، ولـٰكنَّ نفسي تأخَّرت ، فأكرمه اللهُ بالشَّهادة » .

* وفي رواية : أنَّه قال لأبيه عمر : « سأل ٱلله الشَّهادة فأُعطيها ، وجهدتُ أنْ تُساقَ إلي فلم أُعْطَهَا » .

* وكان سيِّدنا زيدُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ قد استُشهد باليمامة سنة (١٢ هـ) في خلافة سيِّدنا أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ .

*وحزن سيِّدنا عمر علىٰ زيد حزناً شديداً ، وكان يقول : « أسلمَ قبلي ، واستُشهد قبلي »[1] ، وكان يقول : « ما هبَّتِ الصَّبا إلا وأنا أجِدُ منها ريحَ زيد » ، وفي لفظ : « إنَّ الصَّبا لتهبُّ فتأتيني بريح زيد بن الخطَّاب » .

* وكان الذي قَتَل زيداً اسمه : أبو مريم الحنفيّ ، فقد أخرجَ ابنُ سعد

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٧٨) ، و« تاريخ الإسلام » للذّهبيّ (عهد الخلفاء الرّاشدين : ص : ٦٠) . وفي رواية أنّ سيّدنا عمر قال : « رحم ٱلله زيداً ، سبقني أخي إلىٰ الحسنيين : أسلم قبلي ، واستُشهد قبلي » . « أسد الغابة » (١ / ١٣٤) ترجمة رقم : (١٨٣٤) ، و« الاستيعاب » (١ / ٥٢٥) ، ومعنىٰ « الصَّبا » : ريح معروفة .

عن كثير بن عبد ٱلله المزنيّ ، عن أبيه ، عن جده قال : « سمعتُ عمرَ بنَ الخطَّاب يقولُ لأبي مريم الحنفيَّ : أقتلتَ زيدَ بنَ الخطَّاب ؟

فقال : أكرمه اللهُ بيدي ، ولم يهنّي بيده .

فقال عمر : كم ترىٰ المسلمين قَتَلُوا منكم يومئذٍ ؟

قال : ألفاً وأربع مئة يزيدون قليلاً .

فقال عمر : بئس القتلىٰ !

قال أبو مريم : الحمدُ لله الذي أبقاني حتَّىٰ رجعتُ إلىٰ الدِّين الذي رضي لنبيِّه ﷺ ، وللمسلمين .

قال : فَسُرَّ عمر بقوله ، وكان أبو مريم قد قضىٰ بعد ذلك علىٰ البصرة »[1] .

* كان سيِّدنا عمر يذكرُ أخاه زيداً دائماً ، فقد روي أنَّ مُتمّمَ بنَ نُويرة دخل علىٰ عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ فقال له سيِّدنا عمر : « ما بلغَ من وجْدِكَ علىٰ أخيك مَالِك ؟ » ـ وكان متمّم أعور ـ قال : « بكيتهُ حولاً حتَّىٰ أسعدَتْ عيني الذَّاهبة عيني الصَّحيحة ، وما رأيت ناراً إلا كدت أنقطع لها أسفاً عليه ؛ لأنَّه كان يوقدُ ناره إلىٰ الصُّبح مخافة أنْ يأتيه فلا يعرفُ مكانه » .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٧٧ ـ ٣٧٨) . وذكر البلاذري أنَّ أبا مريم الحنفيّ اسمه : صُبيح بن محرِّش ؛ وقال بعضهم : اسمه إياس بن صبيح ، وهو أوّل مَنْ قضىٰ بالبصرة زمن عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وتوفي بِسَنبيل من الأهواز . « فتوح البلدان » (ص : ١٠٩) بتصرف .

وقال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قتل زيدَ بن الخطاب سلمة بن صبيح ابن عمّ أبي مريم » .

وقال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « النَّفس أميل إلىٰ هـٰذا ؛ لأنَّ أبا مريم لو كان قاتِل زيد ما استقضاه عمر ، وٱلله أعلم » . « الاستيعاب » (١ / ٥٢٤ ـ ٥٢٥) .

قال عمر : « فأنشدني بعض ما قلتَ فيه » .

فأنشده مرثيته التي يقولُ فيها :

وكُنَّا كَندمَانَيْ جَذيمةَ حقبةً ... من الدَّهر حتَّىٰ قيلَ لن يتصدَّعا
وعشْنَا بخيرٍ في الحياةِ وقبلنا ... أصابَ المنايا رهْط كسْرىٰ وتُبَّعا
فلمَّا تفرَّقنا كأنّي ومالكاً ... لطولِ اجتماع لم نَبِتْ ليلةً معا

فقال عمر : « لو كنتُ أُحْسِنُ قولَ الشِّعر ، لرثيتُ أخي زيداً مثلما رثيت به أخاك مالكاً » .

فقال : « يا أبا حفص ، واللهِ لو علمتُ أنَّ أخي صار بحيثُ صار أخوك ما رثيتُه » .

فقال عمر : « ما عزَّاني أحدٌ بأحسن ممَّا عزيتني » [(١)] .

* وروي « أنَّ متمّماً رثىٰ زيداً أخا عمر ؛ فلم يُجِدْ ، فقال له عمر : لم تَرْثِ زيداً كما رثيتَ مالكاً .

فقال : إنَّه واللهِ ليحرّكني لمالك ما لا يحركني لزيد » [(٢)] .

* وأخرج الحاكمُ بسنده إلىٰ عمرَ بنِ عبد الرَّحمـٰن بن زيد بن الخطَّاب قال : « كان عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ يُصاب بالمصيبة فيقول : أُصبتُ بزيد بن الخطَّاب فصبرتُ . وأبصر عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ قاتل أخيه زيد فقال له : ويحك ! لقد قتلتَ لي أخاً ما هبَّتِ الصَّبا إلا ذكرته » [(٣)] .

---

(١) « فتوح البلدان » (ص : ١١٨) ، و« الاستيعاب » (١ / ٥٢٥) ، و« التَّذكرة الحمدونيَّة » (٤ / ٢٤٩ ـ ٢٥٠) مع الجمع والتّصرّف .

(٢) « التَّذكرة الحمدونيَّة » (٤ / ٢٥٠) .

(٣) « المستدرك » (٣ / ٢٥٣) ترجمة رقم : (٥٠٠٨) . وعن عمر بن عبد الرَّحمـٰن بن زيد بن الخطَّاب قال : « كان عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ يُصاب بالمصيبة=

* وعن شدّة تأثر سيِّدنا عمر وحزنه لاستشهاد أخيه زيد يقولُ سفيان بن عُيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قُتِل زيدُ بنُ الخطَّاب باليمامة ، فوجدَ عليه عمر وَجْداً شديداً »[1] .

* ظلت ذكرىٰ سيِّدنا زيد بن الخطَّاب تصحبُ سيِّدنا عمر في معظم

= فيقول : أصبت بزيد بن الخطَّاب فصبرت » .

وقال عمر بن عبد الرَّحمـٰن : « قال عمر لقاتل زيد : غيّب عني وجهك » . مختصر تاريخ دمشق » (١٩ / ٩٦) .

وأورد الإمام السَّيوطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « شرح شواهد المغني » أنَّ « سيِّدنا عمرَ بنَ الخطَّاب ـ رضوان ٱلله عليه ـ قال لمتمّم بن نويرة : « ما أشدَّ ما لقيتَ علىٰ أخيكَ من الحزن ؟

قال : كانت عيني هـٰذه قد ذهبَتْ ـ وأشار إليها ـ فبكيتُ بالصحيحة ، وأكثرت البكاء حتَّىٰ أسعدتْها العينُ الذَّاهبة ، وجَرَتْ بالدَّمع .

فقال عمر : إنَّ هـٰذا الحزنَ شديدٌ ما يحزنُ هـٰكذا أحدٌ علىٰ هالكه ، ثمَّ قال عمر : يرحمُ اللهُ زيدَ بنَ الخطَّاب ، إنِّي لأحسبُ أنِّي لو كنتُ أقدرُ علىٰ أنْ أقولَ الشِّعر لبكيته كما بكيت أخاك .

فقال متمّم : يا أمير المؤمنين ، لو قُتِلَ يوم اليمامة كما قُتِلَ أخوك ما بكيته أبداً . فأبْصَرَ عمرُ وتعزَّىٰ عن أخيه ، وكان قد حزن عليه حزناً شديداً . وكان عمر يقول : إنَّ الصَّبا لتهبّ فتأتيني بريح زيدِ بنِ الخطَّاب . قال ابنُ جعفر : فقلتُ لابن أبي عون : أمَا كان عمرُ يقول الشِّعر ؟ فقال : لا ، ولا بيتاً واحداً » . « شرح شواهد المغني » (٢ / ٥٦٩ ـ ٥٧٠) .

وذكر الجاحظُ أنَّ سيِّدنا عمرَ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال لأبي مريم الحنفيّ قاتل زيد بن الخطَّاب : « لا يحبُّك قلبي أبداً حتَّىٰ تحبَّ الأرضُ الدم المسفوح » . « البيان والتَّبيين » (١ / ٣٧٦) .

(١) « الاستيعاب » (١ / ٥٢٣) .

الأحايين والأوقات ، وستظلُّ ذكرىٰ زيد تصحبنا كلَّما هبت نسائم الصَّبا إلىٰ ما يشاء ٱلله ؛ فرضي اللهُ عن زيد بن الخطَّاب ، وحشرنا وإيَّاه يوم الحساب ، وعفَا عنَّا بفضله إنَّه الكريم الوهَّاب .

✍ ✍ ✍




عتبةُ بنُ غزوان

رضي ٱلله عنه

* أسلم سابع سبعة ؛ وشهد بدراً والمشاهدَ بالمعيَّة النَّبويَّة .
* كان من الرُّماة المذكورين ؛ ومن أمراء الغُزاة واختطَّ البصرة .
* فتح كثيراً من البلدان ؛ وله كثيرٌ من الآثار الحِسَان .




عتبةُ بنُ غزوان
رضي ٱلله عنه

مـنْ هـٰذا العَـــلَم ؟

* آثارُ هـٰذا الصَّحابي العَلَم تشهدُ له ، وترسمُ سيادته ، وجهاده ، وفتوحاته ، وفراسته ، وتبصّره بمصالح المسلمين ، وهو مع هـٰذه المحاسن لا يعرفُه شطرٌ كبيرٌ من محبِّي الصَّحابة ، وممَّن يطَّلعون علىٰ تاريخ رجال عصر النُّبوَّة ، ويعكفون علىٰ دراسةِ حياتهم ، وعلىٰ الرّغم من أنَّ آثارَ هـٰذا الرَّجل باقيةٌ إلىٰ الآن تشهد بِصِدْقهِ ، فإنَّنا مُقصِّرون في حقِّه ، وحقٌّ كثيرين ممَّن لهم أنصعُ الأعمالِ في التَّاريخ الإسلاميّ الزَّاهر المُـزْهر بالعطاء والمحاسن .

* مَنْ منَّا لا يعرفُ مدينة البصرة ودورها في التَّاريخ الإسلاميّ والأدبيّ والعِلميّ والحضاريّ ؟

* ومَنْ منَّا لا يعرفُ أنَّ البصرةَ هي إحدىٰ روافد العِلْم والعلماء منذ أن اختطَّها هـٰذا الرَّجل في عصر النُّبوَّة وعصر الخلافة الرَّاشدة وحتَّىٰ الآن ؟

* هـٰذا العَلَمُ الكبيرُ نقرأُ اسمه في الورقة الأولىٰ فيمن شهد شهادة النَّجاة ، وآمنَ بِنَبيّ النَّجاة ﷺ ؛ إذ إنَّ رقمه في سجلِّ الإيمان هو السَّابع ، فأكرمْ بهـٰذا السَّبْق ! وأعظمْ به !

* وإذا أردنا أن نتعرَّفَ أسماء المجاهدين الذين حضروا بدراً والمشاهد جميعها بالمعيَّة النَّبويَّة ، ألفينا أنَّ هـٰذا العَلَم كان من السَّابقين في هـٰذا المضمار سبقاً ؛ وممَّن فاحتْ أعمالهُم كأزاهير الرِّياض عبقاً .

* وإذا اطَّلعنا علىٰ سجلِّ المهاجرين الهجرتَيْن ، رأينا أنَّ صاحبنا قد حظي بالسَّبق لِنَيْلِ هـٰذا الشَّرف الكريم ، والخير العميم ، والأجر الجسيم .

* ولهـٰذا العَلَم الكبير سجلٌّ حافلٌ بألوان العظائم ، فتعالوا نقرأ ما جادت به قرائح أهل المكارم ؛ إذ قالوا : « عتبةُ بنُ غزوان بن جابر بن وُهَيب ؛ السَّيِّدُ الأميرُ المجاهد أبو غزوان المازنيّ ، حليف بني عبد شمس . أسلمَ سابع سبعةٍ في الإسلام ، وهاجرَ إلىٰ الحبشة ، ثمَّ شهد بدراً والمشاهد ، وكان أحد الرُّماة المذكورين ، ومن أمراء الغُزاة ، وهو الذي اختطَّ البصرة وأنشأها »[1] .

* قال ابنُ دُريد رَحِمَهُ ٱللهُ : « عتبةُ بنُ غزوان ، افتتح الأُبُلَّة ، وكان من المهاجرين الأوَّلين ، ومصَّر البصرة ، وكان من خيار المسلمين »[2] .

* نَسْمعُ من حلىٰ « الحلْية » ونستمعُ إلىٰ أبي نُعيم ونستمتعُ بجمالِ كلماته التي افتتح بها ترجمةَ سيِّدنا عتبةَ بنِ غزوان فقال : « ومنهم الزَّاهدُ في الإمرة والسُّلْطان ، والتَّاركُ لولايةِ المدن والبُلدان ، سابعُ الإسلام والإيمان ، أبو عبد ٱلله عتبةُ بنُ غزوان . . . له الخطبةُ المشهورةُ في تولّي الدُّنيا وتصرّمها ، وفي تغيّر الأيَّام وتلوّنها »[3] .

* إذن ، فَعُتْبةُ بنُ غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ من السَّابقين إلىٰ مطلع نور

---

(١) « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٠٤ ـ ٣٠٦) . وانظر مصادره في الحاشية . وانظر : « الرَّوض المعطار في خبر الأقطار » (ص : ٨ ، و٦٢ ، و١٠٥ ، و١٠٧ ، و٢٦٧ ، و٣٣١ ، و٣٨٣) ، و« البداية والنِّهاية » (٧ / ٤٩) ، و« المعجم الكبير » (١٧ / ١١٢ ـ ١١٨) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٣١٩) ، و« طبقات ابن سعد » (٣ / ٩٨ ـ ٩٩) ، و« الاستيعاب » (٣ / ١١٣ ـ ١١٦) ، وغيرها كثير .

(٢) « الاشتقاق » (ص : ٣١١) .

(٣) « حلية الأولياء » (١ / ١٧١) .

الإسلام ، وقد أبان هـٰذا الأمر النَّفيس في خطبته المشهورة بالبصرة ، فقال : « لقد رأيتُني سابعَ سبعةٍ مع رسولِ ٱلله ﷺ ؛ ما لنا طعامٌ إلا ورق الشَّجر ، حتَّىٰ قرحت أشداقنا » .

* وفي الوقت الذي أخذت قريشٌ تركبُ طريقَ الغيّ والعناد ، وتكيلُ الضَّربات المؤلمة للمسلمين أهل السَّداد ، فُتِحَ لهم بابُ الأمل بالهجرةِ إلىٰ الحبشةِ ، فهاجر عتبةُ إليها مع مَنْ هاجر من المسلمين ، ونَعِمَ فيها مع إخوانه المهاجرين ، ولـٰكنْ نُمي إلىٰ المسلمين المهاجرين أنَّ قريشاً قد أسلمتْ وكفَّتْ أذاها عمَّن أسلم ، فانصرفَ عتبةُ ومعه ثلَّةٌ وعادوا إلىٰ مهوىٰ الأفئدة مكَّةَ المكرمةِ ، بَيْدَ أنَّهم أَلْفَوا الأمرَ علىٰ غير ما وصل إليهم ، فقريش لم تسلمْ ، بل إنَّ أذاها زاد ضراوةً وضراماً علىٰ من أسلم ، ومسَّ عتبة بن غزوان الأذىٰ والضّيق ، فصبرَ وصابرَ إلىٰ أنْ فتحَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ علىٰ المسلمين سبيلَ الهجرة إلىٰ المدينة ، فترك عتبةُ بيتَه ومالَه ، وهاجر إلىٰ المدينةِ يصحبُ المقداد بن عمرو ، الصَّحابي الفارس ، حتَّىٰ وصلا المدينة ، وهناك نزل سيِّدنا عتبةُ علىٰ عبَّادِ بنِ بشْر الأنصاريّ الخزرجيّ في داره ، وقيل : نزل علىٰ عبد اللهِ بنِ سلمة العجلانيّ ؛ ولمَّا كانتِ المؤاخاةُ بين المهاجرين والأنصار ، كان نصيبُ سيِّدنا عتبة في المؤاخاة مع فارسٍ أنصاري شُجاعٍ ، له المقاماتُ المحمودةُ في المغازي النَّبويَّة ، وله مشْيَةٌ مشهورةٌ ، وعصابةٌ حمراءُ يعلمُ بها في الحرب ، هـٰذا الفارسُ هو أبو دجانة سمَاكُ بنُ خرشَةَ الأنصاريّ ـ رضي ٱلله عنه ، وحشرنا في معيته ، وعفا عنَّا بفضله ورحمته [١] ـ .

* في رحاب الفضائل أبدعَ كلُّ واحدٍ منهما ، وعمل ما بوسعه أنْ يعملَ في سبيل نصرةِ الإسلام ، وكان لسيِّدنا عتبةُ بنُ غزوان المقاماتِ الرَّائدة ؛ في تواريخِ الفُتوحات في عهد الخلافة الرَّاشدة .

---

(١) « الاستبصار » (ص : ١٠٣) .

عتبةُ ورحلةُ الجهَاد :

* أسلم سيِّدنا عتبةُ بنُ غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ وهو في ريعان الشَّباب وألَقِهِ وروضهِ ونضارتهِ ، فقد دلفَ إلىٰ الإسلام ولمَّا يتجاوز الثَّلاثين من العمر ، ولمَّا هاجر إلىٰ المدينة المنوَّرة كان قد بلغ الأربعين ، وكان من المعدودين الذين يتقنون فنَّ الرَّمي ؛ إذ إنَّ القوَّة كلّ القوّة في الرَّمي .

* أطلَّت السَّنةُ الثَّانيةُ للهجرة علىٰ الدُّنيا ، فبعث رسولُ ٱللهِ ﷺ ثمانيةَ رجال من أصحابهِ من المهاجرين إلىٰ مكان يسمَّىٰ « نخلة » ؛ بقيادة عبد ٱلله بن جحش الأسديّ ، وكان من أفراد السَّريَّة عتبةُ بنُ غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وكانت مهمَّةُ هـٰؤلاء مهمَّةً خطيرةً تتطلَّبُ الجرأة والشَّجاعة وحسن الرَّأي ، وكانوا كذلك ، فقاموا في تنفيذ مهمَّتهم ، ونزل في حقِّهم قُرآنٌ يُتلىٰ ، وقد فصَّلْتُ ذلك في كتابي « رجال مبشَّرون بالجنَّة » [1] .

* انتظم سيِّدنا عتبةُ في جنود الرَّحمـٰن مع كلِّ غزوة غزَاهَا رسولُ ٱلله ﷺ ، فشهدَ بدراً والمشَاهد كلَّها ، لم يتخلَّفْ عن واحدة منها ، فكان من الأوائلِ والقلائلِ الذين شاركوا رسولَ ٱلله ﷺ في جهاده ومشاهده ، وأعانوه علىٰ نشْر دينِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وإعلاء كلمته ، وتوفي رسولُ ٱلله ﷺ وهو راضٍ عن عتبةَ بنِ غزوان ؛ وسائر الصَّحابة عليهم من ٱلله الرِّضوان .

* ولمَّا كانت الخلافةُ الرَّاشدةُ نجمتْ فتنةُ المرتدين ، فكان سيِّدنا عتبةُ ـ رضي ٱلله عنه ـ ممَّن أطفأَ شرارَها ، وحارب ديارَها ، حتَّىٰ خبتْ نارُها ، وانطفأ أوارُها ، وعادت راياتُ المسلمين تخفقُ صافيةً علىٰ البلدان الإسلامية في عصْر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ .

* تطلَّعت بصيرةُ سيِّدنا عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ لفتوح البُلدان ، فكان له

---

(1) « رجال مبشَّرون بالجنَّة » (ص : ٢٧٠ ـ ٢٧٣) ، دار ابن كثير ـ دمشق ـ ط : ٥ ـ ٢٠٠٣ م .

ما أراد ، فانطلقت جيوشُ المسلمين نحو بلاد العراق لجهاد الفرس ، وإعلاء كلمةِ ٱلله ، وكان سيِّدنا عتبةُ من بين جنود ٱلله الذين قاتلوا تحت لواء سيِّدنا سعد بن أبي وقَّاص في القادسيَّة [1] ، وفي سائر المعارك الأخرىٰ التي قامت في هاتيك البقاع ، حتَّىٰ تمَّ للمسلمين فتح المدائن وغيرها من الأصقاع .

الغَــازي الفَــاتحُ :

* الصَّحابيُّ الجليلُ عتبةُ بنُ غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ أحد القادةِ الفاتحين ؛ الذين دوَّخُوا الفرسَ في العراق وفي كلِّ الميادين ، وأحرزوا عليهم الانتصارات المشرِّفة ، وكانت العَيْنُ العمريَّةُ الفاروقيَّةُ تفلِّي رجال عصر النُّبوَّة الميامين ، وتختارُ الرَّجلَ المناسب للمهمَّات الخطيرة التي يعودُ نفعُها علىٰ الإسلام والمسلمين .

* وحينما كان سيِّدنا عتبةُ في صحبةِ سيِّدنا سعد بن أبي وقَّاص في فتوحات العراق ، كتب سيِّدنا عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ سيِّدنا سعد أنْ يضربَ قيروانه بالكوفة ، وأوعز إليه أن : « ابعثْ عتبةَ بنَ غزوان إلىٰ أرضِ الهند ـ البصرة ـ فإنَّ له من الإسلام مكاناً ، وقد شهد بدراً ، وقد رجوتُ جزءه عن المسلمين ـ والبصرة تسمَّىٰ يومئذٍ أرض الهند ـ فينزلها ، ويتَّخذ بها للمسلمين قيرواناً ، ولا يجعلْ بيني وبينَهم بحراً » [2] .

* قرأ سيِّدنا سعدُ بنُ أبي وقَّاص ـ رضي ٱلله عنه ـ كتابَ سيِّدنا عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فَدَعَا عتبةَ بنَ غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وأطْلَعَه علىٰ فحوىٰ الكتاب العُمريّ ، فاستجاب عتبةُ للرَّغبةِ العُمريَّةِ الميمونة ، وانطلقَ من أرض الكوفةِ في ثمان مئة رجلٍ من المجاهدين ، فساروا حتَّىٰ نزلوا البصرة ـ وإنَّما سمِّيت البصرةُ بصرةً ؛ لأنَّها كانت فيها حجارة سُود ـ فلمَّا نزلها

---

(١) انظر في هـٰذا : « طبقات ابن سعد » (٧ / ٥) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٧ / ٦) ، وانظر : معجم البلدان » (١ / ٤٣٢) .

عتبةُ ـ رضي ٱلله عنه ـ ضربَ قيروانه ، وضربَ المسلمون أَخْبِيَتَهم وخيامَهم ، وضرب عتبةُ خيمةً له ، ثمَّ بعثَ عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ بالرّجال ، فلمَّا كثروا بَنَىٰ رهط منهم فيها سبْعَ دساكر من لِبْنٍ ، ثمَّ إنَّ عتبةَ خرجَ إلىٰ فراتِ البصرة ففتحه ، ورجعَ إلىٰ البصرة ، وكان أهلُ البصرة يغزون جبالَ فارس ممَّا يليها ، وجاء كتابُ عمرَ بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ عتبةَ بنِ غزوان أن انزلْهَا بالمسلمين ، فيكونوا بها ، وليغزوا عدوّهم من قريب .

* وتذكرُ مصادرُ التَّاريخ والسِّيرة أنَّ سيِّدنا عتبةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ قد فتح الأُبُلَّة حين وجَّهه سيِّدنا عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ منطقةِ البصرة ، وكان عمر قد أوصاه فقال : « يا عتبةُ ! إنِّي أريدُ أنْ أوجِّهك لتقاتلَ بلد الحيرة ، لعلَّ اللهَ سبحانه يفتحها عليكم ، فسِرْ علىٰ بركةِ اللهِ تعالىٰ ويمنِهِ ، واتَّقِ اللهَ ما استطعت ، واعلم أنَّك ستأتي حومةَ العدو ، وأرجو أنْ يعينَكَ اللهُ عليهم ويكفيكهم ، وقد كتبتُ إلىٰ العلاءِ بنِ الحضرميّ أنْ يمدّك بعرفجة بن خزيمة ، وهو ذو مجاهدةٍ للعدوّ ، وذو مكايدة شديدة ، فشاوِرْهُ وادعُ إلىٰ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فَمَنْ أجابك فاقبلْ منه ، ومَنْ أبىٰ فالجزية عن يدِ مذلةٍ وصَغَارٍ ، وإلاَّ فالسَّيف في غير هوادةٍ ، واستنفرْ مَنْ مررتَ به من العرب ، وحثَّهم علىٰ الجهاد ، وكايد العدو ، واتقِ ٱلله ربَّك »[1] .

---

(١) « الاستيعاب » (٣ / ١١٤ ـ ١١٥) ، وقد جاءت الوصيَّة العمريَّة بشكل أوضح عند الطَّبريّ وابن كثير ؛ إذ قالا : إنَّ عمرَ قال لعتبةَ بنِ غزوان ؛ إذْ وجَّهه إلىٰ البصرة : « يا عتبةُ ، إنِّي قد استعملتُك علىٰ أرضِ الهند ، وهي حَومةٌ من حَومةِ العدو ، وأرجو أنْ يكفيكَ ٱلله ما حولها ، وأنْ يعينَكَ عليها ، وقد كتبتُ إلىٰ العلاءِ بنِ الحضرميّ أنْ يُمدَّك بعرفجةَ بنِ هرثمة ، وهو ذو مجاهدة للعدو ، ومكايدته ، فإذا قدمَ عليكَ فاستشرْهُ ، وقرّبه ، وادعُ إلىٰ اللهِ ، فَمَنْ أجابَكَ فاقبلْ منه ، ومَنْ أبىٰ فالجزية عن صَغَارٍ وذلّةٍ ، وإلا فالسَّيفُ في غير هوادة ، واتّق اللهَ فيما وُلّيتَ ، وإيّاك أنْ تُنازعكَ نفسُك إلىٰ كبْرٍ يفسدُ عليك آخرتك . وقد صحبْتَ رسولَ ٱلله ﷺ فعززْتَ به بعد الذِّلَّة ، وقويتَ به بعد الضُّعف حتَّىٰ صِرْتَ أميراً مُسلَّطاً ، وملكاً مطاعاً ، تقولُ=

* صدع سيِّدنا عتبةُ للأوامر العمريَّة ، فافتتحَ الأُبُلَّة ، والأُبلَّة : مدينةٌ قديمةٌ عامرةٌ ، فتحها عتبةُ بنُ غزوان في زمنِ عمرَ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ولمَّا نزل عتبةُ الخُريبة ، وبالأبلَّة خمس مئة من الأساورة ، وكانت مرفأ الصِّين وما دونها ، خرجَ إليهِ أهلُ الأُبلَّة ، فناهَضَهم عتبةُ ، وأمرَ رجُلَين من أصحابهِ فقال لهما : « كُونا في عشرةِ فوارس في ظهورنا ، فتردَّان المنهزم ، وتمنعان مَنْ أرادَنَا من ورائنا » [1] .

* التقىٰ عتبةُ ومَنْ معه مِنَ المجاهدين أهل الأبلَّة ، فاقتتلوا مقدار ذبح جَزور وقسمها ، ثمَّ منحَ اللهُ المسلمين أكتافَ العدو ، فولَّوا منهزمين ، وركنُوا إلىٰ الفرار ، حتَّىٰ دخلُوا المدينة ، ثمَّ رجع سيِّدنا عتبةُ بنُ غزوان إلىٰ مكانِ عسكره ، فأقاموا أياماً ، وألقىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ في قلوب العدو الرُّعبَ الشَّديدَ ، وزُلزلوا زلزالاً شديداً ، ولشدَّةِ هَلَعهم واضطرابهم خرجُوا عن المدينة ، وحملوا ما خفَّ وزْنُهُ ، وارتفع ثمنُه ، وعبروا الفرات ، وخَلَّوا المدينةَ وراءهم قاعاً صَفْصفاً لا حركةَ فيها ، ولا أنْسَ ، ولا أنيس ، وعندما دخلها المسلمون ؛ فأصابوا متاعاً ، وسلاحاً ، وسبياً ، وعيناً ، فاقتسموا العين والأموال ، وشهد فتح الأبلَّة مئتان وسبعون مُقاتلاً من المجاهدين .

* ومن الكراماتِ الجليَّةِ التي حدثت في فتح الأبلَّة ما ذكره الطَّبريُّ وغيرهُ قالوا : « لمَّا خرج النَّاسُ لقتالِ أهلِ الأبلَّة قالوا للعدو : نعبرُ إليكم ، أو تعبرون إلينا ؟

= فيُسمعُ منك ، وتأمرُ فيطاع أمرك ، فيا لها نعمةٌ إنْ لم ترفعْكَ فوقَ قَدْرك وتبطرْكَ علىٰ مَنْ دونَك ، احتفظْ من النّعمة احتفاظك من المعصية ، وَلَهِيَ أخوفهما عندي عليك أنْ تستدرجَكَ وتخدَعَكَ فتسقطُ سقطةً تصيرُ بها إلىٰ جهنَّم ، أعيذُكَ بٱلله ونفسي من ذلك . إنَّ النَّاس أسرعوا إلىٰ ٱلله حين رُفعت لهم الدُّنيا ، فأرادوها ، فأَرِدِ ٱلله ولا تُرِدِ الدُّنيا ، واتق مصارع الظَّالمين » . « تاريخ الطَّبريّ » (٤ / ١٥٠) ، و« البداية والنِّهاية » (٧ / ٤٨) .

(١) « الروض المعطار » (ص : ٨) .

فقالوا : اعبروا إلينا .

فأخذوا خشَب العُشَر ، وأوثقوه وعبروا ، فقال المشركون : لا نأخذُ أوَّلهم حتَّىٰ يعبرَ آخرهم .

فلمَّا صاروا علىٰ الأرض كبَّروا تكبيرة ، ثمَّ كبَّروا الثَّانية ، فقامت دوابُّهم علىٰ أرجلِها ، ثمَّ كبَّروا الثَّالثة ، فجعلت الدَّابةُ تضربُ بصاحبها الأرضَ ، وجَعَلْنَا ننظرُ إلىٰ رؤوسٍ تندرُ ولا نرىٰ مَنْ يضربها ، وفتح اللهُ علىٰ أيديهم المدينة . وقال سلمةُ بنُ فلان شهدتُ فتحَ الأبلَّة ، فوقع في سهمي قدر نحاس ، فلمَّا نظرتُ إذا هي ذهب فيها ثمانون ألف مثقال ، وكتبَ في ذلك إلىٰ عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فكتب عمرُ أنْ يحلفَ سلمة بٱلله لقد أخذتُها يوم أخذتُها وهي عنده نحاس ، فإنْ حلف سلّمت إليه ، وإلا قسمت بين المسلمين ، فحلفتُ فسلِّمَتْ لي ، فأصولُ أموالنا اليومَ منها . وقال خالدُ بنُ عُمير : شهدتُ فتْحَ الأبلَّة مع عتبةَ بنِ غزوان ، فأصبنا سفينةً مملوءةً جوزاً ، فقال رجلٌ منَّا : ما هـٰذه الحجارة ؟ وكسرناها فأكلْنا منها ، فقُلنا هـٰذا طعامٌ طيِّبٌ » [1] .

---

(١) « الرَّوض المعطار » (ص : ٨) . وانظر خبر خالد بن عُمير في : « المعجم الكبير » للطَّبرانيّ (١٧ / ١١٣) ، وعندما تحدَّث ياقوتُ الحمويّ عن « الأبلَّة » أعطانا معلوماتٍ مهمةً أيضاً ومفادها : « الأُبُلَّة بلدةٌ علىٰ شاطئ دجلة البصرة العظمىٰ في زاوية الخليج الذي يدخل إلىٰ مدينةِ البصرة ، وهي أقدمُ من البصرة ؛ لأنَّ البصرة مُصّرت أيَّامَ عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وكانت الأبلَّةُ حينئذٍ مدينةً فيها مسالِحُ من قبل كسرىٰ ، وقائدٌ ، وكان خالدَ بنُ صفوان يقول : ما رأيتُ أرضاً مثل الأبلَّة مسافةً ، ولا أغذىٰ نطفة ، ولا أوطأ مطيّة ، ولا أربح لتاجرٍ ، ولا أخفىٰ لعائذ .

وقال الأصمعيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ : جِنَانُ الدُّنيا ثلاث : غوطةُ دمشق ، ونهرُ بلخ ، ونهرُ الأبلَّة . وقد نُسِبَ إلىٰ الأبلَّة جماعةٌ من رواةِ العِلْم ، منهم : شيبانُ بنُ فرّوخ الأبلّيّ ، وحفصُ بنُ عمر بن إسماعيل الأبلّيّ ، وابنُه إسماعيلُ بنُ حفص أبو بكر الأبلّيّ ، =

* وحينما نذكرُ مدينةَ البصرة العراقيَّة ، نتذكرُ معها أوَّل مَنْ مصَّرها ، وهو سيِّدنا عتبةُ بنُ غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وهـٰذه المدينةُ منْ أغنىٰ مدنِ العالم الإسلامي بالفِكْر والعُلماء والأدباء والمجتهدين والمجاهدين .

* ونجد صاحبَ « الرَّوض المعطار » يتحدَّثُ عن البصرة بشيءٍ من الإسهاب والإعجاب ، ويسوقُ معلوماتٍ في غاية الأهميَّة ، ويشيرُ إلىٰ دور سيِّدنا عتبةَ بن غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ في بنائها ، فكان ممَّا قال وأفاد : « البصرةُ بالعراق ، وهي كانت قبَّة الإسلام ، ومقرّ أهله ، بُنيَتْ في خلافةِ عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ في سنة أربع عشرة ، واختطَّ عتبةُ بنُ غزوان المنازلَ بها ، وبنىٰ مسجداً من قصب ، ويقال بل كان ذلك سنة سبع عشرة ، وعتبةُ ـ رضي ٱلله عنه ـ أوَّلُ مَنْ اختطَّها ونزلها في ثمان مئة رجل ، وهو الذي فتح الأبلَّة ؛ وبالبصرة خطب عتبةُ بنُ غزوان خطبته المشهورة ، وهي ثابتةٌ في « صحيح مسلم » ، أوّلها : أمَّا بعد ، فإنَّ الدُّنيا آذنت بصرم ، وولّت حذاء . . . إلىٰ آخرها . . . وسبب بنائها أنَّ عمرَ ـ رضي ٱلله عنه ـ كتب إلىٰ سعد بن أبي وقاص ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وهو علىٰ حرب العراق ، يستنبئ ما الذي غيَّر ألوان العرب ولحومهم ، فكتب إليه أنَّ العرب غير ألوانها ولحومها وخومة المدائن ودجلة . . . فكتب إلىٰ سعد بأنَّ العربَ لا يصلحها من البلدان إلا ما يصلح الشَّاة والبعير ، ثمَّ أمره بنزول الكوفة ، فارتحل سعد ـ رضي ٱلله عنه ـ من المدائن بالنَّاس حتَّىٰ عسكر في الكوفة سنة سبع عشرة ، واستقرَّ أيضاً بأهل البصرة منزلهم اليوم ، فاستقرا في قرارهما في شهر واحد . . . وبصَّر البصرة لعمرَ ـ رضي ٱلله عنه ـ عتبة بن غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ »[1] .

= وأبو هاشم كثيرُ بنُ سليم الأبلّي من أهلها ، وهو الذي يُقال له كثيرُ بنُ عبد ٱلله ، يضعُ الحديث عن أنَسٍ ، ويرويه عنه ، لا تحلُّ رواية حديثه » . « معجم البلدان » (١ / ٧٦ ـ ٧٨) بتصرُّف .

(١) « الرَّوض المعطار » (ص : ١٠٥) باختصار وتصرُّف .

* كانت البصرةُ والكوفةُ مقرّاً للإسلام ، وقرارة للدِّين ، وهما محالّ الصَّحابة الكرام ، والتَّابعين الأعلام ، والصَّالحين وجيوش المسلمين والمجاهدين ، ثمَّ نشأت بين أهل المصرَيْن البصرة والكوفة مفاخرات ومفاضلات استوعبتها المصادرُ الأدبيةُ والتَّاريخيَّةُ وأضرابهما وهي تنبئُ عن علم وفنّ وأدب ومعرفة وفائدة كثيرة تشحذ الأذهان ، وتزيد من ثقافة محبّي العِلْم وفروعه .

* ومن اللطائف التي نَتَجتْ عنها هٰذه المفاخرات والمحاورات بين البصرة والكوفة ما حصيلته ، أنَّ محبِّي البصرة قالوا : « الدُّنيا والبصرة ، وقال الأحنفُ لأهلِ الكوفة : نحنُ أعدىٰ منكم بريّة ، وأكثرُ منكم بحريّة ، وأبعدُ منكم قربة ، وأكثر منكم سرية . وزعم أهلُ الكوفة أنَّ البصرة أسرعُ الأرض خراباً ، وأخبثُها تراباً ، وأبعدها من السَّماء ، وأسرعها غرقاً . . . وسئل بعض النَّاس عن فقهاء الكوفةِ فقال : أَبْحثُ النَّاس لصغير وأتركه لكبير ، يتكلَّف أحدهم القول في الدّور والدّين والعين . . . وعاب بعض الكوفيين فقهاء البصريين فقال : كان الحسنُ أزرقَ ، وقتادةُ أعمىٰ ، وابنُ أبي عروبة أعرجَ ، وهشامُ أعمىٰ ، وواصلُ أحدبَ ، وعبدُ الوارث أبرصَ ، ويحيىٰ بنُ سعيد أحولَ . فقال بعضُ البصريين : كان علقمةُ أعرجَ ، وإبراهيمُ أعورَ ، وسليمانُ أعمشَ ، ورشيدُ أعرجَ ، وأبو معاوية أعمىٰ ، ومسروقُ مفلوجاً ، وشريحُ سناطاً » (١) .

* ويمدُّنا ياقوتُ الحمويّ بمعلومات مهمَّة وطريفة عن سيِّدنا عتبة بن غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وعن البصرة ، فيقول ما خلاصته : « البصرة وهما بصرتان : العظمىٰ بالعراق ، وأخرىٰ بالمغرب . . . وأمَّا البصرتان : فالكوفةُ والبصرةُ . . . والبصرةُ في كلام العرب : الأرضُ الغليظةُ التي فيها حجارة

---

(١) « الرَّوض المعطار » (ص : ١٠٦) بتصرُّف واختصار .

تقلع ، وتقطعُ حوافر الدَّواب . وسمِّيت البصرةُ بصرةً لغلظتها وشدّتها . . . وقيل : البصرة : الأرضُ الطَّيِّبة الحمراءُ . . . وقيل : البصرة : تعريب بَسْ رَاه ؛ لأنَّها كانت ذات طُرقٍ كثيرة انشعبتْ منها إلىٰ أماكنَ مختلفةٍ . والنَّسب إليها بِصْريّ بكسر الباء لإسقاط الهاء . وأما فتحها وتمصيرها ، فكان في عهد عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ ، وولاَّها عتبةُ بنُ غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وقال له عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ : إنَّ الحيرةَ قد فتحت ، فأْتِ أنتَ ناحية البصرة ، وأشْغِلْ من هناك من أهل فارس والأهواز ومَيْسان عن إمداد إخوانهم ، فأتاها عتبةُ ، وانضمَّ إليه سُويدُ بنُ قطبة فيمن معه من بكر بن وائل وتميم . قال نافعُ بنُ الحارث : فلمَّا أبصرتنا الدَّيادبة خرجوا هُرَّاباً ، وجئنا القصر ، فنزلناه ، فقال عتبةُ : ارتادوا لنا شيئاً نأكلُه ! فدخلنا الأجمة ، فإذا زِنبيلان في أحدهما تمرٌ ، وفي الآخر أرزٌ بِقِشْرِهِ ، فجذبناهما حتَّىٰ أدنيناهما من القَصْر ، وأخرجنا ما فيهما ، فقال عتبةُ : هـٰذا سُمٌّ أعدَّه لكم العدوّ ، يعني الأرزّ ، فلا تقربنَّه ، فأخرجْنا التَّمر وجعلنا نأكلُ منه ، فإنَّنا لكذلك إذا بفرس قد قطعَ قياده ، وأتىٰ ذلك الأرزّ يأكلُ منه ، فأردنا أنْ نذبحَه قبل أنْ يموتَ ، فقال صاحبُهُ : اتركوه ، فأنا أحرسُهُ الليلةَ ، فإذا أحسستُ بموتهِ ذبحتُه ، فلمَّا أصبحنا إذا الفرسُ صحيحٌ لا بأس عليه ، فقالت أختي : يا أخي ! إنِّي سمعتُ أبي يقول : إنَّ السُّمَّ لا يضرّ إذا نضجَ ، فأخذتْ من الأرزّ توقدُ تحته ، وما زالتْ تطبخُه حتَّىٰ ذهب قشْره عنه ، فألقيناه في الجفنة ، فقال عتبةُ : اذكروا اسمَ ٱلله عليه وكُلُوه ؛ فأكلُوا منه فإذا هو طيِّبٌ ، فجعلنا بعد ذلك نميطُ عنه قشْره ونطبخُهُ ، فلقد رأيتُني بعد ذلك وأنا أعدُّهُ لولدي . . . وكانت مع عتبةَ بنِ غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ لمَّا قدم البصرة زوجته أزدةُ بنتُ الحارث بن كلدة ، فلمَّا قاتلَ عتبةُ أهلَ مدينة الفُرات ، جعلت امرأتُهُ تحرِّضُ المؤمنين علىٰ القتال ، ففتح اللهُ علىٰ المسلمين تلك المدينة ، وأصابوا غنائم كثيرة . . . . ثمَّ إنَّ عتبةَ كتب إلىٰ عمر يستأذنه في تمصير البصرة ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ! إنَّه لا بدَّ للمسلمين من منزل إذا أشتىٰ شتوا فيه ،

وإذا رجعوا من غزوهم لجؤوا إليه ، فوافقه عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ومصَّر البصرة »[1] .

* وكان سيِّدنا سعدُ بنُ أبي وقَّاص ـ رضي ٱلله عنه ـ يكاتبُ عتبةَ بأمرِه ونهيِهِ ، فأنفَ عتبةُ من ذلك ، واستأذن عمر في الشُّخوص إليه ، فإذن له . . . ولمَّا أراد عتبةُ الانصراف إلىٰ المدينة خطب النَّاس ، وقال كلاماً في آخره : « وستجرِّبون الأمراء من بعدي » قال الحسنُ « فلقد جرَّبناهم فوجدنا له الفَضْل عليهم »[2] .

* وكان عتبةُ ـ رضي ٱلله عنه ـ لمَّا شخصَ إلىٰ عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ استخلف مجاشع بن مسعود السُّلميّ علىٰ جنده ، وكان عتبةُ قد سيَّره في جيش إلىٰ فرات البصرة ليفتحها ، فأمر المغيرة بن شعبة أنْ يقومَ مقامه إلىٰ أنْ يرجعَ . . . وفي المدينة المنورة شكا عتبةُ إلىٰ عمر تسلُّط سعدٍ عليه ، فقال له : « وما عليك إذا أقررتَ بالإمارة لرجلٍ من قريش له صحبة وشرف ؟ » .

قال عتبةُ : « أَوَلستُ من قريش ؟ قال رسولُ ٱلله ﷺ : « حليفُ القوم منهم » ، ولي صحبةٌ قديمةٌ مع رسول ٱلله ﷺ لا تنكَرُ ولا تدفع » .

فقال عمر « لا ننكرُ ذلك من فضلك » .

قال عتبةُ : « أما إذا صار الأمر إلىٰ هـٰذا ، فوٱلله لا أرجعُ إلىٰ البصرة أبداً » .

فأبىٰ عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ إلا أن يردَّ عتبة إليها ، فردَّه ، فماتَ بالطَّريق ، أصابه بَطْنٌ فماتَ ، وكان عمله علىٰ البصرة ستَّة أشهر ، فقدم سُويد غلامه بمتاعهِ وتَرِكتِهِ علىٰ عمرَ بنِ الخطَّاب ، وذلك سنة (١٧ هـ) ، وكان

---

(١) « معجم البلدان » (١ / ٤٣٠ ـ ٤٣٢) باختصار وتصرُّف .

(٢) « معجم البلدان » (١ / ٤٣٣) .

عتبةُ بنُ غزوان يوم مات ابن (٥٧ سنة) ـ رضي ٱلله عنه [١] ـ .

مـنْ رُواةِ الحـديثِ النَّبويّ :

* هٰذا الصَّحابيُّ السَّابقُ البدريُّ راضعُ لَبَن المعالي ؛ المتواضع العالي ، من أهل بيعةِ الرّضوان ، ومن السَّابقين إلىٰ مرضاة الرَّحمـٰن ، كان من المُقلّين في رواية الحديث النَّبويّ الشَّريف ، مع أنَّ له حديثاً منها في الصَّحيح ، فقد روي له عن رسولِ ٱللهِ ﷺ أربعة أحاديث ، روىٰ مسلم أحدها ، وله في « مسند أحمد » ، و« معجم الطَّبراني » بعضها .

* روىٰ عنه خالدُ بنُ عمير العدويّ ، وقبيصةُ بنُ جابر ، وهارونُ بنُ رئاب ، وغُنيمُ بنُ قيس المازنيّ ، والحسنُ البصريّ ، وغيرهُم [٢] .

* قال ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللهُ في « الإصابة » : « روىٰ له مسلمٌ ، وأصحابُ السُّنَن » [٣] .

* وسوف نستجمُّ في رحلتنا الحديثيّة مع سيِّدنا عتبة بصحبةِ « صحيح

---

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (٧ / ٧ ـ ٨) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٠٥ ـ ٣٠٦) ، و« معجم البلدان » (١ / ٤٣٣) مع الجمع بينهما ، ثم التصرّف اليسير .

وعن وفاة سيِّدنا عتبة يقول ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللهُ ما خلاصتُه : « ولمَّا استكملَ عتبةُ فتح بلاد فارس ، استأذن عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ في الحج فأذنَ له ، فسار إلىٰ الحجّ ، واجتمع بعمر في الموسم ، وسأله أنْ يقيلَه فلم يفعلْ ، وأقسمَ عليه ليرجعنَّ إلىٰ عمله ، فدعا عتبةُ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ فمات ببطنِ نَخْلَةَ ، وهو منصرفٌ من الحج ، فتأثَّر عليه عُمر ، وأثنىٰ عليه خيراً » . « البداية والنِّهاية » (٧ / ٨٥) .

(٢) « تهذيب التَّهذيب » (٧ / ١٠٠) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٣١٩) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٠٤) .

(٣) « الإصابة » (٢ / ٤٤٨) .

مسلم » رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، ونستمتعُ بشيءٍ من الزُّهد والرّقائق العُتْبيَّة المباركة التي دوَّنها مسلمٌ في « صحيحه » ؛ إذ أخرج بسنده عن خالدِ بنِ عمير العدويّ قال : « خَطَبَنَا عتبةُ بنُ غزوانَ ، فحَمِدَ اللهَ ، وأثنىٰ عليه ، ثمَّ قال : أمَّا بعدُ ؛ فإنَّ الدُّنيا قد آذنَتْ بِصُرْم ، وَوَلَّتْ حذَّاء ، ولم يبقَ منها إلا صُبابةٌ كصُبابةِ الإناء يتصابُّها صاحبها ، وإنّكم منتقلون منها إلىٰ دارٍ لا زوالَ لها ، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم ، فإنَّه قد ذُكِرَ لنا : أنَّ الحَجَر يُلقىٰ من شَفَةِ جهنَّم ، فيهوي فيها سبعين عاماً لا يُدرِكُ لها قعراً ، ووالله ! لَتُملأَنَّ ، أفعجبتُم ؟ ولقد ذُكِرَ لنا أنَّ ما بين مصراعين من مصاريع الجنَّة مسيرةَ أربعين سنة ، وليأتينَّ عليها يوم وهو كَظِيظٌ من الزِّحام ، ولقد رَأيتُني سابعَ سبعةٍ مع رسولِ ٱللهِ ﷺ ، ما لنا طعامٌ إلاَّ ورق الشَّجر ، حتَّىٰ قَرِحَتْ أشداقُنا ، فالتقطت بُردةً فشققْتُها بيني وبين سعدِ بنِ مالك ، فاتَّزرتُ بنصفها ، واتَّزر سعدٌ بنصفها ، فما أصبحَ اليوم منَّا أحدٌ إلا أصبحَ أميراً علىٰ مصر من الأمصار ، وإنِّي أعوذُ بٱلله أنْ أكونَ في نفسي عظيماً ، وعند اللهِ صغيراً ، وإنَّها لم تكن نبوَّةٌ قطّ إلا تناسخت ، حتَّىٰ يكون آخر عاقبتها مُلكاً ، فَسَتَخْبُرُونَ وتجرِّبُون الأمراء بعدنا »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم في الزُّهد والرَّقائق برقم : (٢٩٦٧) . وانظر هٰذه الخطبة في « المستدرك » (٣ / ٣٩٢ ـ ٣٩٣) برقم : (٥١٣٩) ، وقال : « صحيحٌ علىٰ شرط مسلم ولم يخرِّجاه » ، و« المعجم الكبير » (١٧ / ١١٤ ـ ١١٥) برقم : (٢٨٠) ، و« المسند » (٦ / ١٨١) برقم : (١٧٥٨٦) ، و« الاستيعاب » (٣ / ١١٦) ، و« العقد الفريد » (٤ / ١٣١) ، و« البيان والتَّبيين » (٢ / ٦٩) ، وغيرها من مصادرَ لا تُحصىٰ .

ومعنىٰ قوله « آذنت » : أعلمت . و« الصُّرم » : الانقطاع والذَّهاب . و« حَذَّاء » : مسرعة الانقطاع . و« الصُّبابة » : البقية اليسيرة من الشَّراب تبقىٰ في أسفلِ الإناء . و« يتصابُّها » : يشربها . و« قعراً » : قعر الشَّيء : أسفله . و« الكظيظ » : الممتلئ . و« قرحت » صار فيها قروح وجراح . و« سعد بن مالك » : سعد بن أبي وقَّاص ـ رضي ٱلله عنه ـ .

* ومن مرويّات عتبةَ بنِ غزوان ما أخرجه الطَّبرانيُّ والحاكمُ بسندٍ عنه ، أنَّ رسولَ ٱللهِ ﷺ قال يوماً لقريش : « هل فيكم مَنْ ليس منكم ؟ » وفي روايةٍ : « هل فيكم أحدٌ من غيركم ؟ » .

قالوا : ابن أختنا عتبةَ بنِ غزوان .

فقال : « إنَّ ابنَ أخت القوم منهم ؛ وحليفَ القوم منهم » [1] .

* ولسيِّدنا عتبةُ ـ رضي ٱلله عنه ـ مرويَّات أُخر تكفَّلت مصادرُ الحديث بذكرها .

* بقي أن نعرفَ أنَّ سيِّدنا عتبةَ بنَ غزوان ـ رضي ٱلله عنه ـ كان حليفاً لبني عبد شمس ، وله مآثرُ عظيمةٌ في ميدان الفتوح ؛ وقد طلب من سيِّدنا عمر أنْ يعفيه من منصبهِ علىٰ البصرة ؛ فهو من أعلام الزَّاهدين ، وأعيان الورعين الذين يخشَوْن من المناصب خشية الوقوع في الأخطاء ؛ وهٰذا يدلُّ علىٰ تواضع سيِّدنا عتبة وزهده وخشيته من ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فعندما اختطَّ البصرة ، لم يختطَّ لنفسه داراً ، فمات وهو فقيرٌ لا يملك درهماً ، ولا ديناراً ، ولا داراً ، وقد سخَّر كلّ ما يملك في سبيل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فقد كان رجُلاً طويلاً جميلاً وسيماً ، وكان رامياً ماهراً من رُمَاة [2] الصَّحابة المعدودين الذين شهد لهم الرِّجال الأشدَّاء في هٰذا المضمار . كما كان من أعلامِ القادة الموفَّقين في

---

(١) أخرجه الطَّبرانيّ (١٧ / ١١٨) برقم : (٢٩١) ، والحاكم (٣ / ٢٩٣) برقم : (٥١٤٠) .

(٢) الرّماةُ من أصحاب النّبيّ ﷺ المذكورون جماعة منهم : سيّدنا سعد بن أبي وقّاص ، وعتبة بن غزوان ، والسَّائب بن عثمان بن مظعون ، والمقداد بن عمرو ، وزيد بن حارثة ، وحاطب بن أبي بلتعة ، وخراش بن الصّمّة ، وقطبة بن عامر بن حَديدة ، وبشر بن البراء بن معرور ، وأبو نائلة سلكان بن سلامة ، وأبو طلحة ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، وقتادة بن النُّعمان ـ رضي ٱلله عنهم ، وحشرنا في حزبهم ومعيتهم ـ .

الفُتوحات ، يعملُ لإعلاءِ كلمةِ ٱللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ويحرص علىٰ سلامةِ رجالهِ من آفاتِ الحروب ضمن ضوابط متقنة ، فقد كان يتمتَّع بشخصيَّةٍ قويَّةٍ نبيلة ، وصحبةٍ نبويةٍ طويلةٍ ، وجهاد منذ فجر الإسلام في أمِّ القُرىٰ إلىٰ آخر حياته في بلاد العراق ، فهو الذي فتحَ العراقَ الجنوبي ، والأهوازَ ، فنشرَ فيها رايات الإسلام في عصر صدرِ الإسلام ، وستظلُّ بإذن ٱلله خفَّاقةً إلىٰ ما شاء ٱلله .

* **وبعد** : فهل عرفْنا مَنْ هو عتبةُ بنُ غزوان ؟ وهل نتغنَّىٰ بسيرتهِ أمامَ الشُّبَّان والغِلْمَان ، وهل نربِّي النَّاشئةَ علىٰ محبَّةِ رجالِ النَّبيِّ العدنان ﷺ ، وهل نسمِّي أبناءنا بأسماءِ هـٰؤلاء الشُّجعان ؟ ! هـٰذا ما نرجوه بإذن ٱلله الكريم المنَّان .

* رضي ٱلله عن سيِّدنا عتبةَ بنِ غزوان ، وجمعنا معه في أعالي الجِنَان ، وعفا عنَّا بفضله إنَّه رحيمٌ رحمـٰن .

✍ ✍ ✍






عثمانُ بنُ مظعون

رضي ٱلله عنه

* من سادةِ المهاجرين ؛ ومن أعيان السَّابقين الأوَّلين .
* أوَّلُ مَنْ دُفن بالبقيع من أصحاب النَّبيِّ ﷺ .
* قال عنه ﷺ : « إنَّ ابنَ مظعون لَحييٌّ سِتّير » .






عثمــانُ بـنُ مظعُـون
رضي ٱلله عنه

مـنْ أوليـــاءِ ٱلله :

* تنفَّسَ صبحُ الإسلام ؛ وأطلَّ لطيفاً كالزَّهْر يطلعُ في الأكمام ، فأسرعَ هـٰذا الرَّجُل فكان من مشاهيرِ الأعلام ؛ كان إلىٰ الاستجابةِ لله سابقاً ، وبمعالي الأحوالِ لاحقاً ، وفي العبادة ناسكاً ، وفي المحاربةِ فاتكاً ، بلغت همّته السَّماء ، وجلَتْ أخباره الظَّلماء ؛ له الرُّتبُ المكينة ، وعليه الوقار والسَّكينة ، هـٰذا الرَّجلُ هو المُمْتَحَنُ في عينهِ المطعون ، ذو الهجرتين عثمانُ بنُ مظعـون بـن حبيـب الجُمحـيّ القُـرشـيّ [1] ، السَّيِّـد الفـاضـل ، مـن سـادة المهاجرين ، ومن رعيل السَّابقين ، ومن أولياء ٱلله المتّقين ، الذين فازوا بوفاتهم في حياةِ نبيّهم ، فصلَّىٰ عليهم ، وكان ـ رضي ٱلله عنه ـ أوَّل منْ دُفِنَ بالبقيع ، من صحابة النَّبيِّ الشَّفيع ﷺ .

---

(١) « السِّيـــرةُ النَّبـــويَّـــةُ » (الفهـــارس : ١ / ٧٧٦) ، و« الاشتقـــاق » (ص : ١١٧ و ١٣١) ، و« التَّبيين » (ص : ٣٩٧ ـ ٣٩٨) ، و« صفة الصَّفوة » (١ / ٤٤٩ ـ ٤٥٤) ، و« المستدرك » (٣ / ٢٠٩ ـ ٢١٠) ، و« حلية الأولياء » (١ / ١٠٢ ـ ١٠٦) ، و« سيـــر أعـــلام النُّبـــلاء » (١ / ١٥٣ ـ ١٦٠) ، و« الاستيعاب » (٣ / ٨٥ ـ ٨٩) ، و« طبقاتُ ابن سعد » (٣ / ٣٩٣ ـ ٤٠٠) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٤٩٤ ـ ٤٩٧) ترجمة رقم : (٣٥٨٨) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٣٢٥ ـ ٣٢٦) ، وغيرها كثير .

* هـٰذا الصَّحابي المفْضَال ؛ السَّابق إلىٰ كريم الخصال ، من أسرة زكيَّة الفِعَال ، قدَّمت للإسلام عدداً من أعيان الرِّجال ، الذين يسبحون ربَّهم بالغدوِّ والآصال ، ويزيّنون الأقوال بالأفعال .

* ومن رجال بني مظعون الأخيار : قدامةُ بنُ مظعون أبو عمرو الجمحيّ ، من السَّابقين البدريين من أخوال أمِّنا أمِّ المؤمنين حفصةَ ، وابنِ عمر ، وزوج عمَّتهما صفيَّة بنت الخطَّاب ، إحدىٰ المهاجرات الفاضلات ، توفي قدامةُ سنة (٣٦ هـ) وعمرهُ (٦٨ سنة) وكان لا يغيِّرُ شيبه ، وكان طويلاً أسمرَ ـ رضي ٱلله عنه ـ .

* وأخوه : عبدُ ٱلله بنُ مظعون الجمحي أبو محمَّد ، من السَّابقين الأوَّلين ، شهد بدراً هو وإخوته : عثمان ، وقدامة ، والسَّائب ولد أخيه ، وهاجر عبدُ ٱلله إلىٰ الحبشة الهجرة الثَّانية ، وشهد بدراً ، وأُحداً ، والخندقَ ، وآخىٰ رسول ٱلله ﷺ بينه وبين سهل بن عُبيد بن المعلَّىٰ الأنصاريّ ، ومات عبدُ ٱلله في خلافة سيِّدنا عثمان سنة (٣٠ هـ) ، وعمره (٦٠ سنة) ـ رضي ٱلله عنه ـ .

* وابنه : السَّائبُ بنُ عثمان بن مظعون الجمحيّ ، وأمُّه : خولةُ بنتُ حكيم السُّلميَّة ، هاجر إلىٰ الحبشة ، وكان من الرُّماة المذكورين ، وآخىٰ رسولُ ٱلله ﷺ بينه وبين حارثةَ بنِ سراقة الأنصاريّ ، المقتول ببدر ؛ الذي أصابَ الفردوس الأعلىٰ في جنان الجنَّة ؛ وشهد السَّائب بدراً ، وأصابه سهم يوم اليمامة سنة (١٢ هـ) ومات منه ـ رضي ٱلله عنه ـ .

صبرُهُ وتحمُّله الشَّدائد :

* كان إسلامُ أبي السَّائب عثمانَ بنِ مظعون مع ثُلَّة المؤمنين الأولىٰ ، ممَّن بكَّروا إلىٰ اعتناق دين ٱلله في مرحلةِ برعمهِ المتفتّح علىٰ أنفاس التَّوحيد والذِّكْر ، ونبذِ الشِّرك وعبادةِ الأوثان والأصنام . فقد أسلم سيِّدنا عثمانُ بنُ

مظعون قبل دخولِ رسولِ ٱلله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزوميّ [1] ؛ قال ابنُ إسحاق رَحِمَهُ ٱللهُ : « أسلم عثمانُ بنُ مظعون بعد ثلاثة عشر رجلاً ، وهاجر الهجرتين ، وشهد بدراً » [2] ، وكان إسلامُه علىٰ يد سيِّدنا أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ .

* ومنذ أنْ نشأَ سيِّدنا عثمان في مكَّة المكرمةِ كان من المشهورين بسعةِ الأفق والذَّكاء ، وكان حصيفاً عاقلاً ، أَنِفَ من الخضوع للأصنام ، وسخر ممَّن يعبدونها ، ونَفَرَ من كثير من عادات الجاهليَّة ، وحرَّم الخمر علىٰ نفسه [3] ؛ إذ رأىٰ أنَّ فيها خِصالاً تفسدُ الرَّجل الحليم .

* قال ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللهُ وغيره : « زعموا أنَّ عثمانَ بنَ مظعون حرَّم الخمر في الجاهليَّة ، وقال : إنِّي لا أشربُ شيئاً يُذهبُ عقلي ، ويُضحك بي مَنْ هو أدنىٰ منِّي ، ويحملني علىٰ أنْ أُنكحَ كريمتي مَنْ لا أريد » [4] .

* ولمَّا رسخ سيِّدنا عثمان في الإسلام ، استغرق في العبادة ، واجتهد في الطَّاعة ، ونشط في العبادة نشاطاً ملحوظاً ، واخشوشن في ثيابه وطعامه وشرابه ؛ لأنَّه رأىٰ بعين اليقين وعين البصيرة ، أنَّ الآخرة خيرٌ وأبقىٰ ، وأنَّ نعيمَ الدُّنيا لا شك زائل .

* رأىٰ سادةُ قريش ، وأكابرُ مجرميها هـٰؤلاء الأصفياء قد فارقوا دين

---

(١) « صفة الصَّفوة » (١ / ٤٥٠) .

(٢) « التَّبيين » (ص : ٣٩٧) .

(٣) لم يكن سيِّدنا عثمان بن مظعون وحده ممَّن حرَّم الخمر في الجاهليَّة ، وإنَّما حرَّمها كثيرون من مثل : أبو بكر الصِّدِّيق ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرَّحمـٰن بن عوف ، وعبَّاس بن مرداس ، وقيس بن عاصم ، وقبل هؤلاء حرمها : عبد المطَّلب بن هاشم ، وعبد ٱلله بن جدعان ، وورقة بن نوفل ، وغيرهم .

(٤) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٩٣ ـ ٣٩٤) ، و« صفة الصَّفوة » (١ / ٤٥٠) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ١٥٥) .

الآباء والأجداد ، ونبذوا اللات والعزّىٰ وراء ظهورهم ، وكذلك مَنَاةَ الثَّالثة الأخرىٰ ، واحتقروا هُبَل وسائر الأصنام ، فأخذوا يكيدون عثمان بن مظعون ومَنْ آمن من رجال قريش ونسائهم وشبابهم ، وطفقوا يذيقونهم ألوانَ التَّعذيب من الحبس والضَّرب والجرح والكَيّ ، ومنع الطَّعام والشَّراب ، ووضع الأحجار السَّاخنة علىٰ الأجسام ، والتَّعريض لأشعَّة الشَّمس ولهيبها فوق رمال مكَّة وصخورها .

* هٰذا كلّه لم يؤثِّرْ في يقين سيِّدنا عثمان وثباته ، بل كان يزدادُ إيماناً كلَّما نزل شيءٌ من القرآن الكريم ، ويستقرُّ الإيمان في قلبه ، ويحبُّ النَّبيَّ ﷺ أكثر وأكثر . ونستدلُّ علىٰ هٰذا الأمر بما جاء عند (الواحديّ) في « أسباب النّزول » ؛ إذ أخرج بسندٍ أوصله إلىٰ سيِّدنا العالِم العَيْلَم عبد ٱلله بن عبَّاس [1] ـ رضي ٱلله عنهما وحشرنا في معيّتهما ـ ، قال : « بينما رسول ٱلله ﷺ بفناء بيته بمكَّة جالساً ؛ إذ مرَّ به عثمان بن مظعون ، فكَشَرَ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ ، فقال له : « ألا تجلس ؟ » .

فقال : بلىٰ ، فجلَسَ إليه مستقبله ، فبينما هو يحدِّثه ؛ إذ شَخَصَ بصرهُ إلىٰ السَّماء ، فنظر ساعةً ، وأخذ يضعُ بصره ، حتَّىٰ وضع علىٰ عتبة في الأرض ، ثمَّ تحرفَ عن جليسهِ عثمان إلىٰ حيث وضع بصره ، فأخذ ينغضُ رأسه كأنَّه يستنقه ما يقال له ، ثمَّ شخص بصره إلىٰ السَّماء كما شخص أوَّل مرَّة ، فاتبعه بصرَهُ حتَّىٰ توارىٰ في السَّماء ، وأقبل علىٰ عثمان كجلستِهِ الأولىٰ ، فقال : يا محمَّد ، فيما كنتُ أجالسكَ وآتيكَ ما رأيتكَ تفعل فعلتك الغداة ؟

قال : « ما رأيتني فعلتُ ؟ » .

---

(١) اقرأ سيرة بحر الصَّحابة وحبرهم سيِّدنا عبد ٱلله بن عبَّاس في موسوعتنا المباركة : « علماء الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ » في الباب الأوَّل (ص : ٢١ ـ ٧٨) ففي سيرته غيث النَّفع بإذن ٱلله عزَّ وجلَّ .

قال : رأيتُكَ شَخَصَ بصرك إلىٰ السَّماء ، ثمَّ وضعْتَه حتَّىٰ وضعته علىٰ يمينك ، فتحرفت إليه وتركتني ، فأخذتَ تنغض رأسك كأنَّك تستنقه شيئاً يُقال لك !

قال : « أوفطنْتَ إلىٰ ذلك ؟ » .

قال عثمان : نعم .

قال : « أتاني رسولُ ٱلله جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وسلَّم آنفاً ، وأنتَ جالس » .

قال : فماذا قال لك ؟

قال : « قال لي : ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[النحل : ٩٠] فذاك حين استقرَّ الإيمان في قلبي ، وأحببت محمَّداً ﷺ » [١] .

* ولمَّا نزلت هـٰذه الآيةُ الكريمةُ من سورة النَّحل حملها سيِّدنا عثمان بن مظعون ، وألقاها علىٰ سيِّدنا عليّ بن أبي طالب ، فماذا كانت النَّتيجة ؟ ! حسناً ، لنقرأ ما رواه سيِّدنا عثمان ؛ إذ يقول : « لمَّا نزلتْ هـٰذه الآية ، قرأتُها علىٰ عليِّ بنِ أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فعجبَ وقال : يا آلَ غالب ! اتّبعوهُ تفلحوا ، فوٱلله إنَّ الله أرسله ليأمرَ بمكارم الأخلاق » [٢] .

* وقال عثمانُ بنُ مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ : « ما أسلمتُ ابتداءً إلا حياءً من رسولِ ٱلله ﷺ حتَّىٰ نزلتْ هـٰذه الآية ، وأنا عنده ، فاستقرَّ الإيمانُ

---

(١) « أسبابُ النّزول » للواحديّ (ص : ٢٣٦) ، وقوله « فكشر » : فضحك ، من الكَشْر ، وهو ظهور الأسنان للضَّحك وغيره . و« شخص بصره » : رفعه ينظر بجمود . و« يضع » : يخفضه . و« ينغض » يحركه ويميله . و« يستنقه » : يستفهم ويستفقه . و« الغداة » : أوّل النَّهار . و« فطنت » : انتبهت . و« آنفاً » : الآن ، وفي أي وقت يقرب منّي .

(٢) « تفسير ابن عطيّة » (ص : ١١١١) .

في قلبي ، فقرأتُها على الوليدِ بنِ المغيرة ، فقال : يا بن أخي ! أعِدْ ! فأعدتُ فقال : واللهِ إنَّ له لحلاوة ، وإنَّ عليه لَطَلاوة ، وإنَّ أصلَه لمورق ، وأعلاه لمثمر ، وما هو بقول بشَر »[1] .

* وعلىٰ الرّغم من إعجابِ الوليدِ بنِ المغيرة بحلاوةِ القرآن وطلاوته ، إلا أنَّه ظلَّ علىٰ شركه ، وظلَّ الشّيطان يجرّره يميناً وشمالاً ، ويعبث به ، ويمنّيه الأماني ، وينفخُ في عطفه ، فأخذ في الغيّ ، ولم يسلمْ للباقي الحيّ .

* وفي المقابل ظلَّ سيِّدنا عثمانُ بنُ مظعون ومَنْ معه ثابتين علىٰ الإسلام ، محبِّين لدينهم ، منافحين عن عقيدتهم ، وأخذ يتعرَّض لألوان الاضطهاد والتَّعذيب ، والسُّخرية والإيذاء ، حتَّىٰ اضطر إلىٰ أنْ يهاجرَ إلىٰ أرض الحبشة مع الأسرةِ المظعونيَّةِ المؤمنة ، هو ، وابنه السَّائب ، وأخواه : قدامةُ ، وعبدُ الله ، وعددٌ من بني جُمح[2] ، وكان عثمانُ ـ رضي الله عنه ـ قد لقي الألاقي من قومه ، ومن أميَّةَ بن خلف الجمحيّ أحد الفجرة المغرضين المبشّرين بالنَّار ، ولهٰذا كان عثمانُ يعاتب أميَّةَ وهو ابن عمّه ، وكان يؤذيه في إسلامه ؛ وكان أميّةُ شريفاً في قومه في زمانه ، ولٰكنَّ الكفْرَ قد حطَّه من علٍ ، وجعلَه في عداد الكافرين ؛ فقال عثمانُ يخاطبُه معاتباً :

أأخرجْتَني مِنْ بطنِ مكَّةَ آمناً ... وأسكنْتَنِي في صرح بيضاءَ تقذعُ
تريشُ نبالاً لا يُواتيك ريشُها ... وتبري نبالاً ريشُها لَكَ أجمعُ
وحاربْتَ أقواماً كراماً أعزَّةً ... وأهلكتَ أقواماً بهم كنتَ تفزعُ
ستَعْلَمُ إنْ نابتْكَ يوماً ملمَّةٌ ... وأسلمَك الأوباشُ ما كنتَ تصنعُ[3]

---

(١) « تفسير القرطبيّ » (١٠ / ١٦٥) .

(٢) انظر : « أسماء المهاجرين الجمحيين في السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٣٢٧) ، واقرأ أيضاً أحداث الهجرة الحبشيّة في السِّيرة النَّبويَّة (١ / ٣٢١ ـ ٣٤١) .

(٣) « السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٣٣٢) . وقوله « صرح بيضاء » : يريد مدينة الحبشة ، =

* لقيَ عثمانُ بنُ مظعون والمهاجرون معه الإنعام في ظلِّ عدلِ ملك الحبشة النَّجاشي ، بيد أنَّ حُبَّ الوطن ، وحبَّ مكَّة أمِّ القرىٰ يعتملُ في القلوب التي بين الصُّدور ، فكان المهاجرون يتسقَّطُون الأخبارَ المكّيَّة ، فإذا نَغَمٌ سريٌّ جميلٌ يَصِلُ إليهم ، ويصافحُ أسماعهم ؛ ويهمسُ في نفوسهم بأنَّ أهلَ مكة قد أسلموا ، واتَّبعوا دينَ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي ارتضاه لعباده ، فكان هـٰذا الخبرُ الأنيقُ اللطيف أجملَ لحنٍ سمعوه ؛ وهم في أرض الحبشة يتوقون إلىٰ العودةِ لمكَّة المكرمة أرض الوطن ، وأرض الذّكريات ، ومهوىٰ الأفئدة . . . .

* ولملموا أنفسَهم ومتاعَهم ، وعادوا والآمالُ المجنَّحةُ تحدو خطاهم ، وتداعبُ أفئدتهم ، وتسامِرُ خيالهم ؛ لأنَّهم سوف يَحْيَون في ظلال الأمنِ والأمانِ والإيمانِ ، بيد أنَّهم لمَّا أنْ وصلوا مشارفَ مكَّة تلاشت آمالُهم ، وتبدَّدت أحلامُهم ، لقد علموا أنَّ الأخبار التي وصلت إليهم وهم في الحبشة عارية عن الصَّحَّة ، فمنعَهُم المشركون من دخولِ مكَّة ، فلم يستطعْ أحدٌ منهم أنْ يدخلَها إلا في جوار أحدِ زعماء المشركين ، فدخل بعضُهم في جوار ، وبعضُهم دخل بغيرِ جوار مستخفياً ، بينما عاد شطر منهم إلىٰ الحبشة ، وحبّ مكَّة يملأ قلوبهم ، وبهـٰذا العمل والكبرياء ، خالفَ المشركون الأخلاق النَّبيلة ، والمعاملة الحسنة .

* ويحقُّ لنا أنْ نسمرَ الآن مع هـٰذه التَّغريدة اللطيفة التي تقصُّ علينا عودة مهاجري الحبشة لإشاعةٍ كاذبة ، وأقوال خادعةٍ خلاَّبة :

المُسلمـون لـدىٰ النَّجـاشـي جـاءهـم خَبَـرٌ جميـل
عـن أهـل مكَّـة أنَّهـم قـد أسلمُـوا إلا القليـل
فـرِحُـوا بهـٰذا كلّهـم فـوراً تَنَـادَوا للـرَّحيـل

= وأصل الصَّرح : القصر . و« تفذع » : تكره ؛ ويروىٰ تقدع : ومعناها : تدفع ، و« رَيشها » : بفتح الرَّاء : إذا نفعه وجبره ؛ وبكسر الرَّاء : جمع ريشة . و« الأوباش » : الضّعفاء الدّاخلون في القوم وليسوا منهم .

هيَّـا إلـىٰ مَهْـد الطُّفـولـة ذلـك البلـد الأصيـل
فيـه الأبـوّةُ والقـرابـةُ والصَّـداقـةُ والقبيـل
بـل فيـه خيـرُ الخلـق طـرّاً صفـوةُ المـولـىٰ الجليـل
عـادوا وكـانـوا فـي حَنيـن للحبيـبِ وللخليـل
لٰكنَّهـم يـا حسـرةً قـد فُـوجئـوا عنـد الـوصـول
مـا جـاءهـم عـن أهـلِ مكَّـةَ كلّـه قـولٌ وقيـل
مـا أسلمُـوا بـل إنَّهـم زادوا مـن الفَهـم العليـل
أسفـوا لقـد ضـاعـت عليهـم رحلـةُ السَّفـر الطَّـويـل
أبـواب مكَّـة أُغْلِقَـتْ لا يـدخلـنَّ سـوىٰ النَّـزيـل
البعـضُ قـد دخلـوا ولٰكـنْ فـي جـوار كـالـدَّخيـل
والبعـضُ عـادوا للنَّجـاشـي حـزنهـم فـاق المثيـل
كفَّـار مكَّـة دون شـك خـالفـوا الخُلـق النَّبيـل

أرضىٰ بجوار الله :

* علمنا أنَّ المسلمين الذين عادوا من أرض الحبشة ، دخلوا مكَّة في جوار المشركين الأقوياء ، وعاشوا في حمايتهم ، وتلك كانت عادةُ العرب ؛ فالذي يجيرُ أحداً من النَّاس عليه أنْ يقومَ بحمايته من كلِّ عدوان عليه ، وعلىٰ قومه أن يحترموا هٰذا الجوار .

* وتذكر مصادرُ السِّيرة وغيرها أنَّ عثمانَ بنَ مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ ، قد دخل في جوار الوليد بن المغيرة المخزوميّ ، فكان يغدو ويروح آمناً ، ولا يجرؤ أحدٌ أنْ ينالَ منه ، ولٰكنَّه وجدَ بعضَ أصحابه يعذَّبون ، فماذا فعل ؟ !

* أوردَ ابنُ إسحاق ، وغيره من العُلماء قصَّة عثمانَ بنِ مظعون في هٰذا الأمر ، وكيف ردَّ جوار الوليد بن المغيرة فقالوا : « لمَّا رأىٰ عثمانُ بنُ مظعون ما فيه أصحاب رسول ٱلله ﷺ من البلاء والجهد والعذاب ، وهو يغدو ويروح في أمانٍ من الوليد بن المغيرة ، ومن دون أنْ يلقىٰ أذىٰ من أحدٍ من

المشركين ، ولٰكنَّ ضميره أخذَ يؤنّبه ، وانقلبت راحته إلىٰ عناء ، وسلامته إلىٰ شقاء ، فجعل يخاطبُ نفسه ويقول : وٱلله ! إنَّ غدوي ورواحي آمناً بجوار رجلٍ من أهل الشّرك ، وأصحابي ، وأهل ديني يَلْقَون من الأذىٰ والبلاء ما لا يصيبني لنقصٌ كبير في نفسي .

وأسرع عثمانُ إلىٰ الوليدِ بنِ المغيرة ، فقال له في أدب جمّ : يا أبا عبد شمس ، وفَتْ ذمّتك ، قد رددتُ إليك جوارك ، وأنا أحبُّ أنْ أخرجَ منه إلىٰ الصَّادق الأمين ﷺ . فقال له الوليدُ في تعجّب : لِمَ يا بْنَ أخي ؟ لعلَّه آذاك أحد من قومي ؟ قال عثمانُ : لا وٱلله ، ولٰكنِّي أرضىٰ بجوار ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولا أريد أنْ أستجيرَ بغيره .

قال الوليد : فارددْ عليَّ جواري علانيةً كما أجرتُكَ علانيةً ، وانطلقَ إلىٰ المسجدِ وأعلن ذلك .

فانطلقا ، وخرجا حتَّىٰ أتيا المسجد ، فقال الوليدُ للملأ القرشيِّ : هٰذا عثمانُ بنُ مظعون قد جاء يردُّ عليَّ جواري .

قال عثمان : قد صدقَ ، وقد وجدته وفيّاً كريم الجوار ، ولٰكنِّي قد أحببتُ أنْ لا أستجيرَ بغير ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فقد رددتُ عليه جواره . ثمَّ انصرف عثمانُ بنُ مظعون ، ولبيدُ بنُ ربيعة في مجلس من مجالس قريش ينشدهم من شِعْره ـ وكان لبيدُ آنذاك مشركاً ـ فجلس معهم عثمان ، فقال لبيدُ وهو ينشدهم :

ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ ... ...

قال عثمانُ : صَدَقْتَ .

فقال لبيد :

... ... **وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائل**

فقال عثمان : كذبْتَ ، نعيمُ الجنَّةِ لا يزول .

وثار حِقْدُ لبيد ، وغضبَ من هـٰذا التَّعليق علىٰ شعره ، فقال : يا معشرَ قريش ، واللهِ ! ما كان يُؤْذىٰ جليسكم ، فمتىٰ حدث فيكم هـٰذا الحدث ؟

فقال رجلٌ من القوم : إنَّ هـٰذا سفيه في سفهاء معه ، قد فارقوا ديننا ، فلا تجدنَّ في نفسك من قوله .

فردَّ عليه عثمانُ حتَّىٰ عظم أمرهما وتفاقم ، فقام إليه ذلك الرَّجل ، فلطمَ عينه ، فخضَّرَها ، وآذاها إيذاءً كبيراً ، والوليد بن المغيرة قريبٌ يرىٰ ما بلغَ من عثمانَ بنِ مظعون ، فقال : أما واللهِ يا بن أخي إنْ كانت عينك عمَّا أصابها لغنية ، لقد كنتَ في ذمَّةٍ منيعة .

فقال عثمانُ في إباء وعزَّة : بل وٱلله إن عينيَ الصَّحيحة لفقيرة إلىٰ مثل ما أصاب أختها في ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وإنِّي لفي جوارِ مَنْ هو أعزُّ منك وأقدرُ يا أبا عبد شمس .

فقال له الوليد : هلمَّ يا بن أخي إنْ شئت ، فَعُدْ إلىٰ جواركَ .

فقال عثمان : لا أَرَبَ لي في جوار أحد إلا في جوار ٱلله »[1] .

* ونتوقّف مع هـٰذه التَّغريدة الجميلة التي توجزُ بين ثناياها قصَّة عثمان مع الوليد ، وردّه جواره ، تقول التَّغريدة :

المُسلمون ذوو الجوار غَدَوا بأمْنٍ سالمين
يلقَون كُلَّ حمايةٍ من أقوياء المشركين
أمَّا الذين بلا جوار لم يزالوا خائفين
هـٰذا ابنُ مظعون يرىٰ بعضَ الرِّجال المسلمين

---

(١) انظر : « السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٣٧٠ ـ ٣٧١) ، و« البداية والنِّهاية » (٣ / ٩٢ ـ ٩٣) ، و« صفة الصَّفوة » (١ / ٤٥٠ ـ ٤٥٢) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٤٩٤ ـ ٤٩٥) مع الجمع والتّصرّف اليسير . وانظر : « حلية الأولياء » (١ / ١٠٣ ـ ١٠٤) .

يلْقَــونَ تعــذيبــاً رهيبــاً مــن رجــالٍ معتــديــن
كــان ابــنُ مظعــون مُجــاراً فــي عِــداد الآمنيــن
هــو فــي جــوارِ ابــنِ المغيــرة لا يخــافُ البــاطشيــن
قــد حــدَّثتــه النَّفــس فــي هٰــذا حــديــث العــاتبيــن
قــالــت أتــرضــىٰ بــالأمــان وقــد رأيــتَ المــرهقيــن
اردد أمــــانــــاً كلَّــــه ذلٌّ كــــذلِّ الخــــانعيــن
لقــد استجــابَ إلــىٰ حــديــثِ النَّفــس ذي النُّــور المبيــن
ســـرعـــان مـــا رفـــض الجـــوار وردَّه للمجـــرميـــن
ردَّ الجــوارَ علــىٰ الــوليــدِ تحــدّيــاً للكــافــريــن
رضـــي البقـــاء بـــلا جـــوار فـــي صفـــوف المـــؤمنيـــن
قـــد عـــذَّبـــوهُ وعينُـــه قُلِعَـــتْ بـــأيـــدي الغـــادريـــن
تلكــم صفــات المــؤمنيــن بهــا سمــوا فــي الخــالــديــن [1]

* وظلت عينُ سيِّدنا عثمان بن مظعون ـ رضي ٱللهُ عنه ـ تشهدُ له بثباته علىٰ الحقِّ ، وتشهدُ له برضا الرَّحمٰن عنه ، وبمحبَّته الصَّادقة للنَّبيِّ المصطفىٰ ﷺ ؛ كما أنَّنا نجدُ سيِّدنا عليَّ بن أبي طالب يرسم بكلماته ما أصاب عين عثمان ؛ ويصوّر تلك الحادثة بهٰذه الأبيات :

أَمِــنْ تــذكُّــر دهــرٍ غيــر مــأمــونِ ... أصبحــتَ مُكتئبــاً تبكــي كمحــزون
أَمِــنْ تــذكُّــر أقــوامٍ ذَوي سَفَــهٍ ... يغْشَون بالظُّلم مَنْ يدعو إلىٰ الدِّين
لا ينتهــون عــن الفحشَــاء مــا سلمــوا ... والغــدرُ فيهــم سبيــلٌ غيــر مــأمــون
ألا تَــرَوْن أقــلَّ اللهُ خيــرهــم ... أنّــا غضبْنــا لعثمــانَ بــنِ مظعــون
إذ يلطمــون ولا يخْشَــون مقْلَتــه ... طعنــاً دراكــاً وضــربــاً غيــرَ مــأفــون
فســوفَ يجــزيهــم إنْ لــم يمــتْ عجــلاً ... كيــلاً بكيــلٍ جــزاءً غيــر مغبــون [2]

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويّة » (١ / ٢٣٠) .
(٢) « حلية الأولياء » (١ / ١٠٤) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (١ / ٤٩٠) ! ! !

* أمَّا سيِّدنا عثمانُ بنُ مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فقد رضي بثواب ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيما أصابه ، ولم يقلْ إلاَّ ما يرضي ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وسالت علىٰ لسانه هٰذه الأبياتُ الجميلةُ التي تدلُّ علىٰ نيَّتهِ الصَّادقةِ ، وثباته علىٰ الحقِّ ، وابتغائه بذاك وجه ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ودين الرَّسولِ محمَّد ﷺ ، فَلْنقرأْ معاً ما يقول :

فإنْ تَكُ عيني في رِضا الرَّبِّ نَالَها … يَدَا مُلْحدٍ في الدِّين ليس بمهتدِ
فقد عوَضَ الرَّحمٰنُ منها ثوابَهَ … ومَنْ يُرضهِ الرَّحمٰنُ يا قوم يسعدِ
فإنِّي وإنْ قُلْتم غويٌّ مضلّلٌ … سفيهٌ علىٰ دين الرَّسولِ محمَّدِ
أريدُ بذاكَ اللهَ والحقّ ديننا … علىٰ رغم مَنْ يبغي علينا ويعتدي [1]

* لقد ضربَ سيِّدنا عثمانُ بنُ مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ أجملَ الأمثلة في الصَّبر والثَّبات أمام عتوِّ مشركي قريش حتَّىٰ أذن ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ للمسلمين بالهجرة إلىٰ المدينة المنوَّرة حيث بدأ حياة أخرىٰ .

عثمانُ في ديَار الهجرة :

* أخذ المسلمون يتركون بيوتهم في مكَّة المكرمة ، ويهاجرون إلىٰ المدينةِ المنوَّرة ، وكانت كثيرٌ من الأُسَر تتركُ ديارهَا ، ومن ثمَّ تنطلقُ مهاجرةً إلىٰ اللهِ ورسوله ، وكان آل مظعون ممَّن أوعبَ في الخروج إلىٰ الهجرة رجالهم ونساؤهم ، ولم يبقَ منهم بمكَّة أحد ، حتَّىٰ غُلقت بيوتهم ، وغدت خاليةً من أهلها .

* روت عائشةُ بنتُ قدامة بن مظعون قصَّة هجرة أبيها وهجرة أعمامها وسائر آل مظعون فقالت : « نزل عثمانُ ، وقدامةُ ، وعبدُ ٱلله بنو مظعون ، والسَّائبُ بنُ عثمان بن مظعون ، ومعمرُ بنُ الحارث ، حين هاجروا من مكَّة

---

(١) « حلية الأولياء » (١ / ١٠٤) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (١ / ٤٩٠) .

إلىٰ المدينةِ علىٰ عبدِ اللهِ بن سلمة العجلانيّ »[1] .

* وقد آخىٰ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ بين سيِّدنا عثمان بن مظعون وأبي الهيثم بن التَّيِّهان الأنصاريّ ، ومن الموافقات اللطيفة أنَّ أبا الهيثَم كان قديم الإسلام ، وفيه قال ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « طبقاته » : « وكان أبو الهيثم يكْرهُ الأصنام في الجاهليَّة ، ويؤفّفُ بها ، ويقولُ بالتَّوحيد هو وأسعدُ بنُ زرارة ، وكانا أوَّل مَنْ أسلم من الأنصار بمكَّة ، ويُجْعَل في الثَّمانية النَّفر الذين آمنوا برسول ٱلله ﷺ ، فأسلموا قبل قومهم ، وقدموا المدينة بذلك وأفشوا بها الإسلام »[2] .

* في المدينةِ المنوَّرة خطَّ رسولُ ٱلله ﷺ لعثمانَ بنِ مظعون ، وإخوته موضعَ دارهم ، وظلَّ هـٰذا الموضعُ معروفاً لآل مظعون في صدر الإسلام .

* وبدأت رحلةٌ جديدةٌ في الحياة ، رحلةٌ مفعمةٌ بألوان الفضائل المقتبسة من معين النُّبوَّة ، فقد طفق سيِّدنا عثمانُ بنُ مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ يعيش حياةَ الزَّاهدين ؛ ليصل إلىٰ دار الخلد فيكون مع الخالدين ؛ وهـٰذا ما أورده أبو نُعيم في « الحلية » عن ابن شهاب : « أنَّ عثمانَ بنَ مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ دخل المسجد يوماً وعليه نَمِرةٌ قد تخلَّلتْ فرقَعَها بقطعة من فروة ، فرقَّ رسولُ ٱلله ﷺ عليه ، ورقَّ أصحابه لرقَّته ، فقال : « كيف أنتم يوم يغدو أحدكم في حلَّة ويروحُ في أخرىٰ ، وتُوضعُ بين يديه قصعة ؛ وتُرفع أخرىٰ ، وسَتَرتُم البيوت كما تُستر الكعبة ؟ » .

قالوا : وددنا أنَّ ذلك قد كان يا رسول ٱلله ! فأصبنا الرّخاء والعيش .

قال : « فإنَّ ذلك لكائن ، وأنتم اليوم خيرٌ من أولئك »[3] .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٩٦) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ١٥٨) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٤٤٨) .

(٣) « حلية الأولياء » (١ / ١٠٥) ، وقوله « نمرة » : شملة فيها خطوط بيض وسود . =

حيــاؤهُ وعبــادتُـهُ :

* وصف الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ سيِّدَنا عثمانَ بنَ مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ بأنَّه « حَييٌ ستِّير » ، ونحنُ نعلمُ من الهدي النَّبويِّ بأنَّ الحياءَ شعبةٌ من الإيمـان ، ومَـنْ لا حيـاءَ فيـه لا خَيْـرَ فيـه ؛ كمـا أنَّ « الحيـاءَ لا يـأتـي إلا بخير »[1] .

* وأخـرجَ البخـاريُّ فـي « صحيحـهِ » عـن أبـي مسعـود الأنصاريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسولُ ٱلله ﷺ : « إنَّ ممَّا أدرك النَّاس من كلام النُّبوَّة الأولىٰ : إذا لم تستحي فاصنعْ ما شئتْ »[2] .

* ولحيـاء عثمـانَ بـنِ مظعـون ـ رضـي ٱلله عنـه ـ طعْـمٌ خـاص فـي هٰذاالمجال ، فقد أورد ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سعد بن مسعود ، وعمارة بن غراب اليَحْصُبيّ : « أنَّ عثمانَ بنَ مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ أتىٰ النَّبيّ ﷺ ، فقال : يا رسولَ ٱلله ! إنِّي لا أحبُّ أن ترىٰ امرأتي عورتي .

قال رسولُ ٱلله ﷺ : « ولِمَ ؟ » .

قال : أستحيي من ذلك وأكرهُه .

قال : « إنَّ اللهَ جَعَلَهَا لك لباساً ، وجَعَلَكَ لها لباساً ، وأهلي يَرَوْنَ عورتي ، وأنا أرىٰ ذلك منهم » .

= و« تخللـت » : بليـت ، وصـارت فيهـا ثقـوب . و« فـروة » : جلـدة ، و« الرّخاء » : سعة العيش .

(١) أخرجه البخاريّ في الأدب برقم : (٦١١٧) .

(٢) أخرجه البخاريّ في الأدب برقم : (٦١٢٠) ، وأبو داود برقم : (٤٧٩٧) ، وابن ماجه برقم : (٤١٨٣) ، وقوله « كلام النُّبوَّة الأولىٰ » ؛ أي : ممَّا اتَّفق عليه الأنبياء ، ولم ينسخ فيما نسخ من شرائعهم ؛ لأنَّه أمر متَّفق عليه . و« فاصنع ما شئت » : معناه الخير ؛ إذ إنَّ الحياء يمنعه من أنْ يرتكبَ أمراً يخلُّ بالمروءة والشَّرف عادة .

قال : أنت تفعل ذلك يا رسول ٱلله ؟ !

قال : « نعم » .

قال : فَمَنْ بعدك .

فلمَّا أدبرَ قال رسولُ ٱلله ﷺ : « إنَّ ابنَ مظعون لَحييٌ ستِّير »[1] .

* وممَّا يضاف إلىٰ مزايا سيِّدنا عثمان بن مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ مزيَّة العبادة ، وأكرمْ بها من مزيَّة ! فقد كان هـٰذا الصَّحابي الزَّاهد من أكابر العبَّاد الزَّاهدين الذين يتقرَّبون إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ في أعمالهم ، ويعملون ما بوسعهم علىٰ مرضاته ، وإذا ما شردوا عن الدَّرب الواضح في العبادة ، ردَّهم المربِّي الكريم رسول ٱلله ﷺ إلىٰ النَّهج الرَّبَّاني ، والسَّبيلِ الصَّحيح الذي يلائم الفطرة التي فطر ٱلله النَّاسَ عليها في جميع مراحلِ الحياة وأنواعها وأشكالها . فالإسلامُ دين بناء وعمل ، ودينُ عبادة ؛ إذ إنَّ كلَّ عمل يقومُ به الإنسان يبتغي به وجْهَ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهو عبادة يتقرَّب بها إلىٰ ٱلله عزَّ وجلَّ .

* أوردَ ابنُ سعد عن أبي إسحاق السَّبيعي ، عن أبي بردة ، قال : « دخلت امرأةُ عثمانَ بنِ مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ علىٰ نساء النَّبيّ ﷺ ، فرأينَها سيئة الهيئة فقلنَ لها : مالكِ ؟ فما في قُريش أغنىٰ مِنْ بعلك !

قالت : ما لنا منه شيء ، أمَّا ليلهُ فقائم ، وأمَّا نهارهُ فصائم .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٨٧) ، وقوله « جعلها لك لباسا » : إشارة إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٨٧] ؛ لأنَّ اللباسَ كما يستر صاحبه كذلك يكون كلّ واحد منهما لصاحبه ستراً عمَّا لا يحلّ ، قال رسول ٱلله ﷺ : « مَنْ تزوَّجَ فقد أحرز ثلثي دينه » . وقوله « وأهلي يرون عورتي » : لعلّ ذلك كان أحياناً لبعض أزواجه ﷺ ، وأمَّا عادته العامة فهو المعروف عنه ، أو المراد منه غير السَّوأتين ، وٱلله أعلم . و« ستّير » : كثير السّتر .

فدخل النَّبيُّ ﷺ ، فذكرنَ ذلك له ، فلقيه ، فقال : « يا عثمانُ بنُ مظعون ! أمَا لك بي أسوة ؟ » .

فقال : يا بأبي وأميّ ، وما ذاك ؟

قال : « تصومُ النَّهار ، وتقومُ الليل » .

قال : إنِّي لأفعل .

قال : « لا تفعلْ إنَّ لعينيك عليك حقّاً ، وإنَّ لجسدك حقّاً ، وإنَّ لأهلك حقّاً ، فَصَلِّ ، ونَمْ ، وصمْ ، وأفطرْ » .

قال : فأتتهنَّ بعد ذلك عَطِرةٌ كأنَّها عروسٌ ، فقلنَ لها : مه ؟ !

قالت : أصابنا ما أصاب النَّاس »[1] .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٩٥) . ومن مستطرفاتِ ابن وكيع في « أخبار القضاة » ما يشبه قصَّة عثمانَ بنِ مظعون وزوجته خولة بنت حكيم ! ! فقد جاءت امرأةٌ في عهد سيِّدنا عمر تشكو إلىٰ عمر انصراف زوجها عنها للعبادة ، وعزوفه عن أمر النِّساء ، فقضىٰ بينهما كعب بن سُور الأسديّ ، وكان قضاء كعب بن سور لا يُختلفُ فيه ، فما قصَّة المرأة وزوجها ؟ ! ! !

ذكرَ وكيع عن الشَّعبيِّ قال : « إنَّ كعبَ بنَ سُور كان جالساً عند عمرَ بنِ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فجاءت امرأةٌ ، فقالت : يا أميرَ المؤمنين ! ما رأيتُ رجلاً قطّ أفضل من زوجي ، إنَّه لَيبيتُ ليله قائماً ، ويظلُّ نهاره صائماً في اليوم الحارّ ، ما يُفطر ؛ فاستغفر لها ، وأثنىٰ عليها ، وقال : مثلك أثنىٰ الخيرَ وقالَه ، واستحيتِ المرأة ، فقامت راجعةً .

فقال كعب : يا أميرَ المؤمنين ، هلاَّ أعديتَ المرأة علىٰ زوجها ؛ إذ جاءتك تستعديك ؟ ! !

قال : أوَ ذاكَ أرادت ؟ ! !

قال : نعم . فَرُدَّتْ ، فقال : لا بأس بالحقِّ أنْ تقوليه ؛ إنَّ هـٰذا زعم أنَّكِ جئتِ=

= تشتكين زوجك ، أنّه يجتنب فِراشك .

قالت : أجل ، إنّي امرأةٌ شابّةٌ ، وإنّي أتتبّع ما يتتبّع النّساء .

فأرسلَ إلىٰ زوجها فجاءه ، فقال لكعب : اقضِ بينَهما ، فإنّك فهمت من أمرها ما لم أفهمه ! ! !

فقال كعب : أميرُ المؤمنين ! أحقّ أن يقضيَ بينهما .

فقال : عزمتُ عليك لتقضينَّ بينهما .

قال : فإنّي أرىٰ كأنّها امرأة عليها ثلاث نسوة هي رابعتهنَّ ، فأقضي لها بثلاثة أيّام ولياليهنَّ ، يتعبد فيهنَّ ، ولها يوم وليلة .

فقال عمر : واْلله ما رأيك الأوّل بأعجب من الآخر ، اذهب فأنت قاضٍ علىٰ أهل البصرة » ! ! ! ؟ ! ! ! . . . .

☆ وزاد بعضهم في القصّة فقال : « إنَّ المرأةَ التي أتتْ عمر بن الخطّاب ـ رضي اْلله عنه ـ تثني علىٰ زوجها ، فقال له كعب بن سور : إنّها تشكوه .

فقال عمر : اقضِ بينهما .

فتكلّمت المرأة ، فقالت :

يا أيّها القاضي الحكيمُ رَشَده ... ألهىٰ خَليلي عن فراشي مَسْجده

زهّدهُ في مضجعي تعبُّده ... نهاره وليله ما يرقده

ولستُ في أمر النّساء أحمده ... فاقضِ القضا يا كعب لا تردده

فقال الزّوج :

إنّي امرؤٌ أذهلني ما قد نزل ... في سورة النّور وفي السّبع الطّول

زهّدني في فرشها وفي الحَجل ... وفي كتاب اللهِ تخويفٌ جلل

فحثّها في ذا علىٰ حسنِ العمل

فقال كعب :

إنَّ أحقَّ القاضيين مَنْ عقل ... ثمَّ قضىٰ بالحق جهداً وفَصَل

إنَّ لها حقاً عليك يا بعل ... نصيبها من أربع لمن عدل

فأعْطِها ذاك ودعْ عنك العلل

* وعن ابن شهاب رحمه الله : « أنَّ عثمانَ بنَ مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ أراد أن يختصيَ ، ويسيحَ في الأرض ، فقال له رسولُ ٱلله ﷺ : « أليس لك فيَّ أسوةٌ حسنةٌ ؟ فأنا آتي النِّساء ، وآكل اللحم ، وأصوم ، وأفطر ، إنَّ خصاء أمتي الصِّيام ، وليس من أمتي من خصىٰ أو اختصىٰ » [1] .

* ولشدّة محبَّة سيِّدنا عثمان بالعبادة والزّهد ، ظنَّ أنَّه يجوز له أن يتفرَّغ للعبادة بكلِّ وسيلة ممكنة ، فاتَّخذ بيتاً ، فقعد يتعبَّد فيه ؛ فبلغ ذلك الحبيب المعلّم رسول ٱلله ﷺ ، فأتاه ، فأخذَ بعضادتَيْ باب البيت الذي هو فيه ، فقال : « يا عثمان ! إنَّ اللهَ لم يبعثني بالرَّهبانيَّة ، مرَّتَيْن أو ثلاثاً ، وإنَّ خيرَ الدِّين عند ٱلله الحنيفيَّة السَّمحة » [2] .

= فبعثه عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ علىٰ البصرة » . « أخبار القضاة » (١ / ٢٧٥ ـ ٢٧٧) .

أقول : « في النَّفس شيءٌ بل أشياء من هٰذه الأشعار المصنوعة لتوافقَ واقعة الحال ، ومن هٰذه القصَّة المنسوجة المحبوكة التي تظهر سيِّدنا عمر بن الخطَّاب غيرَ فَطِن ، وهو العبقريّ الذّكيّ المشهود له بالنّباهة والحصافة وسرعة الفهم وشدّة الملاحظة ؛ نعوذ بٱلله من الأهواء ، ونعوذ بٱلله ممن يهرفون بما لا يعرفون ، ونسأل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ العافية» .

وذكر الأستاذ (محمّد شرّاب) ما يشبه هٰذا الأمر فقال : « وهناك قصص تُنْسَبُ إلىٰ عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ولا يصحُّ لها سَنَدٌ ، منها قصَّة عمر مع كعب بن سور القاضي ، عندما جاءت عمر امرأة تشكو زوجها أنَّه لا يأتيها ، فلم يفهم عمر مرادها ، وفهمه كعب ، مع قرب الكناية التي كنَّت بها المرأة ، وفي القصَّة شعر أيضاً ، وهي تقدح في ذكاء عمر وفطنته وقدرته علىٰ القضاء بين الخصوم » . « المدينة النَّبويَّة » (فجر الإسلام والعصر الرَّاشدي : ٢ / ١٦١) .

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٩٤) ، وانظر أمر النَّهي عن التَّبتُّل في « تفسير القرطبيّ » (٦ / ٢٦٠ ـ ٢٦٢) .

(٢) انظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٩٥) ، وانظر : « سير أعلام النُّبلاء » =

* جاء في « الصَّحيح » بسند عن سعد بن أبي وقَّاص ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « ردَّ رسولُ ٱلله ﷺ علىٰ عثمانَ بنِ مظعون التَّبتُّل ، ولو أَذِنَ له لاختصينا »[1] .

« ذَاكَ عَمَلُه » :

* لم يكن سيِّدنا عثمانُ بنُ مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ بقعدد عن الجهاد ، فإنَّه لمَّا كانت غزوةُ بدر الكبرىٰ ، سارع إليها ، وخرج مع المجاهدين لإعلاء كلمة ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فهو معدودٌ في البدريين المغفور لهم بإذن ٱلله ، وعاد من غزوةِ بدر سالماً سعيداً بنصر ٱلله للمسلمين ، فكان عثمانُ أحدَ أصحاب النَّبيّ ﷺ من الفرسان ، وأحد الأعيان الشّجعان .

= (١ / ١٥٨) وتخريج الحديث فيه .

(١) أخرجه مسلم في النِّكاح برقم : (١٤٠٢) . وقوله « التَّبتُّل » : هو الانقطاع عن النِّساء وترك النِّكاح انقطاعاً إلىٰ عبادة ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ . وأصل التَّبتُّل القطع ، ومنه : مريم البتول ، وفاطمة البتول ، لانقطاعهما عن نساء زمانهما ديناً وفضلاً ورغبة في الآخرة .

قال الطَّبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « التَّبتُّل » : هو ترك لذَّات الدُّنيا وشهواتها ، والانقطاع إلىٰ ٱلله تعالىٰ بالتّفرّغ لعبادته » . و« ردّ عليه التّبتّل » : معناه : نهاه عنه . و« لو أذن له لاختصينا » : معناه : لو أذن له في الانقطاع عن النِّساء وغيرهنَّ من ملاذ الدُّنيا لاختصينا لدفع شهوة النِّساء ، ليمكننا التّبتّل . وهٰذا محمول علىٰ أنّهم كانوا يظنّون جواز الاختصاء باجتهادهم ، ولم يكن ظنُّهم هٰذا موافقاً ، فإنَّ الاختصاء في الآدمي حرام ، صغيراً كان أم كبيراً ، وٱلله أعلم .

وانظر : « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ١٥٤ ـ ١٥٥) ، وتخريج الحديث فيه . وقال الذّهبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن عثمان بن مظعون نقلاً عن ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وكان عابداً مجتهداً ، وكان هو ، وعليّ ، وأبو ذرّ همّوا أنْ يَخْتَصُوا » . « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ١٥٥) .

* وبعد غزاة بدر بقليل مرضَ سيِّدنا عثمان بن مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ثمَّ أسلم روحه إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فكان أوَّل مَنْ مات من المهاجرين بالمدينة بعد رجوع المسلمين من بدر [١] .

* علم رسولُ ٱلله ﷺ بوفاة صاحبه العابد المجاهد عثمان بن مظعون ، فأسرع إلىٰ منزله . قالت أمُّنا عائشة ـ رضوان ٱلله عليها ـ : « إنَّ رسولَ ٱلله ﷺ قبَّل عثمانَ بنَ مظعون وهو ميّت ، ودموعه تسيلُ علىٰ خدِّ عثمان بن مظعون » [٢] .

* ولمَّا مُرَّ بجنازة عثمان بن مظعون قال رسول ٱلله ﷺ : « ذهبتَ ، ولم تلبسْ منها بشيء » [٣] يعني : الدُّنيا ؛ وخرجَ رسولُ ٱلله ﷺ ، فكبَّر علىٰ عثمان أربع تكبيرات [٤] ، وكان أوَّل مَنْ دُفِنَ بالبقيع من المسلمين عثمان بن مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وكان رسول ٱلله ﷺ هو الذي اختار البقيع مقبرة للمسلمين ؛ فقد كان ﷺ يرتاد لأصحابه مقبرة يُدفنون فيها ، فجاء نواحي المدينة وأطرافها ، ثمَّ قال : « أمرت بهـٰذا الموضع » يعني : البقيع ، وكان أكثر نباته الغرقد ، فكان أوَّل مَنْ قُبِر هناك سيِّدنا عثمان بن مظعون ، فوضعَ رسولُ ٱلله ﷺ حجراً عند رأسه : وقال : « هـٰذا فَرَطنا » فكان إذا مات الميّت بعده قيل : يا رسول ٱلله ! أينَ ندفنه ؟

---

(١) قال ابن سعد رَحِمَهُ ٱللهُ : « شهد عثمان بن مظعون ـ رضي ٱلله عنه ـ بدراً ، ومات في شعبان علىٰ رأس ثلاثين شهراً من الهجرة » . « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٩٦) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٩٦) ، وأخرجه التِّرمذيّ في الجنائز برقم : (٩٨٩) ، وأبو داود في الجنائز برقم : (٣١٦٣) ، وابن ماجه في الجنائز برقم : (١٤٥٦) ، وأبو نعيم في « الحلية » (١ / ١٠٦) .

(٣) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٣٩٧) .

(٤) المصدر السَّابق نفسه .

فيقول رسول ٱلله ﷺ : « عند فرطنا عثمان بن مظعون »[1] .

* وعن زيدِ بنِ أسلم قال : « توفي عثمانُ بنُ مظعون ، فسمع رسول ٱلله ﷺ عجوزاً تقول وراء جنازته : هنيئاً لك أبا السَّائب الجنَّة . فقال لها رسول ٱلله ﷺ : « وما يدريك ؟ » .

فقالت : يا رسول ٱلله ! أبو السَّائب .

قال : « وٱلله ما نعلمُ إلا خيراً » . ثمَّ قال : « بحسبكِ أنْ تقولي : كان يحبُّ ٱلله ورسوله » .

* بينما أخرجَ البخاريُّ بسنده عن خارجةَ بنِ زيد بن ثابت عن أمّ العلاء الأنصاريَّة قالت : « طارَ لنا عثمان بن مظعون في السّكنىٰ حين اقترعت الأنصار علىٰ سكنىٰ المهاجرين ، فاشتكىٰ ، فمرَّضناه حتَّىٰ توفي ، ثمَّ جعلناه في أثوابه ، فدخل علينا رسولُ ٱلله ﷺ ، فقلتُ : رحمةُ ٱلله عليك أبا السَّائب ، فشهادتي عليك ، لقد أكرمك ٱلله .

قال : « وما يدريك ؟ » .

قلت : لا أدري وٱلله .

قال : « أما هو فقد جاءه اليقين ، إنِّي لأرجو له الخير من ٱلله ، وٱلله ما أدري ـ وأنا رسولُ ٱلله ـ ما يفعل بي ولا بكم » .

قالت أمُّ العلاء : فوالله لا أزكّي أحداً بعده .

قلت : ورأيت لعثمان في النَّوم عيناً تجري ، فجئتُ رسولَ ٱلله ﷺ ، فذكرت ذلك له ، فقال : « ذاك عمله يجري له »[2] .

---

(١) المصدر السَّابق نفسه .

(٢) أخرجه البخاريُّ بهٰذا اللفظ في التَّعبير برقم : (٧٠١٨) ، وأخرجه في الجنائز برقم : (٢٦٨٧) ، وفي مناقب الأنصار برقم : (١٢٤٣) ، وفي التَّعبير أيضاً =

* قال ابنُ الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ : « واختلف النَّاس في المرأةِ التي قال لها رسولُ ٱللهِ ﷺ هٰذا ، فقيل : كانت أمّ السَّائب زوجته . وقيل : أمّ العلاء الأنصاريَّة ، وكان نزل عليها . وقيل : كانت أمّ خارجة بن زيد »[1] .

* ونجدُ لزوجة عثمان وفاءً له ، يتمثّل هٰذا الوفاء في مرثية رقيقة رثته بها ، وهٰذه المرثية تسيلُ أسًى وحزناً ، وتتفجّرُ عاطفة ولوعة ، فكلّ بيت من أبياتها يقطرُ إخلاصاً واستسلاماً وتسليماً لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وإن كان الحزنُ يجري في فؤادها وجوارحها ، ويتمثّل في حركاتها وسكناتها ، ولٰكنها لا تخرج عن النّهج الصّحيح في الرّثاء لزوجها عثمان بن مظعون ، فهي تبدو باكية ، فائضة الدَّمع ، ومن المؤكد أنَّ فيضانات الدُّموع هي التَّعبيرُ الحقيقيُّ عن شدَّة الحزن ، ونقرأ في السُّطور الآتية الهمَسات الحرّىٰ من امرأة عثمان بن مظعون ، وهي ترثيه فتقول :

يا عينُ جُودي بدمعٍ غيرِ ممنون	**علىٰ رزيَّةِ عثمانَ بنِ مظعون**
علىٰ امرىءٍ باتَ في رضوانِ خالقِهِ	**طوبىٰ له من فقيدِ الشَّخص مدفون**
طابَ البقيعُ له سكنىٰ وغرقدُه	**وأشرقَتْ أرضُهُ من بعدِ تَفْتين**
وأورثَ القلبَ حزناً لا انقطاع له	**حتَّىٰ الممات فما ترقىٰ له شوني**[2]

= برقم : (٧٠٠٣ و ٧٠٠٤) ، وأخرجه عبد الرَّزَّاق في « المصنَّف » برقم : (٢٠٤٢٢) ، وابن سعد (٣ / ٣٩٨) ، وانظر : « مجمع الزَّوائد » (٩ / ٣٠٢) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٤٩٦ ـ ٤٩٧) .

(١) « أسد الغابة » (٣ / ٤٩٦) ، وقد فصَّل في هٰذا الأمر وأجمل ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحه للحديث رقم : (٧٠١٨) . انظر : « فتح الباري » (١٢ / ٤٢٨) .

(٢) « حلية الأولياء » (١ / ١٠٤) ، و« أسد الغابة » (ص : ٤٩٦) ، و« نساء من عصر النُّبوَّة » (ص : ١٦٩ ـ ١٧٠) ، وغيرها .

وقولها « غير ممنون » : معناه : غير مقطوع . و« الغرقد » : هو نوع من شجر العِضَاة ، وقد قيل لمدافن المدينة : بقيع الغرقد ؛ لأنَّ فيه شجر الغرقد . =

* **وبعد** : فهٰذه أقباسٌ لطيفةٌ من سيرة السَّلف الصَّالح عثمان بن مظعون ، الذي خرج من الدُّنيا ولم يَتَلبَّس منها بشيء .

* نرجو اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يلحقَنا بالسَّلفِ الصَّالح عثمانَ بنِ مظعون ، وأنْ يدخلنا الجنَّة برحمته ، وأنْ يحشرنا مع الصَّحابة الكرام ، فنحنُ واللهِ نحبُّهم أجمعين ، فهم الذين رضي ٱلله عنهم ورضوا عنه ، اللهم اجعلنا فيمن رضيت عنهم ، ووفّقْنا لعملِ الخير ، والسّير علىٰ طريق أهل الخير ، من رجال عصر النُّبوَّة أهل الخير ، وصلىٰ ٱلله وسلم علىٰ معلِّم النَّاس الخير .

✍ ✍ ✍

= و« شوني » : جمع شأن ، وهو العرق الذي تجري منه الدُّموع . وٱلله أعلم .



مصعبُ بنُ عُمير

رضي ٱللهُ عنه

* سابقٌ تقيٌ نقيٌ ؛ محبٌّ لله ورسوله من أهل بَدْر .
* السَّفيرُ النَّبويُّ الموفَّق ؛ ومقرئ أهلِ المدينة ومعلِّمهُم .
* أسْلَمَ علىٰ يديه سادةُ الأنصار ، واستُشهد بأُحد .

مصعبُ بنُ عُمير
رضي ٱلله عنه

مصعبُ الخير :

* كان أوَّلَ الدُّعاة ، ومن أعلام التُّقاة ، نظر إليه الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ نظرةَ إكبارٍ وإشفاقٍ ؛ حينما رآه مقبلاً ذات يوم وهو راض بمشيئة الخلّاق ، وعليه إهابُ ـ جلد ـ كبشٍ قد تنطَّقَ به ، فقال ﷺ منوهاً إلىٰ مكانتهِ وخيريَّته : « انظُروا إلىٰ هـٰذا الرَّجُل الذي قد نوَّرَ اللهُ قلبَهُ ، لقد رأيتُه بين أبوَيْن يغذوانهِ بأطيب الطَّعام والشَّراب ، فدعاه حبُّ اللهِ ورسوله إلىٰ ما تَرَون »(١) .

* كما أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ كان يذكرُ جمالَه ونعمتَه فيقول : « ما رأيتُ بمكَّةَ أحسنَ لمةً ، ولا أنعم نعمةً منه »(٢) .

* هـٰذا الرَّجُل كان من المؤمنين الذين صدقُوا ما عاهدوا ٱلله عليه ، وهو من السَّابقين الأوَّلين إلىٰ الإسلام ، إنَّه مصعبُ بنُ عُمير بن هاشم ، السَّيِّد الشَّهيدُ السَّابقُ البدريّ القرشيّ العبدريّ(٣) .

---

(١) « حلية الأولياء » (١ / ١٠٨) .

(٢) « أسد الغابة » (٤ / ٤٠٦) ، ترجمة رقم : (٤٩٢٩) .

(٣) المصادر التي ترجمت لسيِّدنا مصعب لا تُحصر ولا تُحصىٰ ، ومنها علىٰ سبيل المثال : « حلية الأولياء » (١ / ١٠٦ ـ ١٠٨) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ١٤٥ ـ ١٤٨) ، و« البداية والنِّهاية » (٤ / ١٥ ، و٢٠ ، و٣٣) ، و« نسب=

* إذن فمصعبٌ أحدُ السَّابقين الأوَّلين من رجالات الرَّعيل الأوَّل في مكَّة المكرَّمةِ ، وكان لعظيم فضْلهِ ، وجليلِ خلائقه ، وكريمِ أخلاقه يُلقَّب بين المسلمين بـ : « مصعب الخير » وحقاً لقد جمع الخير من أطرافهِ ، فهو هاشميٌ ، منافيٌ ، عبدريٌ ، في عُليا بيوتات قريش ، وذِرْوَة أرومتها ، وسنام شرفها .

* وفي هٰذه التَّرجمة المزهرة الزَّاهرة سنعيشُ أوقاتاً سعيدة ننعمُ بما نَعِمَ به هٰذا الرَّجلُ من إيمانٍ ذاقَ حلاوته ، فرفضَ نعيم الدُّنيا ، وفارقَ زخرفها ؛ ليغدوَ من طالبي طريق ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي يؤدّي إلىٰ جنانٍ كثيرة ، إلىٰ جنَّات ونَهَر ، في مقعدِ صدقٍ عند مليك مقتدر .

* كان هٰذا الرَّجُل لا يزالُ ينعمُ في ميعةِ الصِّبا ؛ ويرفُل في إهاب الجمالِ والشَّباب ، حينما داعبتْ أنسامُ الهداية لُبَّه ، ولامست روحُ الدعوة إلىٰ الله ِقلبَهُ ، وتسرَّبت أنوارُ الحقِّ إلىٰ أعماق نفسه .

* كان يتقلَّبُ من نعمةٍ إلىٰ نعمة ، ويتلذَّذُ بمعين الثَّراء الذي يتدفَّقُ عليه من أبويه اللذَيْن أغدقا علىٰ فتاهما الجميلِ كلَّ ألوانِ التَّرف ، والمال ، والنَّعماء ، فهو صاحبُ اللباس الأنيق ، والنِّعال الحضرميَّة الفاخرة ، والعطر الفوَّاح ، والشَّعْر الجميل ، وهو كذلك صاحبُ الحسَبِ والنَّسب الرَّفيع في مكَّة ، فلا عجب أن يكونَ من فتيانها المتصدِّرين مجالسها ، والمرتادين أنديتها ، لا يفكِّر إلا في معالي الأمور ، ولا يخشىٰ فقراً ولا ذلّةً .

* في الجو الممتلئ نضرةً وريّاً ولهواً نُمِيَ إلىٰ مصعب الخير ـ وهو في ميعة الصِّبا والشَّباب النَّضير ـ أنَّ الأمينَ الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ يدعو إلىٰ

= قريش » (ص : ٢٤٥) ، و« أسد الغابة » (٤ / ٤٠٥ ـ ٤٠٨) ، ترجمة رقم : (٤٩٢٩) ، و« الاستيعاب » (٣ / ٤٤٧ ـ ٤٥١) ، و« الإصابة » (٣ / ٤٠١ ـ ٤٠٢) ، و« طبقات الصّوفيّة » للمناويّ (١ / ١٨٧ ـ ١٨٨) ، وغيرها ممّا لا يستقصىٰ .

الإسلام بقرب الصَّفا ، في دار الأرقمِ بنِ أبي الأرقم ؛ فأحسَّ بطمأنينةٍ تتفشَّىٰ في نفسه ، ودلفَ إلىٰ الدَّار الأرقميَّةِ المباركة متخفياً من أبويه ومن قومه ، وألقىٰ بنفسهِ وقلبهِ وعقلهِ وروحهِ بين يدي النَّبيّ ﷺ ، فأسلمَ إسلامَ الأصفياء ، وشهد شهادةَ النَّجاة ، ومفتاح الجنَّة ، وكتم إسلامه عمَّن حولَه من الأهل والعشيرة .

* أحبَّ سيِّدنا مصعب الخير دينَ ٱللهِ حبّاً خالطَ روحه ومشاعره ، ولامس كلَّ ذرّةٍ من كيانه ، فأخذ يختلفُ إلىٰ سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ فيمن آمنَ معه ، متسللاً تحت أجنحةِ الخفاء ، وأستار الظَّلام ، مستهدياً بآياتِ ٱللهِ تُتلىٰ ، وبالأحاديث النَّبويَّة تُجلىٰ ، فأُشْرِبَ قلبه حبّ الإيمان ، وحلَّتِ الهداية قلبه الرَّيَّان ، فعكف علىٰ العبادة ساهراً ، وقطف من العلم أزاهراً .

مصعبٌ وأُمّـهُ :

* كانت أمُّ مصعب بن عمير تدعىٰ : خنَاس بنت مالك المطرَّف . وقد عُرفَتْ بمكانتها بين أفراد أسرتها ، وقوَّة تأثيرها عليهم ، وكانت تحبُّ مصعباً حبّاً متميِّزاً ، وتغدقُ عليه بما تشتهيه نفسه ، ويلذّ قلبه ، فكانت تكسوهُ أجملَ اللباس ، وأحسنها ليناً وقيمةً بين النَّاس .

* وأُحيطَ هـٰذا الفتىٰ الجميلُ برعايتها وعنايتها ، فهو ذو شباب نَضِر ، وطلعةٍ محبَّبة ، ووجْهٍ جميل ، كان رقيقَ البشرة ، معتدلَ القوام ليس بالطَّويل ولا بالقصير ، حتَّىٰ اشتُهِر بأنَّه فتىٰ مكَّة الذي يجرِّر أذيال الجمال والشَّباب والجَدة .

* قال عنه ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللهُ في « الطَّبقات » ؛ عمَّا بلغه عنه من ثقاة الرُّواة : « كان مصعبُ بنُ عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ فتىٰ مكَّة شباباً وجمالاً وسَبيباً ، وكان أبواه يحبّانه ، وكانت أمُّهُ مليئةً كثيرةَ المال ، تكسوه أحسنَ ما يكون من الثِّياب وأرقّه ، وكان أعطر أهل مكَّة ، يلبس الحضرميّ من النِّعال ، فكان رسول ٱلله ﷺ يذكره ويقول : « ما رأيتُ بمكَّة أحداً أحسنَ

لمّةً ، ولا أرقّ حلةً ، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير »[1] .

* وفي حديث عروةَ بنِ الزُّبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سيِّدنا مصعب بيانٌ وتوضيحٌ لِرفَاهِ مصعب وحياته ، ثمَّ زهْدُهُ لمَّا آمَنَ بٱلله ربّاً ، وبمحمَّد ﷺ رسولاً ، ورغبتُه في الخير . . . يقول عروةُ : « بينا أنا جالسٌ مع عمرَ بنِ عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يبني المسجد ، فقال : أقبلَ مصعبُ بنُ عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ ، والنَّبيُّ ﷺ جالسٌ في أصحابه ، عليه قطعة نَمِرة ، قد وصَلَها بإهابٍ قد ردَّنَه ، ثمَّ وصَلَه إليها ؛ فلمَّا رآهُ أصحاب النَّبيّ ﷺ ، نكسوا رؤوسَهم رحمةً له ، ليس عندهم ما يغيِّرون عنه ، فسلَّم فَرَدَّ عليه النَّبيّ ﷺ ، وأحسن عليه الثَّناء ، وقال : « الحمدُ لله ، لِيَقْلب الدُّنيا بأهلها ، لقد رأيتُ هٰذا ـ يعني مصعباً ـ وما بمكَّة فتًى من قريش أنعمُ عند أبويه نعيماً منه ، ثمَّ أخرجه من ذلك الرَّغبة في الخير ، في حبِّ ٱلله ورسوله »[2] .

* إنَّ سيِّدنا مُصْعباً ـ رضي ٱلله عنه ـ قد ودَّعَ الجاهليَّة وداعاً أبدياً ، وطلّقها طلاقاً لا رجعة بعده ، وها هو ذا يخطو خطًى صحيحةً في ظلالِ الإيمان الذي ملأ روحَهُ وقلبَه ، وانسكبَ بأنواره علىٰ وجهه الجميل ، فهل يمكن له أنْ يخفيَ الأنوار الرَّبانيَّةَ التي تشعُّ من وجهه الأبيض الوسيم المشرق ؟ وهل يستطيعُ أنْ يضبطَ مشاعره وحبَّه للرَّسولِ ﷺ الذي أخرجَهُ من الظُّلمات إلىٰ النُّور ؟ ! وهل يطيقُ أن يعودَ إلىٰ أباطيلِ الجاهليَّةِ ومجونها وسخفها وما فيها من الغرور ؟ !

* لا ريب في أنَّ الإيمانَ طلاّعٌ لا يُحجب ، وله أنوارٌ لا تَخفىٰ ، فهو يعلنُ عن نفسه مهما اجتهدَ صاحبه في كتمانه وإخفائه ، لقد ظلَّ مصعبُ ردحاً

---

(١) « طبقات ابن سعد » (١ / ١١٦) ، وقوله « سبيباً » : السَّبيب كأمير شعر النَّاصية والخصلة من الشَّعر . و« الحضرميّ من النّعال » : نعل منسوب إلىٰ حضرموت وهو من أحسن النّعال في ذلك الزّمن .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١١٦ ـ ١١٧) .

من الزَّمن يكتمُ إيمانَه ويُخْفيه ، ويسرّه عن أمّه وأبيه ؛ وعشيرته التي تُؤْيه ، وأبتْ عليه الإشراقاتُ النُّورانيَّة أنْ تظلَّ حبيسةَ الخوف والخفاء والتَّخفِّي ، وأسيرة الكتمان والتَّوقِّي ، فأعلنَ عن نفسهِ في وقفةٍ خاشعةٍ بين يدي ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو يصلِّي ، وإذ ذاك بَصُر به عثمانُ بنُ طلحة العبدريّ عن جنبٍ وهو لا يشعرُ ، فأسرع عثمانُ ـ وكان أحد رجالات قومه ، ومَنَّ ٱلله عليه بالإسلام في هدنة الحديبية ـ وأفشىٰ خبرَ إسلامه بين يدي أمّه خُنَاس ، وهٰهنا بدأت محنةُ مصعب الشَّديدة حينما علمت أمّه وقومه بإسلامه .

* كانت المصيبةُ كبيرةً ، والخطبُ جَلَلٌ ، والموقفُ عسيرٌ مع هٰذه الأمّ الرَّؤوم الحازمة القاسية بآن واحد ، لقد صدعَ قلبَها إسلامُ ابنها ، وكادت تتلفُ مهجتها ، فقد حسبت أنَّه خرجَ إلىٰ ما لا يُحمد عقباه ، ولم تعلم أنَّه خرج إلىٰ النَّعيم المقيم ؛ والخير العميم ؛ كانت هٰذه الأمّ تحنو عليه حنو المرضعات علىٰ الفطيم ، وتوفِّر له سُبُلَ الرَّاحة وأسبابَ النَّعيم ، وهي كما وصفها السُّهيليُّ رَحِمَهُ ٱللهُ في « الرَّوض الأنف » : « كان قبل إسلامه من أنعم قريش عيشاً ، وكانت أمّه شديدةَ الكلف به ، وكان يبيتُ وقَعْبُ الحيس عند رأسه ، يستيقظُ فيأكلُ . . . »[(١)] .

* ويقدِّم الإمام النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللهُ صورةً وافيةً عن أمِّ مصعب وشدّة حفاوتها واهتمامها بابنها فيقول : « وكانت أمّه تكسوهُ أحسنَ ما يكون من الثِّياب بمكَّةَ ؛ وكان أعطرَ أهلِ مكَّة ، ثمَّ انتهىٰ به الحالُ في الإسلام إلىٰ أنْ كان عليه بُردةٌ مرقوعةٌ بِفَرْوة »[(٢)] .

* ومعظم الذين ترجموا لسيِّدنا مصعب ـ رضي ٱلله عنه ـ أجمعوا علىٰ

---

(١) « الرَّوض الأنف بهامش السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ١٩٥) ، وقوله « قعب » : القعب : قدح من خشب مقعر . و« الحيس » : تمر يخلط بسمن وأقط .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٩٦) .

أنَّه كان من الرَّفاه والتَّنعُّم والمال والنَّعيم الدّنيويّ وما شابه ذلك في الذّروة ، بالإضافة إلىٰ ما حباه ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ من جمال الطَّلعة ، وجليل الصِّفات ، وكريم السَّجايا ، ولطيف المحتد . ومعظم هـٰذه الأشياء فَقَدَهَا بظلْمِ أمّه ، وحقْدِ مجتمعِهِ ؛ وإساءة الذين أشركوا ، فقد نقموا عليه ؛ لأنَّه آمن بالعزيز الحميد ، ولأنَّه ارتقىٰ بإيمانه عالياً ، وترك بطرَ الجاهليَّة وأشَرهَا ، فأصابه من الشِّدَّة ما غيَّر لونه ، وأذهبَ لحمه ، وأنهك جسمه ، حتَّىٰ كان الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ ينظرُ إليه ، وعليه فروة قد رقعها ، فيبكي لما كان يعرف من نعمتهِ وطيِّباته وراحتهِ ، واعتناء أبويه به .

* وممَّا زاد الطِّين بِلَّة ، والأمور عِلَّة ، موقفُ أمّ مصعب من إيمان ابنها ، وقد نقل لنا السُّهيليّ رَحِمَهُ ٱللهُ مشهداً صعباً لها اتّخذته حجَّةً لها ؛ ليرجعَ ولدها عن إيمانه ، فقال : « وحلفت أمّهُ حين أسلم وهاجر ألا تأكلَ ولا تشربَ ، ولا تستظلَّ بظلٍّ حتَّىٰ يرجعَ إليها ، فكانت تقفُ للشَّمس حتَّىٰ تسقطَ مغشياً عليها ، وكان بنوها يحشون فاها بشجار ـ عود ـ فيصبّون فيه الحساء لئلا تموت » [1] .

* هـٰذا كلُّه لمْ يثْنِ عزمَ مصعب ولم يوهنْ قوّته ، ولم يثلمْ إيمانه ، فهو يرىٰ أنوارَ اليقين بعين الحقِّ والرِّضا ، بينما لا ترىٰ أمّه هـٰذا كلّه ، وإنّما لعبتْ بها أمشاجُ الجاهليَّة من أحقادٍ ، وعاداتٍ ، وقيمٍ باطلةٍ ، وأوثانٍ ، وخرافاتٍ ، وأضاحيك الأقرباء وسخريتهم من ابنها وممَّن آمن بدعوة الإسلام ، ومن ثمَّ تخلَّتْ عن عواطِفها الجيَّاشة وأحاسيسها الملتهبة نحو مصعب ، عندما أخذه أهلهُ وقومهُ ، فحبسوهُ ، وضيّقوا عليه أشدَّ الضِّيق ، وعذَّبوهُ بالجوع ، وروَّعُوه بالظَّمأ في الهواجر ، فثبتَ ـ رضي ٱلله عنه ـ ثباتَ الرَّواسي الأعلام ، وصبَرَ علىٰ ضيقِ الحبس صبْرَ الكرام ، وصبر علىٰ قسوة التَّجويع والإعطاش ولم يركنْ إلىٰ الاستسلام ، وظلَّ صابراً لم يَسْتَنِم ولم يغفُ عن الإسلام ، ولم

---

(1) « الرّوض الأنف » (٢ / ١٩٥) .

يستسلم لهزَّات اللئام ، حتَّىٰ أُتيحت له فرصة الإفلات من سجنهِ ، فخرجَ ـ رضي ٱلله عنه ـ مهاجراً إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وإلىٰ رسولهِ ﷺ ، هاجر مصعبٌ إلىٰ حيث يأمنُ علىٰ دينه ، وعلىٰ نفسه ، فقد أخبر الحبيب المصطفىٰ ﷺ أصحابه أنَّ بأرض الحبشة ملكاً عادلاً لا يُظْلَم أحدٌ عنده .

* استقرَّ المقامُ بمصعب في الحبشة مع ثلّة من أصحابه من أعيان السَّابقين الأوَّلين وممَّن هاجروا هجرته تاركين مكَّة أحبَّ البلاد إلىٰ ٱلله ، وألصقها إلىٰ قلوبهم ، تركوا الأهلَ والوطنَ ، وتحمَّلوا آلامَ الغربة وإيلامَها ، وشدائدَ البأساء في سبيل أنْ تطمئنَّ قلوبهم بذكر ٱلله ، وبإيمانهم الصَّافي .

* ترك مصعبٌ أمّه بمكَّة تلعبُ بها الأهواءُ والأماني ، لم يفكِّرْ إلا في مرضاةِ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، أرادت أمُّه وجاهدتْ ما بوسعها علىٰ أن تردَّ مصعباً إلىٰ الشِّرك ، فلم يطعْها في هـٰذا الأمر ، وظلَّ ثابتاً علىٰ إسلامه ينعمُ في ظلاله في ظلِّ عدلِ النَّجاشي ملك الحبشة .

* مرَّت أيَّامٌ وأيَّامٌ فإذا بمهاجري الحبشة يسمعون أخباراً متناثرةً تزعُمُ أنَّ قريشاً قد أسلمت ، وهدأ لهيبُ حقدها ، وهادنت المسلمين ، وتلاشتِ العدواةُ والبغضاء فيما بينها وبين المسلمين ، وما كاد مصعب يسمعُ بهـٰذه الأنباء حتَّىٰ هفا قلبهُ نحو مكَّة المكرمة ، وسرعان ما عاد إليها مع مَنْ عاد من إخوانه المهاجرين ، لـٰكنَّه حينما وصل مكَّة ألفىٰ أنَّ إسلام قريش كان أكذوبة من السَّاخرين ، ووجد قريشاً تسرحُ وتمرحُ في الكفْرِ والجحودِ ، وتصبُّ أذاها أكثر من ذي قبل علىٰ المؤمنين الرُّكَّع للملك المعبود ؛ فعادوا من حيثُ أتوا ، وعاد مصعبٌ معهم ، وظلَّ في الحبشة حيناً من الدَّهر ، وهو يصبرُ ويصابرُ ، ويستعين بٱلله علىٰ المشركين ، ويحتملُ الأذىٰ مؤتسياً بأمير الأنبياء سيِّدنا وحبيبنا رسول ٱلله ﷺ ، وصالح المؤمنين وخاصَّتهم ممَّن ضربوا أعلىٰ الأمثلة في الصَّبر علىٰ المصائب ، واستسلموا لله العزيز الحميد الفعَّال لما يريد .

* وأفادت المصادرُ التي رسمت أخبار سيِّدنا مصعب بأنَّ أُمَّ مصعب لمَّا رأتْهُ إثر عودته من الحبشة ـ وكان سَمْتُه قد تغيَّر ، وتبدَّل حاله ، وشَظُفَ

عيشه ـ رقَّتْ له ، وكفَّتْ عن لومه وعذله ، بيد أنَّها قبضتْ يدها عنه ، فلم تَعُدْ تغدقُ عليه كما كانت تفعل قبل إسلامه ، وما كان مصعبٌ ممَّن يُلْهِهِ المال ، أو تغريه الأعطيات ، فقد اتَّخذ إلىٰ ربِّه سبيلاً واضحاً ، وديناً قيماً ، ورضي بٱلله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمَّد ﷺ نبياً ورسولاً ، فربحَ بيعهُ ، وظفر بالحسنىٰ .

* وكان لمصعب ـ رضي ٱلله عنه ـ موقفٌ يتجلَّىٰ بالحسْنِ مع أمّه ، هـٰذا الموقفُ يستحقُّ أنْ يتعلَّمه مَنْ أراد أنْ يتعاملَ مع ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ علىٰ أساسٍ صحيح ، فقد أرسلَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ مُصْعباً إلىٰ المدينةِ ليعلِّم الأنصار بعد بيعة العقبة الأولىٰ ، فعاد مصعبٌ من المدينة إلىٰ مكَّة ومعه سبعون من المدينة ليوافوا رسولَ ٱلله ﷺ في موسم الحجّ ؛ ولمَّا دخل مصعب مكَّةَ لم يذهبْ إلىٰ أُمّه ، ولا إلىٰ بيته أو محضنهِ الذي ترعرع فيه ، وإنَّما كان أوّل منزلٍ قصده هو منزلُ المربِّي المنقذ من الضَّلال ، منزل رسول ٱلله ﷺ ، وجعل يبشِّرُ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ بنجاح مهمَّته ، وإقبال الأنصار علىٰ الإسلام ، ودخولهم زرافاتٍ ووحداناً في دينِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وانتظارهم رسول ٱلله ﷺ كيما يهاجرَ إليهم ، ويحلَّ بدارهم ويباركها . فسُرَّ الحبيب المصطفىٰ ﷺ بما أخبره تلميذُه النَّجيبُ الحصيفُ الجميلُ مصعبُ الخير ـ رضي ٱلله عنه ـ .

* وفي هـٰذه الأثناء بلغ خُنَاساً أمَّ مصعب قدوم ابنها إلىٰ مكَّة بعد غياب دام قرابة سنة ، فأرسلت إليه عاتبةً تقول له : « يا عاقُّ ! أتقدمُ بلداً أنا فيه لا تبدأ بي ؟ » . فقال مصعب ملفتاً نظرها إلىٰ حقيقةٍ ناصعةٍ غابت عنها وعن أمثالها : « ما كنتُ لأبدأ بأحدٍ قبل رسول ٱلله ﷺ » .

* اللهُ أكبرُ ، ما أجملَ تربيةَ النَّبيِّ ﷺ لهـٰؤلاء الشَّباب المخلصين ! فأكرمْ بهم ! وأعظمْ بإيمانهم !

* لقد سلَّم مصعب الخير علىٰ معلِّم النَّاس الخير ، رسول ٱلله ﷺ ، وقصَّ عليه قصصَ الأنصار ، ثمَّ ذَهَبَ إلىٰ أمّه وسلَّم عليها ، فقالت له : « إنَّك لَعَلىٰ ما أنتَ عليه من الصَّبْأة بعد ! » .

فقال مصعب في هدوء اليقين وأدب المخبتين : « أنا علىٰ دين رسول ٱلله ﷺ ، وهو الإسلامُ الذي رضيهُ اللهُ لنفسه ولرسوله » .

قالت : « ما شكرتَ ما رثيتُك مرَّةً بأرض الحبشة ، ومرَّةً بيثرب » .

فقال ـ رضي ٱلله عنه ـ : « أفرُّ بديني أنْ تقتلوني » . فأرادت حبسَه ، فقال : « لئن أنتِ حبستني لأحرصنَّ علىٰ قَتْل مَنْ يتعرض لي » .

قالت : « فاذهبْ لشأنك » وجعلت تبكي .

فقال مصعب ناصحاً إيَّاها نصيحة النَّجاة : « يا أمّه ! إنِّي لكِ ناصحٌ ، عليك شفيقٌ ، فاشهدي أنْ لا إلـٰه إلا ٱلله وأنَّ محمَّداً عبده ورسوله » .

فقالت أمّه مستنكرةً : « والثَّواقب لا أدخلُ في دينك ، فيُزْرىٰ برأيي ، ويضعَّف عقلي ، ولـٰكنْ أدعُكَ وما أنتَ عليه ، وأقيمُ علىٰ ديني »[1] .

* وبهـٰذا الكلام ينتهي ما بين مصعب وأمّه من حوار وجدال ، ويسدل السّتار بينهما ، فقد خرج مصعبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ المدينة المنوّرة مهاجراً قبيل مقدم رسول ٱلله ﷺ ، ولم يلتقِ أمّه ، وظلَّ بالمدينة إلىٰ أنْ لقيَ ٱلله شهيداً في غزوة أحد .

الفقــيهُ المقــرئُ :

* لمَّا ساق الإمامان النَّوويُّ وابنُ الأثير ترجمةَ سيِّدنا مصعب قالا : « أبو عبد ٱلله مصعب بن عمير القرشيّ العبدريّ ، كان من فضلاء الصَّحابة وخيارهم ، ومن السَّابقين إلىٰ الإسلام ، أسلم ورسول ٱلله ﷺ في دار الأرقم . . . وكان يختلف إلىٰ رسول ٱلله ﷺ سرّاً . . . »[2] .

---

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ١١٩) .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ٩٦) ، و« أسد الغابة » (٤ / ٤٠٥) .

* ونعته ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله : « . . . ثمَّ هاجر إلىٰ المدينة بعد العقبة الأولىٰ ؛ ليعلِّم النَّاس القرآن ، ويصلِّي بهم »[1] .

* فلمَّا تمَّتْ بيعةُ الأنصار الأولىٰ ، وفشا الإسلام في المدينة المنوَّرة ، أرسلت الأنصار رجلاً منهم إلىٰ الصَّادق المصدوق ﷺ ، وكتبتْ إليه كتاباً : « ابعث إلينا رجلاً يفقِّهنا في الدِّين ، ويقرئنا القرآن » ؛ فبعث إليهم رسولُ ٱلله ﷺ مصعبَ بنَ عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ .

* ونقل ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن ابن إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله : « بعث رسول ٱلله ﷺ مصعبَ بنَ عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ مع النَّفر الاثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولىٰ ، يفقِّهُ أهلها ، ويقرئهم القرآن ، فكان منزله علىٰ أسعد بنِ زُرارة ، وكان إنَّما يُسمَّىٰ بالمدينة : المقرئ ، يقال : إنَّه أوَّلُ مَنْ جمع الجمعة بالمدينة ، وأسلم علىٰ يده أسيد بن الحضير ، وسعد بن معاذ ، وكفىٰ بذلك فخراً وأثراً في الإسلام »[2] .

* قال البراءُ بنُ عازب[3] ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ : « أوَّلُ مَنْ قدم علينا من المهاجرين : مصعب بن عمير أخو بني عبد الدَّار ، ثمَّ أتانا بعده عمرو بن أمّ مكتوم ، ثمَّ أتانا بعده عمَّار بن ياسر ، وسعد بن أبي وقَّاص ، وعبد ٱلله بن مسعود ، وبلال ، ثمَّ أتانا عمر بن الخطَّاب »[4] رضي ٱلله عنهم أجمعين وحشرنا في معيتهم ، وعفا عنَّا بفضله .

---

(١) « أسد الغابة » (٤ / ٤٠٥) .

(٢) « أسد الغابة » (٤ / ٤٠٥ ـ ٤٠٦) .

(٣) اقرأ سيرة سيِّدنا البراء بن عازب في الباب الثَّالث من موسوعتنا « علماء الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ » (ص : ٧٤١ ـ ٧٦٦) ففي سيرته زاد وفير لمن أراد أنْ يتزوَّد من علوم الصَّحابة ومحبَّتهم للمعرفة .

(٤) « أسد الغابة » (٤ / ٤٠٦) ، وانظر : « صفة الصَّفوة » (١ / ٣٩١) .

* وفي المدينة المنوَّرة نزل سيِّدنا مصعب على أسعد بن زرارة ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وشمَّر مصعب الخير تشمير المجدِّين ليقوم بأعباء الدَّعوة إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فقد كان زَادُ مصعب وفيراً من القرآن الكريم ؛ إذ حباه ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ صوتاً ندياً وفهماً وعلماً وحكماً ، بالإضافة إلىٰ شخصيَّته المحبَّبة الأليفة القريبة من القلوب والنُّفوس ، كما كان زَادُه مباركاً ممَّا وعاه من الحبيب المصطفىٰ ﷺ من حديث ، ومن تشبُّههِ به في الدَّعوة إلىٰ ٱلله .

* أخذ الفتىٰ الدَّاعيةُ المزوَّد بأنداء الإيمان ، والمضمَّخ بطيوب العلْم ، والمنعَّم بعبير الفقْه يدعو إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ علىٰ بصيرة ، يفقّهُ المؤمنين المحبِّين في دين ٱلله الواحد القهَّار ، مكوّر الليل علىٰ النَّهار ، ويعلِّمهم معالم الإسلام دين العليم الغفَّار ، ويقرئهم القرآن العظيم ، وكان يسمَّىٰ : المقرئ ، وأكرمْ بها من تسمية ! ويدعو من لم يكنْ قد آمن إلىٰ الإيمان بإلـٰهٍ واحدٍ لا شريك له ، ولا يشرك في حكمه أحداً .

* أحْسَنَ مصعبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ غاية الإحسان في أسلوب دعوته إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وكان يلجأُ إلىٰ الحكمة والهدوء في هـٰذا الأمر السَّهل الممتنع الذي لا يستطيعُ سلوكه إلا مَنْ آتاهم اللهُ الحكمةَ فاللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ يقول : ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] .

* كان ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ يأتي الأنصار في منازلهم ، وفي قبائلهم ، فيدعوهم برفقٍ رقيقٍ إلىٰ الإسلام ، يدعوهم بالحكمة الهادفة ، والموعظة الحسنة ، فيتلو عليهم القرآن الكريم ـ وفي القرآن كلّ شيء ـ فيسلم الرّجل والرّجلان ، ومصعبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ لا ينتابهُ السَّأم ، بل هو صابرٌ مصابر ، متابعٌ مثابر ، حتَّىٰ فشا الإسلامُ في طيبةَ الطَّيِّبة ، وظهر في أرجائها وضواحيها من العوالي وغيرها ، ولـٰكنَّ صاحبَه ومضيفَه سيِّدنا أسعدَ بنَ زُرارة أبا أمامة النَّجَّاريّ الأنصاريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ كان حصيفاً طموحاً ، فقد رأىٰ أنَّ دعوة الإسلام في بلده تمشي حبواً ، فأراد أن يفشوَ الإسلامُ بسرعةٍ ، وتقفزَ

دعوتُه إلىٰ مَنْ هم علية القوم وأكابرهم وأعيانهم ، فأشار علىٰ صاحبه مصعب الخير أنْ يذهبَ إلىٰ دار بني عبد الأشهل لعلَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ يفتحُ علىٰ قلوبهم ويدخلوا فيما دخلَ فيه هو وأهله ، وينعموا بما أنعم اللهُ عليهم من نعمةِ الإسلام .

* كان أسعدُ ـ رضي ٱلله عنه ـ ذا نظرة بعيدة ، وفكْرٍ ثاقب وقّاد ، فهو يعلمُ علمَ اليقين أنَّ مصعب الخير يمتلكُ من نواصي الكلام ، ما يجتذبُ إليه قلوبَ الكرام ، فمصعب ـ رضوان ٱلله عليه ـ داعيةٌ موفَّقٌ ، ميمونُ النَّقيبة ، ذو أدب جم في اقتناص القلوب ، واجتذاب النُّفوس ، واقتناع العقول ، وحري ببني عبد الأشهل أنْ يستجيبوا له ، ولأسلوبه الحكيم الذي يحبِّب من خلاله الإسلام إلىٰ قلوبهم وعقولهم دون مواربة ، أو تلاعب بالألفاظ والكلمات .

* ودلف مصعبٌ وأسعدٌ ـ رضي ٱلله عنهما ـ إلىٰ بستانٍ من بساتينِ بني ظَفَر ، فاجتمعَ إليهما رجالٌ ممَّن أسلموا وصدقوا ما عاهدوا ٱلله عليه ، وكان يومها سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير سيِّدا قومهما بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشركٌ علىٰ دين قومه ، فسمعا بمصعب ودعوته ، فأرسل سعدُ بنُ معاذ أسيداً لينهاه وأسعدَ عن دعوتهما . فجاء أسيدٌ وسمع القرآن ، وفتحَ علىٰ قلبه الرَّحمـٰنُ ، فشهد شهادةَ الإيمان ، ثمَّ رجع واستطاع أن يبعثَ سعدَ بنَ معاذ إلىٰ مصعب الخير ، فلم يلبثْ أنْ جاء فسمع كلام العليم الخبير ، فانسكبت الهدايةُ في قلبه ، وأعلن إسلامه ، ثمَّ رجع إلىٰ قومه ، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا لله الواحد القهَّار . وقد فصَّلتُ هـٰذا الأمر في الباب الثَّاني من سيرة سيِّدنا أُسيدٍ في هـٰذا السِّفْر المبارك فلتراجع .

* كان سيِّدنا مصعبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ الدَّاعية الحصيفَ ، الدَّاعية الخبير بمكنونات الطَّبائع ، بصيراً عارفاً بطبائع النُّفوس في المدينة ، فَنَجحَ بامتيازٍ ، واستجابت له المدينةُ بأوسها وخزرجها ، رجالها ونسائها ، شيبها وشبابها .

* وما أجمل أنْ نسلِّط الضَّوء الآن علىٰ هـٰذه التَّغريدة التي تروي لنا الدَّعوة المصعبيَّة في المدينة النَّبويَّة :

الـــوفـــدُ عـــادَ إلـــىٰ المـــدينـــةِ بعـــد أنْ تـــمَّ اللقـــاء
لقـــد التقـــوا بـــالمصطفـــىٰ هـــو خيـــرُ كُـــلِّ الأنبيـــاء
قـــد صـــدَّقُـــوا لمقـــالـــهِ بـــل قـــد أجـــابـــوا للنِّـــداء
هـــم أسلمُـــوا طـــوعـــاً وأيضـــاً بـــايعـــوهُ علـــىٰ الـــوفـــاء
قـــد سمِّيـــتْ بـــالبيعـــةِ الأولـــىٰ فكـــانـــت فـــي الخَفَـــاء
عـــادوا وكـــلُّ الخيـــر معهـــم قـــد أصـــابـــوا الاهتـــداء
عـــادوا ومعهـــم مُصعَـــبٌ خيـــر الـــدُّعـــاة الأتقيـــاء
قـــد أرســـلَ الهـــادي بـــه يـــدعـــو إلـــىٰ ديـــن السَّمـــاء
يـــدعـــو رجـــالاً فـــي المـــدينـــة بـــالمـــودَّةِ والإخـــاء
فـــي بيـــتِ أسعـــدَ صـــار ضيفـــاً مـــا يشـــاءُ مـــن البقـــاء
قـــد صـــار مصعـــبُ داعيـــاً فـــي يثـــرب لاقـــىٰ العَنَـــاء
فـــي كـــلِّ نـــادٍ صـــار يـــأتـــي لا يكـــفُّ عـــن الـــدُّعـــاء
هـــو يقـــرأُ القـــرآنَ فـــي صـــوتٍ رخيـــمٍ فـــي صفـــاء
كـــي يفقهـــوا الإســـلام كـــانـــوا بـــالجهـــالـــة والجفـــاء
منهـــم كثيـــر أسلمـــوا كـــانـــوا بحـــقّ أذكيـــاء [1]

نجاحُ المهمَّة المصعبيَّةِ :

* سيرةُ سيِّدنا مصعب الخير سيرةٌ ماتعةٌ بالخير ؛ تحملُ بين جوانحها الخير لمن يبتغي الخير ، وحياتُهُ ـ رضي ٱلله عنه ـ حياةٌ تحفلُ بألوانٍ من العجب فهو في جاهليّته فريدٌ في حياته : « ثراءٌ عريض ، وترفٌ مريض ، ونِعَمٌ من حوله تغمرهُ ، وهو منغمسٌ في لجّتها لا يفيق ؛ وإذا هو في إسلامه آيةٌ من آياتِ اللهِ في رجالات الإسلام وشبابه ، أسوةُ الدّعاة إلىٰ ٱلله تعالىٰ ، وأسوةُ البطولة في ميادين الجهاد في سبيل ٱلله ، وأسوةُ الرِّضا عن ٱلله تعالىٰ في أقداره

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٣٦٨) .

وحكمته ، أحبَّ الإسلامَ حباً غمر مشاعره ، وأحبَّ ٱلله ورسوله حبّاً ملأ عليه قلبه »[1] .

* سعىٰ سيِّدنا مصعب الخير سعي المجدِّين في مهمَّته العظيمة ، ونجح نجاحاً باهراً ، فقد رأىٰ أنَّ الإسلام قد فشا في دور الأنصار ، وغمر أحياءهم بأنواره ، وأصبح ذكْرُ رسولِ ٱلله ﷺ في كلِّ بيت ، وكلّهم يتشوّقُ إلىٰ هجرته ؛ ليكون فيما بينهم ، يعلّمهم ويزكّيهم .

* رأىٰ سيِّدنا مصعب ـ رضي ٱلله عنه ـ أن يجتمعَ بمسلمي المدينة في أحد أيّام الأسبوع ؛ لأنَّه رأىٰ اليهود يسبِتُون في سبتهم بتجمّعات يتحدَّثون فيها ، فكتب إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ يستأذنه أنْ يجتمعَ بهم ، فأذن له الصَّادقُ المصدوق ﷺ ، وكتب إليه : « انظرْ من اليوم الذي يَجْهَرُ فيه اليهود لسبتهم ، فإذا زالت الشَّمس ، فازدلف إلىٰ ٱلله فيه بركعتين ، واخطب فيهم »[2] .

* فجمع بهم مصعب بن عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ في دار سعد بن خيثمة ، وهم اثنا عشر رجلاً ، وما ذبحَ لهم يومئذ إلا شاة ، فهو أوَّلُ من جمَّع في الإسلام جمعة[3] .

* ودارت الأيّامُ تعلنُ إسلام الأنصار ، وتبارِكُ تجمّعهم في جمعة بدأها مصعب ، فهو أوَّلُ منْ جمّع في الإسلام[4] ، ولمَّا أظلَّ النَّاسَ موسمُ الحجِّ ، استعدَّ مصعب ومعه سبعون من رجال الإسلام ، وخرجوا ليوافوا الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ ، عاد مصعب إلىٰ مكَّة بعد أنْ أدّىٰ مهمته بنجاحٍ وتوفيقٍ ، فقد

---

(١) « حياة رجالات الإسلام » لمحمَّد عرجون (ص : ٩٦) » .
(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١١٨) .
(٣) المصدر السَّابق عينه ، وانظر : « صفة الصَّفوة » (١ / ٣٩٠) .
(٤) « محاسن الوسائل في معرفة الأوائل » (ص : ٢٠٨) ، و« تفسير القرطبيّ » (١٨ / ٩٨) .

كان سفيراً ناجحاً ، وفطناً راجح العقل ، عاد ومعه ثلّةٌ مؤمنةٌ ملأت قلوبهم محبّة ٱلله ورسوله ، والتقوا رسولَ ٱلله ﷺ ، وسمعوا بيانه المشرق ، وتلا عليهم القرآن الكريم ، فأسلموا وبايعوا ، وقد حفّتهم الملائكةُ مباركةً إسلامهم وبيعتهم .

* ومن خلال هٰذه التّغريدة الجميلة ، نلتقي وفد الأنصار وهم في لقائهم الميمون مع رسول ٱلله ﷺ :

قـــد عـــاد مصعـــبُ بعـــد أن أدّىٰ الأمـــانـــةَ واستبـــان
قـــد كـــان مـــن خيـــر الـــرِّجـــال سفـــارةً عبـــر الـــزَّمـــان
بـــل كـــان ميمـــونَ النَّقيبـــةِ فيـــه عقـــلٌ مـــع لســـان
كـــلُّ المـــدينـــةِ أصبحـــتْ تشـــدو بلحـــنِ الامتنـــان
قـــد أسلمـــوا للهِ طـــوعـــاً دون حـــربٍ أو طِعـــان
قـــد أشـــرق الإســـلامُ فيهـــم لـــم يخـــافـــوا الافتتـــان
والشَّـــوقُ فـــاضَ بهـــم لـــرؤيـــةِ أحمـــد رُؤيـــا عَيـــان
شـــدّوا الـــرِّحـــال لأرض مكَّـــةَ آنَ للحـــجِّ الأوان
لقـــد التقـــوا بـــالمصطفـــىٰ فيهـــا وقـــد نـــالـــوا الأمـــان
سمعـــوه يتلـــو مـــن كتـــاب ٱلله فـــي أسمـــىٰ بيـــان
وسكينـــةٌ مـــن ربّنـــا قـــد ظلّلـــت ذاك المكـــان
إذ فيـــه خيـــرُ الخلـــق مـــع خيـــرِ الـــرِّجـــال ذوي الجَنـــان
قـــد أسلمـــوا بعـــد السَّمـــاع بـــلا تـــردّد أو تـــوان

هجرةٌ وجهاد :

* كانت هجرةُ المسلمين إلىٰ المدينة المنوّرة بإذن نبويّ ميمون ، فكان سيّدنا مصعب الخير ـ رضي ٱلله عنه ـ طليعةَ المهاجرين وأوّلهم يرافقه عمرو بن أمّ مكتوم ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، وكانت للمهاجرين منازلُ بالمدينة المنوَّرة عند إخوانهم من الأنصار ، فقد نزل سيّدنا مصعب الخيرات ؛ ومصعب الدُّعاة

الثُّقاة علىٰ سعدِ بنِ معاذ بن النُّعمان الأشهليّ في دار بني عبد الأشهل .

* وحينما بدأ الاستقرارُ يلفُّ بالمهاجرين بدأت تباشيرُ المؤاخاة تلوحُ بين المهاجرين والأنصار ، فقد عقد الحبيبُ الأعظم ﷺ بين المهاجرين والأنصار أخوَّةً يتعاونون بها ، ويترافقون ، ويتناصرون ، ويتواسون ، وكان نصيبُ مصعب من المؤاخاة مع أبي أيوب الأنصاريّ (١) الصَّحابيّ النَّبيل ، والمضيف الكريم ، والمجاهد النَّشيط الذي كان في شُغُل الجهاد في حياته كلّها حتَّىٰ لاقىٰ وجْه ربّه علىٰ أبواب القسطنطينية في رحلةِ جهادٍ ماتعةٍ بالمواقفِ العطرة الأنيقة .

* كان لهٰذه الأخوة الإيمانيَّة الفريدة في تاريخ البشريَّة آثارها الموفَّقة المجدية والجدِّية في المحبَّة الصَّادقة الخالصة والتَّعاون والتَّناصر ، وقاموا بواجباتها وحقوقها خير قيام وأكمله ، وصدق الأنصارُ في أخوتهم ، وضربوا مُثُلاً عُليا في هٰذا المضمار ؛ سجَّلها لهم تاريخ العظائم بأحرف ممزوجة بالأنوار ؛ والإعجاب والتَّقدير والإكبار ، ولم ينسَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ إيثارهم ، فكان ثناؤه عليهم يملأ رحْبَ المصادر ، ناهيك بالثَّناء الرَّبَّانيّ عليهم في محكم التَّنزيل ؛ في مواطنَ متعدِّدةٍ وسورٍ متفرِّقةٍ من كلام العزيز الجليل .

* وبعد أن استقرَّ المقامُ برسولِ ٱللهِ ﷺ وأصحابه ، واستوىٰ المجتمعُ الإسلامي علىٰ سُوقه ، واشتدَّ عوده ، شَرِقَ المشركون وتميَّزوا من الغيظ لهٰذه القوَّةِ الصَّادقة ، وبدأت المناوشات فيما بينهم بالسِّنان واللسان ، ثمَّ نشبت المعاركُ ، وكانت وقعةُ بدر الكبرىٰ مفتاحها وصباحها ، وهي من أعظم معارك الإسلام انتصاراً ، وأبعدها أثراً .

* فقد خرج إليها حبيبُنا رسولُ ٱللهِ ﷺ في ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً

---

(١) اقرأ سيرة أبي أيوب الأنصاريّ في الباب الثاني من موسوعتنا : « فرسان من عصر النُّبوَّة » (ص : ٦٣٩ ـ ٦٥٧) ، ففي سيرته فوائد حسان ، ووقفات كريمة ، ودروس تربويَّة قويمة .

لإعلاء كلمة ٱلله ، خرجوا في سلاح بسيط ، وإيمان قوي راسخ ، يحملُ اللواء الأبيض والأعظم مقرئُ الأنصار ومعلِّمهم سيِّدنا مصعب الخير ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ومن المؤكَّد أنَّ الذي يحملُ اللواء يكون من أشدِّ الأبطال ؛ وأشجعهم وأفرسهم في ميادين القتال ، لذلك حمل سيِّدنا مصعب اللواء ، وشدّ يده عليه بعزم وإيمان ، ولمَّا التقىٰ الجمعان ؛ هزَّ مصعبٌ لواءَ الإسلام الأبيض هزَّةَ الشجعان ، وتنادىٰ تحت ظلاله رجالٌ صدقوا ما عاهدوا ٱلله عليه من الإيمان ، وما هي إلا جولة وبعض جولة حتَّىٰ انحسرت المعركةُ عن هزيمةٍ ساحقةٍ لأهل الطُّغيان ؛ إذ جندل الرِّجال المؤمنون رؤوس الكُفْر وصناديد الشِّرك ، وأسروا سبعين من أعيانهم وأثريائهم ، ولاذ مَنْ لاذ منهم بالفرار ؛ يدعو بالويل والثُّبور والبوار .

* روت المصادر أنَّ مصعباً ـ رضي ٱلله عنه ـ قد دافع يوم بدر عن النَّبيِّ ﷺ دفاعاً شديداً ، فقد ذكروا أنَّه قتل أخاه عبيد بن عمير شرّ قتلة ، قتله أمام رسولِ ٱلله ﷺ ، وكان قد لقي رسولَ ٱلله ﷺ فريداً ، فهجم عليه أخوه مصعبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ حتَّىٰ جعله قطعاً قطعاً [1] .

* وكان لسيِّدنا مصعب الخير ـ رضوان ٱلله عليه ـ أكثر من قصَّةٍ مشرقةٍ يوم بدر ، قصصٌ تشيرُ إلىٰ مصعب بحروف الإخلاص والوفاء لدينِ اللهِ ، ومن أبرزِ ما وعتْهُ المصادر قصَّته مع أخيه الذي أُسِرَ يوم بدر .

* فقد جاء أنَّ الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ حين أقبل بالأسارىٰ ، فرَّقهم بين أصحابه ، وقال : « استوصوا بهم خيراً » ، وكان أبو عزيز بنُ عمير بن هاشم ـ أخو مصعب بن عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ لأبيه وأمّه ـ في الأسارىٰ ، أَسَرهُ رجلٌ من الأنصار اسمه : أبو اليَسَر كعبُ بنُ عمرو السُّلَميّ .

* لنترك الحديث للأسير أبي عزيز ليقصَّ قصَّتَه العجيبةَ مع أخيه مصعب

---

(١) انظر : « تفسير القُرطبيّ » (١٧ / ٣٠٧) ، و« الطَّبقات الكبرىٰ » للمناويّ (١ / ١٨٨) ، و« السِّيرة النَّبويَّة » لأبي شهبة (٢ / ١٤٨) .

ومع أسرِهِ ، وفدائه ، فيقول : « مرَّ بي أخي مصعبُ بنُ عمير ، ورجلٌ من الأنصار يأسرني ، فقال : شُدَّ يديك به ، فإنَّ أمَّهُ ذاتُ متاع ، لعلَّها تفديه منك .

يقول أبو عزيز : فكنتُ في رهط من الأنصار حين أقبلوا بي من بدر ، فكانوا إذا قدّموا غَدَاءَهم وعشاءهم ، خصّوني بالخبز ، وأكلوا التَّمْرَ لوصيَّة رسول ٱلله ﷺ إيَّاهم بنا ، ما تقع في يد رجلٍ منهم كسرة خبز إلا نفحني بها ، فأستحيي ، فأردُّها ؛ فيردّها عليَّ ما يَمَسُّها .

قال : ولمَّا قال مصعب لأبي اليَسَر ما قال ، قال أبو عزيز : يا أخي ! هـٰذه وصاتك بي ؟

فقال مصعب : إنَّه أخي دونك .

وسألت أمُّهُ عن أغلىٰ ما فُدِيَ به قرشيٌّ ، فقيل لها : أربعةُ آلاف درهم ، فبعثَتْ بأربعة آلاف درهم ففدته بها »[1] .

---

(١) « البدايةُ والنِّهايةُ » (٣ / ٣٠٦ ـ ٣٠٧) بتصرُّف يسير جداً . وانظر : « تفسير القرطبيّ » (٨ / ٤٨) ، وغيرهما .

وقوله « شدَّ يديك به » : أي : قَوِّ وأحْكِمْ . و« ذات متاع » : موسرةٌ غنيّةٌ . و« تفديه منك » : تعطي فداءه وتنقذُهُ من الأسر . و« نفحني بها » : رماني بها . و« وُصَاتك » : الوصاةُ ، والوصية بمعنىٰ : أي ما تأمره به ، وتعهده إليه . و« إنَّه أخي دونك » : المعنىٰ إنَّ قرابتك يا أبا عزيز من جانب الأب والأم ، أمَّا قرابة أبي اليَسَر من جانب الخالق البارئ .

* وللشَّيخ محمَّد عرجون رَحِمَهُ ٱللهُ تعليقٌ نفيسٌ مفيدٌ علىٰ هـٰذه القصَّةِ الجميلةِ ، فيقول : « وفي هـٰذه القصَّة إشراقةٌ من مطالع نورِ الإيمان ، فمصعبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، كان حاملاً في هـٰذه المعركة التي أُسِرَ فيها أخوه وشقيقُه أوَّلَ لواءٍ في أوَّلِ معركةٍ بين الإسلام والكفرِ ، وهي أعظمُ معركة في تاريخ الإسلام ، قد حشَدَ لها المشركون قضَّهم وقضيضهم ، فلم يتركوا فارساً من أبطالهم إلا جاؤوا به إلىٰ حتفه ، =

* ويحلو الحديث إذا حُلِّي بزهر الآداب ، ونُفِحَ بروض الرّياحين ، فمع هٰذه الحليةِ الأدبيةِ المزهرة التي تجمل قصَّة مصعب وأخيه وأمّهما :

قـد وُزِّعَ الأسـرىٰ علـىٰ بعـض البيـوت المسلميـن
المصطفـىٰ أوصـىٰ بهـم خيـراً فصـاروا آمنيـن
وأبـو عـزيـز كـان أيضـاً فـي الأسـارىٰ المشـركيـن
يـروي لقصَّـةِ أسْـرِه فـي دهشـةِ المتَعجِّبيـن
قـد مـرَّ مصعـبُ يـوم بـدرٍ بـي وكنـتُ المستكيـن
ولقـد رآنـي يـومَهـا مُسْتَسلِمـاً لـلآسـريـن
مـا أنْ رأيـتُ أخـي الشَّقيـقَ فـرحـتُ فَـرْحَ الخـائفيـن
ظنّـاً بـأنِّـي سـوف أحظـىٰ منـه بـالعطـف الأميـن
لٰكنَّـه قـد خـابَ ظنِّـي كـان خصمـاً لا يليـن
قـد قـال يُـوصـي آسـري اشـددْ وَثَـاق الكـافـريـن
تـاللهِ إنَّ لأمِّـه مـالاً وضمْـنَ المـوسـريـن

= والنَّبيُّ ﷺ كان علىٰ علْمٍ بضراوة المعركة وعدم التَّكافؤ فيها .

وكان ﷺ قد تعرَّفَ علىٰ قوة العدو عدداً وعدَّة ، فكان علىٰ بصيرة من أمرها ، ومع ذلك كلّه دفع اللواء الأعظم إلىٰ البطل المُعلِّم القارئ المقرىءِ مصعب الخير ، واللواء لا يحمله في ميادين الوغىٰ ، ولا سيما في المعارك الكبرىٰ إلا بطلٌ ، تعرف شجاعته وبصره بالحرب ، وقوّة إيمانه ، وصرامة عزيمته ، وكان مصعبُ بنُ عمير كلّ أولئك في إهابِ رجلٍ عليه من إيمانه بدينه مشاعره . ويتسامىٰ إيمانُ مصعب ـ رضي الله عنه ـ عن تأثره للعواطف والقرابة ، فهو يرىٰ أخاه شقيقَه لأبيه وأمّه أسيراً في يد الأنصاريّ ، فيغريه به ، ويحرّضه علىٰ شدّة الاستمساك به ، فيقول له : شدَّ يديك عليه ، فإنَّ أمّه ثريّة ، ذات متاع كثير ، ستفديه منك بأعلىٰ فداء ، وقد صدق الخبر ، وفُدي أبو عزيز أخو مصعب بأربعة آلاف درهم ، وكان هٰذا القدرُ فيما تعورف ، أعلىٰ فداء فُدي به أسير » . « حياة رجالات الإسلام » (ص : ٩٩ ـ ١٠٠) .

ولســوف تــدفــعُ فــديــة كبــرىٰ تفــوقُ الآخــريــن
فهتفــتُ هــل هـٰـذي الــوصيّــة بــي وأنــتَ أخــي المعيــن
فــأجــابنــي هـٰـذا أخــي فــي الــدِّيــن دونَــك عــن يقيــن
الأمُّ كــانــت بــالفــداء سخيَّــة فــي البــاذليــن

* ومن قصص مصعب الخير مع الأسرىٰ عقب بدرٍ قصّته مع النَّضر بن الحارث بن علقمة العبدريّ [1] ، أحد شياطين الفجور والأذىٰ والفساد ، فقد وقف سيِّدنا مصعب ـ رضي ٱلله عنه ـ موقفَ الوفاء والصَّفاء من دينه ، فلم يركنْ إلىٰ العواطف الخلابة ، ولا إلىٰ الصَّداقات والقرابة ، بل نظر بمنظار الإسلام دين الواحد القهّار ، وبمنظار القرآن الكريم الذي كان يقرئه للأنصار .

* كان سيِّدنا المقداد بن الأسود [2] ـ رضي ٱلله عنه ـ قد أسَرَ هـٰذا الخبيث الضَّال المُضلل المضلال ، وجيء بالنَّضر أسيراً يرسفُ بالأغلال ، فقال لرجلٍ إلىٰ جنبه لمَّا رأىٰ النَّبيَّ ﷺ ينظرُ إليه وإلىٰ الأسارىٰ : « محمَّدٌ واللهِ قاتلي ، لقد نظرَ إليَّ بعينَيْن فيهما الموت » . وكان الرُّعبُ قد ملأَ قَلْبَ النَّضر كما كان يملأ قلوب قومه ضلالاً وكفراً وعناداً ضد المسلمين ، وعداوةً وسخريةً برسولِ ٱلله ﷺ [3] .

---

(١) اقرأ سيرةَ هـٰذا الفاجر والعدوّ اللدود في موسوعتنا : « المبشَّرون بالنَّار » (ص : ٣٣٢ ـ ٣٤٩) ، ولاحظ كم صَبَر عليهم الصَّادق المصدوق ﷺ حتَّىٰ وقعوا في شَرَكِ أعمالهم وسوء نيَّاتهم .

(٢) اقرأ سيرة سيِّدنا المقداد بن عمرو المشهور بـ « المقداد بن الأسود » في الباب الأوَّل من موسوعتنا : « فرسان من عصر النُّبوَّة » (ص : ٣٠٠ ـ ٣١٥) ففي سيرته مواقف لا تنسىٰ .

(٣) كان النَّضرُ قاتله ٱلله خطيب الكافرين المعاندين ، وكان يقولُ لرسولِ ٱلله ﷺ : « إن كان قرآنك من عند ٱلله ، فأَحْيِ لنا آباءنا ، وأوسعْ لنا بلدنا بأنْ سَيِّر هـٰذه الجبال عنا ، فقد ضُيّقَتْ مكة علينا ، أو اجعلْ لنا الصَّفا ذهباً نستغني عن الرّحلة ، فإن فعلتَ ذلك آمنَّا بك » . « أنساب الأشراف » (١ / ١٤٢) .

* أدار اللعينُ عينَيْه الغادرتَيْن فيمن حوله من المسلمين ، فرأىٰ سيِّدنا مصعباً ـ رضي ٱلله عنه ـ علىٰ مقربةٍ منه ، فتوسَّل إليه في خضوع وذلٍّ طالباً من مصعب أنْ يبقي عليه رسولُ ٱلله ﷺ ولا يقتله ، فقال : « يا مصعب ! أنتَ أقربُ مَنْ هـٰهنا إليَّ ، وأمسّهم رحماً بي ، فكلِّم صاحِبَك ـ أي : النَّبيّ ﷺ ـ في أنْ يجعلني كرجل من أصحابي » .

فقال له سيِّدنا مصعب مذكِّراً إيَّاه بسخريته وعناده : « يا نضرُ ، إنَّك كنتَ تقولُ كذا ، وتفعلُ كذا ، وتصنعُ كذا وكذا و . . . . » .

فقال النَّضْرُ وقد كُسِرَت شوكتهُ ثانيةً : « يا مصعبُ ! ليس هـٰذا الحينُ عتاب ، فَسَلْهُ أن يجعلني كرجلٍ من أصحابي ، فلو أنَّ قريشاً أَسَرتْكَ لدافعتُ عنك ، وسألتهم فيك » .

فقال سيِّدنا مصعب ـ رضي ٱلله عنه ـ بلسان الحقِّ واليقين : « أنتَ صادقٌ ، ولستُ مثلك ، إنَّ الإسلام ، قد قطعَ العهود بيننا وبينكم »[1] .

* وحالت بين مصعب والنَّضر برقةُ سيفٍ من سيِّدنا علي بن أبي طالب ، فأطارت رأسَ النَّضر ، وألحقته بمن سبقَه من جهابذة الكفر ، وجعلته كأمس الدَّابر ، وسيق إلىٰ النَّار كالذَّليل الصَّاغر .

﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ ﴾ :

* ودَّعَ سيِّدنا مصعبٌ دنيا النَّاس هاتفاً بأعلىٰ صوته مترنِّماً قارئاً تالياً ، وهو في أوار المعركة : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، وودَّعه رسول ٱلله ﷺ لمَّا وقفَ عليه وهو شهيدٌ مصروعٌ علىٰ الأرض وقرأ : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾[الأحزاب: ٢٣] .

* كان هـٰذا الوداعُ المشهودُ الميمون يوم أحد ، يوم أنْ تكالبَ

---

(١) « أنساب الأشراف » (١ / ١٤٣) بشيءٍ من التَّصرُّف .

المشركون للثَّأر من هزيمتهم يوم بدر ، فقد كانت قلوبُهم تغلي كالمراجل حقداً علىٰ المسلمين الذين أذاقوهم مرارةَ الهزيمة بكأس الذُّلِّ والصَّغار ؛ فخرج المؤمنون بقيادةِ رسول ٱلله ﷺ إلىٰ أُحد ، واختار ﷺ حاملَ اللواء وبطله في بدر ، ليحملَ اللواء في هـٰذه الغزوة التي أعدَّ لها المجرمون من المشركين والمنافقين واليهود ما يملكون من خبثٍ وحقدٍ وشراسةٍ وفجور ، ليثأروا لأكابر مجرميهم وقتلاهم في بدر من العام المنصرم .

* سار سيِّدنا مصعبٌ ـ رضوان ٱلله عليه ـ يحملُ اللواء النَّبويَّ قُدماً ؛ بساعدٍ مُلئَ مشاشُهُ إيماناً وحزماً وعزماً ، وقلبٍ مُلئَ بآيات ٱلله ، ولسانٍ ذاكرٍ لا يفترُ عن ذكْرِ اللهِ ، فلم يسْلم اللواء ؛ ولم يسقطْهُ من يده ، وظلَّ يدافعُ عنه حتَّىٰ سقطَ شهيداً ولسانه رطبٌ بذكرِ اللهِ ؛ ومحبَّةِ رسول ٱلله ﷺ .

* رسم ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « الطَّبقات » كيفية حَمْل مصعب لواء رسول ٱلله ﷺ يوم أحد ، ومن ثمَّ كيف اتَّخذه ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ شهيداً ، فقال : « كان لواءُ رسولِ ٱلله ﷺ الأعظم ؛ لواء المهاجرين يوم بدر مع مصعب بن عمير »(١) .

* وقال أيضاً : « حملَ مصعبُ بنُ عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ اللواءَ يومَ أحد ، فلمَّا جالَ المسلمون ثبتَ به مصعب ، فأقبل ابنُ قمئة ، وهو فارسٌ ، فضربَ يده اليمنىٰ ، فقطعَها ، ومصعبٌ يقول : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، وأخذ اللواء بيده اليسرىٰ ، وحنا عليه ، فضربَ يده اليسرىٰ فقطعَها ، فحنا علىٰ اللواءِ وضمَّه بعضُدَيْه إلىٰ صدره وهو يقولُ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ ، ثمَّ حملَ عليه الثَّالثة بالرّمح ، فأنفذهُ واندقَّ الرّمح ، ووقع مصعبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ وسقطَ اللواءَ ، وابتدره رجلان من بني عبد الدَّار : سُويبطَ بنُ سعد بن حرملة ، وأبو الرّوم بنُ

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٢٠) .

عمير ، فأخذه أبو الرّوم بن عمير ، فلم يزلْ في يده حتَّىٰ دخلَ به المدينة حين انصرفَ المسلمون »[1] .

* وينقلُ لنا شاهد عيان كيف ثبتَ مصعبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ ثبات الرَّواسي وهو يدافعُ عن النَّبيِّ ﷺ ، وهـٰذا الشَّاهد ليس رجلاً ، وإنَّما امرأةٌ جاهدت يوم أحد ، وفعلت الأعاجيب يومئذ ، حتَّىٰ ضربها ابنُ قمئة ضربةً أثَّرت في عاتقها ، وأحدثت فيه جرحاً أجوف له غور ، هـٰذه الشَّاهدة المجاهدة أمّ عمارة نسيبةُ بنتُ كعب الأنصاريَّة[2] ـ رضي ٱلله عنها ـ التي تقول : « أقبل ابنُ قمئة ـ أقمأه ٱلله ـ وقد ولَّىٰ النَّاسُ عن رسول ٱلله ﷺ ، وهو يصيحُ : دلوني علىٰ محمَّد ، فلا نجوتُ إنْ نجا ، فاعترضتُ له أنا ومصعبُ بنُ عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وأناسٌ ممَّن ثبتَ مع رسول ٱلله ﷺ فضربني هـٰذه الضَّربة ، ولقد ضربته علىٰ ذلك ضربات ، ولـٰكنَّ عدوَ ٱلله كانت عليه درعان »[3] .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٢٠ ـ ١٢١) ، ومن الجدير بالذّكر أنَّ استشهاد مصعب بن عمير في غزوة أحد شبيهٌ باستشهاد جعفر بن أبي طالب في معركة مؤتة ، فرضي ٱلله عن مصعب وجعفر ، وحشَرنا معهما في جنَّات ونهر .

(٢) اقرأ سيرة الصَّحابيَّة المجاهدة المجدة أمَّ عمارة نسيبة بنت كعب في كتابنا : « نساء مبشّرات بالجنَّة » (ص : ٦٠ ـ ٨١) ، دار ابن كثير ـ ط : ٥ ـ ٢٠٠٣ م ؛ فسيرتها قدوة صالحة لكلِّ امرأة تؤمن بٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ .

(٣) « طبقات ابن سعد » (٨ / ٤١٣) ، و« الإصابة » (٤ / ٤٥٧) مع الجمع والتَّصرُّف اليسير .

قال ابن إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقاتل مصعبُ بنُ عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ ، دونَ رسولِ ٱلله ﷺ حتَّىٰ قُتِل ، قَتَلَه ابن قمئة الليثيّ ، وهو يظنُّه رسولَ ٱلله ﷺ ، فرجعَ إلىٰ قريش ، فقال : قتلتُ محمَّداً ، فلمَّا قُتِلَ مصعبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، أعطىٰ رسولَ ٱلله ﷺ اللواءَ عليَّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ورجالاً من المسلمين » =.

* وقف الحبيبُ الأعظمُ ﷺ علىٰ المقرئ القارئ رجل بني عبد الدار وفتاهم سيِّدنا مصعب بن عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ وهو مُنْجعفٌ ـ مصروعٌ ـ علىٰ وجههِ يوم أُحدٍ شهيداً ، وكان صاحب لواء رسول ٱلله ﷺ ، فقال الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ : « ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] ، إنَّ رسولَ ٱلله يشهد لكم أنَّكم شهداء عند ٱلله يوم القيامة » . ثمَّ أقبل علىٰ النَّاس فقال : « أيُّها النَّاس ! ائتوهم فزوروهم ، وسلِّموا عليهم ، فوالذي نفسي بيده ! لا يسلِّم عليهم أحدٌ إلىٰ يوم القيامة إلا ردّوا عليه السَّلام » [١] .

* وأورد ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللهُ في « الطَّبقات » عن إبراهيم بن محمَّد بن شرحبيل العبدريّ عن أبيه قال : « كان مصعبُ بنُ عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ رقيقَ البشرة ، حسنَ اللمَّة ، ليس بالقصير ولا بالطَّويل ، قُتِلَ يوم أُحدٍ علىٰ رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة ، وهو ابن أربعين سنة ، أو يزيد شيئاً ، فوقفَ عليه رسولُ ٱلله ﷺ ، وهو في بُردَةٍ مقتول ، فقال : « لقد رأيتُك بمكَّةَ وما بها أحدٌ أرقّ حلّة ، ولا أحسن لمةً منك ، ثمَّ أنتَ شَعِثُ الرَّأس في بردة » ، ثمَّ أمر به يُقبَر ، فنزلَ في قبرهِ أخوهُ أبو الرّوم بن عمير ، وعامر بن ربيعة ، وسُويبط بن سعد بن حرملة » [٢] .

* وفي حديث خبَّابِ بن الأرت ـ رضي ٱلله عنه ـ صِلَةٌ وتوضيحٌ لِما ساقه ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللهُ وغيره عن مناقب سيِّدنا مصعب ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ ،

= « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ١٤٨) نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة .

(١) انظر في هـٰذا : « أسد الغابة » (٤ / ٤٠٧ ـ ٤٠٨) بشيء من التَّصرُّف اليسير . وانظر : « صحيح السّيرة النَّبويَّة » لإبراهيم العليّ (ص : ٢٩٧ ـ ٢٩٨) ، و« دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (٣ / ٢٨٤) ، و« حلية الأولياء » (١ / ١٠٨) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٢٢) .

فقد أخرج التِّرمذيُّ بسنده عن الأعمش ، عن أبي وائل شقيق بن سلمة ، عن خبَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « هاجرنا مع النَّبيِّ ﷺ نبتغي وجْهَ ٱلله ، فوقعَ أجرنا علىٰ ٱلله ، فمنا مَنْ مات لم يأكلْ من أجره شيئاً ، ومنَّا مَنْ أينعَتْ له ثَمرَتُهُ فهو يَهْدِبُهَا ـ يقطعها ويجتنيها ـ ، وإنَّ مصعبَ بنَ عمير مات ولم يتركْ إلا ثوباً ، كانوا إذا غطُّوا به رأسه خرجَتْ رجلاه ، وإذا غطُّوا به رجلَيْه خرجَ رأسه ، فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « غطّوا رأسه ، واجعلُوا علىٰ رجليه الإذخر » [1] .

* وأخرج البخاريُّ وغيره بسندٍ عن سعد بن إبراهيم ، عن أبيه إبراهيم : « أنَّ عبد الرَّحمـٰن بن عوف ـ رضي ٱلله عنه ـ ، أُتي بطعام ـ وكان صائماً ـ فقال : قُتِلَ مصعبُ بنُ عمير ـ وهو خيرٌ منِّي ـ كُفِّن في بردة ، إن غُطِّيَ رأسه بدتْ رجلاه ، وإنْ غُطِّيَ رجلاه بدا رأسُهُ . وأُراهُ قال : وقُتِلَ حمزة ـ وهو خير منِّي ـ ثمَّ بُسط لنا من الدُّنيا ما بُسط ـ أو قال : أُعطينا من الدُّنيا ما أُعطينا ـ وقد خشينا أنْ تكونَ حسناتُنا عجِّلَت لنا ،

---

(١) أخرجه التِّرمذيّ . انظر : « تحفة الأحوذيّ » (١٠ / ٣٥٣ ـ ٣٥٥) ، حديث رقم : (٣٩٤٣) ، وقال : « هـٰذا حديث حسن صحيح » . وأخرجه البخاريُّ في مواضع برقم : (١٢٧٦ ، و ٣٨٩٧ ، و ٣٩١٣ ، و ٣٩١٤ ، و ٦٤٣٢ ، و ٦٤٤٨) ، ومسلم برقم : (٩٤٠) ، وأبو داود برقم : (٣١٥٥) ، والنَّسائي (٤ / ٢٨) . و« الإذخر » : نبت معروف طيب الرِّيح .

أقول : « شهد شاهدٌ من قدماء الصَّحابة بزهد سيِّدنا مصعب وحسن أخلاقه ، وهـٰذا الشَّاهدُ هو عامرُ بنُ ربيعة ـ رضي ٱلله عنه ـ الذي قال : كان مصعبُ بنُ عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ لي خِدْناً ـ صديق السّرّ ـ وصاحباً منذ يوم أسلم ، إلىٰ أنْ قُتِلَ رَحِمَهُ ٱللهُ بأحدٍ ، خرجَ معنا إلىٰ الهجرتَيْن جميعاً بأرضِ الحبشَة ، وكان رفيقي من بين القوم ، فلم أرَ رجلاً قطّ كان أحسنَ خُلقاً ، ولا أقلَّ خلافاً منه » . « شرح حياة الصَّحابة » (٣ / ٢١) .

ثمَّ جعل يبكي حتَّىٰ تركَ الطَّعام »[1] .

* ولمَّا فرغَ رسولُ ٱللهِ ﷺ وصحبُه من دفنِ شهداء أُحدٍ في ميدان استشهادهم ، ركب فرسه ، وأمر أصحابَه أنْ يأخذوا طريقَ العودة إلىٰ المدينة ، وما أن اقتربَ من مدينته الطَّيِّبة حتَّىٰ لقيته حمنةُ بنتُ جحش ـ رضي ٱلله عنها ـ ، فنعىٰ النَّاس لها أخاها فاسترجعتْ ، واستغفرتْ له ، ثمَّ نعوا لها خالها فاسترجعَتْ واستغفرتْ له ، ثمَّ نعوا لها زوجَها مصعبَ بنَ عمير فصاحت وولولت . وهٰذا ما ذكره ابنُ هشام رَحِمَهُ ٱللهُ في « السِّيرة » ، فإلىٰ رياض السِّيرة ، نستظلُّ بأخبارها الظَّليلة ، ونستروح بالأخبار المصعبيَّة النَّبيلة .

* قال ابنُ إسحاق رَحِمَهُ ٱللهُ مُسنداً حديثه إلىٰ أشياخ من بني سَلِمَة : « ثمَّ انصرفَ رسول ٱلله ﷺ راجعاً إلىٰ المدينة ، فلقيتْهُ حَمْنَةُ بنت جحش ، كما ذُكِرَ لي ، فلمَّا لقيت النَّاس ، نُعي إليها أخوها عبد ٱلله بن جحش ، فاسترجعتْ واستغفرتْ له ، ثمَّ نُعي لها خالُها حمزةُ بن عبد المطَّلب ، فاسترجعتْ واستغفرتْ له ، ثمَّ نُعيَ لها زوجها مصعبُ بنُ عمير ، فصاحت وولولت !

---

(١) أخرجه البخاريُّ في الجنائز برقم : (١٢٧٤ ، و ١٢٧٥) ، وفي المغازي برقم : (٤٠٤٥) ، وقوله « بطعام » : كان الطَّعام خبزاً ولحماً . وقوله « وهو خيرٌ مني » : لعلَّه قال ذلك تواضعاً ، ويُحتمل أنْ يكون ما استقرَّ عليه الأمرُ من تفضيل العشرة علىٰ غيرهم بالنَّظر إلىٰ من لم يقتلْ في زمن النَّبيّ ﷺ ، وقد وقع من أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ نظير ذلك ، فذكر ابنُ هشام رَحِمَهُ ٱللهُ : أنَّ رجلاً دخل علىٰ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ وعنده بنت سعد بن الرَّبيع ـ رضي ٱلله عنه ـ وهي صغيرة ، فقال : « من هٰذه ؟ » قال : « هٰذه بنت رجل خير منِّي ، سعد بن الرَّبيع » ، وكان سعد من نقباء العقبة شهد بدراً ، واستشهد يوم أحد . و« بُسط لنا من الدُّنيا » : يسير إلىٰ ما فتح لهم من الفتوح والغنائم وحصل لهم من الأموال ، وكان لعبد الرَّحمٰن من ذلك الحظ الوافر ، وٱلله أعلم .

فقال رسول ٱلله ﷺ : « إنَّ زوج المرأة منها لبمكان » لِمَا رأىٰ من تثبُّتها عند أخيها وخالها ، وصياحها علىٰ زوجها »[1] .

* **وبعد** : فالرِّحلةُ جميلةٌ ثريَّةٌ ومفيدةٌ مع مصعب الخير[2] ،

---

(١) « السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ٩٨) ، وانظر : « سنن ابن ماجه » (١ / ٥٠٧) برقم : (١٥٩٠) .

(٢) وما أجمل الرِّحلة مع الأدب وأزاهيره الجميلة ، وخصوصاً إذا كانت الأدبيَّات تتحدَّث عن سيرة علم من أعلام الصَّحابة الكبار ؛ كمصعب بن عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فتعالوا نتذوّق هـٰذه الأبيات الماتعة التي ترسمُ جوانب عديدة من حياةِ سيِّدنا مصعب الخير ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ :

يـا مصعبَ بنَ عُميرٍ طبْتَ منْ داعٍ	في الأوسِ في خَزْرجٍ نِعْمَ الفتىٰ الرّاعي
هاجرتَ قِدْماً إلىٰ الأحباشِ داعيةً	فكنـتَ خيـرَ سفيـرٍ راشـدٍ واعٍ
بلغْـتَ بـالحلـم فيـه مبلغـاً حَسَنـاً	حتَّـىٰ استملْـتَ قُلـوبـاً بعـد إقنـاعِ
رسـولُ خيـرِ رسـولٍ حيثمـا اتَّجهـتْ	بـه الـرّكـائبُ فهـو الـواعـظُ السَّاعي
هـٰـذا أُسَيْـدٌ أتـىٰ والشَّـرُّ يملـؤه	والغيـظُ يـدفـعُ مـوتـوراً لإسـراعِ
يعـودُ لابـن معـاذٍ لا لِيُخْبِـرَهُ	بقتـلِ مصعـبَ فعْلَ الفاتـك النَّاعي
لـٰكـنْ لِيغلـنَ إسـلامـاً تعلَّمـه	مـن مصعـبِ بـن عُميـر خيـرِ صدّاعِ
مـا جـاءه ذو حِجًـى إلا وبـاعَـدَهُ	عـن شـركـهِ والهدىٰ مصباحُ رجّاعِ
وأعلـن ابـنُ معـاذٍ فـي عشيـرتـهِ	إسـلامـه وتحـدَّىٰ كـلَّ أشيـاعِ
وفـاءَتِ الأوسُ لـلإسـلام راشـدةً	فكـان ذلـك منهـا خيـرَ إجمـاعِ
وذاك فضْـلٌ مـن الـرَّحمـٰن يسَّـرَهُ	علـىٰ يـد ابـن عُميـر صـاحـبِ البـاعِ
وغِيـظ مـن كثـرةِ الأنصـار ذو حَسَـدٍ	مـن اليهـود ومـن أصحـاب أطمـاعِ
لـٰكـنَّ هجـرةَ خيـر الرُّسل خاتمِهم	أورثْ بهـم نـار أحقـادٍ وأوجـاعِ
ضاقوا بمصعبَ مصباحاً فكيف بهم	وذاك مشكـاةُ أنـوارٍ وإشعـاعِ
تبـاركَ اللهُ يعطـي الحـقَّ قـوتَـهُ	فَيَسْقُـطُ البـاطـلُ المغـرورُ للقـاعِ
ويـرفـعُ اللهُ بـالقـرآن مَـنْ خملُـوا	ويخفـضُ اللهُ ذا بغـيٍ وإيقـاعِ =

نرجو ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يجمعَنا وإيَّاه تحتَ راية معلِّم النَّاس الخير ، سيِّدنا وحبيبنا محمَّد ﷺ .

* فرضي ٱلله عن مصعب ، الرَّجل الدَّاعية الشَّهيد المحبب ، ورزقنا حسن الختام ، وأدخلنا الجنَّة في رحمته بسلام .

✍ ✍ ✍

= يزولُ ذكرُ ذوي جاهٍ وسلطنةٍ ... وذكْرُ مصعبَ باقٍ ملءَ أسماعِ

معلِّمُ الخيـر لا تَفْنـىٰ مكـاسبُـه ... إينـاعُهـا خيـرُ إثمـارٍ وإينـاعِ



نُعيمُ بنُ عبد ٱللّه

رضي ٱللّه عنه

* أسلمَ قبل عمرَ ، وكان سَبَبَ إسلامِ عمر رضي ٱللّه عنه .
* كان بارّاً بأيتامِ قومِهِ ، وهاجر عام الحديبية .
* أخبارهُ جميلةٌ ؛ وقُتِلَ يومَ اليرموك شهيداً رضي ٱللّه عنه .





نُعيمُ بنُ عبدِ الله
رضي ٱلله عنه

هديَّةٌ عظيمةٌ للإسلام :

* أهدىٰ هـٰذا الرَّجلُ هديةً نادرةً للإسلام ؛ إذ كان السَّبب في اجتذاب الشَّخصيَّة الثَّانية والوزير الثَّاني إلىٰ شاطئ السَّلام ، ذلكم هو عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ الرَّجل الثَّاني في الإسلام .

* فمن هـٰذا الرَّجل الكريم الذي جذَبَ سيِّدنا عمرَ بنَ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ سِلْكِ المؤمنين ، وثلَّةِ السَّابقين ، وسبيلِ النَّاجين ؟ !

* إنَّه نُعيمُ بنُ عبد ٱلله النَّحَّام القرشيّ العدويّ [1] ، والنَّحَّامُ وصفٌ لِنُعيم ، وقيل له النَّحَّام للحديث المشهور أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « دخلتُ الجنَّة فسمعتُ نحمةً من نُعيم فيها » [2] .

---

(١) « التَّبيين » (ص : ٣٨٦ ـ ٣٨٧) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٧٥ ـ ١٧٧) ، و« طبقات ابن سعد » (٤ / ١٣٨ ـ ١٣٩) ، و« نسب قريش » (ص : ٣٨٠ ـ ٣٨١) ، و« المستفاد من مبهمات المتن والإسناد » (٢ / ١٢٠٨ ـ ١٢١٠) ، و« أسد الغابة » (٤ / ٥٧٠) ترجمة رقم : (٥٢٦٩) ، و« الإصابة » (٣ / ٥٣٧ ـ ٥٣٨) ، و« البداية والنِّهاية » (٧ / ٣٤) .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٣٠) ، و« طبقات ابن سعد » (٤ / ١٣٨) ، =

* **والنَّحْمةُ** : السَّعْلةُ ، وقيل : النَّحنحة الممدودُ آخرها . وعندما تحدَّث ابن دريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « الاشتقاق » عن رجال بني عدي بن كعب قال ما مفاده : « ومنهم : النَّحَّام ، واسمه نُعيمُ بنُ عبد ٱلله بن أَسِيد . . . . وإنَّما سمِّي النَّحَّام ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « دخلتُ الجنَّة ، فرأيتُ فيها أبا بكر وعمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، وسمعتُ فيها نحمةً من نُعيم » . والنَّحْمةُ : شبيهٌ بالكلمة يسمعُها الإنسان فيعرف صاحبها ، ولا يعرف الكلمة بعينها . والنَّحَّام : فَرَسُ سُلَيك بن السَّلكة السَّعديّ ، وهو فارسٌ من فرسان الجاهليَّة المشهورين . . . . ونُعيم : تصغير أَنْعَم ، أو تصغير نُعْم ، وأصله من النِّعمة ، وقد سمَّت العرب النَّعمان . . . . والنَّعيم : ضدَّ البؤس ؛ والنَّعْمة : ما تنعَّم به الإنسان من مأكل أو مشرب . والنِّعمة : ما أنعم ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ علىٰ الإنسان في معيشته وبدنه . . . . »[1] .

* وسيِّدنا نُعيمُ بنُ عبد ٱلله النَّحَّام من ثُلَّة السَّابقين الأوَّلين إلىٰ دوحة الإسلام ورياضه ، يُقال : إنَّه أسلم بعد عشرة أنفس[2] . قال الإمامُ النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أسلم نُعيمٌ قديماً في أوَّل الإسلام ، قيل : أسلم بعد عشرة أنفس ، وقيل : بعد ثمانية وثلاثين قبل إسلام عمر بن الخطَّاب ، وكان يكتم إسلامه . . . . »[3] .

= و« نسب قريش » (ص : ٣٨٠) .

(١) « الاشتقاق » (ص : ١٣٦ ـ ١٣٧) بشيء من التَّصرُّف والاختصار . وجاء في كتاب « نزهة الألباب في الألقاب » لابن حجر : أنَّ النَّحَّام ضبطه الأكبر بفتح النُّون وتشديد الحاء ، وضبطه ابن الكلبي بضم النُّون وتخفيف الحاء .

(٢) « التَّبيين » (ص : ٣٨٧) .

(٣) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٣٠ ـ ١٣١) . وقال ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن نُعيم : « له صحبة من سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ ، وهو قديمُ الإسلام » . « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٧٥) .

بـرّهُ بالأرامـل والأيتـام :

* تأثَّر سيِّدنا نُعيمٌ بتعاليم الإسلام وهَدْيهِ ونُبله ، فكان من أبرِّ النَّاس وأوصلهم لأهله ؛ وكان يتفقَّدُ أيتام بني عدي ، كما يتفقَّدُ الأرامل ويصلُهم ويحسن إليهم ؛ وقد امتدح سيِّدنا الزُّبير بنُ العوَّام ـ رضي ٱلله عنه ـ عمل نُعيم وبرّه بقومه فقال : « كان نُعيمُ بنُ عبد الله النَّحَّام يقوتُ بني عدي بن كعب شهراً شهراً لفقرائهم »(١) .

* ولهـٰذا السَّبب النَّبيل ؛ أقام سيِّدنا نُعيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ مع قومه ؛ فلم يهاجرْ في البدايةِ مع المسلمين إلىٰ المدينة المنورة ، ومكثَ في أُمّ القُرىٰ حتَّىٰ قُبيل الفتح ؛ لأنَّه كان ينفقُ علىٰ أرامل بني عدي وأيتامهم في الجاهليَّة ، ولم يزلْ بمكَّة يحوطُهُ قومه لشرفه فيهم .

* ولمَّا شرع المسلمون بالهجرة إلىٰ المدينة المنوَّرة ؛ أراد سيِّدنا نُعيم أنْ يهاجرَ في صحبتهم ، فتعلَّقَ به قومه وتشبَّثُوا به ، ورَجَوهُ قائلين : « دِنْ بأي دِيْنٍ شئْتَ ، وأقم عندنا » ، فأقام في مكَّة حتَّىٰ كانت سنة ستّ ، فقدمَ مهاجراً إلىٰ المدينة المنوَّرة ، ومعه أربعون نفراً من أهله ، فأتىٰ رسولَ ٱللهِ ﷺ مسلماً ، فـاعتنقَـه وقبَّلـه . وزعمـوا أنَّ الحبيـب المصطفـىٰ ﷺ قـال لـه حيـن قـدمـوا عليه : « قومك ، يا نُعيم كانوا خيراً لكَ من قومي لي » .

فقال نُعيم في أدبٍ جمٍّ : « بل قومك خيرٌ من قومي يا رسولَ ٱلله ! » .

قال رسول ٱلله ﷺ : « قومي أخرجوني ، وأقرك قومُك » .

فقال نُعيم ـ رضي ٱلله عنه ـ : « يا رسولَ ٱلله ! قومك أخرجوكِ إلىٰ الهجرة ، وقومي حبسوني عنها »(٢) .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ١٣٩) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٧٧) .

(٢) انظر : « نسب قريش » (ص : ٣٨٠) ، و« طبقات ابن سعد » (٤ / ١٣٨) ، =

* وكان نُعيمٌ النَّحّام ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وأبوه عبد ٱلله من قبله يحملون يتامىٰ بني عدي ويُموّنونهم .

* ساق ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللهُ طاقاتٍ مزهراتٍ ، ومعلوماتٍ نافعاتٍ عن سيِّدنا نُعيم فقال : « له صحبةٌ من سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ ، وهو قديمُ الإسلام . . . . أسلم قبل هجرة الحبشة ، وكان يكتمُ إسلامه ، وأقام بمكَّة ، وقدم مهاجراً سنة ستٍّ ، ومعه أربعون من أهله ، فاعتنقه النَّبيُّ ﷺ وقبَّله ، وكان هاجر عام الحُديبية ، وشهد ما بعدها من المشاهد . . . . وسمَّاه النَّبيُّ ﷺ صالحاً »(1) .

* قال عبدُ ٱلله بنُ عمر لعمر بن الخطَّاب : « اخطبْ عليَّ ابنة صالح ، قال : إنَّ له يتامىٰ ، ولم يكن ليؤثرنا عليهم .

فانطلق عبدُ ٱلله بنُ عمر إلىٰ عمه زيد بن الخطَّاب ليخطب عليه ، فانطلق به إلىٰ صالح ، فقال إنَّ عبدَ ٱلله بنَ عمر أرسلني إليك يخطب ابنتك .

= و« مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٧٦) مع الجمع والتَّصرُّف .

وجاءت هـٰذه القصَّة بشكل آخر عند ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللهُ في « استيعابه » فقال : « . . . ومنعَهُ قومه لشرفهِ فيهم من الهجرة ؛ لأنَّه كان ينفقُ علىٰ أرامل بني عديّ وأيتامهم ، ويموّنهم ، فقالوا : أقمْ عندنا علىٰ أي دِيْنٍ شئْتَ ، وأقمْ في ربعك ، واكفنا ما أنت كافٍ من أمر أراملنا ، فوٱلله لا يتعرض لك أحدٌ إلا ذهبَتْ أنفسنا جميعاً دونك . وزعموا أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له حين قدم عليه : « قومك يا نُعيم كانوا خيراً من قومي لي » . قال : بل قومك خير يا رسول ٱلله !

قال رسولُ ٱلله ﷺ : « قومي أخرجوني وأقرَّك قومك » . فقال نُعيم : يا رسول ٱلله ! قومك أخرجوك إلىٰ الهجرة ، وقومي حبسوني عنها . وكانت هجرة نُعيم عام خيبر ، وقيل : هاجر في أيَّام الحديبية » . « الاستيعاب » (٣ / ٥٢٧ ـ ٥٢٨) .

(1) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٧٥ ـ ١٧٧) بتصرُّف واختصار .

فقال : لي يتامىٰ ، ولم أكنْ لأُتْرِبَ لحمي ، وأرفع لحمكم ، فإنِّي أشهدك أنِّي قد أنكحتها فلاناً . وكان هوىٰ أمّها إلىٰ عبد الله بنِ عمر ، فأتت رسولَ ٱلله ﷺ فقالت : يا نبيَّ ٱلله خطبَ عبد ٱلله ابنتي ، فأنكحها أبوها يتيماً في حجره ، ولم يؤامرها . فأرسل رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ صالح ، فقال : « أنكحت ابنتك ولم تؤامرها ؟ » .

قال : نعم .

فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « أشيروا علىٰ النِّساء في أنفسهنَّ ، أشيروا علىٰ النِّساء ، وهي بكْر » .

فقال صالح : إنَّما فعلتُ هٰذا لمَّا أصدقها ابن عمر ، فإنَّ لها في مالي مثلما أعطاها » [(١)] .

نُعيمٌ وعُمَرُ رضي ٱلله عنهما :

* كلّنا يعرفُ أنَّ السِّيرة العمريَّةَ سيرةٌ غنيَّةٌ بالدُّروس والعِظَات ، كما أنَّنا نعرفُ أنَّ سيِّدنا عمرَ ـ رضي ٱلله عنه ـ كان ـ قبل إسلامه ـ من أشدِّ النَّاس قسوةً علىٰ المسلمين ، ولٰكنَّه عندما منَّ ٱلله عليه بالإسلام غدا فاروق الأُمَّة ، وكان سبب انقلابه المفاجئ ، التقاؤه سيِّدنا نُعيم بن عبد ٱلله النَّحَّام وهو ذاهبٌ ليقتلَ رسول ٱلله ﷺ ؛ فكيف كان ذلك ؟

* تذكر روايات السِّيرة النَّبويَّة وأحداثها أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ كان شاباً مفتوناً بشبابه ، لا يعرفُ عن محمد رسول ٱلله ﷺ إلا أنَّه الصَّابئُ الذي فرَّق قريشاً ، وها هي ذي قريشٌ تمورُ موراً ، وتتميَّزُ غيظاً من دعوة الإسلام ، وقد جعلت الأموال السَّخيَّة والعطايا المُجزية لمن يقتل محمَّداً ﷺ .

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٧٧) ، ومعنىٰ قوله « لأترب لحمي » : أجعل عليه التُّراب . و« أصدقها » : سمَّىٰ لها صداقاً ، والصَّداق : مهر المرأة .

* ظنَّ عمرُ يومها ظنَّ الواهمين أنَّه يستطيع أنْ يحبسَ أنداءَ الخير وعطره وهو في براعمه يتفتَّح جميلاً لطيفاً ناعساً ، أو يستطيعَ أنْ يبدلَ نهار الحياة المشرق ليلاً دامساً ؛ ومضىٰ عمرُ في وجهه متسربلاً بالغضب ، تاركاً مَنْ وعدهم بقتل محمَّد ﷺ وهم ينتظرون النَّبأ العظيم ، وبينما هو في سيرهِ المُضْطَربِ تتناوشه الأوهام ، بَصُرَ به أحدُ أبناء قومه وهو نُعيمُ بنُ عبد ٱلله النَّحَّام ، فاستوقفه لمَّا رآه في حالةِ القَلَقِ والغَضَبِ وسأله في هدوء : « أين تريدُ يا عمر ؟ » .

فقال عمر ـ ولعلَّه لم يعلمْ بسبقِ نُعيم إلىٰ الإسلام ـ : « أريدُ محمَّداً هـٰذا الصَّابئَ فأقتله » .

* « ضحكتِ الآفاقُ تهزأُ بعمرَ وعزمتهِ وسيفِهِ ، وكأنَّما سمع نُعيمٌ صدىٰ سخريةِ الآفاق وهزئها بعمرَ في ممشاه وهو متقلِّدٌ سيفَه ليقتلَ محمَّداً ﷺ ، وكان نُعيمٌ يخفي إسلامه من قومه عامة ، وفَرقاً من عمرَ بخاصَّة ، ولـٰكنَّ صولةَ الإيمان ، وجسَامةَ الخطب في ممشىٰ عمر ، جَعَلا من نُعيمٍ أسداً من أُسْدِ ٱلله ، وضَعَ حياته فداءً لرسولِ ٱلله ﷺ ، فلم يأْبه لسيفِ عمر ، ولم يبالِ بتجهُّمه وعزمته الخائرة ، فوقف في وجههِ يجبهُهُ ويزجرُهُ بما لم يكنْ في حسبان عمر »[1] .

* وقف سيِّدنا نُعيمٌ ساعتئذٍ موقفَ الأذكياء ، وموقفَ المخلصين لربِّه ورسوله ودينه ، وقفَ موقف الحزم والحصافة والنَّباهة ، فقد كان نعيمٌ دَمِثاً من غيرِ خَفَر ، وليِّنَ جانبٍ من غير خَور ؛ استطاع أنْ يثيرَ عمر لأمْرٍ مهم ، فربما تنقشعُ غلظته التي تكمنُ وراءها ينابيعُ من الرِّقَّةِ والخيرات والمودَّات ، وصدقتِ الفراسةُ النُّعيميَّة النَّحَّاميَّة فقال لعمر : « لقد وٱلله غرَّتْكَ نفسُك من نفسِك يا عمر ! ففرَّطتَ ، وأردتَ هلكة بني عدي ، أترىٰ بني عبد مناف

---

(١) « محمَّد رسول ٱلله » (١ / ٦٥٠) .

تاركيك تمشي علىٰ الأرض ، وقد قتلتَ محمَّداً ؟ أفلا ترجعُ إلىٰ بيتك فتقيمُ أمرهم ؟ » .

فقال عمرُ ـ وقد اهتزَّ فزعاً لمقولة نُعيم ـ : « وأيّ أهل بيتي ؟ » .

قال نُعيمٌ في هدوء : « ختنُكَ وابنُ عمِّك سعيدُ بنُ زيد بن عمرو ، وأختُكَ فاطمةُ بنتُ الخطَّاب ، فقد واللهِ أسلما ، وتابعا محمَّداً علىٰ دينه ، فعليك بهما » .

* « سبحان ٱلله ! ماذا صنع الإيمانُ بهـٰذه النُّفوس الحبيسة في أرضها ، بين شواهقِ الجبالِ المخيفة ، والوديان القاحلة المقفرة من كلِّ عيش وأمل . . . . نُعيم بن عبد ٱلله النَّحَّام العدويّ ـ رضي ٱلله عنه ـ يقفُ في وجْهِ عمر ؛ إذ يراه متوشحاً سيفه ، يمشي في عزيمة متجهّمة ، يطوي جوانحه علىٰ مُستكنّة من الكوارث قاصمة ، وقارعة من القواصم مبيدة مدمِّرة ، لا يبالي جبريَّة عمر وبطشه ، ولا يقيم وزناً لقسوته وغلظته ، موقفاً يجبهه فيه ، ويحقّره أمام نفسه ، بكلِّ ما تعرف كلمة من تقريع وتحقير ، ويريه في صراحةٍ صارمة أنَّه في ممشاه هـٰذا مغرور ، مفتون ، لا يعرفُ قَدْرَ نفسه . فما هـٰذا الذي أحال نُعيماً الرَّجل المسلم الذي ظلَّ مستخفياً بإسلامه رهبة ورعباً من عمر وقومه ، حتَّىٰ يقفَ من هـٰذا العاتي الجبَّار ، المغرور بنفسه هـٰذا الموقف الذي يعَنْون شجاعة الأبطال في مواقف النِّضال ؟ ! إنَّه الإيمانُ ، والإيمانُ فحسب ، والإيمانُ ليس غير ، الإيمان الذي بلغَ من نُعَيم المسلم في لحظة لا تكاد تُعدُّ شيئاً في حساب الزَّمن ، وسير الفَلَك ، مبلغاً جعله يتصوَّر في لمحة خيال طائر مفزع مرعب ، أنَّ عمر حقَّق عزيمته السَّوداء ، وتصوَّر نُعيم مع خياله المزعج أنَّ الحياةَ كلَّها أظلمت فغارت نجومها ، وأفَلَ إلىٰ غير عودة قمرها ، وغابتْ إلىٰ الأبد شمسها . . . . وتجمَّعَتْ عزائمُ الإيمان في قوتها فملأت جوانب نفس نُعيم الرَّجُل المسلم فحسب ، فكانت فداء للنُّور والهدىٰ ، فداءً لِشَمسِ الحياة محمّد رسول ٱلله ﷺ ، واستحال نُعيم المسلم المستخفي بإسلامه ، الضَّعيف المستضعف قوَّة قاهرةً ، وشجاعةً مزمجرة ، أخذت بمجامع الجبريَّة الجاهليَّة

في عمر بن الخطَّاب ، ونترتْها نترةً جثا منها هـٰذا العاتي المغرور ، بين يدي نُعيمٍ المسلم الذي كان يُرهبُهُ عمرُ في جاهليّته . . . . »[١] .

* نَعم ؛ أفلح نُعيمٌ ـ رضي ٱللهُ عنه ـ في مجابهة عمر ـ رضي ٱللهُ عنه ـ في قولهِ بصراحةٍ تامَّة كانت خيراً لعمر ؛ إذ كان الإيمانُ أقوىٰ من عتوِّ الجاهليّة ، ولمَّا عملَ الإيمانُ عملَه في داخل ضمير عمر ، ذهب إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ وآمن به وصَدَّقَ دعوته ، وصار الرَّجل الثَّاني في جميع أصحاب رسول ٱللهِ ﷺ ، وقصَّة سماع الفاروق عمر للقرآن الكريم في بيت أخته فاطمة ، ثمَّ ذهابه إلىٰ دار الأرقم من مشاهير القَصَص التي يعرفُها معظم النَّاس لشهرتها وسلاستها وأثرها وتأثيرها في النُّفوس والقلوب[٢] .

* وممَّنْ أسهمَ في انتشار قصَّة إسلام سيِّدنا عمر الشُّعراء المبدعون ، فسلاسةُ شعرهم المرسوم بالأحاسيس والكلمات ساعدَ علىٰ سيرورة القصَّة العُمريَّة . وقد تألَّقَ شعراء كُثُر في رسمِ إسلام سيِّدنا عمر ، وممَّن برعَ في هـٰذا المضمار من الشُّعراء المعاصرين شاعر النِّيل (حافظ إبراهيم) الذي أنشأَ عام (١٩١٨ م) قصيدةً سمَّاها : « عمر بن الخطَّاب » تعرَّض خلالها لحياته

---

(١) « محمَّد رسول ٱلله » (١ / ٦٥١ ـ ٦٥٢) .

(٢) أفاد الدّكتور أكرم ضياء العمريّ في كلام له معلّقاً علىٰ قصَّة إسلام سيِّدنا عمر ـ رضي ٱللهُ عنه ـ فقال : « أمَّا قصَّةُ استماعه القرآن يتلو الرّسول ﷺ في صلاته قرب الكعبة ، وعمر مسْتخفٍ بأستارها ، وكذلك قصّته مع أخته فاطمة حين لطَمها لإسلامها ، وضرب زوجها سعيد بن زيد ، ثمَّ اطِّلاعه علىٰ صحيفةٍ فيها آيات وإسلامه ، فلم يثبتْ شيء من هـٰذه القصَص من طرق صحيحة ، ولـٰكنَّ الحافظَ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللهُ ذكرَ بأنَّ الباعثَ له علىٰ دخوله في الإسلام ما سمعَ في بيت أخته فاطمةَ من القُرآن . ولا شكَّ أنَّ القرآن ببيانه السَّاحر ، وروعة تصويره لمشاهد القيامة ، وصفة الجنَّة والنَّار ، كان له تأثيرٌ كبيرٌ في اجتذاب عمر إلىٰ صفِّ المسلمين ؛ لأنَّ عمر كان يتذوّقُ الكلام البليغَ ويعجبُ به ، وعدم ثبوت الرِّوايات حديثياً لا يعني حتميَّة عدم وقوعها تأريخياً » . « السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة » (١ / ١٨٠ ـ ١٨١) .

الكريمة ، وقد لاقتِ القبولَ في العالمَ الأدبيِّ ، وافتتحها بقوله :

حَسْبُ القَوافي وحَسْبي حين أُلقيها ... أنّي إلىٰ ساحةِ الفاروق أهديها

* وخلالها تحدَّث عن إسلام عمر فقال :

رأيتَ في الدِّين آراءً موفَّقةً ... فأنزلَ اللهُ قرآناً يُزكِّيْها
وكنتَ أوّلَ مَنْ قرَّتْ بصحبتهِ ... عينُ الحنيفةِ واجتازتْ أمانيها
قد كنتَ أعدىٰ أعاديها فصرتَ لها ... بنعمةِ اللهِ حصناً من أعاديها
خرجتَ تبغي أذاها في محمَّدها ... وللحنيفةِ جبَّارٌ يُواليها
فلم تكدْ تسمعُ الآياتِ بالغةً ... حتَّىٰ انكفأْتَ تناوي مَنْ يناويها
سمعتَ سورةَ طه منْ مرتِّلها ... فزلزلتْ نيّةً قد كنتَ تنويها
وقلتَ فيها مقالاً لا يُطاولُه ... قولُ المحبِّ الذي قد بات يطريها
ويوم أسلمتَ عزَّ الحقُّ وارتفعتْ ... عن كاهل الدِّين أثقالٌ يعانيها [1]

« أَنَا صِهْره » :

* كان لسيِّدنا نُعيم بنِ عبد ٱللهِ النَّحّام منزلةٌ كبرىٰ عند رسول ٱللهِ ﷺ ، وذات مرَّة أشارَ عليه أنْ يتزوّج امرأةً وضيئةً جميلةً ، وخصَّه بها قائلاً : « مَنْ أدلّه علىٰ الوضيئةِ القَتِين ـ الجميلة ـ وأنا صهره ؟ » .

* ذكرَ ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللهُ هٰذا الأمر في « طبقاته » قال : « كان رسولُ ٱللهِ ﷺ يحبُّ أسامةَ بنَ زيد ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، فلمَّا بلغَ وهو ابنُ أربع عشرة سنة تزوَّج امرأةً يُقال لها : زينب بنت حنظلة بن قسَامة [2] ، فطلَّقها

(١) « ديوان حافظ إبراهيم » (١ / ٧٩ ـ ٨٠) . واقرأ القصيدة كاملة في ديوانه (١ / ٧٧ ـ ٩٧) ، طبعة دار الكتب المصريَّة عام (١٩٣٧ م) .

(٢) « زينب بنت حنظلة بن قسامة بن قيس بن عبيد بن طريف بن مالك الطَّائيَّة ، وفي طريف بن مالك يقول امرؤ القيس الشَّاعر المشهور ، وقد نزل به :

لَعمري لَنِعْمَ المرء يعشو لضوئِهِ ... طريفُ بنُ مالك ليلةَ الريحِ والخَصْر=

أسامةُ ، فجعل رسولُ ٱللهِ ﷺ يقول : « مَنْ أدلّه علىٰ الوضيئةِ القَتِين وأنا صِهرُهُ ؟ » .

فجعـلَ رسـولُ ٱللهِ ﷺ ينظـرُ إلـىٰ نُعيـم بـنِ عبـد ٱللهِ النَّحَّـام ، فقـال نُعيم : كأنَّك تريدني يا رسولَ ٱللهِ ؟ قال : « أجَل » .

فتزوَّجها فولَدتْ له إبراهيمَ بنَ نعيم ، فَقُتِل يوم الحرَّة »[1] .

* وكان إبراهيمُ بنُ نعيم أحدَ الرُّؤوس يوم الحرَّة ، وقُتِلَ يومئذ في ذي الحجَّة سنة (٦٣ هـ)[2] . وكان إبراهيمُ متزوِّجاً من رقيَّة بنتِ عمر بن الخطَّاب ، وأمّها أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب[3] ، وأمّها فاطمة بنت رسول ٱللهِ ﷺ[4] .

* ولمَّا تعرَّض الإمامُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ في « تاريخه » للحديث عن يومِ

= كانت زينب بنت حنظلة تحت أسامة بن زيد بن حارثة ، فطلَّقها ، فلمَّا حلَّتْ قال رسول ٱللهِ ﷺ : « من يتزوَّج زينب بنت حنظلة وأنا صهره » ، وفي رواية : « وأنا أمهره » ، فتزوَّجها نعيم بن عبد ٱللهِ النَّحَّام ، وكانت زينب قدمت هي وأبوها وعمَّتها الجرباء بنت قسامة علىٰ النَّبيِّ ﷺ . « أسد الغابة » (٦ / ١٢٨) ، و« الاستيعاب » (٤ / ٣١٤) ، و« الإصابة » (٤ / ٣٠٩) ، مع الجمع والتَّصرُّف .

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٧٢) ؛ وأيضاً (٥ / ١٧٠ ـ ١٧١) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٥ / ١٧١) .

(٣) اقرأ سيرةَ الحفيدة الميمونة أمّ كلثوم بنت علي ـ رضي ٱللهُ عنهما ـ في الباب الرَّابع من موسوعتنا : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٦٨١ ـ ٧١٢) ففي سيرتها فوائد تهمّ العالم والمتعلّم . طبعة دار اليمامة السَّادسة بدمشق ، عام (٢٠٠٥ م) .

(٤) اقرأ سيرة سيِّدتنا فاطمة الزَّهراء ـ رضي ٱللهُ عنها وأرضاها ـ في الباب الثَّالث من موسوعتنا : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٥٤٧ ـ ٦٢٩) فسيرتها إمتاع للأسماع ، وإرواء للقلوب ، وشفاء لغليل محبّي أهل البيت .

الحرَّة ، ذكرَ عدداً من أبناء الصَّحابة الذين قُتِلُوا يومها ، فقال : « وممَّن قُتِلَ يوم الحرَّة : إبراهيمُ بنُ نُعيم النَّحَّام بن عبد ٱلله بن أسيد القرشيّ العدويّ . كان ابنُ النَّحَّام أحدَ الرُّؤوس يوم الحرَّة ، وقُتِلَ يؤمئذ ، وكان زوج رقيَّةَ ابنة عمر بن الخطَّاب »[1] .

﴿ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ ﴾ :

* كانت هجرةُ سيِّدنا نُعيم بن عبد ٱلله النَّحَّام أيَّام الحديبية ؛ إذ استقبله الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ بالتَّرحاب ، وأكرمه واعتنقَه ، وقبَّله ؛ وتابع سيِّدنا نُعيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ حياته مع الصَّحابة الكرام بالمعيَّة النَّبويَّة .

* ولسيِّدنا نُعيم روايةٌ ، وأرسل عنه نافعٌ ، ومحمَّدُ بنُ إبراهيم التَّيميّ[2] ؛ وممَّا أخرجه له الحاكم رَحِمَهُ ٱللهُ في « المستدرك » بسنده عن نافع ، عن عبد ٱلله بن عمر ، عن نُعيم النَّحَّام قال : « أذَّن مؤذِّنُ النَّبيّ ﷺ ليلةً فيها برد ، وأنا تحت لحافي ، فتمنَّيتُ أن يلقيَ ٱلله تعالىٰ علىٰ لسانه : ولا حرج ، فلمَّا فرغ قال : ولا حرج »[3] .

---

(1) « تاريخ الإسلام » للذَّهبيِّ (حوادث ووفيات : ٦١ ـ ٨٠) (ص : ٢٨ ـ ٢٩) .

(2) « تاريخ الإسلام » للذَّهبيِّ (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ١٠٢) ، و« الاستيعاب » (٣ / ٥٢٨) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٣١) ، و« أسد الغابة » (٤ / ٥٧٠) .

(3) « المستدرك » (٣ / ٢٩٠) برقم : (٥١٣٠) ، وقال الحاكم : « صحيح الإسناد ولم يخرجاه » ، وقال الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ في « التَّلخيص » : « صحيح » . وانظر : « الإصابة » (٣ / ٥٣٨) ، وأخرجه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللهُ في « مسنده » بسنده عن نُعيم ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « نودي بالصُّبح في يوم باردٍ ، وأنا في مِرْطِ امرأتي ، فقلتُ : ليت المنادي قال : مَنْ قَعَدَ فلا حرجَ عليه . فنَادىٰ مُنَادي النَّبيِّ ﷺ في آخر آذانه : « ومَنْ قَعَدَ فلا حرجَ عليه » . « المسند » (٦ / ٢٧٦) برقم : (١٧٩٥٦) .

* وأخرجَ هٰذه الرِّواية الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « مسنده » أنَّ نُعيماً بن عبد ٱلله النَّحَّام قال : « سمعتُ مؤذِّن النَّبيّ ﷺ في ليلةٍ باردة ، وأنا في لحافي ، فتمنّيتُ أنْ يقولَ صلّوا في رحالكم ، فلمَّا بلغ « حيَّ علىٰ الفلاح » قال : صلُّوا في رحالكم ، ثمَّ سألتُ عنها ، فإذا النَّبيّ ﷺ قد أمره بذلك » [1] .

* ويُصنَّف سيِّدنا نُعيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ من المجاهدين ، فقد شهد المشَاهد بعد الحديبية ، وتوفي رسولُ ٱلله ﷺ وهو راضٍ عنه .

* ذكر ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ سيِّدنا نُعيماً ـ رضي ٱلله عنه ـ : « قدم دمشق قبل فتحها مع النَّفر الذين أرسلهم أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ ملك الرُّوم ، وخرجَ بعد ذلك مجاهداً ، فَقُتِلَ يوم أجنادين ، ويقال : اليرموك » [2] .

* وعن استشهاده قال ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقُتِلَ يوم اليرموك شهيداً في رجب سنة خمس عشرة » [3] .

* هٰكذا خُتمت حياة سيِّدنا نُعيم بهٰذه النِّهاية السَّعيدة ، وبهٰذا الشَّرف الوافي ، ليكون حيّاً عند ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وليكون ممَّن اتّخذهم ٱلله شهداء لينعموا بالنَّعيم المقيم الذي ينتظرهم ؛ فرضي اللهُ عن سيِّدنا نعيم بن عبد ٱلله النَّحَّام ، وأدخلنا بمعيَّته الجنَّة بسلام ، وجعلنا من الذين سعدوا ونالوا الإنعام .

---

(١) « المسند » (٦ / ٢٧٥ ـ ٢٧٦) برقم : (١٧٩٥٥) ، وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٧٥ ـ ١٧٦) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٦ / ١٧٥) .

(٣) « طبقات ابن سعد » (٤ / ١٣٩) ، وانظر : « المستدرك » (٣ / ٢٩٠) .

البـــابُ الثَّـاني

رجال سابقون من الأنصـار

* أسعـــدُ بـــنُ زرارة رضـــي ٱللّٰه عنـــه .
* أسيـد بـن الحضيـر رضـي ٱللّٰه عنـه .
* خبيــب بـن عـدي رضـي ٱللّٰه عنــه .






أسعدُ بنُ زرارة

رضي ٱلله عنه

* من كبراء الصَّحابةِ الأنصار ، وأحدُ النُّقباء ليلة العقبة .
* كانت دارهُ مركزَ دعوةِ مصعب بن عمير رضي ٱلله عنه .
* ماتَ في حياةِ النَّبيّ ﷺ ؛ ودُفنَ في البقيع .



أسعدُ بنُ زُرَارة
رضي ٱلله عنه

أَمَلٌ باسمٌ :

* لهٰذا الصَّحابيِّ الذي غاب عن أذهانِ كثيرين فضْلٌ عميمٌ ؛ وخيرٌ جسيمٌ ؛ في مراحل سَيْرِ الدَّعوة الإسلاميَّة ؛ في المدينةِ النَّبويّة ، فهو بدرٌ لاحَ في سماءِ المناقب ، وسَمَا شرفاً علىٰ زُهْرِ الكواكب .

* وعلىٰ الرُّغم من أنَّه أحدُ السَّابقين الأوَّلين من رجال عصر النُّبوَّة ، ومشرق الدَّعوة ، إلا أنَّ شطراً من النَّاس لا يعرفون عنه إلا شذرات لا تُسمنُ ، ولا تغني من جوع الثَّقافة ؛ وعطش المعرفة .

* فهٰذا الصَّحابيُّ ذو خبرٍ كريم ؛ وخُلُقٍ قويم ، ورأي حصيف ، وظلٍّ لطيف ، ومكانةٍ مرموقة في بني النَّجّار الأخيار الأبطال ، وقد استمدَّ هٰذه المكانة من حبيبنا رسولِ ٱللهِ ﷺ ، فلولا رسولُ ٱللهِ ﷺ ما عرفْنا هٰؤلاء الرِّجال :

وانْسُبْ إلىٰ ذاتهِ ما شئتَ مِنْ شرفٍ   وانْسُبْ إلىٰ قَدْرِهِ ما شئْتَ من عِظَم
فإنَّ فَضْلَ رسولِ ٱلله ليس لـه   حـدٌّ فيعربُ عنه ناطقٌ بفم [1]

---

(١) « ديوان البُوصيريّ » (ص : ٢٤١) ، تحقيق : محمَّد سيّد كيلاني ـ مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ـ ط : ٢ ـ ١٩٧٣ م .

وهـٰذا الرَّجلُ المفْضَالُ قيل : « إنَّه أوَّلُ مَنْ أسلم من الأنصار من الخزرج » .

* بل إنَّ هـٰذا الرَّجلَ الكريمَ شهد العَقَبَات الثَّلاث ، وهو أحدُ النُّقباء ، وكانوا في العقبةِ الأولىٰ ستَّةً أو سبعةً أو ثمانيةً من الفُضَلاء ، وفي الثَّانية اثني عشر رجلاً ، وفي الثَّالثة سبعين رجلاً ، وقد جعل النَّبيُّ ﷺ منهم النُّقباء ، وكانوا اثني عشر نقيباً[1] ، منهم السَّيِّدُ الحسيبُ النَّقيب أسعدُ بنُ زُرارة بن عُدَس أبو أمامة الأنصاريّ النَّجَّاريّ[2] ، من كبراء الصَّحابة وخيارهم .

* استهلَّ ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترجمة أسعد الخير بقوله : « أسعدُ بنُ زُرارة بن عُدَس . . . . الأنصاريّ الخزرجيّ النَّجَّاريّ ، ويُقالُ له : أسعدُ الخير ، وكنيتُه : أبو أمامة ، وهو من أوَّل الأنصار إسلاماً ، وكان سبب إسلامه أنَّه خرج إلىٰ مكَّة هو وذكوانُ بنُ عبد قيس يتنافران إلىٰ عتبةَ بنِ ربيعة ، فسمعا برسول ٱللهِ ﷺ فأتياه ، فعرض عليهما الإسلام ، وقرأ عليهما القُرآن فأسلما ، ولم يَقْربا عتبة ، ورجَعَا إلىٰ المدينة ، وكانا أوَّلَ من قدم بالإسلام إلىٰ المدينة »[3] .

---

(١) « الاستبصار » (ص : ٥٦) .

(٢) « الاستيعاب » (١ / ٥٧ ـ ٥٩) ، و« الإصابةُ » (١ / ٥٠) ، و« أسد الغابة » (١ / ٨٦ ـ ٨٧) ترجمة رقم : (٩٨) ، و« السّيرةُ النّبويّة » (الفهارس : ١ / ٧٥٥) ، و« البدايةُ والنهايةُ » (٣ / ٢٢٩) ، و« الاستبصار » (ص : ٥٦ ـ ٥٨) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٢٩٩ ـ ٣٠٤) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (الفهارس : ٤ / ٧٣٧) ، و« دلائل النّبوّة » للبيهقي (الفهارس : ٧ / ١٣٧) ، و« طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٨ ـ ٦١٢) ، وغيرها ممّا لا يستقصىٰ .

(٣) « أسد الغابة » (١ / ٨٦) بتصرّف يسير . قال ابنُ قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقيل : إنَّ أسعد بن زرارة أوّل مَنْ مشىٰ بين النَّبيّ ﷺ وبين الأنصار » . « الاستبصار » (ص : ٥٧) . =

* ومضىٰ ابنُ الأثير في ترجمته قائلاً : « وكان ـ أسعدُ بنُ زرارة ـ عقبيّاً شهد العقبة الأولىٰ والثَّانية والثَّالثة ، وبايع فيها ، وكانت البيعة الأولىٰ ، وهم ستَّةُ نفر ، أو سبعة ، والثَّانية وهم اثنا عشر رجلاً ، والثَّالثة وهم سبعون رجلاً ، وبعضهم لا يسمِّي بيعة السِّتَّة عقبة ، وإنَّما يجعل عقبتَيْن لا غير ، وكان أبو أمامة أصغرهم ، إلا جابر بن عبد ٱلله ، وكان نقيب بني النَّجَّار »[1] .

* ومن الجدير بالذِّكر أنَّ الصَّوتَ المحمَّديَّ والدَّعوة النَّبويَّة ؛ قد صافحت أسماعَ أسعدِ بنِ زرارة ؛ وأهلِ المدينة من خلال متابعة رسول ٱلله ﷺ دعوته رغم المحن والآلام ، فلم يتركْ ﷺ ؛ أي فرصةٍ تفوتُهُ لِلقَاء النَّاس ، ودعوتهم وتبليغهم ، وخاصَّةً في موسم الحجِّ حيث يجتمعُ النَّاس من القبائل كلِّها ، والبطون في مكَّة ، فدعا ﷺ فزارة ، وغسَّان ، ومرَّة ، وسُلَيم ، وعَبْس ، وكندة ، وكلْب ، وبني عامر ؛ لقد كان يكثِّفُ دعوته ما استطاع قبل حلول الهجرة إلىٰ المدينة .

من نَفَحاتِ الإسلامِ :

* من المُتعالَم في أحداث السِّيرة النَّبويَّة ووقائعها أنَّ وَفْدَ الأنصار قد قدموا مكَّة المكرَّمة في السَّنة الحادية عشرة من النُّبوَّة ، حيث بيعة العقبة الأولىٰ ، ثمَّ في العام الثَّاني عشر حيث بيعة العقبة الثَّانية .

* ونحنُ نعلمُ أنَّ المدينةَ كان يسكنُها الأوسُ والخزرجُ ، وبجوارهم اليهود الذين كانوا حلفاءهم ، وكان الأوسُ والخزرجُ أخوَيْن لأبٍ وأمّ ،

= كما أنَّ هـٰذا الصَّحابيَّ المفضال لمَّا أسلم كان يكْسِر أصنام بني النَّجَّار ، ويجعلها جذاذاً ، وكان يساعدهُ في ذلك فتية من قومه آمنوا بٱلله ، ورضوا الإسلام ديناً . « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٩ ـ ٦١٠) بتصرُّف .

(١) « أسد الغابة » (١ / ٨٧) .

وأصلُهُم من اليمن من سبأ ، وأمُّهم تُدعىٰ : قَيْلَة بنت كاهل من قضاعة ، ولهـٰذا يُقال لهم : أبناء قَيْلَة .

* وتحتفظ كتُبُ التَّواريخ ومصادر السِّيرة بين ثناياها وطيَّاتهابأنَّه قد وقعت بين الحيَّيْن العداوةُ بسبب قتيل ، واشتعلت نيرانُ الحروب بينهم قرابة قرنٍ وربع من الزَّمان ، إلىٰ أنْ أطفأْ اللهُ أوارَهَا بنور الإسلام وبركاته ، وألَّفَ بينهم برسولِ ٱللهِ ﷺ ، قال ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

* قال الإمامُ الطَّبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « تفسيره » : هـٰذه الآية الكريمة : « واذكروا أيُّها المؤمنون نعمةَ ٱلله عليكم التي أنعمَ بها عليكم حين كنتم أعداءً : أي : بِشِرْكِكُم يقتلُ بعضكُم بعضاً ، عصبيَّةً في غير طاعة ٱلله ، ولا طاعة رسوله ، فألَّفَ اللهُ بالإسلام بين قلوبكم ، فجعل بعضكم لبعض إخواناً ، بعد إذ كنتم أعداءً تتواصلون بألفةِ الإسلام ، واجتماعِ كلمتكم عليه » [١] .

* وأضاف الطَّبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضاً في تأويل الآية : « . . . النِّعمةُ التي أنعمَ اللهُ علىٰ الأنصار هي ألفةُ الإسلام ، واجتماع كلمتهم عليها . . . . والعداوة التي كانت بينهم عداوة الحروب بين الحيين من الأوس والخزرج في الجاهليَّة قبل الإسلام ، يزعمُ العلماءُ بأيَّامِ العرب ، أنَّها تطاولَتْ بينهم عشرين ومئة سنة » [٢] .

* وذكر ابنُ جرير الطَّبريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندهِ عن ابنِ إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال : « كانتِ الحربُ بين الأوسِ والخزرجِ عشرين ومئة سنة ، حتَّىٰ قام الإسلامُ وهم علىٰ ذلك ، فكانت حربُهم بينهم وهم أخوان لأب وأمّ ، فلم

---

(١) « تفسير الطَّبريّ » (٤ / ٣٣) ، دار الفكر ـ طبعة مصورة ـ بيروت ـ ١٩٨٤ م .
(٢) « تفسير الطَّبريّ » (٤ / ٣٣) باختصار يسير مع التَّصرُّف اليسير أيضاً .

يسمعْ بقوم كان بينهم من العداوةِ والحرب ما كان بينهم ، ثمَّ إنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أطفأ ذلك بالإسلام ، وألَّف بينهم برسوله محمَّدٍ ﷺ ، فذكَّرهم جلَّ ثناؤه ؛ إذ وعظَهم عظيمَ ما كانوا فيه في جاهليّتهم من البلاء والشَّقاء ، بمعاداة بعضهم بعضاً ، وخوف بعضهم من بعض ، وما صاروا إليه بالإسلام ، واتِّباع الرَّسُول ﷺ والإيمان به ، وبما جاء به من الائتلاف والاجتماع ، وأمن بعضهم من بعض ، ومصير بعضهم لبعض إخواناً » [(١)] .

* وأسهم ابنُ عطيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هٰذه الآية ، فكان مفاد ما قاله : « هٰذه الآية تدلُّ علىٰ أنَّ الخِطَاب بها إنَّما هو للأوس والخزرج . . . . كانت بينهم عداوةٌ وحروب ، منها يوم بُعَاث وغيره ، وكانتْ تلك الحروبُ والعداوةُ قد دامت بين الحيَّيْن مئةً وعشرين سنة ، حتَّىٰ رفعها اللهُ بالإسلام ، فجاء النَّفرُ السِّتَّةُ من الأنصار إلىٰ مكَّة حجَّاجاً ، فعرض رسولُ ٱللهِ ﷺ نفسه عليهم ، وتلا عليهم القُرآن . . . . فآمنوا به . . . . ويسَّرَ اللهُ تعالىٰ الأنصار للإسلام بوجهَيْن :

أحدهما : أنَّ بني إسرائيل كانوا مجاورين لهم ، وكانوا يقولون لمن يتوعَّدونه من العرب : يُبْعَثُ لنا نبيٌّ الآن نقتلُكُم معه قَتْلَ عادٍ وإرم ، فلمَّا رأىٰ النَّفَرُ من الأنصار محمَّداً ﷺ قال بعضُهم لبعض : هٰذا وٱلله النَّبيُّ الذي تذكُرهُ بنو إسرائيل فلا تُسْبَقُنَّ إليه .

والوجه الآخر : الحربُ التي كانت ضَرَّستهم ، وأفنَتْ سَرَاتهم ، فرجوا أنْ يجمعَ اللهُ به كلمتَهم كالذي كان ، فعدَّد اللهُ تعالىٰ عليهم نعمتَه في تأليفهم بعد العداوة ، وذكَّرهم بها » [(٢)] .

---

(١) « تفسير الطَّبريّ » (٤ / ٣٣ ـ ٣٤) .

(٢) « تفسير ابن عطيّة » (ص : ٣٣٨) باختصار . ولعلَّنا نمتع الأسماع بقراءة هٰذه التغريدة الجميلة التي تصوِّر الوفد الخزرجيّ ، ومشاورتهم فيما سمعوه من الآيات والذِّكر الحكيم : =

* وآتت اللقاءاتُ النَّبويَّة بالوفود ثمارها ؛ إذ حدث لقاءٌ بين الأنصار ورسول ٱلله ﷺ ، وكان مع وفد من الخزرج في موسم الحجّ ، ومعهم سيّدنا الحصيف النَّبيل أسعد بن زرارة الخزرجيّ ، وتمَّ اللقاءُ عند عقَبَةِ مِنَىٰ ، وكان هٰذا اللقاءُ المباركُ مفتاحاً لبيعة العقبة الأولىٰ ، وقد حظي هٰذا اللقاءُ بشهرةٍ كبيرة ، وعُرِفَ أكثر من غيره من اللقاءات ، وقد سجَّله أهل السِّير والطَّبقات لخطورته وأهميَّته .

* وممَّن استوعبَ هٰذا اللقاء ، وقيَّدَهُ في سجلَّاته النَّاصعة ابنُ إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « سيرته » ؛ إذ أورد بإسنادٍ حَسَنٍ قال : « فحدَّثني عاصمُ بنُ عمر بنِ قتادةَ ، عن أشياخٍ من قومه قالوا : لمَّا لقيهم رسولُ ٱلله ﷺ

=

عرضَ النَّبيُّ عليهم الإسلامَ في ذاكَ المقام
قد كان قولاً مشرقاً يعلو علىٰ كلِّ الكلام
سمعَ الرِّجالُ لقوله كالنُّور في جنح الظَّلام
القومُ كانوا مشركين توارثوا هٰذا النِّظام
كان اليهودُ مجاورين لهم وكانوا في وئام
هم في الحقيقةِ لم يكونوا أهلَ علْمٍ بل عَوَام
كانوا ذوي بأس شديد في الوغىٰ عند الحسام
قهروا اليهودَ وأرغموهم فاستكانوا للسَّلام
أمَّا اليهودُ فهم ذوو علْمٍ وفَخْرٍ في الأنام
قد أخبروا أعرابَ يثربَ في مجالِ الاختصام
قالوا نبيٌّ سوف يظهرُ فيه رمزُ الاحترام
ولسوف نَتْبَعُهُ فنغلبكم فذوقوا الانهزام
هٰذي المعاني بادرت أفكارُهُمُ بالاهتمام
بسماعهم للمصطفىٰ عرفوهُ من غيرِ انقسام
قالوا لبعض أدركوا هٰذا النَّبيَّ للاعتصام
هٰذا الذي ذكرَ اليهودَ ظهوره للانتقام

قال لهم : « مَنْ أنتم ؟ » .

قالوا : نَفَرٌ من الخزرج .

قال : « أمن موالي يهود ؟ » .

قالوا : نعم .

قال : « أفلا تجلسون حتَّىٰ أكلِّمكم ؟ » .

قالوا : بلىٰ !

فجلسوا معه ، فدعاهم إلىٰ ٱلله ، وعرضَ عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ؛ وكان ممَّا صنع اللهُ لهم في الإسلام ، أنَّ يهودَ كانوا معهم في بلادهم ، وكانوا أهلَ كتابٍ وعلمٍ ، وكانوا هم أهل شِرْكٍ وأصحاب أوثان . . . . فلمَّا كلَّمهم ﷺ ، ودعاهم إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، قال بعضُهم لبعض : يا قومِ ، تعلمون وٱلله إنَّه للنَّبيّ الذي توعَّدكم به يهود ، فلا تسبقنَّكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأنْ صدَّقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا له : إنَّا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشَّرّ ما بينهم ، فعسىٰ أنْ يجمعَهم ٱلله بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلىٰ أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هـٰذا الدِّين ، فإنْ يجمعهم اللهُ عليك فلا رجل أعزّ منك .

ثمَّ انصرفوا عن رسولِ ٱلله ﷺ راجعين إلىٰ بلادهم ، وقد آمنوا وصدَّقوا ، وهم ستَّةُ نَفَر : أسعدُ بنُ زرارة ، وعوفُ بنُ الحارث ، ورافعُ بنُ مالك ، وقطبةُ بنُ عامر ، وعقبةُ بنُ عامر ، وجابرُ بنُ عبد ٱلله . . . . فلمَّا قدموا المدينة إلىٰ قومهم ، ذكروا لهم رسولَ ٱلله ﷺ ، ودعوهم إلىٰ الإسلام حتَّىٰ فَشَا فيهم ، فلم يبقَ دارٌ من دور الأنصار إلا وفيها ذكْرٌ من رسولِ ٱلله ﷺ »[1] .

---

(١) « السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٤٢٨ ـ ٤٣٠) بتصرُّف وتنسيق . وانظر : « دلائل النُّبوَّة »=

* ونقضي الآن وقتاً لطيفاً في روض الأدب ، ورياض الشِّعر ، نقرأُ ونتأمَّلُ هـٰذه الطَّاقة المزهرة ؛ التي تجملُ ما ذكرناهُ آنفاً في السُّطور السَّابقة ، فمع هـٰذه التَّغريدة اللطيفة الماتعة النَّاعمة :

الـوفـدُ قـد عـادوا ليثـربَ معهـم العِلْـمُ الأكيـد
كـانـوا رجـالاً ستَّـةً هـمْ مـن ذوي البـأس الشَّـديـد
هـم مـن قبيلـةِ خـزرجٍ هـمْ فـي الـوغـىٰ أهـل الـوعيـد
عـادوا إلـىٰ أقـوامهـم بـالعِلْـم والـرَّأي السَّـديـد
قـد أخبـروهـم أنَّ دينـاً صـادقـاً وهـو الـوحيـد
ظهـرتْ بشـائـرهُ بمكَّـةَ مـوطـنِ البيـتِ العتيـد
ذاكـم هـو الـدِّيـنُ الـذي يـدعـو لتحـريـر العبيـد
كـلّ المـدينـةِ أصحبـتْ فَـرحَـىٰ مـن الخبـر السَّعيـد

اشترط لِرَبِّك :

* أسفر لقاءُ الحبيب المصطفىٰ ﷺ مع أسعد بن زرارة وصحبِهِ عن فائدة قيِّمة أظهرت معادن هـٰؤلاء الأخيار الأكابر ، وكانت كلمةُ أسعد ومقالته وحديثه في تلك الليلة علامةَ وفاءٍ وصدق للإسلام ؛ ونبيّ الإسلام محمَّد ﷺ .

* وقد استوفىٰ أبو نُعيم الأصبهانيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « دلائله » حديثَ أسعدِ بنِ زرارة ومقالته في العقبة من حديث طويل أخرجه عن عقيلِ بنِ أبي طالب [1] ـ رضي ٱلله عنه ـ ، والزّهريّ قال : « . . . فمرَّ العبَّاسُ بنُ

= (٢ / ٤٣٣ ـ ٤٣٥) .

(١) اقرأ سيرةَ عقيل بن أبي طالب في الباب الثَّاني من كتابنا : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » . (ص : ٥٠٩ ـ ٥٦٣) ، دار اليمامة ، دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠٧م . ففي سيرة سيِّدنا عقيل ؛ إرواء للغليل ؛ وشفاء للعليل ؛ بإذن الملك الجليل .

عبد المطّلب وهو يكلّمهم ويكلّمونه ، فعرفَ صوتَ النَّبيِّ ﷺ ، فقال : ابنَ أخي ! مَنْ هٰؤلاء الذين عندك ؟

قال : « يا عمّ ! سكَّان يثرب : الأوس والخزرج ، فدعوتُهم إلىٰ ما دعوتُ إليه مَنْ قبلهم من الأحياء ، فأجابوني ، وصدَّقوني ، وذكروا أنَّهم يخرجونني إلىٰ بلادهم » .

فنزل العبَّاسُ بنُ عبد المطّلب وعقَلَ راحلته ، ثمَّ قال لهم : يا معشرَ الأوس والخزرج ! هٰذا ابنُ أخي ، وهو أحبُّ النَّاس إليَّ ، فإن كنتم صدَّقتموه ، وآمنتم به ، وأردتم إخراجَه معكم فإنِّي أريدُ أنْ آخذ عليكم موثقاً تطمئنُّ به نفسي ، ولا تخذلوه ، ولا تغرّوه ، فإنَّ جيرانكم اليهود ، واليهودُ له عدوٌّ ، ولا آمن مكرهم عليه .

فقال أسعدُ بنُ زرارة ـ وشقَّ عليه قول العبَّاس حين اتَّهم عليه سعداً وأصحابه ـ قال : يا رسولَ ٱلله ! ائذن لنا فَلْنجِبْه غير مخَشِّنين بصدرك ولا متعرِّضين لشيءٍ ممَّا تكره إلا تصديقاً لإجابتنا إياك ، وإيماناً بك .

فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « أجيبوه غير متَّهمين » .

فقال أسعدُ بنُ زرارة ، وأقبل علىٰ رسول ٱلله ﷺ بوجهه ، فقال : يا رسولَ ٱلله ! إنَّ لكلِّ دعوة سبيلاً إنْ لينٌ وإنْ شدةٌ ، وقد دعوتَ اليوم إلىٰ دعوة متجهّمة للنَّاس ، متوعّرة عليهم ، دعوتنا إلىٰ ترك ديننا واتّباعك علىٰ دينك ، وتلك رتبةٌ صعبةٌ ، فأجبناك إلىٰ ذلك ، ودعوتنا إلىٰ قطع ما بيننا وبين النَّاس من الجوار والأرحام القريب والبعيد ، وتلك رتبةٌ صعبةٌ ، فأجبناك إلىٰ ذلك ، ودعوتنا ونحنُ جماعة في دار عزّ ومنعةٍ لا يطمع فيها أحد أنْ يرأسَ علينا رجلٌ من غيرنا ، قد أفرده قومُه وأسلمه أعمامه ، وتلك رتبةٌ صعبةٌ فأجبناك إلىٰ ذلك ، وكلّ هٰؤلاء الرّتب مكروهة عند النَّاس ، إلا مَنْ عزم ٱلله علىٰ رشده ، والتمس الخيرَ في عواقبها ، وقد أجبناك إلىٰ ذلك بألسنتنا وصدورنا وأيدينا إيماناً بما جئتَ به ، وتصديقاً بمعرفة ثبتت في قلوبنا ، نبايعك علىٰ ذلك ،

ونبايع ربّنا وربّك ، يد ٱلله فوق أيدينا ، ودماؤنا دون دمك ، وأيدينا دون يدك ، نمنعك ممَّا نمنعُ منه أنفسنا وأبناءنا ونساءنا ، فإنْ نَفِ بذلك فلله نفي ، وإن نغدر فبٱلله نغدر ، ونحنُ به أشقياء ، هٰذا الصِّدق منا يا رسولَ ٱلله ! وٱلله المستعان .

ثمَّ أقبلَ علىٰ العبَّاسِ بنِ عبد المطّلب بوجهه فقال : وأما أنتَ أيُّها المعترض لنا بالقول دون النَّبيِّ ﷺ ، وٱلله أعلم ما أردتَ بذلك ، ذكرتَ أنَّه ابن أخيك وأحبّ النَّاس إليك ، فنحنُ قد قطعنا القريبَ والبعيدَ وذا الرّحم ، ونشهد أنَّه رسولُ ٱلله ، أرسله مِنْ عنده ، ليس بكذّاب ، وأنَّ ما جاء به لا يشبه كلام البشَر ، وأما ما ذكرت أنَّك لا تطمئن إلينا في أمره حتَّىٰ تأخذَ مواثيقنا ، فهٰذه خصلةٌ لا نردّها علىٰ أحد أرادها لرسول ٱلله ﷺ ، فَخُذْ ما شئت ، واشترطْ لربِّك ما شئت .

فقال النَّبيُّ ﷺ : « اشترطُ لربّي ـ عزَّ وجلَّ ـ أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسي أنْ تمنعوني ممَّا تمنعون منه أنفسكم وأبناءَكم ونساءكم » .

قالوا : فذلك لك يا رسولَ ٱلله »[1] .

---

(١) « دلائل النُّبوَّة » للأصبهانيّ (١ / ٤٠٠ ـ ٤٠٢) . ومعنىٰ قوله « موثقاً » : عهداً . و« تخذلوه » : لا تتركوا نصرته . و« تغرّوه » : لا تخذلوه . و« مخشّنين » : موغرين أو مغيظين . و« متجهِّمة » : من تجهمه : إذا استقبله بوجهٍ كريه . و« متوعّرة » : متعسّرة . و« يرأس علينا » : يصيرُ علينا رئيساً . و« أسلمه أعمامه » : خذلُوه وتركُوه لعدوّ وغيره . و« المعترض لنا » : المانع والحائل بيننا وبين النَّبيِّ ﷺ من المضي في مطلوبنا من هٰذه البيعة .

ومن الجدير بالذِّكر : أنَّ أبا نعيم الأصبهانيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد ساق في نهاية الحديث صيغةَ بيعةِ أسعد بن زرارة ، وعدد من الأنصار يوم العقبة ، وها نحنُ أولاء نوردُ صيغة بعض تلكم البيعات .

قال أسعدُ بنُ زرارة : « أبايعُ ٱلله ، وأبايعُ رسولَ ٱلله ﷺ علىٰ أنْ أتمّ عهدي =

* قال ابنُ قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وزعم بنو النَّجّار أنَّ أبا أمامة هـٰذا ، أوّل مَنْ بايع النَّبيّ ﷺ ليلة العقبة » .

قال الشَّعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ : قال النَّبيُّ ﷺ ليلة العقبة : « يا معشرَ الأنصار ، تكلّموا وأوجزوا ، فإنَّ علينا عيوناً » .

قال الشَّعبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : فخطب أبو أمامة أسعدُ بنُ زرارة خطبةً ما خطبَ المُرْدُ ولا الشّيب مثلها قطّ ، فقال : يا رسولَ ٱلله ! اشترط لربِّك ، واشترط لنفسك ، واشترطْ لأصحابك .

قال ﷺ : « أشترطُ لربي أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترطُ لنفسي أنْ تمنعوني ممّا تمنعون منه أنفسكم وأهليكم ، وأشترطُ لأصحابي المواساة من ذات أيديكم » .

= بوفائي ، وأصدّق قولي بفعلي ونصرتك » .

وقال **عبدُ ٱلله بنُ رواحة** : « أبايعك يا رسولَ ٱلله علىٰ ما بايع عليه الاثنا عشر من الحواريين عيسىٰ ابن مريم » .

وقال **أبو الهيثم بن التَّيِّهان** : « أبايعك يا رسولَ ٱلله علىٰ ما بايع الاثنا عشر نقيباً من بني إسرائيل موسىٰ بن عمران » .

وقال **النُّعمانُ بنُ حارثة** : « أبايعُ ٱلله يا رسولَ ٱلله ، وأبايعك علىٰ الإقدام في أمر ٱلله ، لا أراقب فيه القريب والبعيد ، فإنْ شئتَ وٱلله يا رسولَ ٱلله مِلْنا بأسيافنا هـٰذه علىٰ أهل منىٰ ، فقال النَّبيُّ ﷺ : « لم أومرْ بذلك » .

وقال **عبادةُ بنُ الصَّامت** : « أبايعك يا رسولَ ٱلله علىٰ أن لا تأخذني في ٱلله لومة لائم » .

وقال **سعدُ بنُ الرَّبيع** : « أبايع ٱلله يا رسولَ ٱلله ، وأبايعك علىٰ أن لا أعصيكما ، ولا أكذبكما حديثاً » . « دلائل النُّبوَّة » للأصبهانيّ (١ / ٤٠٤ ـ ٤٠٥) بتصرُّف يسير .

قالوا : هٰذا لك ، فما لنا ؟

قال ﷺ : « الجنَّة » .

قالوا : ابسطْ يَدكَ »[1] .

أسعدُ يبايعُ بيعةَ النِّساء :

* في البداية سنقرأ هٰذه الهمسةَ الخفيفةَ ، ثمَّ نجملُ حديث بيعة النِّساء :

في الموسمِ الثَّاني أتىٰ للمصطفىٰ وفْدٌ جديد
جاؤوا إليه منَ المدينةِ ذلك البلد الفريد
كي يلتقُوا بالمصطفىٰ وليسمعُوا منه المزيد

* دارَ عامٌ بعد عودةِ هٰؤلاء الرِّجال الأخيار ، نشروا خلاله ذكْرَ الحبيب المصطفىٰ ﷺ في بلدهم ، وبين أهليهم وذويهم ، حتَّىٰ إذا حان موعدُ الحجّ ، خرجَ منهم اثنا عشَرَ رجُلاً من قبيلتَي الأوس والخزرج ، وكان سيِّدنا أسعد الخير من بينهم ، وكانوا مُتلهّفين لذاك اللقاء الخالد مع النَّبيِّ الكريم الخاتم محمَّد ﷺ ، وبردت لهفتهم في لقائه بالعقبة ، وهي العقبةُ الأولىٰ ، فجلسوا بحضرته الشَّريفة ، واستمعوا إلىٰ كلماته الأليفة ، وتلا عليهم شيئاً من آيات ٱلله اللطيفة ، فأدركوا معانيها المنيفة ، وفهموا مراميها الظَّريفة ، فازدادوا إيماناً مع إيمانهم ، وبايعوا رسولَ ٱلله ﷺ علىٰ بيعة النِّساء ، وسميت بيعة النِّساء ؛ لأنَّها خَلَتْ من ذكر الجهاد في سبيل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وعادوا إلىٰ المدينة غانمين أعظم غنيمة ؛ إذ إنَّهم فازوا بمرضاةِ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ومرضاةِ رسوله ﷺ ؛ فهنيئاً لهم بهٰذه الغنيمة العظيمة .

---

(١) « الاستبصار » (ص : ٥٦ ـ ٥٧) . ومعنىٰ قوله « عيوناً » : للعين معان كثيرة ، والمعنىٰ هٰهنا : مَنْ يتجسس الأخبار . و« المواساةُ من ذات أيديكم » : المساواة في المعاملة بين المهاجرين والأنصار ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ .

* ولنقرأ هٰذه الأنفاسَ العطرةَ ؛ التي تصوِّرُ بيعةَ العقبة الأولىٰ في مكَّة المكرمة ، ونرتوي من ريّاها الفُراتية الثَّرة :

الوفدُ قد وصَلُوا لمكَّةَ للقاء مع الرَّسُول
الشَّوقُ يحدوهم لقد جاؤوا سِراعاً لِلْمثُول
قد أشرقَ الإيمانُ في أعماقِهم قبلَ النُّزول
في أرض مكَّة قد أناخوا إبلهم عند الوصول
يتشوَّقُون لرؤيةِ الهادي فَمَا فيهم جهول
المصطفىٰ قد جاءهم في السِّرِّ عن عينِ الفُضول
جلسوا إليه وكلُّهم سَمْعٌ وفَهْمٌ للأصول
سمعُوا كلاماً مُشْرِقاً إذْ تستنيرُ به العقول
قد آمنوا باللهِ ربّاً واحداً لا لنْ يزول
قد بايعوا الهادي فكانت بيعة فيها السُّهول
هي بيعةُ النّسوان لا تدعو إلىٰ دقِّ الطبول
صاروا هم النُّقباء في الأنصار هم أهلُ الحلول
قد فُضِّلُوا في قومهم بالسَّبق للدِّين العدول
عادوا ليثربَ غانمين لقد أصابوا في الميول

مصعبُ الخير في رحَاب أسعدِ الخير :

* كانت بيعةُ النِّساء [1] للأنصار اللبنة الأولىٰ في مسير الرِّسالةِ المحمَّديَّةِ إلىٰ المدينة المنوَّرة ، فقد كان لقاءُ رسول ٱلله ﷺ مع الأنصار لقاءً مثمراً ، حيث استعدَّ هٰؤلاء الأخيار أنْ يؤوهُ ويحموهُ حتَّىٰ يبلِّغَ رسالة ربِّه التي منعته جبابرة الكفرة من قريش من تبليغها للنَّاس .

---

(١) اقرأ كتابنا « بيعة النِّساء في القرآن والسِّيرة » طبعة دار اليمامة ، ففيه فوائد قيّمة ، وإشارات مهمّة في هٰذا المجال الكريم .

* استبشر الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ ببيعةِ النِّساء ، ولقاءِ الأنصار ، واستيقن أنَّ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ناصرُهُ ، ومنجزٌ له وعده ؛ لأنَّه جلَّ شَأْنه جعل له أنصاراً مخلصين أشدّاء حينما يحمرُّ البأسُ ، وتشتجرُ الرِّماحُ ، وتشتبك السّيوفُ .

* ولمَّا انصرف القومُ من العقبة ، بعث معهم الحبيب المصطفىٰ ﷺ مصعبَ بنَ عُمير العبدريّ ، وأمره أنْ يقرئهم القرآن ، ويعلِّمهم الإسلام ، ويفقههم في الدِّين .

* ذكر البيهقيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « دلائله » هٰذا الأمرَ فقال : « بعث رسولُ ٱلله ﷺ مصعبَ بن عمير مع النَّفر الاثني عشر الذين بايعوه في العقبة الأولىٰ إلىٰ المدينة يفقِّه أهلَها ، ويقرئهم القرآن »[1] .

* كان سيِّدنا مصعبُ الخير ينزلُ في المدينة المنوَّرة علىٰ أسعد الخير أبي أمامةَ ، وكان مصعبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ يسمَّىٰ بالمدينة المقرئ ، وكان أبو أمامة يذهبُ بمصعب إلىٰ دور الأنصار ، يدعوهم إلىٰ الإسلام ، وتفقيه مَنْ أسلم منهم .

* لزم مصعبٌ أسعدَ بن زرارة يقيمُ معه في منزله ، ويتساندُ معه في الدَّعوة إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، يدخلُ به أسعدُ بنُ زرارة دورَ الأنصار الذين آمنوا بٱلله ربّاً ، وبمحمَّدٍ ﷺ نبياً ورسولاً ، ويذهبُ به إلىٰ مجتمعاتهم يصلِّي بهم إماماً ، ويعلمهم شرائع الإسلام ، ويتلو عليهم القرآن ، ويدعو من لم يكنْ قد أسلم وغدا من عباد الرَّحمٰن .

* كان الخيِّران أسعدُ ومصعبٌ ـ رضي ٱلله عنهما ـ يخطَّان مِدادَ الإيمان والتُّقىٰ في صحائف نفوس الأنصار ، ويعملان ما بوسعهما علىٰ توسيع دائرة الدَّعوة إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ في محيط المدينة المنوَّرة وأرجائها .

---

(١) « دلائل النُّبوَّة » (٢ / ٤٣٨) .

* إنَّ أسعدَ ومصعباً روضا فَضْل وبَيَان ، فيهما من الفضْل عينان تجريان ، وبَحْرا مجدٍ يحفُّهما مرجان ، ويخرجُ منهما اللؤلؤ والمرجان ، سُقيا بماء المكارم ، وشِيبا برحيق العظائم ، فرضي الله عنهما وأرضاهما .

* وكان لأبي أمامةَ أسعد الخير ـ رضي ٱللهُ عنه ـ نظرةٌ ودرايةٌ في قومه ، فكان يأخذُ بيد مصعب إلىٰ نوادي الأنصار ؛ ليدعوهم إلىٰ العزيز الغفَّار ، ويتلو عليهم القرآن الكريم ؛ بصوته النَّدي الرَّخيم ، ويجيبُهم عن تساؤلاتهم حول الإسلام والدِّين القويم ، ويأخذُ بأيديهم إلىٰ يَنْبُوعِ الخير العميم ، ومفازة النَّجاة ودرب النّعيم . وكان أسعد ـ رضوان ٱللهِ عليه ـ لا يتوقَّف عن الدَّعوة إلىٰ ٱللهِ أيضاً ، فقد أُشْربتْ روحُهُ ومشاعره محبَّة الإسلام ، ونبيّ الإسلام ، وأحبّ مصعباً حبّاً شديداً لحصافته وصبره علىٰ الأنصار ، وتأنِّيه المُتَّزن في الدَّعوة الممزوجة بالحبِّ إلىٰ ٱللهِ تعالىٰ ، فمصعب الخير من أفراد الدُّعاة المهديين الذين رضعوا لبان التَّهذيب ، وشربوا ريَّ التَّربية المحمَّديَّة ، فنجحوا في سعيهم ، وكان مصعب معلِّماً مقرئاً لطيف المعشر ، داعياً إلىٰ الخير بأسلوب الخير ، فدخل علىٰ يديه من أهل المدينة أعدادٌ مشرفةٌ ، وأفواجٌ كريمةٌ ، وجدت فيما يدعو إليه مصعب متعة ولذّة وحياة جديدة جميلة ، فقد اكتشف الأنصارُ حياتَهم من جديد ، رأوها تتبدّل ، ورأوا آفاقهم تتسع ، وأمورهم تستقيم ، ونفوسهم تتغيّر ، وأعمالهم تتحوّل إلىٰ أعمال هادفة مفيدة .

* ومع هٰذه الإشراقاتِ المنيفة ، كان سيِّدنا أسعد بن زُرارة ـ رضي ٱللهُ عنه ـ قد جعل من داره مركزاً للدّعوة إلىٰ ٱللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فهي الدَّارُ المباركةُ الأولىٰ التي سرتْ منها همَساتُ الإسلام ، حتَّىٰ صارت نغماً سرياً يلامسُ أسماعَ المؤمنين ، ويصافحُ أفئدتهم . كما أنَّ سيِّدنا أسعد بن زرارة ـ رضي ٱللهُ عنه ـ قد جعل بيته مقراً لسيِّدنا مصعب ، يأوي إليه ، ويأكلُ عنده ، ويسمرُ في الليالي معه دالاً إيَّاهُ علىٰ مفاتيح الرِّجال ، وسراةِ الأنصار ، وبهٰذا التَّصرُّف العمليّ يضرب سيِّدنا أسعد مثلاً كريماً في التَّضحية ، وتحمّل المسؤوليَّة ،

وصورة عمليَّة لصدق إيمانه ، وترجمة واضحة لوفاء بيعته لرسول ٱلله ﷺ ، وبذلك قدم هٰذا المحبّ ما يقدر عليه من أشياء معنويّةٍ وماديّةٍ لنجاح الدَّعوة ، وتسهيل مهمَّة مصعب في المدينة المنوَّرة .

* كان سيِّدنا أسعد بن زرارة ـ رضي ٱلله عنه ـ مثالاً يُحتذىٰ لصدق عهده وبيعته الوفيَّة ، وصدق عطائه في سبيل الدّعوة إلىٰ الحيّ القيّوم ، وخلاصة لهٰذا الجهد من الدَّاعيتَيْن الخيِّرَيْن أسعد الخير ، ومصعب الخير ، ونتيجة لإخلاصهما وطوافهما وهما يسعيان في سبيل ٱلله من بيتٍ إلىٰ بيت ، ومن محلّةٍ إلىٰ أخرىٰ ، ومن عشيرة إلىٰ عشيرة ، ومن قبيلة لقبيلة ، بلغت الدَّعوةُ الأسعديّةُ المصعبيّةُ إلىٰ ٱلله جميع أهل المدينة ، وفشا الإسلامُ ، وانتشر رذاذه في نفوس النَّاس ، وبدأت ثمار أعمال أسعد ومصعب تُؤتي أكلها ، فقد أقام مصعب بمعونة أسعد أوّل صلاة جُمُعةٍ في المدينة ، وكان قوامها أربعين رجلاً ، وظلَّ طيف هٰذه الصَّلاة يراود مخيِّلة كثيرين ممّن صلّوها من رجال الصَّحابة من الأنصار الخزرجيين .

* أخرج البيهقيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ بسنده عن عبد الرَّحمٰن بن كعب بن مالك قال : « كنتُ قائدَ أبي حين كُفَّ بصره ، فإذا خرجتُ بهِ إلىٰ الجمعة ، فسمع الأذان بها ، استغفر لأبي أمامةَ أسعد بن زرارة ، فمكثتُ حيناً أسمعُ ذلك منه فذكرتُ ذلك له ، فقال : أي بُنَيَّ ! كان أسعدُ أوَّلَ مَنْ جَمَّعَ بنا بالمدينة ، قبل مقدم النَّبيّ ﷺ في هَزْمٍ من حرة بني بياضة في نقيع الخضِمات .

قلتُ : وكم أنتم يومئذ ؟

قال : أربعون رجلاً »[1] .

---

(١) « دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (٢ / ٤٤١) ، وانظر : « السيّرة النّبويّة » (١ / ٤٣٥) ، و« البداية والنّهاية » (٣ / ١٥١) ، و« الاستيعاب » (١ / ٥٩) ، وغيرها .
و« هَزْم » : الهَزْم : ما اطمأنّ من الأرض وانخفض ، وهٰذا الموضع في المدينة لبني النّبيت من حرّة بني بيّاضة . و« نقيع الخضِمات » : الخضيمة : النَّبات النَّاعم =

اصْـــدُقِ اللهَ فيـــهِ :

* كلمةُ حقٍّ وصدقٍ وفراسة قالَها سيِّدنا أسعدُ بنُ زُرارة لسيِّدنا مصعب ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، هـٰذه الكلمة كانت فتحاً مبيناً أعزَّ اللهُ من خلالها الأنصـار ؛ إذ أسلـم سيِّـدا الأوس : أُسيـدُ بـنُ الحضيـر ، وسعـدُ بـن معاذ ـ رضي ٱلله عنهما ـ .

* كان ذلك عندما خرج سيِّدنا أبو أمامة من بيته ذات يوم ضحكت فيه الأزهار ، وغرَّدت فيه الأطيارُ ؛ وصحب ضيفَه الحصيفَ النَّبيل مصعب بن عمير ، ودخل الخيِّران أسعد ومصعب بستاناً من بساتين بني عبد الأشهل من قبيلة الأوس ، وكان زعيم الأوس يومذاك : سعد بن معاذ ، وأسيد بن الحضير ـ وكلاهما مشرك علىٰ دِيْنِ قومه ـ .

* جلس أُسيدٌ ومصعبٌ عند بئر داخل البستان ، فاجتمع حولهما بعض الرِّجال ، وأخذ سيِّدنا مصعب ـ رضي ٱلله عنه ـ يتحدَّثُ عن دين الإسلام ، وسماحته ، وسموه ، ومن ثمَّ شرع يتلو علىٰ سمع الرِّجال المتحلِّقين بجواره آيات من القرآن الحكيم والذِّكر المبين ؛ وعرف السَّيِّدان الكريمان سعد بن معاذ ، وأسيد بن الحضير أنَّ أبا أمامة وضيفَه يتحدَّثان مع الرِّجال عن شيء مهمّ ، وقد اجتذبا إليهما القلوب والأسماع ، وقد رجح لديهما أنَّه بعضُ الحديث عن الدِّين الجديد الذي ملأت أصداؤه المدينة ومَنْ حولَها من البقاع .

* ومن الجدير بالذِّكر أنَّ أبا أمامة أسعد بن زرارة كان ابن خالة سعد بن معاذ ، لذلك طلب سعد من أسيد بن الحضير أنْ يذهبَ إلىٰ أسعد ومصعب

= الأخضر . والخضيمة أيضاً : الأرض النَّاعمة النَّبات ، جمعوها علىٰ خضمات ؛ كأنَّهم أسقطوا الياء تخفيفاً ؛ لكثرة الاستعمال . قال النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللهُ : « نقيع الخضمات » : قرية بقرب المدينة علىٰ ميل من منازل بني سلمة » . وقال السَّمهوديّ رَحِمَهُ ٱللهُ : « ورأيتُ في منازلهم بالحرّة أماكن منخفضة يستنقع فيها ماء السَّيل » . وٱلله أعلم بالصَّواب .

ليزجرهما عمَّا هما فيه وقال له : « انطلْق إلىٰ هـٰذَيْن الرَّجُلَيْن اللذين قد أتيا دارينا ليسفِّها ضعفاءنا ، فازجرهما ، وانههما من أنْ يأتيا دارينا ، فإنَّه لولا أنَّ أسعدَ بنَ زُرارة مني حيث قد علمت كفيتُكَ ذلك ، هو ابنُ خالتي ولا أَجِدُ عليه مقدّماً » .

* استجاب أُسيدُ بنُ الحضير للرَّغبة السَّعديَّة ، فاشتمل علىٰ حربته ، ثمَّ أقبل يمشي نحوهما ، وهو يفكِّر كيف يصرفهما عن الرِّجال ، ويضعضع هـٰذا التَّجمُّع الذي لم يرغبْ به سعد بن معاذ ، كان أسيد يمشي وعلامات الغضب ترتسمُ علىٰ وجهه ، وتترجم شيئاً من حركاته وخطواته ، وبصرَ به أسعدُ بنُ زرارة علىٰ تلك الهيئة ، لـٰكنَّه سبر أغواره ، وعرف من أين تؤكل الكتف ، ورأىٰ أنَّ أسيداً هو صيدٌ ثمين ، وكنزٌ عظيم إنِ استطاع مصعب أنْ يستميلَه ، ويستخرجَ درر أعماقه ، فإنَّه سيكون مفتاح كنوز لا نهاية لها . والتفت سيِّدنا أسعد إلىٰ سيِّدنا مصعب ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، وهمس في أذنه همسةً دافئةً كانت بداية خير للبشريَّة في مجتمع المدينة المنوَّرة ، قال لمصعب : « يا صاحبي ! هـٰذا سيِّد قومه ، وقد جاءك فاصدقِ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه » . فأجابه مصعبٌ في هدوءٍ وصفاء : « يا أبا أمامة إنْ يجلسْ أكلِّمْهُ » .

* ترىٰ ماذا صنع أسيد بن الحضير ؟ وعمَّ أسفر هـٰذا اللقاء الأسعديّ المصعبيّ الأسيديّ ؟ هـٰذا ما سنعرفه بعد أن نقتطفَ ثماراً يانعة من هـٰذه التَّغريدة الدَّانية التي تتحدَّثُ عن أسعد ومصعب وجلوسهما في البستان ، ومجيء أسيد إليهما :

خرجَ المُضيفُ بضيفِهِ يدعو إلىٰ دينِ الكمال
جاءا لبستانٍ تلاقوا فيهِ مع بعضِ الرِّجال
فوراً دعاهم مصعب أنْ يسمعوه بلا قتال
فَتَلا عليهم منْ كلامِ اللهِ يسمو بالجَمال
سعدٌ ومعه أُسيد كانا جَالسَيْن وفي جلال

قَــد كــان سعــدٌ سيِّــداً لــلأوس أبطــالِ النِّضــال
وابــن الحُضَيــر صــديقــه بــل صنــوه فــي كــلِّ حــال
هٰــذا أُسيــد جــاء يمشــي نحــو مصعــبَ بــاختيــال
قــد كــان يحمــلُ رمْحــه مــن خيــرِ أنــواع النِّصَــال
فــرآه أسعــدُ مقبــلاً فــي وجهــه قَــوْلٌ يُقَــال
همــسَ المضيــفُ لضيفــه هيــا تهيَّــأ للمقــال
هــا قــد أتــانــا سيِّــدٌ فــي قــومــهِ يبغــي السُّــؤال
فــاصــدقْ إلٰهــكَ فيــه تَلْــقَ الاستجــابــة لا جــدال

* وصدق سيّدنا مصعب اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ في أُسيد ، فأعلنَ إسلامه ، ثمَّ أسلم مِنْ ورائه سعد بن معاذ [1] ، ومن ورائهما أسلم الأشهليُّون عن بكْرةِ

---

(١) أخرج البيهقيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « دلائله » من رواية موسىٰ بن عقبة قال : « . . . فبينما مصعبُ بنُ عمير يحدِّثهم ، ويقصُّ عليهم القرآن ، أخبر بهم سعد بن معاذ ، فأتاهم في لأْمتِهِ معه الرّمح ، حتَّىٰ وقف عليهم ، فقال لأبي أمامة : عَلاَم تأتينا في دورنا بهٰذا الوحيد الغريب الطَّريد ، يُسَفِّه ضعفاءنا بالباطل ، ويدعوهم إليه ، لا أراك بعدها تسيءُ من جوارنا ، فقاموا ورجعوا ، ثمَّ إنَّهم عادوا مرَّةً أخرىٰ لبئر بني مَرْقٍ أو قريباً منها ، فذكروا لسعد بن معاذ الثَّانية ، فجاءهم فتواعدهم وعيداً دون وعيده الأوّل ، فلمَّا رأىٰ أسعد بن زرارة منه ليناً قال له : يا بن خالة ! استمع من قوله ، فإنْ سمعتَ منكراً فاردده بأهدىٰ منه ، وإنْ سمعته حقّاً ، فأجب إليه .

فقال سعدُ بنُ معاذ : ما أسمع إلا ما أعرف ، فرجع سعد بن معاذ وقد هداه ٱلله ، ولم يظهرْ لهما إسلامه ، حتَّىٰ رجع إلىٰ قومه ، فدعا بني عبد الأشهل إلىٰ الإسلام ، وأظهر لهم إسلامه وقال : مَنْ شكَّ منكم فيه فليأت بأهدىٰ منه ، فوالله ِلقد جاء أمرٌ لَتُحَزَّنَّ فيه الرِّقاب ، فأسلمت بنو عبد الأشهل عند إسلام سعد بن معاذ ودعائه ، إلا من لا يذكر ، فكانت أوَّل دار من دور الأنصار أسلمت بأسرها .

ثمَّ إنَّ بني النَّجَّار أخرجوا مصعب بن عمير ، واشتدّوا علىٰ أسعد بن زرارة ، فانتقل مصعبُ بنُ عمير إلىٰ سعدِ بنِ معاذ ، فلم يزلْ عنده يدعو آمناً ، ويهدي اللهُ علىٰ=

أبيهم ، ببركة صِدْقِ الخيّريْن أسعد ومصعب ـ رضي ٱلله عنهما ، وحشرنا في معيّتهما ـ .

أسعدُ في بيعة العقَبة الكُبْرىٰ :

* عمل سيِّدنا أسعدُ وضيفُه مصعب ـ رضي ٱلله عنهما ـ علىٰ نشْرِ الإسلام في ربوع المدينةِ المنوَّرة ، وشدَّ من أزرهما في هـٰذا العمل الميمون بقية النَّفر الذين بايعوا النَّبيّ ﷺ علىٰ أنْ يمنعوه إذا قدم عليهم المدينة ، وكان أبو أمامة أسعدُ بنُ زُرارة أصغرَهم سِنًّا ، وكان أسعدُ العضدَ القويَّ لمصعب ، فقد اختاره مصعبٌ ونزلَ عليه ، فأحسنَ نُزُلَه وأكرمَه إكراماً عظيماً ، ونصره نَصْراً مؤزَّراً ، فكان يتَنَقَّل به بين دور الأنصار ، ويلفتُ نظره إلىٰ كُبراء القوم ، ومن لهم الحلّ والعقد ، وكان السَّبب المباشر في إسلام بني عبد الأشهل جميعهم ؛ إذ أسلم رئيسُهم سعدُ بنُ معاذ ودعاهُم إلىٰ الإسلام والنَّجاة فاستجابوا له وأطاعوه ، ونعموا بالإسلام وغدوا من جنْدِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ؛ وأنصار رسوله ﷺ .

* « وأدرك مصعبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ ومَنْ معه من المؤمنين أنَّ أفقَ الحياة في يثرب قد عمَّه نورُ الهداية ، وأشرقت في مطالعه شمسُ الرِّسالةِ الخالدةِ ، وأنَّ الأرضَ التي يقفون فوقها وهم يحملون ألوية النَّصر قوية صلبة ، لا تسيخُ فيها قدم مؤمنة ، وأنَّ نسائمَ الأمل تسري من يثرب لتنعشَ النُّفوس التي أضناها الألم ، وأنَّ يثربَ تفتحُ ذراعيها مرحِّبةً بهجرة أولئك الذين يتقلَّبون علىٰ جمرِ المِحَنِ ، ويكتوون بسعير فادح البلاء ، وهم صابرون محتسبون ، يرجون رحمة اللهِ وفرَجهِ ، ويتطلّعون إلىٰ يثرب بعد بيعتَيْها اللتَيْن مهّدَتا لدعوة الإسلام

= يديه ، حتَّىٰ قلَّ دارٌ من دُورِ الأنصار إلا قد أسلم أشرافُها ، وأسلم عمرو بنُ الجموح وكسرت أصنامهم ، وكان المسلمون أعزَّ أهل المدينة ، ورجع مصعبٌ إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ ، وكان يُدْعىٰ المُقرئ » . « دلائل النُّبوَّة » (٢ / ٤٣١ ـ ٤٣٣) .

أرضاً خصبةً تنبتُ فيها الهداية ، ويثمرُ فيها الإيمان » [١] .

* جاء موسم الحجّ ، فقدم مصعبٌ إلىٰ مكَّةَ ، وخرجَ معه مَنْ أسلم من الأنصار ، وواعدوا رسولَ ٱللهِ ﷺ العقبة من أواسط أيَّام التَّشريق ، وكانوا بضعةً وسبعين رجلاً ، ومعهم امرأتان هما : نسيبةُ بنتُ كعب ، وأسماءُ بنتُ عمرو ، وكان مع حبيبنا المصطفىٰ ﷺ عمُّه العبَّاسُ بنُ عبد المطلب [٢] ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ ، وهو يومئذ لا يزالُ علىٰ دينِ قومه ، إلا أنَّه أحبَّ أنْ يحضرَ أمْرَ ابن أخيه رسول ٱلله ﷺ ويتوثَّق له ، فلمَّا جلس الحبيبُ المصطفىٰ الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ مع الأنصار كان أوَّل متكلِّم من الجَمْع المتحلِّق حوله العبَّاسُ بنُ عبد المطلِّب ـ رضوان ٱلله عليه ـ فقال يخاطبُ الأنصار : « يا معشرَ الخزرج ! إنَّ محمَّداً منَّا حيثُ علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممَّنْ هو علىٰ مثْلِ رأينا فيه ، فهو في عزَّة من قومه ، ومنعةٍ في بلده ، وإنَّه قد أبىٰ إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإنْ كنتم تَرَوْنَ أنَّكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممَّن خالفه ، فأنتم وما تحمَّلْتُم من ذلك ، وإن كنتم تَرَون أنَّكم مُسْلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنَّه في عزَّةٍ ومنعةٍ من قومه وبلده » [٣] .

* فقام الأنصارُ أجمعون بعزائم تدكُّ لقوتها الشُّم الرَّواسي وبايعوا الحبيبَ الأعظم ﷺ ، وأخذ بيدِهِ أسعدُ بنُ زُرارة ـ وهو أصغرُ السَّبعين [٤]

---

(١) « محمَّد رسول ٱلله » (٢ / ٣٩١) .

(٢) اقرأ سيرته مفصَّلة موسَّعة في الباب الأول من موسوعتنا : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ١٢٣ ـ ٢١٠) فسيرته تمتعُ الأسماع .

(٣) « السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٤٤١ ـ ٤٤٢) .

(٤) لاحظ سيِّدنا العبَّاس بن عبد المطلب ـ رضي ٱلله عنه ـ أنَّ شطراً من رجال البيعة كانوا شباباً ، لذلك لم يعرفْ بعضَهم ممَّا جعلَه يؤكِّدُ ويشدِّدُ في البيعة ، ومن الواضح أنَّ الشَّبابَ مصدرُ قوَّةِ الأمَّة ، ويَنْبُوعُ طاقتها الكامنة ، فإنْ صلح أمْر الشَّباب ، فإنَّ ذلك=

إلا جابر بن عبد ٱلله ـ ومن ثمَّ التفتَ إلىٰ الأنصار وخاطبَهم مُعلِّماً ومنبِّهاً وموثِّقاً ومفهِّماً فقال : « رويداً يا أهل يثرب ! إنَّا لم نضربْ إليهِ أكباد المطي إلا ونحنُ نعلمُ أنَّه رسولُ اللهِ ، إنَّ إخراجَه اليوم ـ أي : من بلده مكَّة المكرّمة وقومه ، إلىٰ بلدنا يثرب ـ وانحيازه إلينا مفارقةٌ للعرب كافَّة ، وقتْلُ خياركم ، وأنْ تعضّكم السّيوف ، فإمَّا أنتم قومٌ تصبرون علىٰ عضّ السُّيوف إذا مسّتكم ، وعلىٰ قَتْل خياركم ، وعلىٰ مفارقة العرب كافَّة ، فخذوهُ ، وأجركم علىٰ ٱلله ، وإمَّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفةً فذروه ، فهو أعذرُ لكم عند ٱلله عزَّ وجلَّ » .

فقال القومُ : « أَمِطْ يدكَ يا أسعدُ بنُ زرارة ، فوٱلله لا نذرُ هـٰذه البيعةَ ، ولا نُسْلَبها أبداً » .

قال سيِّدنا جابرُ بنُ عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنهما ـ : « فقمنا إليه ﷺ نبايعُهُ رجُلاً رجُلاً ، يأخذُ علينا شرطه ويعطينا علىٰ ذلك الجنَّة » [1] .

= يبشِّرُ بأمَّةٍ قويَّةٍ تريدُ أنْ تؤدِّيَ رسالتها الصَّحيحة في هـٰذه الحياة ، وإن فسدَ الشَّباب ، وتعلَّقت نفوسُهم بالآثام والخطايا ، والإمّعيّة ، كان ذلك مصدر تهديد للأمَّة التي تستوعبُ هـٰذه الشَّريحة الفاعلة العاملة .

ولهـٰذا حرص الإسلامُ حرصاً شديداً متميِّزاً علىٰ تربية الشَّباب تربيةً قويمةً علىٰ روح التَّضحية في سبيل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فإنَّ في ذلك العزّ والرّفعة ، وإذا ما ارتبطت قلوب الشَّباب بمحبَّة ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ونصرة دينه ، كان ذلك فوزاً عظيماً في الدُّنيا والآخرة ، وسيكون الشَّاب الذي ينشأُ في طاعة ٱلله تعالىٰ تحت ظلّه يوم لا ظلَّ إلا ظلّه ، وهـٰذا هو الرّبح الذي لا يدانيه شيءٌ ، نسألُ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يجعلَ شبابنا من النَّاشئين في ظلالِ طاعته ، وأنْ يوفِّقنا لعمل الخيرات .

وللمزيد من الإشراقات الباسمة ، والقبسات المفيدة ، اقرأ كتابنا : « الشَّباب مشْكلاتٌ وحلول » طبعة دار اليمامة ، تجد فائدة كبرىٰ بإذن ٱلله .

(١) انظر : « سبل الهدىٰ والرَّشاد في سيرة خير العباد » للصَّالحيّ (٣ / ٢٧٧ ـ ٢٧٨) بتصرُّف يسير جداً .

* وساق ابنُ إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ من حديث كعبِ بنِ مالك الأنصاريّ الشَّاعر قوله : « وقد كان قالَ رسولُ ٱلله ﷺ : « أخرجُوا إليَّ منكم اثني عشَر نقيباً ، ليكونوا علىٰ قومهم بما فيهم » فأخرجوا منهم اثني عشَر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس » [(١)] .

* وخرج من الأنصار الخزرجيين الأخيار كما يذكر ابن هشام التِّسعة النُّقباء وهم : أبو أمامة أسعدُ بنُ زُرارة ، وسعدُ بن الرَّبيع ، وعبدُ ٱلله بن رواحة ، ورافعُ بنُ مالك ، والبراءُ بنُ معرور ، وعبدُ ٱلله بنُ عمرو بن حرام ، وعبادةُ بنُ الصَّامت ، وسعدُ بنُ عبادة ، والمنذرُ بنُ عمرو ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ .

* كما خرج من الأوسيين الكرام : أسيدُ بنُ حضير ، وسعدُ بنُ خيثمة ، ورفاعةُ بنُ عبد المنذر ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين [(٢)] ـ .

* قال ابنُ إسحاق رَحِمَهُ اللَّهُ : « فحدَّثني عبدُ ٱلله بنُ أبي بكر : أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ قال للنُّقباء : « أنتم علىٰ قومكم بما فيهم كُفَلاء ككفالةِ الحواريين لعيسىٰ ابنِ مريم ، وأنا كفيلٌ علىٰ قومي ـ يعني : المسلمين » ـ ، قالوا : نعم » [(٣)] .

* وبهٰذه البيعة المباركة صار للنَّبيِّ ﷺ في الأنصار بيعتان مهمّتان ، الأولىٰ كانت تسمَّىٰ : « بيعة النِّساء » [(٤)] ، والأخرىٰ تُدعىٰ : « بيعة العقبة الكبرىٰ » .

---

(١) « السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٤٤٣) .

(٢) انظر : « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٠٠ ـ ٣٠١) بشيء من التّصرّف .

(٣) « السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٤٤٦) .

(٤) فصَّلنا القول في بنود هٰذه البيعة في كتابنا : « بيعة النِّساء في القرآن والسِّيرة » (ص : ١١٥ ـ ٢٤٨) .

* وما أجمل أن نميلَ قليلاً إلىٰ هٰذه الدَّوحة الأدبيَّة نستجمُّ من خلالها أحداث بيعة العقبة الكبرىٰ التي تحتويها هٰذه الطَّاقات المزهرة المندَّاة بالحبِّ :

لقد انتهىٰ العبَّاسُ من تحذيره عند اللقاء
فلقد أرادَ من الرِّجال بأنْ يكونُوا أوفياء
يخشىٰ علىٰ خيرِ البريَّة أنْ يُصَاب وأن يُسَاء
قالوا سمعنا ما تقولُ وسوف نعطيه الفداء
هيا تكلَّمْ يا رسولَ اللهِ واطلبْ ما تشاء
خُذْ ما تشاءُ من العهود فإنَّنا أهلُ الوفاء
بدأ النَّبيُّ يرتِّلُ القُرآن في صوت الصَّفاء
ودعا الرِّجال مرغِّباً في الدِّين والدُّنيا سواء
بعد التِّلاوة قال في صدقٍ أريدُ الاحتماء
أرجو الحمايةَ كيفما تحموا الذَّراري من عداء
قالوا فإنَّا أهلُ حربٍ حين يشتدُّ البَلاَء
ولسوفَ نوفيكَ العهودَ وسوفَ نعطيك الولاء
لمَّا اطمأنَّ إلىٰ المقالة قال أينَ الكُفَلاء
قد أَخْرجُوا عشراً واثْنَيْن اصطفوهم نقباء
وهناك تمَّتْ بيعةٌ كبرىٰ تُباركها السَّماء
قد صار فيهم بيعتان فَنِعْمَ قوماً أتقياء
هي هٰذه والبيعةُ الأولىٰ فكانت للنِّساء [1]

* كانت ليلةُ البيعة في العقبة ليلةً ميمونةً ، وكان القمرُ يبعثُ أشعَّتَه

---

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٣٩٠) ، و« معنىٰ قوله : « وسوف نعطيه الفداء » : نحميه ونفديه . و« الذَّراري » : الأولاد والنِّساء والأموال . و« أين الكفلاء » : الكفيل هو المسؤول عمن كفله ، والمقصود بهم هنا النُّقباء .

الفضّيَّةَ علىٰ مِنىٰ وجبالها فيكسوها بأثوابٍ من لجينٍ إلـٰهي ، وكانت العقبةُ حينذاك غارقةً في الضَّوء ، ولـٰكنَّ النُّور الذي انسفح من قُلوب الأنصار ومن صدورهم كان يبهرُ كلَّ ضياء ، ولا ريب ، فقد كانوا علىٰ نورٍ من ربِّهم ، قد دنوا من السَّماء ، وإن كانت أقدامهم ثابتةً في الأرضِ .

* كان هـٰؤلاء المبايعون في العقبةِ علىٰ علمٍ بأنَّ ساعةَ بيعتهم للحبيب المصطفىٰ ﷺ هي أجملُ ساعات حياتهم وأخطرها ، ولـٰكن لم يخطرْ لأحدٍ منهم علىٰ قلب أنَّ تلك اللحظة كانت أخطر لحظةٍ في تاريخ البشريَّة ، إنَّها طلائعُ النُّور الذي سيبددُ ظلمات الصُّدور ، إنَّها يَنْبُوع الاستنارة الذي سيتدفَّقُ بالخير ليغسلَ أدران النُّفوس ، إنَّها كنوزُ الرَّحمة والصَّلاح ، إنَّها خزائنُ الملكوت قد فُتِحتْ للنَّاس ، إنَّها الحريةُ المتعالية ، إنَّها إشراقُ الوجود ، وبدايةُ طريقِ كرامةِ الإنسان ، والصِّراط المستقيم للعالمين .

* تٱلله لقد ربحَ بيعُ أسعد بن زُرارة ، وربح مبايعو العقبة ، فنالوا منازل السُّعداء ؛ عند خالق الأرض والسَّماء .

حفَاوتُـهُ بالنَّبيِّ صلىٰ ٱلله عليه وسلم :

* تلقَّت المدينةُ المنوَّرة هجرةَ الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ بحفاوة منقطعة النَّظير ، فقد ازدانت وأضاء منها كلّ شيء ، حتَّىٰ إنَّ الخدم والصِّبيان قد اجتمعوا أمامه ﷺ يرفعون أصواتهم بالتَّكبير والتَّبشير بمقدمه الشَّريف ، وأمره المنيف ، وهم يقولون : « اللهُ أكبر ، جاء رسولُ ٱلله ، جاء محمَّد » والحبشةُ تسيرُ أمامهُ تلعبُ بحرابها .

* ولمَّا نزلَ ﷺ في محلٍّ من محلات بني النَّجَّار ، قال : « ربِّ أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خيرُ المنزلين » قالها أربع مرَّات ، وقال : « هـٰذا إنْ شاء اللهُ يكون المنزل » ، فتقدَّم إليه أبو أيّوب الأنصاريّ الخزرجيّ ، وقال له : « ائذن لي أنْ أنقلَ رحلك » ، فأذِنَ له ﷺ ، فحمل أبو أيوب رحله ، فوضعه في بيته .

* وجاء الصَّحابيُّ النَّبيلُ الشُّجاع أسعدُ بنُ زُرارة ، فأخذ بزمام راحلة النَّبيِّ ﷺ ، فكانت عنده .

* وجعل بنو النَّجّار يتحفون الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ بالطَّعام ، ويتناوبون في حمل الطَّعام إليه ، وهو مقيمٌ في منزل أبي أيوب الأنصاريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ . وأوّل طعام جيءَ به إليه : قصعة أمّ زيد بن ثابت ـ رضي ٱلله عنها ـ . واسمها : النّوّار بنت مالك الأنصاريّة [1] .

* روىٰ زيدُ بنُ ثابت ـ رضي ٱلله عنه ـ هـٰذا الخبر الذي يسفر عن جُودِ الأنصار وسخائهم وحفاوتهم بالنَّبيِّ ﷺ ، ومنهم : أمُّه النّوارُ بنتُ مالك ، وسعدُ بنُ عُبادة ، وأسعدُ بنُ زرارة ، فيقول : « أوّلُ هديةٍ دخلَتْ علىٰ رسولِ ٱلله ﷺ في بيت أبي أيوب ، قصعة أرسلتني بها أمّي ، فيها ثريدُ خبز برّ بسمنٍ ولبن ، فوضعتُها بين يديه ، وقلتُ : يا رسولَ ٱلله ! أرسلت بهـٰذه القصعة أمّي .

فقال : « بارك اللهُ فيك ، وفي أمّك » .

ودعا أصحابه فأكلوا ، فلمْ أَرُم البابَ حتَّىٰ جاءت قصعةُ سعدِ بنِ عبادة ، ثريد وعراق لحم ـ عظم عليه لحم ـ وصارت تأتي إليه كلّ ليلة جفنتان : جفنةُ سعد بن عبادة ، وجفنةُ أسعد بن زُرارة . . . . » [2] .

* وبعد أن استقرَّ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ في المدينة المنوَّرة ، أمر بالمسجد أنْ يُبْنَىٰ في المكان الذي بركَتْ فيه ناقتُهُ ، وكان لغلامَيْن يتيمَيْن في المدينةِ في حجْرِ أبي أمامة أسعد بنِ زرارة ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وكان أسعدُ قد اتّخذه مسجداً يُصَلّي فيه بأصحابه ، ويُجمّع بِمَنْ حضره من المسلمين الجمعة

---

(1) اقرأ سيرة الصَّحابية السَّخيّة المضياف النّوّار بنت مالك الأنصاريّة في موسوعتنا : « نساء من عصر النّبوّة » (ص : ١٩٧ ـ ٢٠١) طبعة دار ابن كثير الثّالثة بدمشق عام (٢٠٠٣ م) ، فسيرتها تحمل كثيراً من عبقات الأنوار التي تشبه نسمات الأسحار ، في يوم ربيعي معطار .

(2) « الرِّسالة المحمَّديّة » (ص : ١٣٢) بشيء من التَّصرُّف .

قبل مقدم الصَّادق المصدوق ﷺ ، ويدلُّ علىٰ هـٰذا الأمر المهمّ حديث النَّوَّار بنت مالك أمّ زيد بن ثابت حيث أخبرت : « أنَّها رأت أسعدَ بنَ زُرارة قبل أن يقدمَ رسول ٱلله ﷺ المدينة ، يصلّي بالنَّاس الصَّلوات الخمس ، ويجمّع بهم في مسجدٍ بناه في مِرْبَدِ سهل وسهيل ابني رافع النَّجَّاريَّيْن ، قالت : فأنظرُ إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ لمَّا قدم صلّىٰ في ذلك المسجد ، وبَنَاهُ ، فهو مسجدُهُ اليوم »[1] .

* وإذا صحَّ حديثُ النَّوَّارِ بنتِ مالك ـ رضي ٱلله عنها ـ ، فكأنَّه ﷺ ، قد غيَّر مسجد أسعدبن زرارة ، وهدمَ بناءه ، وزاد فيه ، أو لعلَّه زادَ فيه من دون أنْ يهدمَ شيئاً لضيقِهِ عن المسلمين ، وهـٰذا لا ينافي ما ثبتَ في الصَّحيح عن بناء المسجد النَّبويِّ الشَّريف .

* أخرج الإمامُ البخاريّ في « صحيحهِ » عن عروةَ بن الزُّبير من حديث طويلٍ جاء منه قوله : « . . . فلبثَ رسولُ ٱللهِ ﷺ في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأُسِّسَ المسجد الذي أُسِّسَ علىٰ التَّقوىٰ ، وصلَّىٰ فيه رسولُ ٱللهِ ﷺ ، ثمَّ ركب راحلته ، فسار يمشي معه النَّاس ، حتَّىٰ بركت عند مسجد الرَّسول ﷺ بالمدينة ، وهو يصلِّي فيه يومئذٍ رجال من المسلمين ، وكان مربداً للتَّمر لِسُهيل وسَهْل غلامَيْن يتيمَيْن في حجْر أسعد بن زُرارة ، فقال رسولُ ٱلله ﷺ حين بركتْ به راحلته : « هـٰذا إن شاء اللهُ المنزل » ، ثمَّ دعا رسول ٱلله ﷺ الغلامَيْن ، فساومهما بالمربد ليتّخذه مسجداً ، فقالا : لا ، بل نَهَبُهُ لكَ يا رسولُ ٱلله ! فأبىٰ رسولُ ٱلله ﷺ أنْ يقبلَه منهما هبةً ، حتَّىٰ ابتاعه منهما ، ثمَّ بناه مسجداً ، وطفقَ رسولُ ٱللهِ ﷺ ينقلُ معهم اللبِن في بنيانه ويقول ـ وهو ينقلُ اللبن ـ :

هـٰذا الحِمالُ لا حِمالَ خَيبر ... هـٰذا أبرُّ ربّنا وأطْهَر

---

(1) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٩) ، وانظر : « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٠٢) .

ويقولُ :

اللهـــمَّ إنَّ الأجْـــرَ أجـــرُ الآخـــرة   فـــارحَـــمِ الأنصـــارَ والمُهَـــاجـــرة » [1]

---

(١) أخرجه البخاريُّ في مناقب الأنصار برقم : (٣٩٠٦) . ونلاحظُ من خلالِ ثنايا هـٰذا الحديث : أنَّ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ كان يشارك أصحابَه في إنشادهم الأراجيز ، ويرفعُ صوتَه ببعض مقاطعها وهزجها شحذاً لهممهم ، وإذهاب الملالة والسَّأم عنهم ، وتحبيب العمل إلىٰ نفوسهم ، وترغيباً لهم في أفضل الأعمال ، وأشرف منازل الخير والهداية والنّور ، وتشجيعاً لهم علىٰ مواصلةِ العمل في تأسيس وإنجاز ما يجمع كلمتهم ، ويؤكِّد وحدتهم ، وتقوية عزائمهم علىٰ المضي قدماً في إقامة منابع نشر الدَّعوة ، ولفت أنظارهم إلىٰ ما يجب أنْ تكون له الصَّدارة من الأعمال في حياتهم ، أمَّة تدعو إلىٰ الخير وتأمر بالمعروف ، وتنهىٰ عن المنكر ، هادية رائدة وقائدة للإنسانيّة في مستقبلها ، وتعويداً لهم علىٰ تحمّل المشاق ، وخوض غمرات الصّعاب في سبيل إقامة عظائم الأعمال ؛ لتكون هـٰذه العظائمُ هداياهم إلىٰ الحياة ، بعد أنْ أراهم ﷺ ذلك كلّه رأي أعينهم في مشاركتهم جميع ما يتطلّب البناء من عمل وجهد .

أمَّا ما تمثّل به النَّبيّ ﷺ من الرَّجز ، فإنَّ ابنَ شهاب الزُّهريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أفاد ما ملخّصه : « ولم يبلغنا أنَّ النَّبيّ ﷺ تمثّل بشعر تام غير هـٰذا البيت » . وهـٰذا صريحٌ في استجازة الزُّهريّ أنَّ النَّبيّ ﷺ يتمثّل ببيت من الشّعر كامل الوزن ، ولا يكون في ذلك معارضة لنفي الشِّعر عنه .

ومن الجدير بالذكر أنَّ إنشاد بيت من شعر شاعرٍ علىٰ الوجه الذي قاله الشَّاعر من تمام الوزن لا يدخلُ تحت المنفي في قوله تعالىٰ : ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ [يـٰس : ٦٩] ؛ لأنَّ المنفيَّ بها هو إنْشاءُ الشّعر لا إنشاده والتّمثّل به ، وفي ظلِّ هـٰذا الأمر نعلمُ أنَّ الآيَةَ الكريمةَ إنَّما جاءت لتنفي أنْ يكونَ النَّبيّ ﷺ شاعراً ، جاء بشعر أَنشأه كما ينشئ الشّعراء قصائدهم وشعرهم ومقطوعاتهم ، ثمَّ هل إنشاد بيت من الشِّعر والتَّمثُّل به ، يجعل من المنشد والمتمثِّل شاعراً ؟ هـٰذا ما لا يتوهّمه مَنْ له أدنىٰ إلمام ومعرفة بالشِّعر وقوانينه ، والأدب وفنونه .

وقد أفاض كثيرٌ من العلماء والمحدّثين في هـٰذا الأمر وتحدثوا عنه في =

رحلـــةُ الخُــلُود :

* لا ريب في أنَّ الموتَ هو نهاية كلِّ حيٍّ في هـٰذه الحياةِ الدُّنيا ، ولا مفرَّ منه ، ولا بدَّ أنْ يذوقَه كلّ مَنْ عليها مهما كان أمره وشأنُه ؛ وكان أوّل مَـنْ ذاق كـأس المـوت بعـد وصـول رسـولِ ٱللهِ ﷺ إلـىٰ المـدينـة أسعـدُ بـنُ زُرارة ـ رضي ٱلله عنه ـ ، أثناء بناء المسجد النَّبويّ الشَّريف ، وقد تألَّم رسولُ ٱلله ﷺ لموته كثيراً ، بل إنَّ الحبيبَ الأعظمَ ﷺ كَرِهَ موت صاحبه أبي أمامة في ذلك الوقت ؛ لأنَّ اليهودَ الأخابثَ سوف يطلقون الشَّائعاتِ المُغرضةَ ؛ والأقاويلَ الممرضةَ ويزعُمون بأنَّ محمَّداً ﷺ شؤمٌ علىٰ أصحابه ، وسوف يساعدهم علىٰ ترديد شائعاتهم أخابثُ المنافقين لذرِّ الرَّماد في العُيون ، وتقويض ما يبنيه المسلمون من مجدٍ مؤثّل كان غصَّة في حلاقيم اليهود والمنـافقيـن ، لـذلـك قـال الحبيـبُ الأعظـمُ ﷺ : « قَـاتَـلَ اللهُ يهـود ، يقولون : لولا دفَعَ عنه ، ولا أملكُ له ولا لنفسي شيئاً ، لا يلوموني في أبي أمامةَ » (1) .

= مصنَّفاتهم ، ومنهم ابن حجر رَحِمَهُ ٱللهُ في « الفتح » فليراجعه مَنْ أراد الاستزادة من هـٰذا الأمر .

(1) ذكره ابن سعد رَحِمَهُ ٱللهُ في « الطَّبقات » (٣ / ٦١٠) . وأخرج ابن ماجه في الطِّبّ هـٰذا الحديث بسند عن محمَّد بن عبد الرَّحمـٰن أنَّ جده أسعد بن زرارة : « أخذه وجعٌ في حلقِهِ يُقال له الذُّبحة ، فقال النَّبيُّ ﷺ : « لأبلغَنَّ ، أو لأبلينَّ في أبي أمامة عذراً » فكواهُ بيده فمات . فقال النَّبيُّ ﷺ : « ميتةَ سوء لليهود ، يقولون : أفلا دفعَ عن صـاحبـه ؟ ! ومـا أملـكُ لـه ، ولا لنفسـي شيئـاً » . « سنـن ابـن مـاجـه » برقم : (٣٤٩٢) .

وقوله « الذُّبحة » : وجعٌ يعرض في الحلق من الدم . وقيل : هي قرحة تظهرُ فيه فينسد معها ، وينقطع النَّفس ، فَتَقْتُل . و« لأبلغنَّ أو لأبلين » : أي : واللهِ لأبالغنَّ في علاجه أقصىٰ درجات العلاج ، أو اختبرن حاله في العلاج . =

* وجاء في السِّيرة النَّبويَّة أنَّه ﷺ قال : « لَيَهُودُ ومنافقو العرب يقولون : لو كان نبياً لم يمتْ صاحبه ، ولا أملك لنفسي ولا لصاحبي من اللهِ شيئاً » [1] .

* وتطرّق ابن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ لوفاة أسعد فقال : « مات أسعدُ بنُ زُرارة في شوّالَ علىٰ رأس تسعة أشهر من الهجرة ، ومسجد رسول ٱلله ﷺ يومئذٍ يُبْنىٰ ، وذلك قبل بدر ، فجاءت بنو النَّجَّار إلىٰ رسول ٱلله ﷺ فقالوا : قد مات نقيبنا ، فنقِّبْ علينا ، فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « أنا نقيبكم » [2] .

* ونحا ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ نَحْوَ ابن سعد فقال : « لمَّا مات جاء بنو النَّجَّار إلىٰ النَّبيِّ ﷺ ، فقالوا : يا رسول ٱلله ! إنَّ أسعد قد مات وكان نقيباً ، فلو جعلْتَ لنا نقيباً .

فقال : « أنتم أخوالي ، وأنا نقيبكم » .

فكانت هـٰذه فضيلة لبني النَّجَّار » [3] .

* وقد كَرِهَ ﷺ أنْ يخصَّ بها بعضهم دون بعض ، فكان من فضل بني النَّجَّار الذي يعتدّون به علىٰ قومهم أن كان رسولُ ٱلله ﷺ نقيبهم .

* وقُبيل نهاية رحلة الأُنْس النَّاطقة بالمحاسن مع أسعد بن زُرارة ـ رضي ٱلله عنه ـ نأنسُ بهـٰذه الأدبيّات التي تتحدَّث عن موته ـ رضي ٱلله عنه ـ :

= وحاصله : أبالغُ في علاجه حتَّىٰ أبلغ عذراً من جانبي بحيثُ لا يبقىٰ لأحد في ذلك موقع كلام ومقال . و« ميتة سوء لليهود » : دعاء علىٰ اليهود أنْ يموتُوا ميتة السُّوء هـٰذه ؛ لأنَّهم سيقولون : أفلا دفعَ عن صاحبه . . . . .

(١) « السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٥٠٧) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٦١) .

(٣) « أسد الغابة » (١ / ٨٧) .

مِـــنْ أوّلِ الأمـــوات بعـــد وصـــولِ خَيـــرِ المـــرسليـــن
قـــد كـــان ذاك أَبـــا أُمـــامـــة مـــن خيـــارِ المسلميـــن
قـــد مـــاتَ أثنـــاء البنـــاء لمسجـــدِ الهـــادي الأميـــن
كَـــرِهَ النَّبـــيُّ ممـــاتـــه فـــي ذلـــك الـــوقـــتِ الثَّميـــن
سيكـــونُ هـٰـــذا قـــالـــةً عنـــد اليهـــودِ المفســـديـــن
ومنـــافقـــي العَـــربِ الـــذيـــن يســـودهُـــم حقْـــدٌ دفيـــن
سيكـــون قـــولُ الكُـــلّ منهـــم شـــامتيـــن وســـاخـــريـــن
لـــو كـــان صـــاحبـــه نبيـــاً لـــم يمـــتْ فـــي الميِّتيـــن
لـٰكـــنْ رســـولُ الله ِيبـــرأُ مـــن مقَـــال المفتـــريـــن
ويقـــولُ إنِّـــي دون شـــكّ خـــاتـــمٌ للمـــرسليـــن
لـٰكنّنـــي بشَـــرٌ أمـــام مشيئـــةِ القـــدر المبيـــن
قـــد قـــالَ قـــومُ أبـــي أمـــامـــةَ للنّبـــيِّ مُطـــالبيـــن
اجعـــلْ نقيبـــاً غيـــرَهُ منّـــا نكُـــنْ كـــالآخـــريـــن
قـــال الـــرَّســـولُ فـــإنَّكـــم أخـــوالُنـــا فـــي السَّـــابقيـــن
أفـــلا أكـــونُ نقيبكـــم قـــالـــوا قَبِلْنـــا مُـــرتضيـــن

* توفي أبو أمامة أسعدُ بنُ زُرارة بالمدينة المنوَّرة ، وكان له من الولد : حبيبة ، وكبشة ، والفُريعة ، وأمُّهنَّ عميرةُ بنتُ سهل النَّجّاريَّة ، وجميعهنَّ منَ المبايعات ، وكان أبو أمامة ـ رضي ٱلله عنه ـ قد أوصىٰ ببناتِه إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ ، وكنَّ ثلاثاً ، فكنَّ في عيالِ رسولِ ٱلله ﷺ ، يَدُرْن معه في بيوت نسائه ، وقدم مرةً علىٰ الحبيب المصطفىٰ ﷺ حَلْيٌ فيه ذهبٌ ولؤلؤٌ يُقالُ له : الرِّعاث ، فحلاهنَّ رسولُ ٱلله ﷺ من تلك الرّعاث ، وورَّثْنَه أولادهنَّ فيما بعد [1] .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٨ ـ ٦١١) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٠٣) مع الجمع والتَّصرُّف .

* ولمّا مات أسعدُ بنُ زُرارة ـ رضي ٱلله عنه ـ حضر رسولُ ٱلله ﷺ غسله ، وكفَّنه في ثلاثةِ أثواب منها بُرْد ، وصلَّىٰ عليه ، ورُئي ﷺ يمشي أمام الجنازة ، ودفَنَه بالبقيع ، وكان أوَّل مَنْ دُفِنَ من الأنصار بالبقيع ، ومن المهاجرين عثمان بن مظعون ـ رضي ٱلله عنه [1] ـ .

* رضي اللهُ عن أسعد بن زُرارة أبي أمامة ، وأسكنه الجنَّة دار المقامة .

✍ ✍ ✍

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦١١ ـ ٦١٢) بشيءٍ من التَّصرُّف .




أُسيدُ بنُ الحُضَير

رضي ٱللهُ عنه

* هو أحدُ السَّادات الكَمَلة ؛ ومن أصحاب الرّأي والفِراسة .
* لإسلامِهِ قصَّةٌ شائقةٌ ؛ وكان سبَبَ إسلام سعد بن معاذ .
* روىٰ أحاديث ؛ وله كراماتٌ جليّةٌ ؛ وأخبارٌ مع عمر بنِ الخطَّاب .






أُسَيْدُ بنُ الحُضَيْر
رضي ٱلله عنه

السَّيِّدُ الشَّريفُ :

* كان للإسلام ذِكْرٌ هامسٌ بين أهلِ المدينةِ ، ولرسولِ الله ﷺ متحدِّثٌ أشْبهُ بالرَّمز والإشارة ، يتحدَّثُ عنه مَنْ سمع بهِ ولم يَرَهُ ، فهو مشوقٌ لرؤيته وسماعِ حديثه ، ويتحدَّثُ عنه مَنْ رآه ولم يسمعْ منه فهو ريَّانُ الرَّغبة في سماعه .

* أخذ الهمسُ يرتفعُ شيئاً فشيئاً ، فكان بين القوم نغماً نديّاً ، وصوتاً سريّاً ، وكان ممّن ارتوىٰ بهٰذا الهمس سيِّدٌ شريفٌ ، وعاقلٌ حصيفٌ ، هو أسيدُ بنُ الحضير بن سماك ، أبو يحيىٰ الأنصاريّ الأوسيّ الأشهليّ (١) ، أحدُ النُّقباء الاثني عشر ليلة العقبة . كان أبوه شريفاً مُطاعاً يُدعىٰ : حُضَير الكتائب ، وكان رئيس الأوسِ في يوم بُعَاث (٢) . وهي آخر وقعةٍ بين الأوس

---

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٣ ـ ٦٠٧) ، و« أسد الغابة » (١ / ١١١ ـ ١١٣) ترجمة رقم : (١٧٠) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩١ ـ ٣٩٨) ، و« الاستيعاب » (١ / ٣١ ـ ٣٣) ، و« الإصابة » (١ / ٦٤) ، وغيرها كثير لا يُحصىٰ .

(٢) « بُعَاث » : موضعٌ في نواحي المدينةِ المنوّرة ، كانت به وقائعُ مذكورةٌ بين قبيلتَي الأوس والخزرج في الجاهليَّة ، وكان آخر أيامهم ، وقد لعبَ فيه حُضير الكتائب دوراً مهماً فعَّالاً ، أكسب قومه المعركة ، ثمَّ قُتِلَ يومئذ . وقد قيل في يوم بعاث شعرٌ كثيرٌ=

والخزرج في الحروب التي كانت بينهم ، وكان حضيرٌ قد ركَزَ الرّمح في قدمه وقال لأصحابه : « أَتَرَوْنَ أنّي أفرُّ ؟ » وقُتِلَ يومئذ ، وكان لمقتله صدًى واسعاً في نفوس الفرسان ، فقال خُفافُ بنُ نُدبة السُّلميّ يرثي حُضَيراً ، وكان قد مات من جراحه :

لو انَّ المنايا حِدْنَ عن ذي مهابةٍ لَهِبْنَ حُضَيراً يوم غلَّقَ واقما
يطوفُ به حتّىٰ إذا الليل جَنَّهُ تبوَّأَ منه مقْعَداً مُتَناغما [1]

* كانت هٰذه الوقعةُ الأوسيَّةُ الخزرجيَّةُ « بُعاث » آخرَ وقعةٍ بين هٰذين الحيَّيْن ، وكان رسولُ ٱللهِ ﷺ بمكَّة قد نزلَ عليه الوحيُ ، ودعا إلىٰ الإسلام ، ثمَّ هاجرَ بعدها بستِّ سنين إلىٰ المدينة المنوَّرة .

* كان أسيدُ بنُ الحضير بعد أبيه عزيزَ الجانب ؛ شريفاً في قومه في الجاهليَّة ، وفي الإسلام يُعَدُّ من عقلائهم ؛ وذوي رأيهم ومشورتهم . وكان يكتبُ بالعربيَّة في الجاهليَّة ـ وكانت الكتابةُ في العرب قليلاً ـ ويُحسنُ العومَ والرّمي ، وكان يُسمَّىٰ مَنْ كانت هٰذه الخصالُ فيه في الجاهليَّة : « الكامل » ؛ وكانت قد اجتمعت في أسيد ، وكان أبوه حُضير الكتائب يُعرفُ بذلك أيضاً ، ويسمَّىٰ به [2] .

* وبالجملة كان أسيدُ بنُ الحضير أحدَ السَّادات العقلاء الكَمَلة ، أصحابَ الرَّأي والفِراسة والحَصَافة ، وقد اجتمع فيه من الكمال ، ما تضرب به

= مذكورٌ في المصادر المتنوِّعة ، وقضىٰ الإسلام علىٰ البغضاء بين القبيلتين . « معجم البلدان » (١ / ٤٥١ ـ ٤٥٢) بتصرّف .

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٤) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩٤) ، و« معجم البلدان » (١ / ٤٥١) ، و« الاشتقاق » (ص : ٤٤٤) ، وغيرها من مصادر متنوّعة . و« واقم » : حصن حُضير الكتائب . وكان في بني عبد الأشهل بالمدينة .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٤) بتصرُّف يسير .

لطائف الأمثال ، وتقال فيه رقائق الأقوال ؛ وله مواقفُ كريمةٌ متألّقةٌ منها ما ذكره الأصمعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال : « جاء عامرُ بنُ الطُّفيل وأربدُ بنُ قيس إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ فسألاه أنْ يجعلَ لهما نصيباً من تمرِ المدينة المنوَّرة ، فأخذ أسيدُ بنُ الحضير الرّمح ، فجعل يقرعُ رؤوسَهما ويقول : اخرجا أيّها الهجرسان .

فقال عامر بن الطُّفيل : مَنْ أنت ؟

قال : أسيدُ بنُ الحضير الأشهليّ الأوسيّ .

فقال : حُضير الكتائب ؟

قال : نعم .

فقال : كان أبوك خيراً منك .

قال : بل أنا خيرٌ منك ومن أبي ، مات أبي وهو كافر »[1] .

---

(١) انظر : « الاستيعاب » (١ / ٣٢) ، و« الاستبصار في نسَب الصَّحابة من الأنصار » (ص : ٢١٥) مع الجمع بينهما . وقيل للأصمعيّ : ما الهجرس ؟ قال : « الثَّعلب » . وقيل : هو القرد .

ومن الجدير بالذِّكرِ أنَّ يوم بُعاث كان قبل الهجرة النَّبويَّة بخمس سنين ، وليس بستِّ سنين ، كما ذكرتْ بعضُ المصادر . وفي هـٰذا اليوم المشهور قُتِل فيه كُبراءُ الأوس والخزرج الذين يأنفون أنْ يتبعوا غيرهم ، والذين تمرَّغُوا في الكفر وعسُّوا فيه علىٰ عادات الجاهليَّة وموروثاتها مستكبرين في الأرض ، فأفناهم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ في وقائعهم المتكرِّرة والعديدة التي كان آخرها وأفظعها يوم بعاث ، ولم يبقَ إلاَّ مَنْ لا يدفعُ عن نفسه ، ولا يُسمع قوله ، ولا يُستضاء في المُدلَهمات برأيه .

وبهـٰذا خلا جوُّ المدينة من الإغراء والتَّحريض علىٰ الحروب ، وفلَّ عزم اليهود ، وانكشفت خبيئة دسائسهم ، وظهرتْ حقيقةُ مكرهم ، وخاصةً عندما أسرع الأوسيُّون والخزرجيُّون إلىٰ الإسلام يدينون به ، وهم مبتهجون بما منَّ اللهُ به عليهم من نعمةِ الهداية والتَّوفيق ، وحلَّت الإلفةُ والإخاءُ محلَّ التَّباغض والشَّحناء ، فكانوا حملة=

* هٰذه بعضُ أخبار سيِّدنا أسيد بن الحضير الأنصاريّ التي تُعَدُّ مفتاحاً من مفاتيح شخصيّته الثَّريَّة بأنواع الفضائل كلّها ، كما تدلّنا علىٰ شمائل هٰذا الرّجل الذي أسهم بذكائه وسَعَة أُفُقِهِ علىٰ دخول قومه في دينِ الله ِ أفواجاً لم يتخلّفُ منهم أحد ، وهٰذا ما سنلمسُه في السُّطور والفقرات الآتيةِ .

قصَّـــةُ إســـــلامه :

* بعد أن فشَا الإسلامُ في المدينة المنوَّرة ، وعرف أهلُها محاسنَه ، وأدركوا فَضْلَه وطيِّبَ نَشْره ، واستنشقوا طيبَ عَرْفه ، طلب أهلُها من رسولِ ٱللهِ ﷺ أنْ يبعثَ إليهم رجلاً من أصحابه يقرئُهم القرآن ، ويفقّهُهم في الإسلام ، ويعلّمُهم من شرائعه ، ويؤمُّهم في الصَّلاة ، فبعث إليهم ﷺ قارئاً مقرئاً حصيفاً جميلاً نبيلاً عاقلاً جليلاً هو مصعبُ بنُ عمير العبدريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فنزل علىٰ أبي أمامةَ أسعد بن زُرارة الأنصاريّ الخزرجيّ ، فكان سيِّدنا مصعبُ يسمَّىٰ بالمدينةِ « المقرئ » ؛ وكان أبو أمامة يذهبُ بمصعب إلىٰ دور الأنصار ، يدعوهم إلىٰ الإسلام ، ويعلّم مَنْ أسلم منهم ويفقهه ، فدخل الإسلامَ علىٰ يديه عددٌ لا يُحصىٰ من أهلِ المدينةِ أوسها وخزرجها ، ودوّىٰ صوتُ الإسلام في أرجائها قويّاً ببركةِ إخلاصهِ وصفائه ، وقوّة إيمانه ، وحبّه لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولرسوله ﷺ ، وهو أوّلُ مَنْ صلَّىٰ الجمعة في الإسلام بمن آمنَ مِنْ أهل المدينة ، بإذن رسول ٱلله ﷺ ، كتبَ إليه ﷺ يأمرهُ بذلك .

* ومن أَجَلِّ مواقف مصعب بن عمير وأبرعها وأشجعها التي فتح بها الطَّريق أمام الدَّعوة إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ فتحاً تسامت به ، حتَّىٰ دخلت القلوب ، وحرَّرت العقول ، وأشرقت بنورها الأرواح ما حدَّث به الثِّقاتُ من رواة السِّيرة النَّبويَّة ، والمتتبِّعون لسير الرِّسالة في مراحلها ومنهجها ، فقالوا

= لواء الدَّعوة إلىٰ ٱلله الذين أعزَّ ٱلله بهم دينه ونبيّه ، وسارت بهم سفينةُ الهداية في بحار العزَّةِ للهِ ورسولهِ والمؤمنين .

ما نتيجته وصفوتُه : « خرج أسعدُ بنُ زُرارة بمصعب بن عمير يوماً إلىٰ دار بني عبد الأشهل ، فدخل به حائطاً ـ بستاناً ـ من حوائط بني ظفر ، واجتمع إليهما رجالٌ ممّن أسلم ؛ وسعد بن معاذ ؛ وأسيد بن الحضير يومئذ سيِّدا قومهما ، وكلاهما مشركٌ علىٰ دِيْنِ قومه ، لم ينعما بالإسلام بعد ، فلمَّا سمعا بهما ، قال سعدُ بنُ معاذ لأسيدِ بنِ حُضير : لا أبالك ! ! انطلقْ إلىٰ هـٰذَيْن الرَّجلَيْن اللذين قد أتيا دارَيْنا ، ليسفِّها ضعفاءنا فازجرهما ، وانْهَهُما من أنْ يأتيا دارَيْنَا ، فإنَّه لولا أنَّ أسعدَ بن زرارة منِّي حيث علمت كفيتُك ذلك ، هو ابنُ خالتي ولا أجد عليه مقدّماً .

هبَّ أُسيد ممتثلاً رغبة سعد بن معاذ ، فأخذ حربتَه ثمَّ أقبل إليهما ، فلمَّا بصر أسعد بن زرارة أسيداً مقبلاً إليهما قال لصاحبه مصعب : هـٰذا سيِّدُ قومه ، قد جاءك فاصْدقِ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيه ، فإنَّ وراءه خيراً وبركة وغُنْماً .

فقال مصعب في ثقةِ الإخلاص ، وصفاءِ اليقين : إنْ يجلسْ هـٰذا أكلّمه إن شاء ٱلله .

اقتربَ أسيدُ حتَّىٰ وقفَ عليهما مُتَشَتِّماً ، فقال : ما جاء بكما إلينا تُسَفّهان ضعفاءنا ؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة ؛ واخلولقَ يقولُ مثل هـٰذه الكلمات وأشباهها .

وهـٰهنا صوَّبَ سيِّدنا مصعبٌ إليه النَّظَرَ ، وخلالَ لحظاتٍ درسَ نفسيّتَه من ألِفِها إلىٰ يائِها ، ثمَّ قال له في نقاء الإلهام وصفاء الصِّدق : يا سيِّدَ قومه ، أوتجلسَ فتسمعَ مقالنا ، فإن رضيتَ أمراً قبلتَه ، وإن كرهته كُفَّ عنك ما تكره ؟

قال أسيدُ متعقّلاً وقد أعجبه منطقُ مصعب وكلامُهُ : أنصفتَ ؛ ثمَّ ركزَ حربته ، وجلس إليهما ، فكلَّمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه آياتٍ من القرآن الكريم بصوتٍ شجيٍّ نديٍّ ممزوج بالصِّدْق والإلهام ؛ فقالا ـ أي : مصعب وأسعد ـ : واللهِ لقد عرفنا في وجهه الإسلام قبل أنْ يتكلَّم في إشراقهِ وتسهُّلهِ ،

ثمَّ تكلَّم أسيد فقال : ما أحسنَ هـٰذا الكلام وأجملَه ! كيف يصنعُ مَنْ أراد الدُّخول في هـٰذا الدِّين ؟

قالا له : تغتسل فتطهَّر ، وتُطهِّر ثوبَيْكَ ، ثمَّ تشهدُ شهادة الحقّ ، ثمَّ تصلِّي ، فقام أسيدُ بنُ الحضير ، فاغتسل وطهَّر ثوبيه ، وتشهَّد شهادة الحقّ ، ثمَّ قام فركعَ ركعتين ، وشعر بالطُّمأنينة تخالطُ روحَهُ ، وقلبهُ ، وصدره ، ومشاشه ، ثمَّ التفتَ إليهما وقال لهما : إنَّ ورائي رجلاً إن اتّبعكما لم يتخلَّفْ عنه أحدٌ من قومه ، وسأرسلُه إليكما الآن ، وهو سعدُ بنُ معاذ ، ثمَّ إنَّ أسيداً تناولَ حربتَه ، وكَرَّ راجعاً إلىٰ سعد وقومه ، وهم جلوسٌ في ناديهم يتحدَّثُون ، فلمَّا نظر سعدُ بنُ معاذ إلىٰ أسيد مقبلاً مطمئناً قال : أحلفُ بٱلله ، لقد جاءكم أسيدُ بنُ الحضير بوجهٍ غير الوجه الذي ذهبَ به من عندكم ، فلمَّا وقف علىٰ النَّادي ، قال له سعد : ما فعلْتَ ؟

قال أسيد في هدوء الأصفياء : كلّمتُ الرَّجلَيْن ، فوٱلله ما رأيتُ بهما بأساً ، وقد نهيتهما ، فقالا نفعل ما أحببتَ ، وقد حُدّثْتُ أنَّ بني حارثة قد خرجوا إلىٰ أسعد بن زُرارة ليقتلوه ، وذلك أنَّهم عرفوا أنَّه ابنُ خالتك ، ليخفروك ، فقام سعدُ بنُ معاذ مغضباً منتفضاً كالأسد الهصور ؛ مبادراً متخوّفاً للذي ذَكَرَ له من أمْرِ بني حارثة ، فأخذ الحربة من يده ، وقال : وٱلله يا أسيدُ ما أراك أغنيتَ عنَّا شيئاً .

ثمَّ خرج سعدُ بنُ معاذ إلىٰ مصعب وأسعد ، فلمَّا رآهما مطمئنَيْن آمنَيْن ، أدرك بحصافته وزكانته أنَّ أسيداً إنَّما أراد منه أنْ يسمعَ منهما ؛ لعلَّ قطرات الغيث الإلـٰهيّ تلامسُ قلبَه ، فيخشعُ ويسلمُ لله العزيز الغفَّار .

وقف سعدٌ عليهما متشتّماً ، ثمَّ قال لأسعد بن زرارة في شيء من الغضب : يا أبا أمامة أما وٱلله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ منِّي هـٰذا ، أتغشانا في دارنا بما نكره ؟

وكان أسعدُ بنُ زرارة قد قال لمصعب بن عمير : أي مصعب جاءك وٱلله

سيّدٌ مَنْ وراءَه مِنْ قومِهِ ، إن يتبعك لا يتخلّف عنك منهم اثنان .

فقال مصعبُ لسعدِ بنِ معاذ : أوتقعد فتسمع ؟ فإن رضيتَ أمراً ورغبتَ فيه قبلْتَه ، وإن كرهتَه ورغبتَ عنه عزلنا عنك ما تكْرهُ ؟

قال سعد بن معاذ : أنصفتَ ، ثمَّ ركزَ الحربة وجلس ، فعرض عليه مصعبُ بنُ عمير الإسلام ، وقرأ عليه القرآن ، قالا : فعرفنا واللهِ في وجهه الإسلام قبل أن يتكلَّم ، ثمَّ قال لهما : كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هٰذا الدِّين ؟

قالا تغتسلُ ، فتطهّر وتطهّر ثوبَيْك ، ثمَّ تشهد شهادة الحقّ ، ثمَّ تركعُ ركعتَيْن ؛ ففعل ، ثمَّ أخذ حربته وأقبل عامداً إلىٰ نادي قومه ، ومعهم أسيد بن الحضير ، فلمَّا رآه قومه مقبلاً ، قالوا : نحلفُ بٱلله ، لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهبَ به من عندكم ؛ فلمَّا وقف عليهم قال يا بني عبد الأشهل ! كيف تعلمون أمري فيكم ؟

قالوا : سيِّدنا ، وأفضلنا رأياً ، وأيمننا نقيبة .

قال : فإنَّ كلامَ رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتَّىٰ تؤمنوا بٱلله ورسوله .

قالا : فوٱلله ما أمسىٰ في دار بني عبد الأشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة »[1] .

---

(١) « البداية والنِّهاية » (١ / ١٥٢ ـ ١٥٣) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩٤ ـ ٣٩٦) مع الجمع والتَّصرُّف بينهما . والحديث حسن بمجموع طرقه ، وذكره ابن هشام رَحِمَهُ ٱللهُ في « السِّيرة » (١ / ٤٣٥ ـ ٤٣٧) بسند حسن ، ويمكن أنْ نستخلصَ من قصّةِ سيّدنا أسيد وسعد بعضَ الفوائد والعبر الآتية :

١ ـ رقّةُ قلوب الأنصار ولينُها ، واتّباعهم للحقّ .

٢ ـ معرفةُ الأنصار بأمر الرِّسالات السَّماويّة بسبب مجاورتهم لليهود ، فقد كان اليهودُ يهدِّدون الأوسَ والخزرجَ بِنَبِيٍّ قد أظلَّ زمانه . . . =

* هٰكذا كان إسلامُ سيِّدنا أسيد بن الحضير ، أسلمَ إسلام العارفين ، وكان إسلامه بركةً علىٰ قومه أجمعين ، قال ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أسلم أسيدٌ قبل سعدِ بنِ معاذ علىٰ يد مصعب بن عمير بالمدينة ، وكان إسلامه بعد العقبة الأولىٰ ، وكان أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ يكرمه ولا يقدِّم عليه واحداً ، ويقول : إنَّه لا خلاف عنده »[1] .

* ذكر ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ خبراً مفيداً رفعه إلىٰ عمر بن سعد بن معاذ قال : « كان إسلامُ أسيدِ بنِ الحضير وسعد بن معاذ علىٰ يدي مصعب بن عمير العبدريّ في يومٍ واحدٍ ، فَتَقَدَّمَ أسيد سعداً في الإسلام بساعة . . . وشهد أسيد العقبة مع السَّبعين من الأنصار . . . وكان أحد النُّقباء الاثني عشر ، وآخىٰ رسولُ ٱلله ﷺ بين أسيد بن الحضير ؛ وزيد بن حارثة . . . »[2] .

* وما أجمل أنْ نحلّيَ الآن جِيْدَ هٰذهِ الفِقْرة بهٰذهِ الأقباسِ النَّاعمةِ المتناغمةِ التي تَشْدو بإسلامِ أُسيد وسَعْدٍ ـ رضي ٱلله عنهما ـ :

أمَّـا أسيـدُ بـنُ الحضيـر فقـد غـدا فـي المُهْتـديـن

قـد أشـرقَ الإيمـانُ فـي أعمـاقِـهِ فـي الطَّـائعيـن

فـوراً تـوضّـأ ثـمَّ صلَّـىٰ واغتـدىٰ فـي السَّـاجـديـن

بعـد الصَّـلاة أرادَ هَـدْيـاً للصَّـديـق مـدىٰ السِّنيـن

ذاك الصَّـديـقُ هـو الـزَّعيـمُ لقـومـهِ فـي النَّـابهيـن

سعـدٌ زعيـمُ الأوسِ خيـرٌ فـي الـرِّجـال السَّـابقيـن

= ٣ ـ استطاع سيّدنا مصعبُ بنُ عمير السَّفير النَّبويّ النَّاجح أنْ يعلِّمَ أسيداً والأنصار القرآن العظيم ، وأنْ يبايعوا رسول الله ﷺ في العقبة ، وكان أسيد أحد النُّقباء يوم العقبة .

(١) « أسد الغابة » (١ / ١٧٢) ترجمة رقم : (١٧٠) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٤ ـ ٦٠٥) باختصار يسير .

ابـــنُ الحضيـــر أتـــىٰ لِسَعـــدٍ وهـــو رَاءٍ لليقيـــن

لٰكنَّـــه أخفـــىٰ الحقيقـــةَ عنـــه حتَّـــىٰ يَسْتَبيـــن

سعـــدٌ تســـاءَلَ مـــا وراءك قـــال فـــي صـــدْقٍ أميـــن

يـــا سعـــدُ فـــاذهـــبْ فـــانظـــرِ الـــرَّجُلَيْـــن نظـــرةَ مستبيـــن

سعـــدٌ تـــوجَّـــه نحـــو مُصْعَـــبَ والمضيـــفِ الجـــالِسِيـــن

ولقـــد تـــرامـــىٰ سَمْعَـــه شـــيءٌ مـــن الـــذِّكْـــر المبيـــن

فـــوراً بـــدا فـــي وجهـــهِ إشـــراقُ نـــورِ المتّقيـــن

سعـــدٌ يقـــولُ فمـــا السَّبيـــلُ لأنْتَمـــي للمسلميـــن

قـــالا لـــه فَلْتَغْتَسِـــلْ واسجـــد لِـــرَبِّ العـــالميـــن

إذ مـــا فعلـــتَ فســـوف تصبـــح فـــي عِـــداد المكـــرميـــن

في رحابِ البيعـةِ الخَـالدة :

* ها هي ذي المدينة تصبحُ وتمسي وذكْرُ رسول ٱلله ﷺ يشرِّفُ أرجاءَها ويعطِّرُهُ ، فليس بين بيوتها بيتٌ إلا وفيه مسلمون ومسلمات ، كلّهم يحبّون الإسلام ونبيّ الإسلام ؛ وقد آن الأوانُ أنْ يضعوا بين يدي رسول ٱلله ﷺ صورةً صادقةً واضحةَ المعالمِ للإسلام الذي أحبّوه ، ويرىٰ مدىٰ قوّته في نفوسهم وقلوبهم ، وبات من واجبهم أن يلقوا الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ في جمع من صفوة مؤمنيهم وأكابرهم ، ليدخلَ عليهم ديارهم هادياً ، داعياً إلىٰ ٱلله ، معلِّماً رائداً إلىٰ الخير والنُّور والفلاح ، مطمئناً مكفول المنعة ، عزيزَ الجانب ، مسموعَ الكلمة الهادية .

* إذاً ، فليجمعوا أمرهم ، وليرهفوا عزائمهم ، وليلتقوا رسول ٱلله ﷺ بمكَّـة ، ومعهـم أستـاذهـم ومعلِّمهـم القـارئ المُعلِّـم الفقيـه مصعـب بـن عُمير ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وكان لهم ما أحبّوا ، فخرجَ إليه سبعون رجلاً وامرأتان ، وقدموا علىٰ رسولِ ٱلله ﷺ ووافوه ـ علىٰ موعد منه ـ في منىٰ بأسفلِ العقبة ، وبايعوه بيعتهم المشهورة ، وكان سيِّدنا أسيد بن الحضير من أوائل المبايعين بيعة الإيمان بالحقِّ ونصرته ، وكان أحد النُّقباء علىٰ قومه ، ومنذ

ذلك اليوم الأغرّ طفق اسمُ سيِّدنا أُسيد يلمعُ بين الأسماء التي لها نصيبٌ موفورٌ في تاريخ المشاهير والعظماء ، فقد غدا ببركة الإسلام من الأسياد الذين نتشرَّفُ بسماع سيرتهم ، ونحذو حذوهم ، بل ونسمِّي أبناءنا بأسمائهم ؛ لتظلَّ مناقبُهُ وأعمالُهُ ماثلةً في القلوب والضَّمائر .

* عاد سيِّدنا أُسيد إلىٰ المدينةِ وهو مسرورُ الفؤاد برؤيةِ الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، فقد تبدَّلَتْ حياتُه كلّها ، وغدا ممّن أنعم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عليه بنعمة الإسلام ، وأصبح في المدينة يؤدِّي عبادته مع قومه بعد أن دخلَ الإسلام أسماعهم وقلوبهم وبيوتهم .

* ولمَّا كانت الهجرةُ النَّبويَّة الشَّريفة إلىٰ المدينة المنوَّرة ، كان سيِّدنا أسيد ممَّن ينتظرها بفارغ الصَّبر ، وكم ودَّ أنْ يشرِّفَه رسولُ ٱلله ﷺ بالنُّزول عنده ، بيد أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ ردَّهُ ردّاً جميلاً لطيفاً ، وقال لأسيد وقومه : « خلُّوا سبيلَها فإنَّها مأمورةٌ » .

* وفي رمضان من السَّنة الثَّانية من الهجرة الميمونة ، كانت معركة بدر ، وعاد رسول ٱلله ﷺ منها مؤيّداً منصوراً من ربّه ، ولم يشهدْ سيِّدنا أسيد هٰذه الغزوةَ الفاصلةَ ؛ لأنَّه ظنَّ أنَّ المسلمين خرجوا إلىٰ لقاء العير ، ولٰكنَّه لمَّا سمع البشير ينادي بين دور الأنصار بنصر المسلمين خرج سيِّدنا أسيد إلىٰ الرّوحاء [1] مع رؤوس النَّاس وأعيانهم يهنّئون رسول ٱلله ﷺ ، فتلقَّاه أسيد وهنّأه بفتح ٱلله ونصره وقال له : « يا رسولَ اللهِ ! الحمدُ لله الذي أظفركَ ، وأقرَّ عينك ، وٱلله يا رسولَ ٱلله ! ما كان تخلّفي عن بدر وأنا أظنُّ أنَّك تلقىٰ عدوّاً ، ولٰكن ظننتُ أنَّها العير ، ولو ظننتُ أنَّه عدوٌّ ما تخلّفْتُ » .

---

(١) « الرَّوحاء » : موضعٌ ومحطّةٌ علىٰ الطَّريق بين المدينة المنوَّرة وبدر ، علىٰ مسافةِ (٧٤ كيلاً) من المدينة ، وقد نزلها رسولُ ٱلله ﷺ في طريقه إلىٰ المدينة عائداً من بدر . ولهٰذا الموضع ذكرٌ في ثنايا السِّيرة النَّبويَّة والأحاديث الشريفة .

فقال له رسول ٱلله ﷺ : « صدقْتَ » [1] .

مواقفُ متألِّقـةٌ :

* لهٰذا الرّجل المخلص لِدينهِ ولرسوله مواقفُ متألِّقةٌ في سماء المكارم ، فقد كان له آثارٌ حِسَانٌ في مغازي رسول ٱلله ﷺ ، وكان ممن ثبتَ يوم أُحُدٍ مع النَّبيِّ ﷺ ، وجُرِحَ يومئذ سبْعَ جراحات ، وهٰذا كلّه لم يثْنِ عزمَه حين انكشف بعضُ النَّاس ، فكان نِعْمَ البطل الفدائي ، وكان نعم الصَّاحب .

* قال ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللهُ : « شهد أسيدٌ أحداً ، والخندقَ والمشاهد كلّها مع رسول ٱلله ﷺ ، وكان من عِلْية أصحابه » [2] .

* ولمَّـا انصـرفَ رسـولُ ٱلله ﷺ مـن أُحُـدٍ إلـىٰ المـدينـة ، مـرَّ بـدار بني عبد الأشهل ، فسمع البكاء والنَّوائح علىٰ شهدائهم ، فذرفت عيناه الشَّريفتان علىٰ عمّه أسدِ اللهِ حمزةَ بنِ عبد المطّلب [3] ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ثمَّ قال : « لٰكن حمزة لا بواكي له » ، فلامست هٰذه الكلمةُ سَمْعَ أسيد بن الحضير ، وسعد بن معاذ ، فلمَّا رَجَعَا إلىٰ داريهما أمَرا نساء قومهما أنْ يتحزمْنَ ، ثمَّ يذهبن فيبكين علىٰ عمِّ رسول ٱلله ﷺ ، ففعلن ؛ ولمَّا سمع ﷺ

---

(١) « طبقـات ابـن سعـد » (٣ / ٦٠٥) ، و« البـدايـة والنِّهـايـة » (٣ / ٣٠٥) ، أقول : « تخلَّف عددٌ من كبراء الصَّحابة وأعيانهم عن غزاة بدر وهم يظنّون ألا تحدثَ معركة ، ولم ينكرْ رسولُ ٱلله ﷺ علىٰ أحد من المتخلّفين ، وترك الأمر للرّغبة الخاصّة والاختيار الشّخصيّ . ومن المؤكَّد أنَّ الذين لم يخرجوا لملاقاة العير ، لو كانوا يعرفون أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ سيلقىٰ حرباً مع العدو لمَا تخلَّفَ أحدٌ منهم قادرٌ علىٰ حمل السِّلاح ، غير أنَّهم اعتقدوا جازمين أنَّ الأمرَ إنَّما هو التَّصدِّي للقافلة ، لذلك تخلَّف مَنْ تخلَّف ، وعذرهم رسول ٱلله ﷺ ، وصدّقهم ، ودعا لهم » .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٥) باختصار .

(٣) اقرأ سيرة حمزة بن عبد المطَّلب في الباب الأوّل من موسوعتنا : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » ، (ص : ٤٧ ـ ١٢١) ، ففي سيرته مواقف لا تُنسىٰ .

بكاءهنَّ علىٰ حمزة ، خرج عليهنَّ وهنَّ في باب المسجد يبكين فقال لهنَّ : « ارجعْنَ يرحمكن اللهُ فقد آسيتُنَّ بأنفسكنَّ » ، ونهىٰ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ يومئذ عن النّوح [1] .

* ومن المواقف السَّرِيَّةِ الثَّرَّةِ التي تنطقُ مُعْرِبةً عن محبّة أُسَيدٍ ـ رضي الله عنه ـ لرسولِ ٱللهِ ﷺ ؛ أنَّه كشَف مؤامرةَ أعرابيٍّ أرادَ أنْ يغدرَ برسولِ ٱللهِ ﷺ ويغتالَه بخنْجَرٍ مسمومٍ ، فعرفَه أُسيدٌ وقبضَ عليه ، فكيف كان ذلك ؟

* أوردت المصادرُ ما مجموعه ومفاده : أنَّ أبا سفيان بن حرب قال لِنَفَرٍ من قريش بمكَّةَ : « ويحكم ! ما أحدٌ منكم يغدر محمّداً ويغتاله ؟ فإنَّه يمشي في الأسواق ، فندركُ ثأرنا » .

فأتاه رجلٌ من الأعراب فدخل عليه منزله وقال له : « يا هـٰذا ! إن أنتَ وفيتني خرجتُ إليه حتَّىٰ أغتاله ، فإنِّي هادٍ بالطَّريق ، ماهرٌ بمعرفة الصَّحراء ، معي خنجرٌ مثل خافية النّسر قد هيّأته لمثل هـٰذه المهمَّات . . . » .

فقال له أبو سفيان : « أنتَ صاحبُنا » .

وأعطاه بعيراً ونفقةً وقال له : « اطْوِ أمركَ ، فإنِّي لا آمن أن يسمعَ هـٰذا أحدٌ فينميه إلىٰ محمَّد » .

فخرج الأعرابيُّ علىٰ راحلته ، وسار حتَّىٰ دخل المدينةَ المنوَّرة ، ثمَّ طفق يسألُ عن رسول ٱلله ﷺ . فقيل له : إنَّه في بني عبد الأشهل ، فأقبل فوجده ﷺ في جماعةٍ من أصحابه ، فلمَّا دخل الأعرابي ورآه رسول ٱلله ﷺ قال لأصحابه : « إنَّ هـٰذا الرَّجل يريدُ غدراً واللهُ حائلٌ بينه وبين ما يريده » .

وكان سيِّدنا أسيد ـ رضي ٱلله عنه ـ في ذلك المجلس النَّبويّ الميمون ، فتوجَّسَ خيفةً من الأعرابي ، وأخذ يرقبُهُ ويلاحظُ كلَّ حركة من حركاته ،

---

(١) « البداية والنِّهاية » (٤ / ٤٧ ـ ٤٨) بشيء من التّصرّف .

ولمّا اقترب من رسولِ ٱللهِ ﷺ أخذ ينحني علىٰ رسول ٱلله ﷺ كأنّه يفضي إليه سرّاً ، فجذَبَهُ سيّدنا أسيدُ بنُ الحضير جذبةً شديدةً وقال له : « تنحَّ عن رسولِ ٱللهِ ﷺ » ، وجذب بداخل إزاره ، فإذا الخنجر ، فقال أسيدٌ : « يا رسولَ ٱلله ! هـٰذا رجل غادرٌ » ، فأسقط في يدِ الأعرابي وقال : « يا محمَّد دمي ، دمي » .

وأخذ سيِّدنا أسيد يلبّبُهُ ويخنقُهُ بملابسه أشدَّ الخنق ، فقال له ﷺ : « اصدقني ما أنت ، وما أقدمك ؟ فإنْ صدقتني نفعَكَ الصِّدقُ ، وإن كذبتني فقد اطلعتُ علىٰ ما هممتَ به » .

قال الأعرابي : « فأنا آمنٌ » .

قال ﷺ : « أنتَ آمِنٌ » .

فأخبره القصّة كاملةً ، فأمر به ، فحبِس عند أُسيدِ بنِ الحضير ، ثمَّ دعا به من الغد ، فقال : « قد أمنتك ، فاذهبْ حيث شئت ، أَوَخيرٌ لكَ من ذلك ؟ » .

قال : « وما هو ؟ » .

فقال : « أن تشهدَ أن لا إلـٰه إلا ٱلله وأنِّي رسولُ ٱلله » .

فقال الأعرابي : « أشهد أن لا إلـٰه إلا ٱلله ، وأنَّك أنتَ رسولُ ٱلله ، وٱلله يا محمَّد ما كنتُ أفْرَق ـ أخافُ ـ من الرِّجال قطّ ، فما هو إلا أنْ رأيتُكَ ، فذهبَ عقلي وضعفتُ ، ثمَّ اطلعتَ علىٰ ما هممتُ به ، فما سبقت به الرّكبان ، ولم يطلعْ عليه أحدٌ ، فعرفتُ أنّكَ ممنوعٌ ، وأنَّك علىٰ حقّ ، وأنَّ حزبَ أبي سفيان حزب الشَّيطان » .

فجعل رسول ٱلله ﷺ يتبسمُ ، وأقام الأعرابي أيّاماً ، ثمَّ استأذن رسول ٱلله ﷺ في الخروج ، فأذن له ، فخرجَ من عنده ، ولم يُسْمَعْ له بذكر ، ولم يعرفِ اسمَهُ أحدٌ من الرُّواة ، أو مصنِّفي السِّيرة » [1] .

---

(١) « البداية والنّهاية » (٤ / ٦٩ ـ ٧٠) ، و« الرِّسالة المحمَّديَّة » =

* ولهٰذا المخلص الصَّافي الوفيّ سيِّدنا أسيد ـ رضي ٱلله عنه ـ موقفٌ يشعُّ بالإخلاص ، ويرشحُ بالنَّدىٰ والوفاء في غزوة بني المصطلق ؛ إذ عرَّفَ الحبيب المصطفىٰ ﷺ بمحبته المتجذّرة في القلوب ، وذلك لمَّا صرَّح بالعداوة زعيمُ المنافقين ابن سلول [1] ، وكاد يبعثُ الفتنةَ ويؤجِّجها بين المهاجرين الأخيار ، والأنصار الأبرار .

* لقد برزتِ الشَّخصيَّةُ الأُسيديَّة المتألِّقة بالإيمان ، السَّامية بالصَّفاء لنبيِّ الإسلام ﷺ ، فعندما حسمَ رسولُ ٱلله ﷺ أمْرَ المصْطلقيين ، وفرغ من غَزاتهم ، تزاحم النَّاس علىٰ الماء ، واقتتل رجلٌ من المهاجرين ، وآخرُ من الأنصار ، فصرخ كلُّ واحد منهما وراح يستنجدُ بمعشره وأهله ؛ وهٰهنا لاحتْ لزعيم المنافقين فرصةُ التَّشويش ، وذَرّ الرَّماد في العيون ، كما وجد فسحةً ينفسُ فيها عن غيظه وخبيئة نفسه ، وأخذ يُعَرِّضُ بالمهاجرين ويقول : « أَوَقَدْ فعلوها ؟ » ثمَّ تنفَّس الصُّعداء ، وكادت روحه أنْ تزهقَ حسرةً وحسداً وتابع قائلاً : « قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ِما أعدُّنا وجلابيب قريش هٰذه إلا كما قال الأوَّلُ : سَمِّنْ كلبَكَ يأكلك ، أمَا والله ِلئن رجعنا إلىٰ المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ » . ولم يكتفِ هٰذا الحاقدُ الحاسدُ بهٰذه المقالةِ الرّديئةِ ، وإنَّما أقبل علىٰ مَنْ حضره من قومه فقال لهم بشيءٍ من التَّأنيب والتَّوبيخ والتَّقريع وهو يظنُّ أنَّه سيصيبُ مقتلاً : « هٰذا ما فعلتُمْ بأنفسكم ، أحللتُموهم بلادكم ، وقاسمتُموهم أموالَكُم ، أمَا والله ِلو أمسكتم عنهم ما بأيديكم ، لتحوّلُوا إلىٰ غيرِ داركم » .

* وأُخبِرَ رسولُ ٱلله ﷺ بما قال ابنُ سلول ، فأمر بالرَّحيل في ساعةٍ لم يكنْ يرتحلْ فيها ، فلمَّا سار الجيشُ ، ومعهم رسولُ ٱلله ِﷺ لقيه أسيدُ بنُ

= (ص : ٣٨٣ ـ ٣٨٤) مع الجمع والتَّصرُّف .

(١) اقرأ سيرة هٰذا الفاجر عبد ٱلله بن أبي ابن سلول في كتابنا : « المبشَّرون بالنَّار » (ص : ٣٠٤ ـ ٣٣١) ، طبعة دار ابن كثير الثَّانية عام (٢٠٠١ م) .

الحضير ، فحيَّاهُ بتحيّةِ النُّبوَّة ، وسلَّمَ عليه ، وقال : « يا رسولَ ٱلله ! وٱلله لقد رُحْتَ في ساعةٍ منكرة ما كنتَ تروحُ في مثلها ! » .

فقال له رسولُ ٱلله ﷺ : « أَوَمَا بلغَكَ ما قال صاحبكم ؟ » .

قال : « أيّ صاحب يا رسولَ ٱلله ؟ » .

قال ﷺ : « عبدُ ٱلله بنُ أُبيّ » .

قال : « وما قال يا رسولَ ٱلله ؟ ! » .

قال : « زعم أنَّه إنْ رجعَ إلىٰ المدنية أخرج الأعزُّ منها الأذلَّ » .

قال أُسيدٌ : « فأنتَ واللهِ يا رسولَ ٱلله تخرجُه إنْ شئت ، هو وٱلله الذّليل ، وأنتَ العزيز » .

* ثمَّ إنَّ سيِّدنا أسيداً تابع حديثَهُ مع رسول ٱلله ﷺ وهو يرنو إليه في حبٍّ صادق وقال : « يا رسول ٱلله ! ارفقْ ، فوٱلله لقد جاءنا ٱلله بك ، وإنَّ قومه لَينظمون له الخرزَ ليتوّجوه ، فإنَّه ليرىٰ أنَّك قد استلبتَهُ مُلْكاً » .

* بهـٰذه الحكمةِ الهادئةِ ، والفكرة الوقّادة ، أحاطَ سيِّدنا أسيدٌ بالأمر ، ولم يسمحْ لدائرة الشّقاق أن تتسعَ ، وعرف أنَّ ابنَ سلول باغٍ حاسدٌ قد حرَّكته دواعي الغيرة والحسد لأنْ قالَ ما قال ؛ لعلَّ ملكه المزعوم يعودُ إليه ، ونسيَ الخبيثُ وتناسىٰ أنَّها النُّبوَّة ؛ وكاد أنْ يشعلَ فتيلَ فتنةٍ لا تُطفأ ، وبالتّالي أساء إلىٰ حبيبنا رسول ٱلله ﷺ ، وإلىٰ المسلمين من المهاجرين والأنصار ؛ إذ إنَّه أظهرَ نِفَاقَهُ بصورةٍ قميئةٍ ، وكان يهدفُ من وراء ذلك إلىٰ تشتيت المسلمين وطَرْدِهم من المدينة ، وأن تنشبَ فيما بينهم معركةٌ تقطرُ منها الدِّماءُ ، ففوَّتَ عليه رسولُ ٱلله ﷺ غرضَه ، وأبطلَ كيدهُ وحسَدهُ وفجورَهُ ، وكذلك استطاع سيِّدنا أُسيدٌ أنْ يبرزَ صورة هـٰذا المنافق الحقيقيَّة ، ممَّا ساعد علىٰ بَتْرِ الموضوع واجتثاثه من جذوره [1] ؛ بل إنَّ ابنَ هـٰذا المنافق عبد ٱلله بن عبد ٱلله بن أبيّ ،

---

(١) انظر : « البداية والنِّهاية » (٤ / ١٥٧) بشيء من التَّصرُّف . وممَّا يدلُّ علىٰ إخلاص=

وقفَ ضد أبيه طاعةً لأمر رسول ٱلله ﷺ[1] ، وكان حبيبُنا ورسولُنا محمَّدٌ ﷺ قد ترك معاقبةَ ابنِ أبيّ ابن سلول وأعوانِهِ المنافقين حرصاً علىٰ سمعةِ المسلمين ووحدتهم ، وأشغَلَهم ﷺ عن الباطل لئلا يخوضوا

= أسيد ـ رضي ٱلله عنه ـ عندما سمع بالقصَّة ، وعرفَ نفاق ابن أبي ابن سلول ، ما جاء في خبر آخر ، من أنَّه أقبل حتَّىٰ أتىٰ رسولَ ٱلله ﷺ فقال له : « يا رسول ٱلله ! ائذن لي في هٰذا الرَّجل الذي قد أَفْتَنَ النَّاس أضربْ عنقَه » .

فقال رسول ٱلله ﷺ : « أَوَقاتلُهُ أنتَ إنْ أمرتُك بقتله ؟ » .

قال أسيد ـ رضي ٱلله عنه ـ : « نعم ، وٱلله ! لئن أمرتني بقتله لأضربنَّ بالسَّيف تحت قُرط أذنيه » .

فقال رسول ٱلله ﷺ : « اجلسْ » .

ثمَّ أمر ﷺ بالرَّحيل ، ونزلتْ سورةُ « المنافقون » . « شرح حياة الصَّحابة (١ / ٧٢٨ ـ ٧٢٩) باختصار .

ومن صور شجاعةِ سيِّدنا أُسيد وإخلاصهِ ووفائِهِ للإسلام ونبيِّ الإسلام ﷺ موقفهُ الجريءُ من يهود بني قريظة ؛ إذ تقدَّم صفوفَ المسلمين بأمر نبويٍّ ميمون ، ونادىٰ القُرظيين قائلاً وهم محاصرون : « ويلكم يا أعداءَ اللهِ ! لا نبرحُ حِصْنكم حتَّىٰ تموتوا جوعاً ، إنَّما أنتم بمنزلة ثَعْلَبٍ في جُحر » .

قالوا : يا بن الحُضير ! نحنُ مواليك دون الخزرج ؛ وخاروا ـ خافوا ـ فقال أسيدٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ : « لا عهدَ بيني وبينكم ولا إلّ ـ حلف ـ » . « مختصر تاريخ دمشق »(٤ / ٣٩٨) بتصرُّف .

(١) روي أنَّ عبدَ ٱلله بنَ عبد ٱلله بن أبيّ ـ وكان رجلاً صالحاً ـ لمَّا سمع الخبر جاء إلىٰ أبيه وقال له : « أنتَ واللهِ يا أبت الذّليلُ ، ورسولُ ٱلله ﷺ العزيزُ » ، فلمَّا وصلَ إلىٰ المدينة وقفَ عبدُ ٱلله بنُ عبد ٱلله علىٰ بابِ السّكّة التي يسلكها أبوه ، وجرَّدَ السَّيف ومنعه الوصول ، وقال : وٱلله لا دخلت إلىٰ منزلك إلا أنْ يأذن لك في ذلك رسول ٱلله ﷺ ، وعبد ٱلله بن أبيّ في أذلّ حال ، وبلغ ذلك رسول ٱلله ﷺ ، فبعث إليه أنْ خلّه يمضي إلىٰ منزله ، فقال : « أمَّا الآن فنعم » . « تفسير ابن عطيَّة » (ص : ١٨٦١) .

فيه [1] ، فنجوا وسعدوا وفازوا وأفلحوا .

---

(١) لقد تجاوزَ سيِّدنا وحبيبنا رسولُ ٱلله ﷺ عن رأس النِّفاق ، ومن حاول مشاركته في إشاعة الفتنة والتَّفرقة بين المسلمين في ساعات حرجة ، مع أنَّ كلمات ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ نزلت تُعرِّيهم وتفضحهم ، وكان ذلك حرصاً منه ﷺ علىٰ سمعة الإسلام والمسلمين .

فقد جاء عند الإمامَيْن الجليلَين في « صَحيْحيهما » عن سيِّدنا جابر بن عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : « . . . فقام عمرُ فقال : يا رسولَ ٱلله ! دعني أضرب عنقَ هـٰذا المنافق . فقال النَّبيُّ ﷺ : « دعْه ، لا يتحدَّثُ النَّاس أنَّ محمَّداً يقتلُ أصحابه . . . » . (البخاريّ برقم : ٤٩٠٥ ، ومسلم برقم : ٢٥٨٤) .

ثمَّ إنَّ الحبيب الأعظم ﷺ يُعلِّم أصحابه ومَنْ بعده مِنْ جميع طبقات النَّاس ، كيف يشغلون النَّاس عن الخوض في الباطل والسُّقوط في الفتنة بأنْ ينهضوا إلىٰ أمرٍ يقطعُ عليهم محاولات الشَّيطان وأعوانه للمكرِ بهم ، والكيدِ بأعمالهم ، واستقامتهم .

وفي رواية ابن إسحاق رَحِمَهُ ٱللهُ في « السِّيرة » : « فقال عمر : مُرْ به عبَّاد بن بشر فليقتلْهُ ، فقال له رسولُ ٱلله ﷺ : فكيف يا عمرُ إذا تحدَّث النَّاسُ أنَّ محمَّداً يقتلُ أصحابَهُ ؟ ! لا ، ولـٰكن أذِّن بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن رسولُ ٱلله ﷺ يرتحلُ فيها ، فارتحلَ النَّاس . « السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ٢٩١) .

وما زال ﷺ يمشي بهم يومهم حتَّىٰ أمسىٰ ؛ وليلتهم حتَّىٰ أصبح ، وصَدْر يومهم ذلك حتَّىٰ آذتهم الشَّمس ، ثمَّ نزل بهم ، فلم يلبثوا أنْ وجدوا مسَّ الأرض حتَّىٰ وقعوا نياماً ، فأجهز بذلك علىٰ محاولة الشَّيطان ليوقع بينهم ، وطمس الفتنة ودفنها .

يقول الدكتور أكرم العمري في تعليل هـٰذا الأمر : « ويلاحظ اهتمامهُ ﷺ بسُمْعَةِ المسلمين في أوساط القبائل بترك معاقبةِ المنافق عبد ٱلله بن أبيّ لِمَا في ذلك من مصلحةِ تأليفِ القبائل ، ومنعِ الدِّعاية التي قد تنفِّرُ من الإسلام . ولم يقتصرِ الرَّسولُ ﷺ علىٰ معالجةِ الموقفِ بالبيان ، وإنَّما أمر الجيش بالرَّحيل طيلة اليوم حتَّىٰ أمسىٰ ، وليلتهم حتَّىٰ أصبح ، وصَدْر يومهم حتَّىٰ آذتهم الشَّمس ، ثمَّ نزل بالنَّاس فلم=

* ومن مواقف سيِّدنا أُسيد التي تُحْتَسبُ له ؛ موقفهُ الجميلُ من الأسرة البكريَّةِ المتّصلة بأسبابها من الأسرة المحمَّديَّة ، وذلك عندما نزلت آيةُ التَّيمّـم : ﴿ فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ [النِّسـاء : ٤٣ ، والمـائـدة : ٦] ، وعَلِـمَ المسلمون بركةَ أمّنا أمّ المؤمنين عائشة ـ رضوان ٱلله عليها ـ ، تقدَّمَ منها أبوها أبو بكر ـ عليه سحائب الرِّضوان ـ وقال : « واللهِ يا بنيَّةُ إنَّك لمباركة » .

* بينما جاء رجلُ المواقف سيِّدنا أُسيدُ بنُ الحضير ـ رضي ٱلله عنه ـ وقال : « ما هـٰذا بأوّل بركتكم يا آلَ أبي بكر ، لقد باركَ اللهُ للنَّاس فيكم يا آل أبي بكر ، ما أنتم إلا بركةٌ لهم » ثمَّ قال لأمّنا عائشة : « جزاكِ اللهُ خيراً ، فما نزلَ بكِ أمرٌ تكرهينه ، إلا جعلَ اللهُ منه مخرجاً للمسلمين » [(١)] .

* وهـٰذا مشهدٌ يرشح بالإيمان وصدق اليقين يسجِّله سيِّدنا أُسيد في رصيده المبارك ، فعندما خان يهود بني قريظة ، ونقضوا العهد ، حُكِمَ عليهم بالقتل ، وكانوا حلفاءَ الأنصار ، قام سيِّدنا أسيدُ بنُ الحُضير بين المسلمين قيام الأوفيـاء الأصفيـاء ، وكلَّـم النَّبـيَّ الكـريـمَ ﷺ بصـراحـة ووضـوح وقال : « يا رسولَ ٱلله ! لا تبقِ داراً من دور الأوس إلا فرقْتَ فيها مَنْ بقي مِنَ اليهود يقتلونهم » ؛ ففعلَ ، فقتلُوا مَنْ بعثَ بهم إلىٰ دورهم ، وقُضي علىٰ الخائنين القرظيّين .

= يلبثوا أنْ وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نياماً ، ليشغل النَّاس عن الحديث في الفتنة . . . .
وقد علَّلَ الرَّسولُ ﷺ منعه لعبد ٱلله من قتلِ أبيه بالحرص علىٰ سمعةِ الإسلام فقال : « لا يتحدّثُ النَّاس أنَّ محمَّداً قتل أصحابه » . « السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة » (٢ / ٤٠٩ ـ ٤١٠) باختصار .

لقد احترقَ عملُ زعيم النِّفاق ، وضاعت جهودُه العدوانيَّة سُدىٰ ، ولم يتحققْ حلمُه الحاقدُ ، وارتدَّ كيدهُ إلىٰ نحره ، وخابَ سعيهُ وباءَ بالخسران في الدَّاريْن .

(١) « نساء أهل البيت » (ص : ١٦٧) ط : ٦ ـ ٢٠٠٥ م ، و« الرِّسالة المحمَّديَّة » (ص : ٣٢٥) ، ط : ١ ـ ١٩٩٧ م مع الجمع والتَّصرُّف اليسير بينهما .

* وأمَّا رأي أُسيد في المنافقين إبَّان أحداث غزوة تبوك فإنَّه لا يُنْسىٰ ، وذلك عندما أجمع المنافقون علىٰ الإيقاع برسولِ ٱلله ﷺ في العقبةِ التي بين تبوك والمدينة المنوَّرة ، فقالوا : إذا أخذَ في العقبةِ دفعْنَاهُ عن راحلتِهِ في الوادي . فعلمَ رسول ٱلله ﷺ بما عزموا عليه ، فقال أُسيدٌ : « يا رسولَ ٱلله ! هٰؤلاء ليسوا بأصحابك » .

فقال ﷺ : « أليسوا يظهرون الشَّهادة ؟ » .

ثمَّ جمعهم ﷺ وأخبرهُم بما قالُوه ، وما أجمعوا عليه ، فحلفُوا بٱلله ما قالوا ، ولا أرادوا الذي يذكرُهُ عنهم ، فنزلتِ الآيةُ الآتيةُ في تكذيبهم وبيان فجورهم وتآمرهم : ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ [التَّوبة : ٧٤] [١] .

أسيدٌ وأقباسٌ نبويَّةٌ :

* يُصَنَّفُ سيِّدنا أُسيدُ بنُ الحُضير ـ رضي ٱلله عنه ـ مع الصَّحابةِ الأكابر المقرَّبين من الحضرةِ النَّبويَّة ، وكان معدوداً من عقلاء الأشرافِ وذوي الرَّأي من الصَّحابة الأنصار .

* وهٰذا الصَّحابيُّ الحصيفُ ممَّن وعىٰ الحديثَ النَّبويَّ الشَّريفَ ، ونقله عن الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ، ومرويَّاته موجودة في الصَّحيحَيْن وكتب الحديثِ المعتمدة المعتبرة .

* قال الإمامُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ : « له روايةُ أحاديث ، روتْ عنه عائشة ، وكعبُ بنُ مالك ، وعبد الرَّحمٰن بن أبي ليلىٰ ، ولم يلحقْهُ » [٢] .

---

(١) انظر : « تفسير ابن عطيَّة » (ص : ٨٦٥ ـ ٨٦٦) ، و« الرِّسالة المحمَّديَّة » (ص : ٥٥٢ ـ ٥٥٦) مع الجمع والتَّصرُّف .

(٢) « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٤١) ، و« تاريخ الإسلام » (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ٢٠٧) .

* وقال ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « روىٰ عن النَّبيِّ ﷺ ، وعنه أبو سعيد الخُـدريّ ، وأنـسٌ ، وأبـو ليلـىٰ الأنصـاريّ ، وكعـبُ بـنُ مـالـك ، وعبد الرَّحمـٰن بنُ أبي ليلىٰ ، ومحمَّدُ بنُ إبراهيم التَّميميّ ، وحُصينُ بنُ عبد الرَّحمـٰن ولم يدركاه »[1] .

* وسيِّدنا أسيدُ بنُ الحُضير الأنصاريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ أحدُ الرِّجال المباركين المؤيّدين بالتَّأييدات الغيبيَّة ، وممَّن نزلت الملائكة لقرآنهم ، وشهد لهم الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ بالصَّلاح والصَّفاء ، وهـٰذا ما جاء في الصَّحيحَيْن من نزول السَّكينة والملائكة عند قراءة القرآن العظيم .

* جاء في « الصَّحيحَيْن » : البخاري ومسلم ـ واللفظ لمسلم ـ بسند عن أبي سعيد الخُدريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، عن أُسيد بن الحُضير ـ رضي ٱلله عنه ـ : « بينما هو ليلة يقرأ في مِرْبدِهِ ؛ إذ جالتْ فرسه ، فقرأ ، ثمَّ جالت أخرىٰ ، فقرأ ، ثمَّ جالَتْ أيضاً ؟ قال أسيد : فخشيتُ أنْ تطأَ يحيىٰ ، فقمتُ إليها ، فإذا مثْلُ الظُّلَّة فوق رأسي ، فيها أمثال السُّرُج ، عرَجَتْ في الجو حتَّىٰ ما أراها .

قال : فغدوتُ علىٰ رسول ٱلله ﷺ فقلت : يا رسولَ ٱلله ! بينما أنا البارحةُ من جوف الليل أقرأ في مِرْبَدي ؛ إذْ جالت فرسي .

فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « اقرأْ ابن حضير » .

قال : فقرأتُ ، ثمَّ جالَتْ أيضاً .

فقال رسول ٱلله ﷺ : « اقرأْ ابن حضير » .

قال : فقرأتُ ، ثمَّ جالت أيضاً .

---

(١) « تهذيب التَّهذيب » (١ / ٣٤٧) ، وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وله أحاديث في الصَّحيحين وغيرها » « الإصابة » (١ / ٦٤) .

فقال رسولُ ٱللهِ ﷺ : « اقرأْ ، ابن حضير » .

قال : فانصرفتُ ، وكان يحيىٰ قريباً منها ، خشيتُ أنْ تطأَهُ ، فرأيتُ مثل الظُّلَّة فيها أمثال السّرج ، عرجت في الجو حتَّىٰ ما أراها .

فقال رسولُ ٱللهِ ﷺ : « تلك الملائكةُ كانت تستمعُ لك ، ولو قرأتَ لأصبحتْ يراها النَّاسُ ، ما تستترُ منهم » (١) .

---

(١) أخرجه البخاريُّ في فضائل القرآن برقم : (٥٠١٨) ، ومسلم في فضائل القرآن وما يتعلَّق به برقم : (٧٩٦) ، واللفظ له . ومعنىٰ قوله : « بينما هو » معناه : بين أوقاته . و« مِرْبَده » : بكسر الميم وفتح الباء ، وهو الموضعُ الذي ييبس فيه التَّمر ، كالبيدر للحنطة ، ونحوها . و« جالت فرسه » : أي : وثبت ؛ وجالَتْ : من الجَوَلان : وهو الاضطرابُ الشَّديد ، وكان في ذلك الوقت الفرس قريباً منه ؛ أي : فرسه مربوطٌ إلىٰ جانبه ، والفرس يقعُ علىٰ الذَّكر والأنثىٰ . و« يحيىٰ » : ابنُ سيِّدنا أسيد بن الحضير ، والمعنىٰ : أنَّ ابنه يحيىٰ كان قريباً من الفرس فخشي إن استمرَّ علىٰ القراءة أنْ تدوسَ الفرس ولده فتؤذيه . و« الظُّلَّة » : بضمِّ الظَّاء وتشديد اللام : هي الغاشية ، وقيل : السَّحابة . و« السُّرج » : جمعُ سراج ، والمعنىٰ : أنَّها أجسامٌ لطيفةٌ نورانيةٌ مضيئةٌ أمثال المصابيح . و« عرجَتْ في الجوِّ حتَّىٰ ما أراها » : أي : صعدت الملائكةُ وارتفعتْ فيه ؛ لكونه قطع القراءةَ حتَّىٰ غابت عن بصره . و« اقرأ ابن حضير » : قال الحافظُ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللهُ : « أي : كان ينبغي أنْ تستمرَّ علىٰ قراءتك ، وليس أمراً له بالقراءة في حالة التَّحديث ، وكأنَّه استحضر صورةَ الحال ، فصار كأنَّه حاضرٌ عنده لمَّا رأىٰ ما رأىٰ ، فكأنَّه يقول : « استمرَّ علىٰ قراءتك لتستمرَّ لك البركة بنزول الملائكة ، واستماعها لقراءتك ، وفهم أسيد ذلك ، فأجاب بعذره في قطع القراءة ، وهو قوله : « خفتُ أن تطأ يحيىٰ » : أي : خشيتُ إن استمريتُ علىٰ القراءة أنْ تطأ الفرس ولدي ، ودلَّ سياق الحديث علىٰ محافظة أسيد علىٰ خشوعه في صلاته ؛ لأنَّه كان يمكنه أوَّل ما جالت الفرس أن يرفعَ رأسه ، وكأنَّه كان بلغه حديث النَّهي عن رفع المصلِّي رأسه إلىٰ السَّماء ، فلم يرْفعْهُ حتَّىٰ اشتدَّ به الخطب ، ويحتمل أن يكون رفع=

* ومن مرويّات سيّدنا أُسيد ـ رضي ٱلله عنه ـ في مجال الأمر بالصَّبر عند ظُلم الولاة واستئثارهم ما جاء في الصَّحيحَيْن عنه : « أنَّ رجُلاً من الأنصار قال : يا رسولَ ٱلله ! ألا تستعملني كما استعملتَ فُلاناً ؟

قال : « ستلقَون بعدي أثرةً ، فاصبروا حتَّىٰ تلقَوْني علىٰ الحوض »[1] .

* وفي بيانِ بعض الأحكام الشَّرعيَّة ذكر سيِّدنا أنس بن مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ : « أنَّ اليهودَ كانوا إذا حاضتِ المرأةُ فيهم لم يؤاكلُوها ولم يجامعُوها في

= رأسه بعد انقضاء صلاته ، فلهٰذا تمادىٰ به الحال ثلاث مرَّات » . « فتح الباري » (٨ / ٦٨١) .

وقال السِّنديُّ رَحِمَهُ ٱللهُ في قوله : « اقرأْ ابنَ حضير » : « علمَ مِنْ أوّل الأمر أنَّ ما حصل لفرسه من علامات أنَّ قراءته مقبولة محضورة ، فأمره بالقراءة في ما بعد ، لِمَا ظهر فيها من البركات ، أو هٰذا الأمر منه لبيان أنَّك لا تجعل مثله مانعاً من القراءة فيما بعد ، بل امض علىٰ قراءتك فيما بعد ، وٱلله أعلم . و« ما تستتر منهم » : فيه إشارة إلىٰ أنَّ الملائكة الكرام لاستغراقهم في الاستماع كانوا يستمرّون علىٰ عدم الاختفاء الذي هو مِنْ شأنهم ، وفي الحديث منقبةٌ لأسيد بنِ الحضير ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وفضل قراءة سورة البقرة في صلاة الليل ، وفضل الخشوع في الصَّلاة ، وأنَّ التَّشاغل بشيء من أمور الدُّنيا ولو كان من المباح قد يفوت الخير الكثير ، فكيف لو كان بغير الأمر المباح .

وقال النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللهُ : « وفي هٰذا الحديث جواز رؤية آحاد الأمة الملائكة ، وفيه فضيلةُ القراءة ، وأنَّها سبب نزول الرَّحمة وحضور الملائكة ، وفيه فضيلة استماع القرآن » . « المنهاج » (ص : ٦٥٣) .

وذكر مصنِّفو السِّيرة والتَّراجم أنَّ سيِّدنا أسيداً ـ رضي ٱلله عنه ـ قد حباهُ اللهُ صوتاً جميلاً ، مؤثّراً ، فكان من أحسنِ النَّاس صوتاً بالقرآن . « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩٧) .

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار برقم : (٣٧٩٢) واللفظ له . ومسلم في الإمارة برقم : (١٨٤٥) .

البيوت ، فسألَ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ النَّبيَّ ﷺ ، فأنزلَ اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] إلىٰ آخر الآية ، فقال رسولُ ٱللهِ ﷺ : « اصنعوا كلَّ شيءٍ إلا النِّكاح » ، فبلغ ذلك اليهود ، فقالوا : ما يريد هـٰذا الرّجل أنْ يدعَ من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ؛ فجاء أسيدُ بنُ حُضير ، وعبَّاد بن بشر فقالا : يا رسولَ ٱلله ! إنَّ اليهود قالت كذا وكذا ، أفلا يجامعوهنَّ ، فتغيَّرَ وجْهُ رسولِ ٱلله ﷺ حتَّىٰ ظننتُ أنْ قد وجدَ عليهما ، فخرجا ، فاستقبلتْهما هديةٌ من لبنٍ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ ، فأرسل في آثارهما فسقاهما ، فعرفا أنْ لم يجدْ عليهما »[1] .

أسيدٌ ونفحَاتٌ أُنْسيَّةٌ :

* اشتُهِر سيِّدنا أسيدُ بنُ الحُضير ـ رضي ٱلله عنه ـ بمحبَّتهِ الشَّديدة للنَّبيِّ ﷺ ، فكان يوقِّر النَّبيَّ ﷺ ويجلّه ويحرصُ علىٰ قربه ، والتَّبرُّك به .

* أخرجَ الحاكمُ رَحِمَهُ ٱللهُ في « مستدركهِ » بسندهِ عن عبدِ الرَّحمـٰن بن أبي ليلىٰ ، عن أبيه قال : « كان أسيدُ بنُ حُضير ـ رضي ٱلله عنه ـ رجلاً صالحاً ضاحكاً مليحاً . فبينما هو عند رسولِ ٱلله ﷺ يحدِّث القوم ، ويضحكُهم ، فطعنَ رسولُ ٱلله ﷺ في خاصرتهِ . فقال : أوجعتني !

قال : « اقتصَّ » .

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩٧) . ومعنىٰ « وجد » : غضب ، والمضارع : يَجِد : يغضب .

أقول : « لسيّدنا أسيد ـ رضي ٱلله عنه ـ بضعة أحاديث في « مسند الإمام أحمد » ، ومنها ما أخرجه بسنده عن عبد الرَّحمـٰن بن أبي ليلىٰ ، عن أبيه ، عن أُسيد بنِ حضير قال : « إنَّ رسولَ ٱلله ﷺ قال : « توضؤوا من لحومِ الإبل ، ولا توضؤوا من لحوم الغنم ، وصلُّوا في مرابضِ الغنم ، ولا تصلُّوا في مبارك الإبل » . « المسند » (٦ / ٤٥) ، حديث رقم : (١٩١١٨) .

قال : يا رسولَ ٱلله ! إنَّ عليك قميصاً ولم يكن عليَّ قميص ، قال : فرفعَ رسولُ ٱلله ﷺ قميصَه ، فاحتضنَه ، ثمَّ جعل يقبِّل كشحه ، فقال : بأبي أنت وأمّي يا رسولَ ٱلله ! » [1] .

* ومن النَّفحات السَّنيَّة التي خُصَّ بها سيِّدنا أُسيد إضاءة العصا له ، وهـٰذا ما ثبتَ في الصَّحيح وغيره ، فقد عقد البخاريُّ في المناقب فَصْلاً عنوانه : « باب منقبة أُسيد بن حضير وعبَّاد بن بشْر ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، ثمَّ أخرج بسنده عن أنس ـ رضي ٱلله عنه ـ : « إنَّ رجلين خرجا من عند النَّبيِّ ﷺ في ليلة مظلمة ، وإذا نورٌ بين أيديهما حتَّىٰ تفرَّقا ، فتفرَّق النُّور معهما » . وقال معمر ، عن ثابت ، عن أنس : « إنَّ أسيد بن حضير ورجلاً من الأنصار » [2] .

* وفي روايةٍ أكثر سهولة عند عبد الرَّزَّاق ، عن أنس : « أنَّ أسيد بن حُضير الأنصاري ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ورجلاً آخر من الأنصار تحدَّثا عند النَّبيِّ ﷺ في حاجةٍ لهما ، حتَّىٰ ذهب من الليل ساعة ، وهي ليلة شديدة الظُّلمة ، حتَّىٰ خرجا من عند رسولِ ٱللهِ ﷺ ينقلبان ، وبيد كلّ واحد منهما عُصَيَّةٌ ، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتَّىٰ مشَيا في ضوئها ، حتَّىٰ إذا افترقتْ بهما الطَّريق أضاءت للآخر عصاه ، حتَّىٰ مشىٰ في ضوئها ، حتَّىٰ أتىٰ كلُّ واحد

---

(١) أخرجه الحاكم (٣ / ٣٢٧) برقم : (٥٢٦٢) . وقوله « خاصرته » : أي : جنبُه فوق رأس الورك . وفي « الكنز » : « فطعنَ رسولُ ٱلله ﷺ بأصبعهِ في خاصرته » . و« اقتصَّ » : أي : خُذْ منِّي القصاص . و« كشحه » : الموضعُ الذي بين الإبط والخاصرة . و« بأبي أنتَ وأمّي » : فيه تفديةُ الشَّارع بالآباء والأمَّهات ، وهل يجوزُ تفدية غير رسول ٱلله ﷺ من المؤمنين ؛ وفي هـٰذا الأمر مذاهبُ : أصحُّها نعَمْ بلا كراهة ، وثانيها : المنعُ ، وذلك خاصّ به ، وثالثها : يجوزُ تفدية العُلماء الصَّالحين الأخيار دون غيرهم . ونقل الذَّهبيّ عن ابن إسحاق رحمه الله قال : « كان في أسيد مزاحٌ وطيبُ أخلاق » . « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٤٢) .

(٢) أخرجه البخاريُّ في مناقب الأنصار برقم : (٣٨٠٥) .

منهما في ضوء عصاه حتَّىٰ بلغ أهله » [1] .

* كان رسولُ ٱلله ﷺ يكرمُ الأنصار بعامّة ، وكان سيِّدنا أسيدٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ يطلبُ من الحبيب الأعظم ﷺ أنْ يكرمَ قومَه الأنصار ويكثرَ لهم من العطاء ، فيجيبُهُ ﷺ ، ويشهدُ له ولقومه بالعفَّة والصَّبر .

* روىٰ سيِّدنا أنسُ بنُ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ إكرامَ النَّبيِّ ﷺ للأنصار ، وقصَّة أسيد بن الحضير معه فقال : « جاء أسيدُ بنُ حُضير إلىٰ النَّبيِّ ﷺ وقد كان قسمَ طعاماً ، فذكر له أهل بيتٍ من الأنصار من بني ظَفَرَ ، فيهم حاجة ، وجُلُّ أهل ذلك البيت نسوة . فقال له النَّبيُّ ﷺ : « تركتنا ـ يا أسيد ـ حتَّىٰ ذهب ما في أيدينا ، فإذا سمعتَ بشيءٍ قد جاءنا ، فاذكرْ لي أهلَ ذلك البيت » . فجاءه بعد ذلك طعامٌ من خيبرَ شعيراً وتمراً ؛ فقسم رسولُ ٱلله ﷺ في النَّاس ، وقسم في الأنصار وأجزل ، وقسم في أهل ذلك البيت فأجزلَ ، فقال أسيدُ بنُ حُضير متشكِّراً : جزاكَ اللهُ ـ أي : نبيَّ ٱلله ـ أطيبَ الجزاء . أو قال : خيراً . فقال النَّبيُّ ﷺ : « وأنتم معشر الأنصار ، فجزاكم اللهُ أطيبَ الجزاء ؛ أو قال : خيراً ، فإنَّكم ما علمتُ أعفّةٌ صُبُر ، وسترَوْنَ بعدي أثَرةً في الأمر والقسم ، فاصبروا حتَّىٰ تلقَوْني علىٰ الحوض » [2] .

* وبأسلوبه الشَّائق يسوقُ أُسيد هٰذه القصَّة التَّربويَّة فيقول : « أتاني أهلُ بيتَيْن من قومي : أهلُ بيت من ظَفَر ، وأهل بيت من بني معاوية ، فقالوا : كلِّمْ لنا رسول ٱلله ﷺ يقسم لنا ، أو يعطينا ، أو نحو هٰذا ؛ فكلَّمتُه ، فقال : « نعم ، أَقْسِمُ لكلّ أهل بيت منهم شطراً ، فإنْ عادَ اللهُ علينا عدنا

---

(١) انظر في هٰذا : « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩٦) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (٤ / ٤٤٣ ـ ٤٤٤) .

(٢) « شرح حياة الصَّحابة » (١ / ٦٣٢) . و« بني ظَفَرَ » : بطن من الأنصار . و« جلُّ » : مُعظمُ وأكثرُ . و« أجزل » : أوسعَ وأكثرَ . و« أثرة » : يستأثرون بالأموال والفيء وغيره .

عليهم » . قال : فقلت : جزاكَ اللهُ خيراً يا رسولَ ٱلله ! قال : « وأنتم فجزاكم ٱلله خيراً ، فإنَّكم ما علمتكم أعفّة صُبُرٌ ، إنَّكم ستلقون أثرة بعدي » . فلمَّا كان عمر بن الخطاب ـ رضي ٱلله عنه ـ قسم حُللاً بين النَّاس ، فبعث إليَّ منها بحلَّة ، فاستصغرتُها ، فأعطيتُها ابني . فبينما أنا أصلِّي ؛ إذ مرَّ بي شاب من شباب قريش ، عليه حلَّة من تلك الحُلل يجرّها ، فذكرتُ قولَ رسولِ ٱلله ﷺ : « إنَّكم ستلقَوْن أثرةً بعدي » ، فقلتُ : صدق اللهُ ورسولُهُ ، فانطلق رجلٌ إلىٰ عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ فأخبره ، فجاء وأنا أصلِّي فقال : صَلِّ يا أسيد ، فلمَّا قضيتُ صلاتي قال : كيف قلْتَ ؟ فأخبرتُه ، فقال : تلك حلّةٌ بعثت بها إلىٰ فلان وهو بدري أُحُدي عقبي ، فأتاه هـٰذا الفتىٰ فابتاعها منه ، فلبسَها ، فظننتَ أنَّ ذلك يكون زماني ! قلت : قد ـ وٱلله يا أمير المؤمنين ـ ظننتُ أنَّ ذلك لا يكون في زمانك »[1] .

* وكان سيِّدنا أُسيدٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ يجلُّ سيِّدنا عمرَ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ويعرفُ قَدْرَهُ ومقداره بين أجِلَّةِ الصَّحابة وأعلامهم وأسيادهم ، وأُسيدٌ نفسهُ قال عن سيِّدنا عمر يوم تولَّىٰ الخلافة : « اللهم أَعْلَمُهُ الخَيْرَةَ بعدك يرضىٰ للرّضا ، ويسخط للسَّخط ، الذي يُسِرُّ خير من الذي يُعلن ، ولم يل هـٰذا الأمر أحد أقوىٰ عليه منه »[2] .

* ومن اللطائفِ الأُنْسيَّةِ التي ترشح من سيرة سيِّدنا أُسيد ـ رضي ٱلله عنه ـ أمنيته أن يكونَ من أهلِ الجنَّة ، وقد شهدت له بهـٰذه النَّفحة أمّنا

---

(١) « مجمع الزَّوائد » (١٠ / ٣٣) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩٢) . وقوله « بدري أحدي عقبي » : اي : حضر غزوة بدر وأحد ، كما حضر بيعة العقبة ، وحظي بالمعيَّة النَّبويَّة ، وهـٰذا ذروة الشَّرف والخير .

(٢) انظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٩٩) ، وقوله « الخيرة » : هو من اختاره ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ . و« للرّضا » : أي : لأجل رضا ٱلله تعالىٰ ، ومثل هـٰذا يفسَّر في قوله : للسّخط .

الصِّدِّيقةُ بنتُ الصِّدِّيق عائشةُ بنتُ سيِّدنا أبي بكر ـ رضي ٱلله عنهما ـ ؛ إذ قالت : « كان أسيدُ بنُ حُضير ـ رضي ٱلله عنه ـ من أفاضل النَّاس ، فكان يقولُ : لو أنِّي أكونُ كما أكونُ في حالٍ من أحوالٍ ثلاثة لكنتُ من أهل الجنَّة ، وما شككتُ في ذلك : حين أقرأُ القرآن ، وحين أسمعُه ، وإذا سمعتُ خطبةَ رسول ٱلله ﷺ ؛ وإذا شهدت جنازة ، فما شهدت جنازة قط فحدَّثْتُ نفسي بسوىٰ ما هو مفعولٌ بها ، وما هي صائرةٌ إليه »[1] .

* وهـٰذه قبسةٌ منيفةٌ ؛ تدلُّ علىٰ أخلاق أسيد اللطيفة ، وتجلو طبيعتَه الوفيَّة ، نتعلَّم من خلالها فنون الصَّبر والنَّقاء ، وهـٰذه القبساتُ الجميلةُ تدلُّ عليها أطهرُ الطَّاهرات أمُّنا الصِّديقةُ بنتُ الصِّديق عائشةُ ـ رضي ٱلله عنها وعن أبيها ، وحشرنا في معيّتهما تحتَ لواء سيِّدنا وحبيبنا محمَّد رسول ٱلله ﷺ ـ . تقولُ أمّنا عائشةُ : « قدمنا من حجٍّ أو عمرة ، فَتُلُقِّينا بذي الحُلَيفة ، وكان غلمان الأنصار يتلقَّون أهليهم ، فلقوا أسيدَ بنَ الحُضير ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فنعَوا له امرأته ، فتقنَّع وجعل يبكي ، فقلت : غفَرَ اللهُ لك ، أنتَ صاحبُ رسول ٱلله ﷺ ، ولك من السَّابقة والقِدم مالكَ ، وأنت تبكي علىٰ امرأةٍ ؟ ! قالت : فكشفَ رأسه ، وقال صدقتِ لعمري حقّي أنْ لا أبكي علىٰ أحدٍ بعد سعد بن معاذ ، وقد قال له رسول ٱلله ﷺ ما قال ! !

قالت : قلتُ له : وما قال له رسول ٱلله ﷺ ؟

قال : « لقد اهتزَّ العرشُ لوفاةِ سعدِ بنِ معاذ » .

قالت : وهو يسيرُ بيني وبين رسول ٱلله ﷺ »[2] .

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩٧) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (٣ / ٣٦٣) ، والحديث أخرجه الإمام أحمد في « المسند » (٧ / ٤٤) برقم : (١٩١١٥) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٧ / ٤٤) برقم : (١٩١١٧) ، وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩٢ ـ ٣٩٣) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (٣ / ١٠٧) ، وغيرها .
وقولها « الحُليفة » : بالتَّصغير علىٰ وزن جُهينة ، ويقال : ذو الحليفة : قرية بظاهر=

وفاتُه ووصيّتُه :

* مضَتِ الحياةُ بسيِّدنا أسيدٍ ـ رضي ٱلله عنه ـ وهي غنيّةٌ بالعطاء والفداء ، والإخلاص للإسلام ، ونبيِّ الإسلام ، حتَّىٰ حظيَ بشهادةِ تقديرٍ ومرتبةِ الشَّرف النَّبويَّة من الدَّرجةِ الأولىٰ ، حيثُ أثنىٰ عليه رسول ٱلله ﷺ بقوله : « نِعْمَ الرّجل أُسيد بن حُضير »[1] .

* وتوفي رسولُ ٱلله ﷺ وهو راضٍ عن أُسيدِ بنِ حُضير ، وأثبت سيِّدنا أُسيد يوم بيعة أبي بكر الصِّدِّيق بأنَّه « نِعْم الرَّجل » ، فقد وقف موقفاً كريماً دلَّ علىٰ حصافتِهِ من خلاله ، وحسم الأمرَ فقال مخاطباً الأنصار من قومه : « تعلمون أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ كان من المهاجرين ، فخليفته إذن ينبغي أنْ يكون من المهاجرين ، ولقد كُنَّا أنصارَ رسولِ ٱلله ﷺ ، وعلينا أن نكونَ أنصار خليفته » وتمَّتْ بيعةُ الصِّدِّيق بعد هـٰذه الكلمات الصَّافية التي تعبِّرُ عن الحقِّ والصِّدق ، وصدق الحبيب المصطفىٰ ﷺ عندما قال : « نعم الرَّجل أسيد بن حضير » .

= المدينة المنوَّرة علىٰ طريق مكة المكَّرمة ، بينها وبين المدينة تسعة أكيال ، تقع بوادي العقيق عند سفح جَبَل « عَيْر » الغربي ، ومنها تخرج في البيداء تجاه مكة ، وتعرف اليوم باسم « أبيار عليّ » وهي ميقات أهل المدينة ، ومَنْ مرَّ بها حاجاً أو معتمراً ، وبها مسجد الشجرة . و« تقنَّع » : تغشَّىٰ بثوب . و« السَّابقة » : الخصْلَة المفضَّلة إما السَّعادة وإمَّا البشرىٰ بالثَّواب من ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وإما التَّوفيق للطَّاعة . والجمع : سوابق . و« القدم » : أي : سابقة خير ومنزلة رفيعة . و« اهتزَّ » : تحرَّك فاستعمله بمعنىٰ الارتياح : أي : ارتاح لصعودهِ حين صعدَ به ، واستبشرَ لكرامته علىٰ ربِّه ؛ وقيل : أرادَ فرح أهلِ العرش بموته ، وقيل : هو كناية عن تعظيم شأن وفاته نحو : أظلمت الأرض لموت فلان ، وٱلله تعالىٰ أعلم .

(١) « تحفة الأحوذيّ بشرح جامع التّرمذيّ » (١٠ / ٢٩٦) ، حديث رقم : (٣٨٨٢) . وانظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٥) ، و« الإصابة » (١ / ٦٤) .

* كان أسيدٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ محبوباً في قومه بني عبد الأشهل ، فكان إمامهم ، وقد آتاه اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ صوتاً جميلاً في القرآن ، وصادفَ ذات مرَّة أنْ ألمَّ به مرضٌ ، واشتكىٰ منه ، ثمَّ خرجَ إلىٰ قومه ، فأمروه أن يتقدَّمَ فيصلِّي بهم ، فقال : « إنِّي لا أستطيعُ أنْ أقومَ » .

قالوا : « لا يصلِّي لنا غيرك ما كنتَ فينا » .

قال : « فإنِّي لا أستطيعُ أنْ أصليَ قائماً ، فاقعدوا » .

فصلىٰ بهم قاعداً ، فصلَّوا وراءه قعوداً »[1] .

* ولمَّا قدمَ سيِّدنا عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ الشَّامَ ، قدم معه سيِّدنا أسيد ، وشهد معه الجابية ، وكان مقدّماً علىٰ ربع الأنصار ، وشهد معه فَتْحَ بيت المقدس[2] .

* وكانت أمّنا عائشةُ ـ رضوان ٱلله عليها ـ تكثرُ من الثَّناء علىٰ هٰذا الصَّحابي الفاضل العَالِم بقولها : « ثلاثةٌ من الأنصار من بني عبد الأشهل لم يكن أحدٌ يعتدُّ عليهم فَضْلاً بعد رسولِ ٱلله ﷺ : سعدُ بنُ معاذ ، وأسيدُ بنُ حُضير ، وعبَّادُ بنُ بشر ـ رضي ٱلله عنهم ـ »[3] .

* ظلَّ سيِّدنا أسيدٌ مرعيَ الجانب في عَهْدِ الخلافة الرَّاشدة ، وكان سيِّدنا عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ يحبُّه ويجلُّه وينزله من نفسه منزلةَ الأخ الشَّقيق ، وأثبت سيِّدنا عمر ذلك عندما توفي أُسيدٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ .

---

(١) « الاستبصار » (ص : ٢١٦) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩٨) مع الجمع والتّصرّف .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩١ ـ ٣٩٢) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٤١) مع الجمع بينهما .

(٣) « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٣٨ ـ ٣٤٢) ، و« الاستبصار » (ص : ٢١٢) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩٤) .

* أورد ابنُ سعد وغيره هٰذا فقالوا ما مفاده : « مات أسيدُ بنُ حُضَيْر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وترك عليه أربعة آلاف درهم دَيناً ، فبيعَتْ أرضُهُ ، فقال عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ : أتركُ بني أخي عالةً ؟ ! فردَّ الأرضَ ، وبعثَ إلىٰ غرمائه فقال لهم : هل لكم أنْ تقبضوا كلَّ عام ألفاً ؟ ـ وكان أسيدٌ قد أوصىٰ إلىٰ سيِّدنا عمر ، فنظرَ في وصيَّته فوجد عليه أربعة آلاف ـ .

قالوا : نعم يا أميرَ المؤمنين .

فأخَّروا ذلك ، فكانوا يقبضون في كلِّ عام ألف درهم ؛ إذ باع عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ ثمرَ نخله أربع سنين بأربعةِ آلاف ، وقضىٰ دَيْنَه » [1] .

* كانت وفاةُ سيِّدنا أُسيد إبَّان الخلافة العمريَّة ، قال محمودُ بنُ لبيد : « توفي أسيدُ بنُ الحُضير في شعبانَ سنة عشرين ، فحمله عمرُ بنُ الخطَّاب بين العمودَيْن من بني عبد الأشهل ، حتَّىٰ وضعه في البقيع ، وصلَّىٰ عليه بالبقيع » [2] .

* وقيل : « إنَّ سيِّدنا عمرَ ـ رضي ٱلله عنه ـ حملَ نعْشَه بنفسه بين الأربعةِ الأعمدة ، وصلَّىٰ عليه ، وأوصىٰ أُسيدُ إلىٰ عمر » [3] .

* رضي ٱلله عن سيِّدنا أسيد ، ذي الرَّأي السَّديد ، والأمر الرَّشيد ، وحشرنا في معيَّته إنَّه حميد مجيد .

✍ ✍ ✍

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٦) ، و« أسد الغابة » (١ / ١١٣) ترجمة رقم : (١٧٠) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٤ / ٣٩٨) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٤٢ ـ ٣٤٣) مع الجمع بينها .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ٦٠٦) .

(٣) « الاستبصار » (ص : ٢١٦) ، و« الاستيعاب » (١ / ٣٣) .



خُبيبُ بنُ عدي

رضي ٱلله عنه

* محبٌّ ودودٌ لسيِّد الأنبياء محمَّد رسول ٱلله ﷺ .
* من خيار الصَّحابة القرَّاء الفقهاء المخلصين .
* قُتِلَ شهيداً بأيدي المشركين ؛ وضَرَب مثلاً عظيماً في الوفاء .



خُبيبُ بنُ عَديّ

رضي ٱلله عنه

الرَّجُل المحبُّ :

* انطوىٰ هـٰذا الرَّجل علىٰ الإسلامِ ؛ لأنَّه رأىٰ في كنههِ حقيقةَ ذاته ، ولقي في سماحته عناصرَ فطرتهِ ، ووجدَ مع نبيِّه ﷺ النَّجاةَ ، فتلاشىٰ في محبَّته ، وأخلصَ لدينه إخلاصَ الأصفياء ، فكان من السُّعداء ، وكان من القوم الذين هم في طُرُقِ الخيرات ساعون ، ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨ ، المعارج : ٣٢] .

* أسلَمَ هـٰذا الصَّحابي مع غيره من رجال الأنصار الذين يُؤثرون علىٰ أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ ، ويؤوون وينصرون بكلِّ تَفَانٍ وجُودٍ وشجاعة ؛ ولا نعلمُ كيف أسلم في البداية ؛ إذ لا تسعفُنا المصادر بمعلومات تبلُّ الصَّدىٰ وتروي الغُلَّة في هـٰذا المضمار .

* هـٰذا الصَّحابيُّ المحبُّ المخلصُ للحبيب المصطفىٰ ﷺ هو خُبيبُ بنُ عديّ بن عامر الأنصاريّ الشَّهيد (١) ، أحد الصَّحابة الأخيار الأجلاء ، الذين

---

(١) « الاستبصار » (ص : ٣٠٥ ـ ٣٠٧) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٢٤٦ ـ ٢٤٩) ، و« حليةُ الأولياء » (١ / ١١٢ ـ ١١٤) ، و« أسد الغابة » (١ / ٥٩٧ ـ ٥٩٩) ترجمة رقم : (١٤١٧) ، و« الإصابة » (١ / ٤١٨) ، و« الاستيعاب » (١ / ٤٣٠ ـ ٤٣٤) ، و« البداية والنِّهاية » (٤ / ٦٢ ـ ٦٩) ، و« تفسير القرطبيّ » (١١ / ٣٠ ـ ٣٢) ، وغيرها ممَّا لا يحصىٰ .

رسموا أجملَ صور الحبِّ والوفاء ، في تاريخ سيِّد الأنبياء ، علىٰ صحائف السِّيرة الغرَّاء .

* وسيِّدنا خبيبُ بنُ عديّ ـ رضي ٱلله عنه ـ من عليا قبائل الأنصار ، من بني جَحْجَبَىٰ ، وهم بطنٌ من بطون الأنصار .

* قال ابن دريد رَحِمَهُ ٱللهُ في « الاشتقاق » : « واشتقاقُ جَحْجَبَىٰ من الجحجبة ، وهو التَّردُّد في الشَّيء ، والمجيءُ والذَّهابُ . جَحْجَبَ يجحجبُ جحجبةً ؛ ومنهم : خُبيبُ بنُ عديّ ، أُسِرَ وقتلته قريش بمكَّةَ وصلبوه . . . . » [١] .

* قال الفيروزآبادي : « جحجب العدوَّ : أهلكه . وفي الشَّيء : تردَّد ، وجاء ، وذهب . وجَحْجَبٌ : اسم . وجَحجبىٰ : حيٌّ من الأنصار » [٢] .

* وافتتح ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللهُ ترجمته في « الاستيعابِ » بقوله : « خبيبُ بنُ عدي الأنصاريّ الأوسيّ من بني جحجبىٰ . . . شهد بدراً ، وأُسِرَ يوم الرَّجيع مع زيد بن الدّثنة ، فانطلق المشركون بهما إلىٰ مكَّة فباعوهما . . . . » [٣] .

* من خلال هـٰذه المعلومات ندرك أنَّ سيِّدنا خبيباً كان من مشاهير الصَّحابة ، وأعيان الأنصار الأخيار ، وقد سجَّل سبقاً ميموناً في ديوان المكارم ، وسماء العظائم .

* وسيّدنا خبيبُ بنُ عدي ـ رضي ٱلله عنه ـ من أهلِ بدرٍ الذين نالوا السَّعادة في الدَّارَيْن بإذن ٱلله عزَّ وجلَّ .

---

(١) « الاشتقاق » (ص : ٤٤١ ـ ٤٤٢) باختصار .

(٢) « القاموس المحيط » (ص : ٨٤) مادة : « جحجب » .

(٣) « الاستيعاب » (١ / ٤٣٠) بتصرُّف يسير .

* وعن شهوده بدراً بمعيَّة رسولِ ٱلله ﷺ يقول ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « خبيبُ بنُ عدي بن مالك . . . الأنصاريّ الأوسيّ ، شهد بدراً مع رسولِ ٱلله ﷺ »[1] .

* ويوم بدر قاتلَ سيِّدنا خُبيب ـ رضي ٱلله عنه ـ قتالاً شديداً ، حتَّىٰ أُصيب بضربةٍ قويةٍ في شِقِّه ، فعالجه رسولُ ٱلله ﷺ فعُوفي بإذن ٱلله تعالىٰ .

* أخرجَ هـٰذا الخبر الإمامُ البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « دلائل النّبوّة » بسندٍ رفعه إلىٰ ابن إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال : « أخبرني خبيبُ بنُ عبد الرَّحمـٰن ، قال : « ضُربَ خبيبٌ ؛ يعني ابن عديّ يوم بدر ، فمالَ شقّه ، فتفَلَ عليه رسولُ ٱلله ﷺ ولأمَهُ ، وردَّهُ ، فانطبق »[2] .

خبيبٌ في بعثةٍ نبويَّة :

* كان سيِّدنا خبيبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ أحدَ رجال الصَّحابة الأخيار الذين نعموا بالإسلام ، فأقْبَل علىٰ المجالس النَّبويَّة ينهلُ من العلوم كُلَّ فنّ ونوع ، حتَّىٰ غدا من الصَّحابةِ الفُقهاء المُعَلِّمين ، ولهـٰذا اختاره النَّبيُّ ﷺ في بعثةٍ علميَّة لإقراء القرآن الكريم ، والتَّفقُّه في الدِّين ، ضمن ثلّة من كُبَراء المهاجرين والأنصار .

---

(١) « أسد الغابة » (١ / ٥٩٧) .

(٢) « دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (٣ / ٩٧ ـ ٩٨) ، وهـٰذا الأمر من دلائل النُّبوَّة الظَّاهرة للعيان أمام الصَّحابة الكرام . ومن الكرامات النَّبويَّة والدَّلائل العظيمة التي حدثت يوم بدر أنّ سيّدنا قتادة بن النّعمان الأنصاريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قد أُصيبت عينه يوم بدر ، فسالت حدقته علىٰ وجنته ، فأرادوا أنْ يقطعوها ، فسألوا رسول ٱلله ﷺ ، فقال : « لا » فدعا به فغمز حدقته براحته ، فكان لا يدري أي عينيه أصيبت » . « دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (٣ / ١٠٠) ، وكان ابن قتادة ينشد :

أنا ابنُ الذي سالتْ علىٰ الخدِّ عينُهُ فَـرُدَّتْ بكـفِّ المصطفىٰ أيَّمـا ردّ

* ومن العجيب أنَّ سيِّدنا خُبيباً ـ رضي ٱلله عنه ـ قد امتُحِنَ امتحاناً عجيباً في دينه ، فثبتَ علىٰ الحقِّ ثباتاً أدهش قاتليه ، حتَّىٰ أسلم معظمُهم فيما بعد ، ونعموا بالإسلام كما نَعِمَ هو والصَّحابة الكرام من قبلُ ورشدوا .

* كانت محنةُ سيِّدنا خبيب ـ رضي ٱلله عنه ـ في بَعْث الرَّجيع عقب غزوة أُحد ، وكان فيه بطولاتٌ فدائيَّةٌ باهرة كشفت عنها الشَّدائدُ والمحنُ ، ولـٰكنَّها أقامت بهـٰذه الفدائيَّة منائر اليقين والثَّبات والارتقاء ، وجعلت كلمة الكفر في عهودِهِ هي السُّفلىٰ ، وداست عليه بأقدامها ، ولم تعطِها شيئاً من الثِّقة بها ، وهي ترىٰ الموت يحفُّها من جميع جوانبها .

* وقد ظهر في رجال هـٰذا البعث ـ بعث الرَّجيع ـ من قوَّةِ الحبِّ الإيماني لرسولِ ٱللهِ ﷺ ، عند أصحابه الذين كانت رقابُهم تحتَ مرهفات السُّيوف ، وهم ينظرون إلىٰ الموت يسرعُ نحوهم ليتخطَّفهم ، فلا يرضىٰ أيّ واحدٍ منهم أن يُصَابَ رسولُ ٱللهِ ﷺ بشوكةٍ يُشَاكَها ، وهو ﷺ في مكانه بين أصحابه آمناً مطمئناً ، ويَنْجَوْن بأنفسهم من الموت المحقَّق .

* والرَّجيع [1] الذي سُمِّي به هـٰذا البعث موضعٌ لِهُذيل بين مكَّة وعسفان بناحيةِ الحجاز ، كانت الوقعةُ بالقرب منه ، فسمّيت به . قال الواقديّ رَحِمَهُ ٱللهُ : « والرَّجيعُ علىٰ ثمانيةِ أميال من عسفان ، وكانت وقعتُه سنة أربع للهجرة ، علىٰ رأس ستَّةٍ وثلاثين شهراً منها » . وهـٰذه الوقعة المروّعة جاءت من قِبَل القبائل الحجازيَّة ، ومن جيران الحرم بالذَّات أهل مكَّة ، وكان ضحاياها نفرٌ يعدّون عشرة من خيار رجال الصَّحابة ، وقد مثَّل الغادرون بالرَّجيع أحطَّ ألوان الغدر والخيانة والفجور ، فإلىٰ تفصيل ذلك وبيانه .

كيف غدرَ المشركون بِخُبيب ؟

* قدمَ علىٰ النَّبيِّ ﷺ رهطٌ من عضَلٍ والقَارة من الهون بن خزيمةَ بنِ

---

(١) « الرَّجيع » : هو في الأصل اسمٌ للرَّوث ، سمِّي بذلك لاستحالته . والمرادُ هنا اسم موضع من بلاد هذيل ، كانت الوقعة بقرب منه ، فسمّيت بذلك .

مدركة في شهر صَفَرَ من السَّنةِ الرَّابعة من الهجرة ، وتظاهروا أمامه ﷺ بأنَّهم رضوا بألله ربّاً ، وبالإسلام ديناً ، وبه رسولاً ونبيّاً ، ثمَّ طلبوا منه ﷺ أنْ يوفدَ معهم ثلَّة من أصحابه من أهل العلْمِ والفقْهِ ، حتَّىٰ يعلّموهم دين الإسلام ، وقالوا : « يا رسولَ ٱلله ! إن فينا إسلاماً ، فابعثْ معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدِّين ، ويقرئونا القرآن ، ويعلِّموننا شرائع الإسلام » .

* استجاب الحبيبُ المصطفىٰ الصَّادق المصدوق ﷺ لرغبتهم ، وبعث معهم عشرة من خيار صحبه وكانوا ستَّةً من المهاجرين ، وأربعةً من الأنصار فيهم سيِّدنا خبيبُ بنُ عدي ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ ، وجعل عليهم رئيساً وأميراً سيِّدنا عاصمَ بنَ ثابت أحد الرِّجال الأبطال الرُّماة المشهورين في عالَم الفروسيَّة والقوَّة والرَّمي ، وقد صرعَ عاصم بنباله اثنين من حملةِ لواء قريش في غزوة أحد .

* غادر خبيبٌ وصحبُهُ الفقهاءُ القُرَّاء المدينة مُوَدِّعين من حبيبهم رسولِ ٱلله ﷺ ، واتَّجهوا جنوباً نحو مكَّة المكرمة ، وهم يصحبون الخائنين الخُصَماء الذين وفدوا إلىٰ المدينة النَّبويَّة متظاهرين بالإسلام وحُسْنِ الأحدوثة ، ولمَّا وصلوا إلىٰ الرَّجيع غدر بهم الخائنون الذين تظاهروا بالإسلام ، وطلبوا ابتعاثهم من رسولِ ٱلله ﷺ إلىٰ قومهم ليعلِّموهم الإسلام .

* وفي الرَّجيع مثَّلَتْ قبائلُ تلك المنطقة من هُذيل أسوأَ أنواعِ الغدر ، وأبشعَ أساليب اللؤم ، وأحقرَ ألوان الخسَّة والدَّناءة . فبينما كان خبيبٌ وثلَّةُ الصَّحابة آمنين مطمئنِّين في رحالهم حول الماء ، ومعهم رجالُ الوفد الغادر ، إذا بهـٰؤلاء الرِّجال الغادرون يتسلَّلون واحداً تلو الآخر من بين خُبيبٍ وصحبه ، ثمَّ يتَّجهون نحو قبيلة هذيل ، فيستصرخونها علىٰ رجالِ المسلمين الآمنين ، طالبين منها أنْ تشاركَها في الغدر بهـٰذا الوفد العلميّ والرِّجال الفقهاء المسالمين ؛ الذين لم يفكِّروا مُطْلقاً في الحرب أو العدوان علىٰ أحد مهما كان شأْنُه .

* وممَّا يدعو إلىٰ التَّأمُّل أنَّ قبيلةَ هذيل استجابت لداعي الخسَّة والغدر

المبيَّت ؛ إذ لم يَـرُعْ خبيب بن عدي ومَنْ معه من رجالِ البعثة التَّفقيهيَّة التي لا يتجاوز عددها العشرة ، إلا الرِّجال الغادرون بأيديهم سيوف اللؤم تقطر بالنَّذالة ، وقد أحاطوا بالمسلمين من كلِّ جانب وقد ارتسمت علىٰ وجوههم إمارات الغدر والحقد .

* ولمَّا رأىٰ المؤمنون الفُقهَاء ذلك هبُّوا مسرعين إلىٰ أسيافهم ليقاتلوهم ويدافعوا عن أنفسِهم ، ولٰكنَّ الجبناء الغادرين خافوهم لمَّا رأوا شدَّة المقاومةِ ، وضراوة القتال ، وثوران الدِّماء في عروق المسلمين ، وطلبوا منهم أن يكفُّوا عن القتال ، وعرضوا عليهم الأمان وقالوا : « إنَّا واللهِ لا نريدُ قتلكم ، ولٰكنَّا نريدُ أنْ نصيبَ بكم شيئاً من أهل مكَّة ، ولكم العهدُ والميثاقُ ألا نقتلكم » .

* نظر خبيبٌ وصحبُه فيما بينهم ، وتدارسوا هٰذا العرض من المشركين ، فقرَّر سبعةٌ منهم أنْ يقاتلوا المشركين ، وشدَّ هٰؤلاء علىٰ الغادرين ، وقاتلوهم قتالَ الأُسُد الضَّواري ، بيد أنَّ كثرةَ الهذليين تغلَّبت علىٰ هٰؤلاء الأصفياء ، فكانوا جميعاً في عداد الشُّهداء .

* أمَّا الثَّلاثة الآخرون وهم : خبيبُ بنُ عديّ ، وزيد بن الدَّثنة ، وعبد ٱلله بن طارق ، فقد رأوا ألاَّ فائدة من مناوشةِ الغادرين ومقاومتهم ، ووثقوا بالأمان الذي عرضه عليهم الهذليّون ؛ فاستسلموا ، فأسرهم هٰؤلاء الأفَّاكون ، وأوثقوهم كتافاً ، ولم يرعَوا لهم حرمةً .

* وبعد أنْ تمَّ للمشركين ما أرادوا من أسْرِ خُبيب وصاحبيه ، أسرع بهم الهذليّون إلىٰ مكَّةَ ليبيعوهم فيها لمشركي قريش ، الذين تعلم هذيل أنَّه يسرّهم جدّاً أنْ يقعَ في أيديهم أمثالُ هٰؤلاء الرِّجال من أصحاب رسولِ ٱلله ﷺ ، ممَّن كان لهم أيادٍ بيضٌ ، وآثارٌ حِسَان في غزوتَي بدر وأحد .

* غير أنَّ واحداً من هٰؤلاء الثَّلاثة ، وهو عبد ٱلله بنُ طارق البلويّ حليف بني ظفَرَ ، ندمَ لاستسلامه ، فلمَّا كانوا بالظَّهران انتزعَ يده من القيد ،

وأبىٰ أنْ يصحبَهم ، واختطفَ سيفاً فقاتلَ القوم وقال : « إنَّ لي بهـٰؤلاء أسوة » ؛ يعني : الذين قُتِلُوا من أصحابه ، فتكاثر الجبناء حتَّىٰ قتلوه ولحق بركب أصحابه الشُّهداء ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ .

* وما أجمل أنْ نأخذَ قسطاً من الأدب ، نشحذُ من خلاله الهمم ، ثمَّ نتابعُ الرِّحلة مع سيِّدنا خبيب ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ فلنقرأ التغريدة الآتية :

رهْــطٌ مــن الأعــراب جــاؤوا للمــدينــةِ وافــديــن
لاقــوا رســولَ اللهِ قــالــوا قــد أَتَينــا راغبيــن
ووراءَنــا أقــوامُنــا قــد أسلمُــوا فــي المسلميــن
فــابعــثْ لنــا نَفَــراً يكــونــوا للجميــع معلِّميــن
فــاختــار خيــرُ الخلــق عشْــراً مــن خيــار المــؤمنيــن
كــي يــذهبــوا ويعلِّمــوا أهــلَ الضَّــلال المجــرميــن
وَصَلُــوا إلــىٰ مــاء الــرّجيــع علــىٰ طــريــق الــذَّاهبيــن
المُسْلمــون يُــرافقــون لغــادريهــم آمنيــن
وصلُــوا هنــاكَ ليستــريحــوا مــن عنــاءٍ متعبيــن
وإذا بــرفقتهــم تنــادَوا فــي هُــذيــل صــارخيــن
فــوراً أحــاطــوا بــالــرِّجــال المسلميــن النَّــائميــن
قــالــوا لهــم لا لا تخــافــوا ولتكــونــوا آمنيــن
لسنــا نــريــدُ قتــالكــم نعطيكــم العهــدَ المتيــن
لـٰكــنْ نــريــدُ نصيــبُ شيئــاً مــن قــريــش بــائعيــن [1]

أتحبُّ محمَّداً ؟

* كانت رحلةُ الهذليين إلىٰ مكَّة رحلةً نكدةً مليئةً بشتَّىٰ أنواع المتاعب ؛ إذ لم يدخلِ القومُ مكَّة إلاَّ بأسيرين اثنين هما : خبيبُ بنُ عديّ ، وزيدُ بن

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (٣ / ٩٨ ـ ١٠٠) بتصرُّف واختصار .

الدّثنة ، ولمّا كانت الحالةُ يوم ذاك بين المدينة ومكّة هي حالةُ أخْذٍ وردٍّ ، وحربٍ ومناوشة ؛ فقد دلف السُّرور إلىٰ زعماء مكّة وأكابر مجرمي المشركين ، وفرحوا بأسر هٰذين الرَّجلين ، وأخذوا في مساومة هُذيل لابتياعهما بغيةَ الانتقام من المسلمين بالمدينة بقتلهما .

* ذكر ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « الطَّبقات الكُبرىٰ » : بأنَّ صفوانَ بن أميَّة الجُمحيّ قد اشترىٰ زيدَ بن الدّثنة ، ثمَّ قتله بأبيه أميَّة بن خلف الذي قتَلَه المسلمون في غزوة بدر الكبرىٰ ، وأنَّ حجيرَ بن أبي إهاب التَّميمي اشترىٰ خبيبَ بنَ عديّ ، وسلَّمه لعقبةَ بنِ الحارث بن عامر ليقتله بأبيه الذي لقي مصرعه علىٰ أيدي المسلمين .

* فكيف قتل المشركون الأسيرين ؟ وما الخطواتُ الأخيرةُ في حياة سيِّدنا خبيب بن عديّ ؟ ! حسناً فَلْنَشْهدْ ذلك المشهد النَّديّ .

* كانت هٰذه الأحداثُ قد تمَّت في الأشهر الحُرم ، وكان مشركو مكّة لا يقتلون أحداً ، ولا يقاتلون أحداً فيها حتَّىٰ تنقضي ، لذلك لم يستطيعوا أنْ ينفِّذوا حكْم القَتْلِ في الأسيرين الكريمين خبيب وزيد ، حتَّىٰ تنقضي هٰذه الأشهر التي لا يحلّون فيها سفْك الدِّماء ولو بأسراهم ! ! !

* لهٰذه الظُّروف الطَّارئة ، ولهٰذه العقائد الجاهليَّة المضطربة المتناقضة ، أُودِعَ الأسيران السِّجن ، وأخذت قريش تنتظرُ مرور الأشهر الحرم بفارغ الصَّبر ، حتَّىٰ تثأر بزعمها من رجلَيْن أخذا غدراً وخيانة من قبائل مناوئة للإسلام ، ونَبيّ الإسلام ، ولم تأخذْهُما في ساحة الشَّرفِ والجلاد والصِّدام .

* ولمَّا انقضت أيَّام هٰذه الأشهر قَتَلَ مجرمو المشركين أسيريهما بطريقةٍ وحشيةٍ خسيسة ، في حين أنَّ الأسيرين استخفَّا بهم ، وسخرا منهم أشدَّ السُّخرية ، وسجَّلا في ديوانِ الخالدين أوفىٰ آيات الحبّ والفداء للحبيب المحبّ محمَّد رسول ٱلله ﷺ .

* بدأت ساعاتُ الشَّهادة تقترب من خبيب وزيد لتنقلهما العناية الإلٰهيَّة

إلىٰ الحياة الحقيقيَّة ، حتَّىٰ يُرزقان عند ربّهم في جنَّةٍ عرضها السَّمٰوات والأرض أعدَّت للمتّقين ، وكذلك جزاء من عمل بالتَّقوىٰ وحظي بالشَّهادة في سبيل ٱلله ، ومحبَّة خالقه ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ومحبَّة رسوله الأمين الحبيب المصطفىٰ ﷺ .

* ومن عجيب أمر المشركين في أمِّ القُرىٰ وصفاقة معتقدهم ؛ أنَّهم كانوا وقت ذاك لا يستبيحون سفْك الدَّم داخل حدود الحرم المكِّيّ ، ولمَّا كان أمرهم هٰذا ، فقد خرجوا بخبيب وزيد إلىٰ ما وراء حدود الحرم في مكان يسمَّىٰ « التَّنعيم »[1] ؛ حيث قُتل الصَّحابيّان في سبيل ٱلله عزَّ وجلَّ .

* أمَّا زيدُ بنُ الدَّثِنة ، فقد سلَّمه صفوانُ بنُ أميَّة إلىٰ مملوك له يسمَّىٰ : « نسطاس » وأمره بقتله ففَعَلَ ، وكان ذلك أمام جمع من النِّساء والصِّبيان والعبيد وبعض كبراء القوم كأبي سفيان بن حرب ، وابنه معاوية ، وسعيد بن عامر الجمحيّ وغيرهم .

* أظهر هٰذان الرَّجلان المتألّقان القويّان بالإسلام : خُبيبٌ وزيدٌ ـ رضي ٱلله عنهما ـ أشكالاً وسماتٍ من الثَّبات علىٰ العقيدة لا يقوىٰ عليها إلا الأتقياء المخلصون ، وإلا الأصفياء المحبّون ، وهٰذا الثَّباتُ الشُّجاع جعلهما في أرفع مستويات الصِّديقين الصَّابرين ، والشُّهداء الصَّالحين .

* وإليكم هٰذه الصُّورة المتألِّقة والقبسة الإيمانية من زيد بن الدّثنة ، فحينما قُدِّم للقتل اجتمع رهطٌ من قريش فيهم أبو سفيان ، فقال له ممتحناً وهازئاً بآنٍ واحد : « أنشدك ٱلله يا زيد ، أتحبُّ أنَّ محمَّداً عندنا الآن مكانك تُضْرَبُ عنقه ، وأنتَ في أهلك ؟ ! » .

---

(١) « التَّنعيم » : مكانٌ يقعُ بين مكَّة وسَرِف ، ومنه عمرة التَّنعيم . قالوا : سُمّي بذلك باسم شجر معروف في البادية . وقيل : سمِّي بذلك لأنَّ جبلاً عن يمينه يُقال له : نعيم ، وآخر من شماله يقال له : ناعم ؛ والوادي : نَعْمان . ومنه يحرم المكّيّون بالعمرة . وفيه الآن مسجد كبير يسمَّىٰ : « مسجد عائشة » وهو من أحياء مكَّة القريبة من الحرم .

* بسرعةِ البرقِ الخاطف ؛ والرَّعد القاصف ؛ أجابَ زيدٌ دون تردُّد إجابة المؤمن الوفي الصَّادق : « لا واللهِ ما أحبُّ أنَّ محمَّداً ﷺ الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبُه شوكةٌ تؤذيه ، وأنِّي جالسٌ في أهلي » .

* كاد أبو سفيان أنْ يذوبَ أسفاً وغيظاً من هٰذا الفداء ، وهٰذه المحبَّة من الأنصار هٰؤلاء ، وراح يلتفتُ إلىٰ من حوله في دهش وذهول ، ثمَّ انبجست شفتاه عن كلمة حقّ في حقِّ الرَّسول ﷺ فقال : « وٱلله ! ما رأيتُ من النَّاس أحداً يحبُّ أحداً ، كحبِّ أصحاب محمَّد محمَّداً » . وصدق أبو سفيان فيما عبَّر عنه بهٰذه الكلمات الموحيات الموقظات ، فما عرفت البشريَّةُ في تاريخها الطَّويل العريض رجالاً يحبُّون أحداً حبَّ الصَّحابة الأبرار ، النَّبيَّ المختار ﷺ ؛ إذ إنَّهم بهٰذه المحبَّة الصَّادقة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولرسوله ﷺ بلغوا السُّها ، ومعارجَ الكمال ، فكانوا بحقٍّ سادةَ الرِّجال ، وعنوانَ الجلال ، وزينة الأجيال .

* وبعد ذلك استيقظ أبو سفيان من دهشهِ وذهولهِ ، وتقدَّم نسطاس من سيِّدنا زيد بن الدَّثنة ـ رضي ٱلله عنه ـ ، واستعدَّ لقتله ، وقبل أنْ يقتله ، قام المشركون بتعذيب سيِّدنا زيد ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ إذ أحكموا وثاقَه ، واخلولَقُوا يرمونه بالنِّبال ذات اليمين وذات الشِّمال ، وفي أماكنَ غير قاتلة ، لعلَّه يثوبُ إليهم ، ويُفْتَنُ ويرجع عن دينه ، ولٰكنْ أنَّىٰ لهم ذلك ، بل ازداد ثباتاً ومضاءَ عزيمةٍ ، فقتله نسطاس وهو يهللُ ويكبِّر ويشهدُ أنْ لا إلٰه إلا ٱلله وأنَّ محمَّداً رسول ٱلله ، ولم تَلِنْ قناته ، لم ينحرفْ لسانه بحرفٍ واحد عن الذِّكْر والحَمْدِ ، ممَّا جعل الكفَّار يشعرون بالكبت ، وتعكَّرَ عليهم صفو سرورهم بالانتقام من زيد ـ رضي ٱلله عنه ـ .

ولستُ أُبالي حين أُقْـتَلُ مسلماً :

* هٰذه الكلمة التي ملأت سمع الدُّنيا نطقَ بها خُبيبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وهو في اللحظات الأخيرة من حياته ، فكانت نبراساً لكلِّ محبّ للحبيب المصطفىٰ ﷺ علىٰ مدىٰ الأزمان والأعصار .

* مكث سيِّدنا خبيبٌ أسيراً عند بني الحارث بن عامر بن نوفل ، حتَّىٰ إذا أجمعوا علىٰ قَتْله ، استعار موسىٰ من بعض بناتِ الحارث ليستحدَّ بها ، فأعارته ، قالت : « فغفلتُ عن صبيٍّ لي ، فدرَجَ إليه حتَّىٰ أتاه ، فوضعَه علىٰ فخذه ، فلمَّا رأيتُهُ فزعتُ فزعةً عرفَ ذاك منِّي ، وفي يده الموسىٰ ، فقال : أتخشين أنْ أقتلَه ؟ ما كنتُ لأفعلَ ذاك إنْ شاء ٱللهُ » . وكانت تقولُ : « ما رأيتُ أسيراً قط خيراً من خبيب ، لقد رأيته يأكلُ من قِطف عنب ، وما بمكَّة يومئذ ثمرة[1] ، وإنَّه لموثقٌ في الحديد ، وما كان إلا رزقٌ رزقَه ٱللهُ » .

* ثمَّ خرجوا به من الحرم إلىٰ التَّنعيم ليقتلوه ، ويصلبوه ، واحتفل المشركون احتفالاً مشهوداً ، واجتمع عنده نفرٌ من سادات قريش فيهم أبو سفيان بنُ حرب ، وابنه معاوية وغيرهم ، حضروا لينظروا قَتْله ، فَقَبْلَ أنْ يقتلوه ، وبعد أنْ صلبوه علىٰ الخشبةِ استعداداً لطعنه برماحِ الغدر ، أخذوا يساومونه في دينه ، ويحاولُون جاهدين زعزعته عن إيمانه ، فعرضوا عليه أنْ يُعْفُوه من القَتْل إنْ هو رجع عن دينه ، وإنْ هو تبرَّأ من محمَّد ﷺ ، وقالوا له : « ارجعْ عن دينك يا خبيبُ ، نُخَلِّ سبيلك ، وإن لم ترجعْ قتلناك ، وأذقْناك طعمَ الموت . . . . » ، فكان جوابه جوابَ الصَّادقين الصَّابرين الذين يستعذبون الموت في سبيل اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وأفهمهم بشدَّة وحزمٍ أنَّ قَتْله في سبيل اللهِ قليلٌ ، وأخذ يكثرُ من شهادةِ النَّجاة والتَّوحيد ، ثمَّ رفضَ هـٰذه المساومة الرَّخيصة بعينِ الازدراء ؛ فثارت ثائرتهم ، وانبعثت أحقادهم ، وأزمعوا قتله .

---

(١) وإلىٰ هـٰذه الكرامة أشار السُّبكيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تائيته الشّهيرة فقال :

وكَمْ معجزاً أعطىٰ لكَ اللهُ كائناً ... علىٰ يَدِ أصحابِ كرام العشيرةِ
كأكْلِ خُبيبٍ مُوثقاً عِنَباً ولم ... تكُونَنَّ أرض اللهِ جاءتْ بحبَّةِ

« المجموعة النَّبهانيَّة » (١ / ٤٢٩) .

* وقبل أن يقتلوه طلبَ خبيبٌ من جموع المشركين أنْ يمهلوه قليلاً وقال : « دعوني أصلِّي لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ركعتين » فاستجابوا لرغبتِهِ هٰذه ، وتركوه ، فصلاَّهُما وأحسنهما وهو غيرُ مبالٍ بمن حولَه من كبراء المجرمين ، ثمَّ أقبل عليهم وقال لهم في هدوءِ الأصفياء المخلصين : « أما واللهِ لولا أن تظنُّوا أنِّي إنَّما طوَّلت جزعاً من القَتْل ، لاستكثرتُ من الصَّلاة ، ولزدت » .

* قال ابنُ إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « فكان خبيبُ بنُ عدي أوَّل من سنَّ هاتَيْن الرَّكعتين عند القَتْل للمسلمين » .

* بعد أنْ صلب مجرمو قريش وكفَّارها خبيباً علىٰ الخشبة دعا وهو مصلوبٌ مظلومٌ فقال : « اللهم إنَّا قد بلّغنا رسالة رسولك ؛ اللهم إنَّه ليس أحد هنا يبلِّغ رسولك عنِّي السَّلام ، فبلِّغه أنتَ عنِّي السَّلام ، وبلِّغْه ما يُصْنَعُ بنا » .

* نظر المجرمون وأكابرُ قريش إلىٰ خبيبٍ في شماتة وتشفٍّ ، فتوجَّه خبيبٌ بوجهه إلىٰ السَّماء وقال : « اللهمَّ أحصِهم عدداً ، واقتلهم بدداً ، ولا تغادرْ منهم أحداً » .

* ذكر ابنُ إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن معاويةَ بنِ أبي سفيان أنَّه كان مع أبيه فيمن حضرَ مقْتَل خبيب ؛ قال معاوية : « فلقد رأيتُ أبي ـ عندما دعا عليهم خبيب ـ يُلقيني إلىٰ الأرض خوفاً من دعوة خبيب ، وكانوا يعتقدون أنَّ الرَّجل إذا دُعي عليه ، فاضطجعَ لجنبه ، زالتْ عنه » .

* ثمَّ إنَّ قريشاً دعت أربعين فتىٰ ممَّن قتَلَ المسلمون آباءهم يوم بدر ، فأعطتْ كلَّ واحدٍ منهم رمحاً ، وقالت : هٰذا الذي قتلَ آباءكم ، فطعنوهُ بتلك الرِّماح حتَّىٰ مزَّقُوه ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وكان يقول :

ولستُ أبالي حينَ أُقْتَلُ مُسْلماً ... علىٰ أيِّ شقٍّ كان في اللهِ مصرعي
وذلكَ في ذاتِ الإلٰهِ وإنْ يشأْ ... يُباركْ علىٰ أوصالِ شلوٍ مُمزَّعِ

* ويُقال : إنَّ الذي قَتَل خُبيباً هو عقبةُ بنُ الحارث ، وكان غلاماً صغيراً ، ولٰكنَّ أبا ميسرة العبدريَّ أخذَ الحربةَ فجعلها في يدِ عُقبةَ ، ثمَّ أخذ

بيدهِ وبالحربةِ ، ثمَّ طعَنَ خبيباً بها حتَّىٰ قتله ـ رضي ٱللهُ عنه [1] ـ .

* وفي السِّيرة النَّبويَّة أخبارٌ متفرِّقةٌ مفيدةٌ توضِّحُ مقتلَ سيِّدنا خبيب واستشهاده ، ومنها ما ذكرهُ ابنُ إسحاق رَحِمَهُ ٱللهُ أنَّ خبيباً قال حين بلغه أنَّ القومَ قد أجمعوا لِصَلبه :

لقد جمَّعَ الأحزابُ حولي وألَّبوا ... قبائلَهم واستجمعوا كلَّ مجمعِ
وكلُّهم مُبدي العداوةَ جاهدٌ ... عليَّ لأني في وثاقٍ بمَضْيعِ
وقد قرَّبوا أبناءَهم ونساءهم ... وقُرِّبتُ من جذعٍ طويلٍ ممنعِ
إلىٰ اللهِ أشكو غُربتي بعد كُربتي ... وما أرصدَ الأحزابُ لي عند مصرعي
فذا العرشُ صبَّرني علىٰ ما يُرادُ بي ... فقد بضَّعُوا لحمي وقد يَاسَ مطمعي
وقد خيَّروني الكفْرَ والموتُ دونَه ... فقد ذرفَتْ عيناي من غيرِ مجزعِ
وما بي حذارِ الموت إنِّي لميِّتٌ ... ولٰكن حِذاري جحم نارٍ ملفَّعِ
ولستُ أبالي حين أُقتل مسلماً ... علىٰ أيِّ شق كان في ٱلله مصرعي
وذلك في ذاتِ الإلٰهِ وإنْ يشأْ ... يُبارِكْ علىٰ أوصالِ شلوٍ ممزَّعِ
فلستُ بمبدٍ للعدو تخشُّعاً ... ولا جزعاً إنِّي إلىٰ اللهِ مرجعي [2]

---

(١) انظر : « فتح الباري » (٧ / ٤٣٧ ـ ٤٤٥) ، و« الاستبصار » (ص : ٣٠٥ ـ ٣٠٧) ، و« حلية الأولياء » (١ / ١١٢ ـ ١١٤) ، و« الاستيعاب » (١ / ٤٣٠ ـ ٤٣٤) مع الجمع والتَّصرُّف فيما بينها . وانظر : « السِّيرة النَّبويَّة » لابن هشام (٢ / ١٦٩ ـ ١٧٧) .

(٢) « السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ١٧٦) ، و« دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (٣ / ٣٢٨ ـ ٣٢٩) ، وقال ابن هشام رَحِمَهُ ٱللهُ : « وبعض أهل العلم بالشِّعر ينكرها له » . وهو كما قال إذ إنَّ الصَّنْعة باديةٌ علىٰ معظم الأبيات ، وهناك بعض الأبيات قوية جزلة ، بينما نجد بعضَها الآخر يعتريها الضَّعفُ والرَّكاكة . وقوله « جمَّع » : مثل جَمَع ، والتَّشديد للمبالغة . و« ألَّبوا » جمعوا . و« استجمعوا » : تجمَّعوا من كل صوب . و« أرصد » : أعد . و« بضَّعوا » : قطعوا . و« ياس » : لغة في يئس ؛ والمعنىٰ : انقطع أملي . و« ذرفت » : سالت . و« مجزع » : خوف وحزن . و« ملفَّع » : مشتمل عام ، =

* وجاء عند المقريزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « إمتاع الأسماع » بعض التَّفاصيل والأحداث المفيدة عن استشهاد سيِّدنا خُبيب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فكان ممَّا أمتعنا به قوله : « . . . ثمَّ أوثقوه رباطاً ، وقالوا : ارجعْ عن الإسلام ونخلي سبيلك .

فقال : لا إلـه إلا ٱلله ، والله ما أحبُّ أنِّي رجعتُ عن الإسلام ، وإنَّ لي ما في الأرض جميعاً !

قالوا : فتحبّ أنَّ محمَّداً في مكانك ، وأنتَ جالسٌ في بيتك ؟

فقال : واللهِ ! ما أحبُّ أنْ يُشاكَ محمَّدٌ شوكةً ، وإنِّي جالسٌ في بيتي .

فجعلوا يقولون : يا خبيبُ ! ارجع .

قال : لا أرجعُ أبداً .

قالوا : أما واللات والعزَّىٰ ، لئن لم تفعلْ لنقتلنَّكَ !

قال : إنَّ قَتْلي في اللهِ لقليلٌ .

فجعلوا وجهه من حيثُ جاء . فقال : ما صَرْفُكُم وجهي عن القبلة ؟

ثمَّ قال : اللهمَّ ! إنِّي لا أرىٰ إلا وجْه عدوٍّ ، اللهمَّ ! ليس هـٰهنا أحدٌ يبلغُ رسولك عنِّي السَّلام ، فبلِّغْه أنتَ عنِّي السَّلام .

فقال رسولُ ٱلله ﷺ وهو جالسٌ مع أصحابه ، وقد أخذته غَمْيَةٌ ـ غشيةٌ ـ : « وعليه السَّلام ورحمة ٱلله » .

ثمَّ قال : « هـٰذا جبريل يُقرئني من خبيب السَّلام » .

ثمَّ أحضروا أبناء مَنْ قُتِلَ ببدر ـ وهم أربعون غلاماً ـ فأعطوا كلَّ غلام رمحاً ، فطعنوه برماحهم ، فاضطربَ علىٰ الخشبة ، وقد رفعوه عليها ،

= مأخوذ من لفعتك النَّار ؛ أي : شملتك من نواحيك وأصابك لهبها . و« تخشعاً » : تذللاً .

وانفلَّت ، فصار وجههُ إلىٰ الكعبة [1] ، فقال : الحمدُ لله ، فطعنه أبو سروعة ـ واسمه : عقبة بن الحارث بن عامر بن عبد مناف بن قصيّ ـ بحربةٍ حتَّىٰ أخرجَها من ظهره ، فمكثَ ساعةً يوحِّدُ ويشهد أنَّ محمَّداً رسولُ ٱلله ، ثمَّ مات ـ رضي ٱلله عنه » [2] ـ .

* استشهد سيِّدنا خبيبٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ بعد أنْ تركَ آثاراً وضيئةً في جبين الأيام ، مات خبيبٌ ميتةَ الشُّهداء ، وممَّا لفَتَ انتباهي في سيرة خُبيب ـ رضي ٱلله عنه ـ أنَّ قاتليه وساجنيه قد أسلمُوا ونعمُوا بدين ٱلله كما كان ينعمُ هو في نعيم الإسلام . فقد أسلم أبو سفيان ، ومعاويةُ ، وعقبةُ بنُ الحارث ، وماويَّةُ [3] التي سُجِن في بيتها ، وسعيد بن عامر الجمحيّ ،

---

(١) ذكر القيرواني رَحِمَهُ ٱللهُ في « حلىٰ العلىٰ » : أنَّ خبيباً ـ رضي ٱلله عنه ـ لمَّا قُتِلَ جعلوا وجهه إلىٰ غير القبلة ، فوجدوه مستقبلَ القبلة ، فأداروه مراراً ، ثمَّ عجزوا فتركوه » . « الإصابة » (١ / ٤١٨) .

(٢) « إمتاع الأسماع » (١ / ١٧٧) .

(٣) قال الواقدي رَحِمَهُ ٱللهُ عن ماويَّة : « وكانت ماويَّةُ قد أسلمتْ بَعْدُ فحسُنَ إسلامُها ، وكانت تقولُ : واللهِ ما رأيتُ أحداً خيراً من خُبيب ، واللهِ لقد اطَّلعتُ عليه من صِيْر ـ شق ـ الباب وإنَّه لفي الحديد ، ما أعلمُ في الأرض حبَّةَ عنَبٍ تُؤكل ، وإنَّ في يده لَقِطْفَ عنبٍ مثل رأس الرَّجل يأكل منه ، وما هو إلا رزقٌ رزقه ٱلله ، وكان خُبيب يتهجَّد بالقرآن ، وكان يسمعه النِّساء فيبكين ، ويرققن عليه . فقلتُ له : يا خُبيب هل لك من حاجة ؟

قال : لا ، إلاَّ أنْ تسقيني العذْب ، ولا تطعميني ما ذُبِحَ علىٰ النُّصُب ، وتخبريني إذا أرادوا قتلي .

فلمَّا انسلختِ الأشهر الحرم ، وأجمعوا علىٰ قتلهِ ، أتيتُه فأخبرتُه ، فواللهِ ما رأيته اكترث لذلك ، وقال : ابعثي لي بحديدة أستصلح بها . فبعثتُ إليه موسىٰ مع ابني أبي حُسين ، فلمَّا ولَّىٰ الغلام قلتُ : أدركَ واللهِ الرَّجلُ ثأْرَهُ ؛ أي شيءٍ صنعتُ ؟ بعثتُ هٰذا الغلام بهٰذه الحديدةِ ، فيقتله ويقول : رجلٌ =

وغيرهم ممَّن شهد مقتله ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ ولعلَّ في الأمر سرّاً لم ندركْ حقيقتَه ، فقد أسلمَ قاتلوهُ [1] ، وتركوا آثاراً طيّبةً في تاريخ رجالات الإسلام ، وفتحوا الدُّنيا بعلمهم وشجاعتهم ، وصاروا من خيار الصَّحابة ، ومن قادة الأمم ، ومن أمراء المؤمنين ، ومن أئمة الزَّاهدين ، وربُّك يخلقُ ما يشاء ويختار ، بيده كلّ شيء ؛ ﴿ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : ١٤ ـ ١٦] .

* وقبل أن نودِّعَ هـٰذه الفقرة ، ما أجمل أن نعيش في أجواء هـٰذه الهمسات التي تداعبُ الوجدان ، وهي تتحدَّثُ عن مقْتلِ سيِّدنا خبيب شهيداً :

هـٰـذا خبيـبٌ آخِـرُ القَتْلـىٰ بـأيـدي المشـركيـن

مـاويَّـةُ تـروي لقصَّـةِ قَتْلـه للسَّـائليـن

تـروي الـرِّوايـةَ بعـد أنْ دانـتْ بـديـن المسلميـن

قـالـت خبيـبٌ كـان عنـدي إنَّـه نِعْـمَ السَّجيـن

أبصـرتُ عنبـاً عنـده فـي غيـرِ وقـت القـاطفيـن

قـالـت لقـد علـمَ السجيـنُ بقـرب غـدر الغـادريـن

= برجلٍ ، فلمَّا أتاه ابني بالحديدة ، تناولها منه ، ثمَّ قال ممازحاً له : وأبيكَ إنَّك لجريءٌ ! أما خشيتْ أمَّك غدري حين بعثت معك بحديدة وأنتم تريدون قتلي ؟ قالت ماوية : وأنا أسمعُ ذلك فقلتُ : يا خُبيبُ ! إنَّما أمّنْتُكَ بأمان ٱلله ، وأعطيتُك بإلـٰهك ، ولم أعطك لتقتل ابني .

فقال خبيبٌ : ما كنتُ لأقتلَه ، وما نستحلُّ في ديننا الغدر . . . » . « المغازي » (١ / ٣٥٧ ـ ٣٥٨) .

(١) من الجدير بالذّكر أنَّ قاتلي سيِّدنا حمزة بن عبد المطَّلب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، أو ممَّن شهد مقتله قد أسلموا أيضاً ومنهم : جُبير بن مطعم ، وحشي بن حرب ، هند بنت عتبة وغيرهم . ولله في خلقه شؤون يخلق ما يشاء ويختار .

قـــد قـــال هـــاتـــي شفـــرةً إنْ شئـــتِ خيـــراً تفعليـــن
كـــي أستحـــدَّ إلـــىٰ الممـــات وألتقـــي بـــالخـــالـــديـــن
أعطيتُـــه مـــا قـــد أرادَ وكنـــتُ فـــي ألَـــمٍ دفيـــن
وبحثـــتُ عـــن ولـــدي الصَّغيـــر وكـــان طفـــلاً لا يبيـــن
فـــوجـــدتـــه فـــي حِجـــره فشهقـــتُ شهقـــة خـــائفيـــن
لمَّـــا رآنـــي قـــد جـــزعـــتُ فقـــال قـــولَ المتَّقيـــن
مـــا كنـــتُ أفعـــلُ مـــا ظننـــتِ فـــذاكـــم الفعـــل المشيـــن
لمَّـــا أرادوا قتلـــه صلَّـــىٰ صـــلاةَ مـــودِّعيـــن
بعـــد الصَّـــلاة إذا بـــه نـــادىٰ إلـــٰه العـــالميـــن
يـــا ربِّ بلِّـــغْ للنَّبـــيِّ بـــأنَّنـــا فـــي الصَّـــادقيـــن
وامحـــقْ بسيـــف الحـــقِّ كـــلَّ الحـــاضـريـــن الظَّـــالميـــن [1]

من فوائدِ السِّيرة الخُبيبيَّة :

* في سيرة سيِّدنا خبيب ـ رضي ٱلله عنه ـ فوائدُ ومواقفُ وعظاتٌ ينتفعُ بها المحبّون السَّائرون علىٰ طريق الصَّحابة الكرام من المهاجرين والأنصار ـ رضي ٱلله عنهم ـ .

* من الأمور المهمَّة والفوائد المجموعة التي نستفيدُ منها من خلال السِّيرة الخبيبيَّة المباركة :

أولاً : استحبابُ الاستحداد قُبيل الموت ، ووجوبُ المحافظة علىٰ هـٰذه السُّنَّة النَّبويَّة ، والنَّظافة أثناء الحياة ؛ إذ إنَّ سيِّدنا خبيباً ـ رضي ٱلله عنه ـ حين عَلِمَ دنوَّ الأجل ، وعَزْم القوم علىٰ قتله ، حرص علىٰ الاستحداد

---

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (٣ / ١٠٦) . و« ماويَّة » : اسم المرأة التي سُجِنَ سيّدنا خبيب في بيتها . و« في غير وقت القاطِفين » : في غير موعد فاكهة العنب . و« بقرب غدر الغادرين » : علم بموعد قتلهم له . و« كي أستحد » : يحلق عانته . و« صلاة المودعين » : استأذنهم في أن يصلي ركعتين لله فأذنوا له .

ليلقىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ علىٰ السُّنَّة ؛ إذ إنَّ الاستحدادَ من سنن الفطرة الخمس التي ينبغي علىٰ المسلم ألا يتركها أكثر من أربعين يوماً ، وهي كما قال الصَّادق المصدوق ﷺ : « خمسٌ من الفطرة : الختان ، والاستحداد ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط ، وقصّ الشَّارب »[1] . ففي « صحيح مسلم » عن سيِّدنا أنس ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « وُقِّتَ لنا في قصِّ الشَّارب ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط ، وحلق العانة ألا نترك أكثر من أربعين ليلة »[2] . وفي هٰذا تذكير لمن لا يلتفت إلىٰ السُّنن المهمَّة ، التي هي من خصال الفطرة .

ثانياً : إنَّ المسلم لا يغدر بأحد ، وإنْ قدرَ علىٰ ذلك ، بل لا يقتل طفلاً ، ولا امرأة ، ولا أعزل لم يقاتلْ ، وهٰذا ما صنعه سيِّدنا خبيب مع الصَّبي ؛ فلمّا استعار الموسىٰ لكي يستحدَّ خافت أمّ الصبي أنْ يذبحَه خبيبٌ بالموسىٰ ، فطمأنها بأنْ لنْ يفعلَ ذلك إنْ شاء ٱلله ؛ لأنَّ من شيمته الوفاء لا الغدر ، مع علمها علمَ اليقين أنَّ خبيباً قادمٌ علىٰ الموت ، وبوسعه أنْ يتركَ في حياة القوم نكبةً وجراحةً مؤلمة قبل أنْ يفارقَ الحياة الدُّنيا ، وقد كان امتثالُ أمرِ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وامتثالُ أمرِ رسول ٱلله ﷺ عنده أجلّ وأعلىٰ من مغانم الدُّنيا كلِّها ، ومن حبِّ النَّفس للتَّشفِّي من الظُّلم والثَّأر منه ، فهو يدرك معنىٰ قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٠] . لا ريب في أنَّ موقفَ سيِّدنا خبيب ـ عليه سحابات الرِّضوان ـ موقفٌ نبيلٌ يدلُّ علىٰ سمو الرّوح ورقيها ، وصفاء النَّفس وسموها ، كما يدلُّ علىٰ التزامه بمنهج الإسلام وتعاليمه ، فالصَّبيُّ لا ذنْبَ له ، ولا يُؤخذ بجريرةِ أهله ، قال ربّنا ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ﴾ [الإسراء : ١٥] . إنَّه ينبوعُ الوفاء الخُبيبيُّ يتشرَّبه النَّاس ممَّن غَدَر بهم ، فالاستقامةُ والوفاءُ طبيعةُ سلوكِ المسلم في الشِّدة والرَّخاء .

---

(١) « صحيح الجامع » برقم : (٣٢٤٥) نقلاً عن « صحيح مسلم » برقم : (٢٥٧) .

(٢) « صحيح مسلم » برقم : (٢٥٨) .

ثالثاً : إنَّ حبَّ رجال عصر النُّبوَّة للنَّبيِّ ﷺ حبٌّ متميّز ، وحبٌّ صافٍ جعلهم يضحّون بأنفسهم وألا يُصاب ﷺ بشوكةٍ يُشَاكها ، ولم تكن محبَّتهم لمصلحةٍ شخصيَّةٍ ، وإنَّما كانت لإعزاز دين ٱلله ، وحراسته ، وإعلاء كلمته في جميع المواقف والأحوال ؛ وهـٰذا الحبُّ الصَّادق انتزع إعجاب أبي سفيان يوم أنْ كان مشركاً فقال قولة حقٍّ ووضوح ظاهِرَيْن : « وٱلله ! ما رأيتُ من النَّاس أحداً يحبُّ أحداً كحبِّ أصحاب محمَّدٍ محمَّداً » .

رابعاً : من الفوائد القيّمة المجموعة التي وافتنا بها السِّيرة الخبيبيّةُ الأنيقةُ الميمونةُ : استحبابُ صلاة ركعتَيْن لله ـ عزَّ وجلَّ ـ قبل الموت عند القتل ، وهـٰذا ما قام به سيِّدنا خبيب وصنَعَه أمامَ الجمهور الوثنيّ المتحلِّق حول مصرعه ، وكان خبيبٌ أوَّلَ من سنَّ الرَّكعتَيْن عند القتل .

خامساً : إنَّ سيِّدنا وحبيبنا رسول ٱلله ﷺ أرسله ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ رحمةً للعالمين ، وهو يُوحىٰ إليه ، ولا يعلمُ الغيبَ إلا ما أذن اللهُ له به ، فلو كان ﷺ يعلمُ الغيب لما أرسل خُبيباً وصحبه إلىٰ الرَّجيع ليلقوا مصرعهم .

سادساً : كان لسيِّدنا خبيب مكانةٌ كبرىٰ في نفس رسول ٱلله ﷺ ، ونفوسِ أصحابه الكرام ـ رضي ٱلله عنهم ـ ، علىٰ أنَّ حادثة الرَّجيع جعلَتْ من المسلمين رجالاً لا يفتُّ في عضدهم غدر الهذليّين ، ولا خيانة المشركين ، بل واصلوا المسيرَ في الدَّعوة إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وخدمة دينه الحنيف ؛ إذ إنَّ الدَّعواتِ دون تضحيات لا تؤدّي الغرض .

* إنَّ حادثة الرَّجيع تضعُ نُصْب أعيننا نماذج من التَّضحيات المتألِّقة التي قدَّمها خبيب وزيد وعاصم وصحبهم ، من أجل مرضاة ربّهم ورضوانه ، فالسَّعادةُ الحقيقيَّةُ لها ثمنٌ ، وثمنُها دمٌ طاهرٌ يُراقُ في سبيلِ ٱلله ، من أجلِ تحقيق شرعهِ ومنهاجه ، وتثبيت معالم دينهِ علىٰ الأرض لصلاح العباد .

خبيبٌ في ضمَائر المؤمنين :

* حفظ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ سيِّدنا خبيباً حياً وميتاً ، وحفظَ جسمه من عبث

المشركين ، وأبقىٰ ذكْره خالداً في قلوب المؤمنين المحبِّين .

* وذكر أبو يوسُف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب « اللطائف » ، عن الضَّحاك : أنَّ النَّبيَّ ﷺ أرسل المقداد والزُّبير في إنزال خبيب عن خشبته ، فوصلا إلىٰ التَّنعيم ، فوجدا حوله أربعين رجلاً نشَاوىٰ ـ سُكارىٰ ـ فأنزلاه ، فحمله الزُّبير علىٰ فرسه وهو رطبٌ لم يتغيَّر منه شيء ؛ فَنَذِرَ بهم المشركون ، فلمَّا لحقوهم قذفه الزُّبير ، فابتلعته الأرض ، فسمّي بليعَ الأرض »[1] .

* وروي عن عمرو بن أميَّة الضَّمريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « بعثني رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ خُبيب بن عديّ لأنزله من الخشبة ، فصعدتُ خشبته ليلاً ، فقطعتُ عنه ، وألقيتُه ، فسمعتُ وجبةً خلفي ، فالتفتُ فلم أرَ شيئاً »[2] .

* ولم تَخْلُ ضمائر شعراء الرَّسول ﷺ من ومضَاتٍ ولمحاتٍ في تصوير مكانةِ خُبيب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فهٰذا سيِّدنا حسَّان بن ثابت الأنصاريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ يرثي خبيباً وأصحاب الرَّجيع بعدَّةِ قصائدَ من وجدانهِ ، ولنستمعْ إلىٰ هٰذه الأنَّات الموجعة التي تأسَّفَ من خلالها علىٰ الشَّهيد خبيب :

ما بالُ عينكَ لا تَرقَا مدامعها ... سحّاً علىٰ الصَّدر مثلَ اللؤلؤ القلق

علىٰ خبيبٍ وفي الرَّحمٰن مصرعه ... لا فَشِلٍ حين تلقاهُ ولا نزق

فاذهبْ خبيبُ جزاكَ اللهُ طيبةً ... وجنَّةَ الخُلد عند الحور في الرُّفق

ماذا تقولون إنْ قال النَّبي لكم ... حين الملائكةُ الأبرارُ في الأفق

---

(١) « الإصابة » (١ / ٤١٨) .

(٢) « الاستيعاب » (١ / ٤٣٤) ، و« الاستبصار » (ص : ٣٠٧) ، وروىٰ عمرو بن أمية الضّمريّ أيضاً : أنّ النّبيّ ﷺ بعثه عيناً وحده إلىٰ قريش ، وقال : « فجئت إلىٰ خشبة خبيب ـ رضي ٱلله عنه ـ وأنا أتخوّف العيون ، فرقيتُ فيها ، فحللتُ خبيباً ، فوقعَ إلىٰ الأرض ، فانتبذتُ ـ اعتزلتُ ـ ثمَّ التفتّ ، فلم أرَ خبيباً ، ولكأنَّما ابتلعته الأرض ، فلم يُر لخبيبٍ أثر حتَّىٰ السَّاعة » .

فيـمَ قتلتـم شهيـدَ اللهِ فـي رجـل طاغٍ قد اوعث في البلدان والطّرق [1]

* وقال يرثي خبيباً أيضاً ويصوِّر مصرعه ، ويذكر مآله :

لـو كـان فـي الـدَّار قـومٌ ذو محـافظة حـامـي الحقيقـة مـاصٍ خـالُـهُ أَنَـسُ
إذا حللـتَ خبيـبٌ منـزلاً فُسُحـاً ولـم يُشَـدَّ عليـك الكبـلُ والحـرسُ
ولـم يَسُقْـكَ إلـىٰ التَّنعيـم زِعْنِفَـةٌ مـن المعـاشـر ممَّـن قـد نَفَـتْ عُـدُسُ
صبـراً خبيـبُ فـإنَّ القتـلَ مكـرمـةٌ إلـىٰ جنـانِ نعيـم يـرجـعُ النَّفـس
دَلَّـوك غـدراً وهـم فيهـا ألـو خُلُـفٍ وأنتَ ضيمٌ لها في الدَّار مُحتَبَسُ [2]

* وفي مرثية تفيضُ بالصِّدق ، يذكرُ سيِّدنا حسَّان صفات سيِّدنا خبيب ومكانه فيقول من أبياتٍ منها :

يا عينُ جُودي بدمعٍ منكِ منسكبِ وابكـي خبيبـاً مـع الغـاديـن لـم يَـؤُبِ
صقـراً تـوسَّـط فـي الأنصـار منصبُـهُ حلو السَّجيَّةِ محضاً غير مؤتشب [3]

* وهناك مراثٍ كثيرة لسيِّدنا حسَّان ملأتْ ثنايا ديوانه ، وأردان كتب السِّيرة النَّبويَّة ، وكتب التَّراجم والطَّبقات ، وقد ألممنا بشيءٍ منها يبرزُ مكانة سيِّدنا خُبيب في نفوس محبّيه من معاصريه .

* وقد سَرَتْ هٰذه المكانةُ إلىٰ نفوسِ المحبِّين في عصرنا الحاضر ، فقد صاغَ (أحمد محرَّم) في ديوان « مجد الإسلام » قصّة سيِّدنا خُبيب ، ونمَّقَها بطريقةٍ جميلةٍ ؛ في قصيدةٍ طويلةٍ نقتطفُ منها هٰذه الأبيات التي تصوّرُ مراحلَ أَسْرِه ومقتلهِ مع زيد :

خُبيـبٌ فـي يَـدَيْ جـافٍ شـديـد يُعـذَّبُ فـي أداهِمِـهِ الثِّقـالِ
وزيـدٌ عنـد جبَّـارٍ عنيـدٍ يَصُـبُّ عليـه مُختلـفَ النّكـالِ

---

(١) « ديوان حسَّان بن ثابت » (١ / ٢١٣) طبعة دار صادر ـ بيروت .

(٢) « ديوان حسَّان » (١ / ٢٢٧) .

(٣) « ديوان حسَّان بن ثابت » (١ / ٣٧٠) .

يــزيــدهُمــا البــلاءُ هــدًى وعلمــاً بـــأنَّ الحـــادثـــاتِ إلـــىٰ زوالِ
يـــروحُ المـــوتُ حـــولَهمــا ويغــدو يكشِّــــرُ عـــن نـــواجـــذِهِ الطِّـــوالِ
وذِكْـــــرُ اللهِ متَّصـــــلٌ يُـــوالـــي مـن العَبَـقِ المُقَـدسِ مـا يُـوالـي
هنيئـــاً يـــا خبيـــبُ بلغْـــتَ شـــأْواً رفيـــعَ الشَّـــأْن ممتنـــعَ المنَـــالِ
مــلأتَ يــديــكَ مــن رزقٍ كــريــمٍ أتـــاكَ بغيـــرِ كـــدٍّ أو ســـؤالِ
تنـــزَّلَ مـــن لـــدنْ ربٍّ رحيـــمٍ عميـــمِ الجـــودِ فيَّـــاضِ النَّـــوالِ
كُــلِ العنــبَ الجَنِــيَّ وزدْهُ حمــداً علــىٰ حمــدٍ يــدومُ مــدىٰ الليــالــي
تقـــولُ الحـــارثيَّـــةُ مـــا لِعَينـــي أفـــي سِحْـــرٍ تَقَلَّـــبُ أمْ خيـــالِ
أرىٰ عنبـــاً ومـــا مـــنْ ذاك شـــيءٌ بمكَّـــةَ يـــا لَهـــا عِظَـــةً ويـــا لـــي
ويـــا لـــكَ مـــن أسيـــرٍ مـــا علمْنـــا لـــه بيـــن الأســـارىٰ مـــن مثـــالِ
أتـىٰ الأجـلُ الـذي انتظـروا وهـٰـذي سيـــوفُ القـــوم مُحـــدَثَـــةُ الصِّقـــالِ
ألا إنَّ الصَّـــــــلاة لَخَيـــــــرُ زادٍ وإنَّ الـــرَّكْـــبَ آذنَ بـــارتحـــالِ
تـــزوَّدْ يـــا خبيـــبُ وثـــقْ بـــربٍّ لمثلـــكَ عنـــده حُسْـــنُ المـــآلِ
أتـــرضـــىٰ أنْ تـــرىٰ خيـــرَ البـــرايـــا مكـــانَـــكَ ســـاءَ ذلـــك مِـــنْ مقـــالِ
تبيـــعُ بشـــوكـــةٍ تُـــؤذيـــه نَفْســـاً تشـــكُّ صميمَهـــا صُـــمُّ العـــوالـــي
همـــو قتلـــوك مصْلُـــوبـــاً وأغْـــرَوا بـــهِ وبـــكَ الضِّعـــاف مـــن المـــوالـــي
رفيقُـــك فـــي التَّجلُّـــد والتَّـــأسِّـــي وخِـــذْنُـــكَ فـــي التَّقـــدُّم والصِّيـــالِ
أتعتـــــزلان دِيـــــنَ اللهِ خـــــوفـــــاً فَمَـــــنْ أولـــىٰ بخـــوفٍ وابتهـــالِ
معـــــــــاذَ ٱللهِ إنَّ اللهَ حـــــــــقٌّ وإنَّ المجـــرميـــن لَفـــي وَبَـــالِ
كمـــالُ النَّفـــسِ إيمـــانٌ وتقـــوىٰ ومـــاذا بعـــد مـــرتبـــةِ الكَمَـــال [1]

* وهناك أدبيَّاتٌ كثيرةٌ منثورةٌ في المصادر المتخصِّصة ، تسرد للأجيال قصَّة سيِّدنا خُبيب ـ رضي ٱللهُ عنه ـ .

---

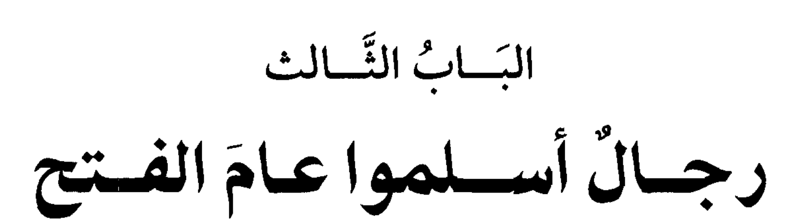
(١) « ديـوان مجـد الإسـلام » (ص : ٢٥٥ ـ ٢٥٨) بـانتقـاء . وقـولـه « أداهمه » : الأداهم : القيود ، و« صمّ العوالي » : الرّماح الصّلبة المتينة . و« الصِّيال » : التَّجلُّد والتّأسي والصَّلابة والصَّبر . و« الوبال » : سوء العاقبة .

* وستبقىٰ مكانة سيِّدنا خبيب هيَ هيَ أو قريبةٌ من هي ، ستبقىٰ محبّته ماثلةً في النُّفوس إلىٰ أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها ، ولعلَّ القرَّاء الأعزَّاء يحبُّون سيرةَ هـٰذا الصَّحابي المُحِبّ للنَّبيِّ ﷺ ، فيسمّون أبناءهم وأحبابَهم باسمِهِ ، ويكنُّون أطفالهم به .

* إنَّ الكتابةَ عن سيِّدنا خُبيبِ بن عديّ خصبةٌ ممرعةٌ ، نودُّ أنْ نعيشَ معها وقتاً أكثر ، ولـٰكنَّ شوقَنا لقراءة قصَّةِ صحابي آخر ، ينتظرنا في الصَّفحاتِ الآتية ، في الباب الثَّالث ؛ فرضي ٱلله عن خبيب بن عديّ المصلوب ، الثَّابت الصَّابر في ذات ٱلله المحبوب [1] . فاجمعنا اللهم به في مستقرِّ رحمتك يا علاَّم الغيوب ، وألهمنا الاستغفار والذّكْر قبل طلوع الشَّمس وقبل الغروب .

✍ ✍ ✍

(١) « حلية الأولياء » (١ / ١١٢) .



البَـــابُ الثَّـــالث

رجـــالٌ أســــلموا عـــامَ الفـــتح

* أبو العاص بن الربيع رضي ٱلله عنه .
* جُبيـــر بـــن مطعـــم رضـــي ٱلله عنـــه .
* حكيـــم بـــن حِـــزام رضـــي ٱلله عنـــه .
* سُهيـــل بـــن عمـــرو رضـــي ٱلله عنـــه .
* صفـــوان بـــن أميّـــة رضـــي ٱلله عنـــه .







أبو العـاص بـنُ الرَّبيـع

رضي ٱلله عنه

* صِهْـرُ النَّبـيِّ ﷺ ؛ وزوجُ ابنتـه زينـبَ رضـي ٱلله عنهـا .
* قـال عنـه ﷺ : « حـدَّثنـي فصـدَقنـي ووعَـدَنـي فـوفـىٰ لـي » .
* له أخبارٌ تدلُّ علىٰ شهامتِهِ ؛ وتوفي في خلافةِ أبي بكر الصِّدِّيق .






أبو العاص بنُ الرَّبيع
رضي ٱلله عنه

الصِّهْرُ الأمين :

* يتَّصلُ هٰذا الرَّجل بسببٍ ونَسَبٍ مع البيت النَّبويّ الطَّاهر ، فهو ابنُ أخت أمِّ المؤمنين أمِّنا خديجةَ بنتِ خُويلد ـ رضي ٱلله عنها ـ سيِّدة نساء العالَمين ؛ زوجِ رسولِ ٱلله ﷺ وأمِّ أولاده .

* وهٰذا الرَّجلُ هو زوجُ ابنة الصَّادق المصدوق رسول ٱلله ﷺ ، السَّيِّدة زينب ـ رضي ٱلله عنها وأرضاها ـ ، فكان من أكرم النَّاسِ وفاءً في عشرته الزَّوجيَّة ، فهل عرفتم مَنْ هو ؟ !

* إنَّه أبو العاص بنُ الرَّبيع بنِ عبد العزَّىٰ القرشيّ العبشميّ [1] ، صهرُ رسول ٱلله ﷺ ، وزوجُ بنته زينب ـ رضي ٱلله عنها ـ ، وهو والدُ أمامةَ التي كان يحملُها النَّبيُّ ﷺ في صلاته . واسم أبي العاص : لقيط ، وقيل : القاسم ، وقيل : مِهْشَم ، بيد أنَّه اشتُهِر بكنيته .

---

(1) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٩ / ٤٢ ـ ٤٨) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٣٠ ـ ٣٣٤) ، و« نسب قريش » (ص : ٢٣٠ ـ ٢٣١) ، و« الاستيعاب » (٣ / ١٢٥ ـ ١٢٩) ، و« الإصابة » (٣ / ١٢١ ـ ١٢٢) ، و« أسد الغابة » (٥ / ١٨٥ ـ ١٨٦) رقم : (٦٠٣٥) ، و« البداية والنِّهاية » (٦ / ٣٥٤) ، و« السِّيرة النَّبويَّة » انظر : (الفهارس) ، وغيرها كثير .

* وُلدَ أبو العاص في مكَّةَ المكرّمةِ ، ونشأَ في بيئةٍ كريمة الأعراق من عُلْيَا بيئات قريش حسباً ونسباً ومكانةً ، ولعلَّه كان يتردَّد إلىٰ بيتِ خالته خديجةَ ـ رضي ٱلله عنها ـ ، فعرفَ من خلال ذلك أخبار البيت النَّبويّ ، وعرفَ محمَّداً ﷺ ، فكان يكنُّ له كلَّ احترام وودّ وتقدير .

* كانت السَّعادة تخفقُ في جنَبات البيت المحمَّديّ ، فخديجةُ ـ رضي ٱلله عنها ـ تحيطُ بناتِها بعطفِها ، وتنظرُ نظرةَ إكبار إلىٰ زوجها محمَّدٍ ﷺ الذي أفاضَ علىٰ بيته كنوز حنانهِ ، وينابيع رقَّته ، كان الزَّوجان ينظران إلىٰ ابنتهما زينبَ نظرةَ حبٍّ ورعايةٍ ، فقد بلغت مبلغ النِّساء ، فكانت أعرقَ بنات قريش وعبد المطَّلب حسَباً ونسَباً ، وأكرمهنَّ أمّاً وأباً ، وأزكاهنَّ خُلُقاً وأدباً .

* في هٰذه الأثناء كان ابنُ خالتها أبو العاص قد فَاقَ شبابَ قريش جمالاً وكمالاً ومكانةً ، فقد تلقَّف عن قومه التِّجارةَ ، وغدا من أكابر التُّجَّار المعروفين الذين يأتمنُهم النَّاس علىٰ أموالهم حتَّىٰ لقَّبوه « الأمين » ؛ فكانت أموالُه تغدو وتروحُ في الشِّتاء والصَّيف إلىٰ بلاد اليمن ، وبلاد الشَّام .

* ومن خلال الأسفار والمعاملات التِّجاريَّة ، أمسىٰ أبو العاص ذا خصالٍ محمودة ، وشمائل كريمةٍ ، من مروءةٍ ووفاءٍ وأمانةٍ ، بالإضافة إلىٰ حسَبه الموروث ، وتُراثهِ المبثوث .

* لم يغبْ عن بالِ سيِّدتنا خديجةَ ـ رضي ٱلله عنها ـ أنَّ أبا العاص له منزلةٌ كبرىٰ في نفسها ، بل إنَّها كانت تنزلُهُ منزلةَ الولد من أمِّه ، وتفسحُ له من قلبها مكاناً رحباً ينزلُ فيه علىٰ السَّعَة والودِّ ؛ وكذلك كان الحبيب المصطفىٰ ﷺ يحبُّ أبا العاص ، وينزلُهُ من نفسه منزلةً كريمةً ، ويضمرُ له الاحترامَ ، ويكنُّ له الوداد .

* وذات يوم من أيَّام مكَّةَ الهادئةِ ، كان الكونُ قد كسَاها هدوءاً جميلاً لفَّ سماءها ،وغازَلَ بطحاءها ، وكانت الشَّمسُ باعثةً أشعَّتَها الذَّهبيَّة تداعبُ

أجواءها ، وكانت الأنسامُ تنسابُ بلطفٍ قرب البيتِ العتيق ، فتجعلُ النُّفوسَ تتفتَّحُ تفتُّحَ الزَّهر الغافي بين أوراقِ الوَرْد المندّىٰ بالرَّحيق ؛ في هـٰذا الجو الجميل الذي يتضوَّع بالعطر ، ويتثنّىٰ بالسِّحر ، ويختالُ بالجمال ، ويخطرُ بالدَّلال ؛ أقبلت هالةُ بنتُ خويلد علىٰ دار أختها خديجةَ ـ رضي ٱلله عنها ـ ، فلمَّا رأت زينب ضمَّتْها إلىٰ صدرها في حبٍّ وشوق ، وقبَّلَتْها في ودٍّ وحنان ، وسرتْ في قلبِ هالة مشاعرُ الأنس وهي تحتوي بنْتَ أختِها في أحضانها ، ثمَّ التقَتْ أختها خديجة فهشَّتْ لها ، وخلَتْ بها ، فأفضَتْ إليها بما جاءتْ من أجله ، وقالت لها : « إنَّ ابني أبا العاص يرغبُ في زواج ابنتك زينب » .

* ظهرت علاماتُ السُّرور علىٰ وجْه خديجةَ ، وأقبلت علىٰ أختها في ودٍّ وألفة ، وسرعان ما طافت قسماتُ وجْهِ أبي العاص في ذاكرتها ، ولاحت شخصيَّتُهُ الأنيقةُ أمامها ، فابنُ أختها أبو العاص بن الرَّبيع كان يغشىٰ بيتَها ؛ إذا ما هفَتْ روحُهُ إلىٰ لقاء خالته ، وكانت تحنو عليه وترعاه ، وإنَّها لأُمْنِيةٌ ميمونةٌ أنْ تتزوج زينب ابن خالتها ، وأنْ تنتقلَ إلىٰ رحاب بيته ، غير أنَّ خديجة ـ رضوان ٱلله عليها ـ علىٰ الرّغم من حبِّها لأختها وابنِ أختها ، وموافقتها وترحيبها بهـٰذه المصاهرة الودود ، التمستْ من أختها أنْ تنتظرها أنْ تفسحَ لها في المدَّة قليلاً ، حتَّىٰ تستأذنَ زوجَها محمَّداً ﷺ ، وتشاوره في أمْرِ هـٰذه المصاهرة النّبيلة .

* قامت خديجةُ ـ رضي ٱلله عنها ـ ، ثمَّ جاءت محمَّداً ﷺ تمشي علىٰ استحياء ممزوجٍ بالأدبِ والوقار والاحترام ، كانت أساريرُها تنبئُ بخبرٍ سارٍّ ، فعرفَ ﷺ البشْرَ في وجهها ، ولمسَ الصَّفاء في أعماقها ، فهشَّ في وجهها بابتسامةٍ لطيفةٍ تنطقُ بالوفاء ، فحيَّتْهُ وقالت له : « إنَّ أختي هالة جاءت تخطبُ ابنتنا زينب لابنها أبي العاص » ، فأكثرَ ﷺ الثَّناء علىٰ أبي العاص ، ورحَّبَ به صهراً كريماً للأسرة المحمَّديَّة ، ثمَّ توجَّه إلىٰ حيث كانت ابنته زينب وأخبرها في عطفٍ أبويٍّ ؛ وحنان محمَّديٍّ ؛ بأنَّ ابنَ خالتها أبا العاص بن الرَّبيع العبشميّ قد جاء يخطبُها . فأغضت زينب حياءً ومهابةً ـ وإنْ تلألأَ البشْرُ في

وجهها وأشرقت عيناها قبل أنْ تسبلَ عليهما جفونها ـ والتفتَ ﷺ إلىٰ زوجهِ خديجةَ وأنبأها بموافقتِه ؛ إذ إنَّ سكوتَ ابنته زينب إشارة رضاها عن زواجها من أبي العاص .

* أقبل أبو العاص بن الرَّبيع في سادات قومه ، وسادات آخرين من عبد شمس ، وهاشم ، وأَسَدٍ ، وأشرافِ قريش ، وغصَّ البيتُ المحمَّديُّ بهـٰؤلاء ، وساد الفرحُ والسُّرور جميع الحاضرين ، وباركوا الزَّواجَ الميمون ، والصِّهر الطَّيِّب ، ثمَّ انصرفوا إلىٰ شؤونهم وقد مضتْ سحابةُ النَّهار .

* لملمَ النَّهارُ أطرافَه وودَّعَ الكون وهو يمشي الهوينىٰ ، وغابت الشَّمس وراء الأفق تاركةً حنانَها علىٰ أمِّ القرىٰ ، فأقبل الليلُ يبسطُ سدولَه ويُرخيها علىٰ الدُّنيا ، وإذ ذاك حملَ أبو العاص بنُ الرَّبيع زينبَ ـ رضي ٱلله عنها ـ إلىٰ داره ، وأبوها يرقُبُها ويُزجي إليها النَّصائح ، وأمُّها ترنو إليها وتُوصيها ، وفي عينيها دموعُ الحبِّ ، وفي قلبها خفقاتُ الفرح ، وفي ضميرها دعواتُ التَّوفيق ، كان الأبوان الكريمان بجوارحهما كلّها ، وعواطفهما كاملة يرجوان أن تكونَ المودَّةُ حليفَ هـٰذا الزَّواج .

* كانت الأسرةُ المحمَّديَّةُ الطَّاهرةُ تحيا حياةً ناعمةً بعيدةً كلَّ البعد عمَّا يثيرُ القَلَقَ والاضطرابَ ، وكان سيِّدنا محمَّدٌ رسولُ ٱلله ﷺ ـ قبل نزول الوحي ـ ؛ يبغي وجْهَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ويحسُّ في أعماقه بسعادة تغمرُ كيانه ، سعادة روحيَّة تتلاشىٰ حِيَالها لذَّات الدُّنيا كلّها ؛ وكانت السَّيِّدة الحصيفةُ اللمَّاحةُ الذَّكيَّةُ خديجةُ ـ رضوان ٱلله عليها ـ ترقُبُهُ عن كثَبٍ في سرورٍ غامر ، فجميعُ أحوالهِ ﷺ تؤكِّدُ لها أنَّه الموعودُ بالنُّبوَّة التي تسري أنسامها ، وتغرِّدُ همساتُها في هاتيك البقاع الطَّاهرة ؛ لذلك كانت متلهِّفةً لذلك الحَدَثِ الكبير الجليل ، فأفعالُ زوجها تدلُّ علىٰ أنَّه الهادي البشير ، وإنَّ ثقتَها بذلك ليست مستمدَّة من أحلامها ومشاعرها وفراستِها فَحَسْب ، بل إنَّ مكارمَ أخلاق زوجها ، وانقطاعه لمناجاةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ في الغدو والآصال ، لا يمكنُ أنْ تكونَ وليدة المصادفةِ والهواية ، وإنَّما هي إلهامٌ إلـٰهيٌّ ، وكشفٌ ربَّانيٌّ .

* كان قلبُهُ الشَّريفُ ﷺ متعرِّضاً لنفحاتِ رحمة ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فاستقرَّ فيه العلْمُ والحكمة ، والزُّهدُ والورع ، والتَّقوىٰ والحياء ، والشَّجاعة والسَّخاء ، والصَّبْر والحلْمُ ، والاحتمالُ والعفو ، والثَّباتُ والنُّبل ، والشَّهامة والوقار ، وكانت مرآةُ نفسِه تزدادُ كلَّ يومٍ جلاءً وإشراقاً ، وتفيضُ نوراً وضياءً ، حتَّىٰ يتلألأَ في قلبه جلية الحقّ ، وينكشفَ فيه حقيقة الأمر . فقد كان ﷺ يتلقَّىٰ عِلْمَه من ربِّه بالإلهام ، والنَّفث في الرَّوع ، وكان كلَّما أشرقَ قلبُهُ بالنُّور اجتهد أكثر وأكثر ليورثه عِلْم ما لم يعلم ، إلىٰ أن اختصَّه ٱلله بالنُّبوَّة ، وأنزل عليه الوحي ، فآمن به مَنْ آمن ، وأعرضَ عنه مَنْ أعرض ، وبدأت مرحلةُ الإنذار والتَّبليغ .

أبو العَاص ومطْلَعُ النُّور :

* أشرقت مكَّةُ والدُّنيا بالنُّور الإلـٰهيّ الأسنىٰ ، وبعث ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ نبيّه محمَّداً ﷺ بالهدىٰ والدين الأسمىٰ ، وأمرَهُ أنْ ينذرَ عشيرتَه الأقربين ، فكان أوَّل مَنْ آمن به واستجابَ لدعوته زوجُهُ الطَّاهرةُ خديجةُ بنتُ خُويلد ـ رضي ٱلله عنها ـ ، وبناتُهُ الطَّاهرات : زينبُ ، ورقيَّةُ ، وأمُّ كلثوم ، وفاطمةُ ـ رضي ٱلله عنهنَّ ـ ، فقد كانت بناتُه في قَرنٍ واحدٍ مع أمّهنَّ ـ رضي ٱلله عنهنَّ أجمعين ـ .

* أسلمت زينبُ وآمنت بالله ِربَّاً واحداً لا شريك له ، وبمحمَّدٍ ﷺ نبيَّاً ورسولاً ، وعَلِمَ زوجُها أبو العاص بذلك ، فلم يظهرْ شيئاً ، ولم تبدرْ منه بادرةُ سوءٍ نحو إسلامها ، غير أنَّه لم يستجبْ للإسلام في أوَّل الأمر ، ولم يكن من السَّابقين إلىٰ ظلالِ دوحته كغيرهِ من العبشميين . وظلَّ أبو العاص يخصُّ زوجتَه زينبَ بصافي الوداد ، ويحترمُها ويحترمُ أباها رسولَ ٱلله ﷺ ، وأمَّها خديجة ـ رضي ٱلله عنها ـ ، ولم يتغيرْ قلبُهُ علىٰ أحدٍ من البيت المحمَّديّ الطَّاهر .

* أفاد ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللهُ : بأنَّ أبا العاص لم يفارقْ يَنْبوعَ الصَّفاء

المحمَّديّ فقال : « كان أبو العاص بنُ الرَّبيع أخاً لرسولِ ٱلله ﷺ ، مُصَافياً له . وكان يُقال لأبي العاص : الأمين ، وكان رسولُ ٱلله ﷺ يكثرُ غِشْيان أبي العاص في منزلِ أمّه هالةَ بنتِ خُويلد » [١] .

* كان رسولُ ٱلله ﷺ يحمدهُ ويقولُ عنه : « ما ذممنا صهْرَ أبي العاص » [٢] ، وأثنىٰ عليه ، وقال عنه : « حدَّثني فصدقني ، ووعدني فوفىٰ لي » [٣] .

* كان أبو العاص يعرفُ معرفةَ الموقنين ، ما اشتُهِرَ به رسولُ ٱلله ﷺ ؛ من مكارم الأخلاق ، معرفةَ مخالطةٍ لم يصلْ إليها أحدٌ غيرهُ من غيرِ أفراد أسرة رسول ٱلله ﷺ الخاصَّة التي تعيشُ في كنفه ورعايته .

* ولمَّا بُعِثَ رسولُ ٱلله ﷺ ؛ عرفَ أبو العاص ما كان يدعو إليه ﷺ من الهدىٰ والخير والتَّوحيد والصَّفاء ، وطرح الشِّرك والوثنيَّة وخلْعِ الأنداد والشُّركاء ، بَيْدَ أنَّه كان في شُغلٍ عن الاستجابةِ إلىٰ الإيمان بما يدعو إليه الصَّادق المصدوق ﷺ ، وآمنت زوجته السَّيِّدة زينبُ مع أمِّها وأخواتها في أوَّل مَنْ آمنَ بدعوة الإسلام ، ولم يسبقهنَّ أحدٌ إلىٰ الإيمان بٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وبمحمَّدٍ ﷺ ، فكُنَّ طليعةَ السَّابقات إلىٰ مطلع النُّور ، وينْبوعِ الرِّسالة ، وغيثِ الهداية ، ومعدن السُّرور .

* رأىٰ أبو العاص بنُ الرَّبيع أنَّ الدَّعوةَ إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ قد اشتدَّ ساعدُهَا ، وازدادَ مَنْ يلبِّي نداءَها ، ويستعذبُ أنداءها ، ويستنشقُ هواءها ، وشهدَ مع ذلك عداوةَ قريش ، وإمعانها في مقاومةِ الدَّعوة بكلِّ ما تملكُ من

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٩ / ٤٣) .

(٢) المصدر السَّابق (٢٩ / ٤٤) .

(٣) المصدر السَّابق عينه . والحديث أخرجه البخاريُّ برقم : (٣٧٢٩) ، ومسلم برقم : (٢٤٤٩) .

طغيان وقوّةٍ وإيذاءٍ للحبيب المصطفىٰ ﷺ ، ولأصحابه الذين سارعوا إلىٰ الإيمان به ، وبدعوتهِ هداية ونوراً ونجاحاً ، وبطريقته فوزاً ونجاةً وفلاحاً .

* كان أبو العاص يرىٰ هـٰذا كلّه ، فلم يقاومِ الدَّعوةَ قطّ ، بل إنَّ تاريخَ مقاومة الدَّعوة الإسلاميَّة لم يسجّلْ لأبي العاص موقفاً ، أو إشارةً ، أو همساً ، أو حرفاً شارك فيه قومه في هـٰذه المقاومة بأي لون من ألوانها ، وقد كفَّ يده ولسانه عن أصحاب الصَّادق الأمين ﷺ ، بل إنَّهم لم يروا منه إلا كل خير وودٍّ ومحبَّةٍ ، وشغلَهَ مالهُ وتجارتُهُ وحياؤُهُ من رسول ٱلله ﷺ عن مواقف المعارضة والشَّراسة القرشيَّة في مقاومة الدَّعوة إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، واكتفىٰ شطر رجال قريش من أبي العاص أن يكون المضاربُ لهم في تجارتهم ؛ إذ إنَّه يحملُ إليهم في رحلاته الموسميَّة أرباحاً طائلةً ، وأموالاً كثيرةً ، يقول ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللهُ : « وكان أبو العاص مُصَاحباً لرسول ٱلله ﷺ مُصافياً ، وكان قد أبىٰ أنْ يطلِّقَ زينبَ بنتَ رسولِ ٱلله ﷺ لمَّا أمرهُ المشركون أنْ يطلّقها ، فشكرَ له رسولُ ٱلله ﷺ ذلك »[1] .

---

(١) « أسد الغابة » (٥ / ١٨٥) ترجمة رقم : (٦٠٣٥) . ونقل ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللهُ عن ابن إسحاقَ رَحِمَهُ ٱللهُ قوله فيما يخصُّ أبا العاص بن الرَّبيع ـ رضي ٱلله عنه ـ فقال : « وكان أبو العاص من رجالِ مكَّةَ المعدودين مالاً وأمانةً وتجارةً ؛ وكانت خديجةُ ـ رضي ٱلله عنها ـ خالتَه ، فقالت خديجةُ لرسولِ ٱللهِ ﷺ : زوِّجْهُ . وكان رسولُ ٱلله ﷺ لا يُخالفُها ، وذلك قبل أنْ ينزلَ عليه الوحيُ ، فزوَّجه . فلمَّا أكرمَ ٱللهُ رسولَه ﷺ بنبوَّته ، آمنتْ به خديجةُ وبناتُهُ ـ رضي ٱلله عنهنَّ ـ ، وكان رسولُ ٱللهِ ﷺ قد زوَّجَ عتبةَ بن أبي لهب رقيَّة أو أمّ كلثوم ، فلمَّا بادىٰ قريشاً بأمر ٱلله ، قالوا : إنّكم قد فرَّغتم محمَّداً من بناته ، فردّوهنَّ عليه ، فأشغلوهُ بهنَّ ؛ فمشوا إلىٰ أبي العاص فقالوا : فارِقْ صاحبتك ، ونحنُ نزوّجك أيّ امرأةٍ من قريش .

فقال : لا ، ها ٱلله ، لا أفارق صاحبتي ، وما أحبُّ أنَّ لي بامرأتي امرأةً من قريش . ثمَّ مشوا إلىٰ الفاسق عتبة بن أبي لهب ، فقالوا : طلِّقْ ابنة محمَّد ، ونحنُ نزوِّجك أي امرأة شئتَ من قريش . =

* ولكنَّ الأحداثَ الجسيمةَ التي تعصفُ بالمجتمع القرشيّ لم تترْك أبا العاص بنَ الرَّبيع بعيداً عن ثَوَرانِها وضغطها واحتوائها ، فقد شبَّتْ نارُ العداوة واشتدَّت ما بين رسول ٱلله ﷺ وأصحابه وبين قريش ، وهاجر رجالٌ كثيرون ونساءٌ مؤمناتٌ كثيرات إلىٰ أرضِ الحبشَة ، وتوالتِ الأزماتُ والمِحَنُ علىٰ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ وعلىٰ الذين بقوا معه من أصحابه ، وظلُّوا معتصمين بالصَّبر والرِّضا بما ينالهم من العذاب والبلاء في سبيل الحرص علىٰ دينهم ، وعلىٰ عقيدتهم حتَّىٰ أذنَ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالفرج المنتظر ، حيث قدمت وفودُ الأنصار إلىٰ أمِّ القرىٰ ، ومن ثمَّ أسلمُوا وبايعُوا رسول ٱلله ﷺ علىٰ أنْ يمنعوه وأصحابَه إذا ما هاجرَ إليهم .

* جاء الإذنُ الإلـٰهيُّ بالهجرةِ إلىٰ المدينةِ المنوَّرة ، فانطلقَ إليها الصَّحابةُ الكرام ، ثمَّ لحقَ بهم مربِّيهم سيِّدنا رسولُ ٱلله ﷺ ، وامتزجَ المهاجرون بالأنصار في مؤاخاةٍ فريدةٍ في دنيا التَّكافل ، وجعلتِ المجتمعَ المسلم قوَّةً أرعبتْ قريشاً ، وأخذتْ عليهم ما قَرُبَ وبَعُدَ ، وجعلتهم في غيِّهم يتردَّدون .

الأسيرُ المُسَالمُ :

* أصبح رجالُ الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ في المدينة النَّبويَّةِ آمنين من الظُّلم الذي كان يمسُّهم في مكَّةَ من فجرة أهل الشِّرك والكفْر . وقد غدا المسلمون : مهاجروهم وأنصارهم شجَّاً في حلاقيم المشركين ، فأصبحوا يقفون لهم رصداً ، يصدّون عيراتهم وهي تحملُ أموالَهم غاديةً رائحةً ، إلىٰ أن

= فقال : إنْ زوَّجتموني بنت أبان بن سعيد بن العاص ، أو بنت سعيد بن العاص فارقتها ، فزوّجوهُ بنتَ سعيد بن العاص ، ففارقَها ، ولم يكنْ دخلَ بها ، وأخرجَها اللهُ من يديه كرامةً لها ، وهواناً عليه ، وخلَفَ عليها عثمانُ بنُ عفَّان ـ رضي ٱلله عنه ـ » . « مختصر تاريخ دمشق » (٢٩ / ٤٥) .

خرجَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ وأصحابه لملاقاةِ عيرات قريش ، وأعظمها أموالاً [1] ، يقودُهَا أبو سفيان بنُ حرب من الشَّام ، ولـٰكنَّ أبا سفيان نجا بالعير ، وأخبَر المشركين بالخطر الذي كاد يحدقُ بهم وبتجارتهم وأموالهم لولا أنَّه أحسَّ بالخطر ، فأحْسَن التَّدبير ونجا ؛ فتعبَّأت قريشٌ لقتال المسلمين بعددها وعدّتها ، وجمعت قواها الماديَّة ، واستوعبت كلّ ما تقدرُ عليه من عدَّة قتالية .

* اجتمع الفريقان عند ماء بَدْرٍ ، وراح المؤمنون والمشركون يقتتلون ، وفي هـٰذه الأثناء العصيبة واللحظات الخطرة كان أبو العاص بنُ الرَّبيع زوج زينب بنت رسول ٱلله ﷺ في الجيش القرشيّ الباغي ، إنَّه لم يخرجْ بمحض إرادته ، بل خرج كارهاً القتال ، كارهاً عناد المسلمين ومخاصمتهم ، ولـٰكنَّ فرعون الأمَّة أبا جهل أخذ يزخرفُ لقريش الخروج ، ويوسوسُ في صدورهم ، ويغريهم بقتال المسلمين ، وأخذ يدفعُهم دفعاً إلىٰ خوض غمار المعركة ، فَسَلَّ أبو العاص حسامَهُ وهو يودُّ ألا يلتقي مصافيه وحبيبَه رسولَ ٱلله ﷺ ، فكم مرَّة زارَهُ في بيت خالته خديجة قبل أن يتزوَّج زينب ، وكم مرَّة ألقىٰ إليه سمعه ولبَّه وأعجب بمنطقه وحسن خلقه ؛ وما أكثر ما اجتمع به بعد زواج ابنته زينب ، وكان له خير أسوةٍ لولا ذلك الدِّين الذي لم يألفْهُ من قبل ، ولـٰكنَّه لم يحارِبْهُ .

* التقىٰ الجمعان ، ودارت رحىٰ الحرب في شراسةٍ فاجرة ، وأحقاد دفينةٍ تعبَّأت لها حشود الكفر والغرور الأحمق ، وفي فدائيَّة إيمانيَّة تعبَّأت لها

---

(١) تذكر المصادرُ المتنوِّعةُ بأنَّ هـٰذِهِ القافلةَ قد استوعبت أموالاً كثيرةً ، فقد كانتِ العيرُ ألفَ بعير ، وكان فيها أموالٌ عظامٌ ، لم يبقَ بمكَّةَ قرشيٌّ ولا قرشيَّةٌ له مثقالٌ فصاعداً إلاَّ بعثَ به في العير ، حتَّىٰ إنَّ المرأةَ لتبعثُ بالشَّيء التَّافه ، وإنَّ أكثرَ ما فيها من المالِ لآلِ سعيد بن العاص لأبي أُحيحة ، إمَّا مالٌ لهم ، أو مالٌ مع قومٍ قراض علىٰ النّصف . وكان لبني مخزوم فيها مئتا بعير وخمسة آلاف مثقال ذهباً ، وللحارث بن نوفل فيها ألفا مثقال ، وإنَّ في القافلة لخمسين ألف دينار ؛ وٱلله تعالىٰ أعلم .

القلَّة المؤمنة من جند المجتمع المسلم مستهدفة إعلاء كلمة ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ التي أرسل بها رسولَه محمَّداً ﷺ ، ليخرجَ النَّاس من الظُّلمات إلىٰ النُّور ، واشتدَّ وجيبُ القتال ، وما هي إلا جولة حقٍّ من رجالِ النَّبيِّ ﷺ ، حتَّىٰ خفقَتْ ألويةُ النَّصر وراياتُهُ علىٰ رؤوس المؤمنين الصَّابرين ، ورفرفت أعلامُ الظَّفر فوق هامات المجتمع المسلم المتحلِّق حولَ الحبيب المصطفىٰ ﷺ يفديه بكلِّ شيء . وحلَّتِ الهزيمةُ المنكرةُ بطغاة الكفْر من أعيان المشركين وكُبَّارهم ، فَقَتَلَ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ صناديدهم بأيدي مَنْ كانوا بالأمس القريب الذَّاهب من المستضعفين ، وألقىٰ أشرافهم بأيديهم في صَغَار وذلّة أسرىٰ يقودهُم مولىٰ من موالي الصَّادق المصدوق ﷺ ، ويسوقُهم الرّعبُ من ورائه ، ليسمعوا قضاء النَّبيِّ ﷺ بهم .

* كان سيِّدنا أبو العاص بنُ الرَّبيع صِهْر رسولِ ٱلله ﷺ من بين الأسرىٰ الذين لم يُسمعْ لهم في المعركة صوتٌ ، ولم يعرفْ لهم رأيٌ ، ولا شُوهدت لهم في القتال جولةٌ .

* سار النَّبيُّ ﷺ وأصحابُهُ متّجهين نحو المدينة ليدخلوها ومعهم الأسرىٰ مقرّنين في الحِبال ، وكان أبو العاص بنُ الرَّبيع مُسْتأسراً مع رَهْطٍ من الأنصار الأخيار ، أسرَهُ عبد ٱلله بنُ جُبير الأنصاريّ ؛ فكانوا إذا أكلوا آثروه بالخبز ، وتناولوا التَّمر ، حتَّىٰ إنَّ الرَّجل لَتَقَعُ في يده الكسرةُ فيدفعها إليه ، وإذا ما ساروا كانوا يحملونه ويمشون ، وكانوا يكرمونه بكلِّ سبيل يقدرون عليه ، ويستطيعون عمله .

* أخذ أبو العاص يتأمَّلُ في هـٰذه المعاملةِ المونقةِ اللطيفة ، ويفكِّرُ في كنْهِ هـٰذا الدِّين الذي جاء به مِنْ عند ٱلله ؛ رسولُ ٱلله ﷺ ، فهو لا ريب دينٌ قويمٌ قيِّم ، إنَّه قد خَبرَ الأوسَ والخزرجَ وعرفَهم قبل أنْ يعتنقوا هـٰذا الدِّين ، إنَّهم لم يكونوا علىٰ مثل هـٰذه الأخلاقِ الفاضلةِ والمعاملة النَّبيلة ؛ إنَّ الذي لقَّنهم معجزة الإسلام لَهُوَ رجلٌ عظيمُ القَدْرِ ، جليلُ المكانة ، إنَّه رسولُ ٱلله ﷺ الذي ربَّاهم وأصفاهم الودّ والعلْم ، فآتت ثماره أُكُلَها في

سنواتٍ معدودات لا تتجاوز عدَّ أصابع كفّ اليد . وجعل أبو العاص مستمرّاً في مثل هـٰذه الأفكار النَّيِّرة ، وينقاد إلىٰ عقله السَّليم المبرَّأ عن الأهواء ، فإذا بفؤاده يميلُ إلىٰ الدِّين الحنيف القيِّم الذي يدعو إلىٰ مكارم الأخلاق ومحاسنها .

* شرد بأبي العاص تفكيرهُ إلىٰ الأمس القريب ، وقاده خياله إلىٰ تلك الأيَّام الصَّافية التي كان رسولُ ٱلله ﷺ يدعو خلالها في مكَّة إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وإلىٰ عبادته ووحدانيته ، وتذكَّر أنَّ ساداتٍ من قريش أتوا يُهْرعُون إليه ويقولون : « ويحك أبا العاص ! فارقْ صاحبتك بنتَ محمَّد ، ونحن نزوّجك أيَّ امرأةٍ تشاء من بناتِ قريش » . فكان يقولُ بأنفاسٍ صادقة ، ونبراتٍ حازمة ، وكلماتٍ وفيَّة ،« لا ها ٱلله ! لا أفارقُ صاحبتي ، وما أحبُّ أنَّ لي امرأةً من قريش » .

* أبىٰ هـٰذا الوفيُّ أنْ يفارقَ بنتَ الحبيب ﷺ زينب ـ رضي ٱلله عنها ـ ، أبىٰ أشدَّ ما يكون الإباء ، أنْ يطلِّقها وإنْ كانت علىٰ غير دينه ، وها هو ذا الآن سعيدٌ حتَّىٰ وإنْ كان أسيراً بين يدي رسول ٱلله ﷺ ، سعيدٌ ؛ لأنَّه لم يطلّقْها ، فهي لم تَجْنِ ذنباً ، ولم تفْسد حياته الزَّوجيَّة بقولٍ أو فعلٍ أو حتَّىٰ إشارة ؛ إنَّه يحبُّ زينب ويجلُّ أباها ، وإنَّ أباها رسول ٱلله ﷺ إذا ذكر أبا العاص فإنَّه يثني عليه خيراً ؛ وإنَّ حقيقةَ ما يدعو إليه ﷺ بدأت تتجلَّىٰ لبصيرته وبصره ، ولولا خشيتُهُ من أنْ يُقالَ في مكَّة : إنَّ أبا العاص لم يسلمْ إلا خوف القَتْل أو خيفةَ الأسر ؛ لأعلنَ علىٰ ملئهم شهادة التَّوحيد وكلمة النَّجاة : أشهدُ أنْ لا إلـٰه إلا ٱلله وأنَّ محمَّداً رسولُ ٱلله .

* إنَّ خيالَ أبي العاص ينتقلُ من صورةٍ إلىٰ صورة ، ومن مكان إلىٰ آخر ، ومن شخصيَّة إلىٰ أخرىٰ ، وها هو ذا خياله الآن يقفزُ به قفزةً فريدةً إلىٰ مكَّةَ المكرمةِ ، إلىٰ الرِّحاب الطَّاهرة والبيتِ العتيق ، إلىٰ حيثُ غادر أليفتَه زينبَ ـ رضي ٱلله عنها ـ ليقاتلَ الحبيبَ الأليفَ رسول ٱلله ﷺ ، ويقاتلَ أصحابه المسالمين ، وكان هو مع سفهاء قومه الذين لا يكادون يفقهون الحقَّ ، وإنَّهم عنه لمعرضون .

* إنَّه لم يفكرْ في مشاعر زوجته زينب وهو في غمرة الأحداث ، وطيش الحماس ، أما الآن فهو أسيرٌ منطلقٌ مع الأسرىٰ السَّبعين إلىٰ المدينة النَّبويَّة الآمنة ، فهو يحسُّ الآن حقيقة عواطفها ، وكيفيَّة مشاعرها ، إنَّها مشتَّتةُ الميول بينها وبين أبيها رسول ٱلله ﷺ ، ولعلَّه قد استولىٰ عليها خوفٌ واضطرابٌ أنْ تُصاب في أحدهما ، فهو علىٰ ثقةٍ تامةٍ من أنَّها تودّه وتحبُّه ، ولا شك في عظم محبتها وإكبارها وإجلالها لأبيها ﷺ ، لـٰكنَّه حَمدَ ٱلله علىٰ الحالة التي بات عليها الآن ، ولسان حاله يقول : « للهِ ٱلله يا زينب الوفاء والصَّفاء والنَّقاء ، ليت أحداً يحملُ إليك أبا العاص زوجك بين يدي أبٍ رقيق ورسول رؤوف رحيم ، ليسكنَ قلق نفسك ، وينجلي خوف قلبك ، وينزل بك أمنٌ وسكينةٌ إلىٰ حين » .

* وصل الأسرىٰ إلىٰ المدينةِ المنوَّرة ، وقضىٰ فيهم رسولُ ٱلله ﷺ بقضائه الذي أنزل ٱلله عليه وحياً يُتلىٰ في قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمَّد : ٤] ، ولم يكن القتلُ لمن أُسِر مشروعاً إلا لمن عظم كفره وطغيانه ، وعتا في فجوره عتواً حجب عنه التَّوبة بالإيمان ، كالذي كان من النَّضْر بنِ الحارث [1] ، وعقبةَ بنِ أبي معيط [2] اللذيْن أمرَ رسولُ ٱلله ﷺ بقتلهما صبراً فَقُتِلا .

الفـداءُ العجيـبُ :

* كان القضاء النَّبويُّ في الأسرىٰ قضاءً ذا حكمة بالغة ؛ إذ إنَّ في هـٰذا

---

(١) اقرأ سيرة هـٰذا الفاجر أحد شياطين الفجور في كتابنا : « المبشَّرون بالنَّار » (ص : ٣٣٢ ـ ٣٤٩) تجد كثيراً من الفوائد والأمور المهمّة التي تتعلق بالسِّيرة النَّبويَّة .

(٢) اقرأ سيرة عقبة بن أبي معيط في كتابنا : « المبشَّرون بالنَّار » (ص : ١٤٠ ـ ١٥٩) ، ولاحظْ مدىٰ الإيذاء الذي قام به هـٰذا الخبيث ، ولاحظْ سوءَ طويَّته وعناده وكفره حتَّىٰ استحقَّ النَّار .

القضاء الرَّبانيّ في أمر الأسرىٰ وشأنهم جانبٌ مهمٌّ من أهمِّ جوانب منهج الرِّسالة المحمَّديَّة الهادية العادلة ، ذلك أنَّه كان ممَّن شملهم الأسرُ فلا ينفلتون إلا بفداء ، أو مَنٍّ : أبو العاص بن الرَّبيع صهر رسول ٱلله ﷺ وزوج ابنته زينب ـ رضي ٱلله عنها وأرضاها ـ ، فقد أرسلتْ زينب في فداء أبي العاص بمال فيه قلادة زواجها به .

* كانت زينبُ ـ رضي ٱلله عنها ـ تحبُّ أن تبعثَ إلىٰ أبيها ﷺ من يفتدي منه الزَّوج أبا العاص ـ وذلك لمَّا بدأت قريش من تفادي أسراها ـ فهي وإن كانت قد تسربلتْ بأثوابِ السُّرور لمَّا جاءت الأخبار بنصر ٱلله لرسوله والمؤمنين ، إلا أنَّه عكَّر سرورها وكدَّره وقوع زوجها أبي العاص أسيراً في أيدي الأنصار ، وما كان يخفِّفُ من لوعتها إلاَّ معرفتها بكمال أخلاقِ أبيها ﷺ الذي سيقدِّرُ زوجَها ، فهو ﷺ يعرفُ أمانته ووفاءَهُ وأحوالَه ، وكم ودَّتْ زينب لو تستطيع أنْ تخرجَ لتفدي زوجها ، ولٰكنَّها كانت غيرُ قادرة علىٰ الخروج وحدها ، فهي تقيمُ بين ثلَّة من الكُفَّار قد مُلئَتْ قلوبُهم حسَداً وغيظاً علىٰ أبيها رسول ٱلله ﷺ ، لذلك فإنَّه قدم بالفداء عمرو بن الرَّبيع أخو أبي العاص ، ولمَّا وصلَ المدينةَ قدَّم ذلك لرسولِ ٱلله ﷺ فأطلقَهُ دون فداء ، ومَنَّ الأنصارُ علىٰ أبي العاص لمكانته من النَّبيِّ ﷺ ولرغبته ﷺ بذلك .

* لقد بعثت السَّيِّدةُ الطَّاهرة زينبُ بنتُ سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ ، وزوجة أبي العاص بن الرَّبيع بمالٍ تفديه به ، وأرسلت مع المال قلادة مباركة كانت أمُّها السَّيِّدةُ خديجةُ ـ رضي ٱلله عنها ـ أهدتْها إليها ، فأدخلتْها بها علىٰ زوجها لتتحلَّىٰ بها ، فلمَّا رأىٰ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ قلادةَ ابنته ترقرقَ الدَّمعُ في عينيه الشَّريفتَيْن ، ورقَّ لها رقَّةً شديدة ، فهٰذه القلادةُ الكريمةُ كانت مبعثَ ذكريات أبويَّة عنده ﷺ ، وذكريات زوجيَّة ، وأُسريَّة ، وعاطفيَّة قبل أن تأتيه رسالةُ ٱلله بمنهجها القويم .

* إنَّ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ أبٌ كريمٌ ، له من عواطف الأبوَّة أعلىٰ المنازل في صحائف المكارم الإنسانيَّة ، وأفضلها وأشرفها في مسيرة الحياة ،

فقد تذكَّرَ حبيبُنا المصطفىٰ ﷺ برؤيته هـٰذه القلادة الكريمة أشياء سارَّة ، تذكَّر برؤيته القلادة ـ وهي أعزَّ شيءٍ وأغلاه في حياة ابنته وذكريات مناسبتها ، وذكريات مَنْ أهدتها إليها ـ تذكَّر ﷺ هـٰذا كلَّه ، ولعلَّ زينب ـ رضي ٱلله عنها ـ لم تبعثْ بها مع مال الفداء إلا لتحرِّكَ في نفس أبيها أنبل عواطف الأبوَّة الرَّحيمة وألطفها وأرشقها ، ولتثيرَ في نفسه الشَّريفة ﷺ أسمىٰ مشاعر الحبِّ الأبويّ الشَّفوق ، ولتضع في بناء الوفاء الزَّوجي لبنةً ربما لم يكن عندها ما يفي بقدرها ، والحبيب المصطفىٰ ﷺ أوفىٰ البرية بمكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم ، فهو ﷺ زوج لأوفىٰ زوجة وهبه ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ منها الذُّرِّيَّة ، وحرمه إيَّاها من غيرها توكيداً لأشرف روابط الحياة بين البشر . وها هي ذي ابنتُه الكبرىٰ تبقىٰ في مكَّةَ وحيدةً مع زوجها مسلمة ، وهو علىٰ كُفْره ، لم تفكرْ قطّ في مفارقته ؛ لأنَّه كان بها حفياً ، وفي معاشرتها وفياً ، وفي محبّتها سرياً ، كما كان معتزاً بها ، وها هو ذا يُؤسَر في أشراف قومه ، ويتطلّب الموقف فداءه ، فتبعثُ فداءً عجيباً له ، ترسلُ قلادتها الأثيرة ، ذات الذّكريات المثيرة .

* رأىٰ الحبيبُ الأعظم رسول ٱلله ﷺ القلادة الغالية ، فتداعت في نفسه الذّكريات ، وتضوّعت منها ذكريات السَّيِّدة خديجة ـ رضي ٱلله عنها ـ ، وسرورها وهي تزفُّ ابنتها علىٰ ابن أختها ، وتحلّيها بأحسن ما عندها من الحلي ، وتزينها بقلادة تهديها إليها في فرحة العمر ، فتقدِّمها زينب ـ رضي ٱلله عنها ـ في فداء زوجها طيّبة بها نفسها ، وفاء لحياتها الزَّوجيَّة مع أبي العاص ابن خالتها هالة بنت خُويلد ، فيعظم ذلك في نظر الأب الوفي سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ ويكبره (١) .

* وهو ﷺ أبٌ ، وكافلٌ لأسرة قاعدتها العريضة أولاده ، وقمتها زوجه وزيرة الصِّدق ، ومأنس القَلْب ، ومفرّجة الأزمات والشَّدائد عنه بما أنعم ٱللهُ

---

(١) « محمَّد رسول ٱلله » لمحمد عرجون (٣ / ٤٨٣) بشيء من التَّصرّف اليسير .

عليها من عقل رشيد ، ورأي سديد ، وحبّ لم تعرفِ الحياةُ له مثيلاً في صفائه وطهره وتضحياته . فإذا ما رأىٰ النَّبيّ ﷺ القلادة الخديجيَّة الزَّينبيَّة الكريمة ـ بعد أنْ توارتْ عن نظره رَدَحاً من الزَّمن تخلّلته أحداثٌ جِسَام ـ ذكَّرته بالودّ الهامس مع أسرته ، وذكّرته بالحبِّ الشَّفيق ، والمشاركة لها في حياتها الهادئة ، وعيشتها الوادعة المبتسمة للحياة . فإذا ما رأىٰ ﷺ قلادة الفرحة الزَّينبيَّة بين مال الفداء لزوجها الوفي أبي العاص ، انجذبت إلىٰ حنايا نفسه الكريمة المكرمة أسمىٰ مشاعر الرَّحمة ، وتنزَّلت علىٰ قلبه الرَّحيم قطرات غيث الرَّأفة في أطهر سابغات الحنان الأبوي ، وتواكفت علىٰ إحساساته نسائمُ الإشفاق الأكرم ، وتزاحمتْ علىٰ فؤاده الأطهر عواطف الحنين والحنان ، وتتابعت علىٰ وجدانه ذكريات حبّ الولد من البنات والولدان .

* وبعد هـٰذا كلّه توجَّه ﷺ إلىٰ أصحابهِ الكرام ـ رضوان ٱلله عليهم ـ متلطّفاً ، يطلب إليهم في ودّ رفيقٍ رقيقٍ كريم ، ودّ يدفعهم إلىٰ ذروة العطاء ، ولا يسلبهم حقّهم من لذّة الفداء ، لو أنَّهم أرادوا الاحتفاظ بهـٰذا الحقّ ، وهو في أيديهم يملكون التَّصرُّف فيه ، فقال لهم : « إنْ رأيتم أنْ تطلقوا لها أسيرها ، وتردّوا عليها الذي لها فافعلوا » (١) . وجاء ردُّ الصَّحابةِ دون تردُّدٍ أو

---

(١) أخرجه أبو داود برقم : (٢٦٩٢) ، والبيهقيُّ في « دلائل النُّبوَّة » (٣ / ١٥٤) ، والطَّبرانيُّ في « الكبير » (٢٢ / ٤٢٨) ، و« الهيثميّ في « مجمع الزَّوائد » (٩ / ٢١٤) ، وانظر : « صحيح السِّيرة النَّبويَّة » (ص : ٢٦١) .

وقد علَّق المرحوم محمَّد عرجون ﵀ علىٰ هـٰذا الحديث وهـٰذه الحادثة تعليقاً نفيساً مفيداً يرشحُ بقلائد الفوائدِ ، فقال : « وهـٰذا أسلوبٌ من أبلغِ وألطفِ ما يسري في حنايا النُّفوس الكريمة ، فيطوّعها إلىٰ الاستجابة الرّاغبة الرَّاضية رضاءً ينمُّ عن الغبطة والبهجة . فالأساسُ في الطَّلب المتلطِّف ؛ إطلاقُ الأسيرِ الذي هو أسيرها ، بهـٰذه الإضافة التي تكادُ تجعلُ من التَّلطُّف استعطافاً شفيعاً ؛ لأنَّها إضافة خاصَّة ، رفعت من شأْن هـٰذا الأسير ، وأدخلته في إطار المخصوصين بالرِّعاية ، وأكَّدَ هـٰذا المعنىٰ أنَّ هـٰذا الإطلاق « لها » ، وهـٰذه حفاوةٌ في التَّعبير تزيد في إبراز الرَّغبة في=

توقّف قائلين : « نعم ، يا رسولَ ٱلله ! » فأطلقوه ، وردّوا عليها مالَها ، وقلادتَها الأثيرةَ الغالية .

* وما أجمل أنْ نفيءَ إلىٰ هٰذه التَّغريدةِ الهامسةِ نستروح من خلالها قصَّةَ العفو عن أبي العاص ، وقصَّة القلادة الزَّينبيَّة :

هٰـذا هـو ابـنُ العـاص ظـلَّ لـزوجـهِ نِعْـمَ القـريـن
ظلَّـتْ علـىٰ إسـلامهـا فـي صحبـة الـزَّوج الفطيـن
لـم ينـزلِ التَّحـريـمُ بَعْـدُ بـانفصـال العـاقـديـن
قـد هـاجـرَ الهـادي وتمَّـتْ غـزوةُ النَّصـر المبيـن
وابـنُ الـرَّبيـع أتـىٰ أسيـراً فـي الأسـارىٰ المشـركيـن
هٰـذي قُـريـشٌ أرسلـتْ تفـدي الأسـارَىٰ المـوسـريـن

= إطلاقِ أسيرها المشعرة بالاستعطاف ممَّن له حقّ الأمر النَّافذ ، لإيحائها بأنَّ صاحبة هٰذه القلادة ابنته ﷺ التي أفردت عن إخوتها وسائر أسرتها بالبقاء وحيدة بمكة ، تعاني مرارةَ الوحدة ، والبعد عن حنان الأبوَّة الرَّحيمة .

وإذا تحقَّقَ هٰذا الأساسُ جاء التَّرغيبُ في استكمال نعمةِ الامتنان في إطلاق أسيرها ، فقال ﷺ : « وتردّوا عليها الذي لها » ، والذي لها هو محورُ العطف والذكرياتُ المتواليةُ من الماضي البعيد القريب ، هو قلادةُ فرحةِ العمر التي أهدتها إليها أمّها في أعزّ مناسبة ، وهٰذه القلادةُ هي التي أثارتْ في نفسِه ﷺ الرّقة الشَّديدة لابنته ، ولهٰذا لم يقلْ ﷺ لأصحابه : وتردّوا عليها ما بعثتْ به من مالٍ لفداء زوجها ؛ لأنَّ المالَ لم يبلغْ في هٰذه المناسبة المليئة بالذِّكريات من المكانة ما يستدعي كلّ هٰذا التّلطُّف والاستعطاف في طلب ردّه عليها ، ولعلَّ المالَ مالُ زوجها أرسلته لتفديه به ، ولٰكن القلادة « لها » وضعاً وطبعاً وملكاً وذكرىٰ ، ولن تبلغَ فجيعتها في المال شيئاً من فجيعتها في قلادتها ، هدية أمّها لها في بناء زوجها بها . ولهٰذا جاءت إجابة الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ عن تساؤل رسول ٱلله ﷺ سريعة محقَّقة لكلّ ما يبتغي منها ، فقالوا : نعم ، يا رسول ٱلله ! ، فأطلقوه ، وردّوا عليها مالها وقلادتها » . « محمَّد رسول ٱلله » (٣ / ٤٨٤ ـ ٤٨٥) .

أمَّــا عــن الفُقــراء لــم يــأتــوا إليهــم طــالبيــن
وابــنُ الــرَّبيــع فقــد أتــىٰ لفــدائــهِ شــيءٌ ثميــن
كــان الفــداءُ قــلادةٌ مــن زوجــهِ بنْــتِ الأميــن
كــانــت هــديــةَ أمّهــا عنــد الــزَّفــاف علــىٰ اليقيــن
لمَّــا رآهــا المُصطفــىٰ طــافَــتْ بــه ذكــرىٰ الحنيــن
أوحــىٰ إلــىٰ أصحــابــهِ قــولاً وكــانــوا ســامعيــن
رُدُّوا القــلادة إنْ تشــاؤوا والأسيــر المستعيــن
قــالــوا سمعْنــا واستجــابــوا للنَّصحيــةِ طــائعيــن
قــد صــار صهــرُ المصطفــىٰ حــرّاً بِعَفْــو المــؤمنيــن [(١)]

الــوفيُّ الكَــريمُ :

* كان رسولُ ٱلله ﷺ قد أخذَ علىٰ أبي العاص حين أطلقه من الأَسْر ، أن يخليَ سبيل زينب لتلحقَ به ، وتكونَ مع أخواتها في رعايةٍ أبويَّةٍ حانيةٍ تعوّضها عن مرارةِ الفرقةِ والبعد فيما مضىٰ من الزَّمان .

* عاد أبو العاص بن الرَّبيع إلىٰ مكَّة المكرمةِ ، ففرح النَّاسُ بعودة من كان من الرِّجال المعدودين مالاً وأمانة وتجارة . وكان أبو العاص علىٰ سجيَّته وفيّاً كريماً ، فإنَّه لم يكدْ يصلْ مكَّةَ المكرمة ، ويرىٰ زوجتَه حتىٰ شكرها علىٰ موقف النُّبل منه في أَسْرِه وفدائه بأعزّ وأغلىٰ ما تملكُ ، ثمَّ أسرع إلىٰ تنفيذ ما عاهد عليه الصَّادق المصدوق ﷺ من إخلاء سبيل زينب ، لتلحقَ بهِ ﷺ ،

---

(١) انظر : « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ٢٧٢) ، وقوله « نعم القرين » : نعم الزَّوج وفاء لزوجته . و« بانفصال العاقدين » : بتفريق المتزوّجين مختلفي الدّيانة . و« غزوة النّصر المبين » : غزوة بدر الكبرىٰ . و« الموسرين » : الأغنياء . و« بنت الأمين » : زينب ـ رضي ٱلله عنها ـ زوجة أبي العاص . و« هديَّة أمها » : هديَّة أمها خديجة ـ رضي ٱلله عنها ـ . و« ذكرىٰ الحنين » : ذكرىٰ خديجة ـ رضي ٱلله عنها ـ . و« الأسير المستعين » : أبو العاص .

وتعيشَ مع إخوتها في كنفهِ مغمورةً بحبِّه الأبويِّ .

* إنَّ أبا العاص سينفِّذُ ما وعدَ به رسولَ ٱللهِ ﷺ ، فهو لا يستطيعُ أنْ ينكثَ وعْدَهُ ، وإلاَّ لطَّخَ أمانتَه القويمةَ التي اشتُهِرَ بها بين قومه بالأوحال . إنَّه وعدٌ أليمٌ موجعٌ لقلبه ، إنَّه سيقوّض البيتَ الزَّينبيَّ الهانئَ الذي عجزت عواصفُ الأحداث من قبل أنْ تزعزعَ أركانَه ، ولٰكنَّه تماسك وقال لها : « إلحقي بأبيك وتأهّبي يا زينبُ للسَّفر ، فقد فرّقَ بيني وبينك الإسلامُ » .

* إنَّ أبا العاص وعد رسولَ ٱللهِ ﷺ ابتداءً بأن يحملَ زينب إليه في المدينة ، وكان يعلمُ قسوة ذلك الوعد علىٰ قلبه ، لٰكنَّه وهو يفضي إلىٰ زينبَ الحبيبةِ بما شرط عليه أبوها ، يحسُّ أنَّ قلبَه يتمزَّق ، وأنَّه يتناثر أشلاء .

* وأخذت زينبُ تجاهدُ عواطفَها المتموّجةَ بين الفرحِ والتَّرح ، ولٰكنَّها قالت صادقةً بلسانِها ووجدانها : « سمعاً وطاعةً للهِ ولرسولِ ٱلله » . وخرجت تجهِّزُ لسفرها ، وتعدُّ لهٰذه الرِّحلةِ الطَّويلةِ عدَّتها بما يرفقُ بها ، ويسهلُ عليها وعْثَاء الطَّريق .

* وهٰكذا وفَّىٰ أبو العاص وعده ، وصدق عهده ، وقد أثنىٰ عليه رسولُ ٱلله ﷺ لوفائه فقال : « حدَّثني فصدَقني ، ووعدني فوفىٰ لي » .

* وبينما كانت السَّيِّدةُ زينبُ تتجهَّزُ لتلحقَ بأبيها ، حدثَ موقفٌ كريمٌ من هند بنتِ عتبةَ تجاه زينب التي تروي لنا خبر هٰذا الموقف العظيم فتقول : « لقيتني هندُ بنتُ عتبة ، فقالت لي : يا بنةَ محمَّد ! أَلَمْ يبلغني أنَّكِ تريدين اللحوقَ بأبيك ؟ فقلتُ في شيءٍ من الحذَر : ما أردتُ ذلك يا بنةَ عتبةَ .

فقالت هند ـ وقد فهمتْ ما في ردِّ زينبَ من الحذَر والتَّخفِّي ـ : أي ابنة عمّ ! لا تفعلي ـ أي : لا تخافي منِّي ، وتكتمي عليَّ أمركِ لِمَا بين قومنا من ضغائن ـ إنْ كان لك حاجةٌ بمتاعٍ ممّا يرفقُ بكِ في سَفَرك ، أو مالٌ تتبلَّغين بهِ إلىٰ أبيك فعندي حاجتُك ، فلا تستَّري أمرك عنِّي ، فإنَّه لا يدخلُ بين النِّساء ما بين الرِّجال ، وإنَّ أولىٰ النَّاس بإسعادك ابنة عمّك .

قالت زينبُ ـ رضي ٱلله عنها ، وقد أحسَّتْ صدق هند ـ : « فوٱلله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعلَ ، ولـٰكنِّي خفتُها ، فأنكرتُ أنْ أكونَ أريدُ ذلك »[1] .

* ولمَّا فرغت زينبُ ـ رضي ٱلله عنها ـ من جهازها ، ودَّعها زوجها أبو العاص ، وخرجتْ مع أخيه كنانةَ بنِ الرَّبيع حيث زيدُ بنُ حارثة في انتظارها خارجَ مكَّة المكرمة ، فساء قريشاً أنْ تخرجَ زينبُ في هودجها ، فخرجوا سراعاً حتَّىٰ أدركوها بذي طوىٰ ، وروَّعها هبَّارُ بنُ الأسود ، فغدت تنزفُ دماً ، فبركَ حموها كنانةُ بنُ الرَّبيع ، ونثَلَ كنانته بين يديهِ ، ووضع فيها قوساً ، فخافوه ، وجاء أبو سفيان بن حرب ، وكان له دورُ الوساطة بعد أنْ خاطبَ كنانة فقال : « إنَّك لم تصبْ ، خرجتَ بالمرأةِ علىٰ رؤوس النَّاس علانيةً ، وقد عرفْتَ مصيبَتَنا ونكبَتَنا ، وما دخلَ علينا من محمَّد ، فيظنُّ النَّاسُ أنَّ ذلك عن ذلٍّ أصابنا ، ولعمري ما بنا بحبْسِها عن أبيها من حاجةٍ ، ارجعْ بها ، حتَّىٰ إذا هدأتِ الأصواتُ ، وتحدَّثَ النَّاس أنَّا ردَدْناها ، فسُلَّها سرّاً ، وألحقها بأبيها »[2] .

---

(١) « نساءُ أهل البيت في ضوء القُرآن والحديث » (ص : ٤٩٣) بتصرُّف . وهـٰذه شهادةٌ لا تُردُّ ؛ لأنَّها شهادةُ عليمٍ شهيد ، وهي شهادةٌ إذا وضعَتْ في ميزانِ مكارمِ الأخلاق والاعتراف بالفضل لأهلهِ ، مع شدّة شوكة العداوة المضطغنة ، فإنَّها لا تعجزُ أنْ توزنَ مكرمة النُّبل في موقف هند بنت عتبة ـ رضي ٱلله عنها ـ . فقد كانت السَّيِّدة هند صادقةً مع نفسها ، وموروث بيتها وقومها ، وزينب كانت صادقةً مع طبيعتها ومرباها .

إنَّ هـٰذا الموقفَ النَّبيلَ الذي وقفته هند بنت عتبة من زينبَ بنتِ رسولِ ٱلله ﷺ من أعجب العجب ، ولـٰكنَّه في ذرا الشَّرف لا يُستغرب من أعلياء بيوتات العرب ، وهو سَنَنٌ مسلوك في مكارم أخلاقهم . مُستعذب جميل أخاذ . « محمَّد رسول ٱلله » (٣ / ٤٨٥ ـ ٤٨٦) بتصرُّف .

(٢) « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٣٣) .

* ولقيت السَّيِّدةُ الحصيفةُ هندُ بنتُ عتبةَ الذين خرجوا إلىٰ السَّيِّدة الطَّاهرة زينب ـ رضي ٱلله عنها ـ ، وكانوا راجعين من ترويعها فقالت تخاطبُهم وتسخرُ منهم أشدَّ السُّخرية وأكثرها لذعاً ؛ إذ تشبهُهم بحمرِ الوحش وبالعيَّارين الذين يخلُّونَ أنفسَهم وهواها في حالة السِّلم ، أمَّا في الحرب فأشباء النِّساء اللاتي في المحيض ، تقول هند :

أفــي السِّلْــمِ أعيــارٌ جفــاء وغلظــة وفـي الحـربِ أشبـاهُ النِّسـاء العَـوارك

* ولمَّا استردّتِ السَّيِّدةُ زينب بعضَ قواها ، وهدأتِ الأصواتُ عنها ، ولملم النَّاسُ حديثَ هجرتها ، أخرجها حموها ليلاً ، حتَّىٰ وصل إلىٰ بطن يأْجج ـ موضعٌ علىٰ ثمانيةِ أميالٍ من مكَّة المكرمة ـ وكان زيدُ بنُ حارثة بانتظارها ، فأقبل كنانةُ حتَّىٰ أسلمَها إلىٰ سيِّدنا زيد وهو ينشدُ قائلاً :

عجِبْــتُ لهبَّــارٍ وأوبــاشِ قــومــه يــريــدون إخْفَــاري ببنــتِ محمَّــدِ
ولسْـتُ أبـالـي مـا حَييـتُ عـديـدهـم إذا اجتمعـتْ يـومـاً يـدي بمهنَّـدِ (١)

* حمل زيدُ بنُ حارثة زينبُ ـ رضي ٱلله عنها ـ وراءه ، وسارَ بها يطوي الليلَ والنَّهار ، ويقطعُ الفيافي والقفار ، حتَّىٰ أقدمها علىٰ أبيها النَّبيّ المختار ﷺ في المدينةِ المنوَّرة عرين الأنصار ، ومثوىٰ الأبرار ؛ وبقيتْ مع أُختَيْها مستظلَّةً بظلال الحنان المحمَّديّ ؛ والأُنس النَّبويّ ؛ في عاطفة متدفّقة ؛ ورعايةٍ مشفقة ، وعناية مونقة (٢) .

---

(١) انظر : « منح المدح » لابن سيّد النّاس (ص : ٢١٢ ـ ٢١٣) بشيء من التّصرّف .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٩ / ٤٥) بتصرُّف . أقول : « في هـٰذه الحادثة دروس وأحكام مهمَّة ينبغي أنْ نستحضرَها في حياتنا في كلِّ زمانٍ ومكان ، ومنها : أنَّ النَّبيَّ ﷺ أمرَ سيِّدنا زيدَ بنَ حارثة ـ رضي ٱلله عنه ـ أنْ يحضرَ زينبَ من بطن يأجج الذي يبعدُ بضعة أكيال عن مكَّة المكرمةِ . وسيِّدنا زيدٌ كان لزينب كالرَّحم ، كما في « الصَّحيح » عن عبد ٱلله بنِ عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ : « أنَّ زيدَ بنَ حارثة مولىٰ رسولِ ٱلله ﷺ ما كنَّا ندعوهُ إلا زيد بن محمَّد ، حتَّىٰ أنزل اللهُ : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ =

* وإليكم هـٰذه التَّغريدة الجميلة التي تصوِّرُ مجريات الأمور والهجرةِ الزَّينبيَّة إلىٰ المدينة المنوَّرة :

نـادىٰ أبـو سفيـانَ صَـاحـبَ زينـبٍ كُـفَّ النِّبـال
حتَّـىٰ نجيئَـكَ لا نُـريـدُ سـوىٰ التَّفـاهـمِ بـاعتـدال
وأتـىٰ أبـو سفيـانَ نحـو حَمِـيِّ زينـبَ حيـث قـال
يـا صَـاحِ إنَّـك قـد أسَـأْتَ بمـا صنعـتَ بـلا جـدال
إنَّـا نـريـدُكَ أنْ تعـودَ بهـا نهـاراً بـامتثـال
حتَّـىٰ إذا هـدأ الحـديـثُ خـرجْـتَ ليـلاً بـانْسـلال
لَسْنـا نُـريـدُ بمنعِهـا ثـأْراً فلسْنـا فـي خَبـال
لـٰكـنْ أصـابتْنَـا المصيبـةُ مـن مُحمَّـد فـي القتـال
فـإذا خـرجـتَ بهـا نهـاراً سـوفَ يتَّسِـعُ المقَـال
ولسـوفَ يُحكـىٰ أنَّهـا خـرجَـتْ علـىٰ ذلِّ الـرِّجـال

= هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٥] .

ثمَّ جاء التَّشريعُ الإلـٰهيُّ بعد ذلك ، فمنعَ المرأةَ أنْ تخرجَ مسيرةَ يومَيْن إلاَّ ومعها زوجها أو ذو محرم منها . ففي « الصَّحيح » عن ابن عبَّاس ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، عن النَّبيِّ ﷺ قال : « لا تُسافرُ المرأةُ إلاَّ مع ذي محرم ، ولا يدخلُ عليها رجلٌ إلا ومعها محرم » . (البخاريّ برقم : ١٨٦٢) .

وفي « الصَّحيح » أيضاً عن ابن عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : قال رسولُ ٱلله ﷺ : « لا تسافرُ المرأة ثلاثةَ أيَّام إلا مع ذي محرم » . (البخاريّ برقم : ١٠٨٦) .

ومن الدُّروس والأحكام المستفادة أيضاً : أنَّه لا عذر لأحدٍ في البقاء في دار الحرب ، وتكثيرِ سواد المشركين إلا الإكراه ، فإنَّ البقاءَ مع الكفَّار في ديارهم يهدِّدُ المسلم في دينه ، ويسخطُ بذلك ربّه ؛ لذا فالهجرةُ واجبةٌ بعد أنْ هيَّأَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ للمؤمنين دارَ الإسلام .

لقــد استجــابَ حَمِــيُّ زينــبَ للــرَّجــاءِ بــلا نِــزال

حتَّــىٰ إذا هــدأَ الحــديــثُ وصــار كُــلٌّ فــي انشغــال

خــرجــتْ ويصحبُهــا كنــانــةُ دون حــربٍ بــالنِّصــال

وصــلا لــزيــدٍ فــي المكــانِ ومنْــه كــان الارتحــال

وَصَلُــوا المــدينــةَ ســالميــن وقــد أُصيبــوا بــالكــلال (١)

أَجَرْتُ أَبَا العَاص :

* أقام أبو العاص بمكَّةَ المكرمةِ علىٰ دِيْنِ قومهِ بضع سنين ، فلم يشهدْ مشاهدهم ، ولم يخرجْ معهم لحلٍّ ولا عقْدٍ ، حتَّىٰ إذا كان قُبيل الفتحِ بقليل ، خرجَ في تجارة قريش إلىٰ الشَّام ، فلقيته سريَّةٌ من أصحابِ الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ بقيادة زيدِ بن حارثة ، فأحاطت رجالُ السَّريَّة بعيرِ قريش ، فلم يرَ القرشيّون إلاَّ أنْ يسلمُوا أنفسَهم وتجارتهم لأصحابِ النَّبيِّ ﷺ ، وكان فيها فضَّةٌ كثيرةٌ لصفوان بن أميَّةَ ، ورغبوا في أنْ يحقنُوا دماءهم أمامَ هـٰؤلاء الرِّجال الذي تربُّوا في المدرسةِ المحمَّديَّة ، بَيْدَ أنَّ أبا العاص استطاعَ أن يفلتَ من رجال زيدٍ ، وأعجزهم هرباً ، حتَّىٰ دلفَ تحت جنح الليل إلىٰ السَّيِّدة النَّجيبةِ الحصيفةِ زينب ـ رضي ٱلله عنها ـ ، فاستجار بها ، فأَجارتْه دون علْمٍ من أبيها سيِّدنا وحبيبنا رسول ٱلله ﷺ ، فلمَّا خرجَ الحبيبُ الأمينُ ﷺ لصلاة الصُّبحِ وكبَّر ، وكبَّرَ النَّاسُ خَلْفَه ، إذا بصوتِ زينبَ من صُفَّةِ النِّساء يدوي في المسجد ويمزِّقُ سكونَ الليل ، وتقولُ : « أيُّهاالنَّاسُ ! إنِّي قد أجرتُ أبا العاص بن الرَّبيع » .

---

(١) « تغريدةُ السِّيرةِ النَّبويَّة » (٢ / ٢٧٦) . وقوله « كفّ النّبال » : ابعدْ عنا نبالك ولا ترمنا بها . و« وحمِيّ » : كنانة بن الرَّبيع أخو زوجها أبي العاص . و« هدأ الحديث » : نسي النَّاس هـٰذا الأمر . « ويتَّسع المقال » : يكثر القول والتّكهنات . و« المكان » : بطن يأجج المكان المتّفق عليه . و« الكلال » : التَّعب والجهد .

* ترىٰ ماذا حدثَ بعد ذلك ؟ ! حسناً لِنَسْتَمِع إلىٰ هـٰذه الأنفاسِ المعبِّرة ، ثمَّ نتابعُ هـٰذه الرِّحلة المُعَطّرة :

ابنُ الرَّبيعِ أبىٰ فَظَلَّ بكُفْرِهِ في المشركين
والزَّوجُ صارتْ في رحاب المُصطفىٰ الهادي الأمين
قد فرَّقَ الإسلامُ بينهما فصارا بائِنِين
لـٰكنَّه بالحقِّ ظلَّ بقلبه كُلُّ الحنين
لم ينسَ زوجاً أخلصتْ فيها وفاءُ الصَّادقين
في رحلةٍ للشَّام نادىٰ مثْل كلّ الذَّاهبين
يبغي التِّجارة إنَّه من خيرهم رجلٌ فطين
جمعُوا له الأموالَ من كُلِّ الرِّجالِ الموسرين
قد قابلتْه سَريَّةٌ بعضُ الرِّجال المسلمين
قد فرَّ يتركُ مالَه لمَّا رآهم قادمين
فوراً توجَّه نحو زينبَ في المدينةِ يستعين
قالتْ له إنِّي أجرتُكَ لا تكُنْ في الخائفين
المُصْطفىٰ والصَّحبُ كانوا في الصَّلاة مكبِّرين
وإذا نداءٌ جاءهم كانوا جميعاً سامِعين
إنِّي أجرتُ ابنَ الرَّبيع وإنَّه في الآمنين
قد كان هـٰذا في صلاة الصُّبح كانوا قائمين
كان المنادي زينب هي بنتُ خيرِ المرسلين [1]

* وحينما قُضيتِ الصَّلاةُ ، وسلَّم رسولُ ٱلله ﷺ ، أقبل علىٰ النَّاس فقال : « أيُّها النَّاس ! هل سمعتم ما سمعتُ ؟ » .

قالوا : نعم يا رسولَ ٱلله !

---

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ٢٨٠) .

فقال ﷺ : « أما والذي نَفْسُ محمَّد بيده ، ما علمتُ بشيءٍ حتَّىٰ سمعتُ الذي سمعتم ، وإنَّه ليجيرُ علىٰ المسلمين أدناهم » .

* ثمَّ انصرفَ رسولُ ٱللهِ ﷺ ، فدخل علىٰ ابنته فقال : « أي بنيَّة ! أكرمي مثواه ، ولا يخلصْ إليكِ ، فإنَّك لا تحلِّين له » .

فقالت : « إنَّه قد جاء في طَلَب ماله » . فجمعَ رسولُ ٱللهِ ﷺ رجال تلك السَّريَّة ، وقال لهم : « إنَّ هـٰذا الرَّجُل منَّا حيثُ علمتم ، وقد أصبتُم له مالاً ، وهو ممَّا أفاء اللهُ عليكم ، وأنا أحبُّ أنْ تحسِنُوا ، وتردُّوا عليه الذي له ، فإن أبيتم فأنتم أحقُّ به » (١) .

فقالوا : « بل نردُّ عليه » ، فردُّوا عليه مالَه أجمع .

* وما أجمل أن نقرأَ ما رسمتْهُ هـٰذه التَّغريدة لقبول إجارة زينب لزوجها أبي العاص :

سمـــعَ النَّبـــيُّ نـــداءَ زينـــبَ مثـــلَ كـــلِّ السَّـــامعيـــن
مـــا أنْ أتـــمَّ صـــلاتَـــهُ الهـــادي وكُـــلُّ المسلميـــن
فـــوراً تـــوجَّـــه بـــالحـــديـــثِ إلـــىٰ جميـــع الحـــاضـــريـــن
مـــن قـــولـــه إنِّـــي سمعـــتُ لابنتـــي كـــالآخـــريـــن
مـــن قبلـــهِ لا علْـــمَ لـــي ممَّـــا سمعـــتُ علـــىٰ اليقيـــن
ولتعلمـــوا كـــي لا تكـــونـــوا للحقيقـــةِ جـــاهليـــن
المسلمـــون دمـــاؤُهـــم صـــاروا ســـواءً أجمعيـــن
ويجيـــرُ أدنـــاهـــم عليهـــم فلتكـــونُـــوا عـــالميـــن
دخـــلَ النَّبـــيُّ علـــىٰ المُجيـــرة قـــال بـــالنُّصـــح الأميـــن
يـــا ابْنَتـــي فلتكـــرمـــي مثـــوىٰ المُجَـــار المُسْتَعيـــن
لـٰكنَّـــه لا يقـــربنَّـــك واحـــذَرِي هـٰـــذا مشيـــن

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٩ / ٤٧) .

قَالَ النَّبيُّ إلىٰ السَّرِيَّة يا رجالَ المؤمنين
أنتم بحقّ قد غدوتم ثُمَّ جئْتُم غانمين
لٰكنْ أحبُّ بأنْ تردُّوا للغنيمةِ محسنين
وإذا أبيتم فهو فَيْءُ اللهِ حقّ الكاسبين
رَدُّوا لِصِهْرِ المصطفىٰ أموالَه متنازلين

إسلامُهُ وجَمْعُ شمله :

* عاد أبو العاص بأموالِ قريش وتجارتها التي عُقِدَتْ أمانتُها بناصيته ، ولم يفقدْ منها شيئاً ، فكان موفورَ الكرامة ، محمودَ الأمانة ؛ أعطىٰ كلَّ إنسانٍ ما كان له من مال في هٰذه التِّجارة بغاية الصِّيانة .

* نظرَ أبو العاص فيما حوله نظرةَ تأمُّل ، وفكَّر في غده وأمسه ، فرأىٰ محاسنَ الإسلام وسماحته ، وهانت في عينَيْه آلهة آبائه وأجداده ، رآها للمرَّة الأولىٰ حجارةً لا تملكُ لنفسها نفعاً أو ضراً ، رأىٰ اللات والعزَّىٰ فارغَيْن لا نفع فيهما ، وكذلك مناةَ الثَّالثة الأُخرىٰ ، وهُبَلَ وسائر الأصنام ، رأىٰ هٰذا كلَّه فأحسَّ بنسائم الألطاف الإلٰهيَّة تهبُّ علىٰ روحهِ ، وتنكشفُ الحجُب عن نفسه ، وتنسكبُ أنوارُ الصَّفاء في كيانه .

* ثمَّ نادىٰ أبو العاص في قريش علانيةً وقال لهم وقد وضح اليقينُ أمامه : « يا معشرَ قريش ! هل بقيَ لأحدٍ منكم عندي مال لم يأخذه ؟ » .

قالوا : لا ، فجزاك ٱلله خيراً ، قد وجدناك وفيّاً كريماً » .

فقال أبو العاص وهو موقنٌ بما يفعل ، مسرورٌ بما يجابِهُ بهِ قريشاً : « أشهدُ أنْ لا إلٰه إلا ٱلله ، وأنَّ محمَّداً عبدهُ ورسولُه » .

* وبعد أنْ أعلنَ أبو العاص بن الرَّبيع إسلامَه ، وشهدَ شهادةَ الحقِّ ، وقريشٌ مجتمعون عليه ، قال لهم بلسانِ الصَّراحة والقوَّة : « واللهِ ما منعني من الإسلام عند محمَّدٍ ﷺ بالمدينة إلا خشية أنْ تظنُّوا بي الظُّنون ، وأنِّي أردتُ أنْ آكلَ أموالَكم ، فلمَّا أدَّاها ٱلله إليكم ، وفرغتُ ، أسلمتُ » .

* ثمَّ خرج سيِّدنا أبو العاص ـ رضي ٱلله عنه ـ من مكَّة المكرمةِ تلقاء المدينةَ المنوَّرة ، وهو منشرحُ الصَّدر ، لا يطمعُ في مال ، ولا سلطان ، ولا جاه ، بل يريدُ وجْه ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، إنَّه يريدُ نعمة الإيمان التي ذاق حلاوتَها ، فشعر بالنَّعيم الحقيقيّ وأحسَّ أنَّه تحرَّرَ من كلِّ شرٍّ ، تحرَّر من عبودية الأهواء والغرائز والجهل والتَّقليد الأعمىٰ لموروثات الآباء والأجداد ، أضحىٰ ثابت الجنان ، صافي السَّريرة ، إنَّه يمشي علىٰ صراط مستقيم ، ليصلَ إلىٰ رحمةِ العزيز الرحيم .

* كان جوهرُ أبي العاص الإنسانيّ يتألَّقُ بالأنوار ، فقد أسلم إسلامَ المخبتين بعد تدبُّرٍ وتأمُّلٍ وتفكير ، أسلم بمحضِ حرّيته بعد أنْ تخلَّص من سخافاتِ الجاهليَّة ، وضلالاتها العمياء ، إنَّه يحسُّ للمرَّةِ الأولىٰ وفاقاً بين عقلهِ وقلبهِ ، يحسُّ بأنَّ الحياةَ من دون عبادةِ الله لا معنىٰ لها ولا طعم .

* بلغ سيِّدنا أبو العاص المدينةَ المنوَّرة ، وقد امتلأت نفسُه بخشيةِ ٱلله ومحبَّته ومحبّة نبيّ الإسلام محمّد ﷺ ، وقدمَ علىٰ رسول ٱلله ﷺ مُسْلماً مؤمناً مُستغفراً ، فازداد له ﷺ إكراماً وحبّاً واحتراماً ، وردَّ عليه زوجتَه وابنةَ خالته زينبَ ـ رضي ٱلله عنهما وأرضاهما [1] ـ ؛ وعفا عنا بفضله ومنّه ، ووهبنا لهما

---

(١) « أسد الغابة » (٥ / ١٨٦) بشيء من التَّصرُّف . وللمرحوم الشَّيخ محمّد صادق عرجون رَحِمَهُ ٱللهُ تعليقٌ نفيسٌ ، يستحقُّ التَّسجيل في هٰذا الموقفِ الأنيس حيث قال : « هٰذا موقفٌ يمثِّل جوانبَ من منهج رسالةِ الإسلام ، كان رسولُ ٱلله ﷺ فيه هو الوجهُ المشرقُ الذي أضاء الطَّريق أمام مسيرة الدَّعوة ، وكانت ابنتُه زينبُ ـ رضي ٱلله عنها ـ تمثِّلُ مفتاحَ الموقف الذي انطلقت الحياة من أبوابه ، وكان أبو العاص بن الرَّبيع المحورَ الذي دارتِ الوقائعُ والأحداثُ من حوله . فرسولُ ٱلله ﷺ بسطَ يدَ مكارمهِ لهٰذا الرَّجل الذي كان صاحبه وصفيّه قبل بعثته ، وفتح له طريقَ الهداية بعد بعثته ، فوفىٰ له وفاءً بوفاء ، وبوَّأه منه منزلة المصاهرة ، وهي منزلة لا تكون إلا بين متصافِيَيْن ، ووقفَ منه موقفاً حفظَ عليه كرامته بين قومه ، وأقرَّ جوارَ ابنته له حتَّىٰ يطمئنَ ، وهو متطلِّع إلىٰ ردِّ ما أخذ منه ليردَّه علىٰ أصحابه ، وتحقَّق=

إكراماً للحبيب المصطفىٰ ﷺ من بعد أنْ يأذنَ جلَّ شأنه ويرضىٰ .

* والآن سنعيشُ مع هٰذه القبسةِ الأدبيةِ ، التي نستضيء بسناها في ظلالِ هٰذه النَّفحات ؛ التي تهمسُ في قلوبنا قصَّة إسلام أبي العاص رضي ٱلله عنه ؛ ورجوع زينب ـ رضي ٱلله عنها ـ إلىٰ عصمته :

نجحتْ إجارةُ زينبَ لابنِ الرَّبيع المُستَجير
رَدُّوا إليه متاعَه لم يبقَ منه ولا نقير
قد عاد يحملُ مالَه قد كادَ من فرحٍ يطير
أدَّىٰ أمانتَه بمكَّةَ واستراحَ به الضَّمير
من بعد أنْ أدَّىٰ الأمانة قال فيهم كالنَّذير
يا أهلَ مكَّةَ هلْ أخذتمْ مالكم حتَّىٰ اليسير
قالوا نعم جُوزيتَ خيراً نِعْمَتِ العملُ الكبير
منْ ثَمَّ قال لهم لقد آمنتُ بالدِّين النَّصير
أرجأتُ إسلامي بيثربَ خشيةَ الظَّنِّ المثير
كي لا يُقالَ بأنَّني قد ملتُ للمالِ الكثير
ما كنتُ قطّ بأنْ أخونَ أمانتي هٰذا خطير
ما جئتُ إلاَّ كي أؤديَ للأمانةِ لا أضير
حتَّىٰ إذا أديتها أسلمت للمولىٰ القدير

= له ما أراد ، وعاد إلىٰ مكّة مرفوعَ الرَّأس ، موفورَ الشَّخصيّة ، وأعطىٰ الحقوق لأصحابها ، حتَّىٰ إذا لم تبقَ عليه تبعةٌ لأحدٍ ، أعلن إسلامه الذي كان يضمرهُ منذ أنْ رأىٰ مكارم النَّبيّ ﷺ تغمره ، ومنذ أن رأىٰ وفاء ابنة خالته يحقّق له آماله . لم يعلنْ أبو العاص إسلامَه يوم أنْ كان بالمدينة بالرِّعاية من رسول ٱلله ﷺ خشيةَ قالةِ السُّوء وأنَّ قريشاً تظنُّ به أنَّه فعلَ ما فعلَ ليأكل أموالَهم بالباطل ؛ فلمَّا فرغ من أداء أمانته ، واستبرأَ ذمَّته ، أعلن إسلامه ، وأرضىٰ رسولَ ٱلله ﷺ ، فكافأه ؛ وردَّ عليه زوجته الوفيَّة الحبيبة ـ رضي ٱلله عنها وأرضاها ـ » . « محمّد رسول ٱلله » (٣/ ٤٨٩ ـ ٤٩٠) .

قـــد عـــادَ صهـــرُ المصطفـــىٰ فـــي قلبـــه نـــورٌ يُنيـــر
ردّ الـــرَّســـولُ إليـــه زوجتَـــه بـــلا عقْـــدٍ أخيـــر [1]

شذراتٌ من أخباره :

* لأبي العاص ـ رضي ٱلله عنه ـ بعضُ المآثر الحِسَان التي تفرَّدَ بها بين رجال عصر النُّبوَّة ، وبين أصهار النَّبيّ ﷺ .

* فهو صهرُ النَّبيّ ﷺ الأوَّل ، زوَّجَهُ ﷺ زينبَ ابنته ، وهي أكبرُ بناته الطَّاهرات ، فولدت له عليّاً وأمامة [2] ، فتوفي عليُّ بنُ أبي العاص وهو غلامٌ ، وكان رسولُ ٱلله ﷺ قد أردفَه ناقَتَه عام الفتح .

وقالت سيِّدتنا فاطمةُ الزَّهراء [3] بنتُ حبيبنا رسول ٱلله ﷺ لزوجها سيِّدنا عليِّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ حينما حضرتها الوفاة : « تزوَّجْ بنتَ أختي أمامةَ بنتَ أبي العاص » فتزوَّجها عليّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فمكثت عنده ثلاثين سنة ، ولم تلدْ له شيئاً ـ وكانت عقيماً ـ ثمَّ تزوَّجها بعد عليّ المغيرة بن نوفل بن الحارث .

* وأبو العاص هو الأخيرُ في الأصهار الأخيار إسلاماً ، فقد أسلم قبل الحديبية بخمسة أشهر ، ولم يشهدْ مع سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ شيئاً من المغازي .

---

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ٢٨٤) . وقوله « ولا نقير » : كناية عن الشَّيء الحقير التَّافه . و« النَّصير » : دين الانتصار ، و« لا أضير » : كي لا يضار أحد . « وبلا عقد أخير » : ردَّها إليه علىٰ العقد القديم .

(٢) اقرأ سيرة أمامة حفيدة النّبيّ ﷺ في الباب الرّابع من موسوعتنا : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٦٣٣ ـ ٦٥٢) ، ط : ٦ ، ٢٠٠٥م ، ففي سيرتها نفحة أنس نديَّة وإشراقات جليّة .

(٣) اقرأ سيرة سيِّدتنا فاطمة الزَّهراء في الباب الثَّالث من موسوعتنا : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٥٤٧ ـ ٦٢٩) ، ط : ٦ ، ٢٠٠٥م ، فسيرتها علم في فائدة في معرفة في بركات تترىٰ .

* قال الذَّهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ : « كان أبو العاص من تجَّار قريش ، وما علمت له رواية »[1] .

* وقال ابنُ عساكر رَحِمَهُ اللهُ : « وكان أبو العاص بن الرَّبيع مع عليّ في البيت يوم بويع أبو بكر ، وتوفيت زينبُ بنتُ رسول ٱلله ﷺ وهي عند أبي العاص . . . وكان رسولُ ٱلله ﷺ يقول : « ما ذممنا صهرَ أبي العاص » . . . . وقدم مهاجراً إلىٰ المدينة بعدما أسلم بمكَّة ، فرجَّع إليه رسول ٱلله ﷺ ابنته زينب بالنِّكاح الأوَّل ، وأردف النَّبيُّ ﷺ ابنه عليّاً يوم فتح مكَّة ، وحمل أمامة في صلاته »[2] .

* وخرج أبو العاص في بعضِ أسفاره إلىٰ الشَّام فأنشد في زوجته الطَّاهرة زينب فقال :

ذكرتُ زينَب لمَّا ورَّدَت إِرَما فقلتُ سقياً لشخصٍ يسكنُ الحرما
بنت الأمين جزاها اللهُ صالحةً وكلُّ بعلٍ سيثني بالذي عَلِمَا[3]

* وكان أبو العاص شهماً صافي السَّريرة ، قيل له لمَّا أُسِرَ وكانت معه تجارة قريش : « أسلمْ يكن لكَ ما معك ، وتأخذ هـٰذه الأموال ، فإنَّها أموالُ المشركين » .

فقال ـ رضي ٱلله عنه ـ : « لبئس ما أبدأُ به إسلامي أنْ أخونَ أمانتي » .

وقيل : قال له آسروه : « يا أبا العاص ! هل لك أنْ تسلمَ علىٰ ما في يديك من هـٰذه الأموال ، فتسود قريشاً ، وتكون أكثرهم مالاً ؟ » .

---

(١) « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٣١) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٩ / ٤٢ ـ ٤٥) بتصرُّف واختصار ، وانظر : « أسد الغابة » (٥ / ١٨٦) ، وقال ابنُ الأثير رَحِمَهُ اللهُ : « ولمَّا أرسلَ رسولُ ٱلله ﷺ عليَّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ اليمن ، سار معه ، وكان مع عليّ أيضاً لمَّا بويع أبو بكر ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ » .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٩ / ٤٤) ، و« إرم » : هي دمشق .

قال ـ رضي ٱلله عنه ـ معبِّراً بصراحة عن وفائه : « ما كنتُ لأستقبل الإسلام بغدرة » فأتىٰ مكَّة ، ورفع إلىٰ كلّ ذي حقٍّ حقَّه ، ثمَّ أعلنَ إسلامه ، وهاجر إلىٰ المدينةِ ، وما فرَّق النَّبيّ ﷺ بينه وبين زينب ، وأقاما علىٰ نكاحهما .

* ومن المكارم والآثار النَّبيلة التي تتعلَّقُ بسيرة سيِّدنا أبي العاص ما جاء عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : قال رسولُ ٱلله ﷺ : « سألت ربِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ أن لا أتزوَّج إلىٰ أحد من أمّتي ، ولا يتزوَّج إليَّ أحد من أمّتي ، إلا كان معي في الجنَّة ، فأعطاني ذلك » (١) .

* وعن أبي أوفىٰ قال : قال رسولُ ٱللهِ ﷺ : « من تزوَّجتُ إليه ، أو تزوَّج إليَّ فحرّمه علىٰ النَّار ـ أو قال ـ أدخله الجنَّة » (٢) .

* وعن ابن عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : قال رسولُ ٱللهِ ﷺ : « كلُّ نسبٍ وصهْرٍ ينقطعُ يوم القيامة إلا نسبي وصهري » (٣) .

* وفي شهر ذي الحجَّة من السَّنة الثَّانية عشرة للهجرة النَّبويَّة المباركة ، وإبان خلافة سيِّدنا أبي بكر الصِّدّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ ، جاءت سكرةُ الموتِ بالحقِّ ، وصعدت روحُ سيِّدنا أبي العاص بن الرَّبيع لتستقرَّ في عليين عند مليك مقتدر ، وقُبيل وفاته أوصىٰ أبو العاص إلىٰ سيِّدنا الزُّبير بن العوَّام ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ولا يوجد في الصَّحابة مَن اسمه « أبو العاص » غير أبي العاص بن الرَّبيع هـٰذا .

* رضي ٱلله عن أبي العاص بن الرَّبيع ، وأدخلنا الجنَّة وإياه بمعيَّة الهادي الشَّفيع ، ورزقنا الخُلق الرَّفيع ، وصلىٰ الله علىٰ سيِّدنا محمَّد وعلىٰ آله والأصحاب ، الطَّيِّبين الطَّاهرين الأنجاب .

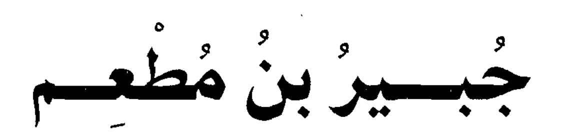
---

(١) ذكره ابن عساكر رحمه الله . انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٢٩ / ٤٧) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٢٩ / ٤٧) .

(٣) المصدر السَّابق ذاته .





جُبيرُ بنُ مُطْعِم

رضي ٱلله عنه

* من الأشرافِ القرشيين ؛ ومن المتألِّقين في المكارم .
* كان شهماً ذا مروءةٍ ونجدةٍ ؛ وله مواقفُ تشهدُ بفضله .
* روىٰ (٦٠ حديثاً) ؛ ويعدُّ من الصَّحابة المعمَّرين ؛ توفي سنة (٥٨ هـ) .



جُبَيرُ بنُ مُطْعِم
رضي ٱلله عنه

من أبناءِ الأشْرَاف :

* كان كثيرٌ من أهل أمِّ القرىٰ مكَّةَ غارقين في وثنيَّةٍ مضطربةٍ ، فقد انحرفوا عن طريق الإلـٰهِ الواحد ، وملؤوا الفراغَ الرُّوحيَّ عندهم بالتَّشدُّد في الدِّين الوثنيِّ ، والمغالاةِ في عبادةِ الأوثانِ التي جلبُوها من كلِّ مكان ، ثمَّ كدَّسُوها في جوف الكعبة ، بل نثروا بعضَها في أماكنَ قريبةٍ منها وحولَها .

* وكان كثيرٌ من الأشراف يتَّخذون لهم صنماً يعبدونه ، ومن العجيب أنَّهم لم يختلفُوا علىٰ أنَّ خالقَ العالَم ربٌّ واحدٌ ، فلا خالقَ ، ولا رازقَ ، ولا مدبِّرَ ، ولا نافعَ ، ولا ضارّ ، ولا مجيرَ غيره ، واعتقدوا أنَّهم يعبدون اللهَ بعبادتهم الأصنام ، ويتقربون بها إليه .

* نشأ أبناءُ الأشراف من قريش في ظلِّ هـٰذه الوثنيةِ التي تفرَّقَ فيها المكيُّون شِيعاً وأحزاباً دينيةً ، وكان من بين هـٰؤلاء الأبناء جُبير بنُ مُطْعِم بن عديّ القُرشيّ النَّوفليّ [1] ، أبو محمَّد ، ويقال : أبو عديّ ، ابن عمّ النَّبيّ ﷺ .

---

(1) « نسبُ قريش » (ص : ٢٠١) ، و« أنسابُ الأشراف » (١ / ٢٣ ، ١٥٣ ، ٣٠٢ ، ٣١٢ ، ٤٠٩ ، ٥١٧) ، و« شفاءُ الغرام » (الفهارس : ٢ / ٥٢٠) ، و« المغازي » (الفهارس : ٣ / ١١٤٩) ، و« سيرُ أعلام النُّبلاء » (٣ / ٩٥ ـ ٩٩) ، و« البيانُ والتَّبيين » (١ / ٣٠٣ ، و٣١٨ ، ٣٥٦) ، و« تهذيب التَّهذيب » (٢ / ٦٣ ـ ٦٤) ، و« المعجمُ الكبير » =

* وأمُّ جُبيـر هـي أمُّ جميـل بنـتُ شعبـة ؛ وأمّهـا جـدّةُ جُبيـر هي : أمُّ حبيب بنتُ العاص بنِ أمية بنِ عبد شمس [1] ، ويظهرُ من الآثار التي وصلت إلينا عن أمِّ حبيب هـٰذه أنَّها كانت تحبُّ حفيدها جُبيراً محبَّةً شديدةً ، وكانت كثيراً ما ترقّصُه وهو صغيرٌ في عمر الزَّهْر ، كما كانت قريشٌ ترقّصُ أولادَها ، وكانت تقولُ في ترقيصهِ ومداعبتهِ :

احْفَـظْ جُبيـراً ربِّ فـي السَّـريَّـه لا تقعـدنِّـي مقعْـداً شَقِيَّـه
وبـاركَـنْ يـا ربِّ فـي بُنَيَّـه

* وفي مداعبةٍ أخرىٰ تدعو ٱللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يحفظَ جُبيراً من سيوف الأعداء من الفرس ، ومن الشَّياطين الذين يوسوسُون في صدور النَّاس ، ويحفظُه أيضاً من الأمراض ، وأنْ يزيّنَ به صدور المجالس ، فهو من عليةِ أبناء الأشراف ، تقول أمُّ حبيب مرتجزةً :

احفَـظْ جُبيـراً مِـنْ سُيـوفِ فـارس وجَنِّبَنْـهُ عـارضَ الـوسـاوس
واحفَظْـه مِـنْ كُـلِّ زَحيـر حـادس وَزَيِّنَـنْ ربِّ بـهِ المجَـالـس [2]

« لو كـان حيّـاً » :

* ساقتْ مصادرُ شتَّىٰ أنَّ المطعمَ والد جُبير قد ماتَ بمكَّة قبل غزوة بدر ، وله نيفٌ وتسعون سنة ، فرثاه حسَّان بقصيدةٍ منها :

= (٢ / ١١٢ ـ ١٤٥) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٤٦ ـ ١٤٧) ، و« الاستيعابُ » (١ / ٢٣٢ ـ ٢٣٣) ، و« مختصرُ تاريخ دمشق » (٦ / ٥ ـ ١١) ، وغيرها كثير جداً لا يحصىٰ .

(١) « نسب قريش » (ص : ٢٠١) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٩٧ ـ ٩٨) ، مع الجمع بينهما .

(٢) « المنمّق » (ص : ٣٥١) ، و« زحير » : داء انطلاق يصيب البطن بشدَّة . و« حادس » : صارع .

أعينُ ألا ابكي سيِّدَ النَّاسِ واسْفَحي بدمعٍ فإنْ أنزفتُهُ فاسكُبي الدَّمَا

* ومنها يذكرُ بعضَ مناقبه :

فلو كان مجدٌ يُخْلِدُ اليومَ ماجداً من النَّاسِ أنجىٰ مجدُهُ اليومَ مُطعِما
أجرتَ رسولَ اللهِ منهم فأصبحوا عبادَكَ ما لبَّىٰ مُلَبٍّ وأحْرَمَا (١)

* ونعتقدُ أنَّ هٰذه القصيدةَ الحسَّانيَّةَ الحسْنَاءَ كانت مبعثَ فخرٍ ، وعقْدَ أمانٍ لجبيرِ بنِ مطعم ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ لأنَّ أباه مُطعماً أجار النَّبيَّ ﷺ في واحدٍ من أيَّام الدَّعوة العَصِيْبَةِ من مراحلِ الدَّعوة في المرحلةِ المكِّيَّة .

* ومحصَّلُ ذلك وملخَّصُه أنَّه لمَّا توفيَ أبو طالب بن عبد المطَّلب عمّ الصَّادق المصدوق ﷺ ، اشتدَّ علىٰ النَّبيِّ ﷺ الألَمُ ؛ إذ همَّ بعضُ المشركين باستباحةِ جانبه الشَّريف ، بعد أنْ فَقَدَ عمَّه الذي كان ذا شرفٍ ونَسَبٍ في قومه ، وقد بسطَ كلَّ ما في وسعهِ كي يدافعَ ويدفعَ عن ابنِ أخيه محمَّد ﷺ ، ويوفِّر الحمايةَ له ، فلمَّا مات فكَّرت قريشٌ بالتَّطاول والبغي ، وسوَّلَ لها مسرفُوها أنْ يُنْزِلُوا ضرباتٍ أليمةً متتاليةً ، وقد تؤدِّي إلىٰ القضاءِ علىٰ الدَّعوةِ المحمَّديَّة ، فرأىٰ ﷺ أنْ يخرجَ من مكَّةَ إلىٰ الطَّائفِ عسىٰ أنْ يَجِدَ مَنْ يسمعُ ويستمتعُ بنورِ الحقِّ والهُدىٰ ، ولٰكنَّهم آذَوْهُ فعاد إلىٰ مكَّةَ المكرمةِ ، وبعثَ ابنَ أُريقط من

---

(١) « ديوان حسَّان » (ص : ٢٤٣) طبعة دار المعارف بمصر . وانظر : « المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » (٧ / ٧٣٦) .

ونقولُ في هٰذا المقام : « لم يستنكرْ رسولُ ٱللهِ ﷺ علىٰ حسَّانَ بنِ ثابت في رثائه لمطعمِ بنِ عدي ، بل لحسَّان قصائد ومقطَّعات يثني من خلالها علىٰ مطعمِ بنِ عدي ، وهي منثورةٌ ، في ديوانه ، وفي كتُبِ السِّيرة والتَّراجم ، وهٰذا يدلُّ دلالةً واضحةً بيِّنةً علىٰ أنَّ الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ يعلِّمنا أنْ نعترفَ لأهلِ الفَضْل بفضلهم ، وأنْ نثنيَ عليهم بما لَهم منْ أيادٍ بيضٍ ، ومعروفٍ وخيرٍ ، وإن كانوا غيرَ مسلمين ، وهٰذا الثَّناءُ في محلّه ، وقد يدلفُ إلىٰ الإسلام ذووهم ، ومَنْ حولَهم ، وٱلله تعالىٰ أعلم » .

خزاعةَ إلىٰ الأخنسِ بنِ شريق ليجيره فقال مُتخاذلاً : « أنا حليفُ قريشٍ ، والحليفُ لا يجيرُ علىٰ صميمها » ، وفاتَه هـٰذا الشَّرفُ الوافي ، فبعثَ إلىٰ سُهيلِ بن عمرو العامريّ فقال متنصِّلاً : « إنَّ بني عامر بن لؤيّ لا تجيرُ علىٰ بني كعب بن لؤيّ » . وعندها بعثَهُ النَّبيُّ ﷺ إلىٰ المُطْعِم بنِ عديّ يعرضُ عليه أنْ يجيـرَهُ حتَّـىٰ يبلِّـغَ رسـالـةَ ربِّـه ، فقبـلَ المطعـمُ ولـم يتـردَّدْ ، وقـال للخزاعيّ : « قد أجرتُه [1] ، قُلْ له فليأْتِ فلا بأسَ عليه » . ثمَّ قامَ المُطعِمُ واستنهضَ أبناءه فحملُوا أسلحتَهم ووقفوا عند أركان البيت الحرام وقفةَ الأسود الضَّواري . وفي روايةٍ أنَّ المطعمَ بنَ عديّ قال : « نَعَم » ، ثمَّ تسلَّح ودعا بنيه وقومَه فقال لهم : « البسُوا السِّلاح ، وكُونُوا عند أركان البيت ، فإنِّي قد أجرتُ محمَّداً » ، ثمَّ بعثَ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ أنِ ادخل ، فدخلَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ المسجدِ الحرام ، فنادىٰ المطعمُ : « يا معشرَ قريش ، قد أجرتُ محمَّداً فلا يُهِجْهُ أحدٌ منكم » ، فأتاهُ أبو سفيان فقال له : « أمجيرٌ أم مانع ؟ » .

---

(١) للشَّيخ محمّد عرجون رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليق نفيس جدّاً علىٰ دخول الصَّادق المصدوق ﷺ في جوار كافرٍ ، فقال : « وقَدْ تحيَّر بعضُ النَّاسِ في فَهْم حِكْمةِ دخولِ النَّبيِّ ﷺ مكَّةَ في جوارِ كافرٍ كما تحيَّروا في فَهْم قوله ﷺ في المواسم : « من يؤويني حتَّىٰ أبلّغ رسالةَ ربِّي » ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ سيِّدُ المتوكّلين علىٰ ٱلله ، وسيِّد الموقنين بِنَصْرِ ٱلله له وحمايته . وهؤلاء غفلُوا عن أنَّ النَّبيَّ ﷺ بشَرٌ من النَّاس ، احتاجَ إلىٰ أنْ ينزل اللهُ عليه قوله تعالىٰ : ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة : ٦٧] ، وقد كان قبل نزولها يتّخذ حرساً ، فلمَّا نزلتْ صرف الحرس ، كما غفلُوا عن أنَّ النَّبيَّ ﷺ مشرِّع ، وله أصحاب سِيمُوا من العذابِ ألواناً ، فلو لم يكنْ ﷺ بفعلِهِ أسوة لهم لتعرَّضُوا للفَنَاء ، ولوقفَ سيرُ الدَّعوةِ إلىٰ ٱلله ، ولمَّا أُتيحَ له أنْ يلقىٰ الأنصار ، ويبايعهم علىٰ إيوائهِ ونصرتهِ ، فكانوا كتيبةَ الإسلام الأولىٰ التي حقَّق ٱلله علىٰ يديها أعظمَ انتصارٍ ؛ فتحَ أمام الدَّعوةِ أبواب الدُّنيا ، ولم يكنْ ذلك لينقصَ منْ يقينِ رسولِ ٱلله ﷺ ، وصدق اعتماده علىٰ ٱلله شيئاً » . « محمّدٌ رسولُ ٱلله » (٢ / ٣٢٤ ـ ٣٢٥) .

فقال : « لا ، بل مجير » .

فقال : « إذن ، لا يُخْفَرُ جوارك » .

ثمَّ قعدَ أبو سفيان مع المطعم بن عديّ حتَّىٰ فرغَ رسولُ ٱلله ﷺ من طوافه ، وصلَّىٰ ركعتَيْن ، ثمَّ انصرفَ إلىٰ بيتهِ ومطعم وأهله يحرسونه بأسلحتهم »[1] .

* وقد حفظَ الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ للمطعم هٰذا الصَّنيع وهٰذه الأريحيَّةِ ، فقال عن أسارىٰ بدر ، كما يروي البُخاريُّ وغيرهُ عن جُبير بنِ

---

(١) انظر : « زاد المعاد » (٢ / ٤٧) ، و« ديوان حسان » (ص : ٢٤٣) مع الجمع والتّصرّف بينهما .

والآن ، تعالوا نحلِّق في فضاء الأدب ، لنستروح عبير هٰذه التَّغريدة التي تتحدَّثُ بحروفٍ لطيفةٍ ، وقوافٍ خفيفة عن دخولِ رسولِ ٱلله ﷺ مكَّة في جوار :

عاد النَّبيُّ محمَّدٍ من رحلةٍ كانتْ مريره
كانت أمرَّ من المرارة إذ تناءتْ في المسيره
هي رحلةٌ مشؤومةٌ أودتْ بآمالٍ كبيره
عاد الرَّسولُ لقومه أهلِ الحزازات الخطيره
قد جاء مكة عائداً من رحلة الشُّؤم العسيره
لٰكنَّ مكَّة أغلقوها بئس إخوان العشيره
لم يسمحوا لمحمَّدٍ بدخولها من غير جيره
قد أرسلَ الهادي لمطعم إنَّه شهم وخيره
قد هبَّ مطعمُ مع بنيهِ إلىٰ الرَّسول لكي يجيره
جاؤوا سريعاً بالسِّلاح كأنَّهم أسد مغيره
هبُّوا ليحموا جارهم هو خير أبناء الجزيره
عاد النَّبيُّ لبيتهِ فالغَمُّ قد أدمىٰ ضميره

مطعم : « لو كان المطعمُ بنُ عديّ حيّاً ، ثمَّ كلَّمني في هٰؤلاء النَّتْنَىٰ ، لتركتُهم له »[1] .

* ولو تأمَّلنا هـٰذا الحديثَ العظيمَ ، لعلمنا أنَّ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ ، قد اجتذبَ من خلالهِ إلىٰ صفوفِ المسلمين ابنَ مُطعمٍ سيِّدنا جُبيراً ، وكان إذ ذاك مشركاً قدم المدينةَ في قضيةِ الفداء ، فلمسَ صحَّةَ الإسلام ، وعلم أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ يعرفُ الحقوقَ لأهلها ، وإنْ كانوا علىٰ غير دينه .

* وينبغي أيضاً ألا ننسىٰ بأنَّ المطعمَ بنَ عديّ كان شريفاً ذا صيتٍ في قريش ، وكان حسنَ البلاء في أمر الصَّحيفة التي كتَبَتْها قريشٌ ظلماً علىٰ بني هاشم ، وفيه يقول أبو طالب بن عبد المطَّلب مذكِّراً إياه ببعض ما أسلف له :

أَمُطْعِمُ لَمْ أخذلْكَ في يومِ نَجْدةٍ ... ولا مُعْظمٍ عند الأمورِ الجَلائلِ
أَمُطْعِمُ إنَّ القومَ ساموك خطّةً ... وإنِّي متىٰ أُوْكَلْ فلستُ بوائلِ
جزَىٰ اللهُ عنَّا عبْدَ شمسٍ ونوفلاً ... عقوبةَ شرٍّ عاجلاً غيرَ آجِلِ[2]

---

(١) أخرجه البخاريُّ في المغازي برقم : (٤٠٢٤) ، وأبو داود برقم : (٢٦٨٩) ، وأحمد (٥ / ٦١٥) برقم : (١٦٧٣٣) ، والطَّبرانيّ في « الكبير » (٢ / ١١٨) برقم : (١٥٠٨) .

(٢) انظر : « الاشتقاق » لابن دريد (ص : ٨٨) ، و« السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٢٧٧) مع الجمع والتَّصرُّف بينهما .

وقوله « ساموك خطة » : كلّفوك . و« لست بوائل » : لستُ بناج ، يقال : « ما وأل من كذا ؛ أي : ما نجا . وفي الخبر : فلا وألتْ نفسُ الجبان ؛ أي : لا نَجَتْ » .

وقال الإمامُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن والد جُبير : « وكان أبوهُ هو الذي قامَ بنقضِ صحيفةِ القطيعةِ ، وكان يحنو علىٰ أهل الشِّعْب ، ويَصِلُهم في السِّرِّ ، وهو الذي أجارَ النَّبيَّ ﷺ حين رجعَ من الطَّائف حتَّىٰ طافَ بعمرة » . « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٩٥) .

* ونقرأ في « الإلياذة الإسلاميّة » عند أحمد محرَّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هٰذه المقطوعة بعنوان : « المُطعم بن عديّ » :

ما رأينا كالمُطعِم بنِ عديٍّ ... جافياً وَاصِلاً هَيوباً جَسُورا
آثـرَ الكفْر ملّةً وأجارَ الـدِّ ... يْنَ مُستضعَفاً يدورُ شطيرا
رامَ بالطّائف المُقَامَ فأَعْيَا ... فانثنىٰ يطلبُ الأمانَ حَسِيرا
وَكّلَ ٱللهُ بالنُّبوّة منه ... أسداً يملأُ الفَضَاءَ زئيرا
قائماً في السّلاحِ يجمعُ حَولَيْـ ... ـه شبولاً تحمي الحمىٰ ونمورا
يمنعُ القومَ أنْ يصدّوا رسولَ ... اللهِ عن بيتهِ ويأبىٰ الخُفُورا
نقضَ الحلْفَ من قريشٍ فأمسىٰ ... أسلمته العرىٰ وكان مريرا
عجباً لِلْغَويِّ يُعْطيك منه ... عَمَلاً صالحاً ورأياً فطيرا
ما رأينا مَنْ ظَنَّ بالزَّرعِ شرّاً ... فَحَمىٰ أرضَه وصان البذورا
لو جزىٰ ٱلله كافراً أجْرَ ما أحـ ... ـسن يوماً لخلّته مأجورا [1]

جُبيريَّاتٌ رقيقة :

* لسيّدنا جبيرِ بنِ مطعم أخبارٌ ملوَّنَةٌ ومنعشةٌ في ثنايا السِّيرةِ النَّبويَّةِ ، كما أنَّ له أخباراً قاتمةً ، فلمّا أكرمَهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بالإسلام تألّقَ في أقوالِهِ

(١) « ديوان مجد الإسلام » (ص : ٤٨ ـ ٤٩) . وقوله : « شطيرا » : الشَّطير : الغريب والبعيد . و« حسيرا » : كالاً متعباً . و« الخفورا » : الخفور : نقض العهد والغدر . و« مريرا » : المرير : ما اشتدَّ فتْلُه من الحبال . وحلف قريش هٰذا : هو الحلْفُ الذي عقدوه ضدَّ بني هاشم وعبد المطّلب ؛ لإبائهم أنْ يخلّوا بينهم وبينَ رسولِ ٱلله ﷺ ليقتلوه ، ويودوا ديتَه مضاعفةً ، فتعاهدوا علىٰ منابذتهم وإخراجهم من مكّةَ إلىٰ شعبِ أبي طالب ، ومنعهم من حضور الأسواق لتجويعهم ، وألا يصاهروهم ، أو يبيعوا لهم أو يشتروا منهم ، أو يقبلوا لهم صلحاً إلا إذا أجابوهم إلىٰ طلبهم ، وظلت المقاطعة ثلاث سنوات ، وكتبوا بذلك صحيفة ، كان ممّن نقضها المطعم بن عدي ، وقيل : إنّه هو الذي مزّق الصّحيفة . و« فطيرا » : من غير روية ؛ أي : بَدَهيّ .

وسلوكهِ ، وغدا من الرِّجال العاملين العَالِمين الذين تركُوا آثاراً نعتزُّ بها في حياتنا مع الصَّحابةِ ، ولا سيما في روايتهِ لأحاديثِ البشيرِ النَّذير ﷺ ، وكذلك روايته لبعضِ الأخبارِ الجميلةِ التي تتعلَّقُ بدلائل النُّبوَّة ، وذكْرِ سيِّدنا رسولُ ٱللهِ ﷺ عند بعضِ أهلِ الكتاب .

* ومن الأخبار التي تناقلَتْها عدَّةُ مصادر من أنَّ أمَّنا أمَّ المؤمنين عائشة ـ رضوان ٱلله عليها ـ كان مطعم بن عديّ قد خطبَها لابنه جُبير قبلَ رسولِ ٱلله ﷺ .

* فقد وردَ أنَّ الصَّحابيَّةَ الجليلةَ خولةَ بنتَ حكيم السُّلميَّة [1] دخلت علىٰ السَّيِّدة الجليلةِ أُمِّ رومان [2] أمِّ عائشة وامرأة الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ ، وأخبرتها بأنَّ رسولَ ٱللهِ ﷺ قد أرسلَها يخطبُ عائشةَ ، فقالت أمُّ رومان ـ رضي ٱلله عنها ـ : « إنَّ مطعمَ بنَ عديّ قد ذكرهَا علىٰ ابنهِ ، وٱللهِ ما وعدَ أبو بكر وعداً فأخْلَفَه » . ودخلِ سيِّدنا أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ علىٰ مطعم بنِ عديّ ، وعنده أمرأته أُمّ الفتىٰ ، فقالتْ لأبي بكر : « يا بنَ أبي قحافة ! لعلَّك مُصبِىءٌ صاحبنا ، تدخلُه في دينك الذي أنت عليه إنْ تزوَّجَ إليك ؟ ! » .

فقال أبو بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ للمطعم بن عديّ : « أقولُ هـٰذه تقول ! » .

قال : « إنَّها تقولُ ذلك » .

---

(١) اقرأ سيرةَ الصَّحابية الكريمة المؤمنة خولة بنت حكيم في موسوعتنا : « نساء من عصر النُّبوَّة » (ص : ١٦٤ ـ ١٧١) فسيرتها قدوة لكلِّ امرأةٍ تؤمنُ باللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ . والكتاب مطبوعٌ بدار ابن كثير بدمشق ـ طبعة : ٣ ـ ٢٠٠٣ م .

(٢) اقرأ سيرة الصَّحابية المتألِّقة حماة سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ السَّيِّدة أمّ رومان في كتابنا « نساء مبشَّرات بالجنَّة » (ص : ٨٢ ـ ٩٤) دار ابن كثير ـ ط : ٥ ـ ٢٠٠٣ م . فسيرتُها إمتاع للأسماع .

فخرجَ من عنده ، وقد أذهبَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ ما كان في نفسه من عِدَتهِ التي وعده ـ وكان وعده في زواج عائشة لابنه جبير ـ ، ثمَّ رجع أبو بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ السَّيِّدة خولةَ بنتِ حكيم وقال لها : « ادعي لي رسولَ ٱلله ﷺ ، فدعَتْه ، فزوَّجَها إيَّاه »[1] .

* وذكر الإمامُ القُرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيئاً من هـٰذا الأمْر في تفسيرهِ فقال عن زوجاتِ النَّبيِّ ﷺ : « ومنهنَّ عائشةُ بنتُ أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، وكانت مسمَّاة لجبيرِ بنِ مُطعم ، فَخَطَبَها رسولُ الله ﷺ ، فقال أبو بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ : يا رسولَ اللهَ ! دعني أَسُلُّها من جبير سلاًّ رقيقاً ، فتزوّجها رسول ٱلله ﷺ . . . »[2] .

* وفي « أنساب الأشراف » قال البلاذريُّ : « وكانت عائشةُ ـ رضي ٱلله عنها ـ مسمَّاةً لجبيرِ بنِ مطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف ، فسلَّها أبو بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ سلاًّ ، وزوَّجَها رسول ٱلله ﷺ »[3] .

* ومن الأخبار الجبيريَّةِ الأنيقةِ المُتَعلّقةِ بأحداث السِّيرة النَّبويَّةِ ومجرياتها ، ودلائل نبوَّة الحبيب الأعظم ﷺ ، ما سَرَدَه لنا جبيرُ بنُ مطعم ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « لمَّا بعثَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ نبيَّه ﷺ ، وظهر أمرهُ بمكَّةَ ، خرجت إلىٰ الشَّام ، فلمَّا كنتُ ببصرىٰ ؛ أتتني جماعةٌ من النَّصارىٰ ، قالوا : أَمِنَ الحرم أنتَ ؟

قلتُ : نعم .

قالوا : فتعرفُ هـٰذا الذي تنبّأ فيكم ؟

---

(١) انظر : « صحيح السّيرة النّبويّة » (ص : ١٢١ ـ ١٢٣) بتصرّف ؛ وانظر مصادر القصّة فيه وتعليق المؤلّف عليها .

(٢) « تفسير القرطبيّ » (١٤ / ١٦٤) .

(٣) « أنساب الأشراف » (١ / ٤٠٩) .

قلت : نعم .

قال : فأخذوا بيدي ، فأدخلوني ديراً لهم فيه تماثيل وصور ؛ فقالوا لي : انظرْ ، هل ترىٰ صورة هـٰذا النَّبيّ الذي بُعِثَ فيكم ؟

فنظرتُ فلم أَرَ صورته .

قلت : لا أرىٰ صورته .

فأدخلوني ديراً أكبرَ من ذلك الدَّير ، وإذا فيهِ تماثيل وصور أكثر ممَّا في ذلك الدَّير .

فقالوا لي : انظرْ ، هل ترىٰ صورتَه ؟

فنظرت ، فإذا أنا بصفةِ رسولِ ٱلله ﷺ وصورته ، وإذا أنا بصفة أبي بكر وصورته ، وهو آخذٌ بعقب رسول ٱلله ﷺ .

فقالوا لي : هل ترىٰ صفتَه ؟

قلتُ : نعم ، فقلتُ : لا أخبرهم حتَّىٰ أعرفَ ما يقولون .

قالوا : أهو هـٰذا قُلْتَ ؟ وأشاروا إلىٰ صفة رسول ٱلله ﷺ .

فقلت : اللهم اشهد أنَّه هو .

قالوا : أتعرفُ هـٰذا الذي أخذ بعقِبهِ ؟

قلتُ : نعم .

قالوا : نشهدُ أنَّ هـٰذا صاحبكم ، وأنَّ هـٰذا الخليفةَ من بعده »[1] .

* ونجدُ هـٰذه القصَّةَ الجُبيريَّةَ الرَّقيقةَ بصورةٍ أكثر وضوحاً عند

---

(1) « دلائل النُّبوَّة » للأصبهانيّ (١ / ٥٥ ـ ٥٦) برقم : (١٢) ، و« البداية والنِّهاية » (٦ / ٦٣) ، و« المعجم الكبير » للطَّبرانيّ (٢ / ١٢٥) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (٤ / ٣٦٩) ، و« دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (١ / ٣٨٤ ـ ٣٨٥) .

الطَّبرانيِّ ؛ إذ أخرجَ بسندهِ عن عُلَيٍّ بن رباح اللخميّ ، عن جُبير بنِ مُطعم قال : « كنتُ أكرَهُ أذىٰ قريش لرسول ٱلله ﷺ ؛ ولمَّا ظننْتُ أنَّهم سيقتلونه ، خرجتُ حتَّىٰ لحقتُ بديرٍ من الدِّيارات ، فذهبَ أهلُ الدَّير إلىٰ رأسهم ، فأخبروه فقال : أقيموا له حقَّه الذي ينبغي له ثلاثاً . فلمَّا مرَّتْ ثلاثٌ رأَوه لم يذهبْ ، فانْطَلَقُوا إلىٰ صاحبهم ، فأخبروه ، فقال : قولوا له : قد أقمنا لك حقَّكَ الذي ينبغي لك ، فإنْ كنتَ وَصِباً فقد ذهبَ وصَبكَ ، وإن كنتَ واصلاً فقد نأل ـ ينبغي ـ لك أنْ تذهبَ إلىٰ مَنْ تصل ، وإن كنتَ تاجراً فقد نألَ لك أن تخرجَ إلىٰ تجارتك .

قال : ما كنتُ واصلاً ، ولا تاجراً ، وما أنا بِنَصِب .

فذهبوا إليه فأخبروه ؛ فقال : إنَّ له لشأناً ، فَسَلُوه ما شأْنُه ؟

فأتوه ، فسألوه ، فقال : لا واللهِ ، إلا أنِّي في قريةِ إبراهيم ، وابن عمّي يزعمُ أنَّه نبيٌّ ، فآذاه قومه ، وتخوفْتُ أنْ يقتلوهُ ، فخرجتُ لئلا أشهدَ ذلك .

فذهبُوا إلىٰ صاحبهم فأخبروهُ بقولي ، قال : هلمُّوا ؛ فأتيتُه ، فقصَصْتُ عليه قصَّتي ، فقال : تخافُ أنْ يقتلوه ؟

قلتُ : نعم .

قال : وتعرفُ شبهَهُ لو تراهُ مُصَوَّراً ؟

قلتُ : نعم ، عهدي به قريبٌ .

فأراه صُوراً مغطَّاةً ، فجعل يكشفُ صورةً صورةً ، ثمَّ يقول : أتعرفُ ؟

فأقول : لا ، حتَّىٰ كشفَ صورةً مغطَّاةً .

فقلت : ما رأيتُ شيئاً أشبه بشيءٍ من هٰذه الصُّورة به ، كأنَّه طولُه ، وجسمُه ، وبُعْدُ ما بين منكبَيْه .

قال : فتخافُ أنْ يقتلُوه ؟

قال : أظنُّهم قد فرغوا منه .

قـال : واللهِ لا يقتلـوهُ ، ولَنَقْتُلَـنَّ مَـنْ يـريـدُ قتلـه ، وإنَّـه لَنَبِـيٌّ ، وليظهرنَّه اللهُ ، ولٰكنْ قد وجبَ حقُّك علينا ، فامكثْ ما بدا لك ، وادَّعِ بما شئتَ .

قال : فمكثتُ عندهم حيناً ، ثمَّ قلتُ : لو أطعتُهم ، فقدمتُ مكَّة ، فوجدتُهم قد أخرجوا رسولَ ٱلله ﷺ إلىٰ المدينة ، فلمَّا قدمتُ قامت إليَّ قريشٌ ، فقالوا : قد تبيَّنَ لنا أمرك ، وعرفنا شأنَك ، فهلمَّ أموال الصِّبْيَةِ التي عندك استودعكَها أبوك .

فقلتُ : ما كنتُ لأفعلَ حتَّىٰ تفرِّقُوا بين رأسي وجَسَدي ، ولٰكنْ دعوني أذهب فأدفعها إليهم .

فقالوا : إنَّ عليك عهدَ ٱلله وميثاقَه ألا تأكلَ من طعامه .

قال : فقدمتُ المدينةَ ، وقد بلغَ رسولَ ٱلله ﷺ الخبرُ ، فدخلتُ عليه ، فقال لي فيما يقول : « إنِّي لأراك جائعاً ؛ هلمّوا طعاماً » .

قلتُ : لا آكلُ حتَّىٰ أخبركَ ، فإن رأيتَ أنْ آكلَ أكلْتُ .

قال : فحدَّثتُه بما أخذوا عليَّ .

قـال : « فـأوفِ بعهـدك ، ولا تـأكـلْ مـن طعـامنـا ، ولا تشـربْ مـن شرابنا » [1] .

* وجاء عند البيهقيِّ عن جُبير بنِ مطعم قال : « خرجتُ تاجراً إلىٰ الشَّام ، فلقيتُ رجلاً من أهل الكتاب ، فقال : هل عندكم رجُلٌ يتنبَّأ ؟ قلتُ : نعم ، فجاء رجلٌ من أهل الكتاب ، فقال : فيما أتيتم ؟ فأخبرهُ ، فأدخلني منزلاً له ، فإذا فيه صُوَرٌ ، فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ . قال : هو هٰذا ؟

(١) « المعجم الكبير » (٢ / ١٤٤ ـ ١٤٥) برقم : (١٦٠٩) ، وانظر : « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٩٦ ـ ٩٧) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٦ ـ ٧) ، وانظر : « مجمع الزَّوائد » (٨ / ٢٣٣ ـ ٢٣٤) .

قلتُ : نعم . قال : إنَّه لم يكن نبيّ إلا كان بعده نبيّ ، إلا هـٰذا النَّبيّ »[1] .

* ومن الرَّقائقِ اللطيفةِ التي تزدانُ بها سيرة سيِّدنا جُبير بن مُطعِم ـ رضي ٱلله عنه ـ شهامتُه ومروءتُه وقيامهُ بواجب حقوق الآخرين في ساعاتٍ حرجةٍ من سَيْرِ الرِّسالةِ المحمَّديّةِ ؛ إذ أجار سعد بن عبادة الأنصاريّ عقب بيعةِ العقبة .

* فقد نُمي إلىٰ قريش خبر البيعةِ المباركةِ ، وتفرَّقَ الأنصارُ ، فخرجَ نفرٌ من قريش في طلبِ النَّاس ، فأدركوا سعدَ بنَ عبادة بإذاخر ـ مكان قرب مكة ـ ، وكان من النُّقباء ، فأخذوه وربطوا يديه إلىٰ عنقه ، ثمَّ أقبلوا به حتَّىٰ أدخلوه مكَّةَ يضربونَه ، ويجذبونَه من شَعره ، فجاء سهيلُ بنُ عمرو العامريّ ـ وكان رجلاً وضيئاً أبيض شعشاع حلواً من الرِّجال ـ فَلَكَمَ سعداً لكمةً شديدةً ، ثمَّ جاء رجلٌ فقال لسعد : « أَمَا بينك وبين أحدٍ من قريش جوار ولا عهد ؟ » .

قال سعد : « بلىٰ » ، وٱلله لقد كنتُ أجيرُ لجبيرِ بنِ مطعم تجَّاره ، وأمنعهُم ممَّن أرادَ بهم ظلمهم ببلادي ، وللحارثِ بنِ حرب بن أميَّة بن عبد شمس » .

قال الرَّجل : « فاهتفْ باسم الرَّجلين ، واذكرْ ما بينك وبينهما » .

ففعلَ سعدٌ ذلك ، فقدم جبيرٌ والحارث ؛ وخلَّصَا سعداً من أيدي قريش وقالا : « صدقَ وٱلله ، إنْ كان ليجير لنا تجَّارنا ويمنعهم أنْ يُظلموا في بلده » . فانطلقَ سعدٌ إلىٰ بلده وهو شاكرٌ لجبير والحارث صنيعهما[2] .

* وهـٰذا موقفُ رحمةٍ نبويَّةٍ ينقلُها لنا جبيرُ بنُ مطعم ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وهو يسردُ بعضَ المواقفِ المتألِّقةِ في ثنايا السِّيرة النَّبويَّة ، ويتحفنا بقصَّةِ إسلام

---

(١) « دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (١ / ٣٨٥) .

(٢) « البداية والنِّهاية » (٣ / ١٦٤ ـ ١٦٥) بشيء من التَّصرّف .

أحدِ كبار الذين آذوا رسولَ ٱلله ﷺ ، وآذوا ابنتَه سيِّدتنا زينبَ ـ رضي ٱلله عنها ـ .

* جاء في أخبار سيِّدنا جبير وقَصَصهِ الجميلةِ في الرِّحاب المحمَّديَّة والمجالس النَّبويَّة أنَّه قال : « كنتُ جالساً مع النَّبيِّ ﷺ في أصحابه في مسجده ، منصرفه من الجِعِرَّانة ، فطلعَ هَبَّارُ بن الأسود بن المطَّلب القُرشيّ ـ وكان ممَّن أُهدِرَتْ دماؤهم ـ من بابِ رسولِ ٱلله ﷺ ، فلمَّا نظرَ القومُ إليه قالوا : يا رسولَ اللهِ ! هبَّار بن الأسود !

قال رسول ٱلله ﷺ : « قد رأيتُه » .

فأراد بعضُ القوم القيامَ إليه ، فأشار النَّبيُّ ﷺ أن اجلس ، ووقفَ عليه هبَّار فقال : السَّلامُ عليك يا رسولَ ٱلله ! إنِّي أشهدُ أنْ لا إلـٰه إلا ٱلله ، وأنَّك رسولُ ٱلله ، ولقد هربتُ منك في البلاد ، وأردتُ اللحوقَ بالأعاجم ، ثمَّ ذكرتُ عائدتك وفضلَكَ وبرَّك وصفْحَك عمَّن جهلَ عليك ؛ وكنَّا يا رسولَ ٱلله ! أهلَ شرك ، فهدانا ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ بكَ ، وأنقذَنا بكَ من الهَلَكَة ، فاصفحْ عن جَهْلي ، وعمَّا كان يبلغك عنِّي ، فإنِّي مقرٌّ بسوء فعلي ، معترفٌ بذنبي .

فقال رسولُ ٱللهِ ﷺ : « قد عفوتُ عنك ، وقد أحْسَنَ اللهُ بك حيثُ هداك للإسلام ، والإسلامُ يَجُبُّ ما كان قبله » [1] .

* ومن أحاديث جُبير العذبةِ عن تكسيرِ الأصنامِ يوم الفتح ، وكيف أعزَّ اللهُ دِيْنَه يروي لنا سيِّدنا جُبير هـٰذه الحادثة التي تبشِّرُ بخير ، فيقولُ : « لمَّا كان يوم الفتح نادىٰ مُنادي رسول ٱلله ﷺ : « مَنْ كان يؤمنُ بٱلله فلا يتركنَّ في بيتهِ صنماً إلاَّ كسره ، أو حَرَقَه ، وثمنه حرام » .

قال جبيرٌ : وقد كنتُ أرىٰ قبلَ ذلك الأصنامَ يُطاف بها مكَّة ، فيشتريها

---

(١) « المغازي » (٢ / ٨٥٨) ، و« أسد الغابة » (٤ / ٦٠٩) ترجمة رقم : (٥٣٣٤) .

أهلُ البدو ، فيخرجون بها إلىٰ بيوتهم ، وما من رجلٍ من قريشٍ إلاَّ وفي بيته صنَمٌ ، إذا دخل مَسَحَه ، وإذا خرج مَسَحه تبرّكاً به » [1] .

موقفُه من الإسلام :

* علمْنَا ممَّا سبق أنَّ جُبيراً لم يكن من السُّفهاء الذين عادوا رسولَ ٱلله ﷺ ، وتربّصوا به يبغونَه الغوائل ، ولٰكنَّه لم يُسْلِمْ ، أو يعتزلْ مجالسَ قريش العدائيَّة ، بل تذكرُ أحداث السِّيرة النَّبويَّة أنَّه كان في دار النَّدوة مع ثُلَّةٍ من كبار المشركين يأتمرون ويتشاورون في أمر النَّبيِّ ﷺ الذي أقضَّ مضاجعهم ، وسفَّه أحلامهم ، وعاب آلهتهم ، وتوصَّل المجرمون فيما بينهم إلىٰ أن يقتلُوا النَّبيَّ ﷺ ، ويومها بات فتىٰ قريش عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ في بيت النَّبيّ ﷺ وعلىٰ فراشه ، وخرج ﷺ ، وقد أخذ اللهُ علىٰ أبصارهم ؛ فلم يَرَوْهُ ، وهٰذا الأمر متعالَمٌ واضحٌ في مصادر السِّيرة النَّبويَّة وأحداثها إبَّان الهجرة [2] .

* وعقب بدر كان جُبيرٌ من بين النَّفر الذين قدموا من مكَّةَ إلىٰ المدينة في فداء الأسرىٰ ، وقد افتدىٰ جماعةٌ منهم : عديُّ بنُ الخيار ، وعثمانُ بنُ عبد شمس ، وأبو ثور ، وهٰؤلاء افتداهم جُبير بنُ مطعم ، كما ذكر

---

(١) انظر : في هٰذا الأمر : « المغازي » (٢ / ٨٧٠ ـ ٨٧١) ، و« شفاء الغرام » للفاسيّ (٢ / ٤٤٧) . ومن الجدير بالذّكر أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ أمرَ أن يُنادىٰ بمكَّة : « مَنْ كان يؤمنُ باللهِ وبرسوله فلا يدعنَّ في بيته صنماً إلا كسره » ، فجعلَ المسلمون يكسرون تلك الأصنام ، وكان عكرمةُ بنُ أبي جهل حين أسلم لا يسمعُ بصنم في بيتٍ من بيوتِ قريش إلا مشىٰ إليه حتَّىٰ يكسره . وذكروا أنَّ هند بنتَ عتبة ـ رضي ٱلله عنها ـ جعلتْ تضربُ صنماً في بيتها بالقدوم ، فلذةً فلذةً ، وهي تقول : « كنَّا منكَ في غرور » .

(٢) انظر مثلاً : « السّيرة النبويّة » (١ / ٤٨١) ، و« رجال أهل البيت » (ص : ٣٠١ ـ ٣١٦) .

الواقـديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ فـي مغـازيه[1] .

* وكان لجبيرِ بنِ مطعم في غزوة أحدٍ أكثر من موقفٍ مؤلمٍ مع قومه ، ولذلك ليصدَّ معهم عن سبيلِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وكان ممَّن حرَّضَ الشَّاعر أبا عزَّة الجمحيّ علىٰ هجاء المسلمين ، يؤلِّبَ النَّاس ضدّهم بشعره ونفثِهِ ؛ ليخرجَهم من أرضهم ، ومَنْ ثمَّ يقاتلوا المسلمين .

* وكان أبو عزَّة الجمحيّ ممَّن أُسِرَ ببدرٍ ، ومَنَّ عليه رسولُ ٱللهِ ﷺ وأطلَقَه دون فداء ، فعاهده ألاَّ يظاهرَ عليه ، وحلف له أغلظَ الأَيْمان أنْ سيكفّ لسانه وسنانه .

* ولمَّا أجمعتْ قريشٌ لحربِ الصَّادق المصدوق ﷺ بمن أطاعها من القبائل ، وبمن أغوتهم من النَّاس ، أبىٰ أبو عزَّة أن يخرجَ ، وقال : « مَنَّ عليَّ محمَّدٌ يوم بَدْر ، ولم يمنَّ علىٰ غيري ، وحلفتُ لا أظاهر عليه عدوّاً أبداً » . فمشىٰ إليه صفوان بن أميَّة ـ وكان لا يزالُ علىٰ شركه ـ وقال له : « اخرجْ » فأبىٰ أبو عزَّة ، وأخبره بعهده وقصَّته في بدرٍ ، فقال صفوانُ له مرغِّباً : « اخرجْ معنا ، فإنْ تَسْلَمْ أُعْطِكَ من المال ما شئْتَ ، وإنْ تُقْتَلْ أجعلْ بناتِكَ مع بناتي ، يصيبهنَّ ما أصابهنَّ من عسْرٍ ويسر » ، فأبىٰ أبو عزَّة حتَّىٰ كان الغد ، وأَيسَ منه صفوانُ بنُ أميَّةَ ، فجاء جبيرُ بنُ مطعم ، فقال له كما قال صفوانُ ورغبَه ، فأبىٰ ، فقال جبيرٌ محرضاً أبا عزَّة ومحرّكاً بداخله كوامنَ الغَيْظ : « ويحك أبا عزَّةَ ! ما كنتُ أظنُّ أنِّي أعيشُ حتَّىٰ يمشي إليك أبو وَهْب ـ كنية صفوان ـ في أمرٍ تأبىٰ عليه ! » فأَحْفَظَه قولُ جبير ، واندفعَ فقال : « فأنا أخرجُ » ، فخرجَ في العرب يجمعُها ، وهو يقول :

يـا بنـي عَبْـد مَنـاةَ الـرُّزّام ... أنتـم حمـاةٌ وأبـوكـم حَـام

لا تُسْلِمـونـي لا يَحِـلُّ إسـلام ... لا تَعِـدوني نَصْـركـم بَعْـدَ العـام[2]

---

(١) « المغازي » (١ / ١٣٠ ـ ١٣٩) .

(٢) « السِّيرة النَّبويّة » (١ / ٦١) ، و« المغازي » (١ / ٢٠١) ، و« السِّير والمغازي »=

* ولم يتوقفْ جبيرٌ عند هٰذا الحدِّ ، بل كان له عبدٌ حبشيٌّ اسمه : وحشيُّ بن حرب من أمْهرِ النَّاس قَذْفاً بالحربة ، أخذَ يحرضُه لكي يغتالَ حمزة بن عبد المطَّلب ـ رضي ٱلله عنه ـ الذي قتل أحبَّةَ جُبيرٍ يوم بدر [1] ، ووعده بأنْ يعتقَه إنْ نفَّذَ هٰذه المهمَّة الغادرة السَّوداء ، كما تصوّرها لنا هٰذه التَّغريدةُ الجميلةُ النَّاطقةُ بلسان الحال ؛ لما حدث مع صفوانَ وأبي عزَّة الجمحيّ وجبير من المقال ، فلنعشْ مع همساتِ حروفها التي تميس بين الرِّقَّةِ والدّلال :

هٰذي قُريشٌ جنَّدتْ للحرب كُلَّ الحاقدين
جمعُوا القبائلَ من كنانةَ من تِهامةَ أجمعين
حتَّىٰ الأحابيش الرّعاع فشاركوا مُتَضامنين
قد أنفقُوا الأموالَ حتَّىٰ جهَّزوا الجيشَ المتين
بو عزَّةَ الجمحيِّ أيضاً كان بين الذَّاهبين
قد كان هٰذا شاعراً بالشِّعْر يدعو المشركين
بالأمسِ فُكَّ أسارهُ عفواً مِنَ الهادي الأمين
قد جاء مكتوفاً ببدرٍ في الأسارىٰ الكافرين
نسيَ اللعينُ يدَ النَّبيِّ عليه بالعفو المُبين
وغدا يحرِّضُ للجميع علىٰ قتال المسلمين
أغراهُ صفوانٌ ليخرجَ إنَّه وغْدٌ لعين
أغرىٰ لوحشي جُبيرٌ كان ذا حقْدٍ دفين
قد قالَ يا وحشيُّ إنْ تقتل لحمزةَ عن يقين
أعطيتُك العتقَ الذي ترجوهُ دونَ العالمين
هو قاتلٌ عمِّي طُعَيمةَ مِنْ خيار الرَّاحلين [2]

= لابن إسحاق (ص : ٣٢٣) مع الجمع والتَّصرُّف .
(١) انظر : « السِّير والمغازي » (ص : ٣٢٣) وغير ذلك من كتب السِّيرة العَطِرة .
(٢) « تغريدة السِّيرة النّبويّة » (٣ / ٢٦) .

* والآن ؛ دعونا نترك قاتل حمزةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ يروي كيف قتَله ؛ إذ روىٰ ذلك لرسول ٱلله ﷺ حين سأله ﷺ عن ذلك ، فأجاب : « كنتُ غلاماً لجبير بن مطعم ، وكان عمّه طُعيمةُ بنُ عدي قد أُصيبَ يوم بدر ، فلمَّا سارت قريش ، إلىٰ أُحُدٍ ، قال لي جبير : إنْ قتلتَ حمزةَ عمَّ محمَّدٍ بعمِّي ، فأنتَ عتيقٌ ، فخرجتُ مع النَّاس ، وكنتُ رجلاً حبشيّاً أقذفُ بالحربة قَذْفَ الحبشَة ، قَلَّ ما أخطئُ بها شيئاً ، فلمَّا التقىٰ النَّاسُ خرجتُ أنظرُ حمزةَ وأتبصرهُ . . . . وهَزَزْتُ حربتي حتَّىٰ إذا رضيتُ منها دفعتُها عليه ، فوقعتْ في ثُنَّتِهِ ـ أسفل بطنه ـ حتَّىٰ خرجَتْ من بين رجلَيْه ، وذهب لينوءَ نحوي فَغُلِب ، وتركتُه حتَّىٰ مات ، ثمَّ أتيتُه فأخذتُ حربتي ، ثمَّ رجعتُ إلىٰ العسْكر ، وقعدتُ فيه ، ولم يكنْ لي بغيره حاجة ، إنَّما قتلتُه لأعتقَ ، فلمَّا قدمتُ مكَّة عتقتُ . . . . »[1] .

---

(١) انظر : « شرح حياة الصَّحابة » (١ / ٨٤٦ ـ ٨٤٧) ، وتخريج الحديث فيه . واقرأ بالتّفصيل والتّوثيق ما كتبناه عن سيّدنا حمزة في الباب الأوّل من كتابنا : « رجال أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٧٩ ـ ١٠٦) تجد معلوماتٍ مهمةً ، وتصحيح لكثيرٍ من المفاهيم التي رانتْ علىٰ عقولِ بعضِ النَّاس في موضوع استشهاد سيِّدنا حمزة ـ رضي ٱلله عنه ـ .

ولا بأس أنْ نقرأ الآن هـٰذه التَّغريدة التي توجزُ مقتلَ سيِّدنا حمزة ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ :

كُلُّ الحديثِ بشأنِ حمزةَ قد يضيقُ عن المعان
قد كان عمّ محمّد هو فارسُ الحربِ العَوان
في صوته رعبٌ يزلزلُ للفؤادِ مِنَ الجبان
وحشيٌّ يروي عنه حقّاً ما رآه رؤىٰ العيان
قد قال جئتُ لقتلهِ حتَّىٰ أُحرّر من هوان
فرأيتُ حمزةَ يومذاك مبدّداً كلّ الأمان
قد صار يقتلُ كلَّ مَنْ يلقاهُ ضرباً بالسِّنان
وبحربةٍ أعددتُها فرميتُهُ رمْيَ الرّهان =

* ومن الإضافات المهمَّة في هٰذا المجال أنَّ وحشيّاً كان أوَّل مَنْ أخبرَ قريشاً بِقَتْلِ أصحاب النَّبيّ ﷺ وانتصار قريش ، وظفَرهم بأُحد ، كان وحشيُّ بنُ حرب عبد جبير بن مُطعم ، فقد قَدِمَ علىٰ أهل مكَّة بمصاب المسلمين ، وفي مقدمتهم سيِّدنا حمزة بن عبد المطَّلب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ووقف علىٰ جَبَل الحجون ونادىٰ بأعلىٰ صوته : « يا معشر قريش . . . . يا معشر قريش ! » مراراً ، حتَّىٰ جاء النَّاس إليه وهم خائفون أنْ يأتيهم بما يكرهون ، فلمَّا رضيَ منهم قال : « أبشروا ، قد قتلْنَا من أصحاب محمَّد مقتلةً لم يُقتلْ مثلُها في زحفٍ قطّ ، وجرحنا محمَّداً فأثبتْنَاه بالجراح ، وقتلتُ رأسَ الكتيبة حمزةَ بن عبد المطَّلب » . وتفرَّق النَّاس بالشَّماتة بقتل أصحاب رسولِ ٱلله ﷺ ، وإظهار السُّرور والرِّضا .

* وتوجَّسَ جبيرُ بن مطعم خيفةً من هٰذا الكلام ، وأخذه ما قَرُب وبَعُدَ ، وداخَلَه شكٌّ في صحَّةِ كلام غلامه وحشيّ ، فدعاه وخلا به ، وقال : « ويحك ! انظرْ ما تقول » .

قال وحشي : « يا سيِّدي ! قد صدقتُ واللهِ » .

قال جبير : « ويحك ! أقتلتَ حمزة ؟ » .

قال : « قد واللهِ زرقْتُه بالمِزراق في بطنه حتَّىٰ خرجَ من بين رجليه ، ثمَّ نُودي فلم يُجبْ ، فأخذتُ كبده ، وحملتُها إليك لتراها » .

قال جبيرٌ : « أذهبْتَ حُزْنَ نسائنا ، وبرَّدْتَ قُلوبَنا » .

وأمرَ يومئذٍ نساءه بمراجعة الطِّيْبِ والدّهن والعطر (١) .

* ظل جبيرُ بنُ مطعم علىٰ شركه بعد غزوة أحدٍ ، مع أنَّه قد عرفَ طريق الحقِّ منذ أنْ قدمَ في فداءِ الأسرىٰ ، ولٰكنَّ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يفتحْ علىٰ

= فقتلتُــــه قــــد كــــان ذلــــك مطلبــــي ذاك الــــزَّمــــان

(١) « المغازي » (١ / ٣٣٢) بشيء من التّصرّف .

قلبه ؛ كما أنَّه قد شهد مقتل زيد بن الدّثنة ، وخبيب بن عديّ ـ رضي ٱللَّه عنهما ـ ، ويومها خافَ خوفاً شديداً من دعوةِ خُبيب علىٰ قريش عندما قال قبل أنْ يقتلوه : « اللهمَّ أحْصِهم عدداً ، واقتلْهُم بَدَداً ، ولا تغادرْ منهم احداً » .
وكان جبيرٌ يقول : « لقد رأيتني يومئذٍ أتسترُّ بالرِّجالِ فَرَقاً من أنْ أُشرفَ لدعوتهِ » [(١)] .

رحلتُهُ مع الإيمان :

* عندما ذكر الإمامُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ جبيرَ بنَ مطعم أثنىٰ عليه بقوله : « من الطُّلقاء الذين حَسُنَ إسلامهم ، وقد قدمَ المدينةَ في فداء الأسارىٰ من قومه . وكان موصوفاً بالحلْمِ ، ونُبل الرأي كأبيه . وكان جبيرٌ شريفاً مطاعاً » [(٢)] .

* أوردَ ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق ترجمته لجبير : أنَّه كان فصيحاً عالماً بالنَّسب فقال : « كان جبيرُ بنُ مطعم من حُلَماء قريش وساداتهم ، وكان يُؤْخَذُ عنه النَّسب ، وكان من أنسبِ قريش لقريش ، وللعرب قاطبة ، وكان يقول : إنَّما أخذتُ النَّسَبَ عن أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱللَّه عنه ـ ، وكان أبو بكر ـ رضي ٱللَّه عنه ـ من أنسبِ العرب » [(٣)] .

* ومن المؤكَّد أنَّ علْمَ النَّسب يستلزم فصاحةً بارعةً ، وتذوّقاً خاصّاً لمعاني الكلام ، ومن هـٰذا المنطلق نستنتجُ أنَّ سيِّدنا جُبيراً كان فصيحاً عالماً بمذاهب البلاغة ، ولذلك لمَّا قدمَ المدينةَ المنوَّرة في فداء الأسرىٰ سمعَ آياتٍ بيّناتٍ من سورة الطُّور ، ففهمها وتفاعلَ معها ، بل صدعَ قلبه لها ، وعملت في نفسه عملَها ، وخافَ وعيدها ، فظلت آثارُ بلاغتها لا تفارقُ وجدانه حتىٰ تذوّق

---

(١) « المغازي » (١ / ٣٥٩) .
(٢) « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٩٥) .
(٣) « الاستيعاب » (١ / ٢٣٢) . وانظر : « البيان والتَّبيين » (١ / ٣٥٦) ، و« المفصَّل في تاريخ العرب » (٥ / ٣٣٠) ، و« معرفة الصَّحابة » (١ / ٤٣١) .

حلاوة الإيمان ، وأصبح من الصَّحابة جنود الرّحمـٰن .

* عن هـٰذه الظَّاهرةِ العظيمة روي عن سيِّدنا جُبيرٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ أنَّه قال : « قدمتُ المدينةَ لأسألَ رسولَ ٱلله ﷺ في أسارىٰ بَدْرٍ ، فوافيتُه يقرأُ في صـلاة المغـرب : ﴿وَٱلطُّورِ﴾ إلـىٰ قـولـه : ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ [الطور : ١ ـ ٨] ، فكأنَّما صَدَعَ قلبي ، فأسلمتُ خوفاً من نزولِ العذاب ، وما كنتُ أظنُّ أنْ أقومَ من مقامي حتَّىٰ يقعَ بي العذاب » [١] ، وفي رواية عند البخاريِّ : « كاد قلبي أنْ يطيرَ » [٢] .

* ونقرأُ هـٰذه القصَّة عند ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن جُبير ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « قدمتُ علىٰ النَّبيِّ ﷺ في فداء الأسرىٰ ، فاضطجعتُ في المسجد بعد العصر ، وقد أصابني الكرىٰ فنمتُ ، فأقيمتْ صلاةُ المغرب ، فقمتُ فزعاً بقراءة النَّبيّ ﷺ في المغرب : ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ [الطور : ١ ـ ٢] ، فاستمعتُ قراءته حتَّىٰ خرجتُ من المسجد ، فكان يومئذٍ أوَّل ما دخلَ الإسلام قلبي » [٣] .

* استمرَّ سيِّدنا جبيرُ بنُ مطعم ـ رضي ٱلله عنه ـ في رحلتهِ الإيمانيَّةِ ،

---

(١) « تفسير القرطبيّ » (١٧ / ٦٢) ، وأخرجه الطَّبرانيُّ (٢ / ١١٧) برقم : (١٥٠٢) ، وانظر : « فتح الباري » (٢ / ٢٩٠) .

(٢) أخرجه البخاريّ في التّفسير برقم : (٤٨٥٤) . قال الإمام الخطَّابيُّ : « كأنَّه انزعج عند سماع هـٰذه الآية لفهمه معناها ، ومعرفته بما تضمنته ، ففهم الحجَّة ، فاستدركها بلطيفِ طبعه » . وقال : « ذكر اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ العلَّة التي عاقتهم عن الإيمان وهو عدم اليقين الذي هو موهبة من ٱلله ، ولا يحصل إلا بتوفيقه ، فلهـٰذا انزعج جبير حتَّىٰ كاد قلبه يطيرُ ، ومال إلىٰ الإسلام » .

ويمكن أن نقول : « إنَّ قلبه كاد يطيرُ ممَّا تضمَّنَتْهُ هـٰذه السُّورة الكريمة من الأحكام ، ومنْ وقعِها المؤثِّر في الأسماعِ والقُلوب ، وٱلله أعلم » .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٥) .

فشهد المشاهدَ والمغازي النَّبويَّة بعد إسلامه ، وذكروا بأنَّه من أصحاب المئين من المؤلَّفة قلوبهم ، قال عبدُ ٱلله بنُ أبي بكر بن حَزْم وغيرُهُ : « كان من إعطاء رسول ٱلله ﷺ من المؤلَّفة قلوبهم من أصحاب المئين من بني نوفل بن عبد مناف : جبيرُ بنُ مطعم مئة من الإبل »[١] .

* وكان لجبير بعضُ الأخبار اللطيفة والطَّريفة مع سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فقد كان سيِّدنا عمر يثقُ بمعرفةِ جُبيرٍ بالأنساب معرفةَ البصير العليم ، لذلك لمَّا أُتي عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ بسيف النُّعمان بن المنذر ، دعا جبيرُ بنَ مطعم ، فسلَّحه إيَّاه ، ثمَّ قال : « يا جبيرُ ! ممّن كان النُّعمان ؟ » .

قال : « كان رجُلاً من أشلاء قَنَص بن معد »[٢] .

* وذكر الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ أنَّ خليفةَ بنَ خياط قد عدَّ جُبيراً في عمال عمر علىٰ الكوفة ، وأنَّه ولاَّه قبل المغيرة بن شعبة[٣] .

* وعن هـٰذه الولايةِ يحدّثنا ابن حمدون في « تذكرته » ويسردُ لنا قصَّةً طريفةً عن حيلةٍ لطيفةٍ قام بها المغيرةُ بنُ شعبةَ ليبقىٰ والياً علىٰ العراق ، ترىٰ ما الحيلة[٤] المغيريَّة التي أتحفنا بها المغيرةُ ـ رضي ٱلله عنه ؟ ! ـ .

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٧) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٩٧) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٨) ، و« المفصّل في تاريخ العرب » (٣ / ١٨٧) ، و« البيان والتَّبيين » (١ / ٣٠٣) .

(٣) « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٩٧) .

(٤) « **الحيلة** » : الحيلةُ من فوائد الآراء المحكمة ، ونتائج الآراء المبصرة ، وهي حسَنَةٌ ما لمْ يُسْتَبح بها محظور ، أو يُحظرَ مباح ، وفضيلة ما قصد بها صاحبها سبيل الإصلاح ، وقد سُومح الكاذب في الحرب والائتلاف ، ورُفع عنه الوزر في كذبه والاقتراف ، وإنَّما يكذب بضربٍ من الخديعة ، يجمع شتائت الأهوال بعد القطيعة » . « التذكرة الحمدونيّة » (٨ / ٢١٢) .

* قال ابنُ حمدون : « أرادَ عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ أنْ يعزلَ المغيرةَ بنَ شعبةَ عن العراق بجبيرِ بنِ مطعم ، وأنْ يكتمَ ذلك ، وأمرَ بالجهاز ، وأحسَّ بذلك المغيرةُ ، فأمرَ جليساً له أنْ يدسَّ امرأته ـ وكانت تسمَّىٰ لقَّاطة الحصىٰ ـ لتدور في المنازل حتَّىٰ دخلت منزلَ جبير ، فوجدتِ امرأتَه تُصلح أمرهُ ، فقالت : إلىٰ أين يخرجُ زوجُكِ ؟

قالت : إلىٰ العُمرةِ .

قالت : كتمكِ ، ولو كان لكِ عنده منزلةٌ لأطلعَك .

فجلستْ متغضّبةً ، فدخل إليها جبيرٌ وهي كذلك ، فلم تزلْ به حتَّىٰ أخبرها ، وأخبرتْ لقَّاطة الحصىٰ . ودخل المغيرةُ علىٰ عمرَ ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، فقال : بارك اللهُ لأمير المؤمنين في رأيه وتوليته جُبيراً .

فقال : كأنّي بكَ يا مغيرةُ فعلْتَ كذا ، فقصَّ عليه الأمرَ كأنَّما شاهَدَهُ ، وقال : أنشدُكَ ٱلله ، هل كان ذلك ؟

قال : اللهمَّ نعم .

ثمَّ رقيَ المنبر ، وقال : أيُّها النَّاس ! مَنْ يدلُّني علىٰ المِخْلَطِ النَّسيج وحده ؟

فقام المغيرةُ فقال : ما يَعرِفُ ذلك في أمتكَ غيرُك ؛ فولاَّهُ ، ولم يزلْ والي العراق حتَّىٰ طُعِنَ عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ » [1] .

* ومن الأخبار التي تشيرُ إلىٰ فَهْم جُبير أمورَ دينه ما ذكره الذَّهبيُّ رحمه الله وغيرهُ قالوا : « تزوَّجَ جبيرُ بنُ مطعم ـ رضي ٱلله عنه ـ امرأةً ، فسمَّىٰ لها صداقها ، ثمَّ طلَّقها قبل أنْ يدخلَ بها ، فتلا هـٰذه الآية : ﴿ إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، فقال جبيرٌ : أنا أحقُّ بالعفو

---

(١) « التذكرة الحمدونيّة » (٨ / ٢٥٣ ـ ٢٥٤) .

منها . فسلَّم إليها المَهْر كاملاً ، فأعطاها إيَّاه » [1] .

* وفي تفسيره المفعم بالفرائدِ والفوائدِ والأحكام : « المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » ذكر ابنُ عطيَّة الأندلسيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصّة جبير ـ رضي ٱلله عنه ـ بشكلٍ أكثر إيجازاً ، لكنّها أكثر بياناً ووضوحاً ، فقال : « يروىٰ أنَّ جبيرَ بنَ مطعم دخلَ علىٰ سعدِ بنِ أبي وقَّاص ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فعرضَ عليه ابنةً له فتزوَّجها ، فلمَّا خرج طلَّقها ؛ وبعثَ إليهِ بالصَّداق ، فقيل له : لِمَ تزوجتها ؟

فقال : عرضَها عَليَّ فكرهتُ ردَّه .

قيل : فَلِمَ تبعثُ بالصَّداق ؟

قال : فأينَ الفَضْلُ ؟ ! » [2] .

* وفي تفسيره الماتع النَّافع الجامع « البحر المحيط » قال أبو حيَّان الأندلسيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وروي أنَّ جبيرَ بنَ مطعم تزوَّج وطلَّق قبل الدّخول ، فأكمل الصَّداق ، وقال : أنا أحقُّ بالعفو ؛ وسمَّىٰ ذلك عفواً ، إمَّا علىٰ طريق المشاكلة ؛ لأنَّ قبله : ﴿ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ ﴾ ، أو لأنَّ مِنْ عادتهم أنْ كانوا يسوقون المهرَ عند التَّزوّج ، ألا ترىٰ إلىٰ قولهِ ﷺ لعليٍّ ـ رضي ٱلله عنه ـ : « فأين درعكَ الحطميَّة ؟ » يعني : أنْ يصدقها فاطمةَ ـ رضي ٱلله عنها ـ » [3] .

صحْبَـــةٌ وروايـــةٌ :

* منذ أنْ أسلمَ سيِّدنا جبيرُ بنُ مطعم ـ رضي ٱلله عنه ـ نَعِمَ بالصُّحبة

---

(1) « مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٩) ، وانظر : « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٩٨) ، وانظر تخريج الخبر فيه .

(2) « المحرر الوجيز » تفسير ابن عطيَّة (ص : ٢١٤) .

(3) « البحر المحيط » (٢ / ٢٤٥) .

النَّبويَّة ، فهو صاحبٌ راوٍ ناقلٌ للحديثِ النَّبويّ الشَّريف ، فقد طفق يحضرُ المجالسَ النَّبويَّة ، ويحفظُ ما استطاع له أنْ يحفظَ من هَدْي المُصطفىٰ ﷺ وسُنَنِهِ ، حتَّىٰ عدّه المحدِّثون من أصحابِ العشرات في الرِّواية ، فقد روي له عن رسولِ ٱلله ﷺ ستُّون حديثاً ؛ اتَّفق البخاريُّ ومسلمٌ علىٰ ستَّةِ أحاديث ، وانفرد البخاريُّ بثلاثة ، ومسلم بحديث [1] . ومرويَّاته منثورةٌ في كتبِ الحديث ومصادرها من الصَّحيح والسُّنن والمسانيد .

* روىٰ عنه الحديث ولداه الفقيهان : محمَّدٌ ونافعٌ ، وسليمانُ بنُ صُرَد الصَّحابيّ ، وسعيدُ بنُ المسيِّب ، وأبو سلمةَ بنُ عبد الرَّحمـٰن ، وإبراهيمُ بنُ عبد الرَّحمـٰن بن عوف ، وعبدُ ٱلله بنُ باباه ، وغيرهم [2] .

* وشملتْ مرويَّات سيِّدنا جبير معظمَ أبوابِ العلْم ، والأحكام ، وله مرويَّات في المناقب ، والحجّ ، والجهاد ، والسِّير ، والاعتصام ، والتَّفسير ، والمغازي ، والأدب ، وصفة الصَّلاة ، والخمس ، والأحكام ، والغُسْل ، والشَّمائل ، وغيرها ممَّا قد احتوته كتب الحديث وغيرها من السِّيرة والتَّراجم والطَّبقات .

* ومن مرويَّاته في الصَّحيح في فضائل الصَّحابة ، باب فضل سيِّدنا أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ بعد النَّبيِّ ﷺ ، ما أخرجه البخاريُّ بسندٍ عن محمَّدِ بن جُبير بنِ مطعم ، عن أبيه قال : « أتتِ امرأةٌ للنَّبيِّ ﷺ ، فأمرها أنْ ترجعَ إليه ، قالت : أرأيتَ إنْ جئْتُ ولم أجدْكَ ـ كأنها تقولُ الموتَ ـ قال ﷺ : « إنْ لم تجديني فأتي أبا بكر » [3] .

---

(1) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٤٦ ـ ١٤٧) .

(2) « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٩٥ ـ ٩٦) ، و« تهذيب التَّهذيب » (٢ / ٦٤) ، و« تاريخ الإسلام » للذّهبيّ (عهد معاوية ، ص : ١٨٥) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٤٦ ـ ١٤٧) ، و« الإصابة » (١ / ٢٢٧) مع الجمع بينها .

(3) أخرجه البخاريّ بهـٰذا اللفظ في فضائل الصَّحابة برقم : (٣٦٥٩) ، وأخرجه في=

* ونقرأ لجبيرٍ في الصَّحيح وغيره ما جاء في أسماءِ رسولِ ٱلله ﷺ ، بسند عن الزُّهريّ ، عن محمَّد بن جُبير بنِ مطعم ، عن أبيه ـ رضي ٱلله عنه ـ ، قال : قال رسولُ ٱلله ﷺ : « إنَّ لي أسماء : أنا محمَّد ، وأنا أحمدُ ، وأنا الماحي الذي يمحو اللهُ بي الكُفْر ، وأنا الحاشرُ الذي يُحْشَر النَّاس علىٰ قدمي ، وأنا العاقب » [1] . والعاقب : الذي ليس بعده نبيّ .

= مواضع أخرىٰ من « صحيحه الجامع » ، تحت الرَّقمين : (٧٢٢٠ ، و ٧٣٦٠) ، وأخرجه أحمد (٥ / ٦٢١ ـ ٦٢٢) برقم : (١٦٧٦٧) .

(١) أخرجه البخاريّ برقم : (٣٥٣٢) ، ومسلم برقم : (٢٣٥٤) ، والتّرمذيّ برقم : (٢٨٤٠) ، وأحمد (٥ / ٦١٥) ، برقم : (١٦٧٣٤) ، والطّبرانيّ في بضعة مواضع (٢ / ١٢٠ ـ ١٢١) من رقم : (١٥٢٠ ـ ١٥٣٠) ، وغيرهم .

قال الإمامُ النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللهُ : « ذكرَ هنا هٰذه الأسماء ، وله ﷺ أسماءُ أخر . ذكر أبو بكر بن العربيّ المالكيّ في كتابه : « الأحوذيّ في شرح التّرمذيّ » ، عن بعضهم أنَّ لله ألف اسم ، وللنّبيِّ ﷺ ألف اسم أيضاً ، ثم ذكر منها علىٰ التَّفصيل بضعاً وستين » . « المنهاج » (ص : ١٧٢١) .

قال أهل اللغة : « يُقال : رجلٌ محمّدٌ ومحمودٌ ، إذا كثرت خصالُه المحمودة » .

وقال ابنُ فارس رَحِمَهُ ٱللهُ وغيره : « وبهِ سمِّي نبينا ﷺ محمَّداً ، وأحمداً ؛ أي : أَلْهَمَ ٱلله تعالىٰ أهلَه أنْ سمّوهُ به ، لِمَا علم من جميل صفاته » .

وقولُه ﷺ : « وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفْر » . قال العلماءُ : « المرادُ محو الكفْر من مكَّةَ ، والمدينةِ ، وسائرِ بلادِ العرب ، وما زُويَ له ﷺ من الأرض ، ووعد أنْ يبلغه مُلْك أمَّته . قالوا : ويُحتمل أنَّ المرادَ المحو العام ، بمعنىٰ الظُّهور بالحجة والغلبة ، كما قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة : ٣٣] ، وجاء في حديث آخر تفسير الماحي : بأنَّه الذي مُحيتْ به سيئات مَن اتَّبعه ، فقد يكونُ المرادُ بمحو الكفْر هٰذا ، ويكون كقوله تعالىٰ : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] ، والحديث الصَّحيح : « الإسلامُ يهدمُ ما كان قبله » . =

* ونمتح الحديث الآن من عند الإمام أحمد ؛ إذ أخرج بسنده عن جُبيرِ بنِ مطعم قال : قال رسولُ ٱللهِ ﷺ : « صلاةٌ في مسجدي هـٰذا أفضلَ من ألف صلاةٍ فيما سواه إلاَّ المسجدَ الحرام » [1] .

* وعن صلاة التَّطوُّع ، أخرجَ الإمامُ أحمد أيضاً بسنده عن نافع بنِ جُبيرِ بن مطعم ، عن أبيه قال : سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقولُ في التَّطوُّع : « اللهُ أكبرُ كبيراً ثلاث مرار ، والحمد لله كثيراً ثلاث مرار ، وسبحان اللهِ بكرةً وأصيلاً ثلاث مرار ، اللهمّ إنِّي أعوذُ بك من الشَّيطان الرَّجيم من هَمْزِهِ ونفثِهِ ونفخِهِ » .

قلت : يا رسولَ ٱللهِ ! ، ما همزهُ ونفثُه ونفخُهُ ؟

قال : « أمَّا همزهُ فالموتةُ التي تأخذُ ابنَ آدم ، وأمَّا نفخهُ الكِبْرُ ، ونفثه الشِّعر » [2] .

= وقوله ﷺ : « وأنا الحاشرُ الذي يحشر النَّاس علىٰ قدمي » . قال العلماء : « يحشرون علىٰ أثري ، وزمان نبوّتي ورسالتي ، وليس بعدي نبيّ » . وقيل : يتبعوني .

وقوله « العاقبُ » : ليس بعده نبي ؛ أي : جاء عقبهم . قال ابنُ الأعرابي رَحِمَهُ ٱللهُ : « العاقبُ العقوبُ : الذي يخلفُ في الخير مَنْ كان قبله ، ومنه : عقب الرَّجل لولده » .

أقول : « للمزيد في هـٰذا الأمرِ من معرفةِ أسماء سيِّدنا وحبيبنا رسولِ ٱللهِ ﷺ ، راجع كتاب : « سبل الهدىٰ والرَّشاد في سيرة خير العباد » للصَّالحيّ (١ / ٤٩٤ وما بعدها) ففي ذلك فوائد نفيسة ، ومعلومات قيمة ، وشروحات مفيدة » . وٱلله تعالىٰ أعلم .

(١) « المسند » (٥ / ٦١٤) برقم : (١٦٧٣١) ، وانظر : « المعجم الكبير » (٢ / ١٤٣)برقم : (١٦٠٤ ، و ١٦٠٥) .

(٢) « المسند » (٥ / ٦١٦) برقم : (١٦٧٣٩) ، وانظر : « المعجم الكبير » (٢ / ١٣٤ ـ ١٣٥) .

* ولِعِظَم محبَّةِ جبير لرسول ٱلله ﷺ ؛ ولزومه مجالسه ، عرفَ منه ﷺ ذلك ، فأخذَ يعلِّمه أنْ يقرأَ السُّور الخمس الأخيرة من القرآن الكريم لمَّا فيهنَّ من بركَةٍ ونفْعٍ وعلْم ، وعن هٰذا الأمر المفيد يعلم جبيرُ بنُ مطعم ـ رضي ٱلله عنه ـ المحبِّين ليعملوا مثله ، ويقتدوا بالهدي النَّبويّ ، فقال : قال لي رسولُ ٱلله ﷺ : « أتحبُّ يا جبيرُ إذا خرجتَ في سفرٍ أن تكونَ من أَمْثَلِ أصحابك هيئة ، وأكثرِهم زاداً » .

فقلت : نعم ، بأبي أنتَ وأمِّي !

قال : « فاقرأْ هٰذه السُّور الخمس : قُل يا أيّها الكافرون ، وإذا جاء نصرُ ٱلله والفتح ، وقلْ هو ٱلله أحد ، وقلْ أعوذُ بربِّ الفلق ، وقل أعوذُ بربِّ النَّاس ، وافتتحْ كُلَّ سورة ببسم ٱلله الرَّحمٰن الرَّحيم ، واختم قراءتك ببسم ٱلله الرَّحمٰن الرَّحيم » .

قال جبير : وكنتُ غنياً كثير المال ، فكنتُ أخرجُ في سفر فأكون أَبذَّهُم هيئةً ، وأقلّهم زاداً ، فما زلتُ منذ علَّمنِيهنَّ رسول ٱلله ﷺ ، وقرأتُ بهنَّ أكونُ من أحسنِهم هيئة ، وأكثرهم زاداً ، حتَّىٰ أرجعَ من سفري » [(١)] .

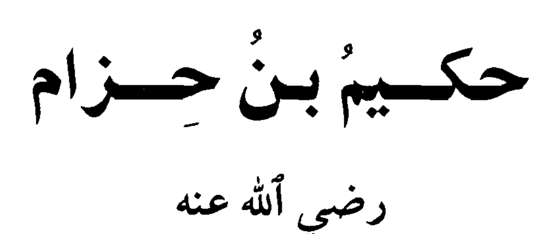
* وأحاديثُ جبيرٍ ـ رضي ٱلله عنه ـ منثورةٌ في كتب الحديث لمن أراد المزيد ؛ بقي أنْ نعرفَ أنَّ سيِّدنا جُبيراً عاشَ إلىٰ نهايةِ خلافةِ سيِّدنا معاوية ؛ إذ توفيَ سنة (٥٨ هـ) ، أو (٥٩ هـ) ، ودُفن بالمدينةِ المنوَّرة [(٢)] ، فرضي ٱلله عن سيِّدنا جُبير ، وألهمنا كلّ خير ، وَوَقَانا كلَّ ضير ؛ وصلّىٰ ٱلله علىٰ محمّد معلِّم النَّاس الخير .

✍ ✍ ✍

---

(١) « مجمع الزوائد » (١٠ / ١٣٤) ، وانظر : « تفسير القرطبي » (٢٠ / ٢٢٤) .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٤٧) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٩) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٩٩) .



حكيمُ بنُ حِزام

رضي الله عنه

* صحابيٌّ جليلٌ ؛ وُلد في جوفِ الكعبة ؛ وكان سيِّداً فاضلاً .
* مواقفُه المتنوّعةُ صورةٌ عن حصافتهِ وصدقهِ ووفائهِ .
* عُرِفَ بالحكمة والعِلْم؛ وروىٰ (٤٠ حديثاً) ؛ وماتَ وعمرهُ (١٢٠ سنة) .



حكيمُ بنُ حِزَام
رضي ٱللَّه عنه

المولدُ والنَّشأةُ :

* ارتفعتِ الشَّمسُ وراءَ جبال مكَّةَ وصافحت الغمام ، وراحت تسكبُ ضياءها في الدُّور والخيام ، وغمرتِ الوادي المقدَّس بالنُّور ، فقام النَّاسُ يستقبلون النَّهار استقبالاً حافلاً بالحركةِ والسُّرور ، وتوجَّه كلُّ واحدٍ منهم لوجهتِه ، وانحدر رجالٌ ونساءٌ إلىٰ رحاب البيتِ العتيقِ ليطوفوا به ، وكان من بينهم : فاختةُ بنتُ زهير بنِ الحارث بنِ أسد بنِ عبد العزَّىٰ القرشيَّة امرأة حِزَام بن خُويلد الأسديّ ؛ دخلت فاختَةُ الكعبةَ مع نسوةٍ من قريش وهي حاملٌ متمٌّ بحملها ، فضربَها المخاضُ ؛ وجاءتها الولادةُ في داخل الكعبة ، فأُتيتْ ببساط من جلدٍ حين أعجلَها الولادُ ، فولدت حكيمَ بنَ حِزَام بن خويلد [1] في الكعبة علىٰ النِّطع ، فكان هٰذا المولودُ فيما بعدُ من ساداتِ قريشٍ ووجوهها

---

(١) « شفاء الغرام » (الفهارس : ٢ / ٥٢٤) ، و« معرفة الصَّحابة » (٢ / ٣٥ ـ ٣٨) ، و« البداية والنِّهاية » (٨ / ٦٨) ، و« المغازي » (الفهارس : ٣ / ١١٥٩) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٣ ـ ٢٣٩) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٤٤ ـ ٥١) ، و« التَّبيين » (ص : ٢٣٨ ـ ٢٣٩) ، و« تهذيب التَّهذيب » (٢ / ٤٤٧) ، و« الاستيعاب » (١ / ٣١٩ ـ ٣٢٠) ، و« صفة الصَّفوة » (١ / ٧٢٥ ـ ٧٢٧) ، و« أُسد الغابة » (١ / ٥٢٢ ـ ٥٢٣) ترجمة رقم : (١٢٣٤) ، وغيرها كثير ممَّا لا يحصىٰ .

في الجاهليَّة والإسلام ، ومن أعلام الصَّحابة الكرام .

* كان حكيمُ بنُ حِزَام من الرِّجال اللامعة شخصيَّاتهم في ثنايا السِّيرة النَّبويَّة ، وتضاعيف أحداثها المثيرة ، وله عددٌ من المواقفِ التي تستحقُّ التَّسجيل ؛ لأنَّ فيها دروساً وعظاتٍ بالغةً تنفعُ محبِّي رجالِ هـٰذا الجيل ، الذين صدقوا ما عاهدوا عليه الملك الجليل ، وكانوا غرّةً ناصعةً في جبين الدهر ، وقبساً مضيئاً يهتدي به رجال كلّ عصرٍ ومِصْر .

* وحكيمُ بن حزام القرشيُّ الأسديُّ أبو خالد من أشراف قريش ، وعقلائها ، ونبلائها ، وكانت أمُّنا خديجةُ بنتُ خُويلد الأسديَّة ـ رضي ٱلله عنها ـ عمَّتَه ، وكان الزُّبير بن العوَّام ابنَ عمّه .

* وُلدَ سيِّدنا حكيمٌ في مكَّةَ في جوفِ الكعبةِ [1] ، وكان مولدُهُ قبل الفيل

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٤) ، و« المستدرك » (٣ / ٥٤٩) ، و« الإصابة » (١ / ٣٤٨) .

وعن مولد سيِّدنا حكيم في جوفِ الكعبةِ المشرَّفة ، وعن تفرّده في هـٰذه المنقبةِ المشرقة قال جمهرةٌ من العلماء : « وُلد حكيمُ بنُ حِزام بن خُويلد بن أسد في الكعبة ، دخلَتْها أمُّه فاختةُ بنتُ زهير بنِ الحارث بنِ أسد بن عبد العزَّىٰ وهي حاملٌ ، فضَرَبَهَا المخاضُ وهي في الكعبةِ فولدته فيها ، فَحُمِلَتْ في نطعٍ ، وغُسِلَ ما كان تحتها من الثِّياب عند حوض زمزم ، ولم يُولدْ قبله ولا بعده في الكعبة أحد » . « المستدرك » (٣ / ٥٥٠) ، و« التَّذكرة الحمدونيَّة » (٩ / ٢٤٥) .

وقال الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ وغيرهُ عن مولد سيِّدنا حكيم بن حزام : « وله منقبةٌ ، وهو أنَّه وُلد في جوف الكعبة » (تاريخ الإسلام » (عهد معاوية ، ص : ١٩٨) ، وانظر : « الاستيعاب » (١ / ٣١٩) ، وانظر كذلك : « صفة الصَّفوة » (١ / ٧٢٥) .

أقول : « لقد احتفظَ تاريخُ المواليدِ في الدُّنيا بأنَّ حكيمَ بنَ حزام هو المولودُ الوحيدُ الذي وُلدَ في داخلِ البيتِ العتيق ، الكعبةِ المشرَّفةِ حفظها ٱلله ، وتلك منقبةٌ=

ببضعة عشَرة عاماً[1] ؛ إذ كان يوم الفيل مراهقاً ، وله صحبةٌ ، وروايةٌ ، وشرفٌ في قومهِ وحشمهِ ، ومنزلةٌ من كبريات منازلِ العُقلاء .

* وصفه ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « الاستيعاب » بقوله : « كان عاقلاً سريّاً ، فاضلاً تقيّاً ، بماله غنيّاً » .

* ومن ثماره المتدلّيةِ بالمعرفة ، الدَّانية بالأدب ، نقتطفُ من « ثمار القُلوب » ما جناه الثَّعالبيّ عن سيِّدنا حكيمِ بنِ حزام ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وعن امتلاكه « دار النَّدوة » بمكَّةَ المكرَّمةِ فيقول ما ثمرتُه وحصادُه : « دار النَّدوة : مشتقَّة من النَّدىٰ والنَّادي وهو المجلسُ ، يُضْرَبُ بها المثَل في انْتِيَابِ النَّاس إيَّاها ، واجتماعهم بها ، وهي دارُ قصيّ بن كلاب بمكَّةَ ، كانت تُوضَعُ

= فريدةٌ اختصَّ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ بها حكيماً ـ رضي ٱلله عنه ـ » .

وقال الإمام النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وُلِدَ حكيمٌ في جَوْفِ الكعبة ، ولا يُعرفُ أحدٌ وُلدَ فيها غيرُهُ . وأمَّا ما روي أنَّ عليَّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ وُلد فيها ، فضعيفٌ عند العلماء . « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٦٦) .

(١) جاء عن سيّدنا حكيم أنَّه قال : « ولدتُ قبل الفيل بثلاثة عشر سنة ، وأعقلُ حين أرادَ عبد المطَّلب أن يذبَحَ عبد ٱلله ابنه » . « الإصابة » (١ / ٣٤٨) . وقال ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « كان مولدهُ قبل الفيل بثلاث عشرة سنة ، أو اثنتي عشرة سنة علىٰ اختلاف في ذلك » . « الاستيعاب » (١ / ٣١٩) . ولخَّصَ الأصبهانيُّ حياةَ حكيم فقال ما مفاده : « حكيمُ بنُ حزام بن خويلد ، وأمُّه : صفيَّةُ ، وقيل : فاختةُ بنتُ زهير . . . كان حكيم من مسلمةِ الفتح ، من المؤلَّفة ، أعطاه رسولُ ٱلله ﷺ يومَ حُنين مئة بعير ؛ ثم حَسُنَ إسلامه . وُلدَ في الكعبة ؛ عاش مئة وعشرين سنة ، ستّين في الجاهليَّة ، وستّين في الإسلام ، لم يقْبَلْ من أحدٍ شيئاً بعد النَّبيِّ ﷺ ، أعتقَ مئة رقبة في الجاهليَّة ، وأعتقَ مئة رقبة في الإسلام ، وكان أحد المذكورين من قريش بالبذل والعطيَّة ، والبرّ والهديَّة ، ما صنع في الجاهليَّة شيئاً من المعروف إلا صنع في الإسلام مثله ـ رضي ٱلله عنه ـ » . « معرفة الصَّحابة » (٢ / ٣٥) باختصار وتصرُّف .

فيها الرِّفادة ، ولا تزوَّج قرشيَّة ولا قرشيّ إلا بها ، ولا يُعْقَدُ لواء حرب إلا فيها ، ثمَّ تنقلت بها الأملاك بعده حتَّىٰ صارت في يدِ أسد بن عبد العزَّىٰ بن قصي وولده ، وآخر مَنْ وليها منهم حكيم بن حِزام ، وكان وُلدَ في الكعبة ، وذلك أنَّ أمَّه دخلتِ الكعبةَ مع نسوةٍ من قريشٍ وهي حاملٌ به ، فضربَها المخاضُ في الكعبة وأعجلها عن الخروج ، فأُتيت بِنِطْعٍ فوضع تحتها ، فوضعت حكيماً علىٰ النِّطع ، ولم يكن يدخل دار النَّدوة أحدٌ من قريش لمشورة حتَّىٰ يبلغَ أربعين سنةً ، إلا حكيم بن حِزام ، فإنَّه دخلها وهو ابنُ خمس عشرة سنة . وجاء الإسلام ؛ ودار النَّدوة بيد حكيم ـ رضي ٱلله عنه ـ فباعها لسيِّدنا معاوية بمئة ألف درهم ، فقال له عبد ٱلله بن الزُّبير ـ رضي ٱلله عنهما ـ عاذلاً : يا أبا خالد ! بِعْتَ مكْرُمَةَ قريش ومفخرتها !

فقال حكيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ : ذهبتِ المكارمُ إلا من التَّقْوىٰ يا بن أخي ، إنِّي اشتريتُ بها بيتاً في الجنَّة ، أشهدك أنِّي جعلتُ ثمنَها في سبيل ٱلله عزَّ وجلَّ ، وكان حكيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ أحدَ أربعةٍ رغبَ بهم النَّبيّ ﷺ عن الشِّرك ، ورغبَ لهم في الإسلام ، فأسلموا كُلُّهم ، وحسُنَ إسلامهم ، وكان حكيمٌ يفعلُ المعروف ، ويصلُ الرَّحم ، ويحضُّ علىٰ البرِّ ، عاش في الجاهليَّة ستِّين سنةً ، وفي الإسلام ستِّين سنة » [(١)] .

* نشأ حكيمُ بنُ حزام نشأةً متميِّزةً في أسرةٍ حسيبةٍ نسيبةٍ تتَّصل بسببٍ إلىٰ البيتِ النَّبويِّ ، فسيِّدتنا خديجة الكبرىٰ أمّ المؤمنين ـ رضي ٱلله عنها ـ من أقرب نساء أهل البيت [(٢)] إليه ، لذلك عرف كثيراً عن الحياة المحمَّديَّة قبل

---

(١) « ثمار القلوب » (ص : ٥١٨ ـ ٥١٩) بشيء من التّصرّف ، وعن دار النّدوة ودور حكيم فيها قال : قال مصعبُ بنُ عثمان : سمعتُ المشيخةَ يقولون : « لم يدخلْ دارَ النَّدوة للرّأي أحدٌ حتَّىٰ بلغ أربعين سنة ، إلا حكيمُ بنُ حِزام فإنَّه دخَلَها للرَّأي وهو ابنُ خمس عشرة سنة » . « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٨) . وانظر : « البداية والنِّهاية » (٨ / ٦٩) .

(٢) اقرأ موسوعتنا المباركة : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » ففي مطالعتها=

البعثة ، وكان يحبُّ سيِّدنا محمَّداً ﷺ محبَّةَ صادقٍ ودود ، ولمَّا اشترىٰ زيدَ بنَ حارثة باعه لعمَّته خديجة ، وبالتَّالي وهبته لسيِّدنا رسول ٱلله ﷺ بعد زواجها .

كيفَ وقفَ حكيمٌ منَ الإسلام ؟

* كان البيتُ النَّبويُّ مجللاً بالمودَّة ، فخديجةُ ـ رضي ٱلله عنها ـ تضفي علىٰ بيتها روحاً تفيضُ بالأنوار ، فهي تشمُّ في كثيرٍ من الأحيان روائح زكيةً أرق من نسمات الأسحار ؛ الممزوجة بعبير الأزهار ، ويفوقُ أريجها كلَّ ما في الأرض من طيب معطار ، وهـٰذه الرَّوائحُ والطُّيوب تنعشُ الأرواح ، وتبعثُ في النَّفس نشوةً صافيةً تبعث الانشراح ، وتملأ الجوانحَ بالرّحمةِ والمودَّة والارتياح .

* فقد كان الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ جوهرَ المحامد والفضائل ، وكلَّما مرَّ يومٌ يزدادُ فيه تألّقاً كزهر الخمائل ، وكان قلبُهُ كبيراً يَسَعُ كلَّ مَنْ كان بينه وبينهم صِلَة رحمٍ مهما كانت تلك الصِّلة بعيدة ، فكان عطفُه ﷺ سابغاً عليهم أجمعين ، ولا غرو أن كلَّ من خالطه أحبَّه ؛ وتمنّىٰ قربه .

* في رحلات الصِّيف والشّتاء ؛ عُرِفَ حكيمُ بنُ حزام بأنَّه روَّاحٌ بها غدَّاءٌ ، فكان يحدِّثُ قومَه عن أسواقِ الشَّام واليمن ، وعمَّا يجنيه من أموال وأرباح يعودُ بها علىٰ قومهِ وذوي رحمه ، وذاقَ حكيمٌ لذَّة زيادةِ المال ، فغدا من أجوادِ قريش وأسخياء الرِّجال .

* وخلال هـٰذه الفترة كان اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ قد اصطفىٰ سيِّدنا محمَّداً ﷺ نبيّاً ورسولاً ، وأنزل عليه الوحي في غار حراء ، ووقفتْ خديجةُ عمَّةُ حكيم موقفَ الصِّدِّيقين من الرِّسالة ، فكانت أوَّل مَنْ آمنَ به ﷺ ، وأوَّل مَنْ صدَّقَه ، وصادف أنْ جاءت جاريةٌ لحكيم لزيارةِ خديجةَ ـ رضي ٱلله عنها ـ ، فأقبلتْ عليها متفتّحة النَّفس ، وأخذتْ تخبرُ الجارية بأنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ قد اصطفىٰ

= فوائد مجموعة وإيناس للقلوب ، وزاد للنّفوس .

محمَّداً ﷺ لرسالته ، وما كادت السَّيِّدة تكملُ هـٰذا الحديث الشَّائق الغريب ، حتَّىٰ أسرعت الجاريةُ إلىٰ سيِّدها حكيمٍ ، فدخلت عليه وقالت له : « يا مولاي ! إنَّ عمَّتَك خديجة تقولُ بأنَّ زوجَها نبيٌّ مرسلٌ مثل إبراهيم وموسىٰ » . ولـٰكنَّ قلبَ حكيم لم يخفقْ لهـٰذا الأمر ، ولم يهتمَّ به ، فقد كان يحبُّ محمَّداً ﷺ ويُصَافيه ، وكان لا يهتمُّ إلا بتجارته وأمواله وبدار النَّدوة التي أصبحتْ له ، والتي كانت الأمورُ القرشيَّة تُعْقَدُ فيها .

* كان الإسلامُ لا يزال سرّاً في صدور المؤمنين به ، وتمرُّ الأيَّام وحبيبنا محمّدٌ ﷺ يقابلُ الرَّاغبين في الإسلام في أماكنَ بعيدة عن أعين السَّادات المكّيين ، وأشراف قريش المرموقين ، وكان ﷺ يتوقَّع من صديقهِ حكيم بنِ حِزام أنْ يأتيَ فَيُسْلِمَ ، فهو من أعيانِ العُقلاء ، وممَّن يتَّصفون بالوفاء ، والحصافة والذّكاء ، بيد أنَّ هـٰذا لم يحدثْ علىٰ الرّغم من الإنذار الإلـٰهيّ للرسول ﷺ الذي جاء يأمرهُ بأنْ يدعوَ إلىٰ الإسلام عشيرته الأقربين ، فاستجاب لله ـ عزَّ وجلَّ ـ من استجاب ، وأعرضَ مَنْ أعرض ، بينما أكل الحقدُ والحسدُ قلوبَ فئةٍ من سادات قريش وكبرائها ، كأُميَّةَ بنِ خلف ، وأُبيِّ بن خلف ، وأبي جهل بن هشام ، والعاصِ بنِ وائل وغيرِهِم من سَدَنَةِ الشِّرك ومسانِدِ الوثنية ، فقد كان هـٰؤلاء الأشرارُ يحسدون رسولَ ٱللهِ ﷺ علىٰ ما آتاه اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ من فضْله ، لخبثِ نفوسهم ، وتكبّرهم ، وتعجبّهم من أنْ يتقدَّم عليهم غلامٌ يتيمٌ ، وخوفهم من أنْ يقوّضَ عليهم سلطانهم المزعوم بدعوته الصَّافية التي اجتذبت إليها صفوة شبابهم ، وخيرة نسائهم ، وزهرة عقلائهم ، وما عرفوا أنَّ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ أعلمُ حيث يجعلُ رسالته ، وبدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر ، وطفقت كلُّ قبيلة تعذّبُ من اعتنقَ الإسلام من أبنائها ومواليها ليرتدُّوا إلىٰ دينِ قريش ، ولـٰكنَّ أعمالَهم تلاشت وتبخَّرت أمام صبْر هـٰؤلاء الأخيار ؛ الذين آمنوا باللهِ الواحدِ القَهَّار ، مكوّرِ الليل علىٰ النَّهار .

* ومن العجيب أنَّ هـٰذه الأمور كانت حديث سَمَرِ قريش في مجالسها ،

وفي غدواتها وروحاتها ، وحلّها وترحالها ، وحكيمٌ لا يبدي شيئاً ، ولا يقاومُ الدَّعوة الإسلاميَّة مع فُجّار المجرمين ، بل إنَّ قريشاً لمَّا قاطعت بني هاشم ؛ وحصروهم في الشِّعْب ، كان لحكيم مواقفُ نبيلةٌ مع المسلمين ، وهٰذه المواقفُ يرويها إبراهيمُ بنُ حمزة ؛ إذ يقول : « كان مشركو قريش لمَّا حَصَروا بني هاشم في الشِّعْبِ ؛ كان حكيمُ بنُ حزام تأتيه العيرُ تحملُ الطَّعام من الشَّام ، فَيُقْبِلُها الشِّعْبَ ، ثمَّ يضربُ أعجازَها ، فتدخلُ عليهم ، فيأخذون ما عليها من الحنطة »[1] .

* وقال الحافظُ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « البداية والنِّهاية » عن حكيمٍ ومساعدته بني هاشم ومحبَّته لآل النُّبوَّة الأطهار : « وكان حكيمٌ ـ رضي ٱللهُ عنه ـ شديدَ المحبَّةِ لرسولِ ٱللهِ ﷺ ، ولمَّا كان بنو هاشم ، وبنو المطَّلب في الشِّعب لا يُبايعوا ، ولا يُناكحوا ، كان حكيمٌ يقْبلُ بالعير يقْدمُ من الشَّام ، فيشتريها بكمالها ، ثمَّ يذهبُ بها فيضربُ أدبارها حتَّىٰ يلج الشّعب ، يحملُ الطَّعامَ والكسوةَ تكرمة لرسولِ ٱللهِ ﷺ ، ولعمَّتهِ خديجةَ بنتِ

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٧) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٤٧) مع الجمع والتَّصرُّف اليسير . وقوله « يُقْبِلُها » : يُقال : أَقْبَلَ الإبلَ الطَّريق : أسْلكها إيَّاه ، ذلك أنْ يجعلَ وجوهَها مستقبلةً وجْهَ الطَّريق . وقوله « الشِّعْب » : الشِّعْب : بالكسْر ، واحد الشِّعاب ، للطَّريق بين جبلَيْن ، أو ما انفجرَ بينهما ، أو مسيل الماء في بطنٍ من الأرض له جرفان مشرفان وأرضه بطحة ، وقد يُضافُ إلىٰ عدد من الأماكن والأسماء . والشّعب الذي حَصَرَتْ فيه قريشٌ بني هاشم عند بدء الدَّعوة يسمَّىٰ شعب بني هاشم ، أو شعب أبي طالب ، أو شعب عليّ . وشعب عليّ وُلدَ به رسولُ ٱللهُ ﷺ ، وبه كان مولدُ سيِّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضي ٱللهُ عنه ـ . ويُقال له كذلك : شعب أبي يوسف وكان منزل بني هاشم ومساكنهم لمَّا تحالفت عليهم قريش ، وكتبوا الصَّحيفة ، ويسمىٰ اليوم شعب عليّ . وفي مكَّة شعابٌ كثيرة منها : شعب آل الأخنس ، وشعب أبي دبّ ، وشعب الرّخم .

خُويلد ـ رضي ٱلله عنها ـ ، وهو الذي اشترىٰ زيدَ بنَ حارثة ، فابتاعته منه عمّته خديجة فوهبتْه لرسولِ ٱلله ﷺ فأعتقه » .

* في تفصيلٍ أكثر ، نجدُ مؤازرةَ حكيم لمن في الشِّعب ، وهٰذا التَّفصيلُ يسوقُه ابنُ إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيقول : « فأقامتْ قريشٌ علىٰ ذلك من أمرهم في بني هاشم ، وبني المطَّلب سنتَيْن أو ثلاثاً ، حتَّىٰ جَهَدَ القومُ جهداً شديداً لا يَصِلُ إليهم إلا سرّاً ، أو مستخفًى ممَّنْ أرادَ صِلَتَهُمْ من قريش ، فَبَلغَني أنَّ حكيم بنَ حزام خرجَ يوماً ؛ ومعه إنسانٌ يحمل طعاماً إلىٰ عمَّته خديجةَ بنت خُويلد ـ رضي ٱلله عنها ـ ، وهي تحتَ رسولِ ٱلله ﷺ ، ومعه في الشِّعب ؛ إذ لقيهُ أبو جهل ، فقال : تذهبُ بالطَّعام إلىٰ بني هاشم ؛ واللهِ لا تبرحُ أنتَ وطعامك حتَّىٰ أفضحكَ عند قريش ، فقال له أبو البَخْتَري بن هاشم بن الحارث بن أسد : تمنعه أنْ يرسلَ إلىٰ عمَّته بطعامٍ كان لها عنده ! فأبىٰ أبو جهل أن يدعه ، فقام إليه أبو البَخْتَري بِسَاقِ بعيرٍ فشجَّه ، ووطئه وطئاً شديداً ، وحمزةُ بنُ عبد المطَّلب ـ رضي ٱلله عنه ـ قريباً يرىٰ ذلك ، وهم يكرهون أنْ يبلغَ ذلك رسولَ ٱلله ﷺ وأصحابَه فيشمتوا بهم ، فقال أبو البَخْتَري بن هاشم في ذلك :

ذقْ يا أبا جَهْلٍ لقيتَ غمَّا … كذلكَ الجَهْلُ يكونُ ذمَّا
سوف ترىٰ عودي إنْ ألمَّا … كذلك اللومُ يعودُ ذمَّا
تعلمُ أنَّا نفرجُ المهمَّا … ونمنعُ الأبلجَ أنْ يَطمَّا » [1]

* لذلك جاء عن ابن عبَّاس ـ رضي ٱلله عنه ـ : أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ قال ليلةَ قربهِ من مكَّة ليلة الفَتْح : « إنَّ بمكَّةَ لأربعة نَفَرٍ من قريش أَرْبَأُ بهم عن الشِّرك ، وأرغبُ لهم في الإسلام » .

قيل : ومَنْ هم يا رسول ٱلله ؟

---

(١) « السِّير والمغازي » (ص : ١٦٠ ـ ١٦١) تحقيق الدكتور سهيل زكّار ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط : ١ ـ ١٩٧٨ م .

قال : « عتّابُ بنُ أسيد ، وجبيرُ بنُ مطعم ، وحكيمُ بنُ حزام ، وسهيلُ بنُ عمرو »[1] .

* قال الإمام الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « سِيَرِهِ » : « قُلْتُ : أسلموا وحسُنَ إسلامهم »[2] .

* ومن الملفت للنَّظر في السِّيرة الحكيميَّة الحِزاميَّة اللطيفة أنَّ هٰذا السَّيِّد المفضال كان يشهدُ بعضَ مجالس الإجرام التي تقومُ بها قريش ضدَّ رجال الإسلام ، ومنها حضوره في التَّنعيم مقتل خُبيب بن عديّ[3] ، وخافَ يومها الدَّعوة الخُبيبيَّة ،عندما قال : « اللهمَّ أحصِهم عدداً ، واقتُلْهم بدداً ، ولا تغادر منهم أحداً » ، ويومها قال حكيمٌ : « لقد رأيتني أتوارىٰ بالشَّجَر فَرقاً من دعوةِ خُبيب ـ رضي ٱلله عنه ـ »[4] .

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٧) ، وقد علّق محقّقنا الجزء الثّالث من « سير أعلام النُّبلاء » علىٰ الحديث بقولهما : « فيه مجهول وضعيفان » .

(٢) « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٤٧) . وقال هشامُ بنُ عروة عن أبيه : « إنَّ أبا سفيان ، وحكيمَ بنَ حزام ، وبديلَ بنَ ورقاء ، أسلموا ، وبايعوا ، فبعثَهم رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ أهل مكَّةَ يدعونهم إلىٰ الإسلام » . « تهذيب التَّهذيب » (٢ / ٤٤٧) .

(٣) اقرأ سيرة خبيب بن عديّ في الباب الثَّاني من هٰذه الموسوعة الأنيقة ، فالسِّيرةُ الخُبيبيَّة زادٌ للصَّابرين المحبين .

(٤) انظر : « المغازي » (١ / ٣٥٩) . وقد سجَّل عددٌ من أعيانِ قريش اعترافاتِهم يومَ مقتل سيِّدنا خبيب بن عدي ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ومنهم سيِّدنا معاويةُ بنُ أبي سفيان ـ رضي ٱلله عنهما ـ قال : « لقد حضرتُ دعوتَه ، ولقد رأيتني وإنَّ أبا سفيان ليضجعني إلىٰ الأرض فرقاً من دعوة خُبيب ، ولقد جَبَذَني يومئذ أبو سفيان جبذةً ، فسقطتُ علىٰ الأرض ، فلم أزلْ أشتكي السَّقطة زماناً » .

وقال حُويطبُ بنُ عبد العزَّىٰ : « لقد رأيتني أدخلتُ إصبعيَّ في أُذنيَّ ، وعدوتُ هرباً ، فَرَقاً أنْ أسمعَ دعاءه » . =

دوره في غزوة بَدْر :

* قُلْنا ما مفادُهُ وفائدته : « كان من المتوقَّع من رجلٍ حصيفٍ نبيهٍ عاقلٍ لبيبٍ مِقْدامٍ ، مثل حكيم بن حزام ، أنْ يكونَ من السَّابقين الأوَّلين إلىٰ دوحةِ المعالي والمكارم وشجرة الإسلام ، ومن المؤمنين المصدِّقين بدعوة رسول الله ﷺ ذات الهدف الرّشيد ؛ والهديِّ السَّديد ، فهناك آصرةُ قُربىٰ تدعوهُ إلىٰ هـٰذا الشَّرف التَّليد والعزِّ المفيد ؛ والخير العميم ، والفَضْل الجسيم ، بيد أنَّ عنايةَ ٱلله ومشيئتَه ادّخرتْهُ ليوم دخل النَّاس في دين ٱلله أفواجاً ، فكانوا من المفلحين ، ومن النَّاجين ، بهـٰذا الدِّين العظيم الذي ارتضاه اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لعباده ؛ إذ إنَّ اللهَ ـ جلَّ شأنه ـ لا يرضىٰ لعباده الكُفْر » .

* ومن اللطائف المفيدة أنَّ سيِّدنا حكيماً ـ رضوان ٱلله عليه ـ كان يعجب من نفسه لتأخّر إسلامه مع أنَّه كان يعرفُ الحقَّ ويعرف أنَّ محمَّداً رسولُ ٱلله حقّاً ! ولـٰكنَّها المشيئة الإلـٰهيَّة التي جعلته كلَّما تذكَّر عدم دخوله في الإسلام مبكِّراً اغرورقتْ عيناهُ بالدّموعِ ، واخلولقَ يبكي علىٰ المواطنِ الصَّالحة التي فاتته ، وهو منغمسٌ بآراء الآباء والكبراء من قومه ، ممَّن أكل الدَّهرُ عليهم وشرب .

* ذكـر ابـنُ الجـوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ نقـلاً عـن ابـن سعـد : « أنَّ حكيـمَ بـنَ

= وقال جبيرُ بنُ مطعم : « لقد رأيتني يومئذٍ أتستَّر بالرِّجال فرقاً من أن أُشرف لدعوته » .

وقال الحارثُ بنُ بَرْصاء : « واللهِ ، ما ظننتُ أنْ تغادرَ دعوة خُبيب منهم أحداً » .

وقال نوفلُ بنُ معاويةَ الدّيليّ : « كنتُ قائماً ، فأخلدتُ إلىٰ الأرض فرقاً من دعوته ، ولقد مكثتْ قُريشٌ شهراً أو أكثر ، وما لها حديثٌ في أنديتها إلا دعوة خبيب » .

حزام ـ رضي ٱلله عنه ـ بكىٰ يوماً ، فقال له ابنُه : ما يبكيكَ ؟ قال : خصالٌ كثيرة كلُّها أبكاني ، وجعلْنَنِي أتقلَّبُ في أحزاني :

أمّا أوّلُها : فبطءُ إسلامي حتَّىٰ سُبقْتُ في مواطنَ جميعها صالحة وفيها الفلاحُ والنَّجاحُ والنَّجاةُ ، ولو أنفقتُ ما أنفقتُ لما بلغتُ من ثوابها وفضلها شيئاً .

وأمّا ثانيها : فقد نجوتُ يومَ بَدْرٍ ، ويوم أحد ، فقلتُ معاهداً نفسي : لا أخرج أبداً من مكّة ، ولا أخرجُ مع قريش ما بقيتُ .

وثالثها : أقمتُ بمكّة ، ويأبىٰ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يشرحَ صدري للإسلام ، وذلك أنِّي أنظرُ إلىٰ بقايا من قريشٍ لهم أسنانٌ ـ كبار في السِّنِّ ـ متمسِّكين بما هُمْ عليه من أمرِ الجاهليّة الرَّعناء ، فأقتدي بهم ، وأكونُ إمّعةً معهم ، فياليْتَ أنِّي لم أقتدِ بهم ، فما أهلكنا إلا الاقتداءُ بآبائنا وكبرائنا ، فهٰذا الذي أبكاني وأضناني يا بنيّ » [1] .

* كان سيِّدنا حكيم ـ رضي ٱلله عنه ـ يتذكَّر يوم أن دخلوا دار النَّدوة ليتشاوروا في أمر رسولِ ٱلله ﷺ ، كان ذلك اليوم يسمَّىٰ يوم الزَّحمة [2] ، وقد اجتمع فيه أشرافُ قريش وتآمروا علىٰ الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، ولٰكنَّ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ نصَرَهُ عليهم وهاجرَ إلىٰ المدينةِ المنوَّرة فائزاً منصوراً .

* وها هي ذي قريش اليوم وقد مرّت الأيّامُ تَشْتَوِر في أن تخرجَ إلىٰ بدر وتقاتلَ محمَّداً ﷺ وتقضيَ علىٰ الدَّعوة الإسلاميّة ، وتريد أنْ تطفئَ نور ٱلله بأفواهها وسلاحها ، ولٰكنَّ ٱلله متمّ نوره ولو كَرِهَ المشركون المجرمون .

---

(١) « صفة الصَّفوة » (١ / ٧٢٦ ـ ٧٢٧) بشيء من التَّصرُّف .

(٢) انظر : « البداية والنِّهاية » (٣ / ١٧٥) وما بعدها ، تجد تفصيل الهجرة النَّبويَّة كاملة .

* كان حكيمُ بنُ حزام من الكارهين لهٰذه الحرب مع النَّبيِّ ﷺ ، وكان يبثُّ شجونَه بصدقٍ وأسفٍ ويقول : « ما وجّهت وجهاً قطّ كان أكره لي من مسيري إلىٰ بدر ، ولا بان لي في وجْه قطُّ ما بان لي قبل أن أخرج . قدم ضمضمُ بنُ عمرو فصاح بالنَّفير ، فاستقسمتُ بالأزلام ، كلُّ ذلك يخرجُ الذي أكره ، ثمَّ خرجتُ علىٰ ذلك حتَّىٰ نزلنا مرَّ الظّهران ، فنحر ابنُ الحنظليَّة ـ أبو جهل ـ جُزُراً ، فكانت جَزورٌ منها بها حياة ، فما بقي خباءٌ من أخبية العسكر ، إلا أصابه من دمها ، فكان هٰذا بيِّناً[(١)] ، ثمَّ هممتُ بالرُّجوع ، ثمَّ أذكرُ ابنَ الحنظليَّة وشؤْمَه ، فيردّني حتَّىٰ مضيتُ لوجهي » .

* ويتابعُ سيِّدنا حكيمٌ قصَّةَ خروجه إلىٰ بدر ، وما حدثَ معه من مفاجآت في الطَّريق إلىٰ بَدْر فيقول : « لقد رأيتنا حين بلغنا الثَّنيَّة

---

(١) خرجت قريش يسوقُها الغرورُ الفاجر ، معهم السِّلاح والمؤن ، والتَّرف الدَّاعر من الخمور والملاهي والمغنيات ، يقودهُم اللعينُ الفاسقُ أبو جهل ابن الحنظليَّة ، ويسوقُهم إلىٰ مصارعهم وحتوفهم ، ويزينُ لهم الخروج وهم لا يشعرون بما هم مقدمون عليه ، وكان يَعِدهُم في غرورٍ أحمق ، واستكبار متغطرس ، وفجورٍ حاقد قائلاً : واللهِ لا نرجعُ حتَّىٰ نَرِدَ بدراً ، فنقيم عليه ثلاثاً ، ننحرُ الجزور ، ونُطعمُ الطَّعام ، ونُسقىٰ الخمر ، وتعزفُ علينا القيان ، وتسمعُ بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبداً ، فامضوا . ومضىٰ القومُ التَّائهون مع الفاسق أبي جهل كالجمل الذَّليل ، يقودُهم بزمام النَّعرة الفاجرة الحمقاء ، واستخفَّهم فأطاعوه ، ومضوا وراءَه ذُللاً أذلاَّءَ ، لا يملكون معه إرادةً ، ولا يستطيعون لقوله ردّاً ، فخرَّب عليهم حياتهم ومعادهم ، و﴿ هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنعام : ٤٧] . لقد ضلَّ ابن الحنظليَّة وأضلَّ ، وتكبَّر وتجبَّر ، وكان أسوأَ دليلٍ لجماعته ولمنْ ضوىٰ معه :

ومَنْ يكُنِ الغُرابُ لهُ دليلاً ... يمرُّ بهِ علىٰ جِيَفِ الكلابِ

اللهمَّ اجعلنا ممَّن آمنَ وأصلحَ ، واجعلنا من الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ، واعفُ عنَّا بفضلك ومنّك ؛ فرحمتك وسعتْ كلَّ شيء وأنتَ الغفَّار العليم .

البيضاء ـ والثَّنية البيضاء التي تُهبطك علىٰ فخٍّ وأنتَ مقبلٌ من المدينة ـ إذا عدّاسٌ جالسٌ عليها والنَّاسُ يمرّون ؛ إذ مرَّ عليه ابنا ربيعة ، فوثبَ إليهما ، فأخذَ بأرجلهما في غرزهما ، وهو يقولُ : بأبي وأمّي أنتما ، واللهِ إنَّه رسولُ ٱلله ! وما تُساقان إلاَّ إلىٰ مصارعكما ! وإنَّ عينَيْه لتسيل دموعهما علىٰ خدّيه ، فأردتُ أنْ أرجعَ أيضاً ، ثمَّ مضيتُ ، ومرَّ به العاصُ بنُ منبّه بن الحجَّاج ، فوقف عليه حين ولّىٰ عتبة وشيبة ، فقال : ما يبكيك ؟

فقال : يبكيني سيّدايّ وسيّدا أهل الوادي ، يخرجان إلىٰ مصارعهما ، ويقاتلان رسول ٱلله ﷺ .

فقال العاص : وإنَّ محمَّداً رسولُ ٱلله ؟

فانتفضَ عدَّاسٌ انتفاضةً شديدةً ، واقشعرَّ جلده ، ثمَّ بكىٰ وقال : إي وٱلله ! إنَّه لرسول ٱلله إلىٰ النَّاس كافّة ، فأسلم العاص بن منبّه ، ثمَّ مضىٰ وهو علىٰ الشَّكِّ حتَّىٰ قُتِلَ مع المشركين علىٰ شكٍّ وارتياب »[١] .

* وذكر مصنِّفو السِّيرة والمغازي بأنَّ قريشاً قد كرهت المسير إلىٰ محاربةِ رسولِ ٱلله ﷺ ـ وخصوصاً أهل الرّأي منهم والعقل والحلْم ـ ومشىٰ بعضُهم إلىٰ بعض ، وكان من أبطئهم : حكيمُ بنُ حزام والعاصُ بنُ منبّه ، وعتبةُ بنُ ربيعة[٢] وغيرهُم ، غير أنَّ أبا جهل[٣] قبَّحه ٱلله وأخزاه أخذَ يُعَيِّرهم بالجبن ، ويبكِّتهم علىٰ التَّخلُّف ، وأعانه علىٰ الخروج لَعِيْنَا الكفْر والوثنيَّة : عقبة بن

---

(١) انظر : « المغازي » للواقديّ (١ / ٣٤ ـ ٣٥) .

(٢) اقرأ سيرةَ عتبةَ بن ربيعة في كتابنا : « المبشَّرون بالنَّار » (ص : ٧١ ـ ٩٧) ، دار ابن كثير ـ ط : ٢ ـ ٢٠٠١ م .

(٣) اقرأ سيرة الحقود الحسود أبي جهل بن هشام في كتابنا : « المبشَّرون بالنَّار » (ص : ١٣ ـ ٤٤) ، ولاحظ كيف كانت نهاية هـٰذا الكافر الفاجر ، وكيف صبرَ عليه رسول ٱلله ﷺ .

أبي معيط [1] ، والنَّضْر بن الحارث [2] ، وأخذ جميعُهم يقولون لكارهي الحرب والخروج إلىٰ بدر : « ويحكم ! هـٰذا فعل النِّساء » فأجمعوا عندئذٍ المسير ، وخرجُوا حتَّىٰ نزلوا بدراً ، ومعهم حكيمُ بنُ حزام الذي أحزنَه هـٰذا الخروج ، ولـٰكنَّ تغريرَ اللعين أبي جهل جرّهم واستدرجهم إلىٰ هـٰذه المعركة التي أخزاهم ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ فيها .

* ولمَّا نزلتْ قريش قُريب بدر ، بعثت عميرَ بنَ وهب الجمحيّ ليحزِرَ لهم عدد رجالِ المسلمين وأبطالهم ، فرجع إليها محذّراً من محاربةِ جند ٱلله الذين تحيطُ بهم الهيبةُ وقال : « رأيتُ يا معشرَ قريش البلايا تحملُ المنايا ، نـواضـح يثـرب تحمـلُ المـوت النَّـاقـع ، قـوم ليـس لهـم منَعَـةٌ ، ولا ملجأ إلا سيوفهم ، واللهِ ما أرىٰ أنْ يُقْتَل منهم رجلٌ حتَّىٰ يَقْتُلَ رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك ، فَرُوا رأيكم » ـ أي : فكِّروا واحزموا أمركم فيما تورطتم فيه من مأزق مأزوم خطر ـ .

* سقطت هـٰذه الكلماتُ علىٰ سمع حكيم بن حزام ، وصُبَّت في روعه صبّاً ـ وكان حكيمٌ من أعقلِ رجالاتهم وقد نوَّفَ عن ستِّين عاماً ـ فتخيَّلَ حكيمٌ الطامَّةَ الكبرىٰ ، والخسارةَ العُظمىٰ التي ستنزلُ بقريش إذا هي ركبتْ ظهر الشَّيْطان ، واتَّبعت ذلك الغرور الفاجر الذي يمشي به في قريش محرضاً الفاسقُ الخبيثُ أبو جهل ابن الحنظليَّة ؛ فأسرع حكيمُ بنُ حزام وأتىٰ عتبةَ بنَ ربيعة في مكانه ـ وكان عتبةُ من عقلاء قريش ـ فقال له : « يا أبا الوليد ، إنَّك كبيرُ قريش وسيِّدها المُطاع فيها ، هل لك إلىٰ أنْ لا تزالُ تُذكرُ فيها بخير إلىٰ آخر الدَّهْر ؟ » ـ وعتبة يومئذ رئيس النَّاس ـ .

---

(١) اقرأ سيرة هـٰذا المجرم الأثيم عقبة بن أبي معيط في كتابنا : « المبشَّرون بالنَّار » (ص : ١٤٠ ـ ١٥٩) ، ولاحظ كيف كبته ٱلله وأخزاه وأذله وقصمه .

(٢) اقرأ سيرة الخبيث الفاجر النَّضر بن الحارث في كتابنا : « المبشَّرون بالنَّار » (ص : ٣٣٢ ـ ٣٤٩) ، ولاحظ كيف أوقعه كفره وافتراؤه في حفرة الموت .

فقال عتبة متعجّباً : « وما ذاك يا حكيم ؟ ! » .

قال حكيمٌ في هدوء وتعقُّل : « يا أبا الوليد ! ترجعُ بالنَّاس ، وتحملُ دِيةَ حليفك عمرو بنِ الحضرميّ .

قال عتبةُ علىٰ الفور : « قد فعلتُ يا أبا خالد ، أنتَ عليَّ بذلك ، إنَّما هو حليفي ، فعليَّ عَقْله ، وما أصيب من ماله ، فأتِ ابن الحنظليَّة - يعني : أبا جهل ، والحنظليَّة أمّه - فإني لا أخشىٰ أن يسجِّر - أو يشجر - أمر النَّاس غيره » .

* والآن ؛ لنأخذ قسطاً من الرَّاحة ، ولننتعشْ بزهرِ هٰذه التَّغريدة التي تشيرُ إلىٰ حكيمِ بنِ حِزام ؛ وسعيه بالصُّلح وأنْ تعودَ قريشٌ دون قتال ، تقول التَّغريدةُ :

أمَّا حكيمٌ فهو من خَيرِ الرِّجال المشركين
فأتىٰ لعتبةَ قال أنتَ من الرِّجال الحازمين
إنْ كنتَ ترجو أنْ تنالَ المجدَ بين الخالدين
فارجعْ بقومك أنتَ سيِّدهم وخيرُ المصلحين
واحملْ لِعَقْلِ حليفك ابن الحضرميّ ليستكين
فأجابَ عتبة في هدوءٍ كان ذا عَقْلٍ فطين
إنِّي لرأيكَ مستجيبٌ نِعْمَ رأيُ المخلصين
ولسوفَ أحملُ عَقْل ابنَ الحضرميّ فَلَنْ يُبين
فاذهبْ لابنِ الحنظليَّة واستشرْهُ لِتَسْتَبين
إنِّي لأخشىٰ أنْ يثير القومَ للثَّأر المشين
هو لا يحبُّ الخير دوماً ذاك طبعُ المفسدين
فإذا أجاب لما تقولُ فسوف نرجعُ سالمين [1]

---

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ١٩٦) بانتقاء . وقوله « واحملْ لِعَقْلِ =

* ثمَّ قام عتبةُ يخطبُ النَّاس ، ويدعو إلىٰ السَّلام ، ويحذِّرُ من الانقياد وراء أبي جهل الذي أفسدَ علىٰ النَّاس أمرهم فقال : « يا معشرَ قريش ! إنَّكم واللهِ ما تصنعون بأنْ تلقوا محمَّداً وأصحابه شيئاً ، واللهِ لئن أصبتموه لا يزال الرَّجل ينظرُ إلىٰ وجه رجل يكرهُ النَّظر إليه ، قَتَل ابن عمّه ، أو ابنَ خاله ، أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلّوا بين محمَّد وسائر العرب ، فإنْ أصابوه فذلك الذي أردتم ، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون ، يا قوم ! لا تردُّوا نصيحتي ، ولا تُسفِّهوا رأيي » .

* قال حكيمُ بنُ حزام : « فانطلقتُ حتَّىٰ جئتُ أبا جهل بن هشام ، فوجدته قد نَثَلَ دروعاً يهنؤها ، فقلتُ له : يا أبا الحكم ! إنَّ عتبةَ بنَ ربيعة أرسلني إليك بكذا وكذا . . . وقصصتُ عليه الأمر .

فقال : انتفخَ واللهِ سَحْره حين رأىٰ محمَّداً وأصحابه ، فلا واللهِ لا نرجعُ حتَّىٰ يحكمَ اللهُ بيننا وبين محمَّد ، وما يعنيه ـ أي : عتبة ـ ما قال ، ولٰكنَّه رأىٰ محمَّداً وأصحابه ، أكلة جزور ، وفيهم ابنه ـ أي : أبو حذيفة بن عتبة ، وكان من السَّابقين الأوَّلين إلىٰ الإيمان ـ فقد تخوَّفكم عليه » [1] .

= حليفك » : أي : تحمل ديته . و« فلن يُبين » : لن يتكلَّم . و« ابن الحنظليَّة » : هو أبو جهل بن هشام . و« نرجع سالمين » : دون قتال أو حرب .

(١) « تاريخ الطّبريّ » (٢ / ٣١) ، و« المغازي » (١ / ٦٣ ـ ٦٤) مع الجمع والتَّصرُّف .

وهٰذه تغريدةٌ ماتعةٌ ترسمُ بقوافيها العِذاب ملخَّص الفقرة السَّابقة فتقول :

هٰذا حكيمٌ قد أتىٰ من عند عتبةَ بالصَّواب
فأتىٰ لابنِ الحنظليَّةِ كيْ يرىٰ منه الجواب
فرآه ينشرُ دِرْعَهُ للحرب للشَّرِّ استجاب
ناداهُ بالقولِ المحبَّب والتَّودُّد في الخطاب
إنِّي أتيتُكَ حيثُ إنَّك سيِّدُ القوم المهاب =

* وكان أبو جهل قد حسدَ عتبةَ بنَ ربيعة حسداً كاد أنْ يأكل قلبَه حين سمعه يخطبُ النَّاس وقال : « إن يرجع النَّاسُ عن خطبة عتبة ، يكنْ سيِّدَ الجماعة » ـ وعتبةُ أنطقُ النَّاس ، وأطولُهم لساناً ، وأجملُهم جمالاً ـ .

* ومن غريب الأمر أنَّ عتبةَ كان قال لقريش وهو يناجيهم مناجاة النَّاصح ، ويضعُ أعينَهم علىٰ مواطنِ الخطر ويقولُ في حرارةٍ ممزوجةٍ بالحسرة : « أنشدُكم اللهَ في هٰذه الوجوه التي تبدو كأنَّها المصابيحُ ، أنْ تجعلوها أنداداً لهٰذه الوجوه التي كأنَّها وجوه الحيَّات »[1] ، فسخر منه أبو جهل ، وعيَّره بالجبْنِ الشَّديد ، فغضبَ عتبةُ غضَباً شديداً ؛ وردَّ علىٰ أبي جهل بعنفٍ وتوبيخٍ وتبكيتٍ قائلاً له : « ويحك ! ستعلم أيَّنا أجبن وألأَم ، وستعلم قريش مَن الجبان المفسد لقومه ! وأنشد :

هــلْ جبــانٌ وأمــرتُ أمْــري فَبَشِّــري بــالثُّكْــل أُمَّ عمــرو »[2]

* وتذكر سيرةَ حكيم بن حزام صُوراً طريفة من وقائع الغزوة البدريَّة ، وتدلُّ علىٰ الدَّور الأنيق الرّفيق الذي قام به حكيمُ بنُ حزام ذلك اليوم فتقولُ

= والــرَّأي عنــدك مُنْتَهــاهُ بغيــر شــكٍّ وارتيــاب
قــد جئْــتُ عتبــةَ قــال إنَّ الخيــرَ حقّــاً فــي الإيــاب
الحــربُ ليــس وراءهــا إلا الــدَّمــارُ أو الخــراب
مــاذا تــرىٰ فــي قــول عتبــة إنَّــه حقّــاً أصــاب
فــأجــابَــهُ فــي غِلْظَــةٍ بــل نــال عتبــةَ بــالسّبــاب
بــل قــال عنــه بــأنَّــه أمســىٰ بِهَــمٍّ واضطــراب
يخشــىٰ علــىٰ قَتْــل ابنــهِ فــي الصَّــابئيــن ولــن يُجــاب
كــلا فــإنَّــا لــن نعــودَ بغيــر حــرب أو ضــراب
حتَّــىٰ نــرىٰ حُكْــمَ الإلــه ومَــنْ يكــونُ لــه الحســاب

(١) « المغازي » (١ / ٦٤) .

(٢) « المغازي » (١ / ٦٤) .

ما خلاصتُه : « كلّم عتبةُ بنُ ربيعة حكيمَ بنَ حِزام ، فقال : ليس عند أحدٍ خِلافٌ إلا عند ابن الحنظليّة ؛ اذهبْ إليه فقلْ له : إنَّ عتبةَ بنَ ربيعة يحملُ دمَ حليفه ، ويضمنُ العير .

قال حكيمٌ : فدخلتُ علىٰ أبي جهل وهو يتخلَّقُ بخلوق [1] ، ودرعهُ موضوعةٌ بين يديه ، فقلت : إنَّ عتبةَ بعثَني إليك . فأقبل عليَّ مغضباً ، فقال : أما وجَدَ عتبةُ أحداً يرسلُه غيرك ؟

فقلت : أما وٱللهِ لو كان غيره أرسلني ما مشيتُ في ذلك ، ولـٰكنْ مشيتُ في إصلاحِ بين النَّاس ، وكان أبو الوليد سيِّد العشيرة . فغضبَ أبو جهل غضبةً أخرىٰ فقالَ : وتقولُ أيضاً سيِّد العشيرة ؟ !

فقلتُ : أنا أقولُه ؟ قريشٌ كلُّها تقولُه !

وجعل أبو جهل يحرِّضُ عامرَ بنَ الحضرميّ وبعضَ سفهاء المشركين بأنْ يغمزوا من قناةِ عتبة ، ففعلُوا ، وسُرَّ أبو جهل بما صنع المشركون بعتبة .

قال حكيم : فجئتُ إلىٰ منبِّه بن الحجَّاج ، فقلتُ له مثل ما قلتُ لأبي جهل ، فوجدته خيراً من أبي جهل ، قال لي : نِعْمَ ما مشيتَ فيه ، وما دعا إليه عتبة ! فرجعتُ إلىٰ عتبةَ فوجدته قد غضبَ من كلام قريش ، فنزلَ عن جمله الأحمر ، وقد طافَ عليهم في عسكرهم يأمرهُم بالكفِّ عن القتال ، فيأبون . . . . فحمي ، ولبس درعه » [2] .

* قال الواقديُّ : « وأقبل عتبةُ يعمدُ إلىٰ القتال ، فقال له حكيمُ بنُ حِزام : أبا الوليد ، مهلاً ، مهلاً ، تنهىٰ عن شيءٍ وتكون أوَّله ؟ ! » [3] .

---

(١) « **الخلوق** » : نوع من الطِّيب .

(٢) « المغازي » (١ / ٦٥ ـ ٦٦) ، و« تاريخ الطَّبريّ (٢ / ٣١) مع الجمع والتّصرّف .

(٣) « المغازي » (١ / ٦٧) .

* ونشبت المعركةُ ، فكان عتبةُ من أوائل المقتولين مع ثلّة من كبار الفجّار والمجرمين ، ولٰكنْ أين كان حكيم ؟ وما مصيرُهُ يوم بدر ؟

نجاتُـهُ يومَ بَـدْر :

* انجلت معركةُ بدرٍ عن نصرٍ مؤزّر للمسلمين ؛ إذ لم تمضِ سحابةُ النّهار ، حتّىٰ لاذَ المشركون بالفرار ؛ وتركوا في أرضِ المعركةِ غنائمَ كثيرةً ، فلحقتْ بهم طائفةٌ من رجال المسلمين وأبطالهم يقتلُون فريقاً ، ويأسرون آخرين ، بينما بقيت ثلّةٌ من كبار الصّحابة حول الحبيب المصطفىٰ ﷺ يحمونَه ويحرسونَه لئلا يصيبَ العدوُّ منه غرّة .

* تضافرت رواياتُ السِّيرة النّبويّة وذكرتْ بأنَّ سبعين صنديداً من المشركين قد لَقُوا حتْفَهم في معركة بدر ، وجلّهم من رؤوس الضّلال وزعماء الكفر ، وسقطَ في الأسر سبعون آخرون ، بينما لاذَ بالفِرار الباقون ؛ وكانوا قرابةَ ثمان مئة رجل ؛ وشردوا في الجبال والصّحارىٰ لا يلوون علىٰ شيءٍ ، وكان من بينهم حكيم بن حزام الذي نجا علىٰ فرسٍ له مع مجموعة من قومه يَعْدُون عَدْو الظّليم ، وأخذوا يروون لمن خلفهم أنَّ الظُّلم مرتعُه وخيمٌ .

* وتقول عددٌ من الرِّوايات بأنَّه أقبل نفرٌ من قريش ، حتّىٰ وردوا حوضَ رسول ٱلله ﷺ ، فيهم حكيمُ بنُ حِزام علىٰ فرسٍ لهُ فأراد المسلمون تنحيتَهم وإبعادَهُم وطردهم ، فقال رسولُ ٱلله ﷺ لأصحابه : « دعوهم » ، فوردُوا الماء ، فشربوا فما شربَ منهم رجلٌ إلا قُتِلَ يومئذ ، إلاَّ ما كان من حكيم بن حِزام ، فإنَّه لم يُقتلْ ، نجا علىٰ فرس له يُقال له : « الوجيه » ، وأسلم بعد ذلك ، فحسُنَ إسلامه ، فكان إذا اجتهدَ في يمينهِ قال : « لا والذي نجّاني يوم بدر » [1] .

---

(١) « تاريخ الطّبريّ » (٢ / ٣٠) ، و« المغازي » (١ / ٦١) مع الجمع بينهما . وعن نجاة حكيم يوم بدر يقول الحافظُ ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللهُ ما خلاصته : « كان =

* وعن التّابعي الجليلِ سعيدِ بنِ المُسَيِّب رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال : « نجا حكيمُ بنُ حِزام من الدَّهْر مرّتَيْن لِما أراد اللهُ به من الخير : خرجَ رسولُ ٱلله ﷺ علىٰ نَفَرٍ من المشركين ، وهم جلوسٌ يريدونه ، فقرأ : ﴿يسٓ﴾ ونَثَرَ علىٰ رؤوسهم التُّراب ، فما انفلت منهم رجلٌ إلا قُتل إلا حكيم ؛ وورِدَ الحوضَ يوم بدر ، فما وردَ الحوض يومئذٍ أَحَدٌ إلا قُتِل ، إلا حكيمٌ »[1] .

* وعن فرار حكيم بن حزام يوم بدر علىٰ فرسه ، يسجّلُ سيِّدنا حسَّان بن ثابت ـ رضي ٱلله عنه ـ هـٰذه القصيدة التي ترسمُ كيف نجا حكيم ، وألقىٰ سلاحَه ، وهو يطلبُ النَّجاة خائفاً من سيوفِ الأنصار ، ومن رماحِ المؤمنين الكرَّار ؛ فيقول :

نجَّىٰ حكيماً يومَ بدرٍ ركْضُه ... كَنَجاءِ مُهْرٍ من بناتِ الأعْوَجِ
ألقىٰ السِّلاحَ وفرَّ عنها مُهْمَلاً ... كالهِبْرِزيِّ يَزِلُّ فوقَ المِنْسَجِ
لمَّا رأىٰ بدراً تسيلُ جِلاهُها ... بكتائبٍ م الأوسِ أوْ م الخَزْرَجِ
صُبُرٍ يُسَاقون الكماةَ حُتوفَها ... يمشون مَهْيَعَةَ الطَّريقِ المِنْهَجِ[2]

= حكيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ قد شهد مع المشركين بدراً ، وتقدَّمَ إلىٰ الحوضِ ، فكاد حمزةُ بنُ عبد المطّلب ـ رضي ٱلله عنه ـ أنْ يقتلَه ، فما سُحِبَ إلا سحباً بين يديه ، فلهـٰذا كان إذا اجتهدَ في اليمين يقول : لا والذي نجّاني يوم بدر . . . . وكان من سادات قريش وكرمائهم وأعلمهم بالنَّسب ، وكان شديد المحبّة لرسول ٱلله ﷺ ، ومع هـٰذا ما أسلم إلا يوم الفتح هو وأولاده كلُّهم ، وكان كثير الصَّدقة والبرِّ والعتاقة بعد إسلامه ، وكانت له دار النَّدوة وهي بمنزلة دار العَدْل فباعها وجعل ثمنها في سبيلِ اللهِ تعالىٰ » . « البداية والنِّهاية » (٨ / ٦٨ ـ ٦٩) بشيءٍ من التَّصرُّف .

(١) « المغازي » (١ / ٦١) .

(٢) « ديوان حسّان بن ثابت الأنصاريّ » (١ / ١٨٧) طبعة دار صادر . وقوله « الأعوج » : الأعوج فرس مشهورة لبني هلال بن عامر بن صعصعة ؛ أما فرس حكيم بن حزام فاسمه : الوجيه . و« فرَّ عنها » : أراد عن بدر . و« الهِبْرِزي » : الحازم من الرِّجال هـٰهنا . و« جلاها » : جلهتا الوادي : ضفّتاه . =

* وقال من قصيدة أخرىٰ يذكر فرار حكيم يوم بدر ويخاطب قريشاً :

وفـــرَّ حكيـــمٌ خشيـــةً مـــن رمـــاحنـــا ... علـــىٰ ســـابـــحٍ غَـــرْبٍ بعيـــدِ التَّـــردُّد
فكيـــفَ رأيتُـــمْ يـــومَ بـــدرٍ ضِـــرابَنـــا ... وإقْـــدامَنَـــا والخيـــلُ لـــم تتبـــدَّد [1]

* ولهُ في الموضوع ذاته داليَّةٌ أخرىٰ منها قولُه :

لقـــد علمـــتْ قـــريـــشٌ يـــومَ بـــدرٍ ... غـــداةَ الأَسْـــرِ والقَتْـــلِ الشَّـــديـــدِ
بـــأَنَّـــا حيـــنَ تشتجـــرُ العَـــوالـــي ... حُمـــاةُ الـــرَّوعِ يـــومَ أبـــي الـــوليـــد
قَتَلْنَـــا ابنَـــي ربيعـــةَ يـــومَ ســـاروا ... إلينـــا فـــي مضـــاعفَـــةِ الحـــديـــدِ
وفَـــرَّ بهـــا حكيـــمٌ يـــومَ جـــالَـــتْ ... بنـــو النَّجَّـــار تخطـــرُ كـــالأســـودِ [2]

* ويروي سيِّدنا حكيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ شيئاً من ذكرياته عن يوم بدر ، فيقول : « لقد رأيتنا يوم بدر ، وقد وقعَ بِجادٌ ـ كسَاء ـ من السَّماء ، قد سدَّ الأفق ، فإذا الوادي يسيلُ نملاً ، فوقع في نفسي أنَّ هـٰذا شيءٌ من السَّماء أُيِّدَ به محمَّد ﷺ ، فما كانت إلا الهزيمةُ ، وهي الملائكةُ » [3] .

* وعن أبي بكر بنِ سُليمان بن حثمةَ عن حكيمِ بنِ حزام قال : « لمَّا

= و« مهيعة » : واضحة . يريد : إنَّهم لا يختلون أعداءهم ، ولـٰكنهم يكاشفونهم ؛ لأنَّهم شجعان .

(١) « ديوان حسَّان » (١ / ٤١٧) بانتقاء . وقوله « بعيد التّردّد » : أي : لا يرجع يبعد عن طريقه في جريه ، ولا ينتكث عنه .

(٢) المصدر السَّابق (١ / ١٨٠) . وقوله : « أبي الوليد » : عتبة بن ربيعة . و« ابني ربيعة » : عتبة وشيبة .

(٣) « المغازي » (١ / ٨٠) . وأخرج الحاكم في « المستدرك » بسنده عن سيّدنا حكيم بن حزام قال : « لقد رأيتني يومَ بدر ، وقد وقع بالوادي بخارٌ من السَّماء ، قد سدَّ الأفق ، فإذا الوادي يسيلُ ماءً ، فوقعَ في نفسي أنَّ هـٰذا شيءٌ من السَّماء ، أُيِّدَ به محمَّـدٌ ﷺ ، فمـا كـانـت إلا الهـزيمـةُ ، وكـانـت المـلائكـةُ » . « المستـدرك » (٣ / ٥٥١) برقم : (٦٠٤٩) .

كان يوم بدر ، أمرَ رسولُ ٱللهِ ﷺ ، فأخذ كفّاً من الحصْبَاء ، فاستقبلنا به ، فَـرمَـانـا بهـا ، وقـال : « شـاهـتِ الـوجـوهُ » فـانهـزمنـا ، فـأنـزلَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾ [الأنفال : ١٧] [1] .

* وكان حكيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ يقول : « انهزمنا يوم بدر ، فجعلتُ أسعىٰ وأقول : قاتلَ اللهُ ابنَ الحنظليّة ! يزعُمُ أنَّ النَّهار قد ذهب ، وٱلله إنَّ النَّهارَ لكما هو ! قال حكيمٌ : وما ذاك بي إلا حبّاً أنْ يأتيَ الليلُ فيقصرَ عنَّا طلبُ القوم . . . » [2] .

متىٰ أسْـلمَ حكيمٌ ؟

* تجمعُ الرِّوايات بأنَّ حكيماً ـ رضي ٱلله عنه ـ ظلَّ علىٰ شركهِ إلىٰ يوم الفتح ؛ ويومها فتح اللهُ علىٰ قلبه وعلىٰ بصيرته ، فأسلمَ وحسُنَ إسلامه ، وغزا حُنيناً والطَّائف بالمعيَّة النَّبويَّة ؛ وقد عُدَّ حكيمٌ من المؤلَّفة قلوبهم ، إذ أعطاه النَّبيُّ ﷺ من غنائم حُنين مئة بعير [3] .

* أخرجَ شيخا أهل الحديث : البخاريُّ ومسلمٌ بسندٍ رفعاه إلىٰ عروةَ بنِ الزُّبير وسعيدِ بنِ المُسيِّب أنَّ حكيمَ بنَ حزام ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « سألتُ رسولَ ٱللهِ ﷺ فأعطاني ، ثمَّ سألتُه فأعطاني ، ثمَّ سألتُه فأعطاني ، ثمَّ قال : « يا حكيمُ ! إنَّ هـٰذا المالَ خَضِرةٌ حلوةٌ ، فَمَنْ أخذه بسخاوةِ نفسٍ بُورك له فيه ، ومَنْ أخذه بإشرافِ نفسٍ لم يُباركْ له فيه ، كالذي يأكلُ ولا يشبعُ . اليدُ العُليا خيرٌ من اليد السُّفلىٰ » .

---

(١) أخرجه الطَّبرانيّ (٣ / ٢٠٣) برقم : (٣١٢٨) وإسناده حسن . وانظر : « المغازي » (١ / ٩٥) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (٤ / ٣٥٥) .

(٢) « المغازي » (١ / ٩٥) .

(٣) انظر : « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٤٤ ـ ٤٥) ، و« المعجم الكبير » (٣ / ١٨٦) ، و« البداية والنِّهاية » (٨ / ٦٨) وغيرها .

قال حكيم : فقلت : يا رسولَ ٱلله ! والذي بعثَك بالحقِّ لا أرزَأُ أحداً بعدك شيئاً حتَّىٰ أفارقَ الدُّنيا . فكان أبو بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ يدعو حكيماً إلىٰ العطاء ، فيأبىٰ أنْ يقبلَه منه . ثمَّ إنَّ عمرَ ـ رضي ٱلله عنه ـ دعاه ليعطيه ، فأبىٰ أنْ يقبلَ منه شيئاً ؛ فقال عمر : إنِّي أشهدكم يا معشرَ المسلمين علىٰ حكيم أنِّي أعرض عليه حقّه من هٰذا الفيء ، فيأبىٰ أنْ يأخذَه ، فلم يَرْزَأْ حكيمٌ أحداً من النَّاس بعد رسول ٱلله ﷺ حتَّىٰ توفي » [1] .

---

(١) أخرجه الشَّيخان : البخاريُّ في الزَّكاة برقم : (١٤٧٢) ، واللفظ له ، ومسلمٌ في الزَّكاة أيضاً برقم : (١٠٣٥) ، وأخرجه البخاريُّ أيضاً برقم : (٢٧٥٠ ، ٣١٤٣ ، و٦٤٤١) ، وأحمد (٥ / ٢٨٨) برقم : (١٥٣٢١) ، والتِّرمذيّ برقم : (٢٤٦٣) ، والنَّسائيّ (٥ / ١٠١) ، والطَّبرانيّ في « الكبير » (٣ / ١٨٩) برقم (٣٠٨٠) ، وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٧) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٤٥) ، و« البدر التَّمام » (٢ / ٣٦٥ ـ ٣٦٧) .

وقوله « إنَّ هٰذا المالَ خَضِرة » : أَنَّثَ الخبرَ ؛ لأنَّ المراد الدُّنيا . وقوله « خضرة حلوة » : شبهه بالرّغبة فيه ، والميل إليه ، وحرص النُّفوس عليه بالفاكهة الخضراء المستلذَّة ، فإنَّ الأخضر مرغوب فيه علىٰ انفراده بالنِّسبة إلىٰ اليابس ، والحلو مرغوب فيه علىٰ انفراده بالنِّسبة للحامض ، فالإعجاب بهما إذا اجتمعا أشدّ . و« بسخاوة نفس » : أي : بغير شره ولا إلحاح ؛ أي : مَنْ أخذه بغير سؤال . و« كالذي يأكلُ ولا يشبع » : أي : الذي يسمَّىٰ جوعه كذباً ؛ لأنَّه من علّة به وسقم ، فكلَّما أكل ازداد سقماً ، ولم يجدْ شبعاً . و« اليد العُليا » : هي المُنْفِقة . وقيل : المُتَعفِّفة . واليد العليا : هي اليد المنفقة المعطية . وقيل : اليد العليا : النِّعمة .

ومحصِّل الآثار أنَّ أعلىٰ الأيدي : المُنفقة ، ثمَّ المتعفِّفة عن الأخذ ، ثمَّ الآخذة بغير سؤال . وأسفل الأيدي : السَّائلة والمانعة ، وفي هٰذا الحديث الحثُّ علىٰ الإنفاق في وجوه الطَّاعة و« لا أرزأ » : أي : لا أنقصُ ماله بالطَّلب منه . وإنَّما امتنع حكيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ من أخذ العطاء مع أنَّه حقّه ؛ لأنَّه خشي أنْ يقبلَ من أحدٍ شيئاً=

* استقامتْ حياةُ سيِّدنا حكيمٍ علىٰ هدي الإسلام ونورِه ، وكان يسألُ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ عمَّا يجعلُ الإنسان سعيداً ناجحاً ناجياً ليكون من أهلِ الجنَّة ، فعن الزُّهريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : أنَّ حكيمَ بنَ حزام ـ رضي ٱلله عنه ـ سألَ

= فيعتاد الأخذ ، فتتجاوز به نفسه إلىٰ ما يريده ، فَقَطَمَها عن ذلك ، وترك ما يريبه إلىٰ ما لا يريبه ، وإنّما أشهد عليه عمر ؛ لأنَّه أراد ألا ينسبه أحد لم يعرفْ باطن الأمر ، إلىٰ منع حكيم من حقّه . و« حتَّىٰ توفي » : أي : أنّه ما أخذ من أبي بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا معاوية ديواناً ولا غيره حتَّىٰ مات لعشر سنين من إمارة معاوية . وٱلله أعلم .

قال ابن أبي جمرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « في حديث حكيم فوائد ؛ منها : أنَّه قد يقع الزّهد مع الأخذ ، فإنَّ سخاوةَ النَّفس هو زهدها ، تقول : سخَتْ بكذا : أي : جادت ؛ وسخت عن كذا : أي : لم تلتفتْ إليه .

ومنها : أنَّ الأخذَ مع سخاوة النَّفس يحصل أجر الزُّهد والبركة في الرِّزق ، فتبيَّنَ أنَّ الزُّهد يحصل خيري الدّنيا والآخرة .

وفيه : ضَرْبُ المثَلِ لما لا يعقله السَّامع من الأمثلة ؛ لأنَّ الغالبَ من النَّاس لا يعرفُ البركةَ إلا في الشَّيء الكثير ، فبيَّن بالمثالِ المذكور أنَّ البركةَ هي خلقٌ من خلقِ ٱلله تعالىٰ ، وضرب لهم المثل بما يعهدون ، فالآكل إنَّما يأكلُ ليشبعَ ، فإذا أكل ولم يشبعْ كان عناء في حقّه بغير فائدة ، وكذلك المال ليست الفائدةُ في عينه ، وإنَّما هي لمَّا يتحصَّل به من المنافع ، فإذا كثُر عند المرء بغير تحصيل منفعة ، كان وجوده كالعدم .

وفيه : أنَّ الإمامَ ينبغي عليه ألا يبين للطَّالب ما في مسألته من المفسدة ، إلا بعد قضاء حاجته ، لتقعَ موعظته له الموقع ، لئلا يتخيّل أنَّ ذلك سبب لمنعه من حاجته .

وفيه : جواز تكرار السُّؤال ثلاثاً ، وجواز المنع في الرَّابعة ، وٱلله أعلم .

وفيه : أنَّ سؤالَ الأعلىٰ ليس بِعَارٍ ، وأنَّ ردَّ السَّائل بعد ثلاث ليس بمكروه ، وأنَّ الإجمالَ في الطَّلب مقرونٌ بالبركة . ولهـٰذا مات سيِّدنا حكيمُ بنُ حِزام ـ رضي ٱلله عنه ـ وإنَّه لمن أكثر قريش مالاً . وٱلله تعالىٰ أعلم .

رسولَ ٱللهِ ﷺ عمَّا يدخلُ الجنَّة قال : « لا تسألُ أحداً شيئاً » فكان حكيمٌ لا يسأل خادمه أنْ يسقيه ماءً ، ولا يناوله ماء يتوضأ به [1] .

* ومن الأسئلةِ المفيدةِ النّافعة ، والمحاوراتِ اللطيفة الماتعة ، التي تنتهي بِفِقْهٍ وعلم وحكم جامعة ؛ ما جاء عند الطَّبرانيّ وغيره عن حكيم بن حزام ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « قلت يا رسولَ ٱلله ! أرأيتَ شيئاً كنتُ أتحنَّثُ به في الجاهليَّة من عتاقةٍ وصِلةِ رحمٍ هل لي فيها من أجر ؟

فقال رسول ٱلله ﷺ : « أسلمتَ علىٰ ما سلَّفْت من خير » ، وفي رواية : « أسلمتَ علىٰ ما سبقَ لك من الخير » .

فقال حكيم : يا رسولَ ٱلله ! لا أَدَعُ شيئاً صنعته في الجاهليَّة إلا صنعتُ للهِ في الإسلام مثله ، وكان أعتق في الجاهليَّة مئة رقبة ، وأعتق في الإسلام مثلها مئة رقبة ، وساق في الجاهليَّة مئة بَدَنَة ، فساق في الإسلام مئة بدنة » [2] .

* وشهد لحكيم ـ رضي ٱلله عنه ـ بأعمال البرِّ والعتق أبو بكر بنُ سُليمان رَحِمَهُ ٱللهُ حيث قال : « حجَّ حكيمُ بنُ حِزام ـ رضي ٱلله عنه ـ معه مئة بدنة ، قد أهداها وجلَّلها الحِبَرة وكفَّها عن أعجازها ، ووقَّف مئة وصيف يوم عرفة ، في أعناقهم طوقة الفضَّة قد نقَشَ في رؤوسها : عتَقَنَا ٱللهُ عن حكيم بن حِزام ، وأعتقهم ، وأهدىٰ ألف شاة » [3] .

* وجاء الإسلامُ ودار النَّدوة بمكَّة بيد حكيم ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فباعها

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٨) .

(٢) أخرجه الطَّبرانيُّ (٣ / ١٩١) برقم : (٣٠٨٥) ، وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٨) . وقوله « أتحنث » : أتعبد .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٨) ، و« أسد الغابة » (١ / ٥٢٢) ، و« البداية والنِّهاية » (٨ / ٦٩) . و« الحبرة » : علىٰ وزن عِنَبَة : ثوب يمان من قطن .

لسيِّدنا معاوية ـ رضي ٱلله عنه ـ بمئة ألف درهم ، وظنَّ ابن الزُّبير وغيره أنَّ معاويةَ قد غبن حكيماً بها ، فقال ابنُ الزُّبير : « بعْتَ مكرمةَ قريش » فقال له حكيم : « ذهبتِ المكارمُ إلا التَّقوىٰ ، إنِّي اشتريتُ بها داراً في الجنَّة ، أشهدك أني قد جعلتُها في سبيل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ يا بن أخي »[1] .

* ألا إنَّ بيعك قد ربحَ بإذن اللهِ يا أبا خالد ؛ إذْ تصدَّقْتَ بالمئة ألف درهم علىٰ المساكين وعلىٰ المحتاجين ؛ وأنت تقولُ لابن الزُّبير وغيره : « اشهدوا أنَّ ثمنَها في سبيل ٱلله ؛ أشهدكم أنَّها في سبيل اللهِ ، والمساكين ، والرِّقاب ، وأيّنا المغبون ؟ ! »[2] ، فنِعْمَ العملُ ! ونعْمَتِ الصَّدقة في سبيل ٱلله !

من كَلماتِ حكيم وأخْبَارِه :

* كلمات سيِّدنا حكيم بن حزام ـ رضي ٱلله عنه ـ كلماتٌ نافعةٌ ؛ خَرجَتْ من قلبٍ صادقٍ ؛ لتقعَ في القُلوب الصَّادقة ، ويمكنُ أنْ تُنْظَمَ كلماتُ هـٰذا الصَّحابي في عقْد لآلئ الحِكَم والفوائد السَّامقة .

---

(١) « المعجم الكبير » (٣ / ١٨٧) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٩) مع الجمع والتّصرّف اليسير .

(٢) « المعجم الكبير » (٣ / ١٨٦) بتصرّف يسير ، وانظر : « التّذكرة الحمدونيّة » (٢ / ١٠٧) ، وكذلك انظر : « البداية والنِّهاية » (٢ / ٢٠٧) .

وذكر ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللهُ أنَّ قُصياً بن كلاب كانت له جميع الرِّئاسة القرشيَّة من حجابة البيت ، وسدانته ، واللواء ، وبنىٰ داراً لإزاحةِ الظُّلمات ، وفَصْل الخصومات سمَّاها دار النَّدوة ، إذا أعضَلَتْ قضيَّةٌ اجتمعَ الرُّؤساء من كلِّ قبيلة ، فاشتوروا فيها ، وفصلوها ؛ ولا يُعقدُ عقد لواء ، ولا عقد نكاح إلاَّ بها ، ولا تبلغُ جارية أنْ تدرّع فتدرّع إلاَّ بها ، وكان باب هـٰذا الدَّار إلىٰ المسجد الحرام ، ثمَّ صارت هـٰذه الدَّارُ فيما بعد إلىٰ حكيمِ بنِ حزام بعد بني عبد الدَّار ، فباعها بمئة ألف درهم ، وجعل ثمنَها صدقةً في سبيلِ ٱلله » . « البداية والنِّهاية » (٢ / ٢٠٧) باختصار وتصرّف .

* وبداية نقرأ من أقواله الماتعة : « ذهبتِ المكارمُ إلا التَّقوىٰ »[1] . فقد كان حكيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ يرىٰ أنَّ التَّقوىٰ هي رأسُ المكارم وسنَام الفضائل وَذِرْوَة المحامد ، ولعلَّه اقتبسَ ذلك من قول اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

* ومن حُلىٰ كلماته النَّافعة لكلِّ محبٍّ لعفو ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولكلِّ مَنْ يرجو رحمةَ ٱلله مع العمل الصَّالح والأخذ بأسباب النَّجاة ، كلمته التي كان يردّدها عند الموت وهو يقول : « لا إلـٰه إلا ٱلله ، قد كنتُ أخشاكَ ، وأنا اليومَ أرجوك »[2] .

* ومن جواهرِ كلامهِ بعد أنْ أسلمَ قوله : « الحمدُ للهِ الذي أكرم محمَّداً ﷺ بالنُّبوَّة »[3] . ويقصد أنَّه قد نجَّاه ٱلله من الشِّرك باتِّباعِ سيِّدنا وحبيبنا رسول ٱلله ﷺ .

* ولهـٰذا الصَّحابي الحكيم قولٌ يتندَّىٰ بالمكارم ويسيلُ بالمروءة ، ويقطرُ بالفضائل ، ويفتحُ أبوابَ المعروف لمن يريدُ أنْ يلجَ في هـٰذه الأبواب المونقة التي يختصُّ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بها السُّعداء من العباد ؛ يقول هـٰذا اللبيبُ الحكيمُ سيِّدنا حكيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ : « ما أصبحتُ وليس ببابي صاحبُ حاجة ، إلا علمتُ أنَّها من المصائب التي أسألُ اللهَ الأجْرَ عليها »[4] . فأَسْعَدُ

---

(١) « أسد الغابة » (١ / ٥٢٢) ، و« الاستيعاب » (١ / ٣١٩) ، و« التَّبيين » (ص : ٢٣٨) .

(٢) « تاريخ الإسلام » (عهد معاوية ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ص : ١٩٩) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٩) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٥١) .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٦) .

(٤) « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٥١) ، وجاءت هـٰذه العبارة عن ابن عساكر بمعنىٰ قريب ، وهي : « ما أصبحت صباحاً قط ، فلم أرَ أحداً ببابي طالب حاجة ، =

النَّاس عند سيِّدنا حكيم هو الذي تُقْضىٰ علىٰ يده حاجاتُ النَّاس . ولقد صدق الإمامُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما قال عن سيِّدنا حكيم : « وكان حكيمٌ فقيهَ النَّفس ، كبيرَ الشَّأْن »[1] . والحقيقةُ فهـٰذه الأقوالُ الحكيمةُ الصَّادرةُ عن سيِّدنا حكيم تـدلُّ علـىٰ علـوِّ همَّتـه ، وكـرامتـه ، وحصـافتـه ، وسخـائـه ، ولـذلـك كان ـ رضي ٱلله عنه ـ يقول : « ما أصبحتُ يوماً وببابي طالبُ حاجة إلا علمتُ أنَّها من مِنَنِ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليَّ »[2] .

* وبلغت همةُ سيِّدنا حكيم وجوده شيئاً مرويّاً تحتفظُ به ذاكرةُ المصنَّفات ، لترويهِ لمحبّي الصَّحابة وتبرز أعمالهم الكريمة التي يقتدىٰ بها ، فمن جوده الذي طالَ أيتام قريش ما وردَ من أنَّ سيّدنا حكيماً ـ رضوان ٱلله عليه ـ : « كان من شدّة جودهِ وكرمهِ لا يأكلُ طعاماً وحده ، وإذا أُتي بطعامه قدَّره : فإذا كان يكفي لاثنين أو ثلاثة ، أو أكثر من ذلك ، قال : ادعُ من أيتام قريش واحداً أو اثنين ، وذلك علىٰ قَدْرِ طعامه . وكان له إنسانٌ يخدمه ، فضجرَ عليه يوماً ، فدخل المسجدَ الحرام ، وجعل يقول للنَّاس : ارتفعوا إلىٰ أبي خالد ، فتجمَّع النَّاسُ عليه ، فتعجَّبَ وقال : ما للنَّاس يأتون هـٰهنا ؟ !

فقيل له : يا أبا خالد ! دعَاهُم عليك فلانٌ .

= إلا عددتها مصيبة أرجو ثوابها من ٱلله عزَّ وجلَّ . « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٩) .

(١) « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٥١) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٩) ، وجاء أيضاً عن سيّدنا حكيم ـ رضي ٱلله عنه ـ : أنَّه كان يُقيم عشيةَ عرفة مئة رقبة ، ومئة بدَنَة ، فيعتق الرِّقاب عشية عرفة ، وينحرُ البدن يوم النَّحر ، وكان يطوفُ بالبيت فيقول : « لا إلـٰه إلا ٱلله ، وحده لا شـريـك لـه ، نِعـمَ الـرَّبُّ ونعـمَ الإلـٰهُ ، أحبُّـه وأخشـاه » . « المستطـرف » (١ / ٤٧) .

وعلىٰ الفور صاح سيِّدنا حكيمٌ بغلمانه وقال : هاتُوا ذلك التَّمر ، فأُلْقِيَتْ بينهم أكوامٌ من التَّمر الجيِّد ، فلمَّا أكلُوا ، قال بعضُهم : إدامٌ يا أبا خالد !

قال ـ رضي ٱلله عنه ـ : « إدامُها فيها » [1] .

* وبلغ من مروءةِ حكيم وجودِه وقضائه حاجات النَّاس ما حدَّث به شعبةُ رَحِمَهُ ٱللهُ قال : « لمَّا توفي الزُّبيرُ بنُ العوَّام ـ رضي ٱلله عنه ـ ، لقي حكيمٌ عبد ٱلله بن الزُّبير ـ رضي ٱلله عنهم ـ ، فقال : كم ترك أخي من الدَّين ؟

قال عبد ٱلله : ألف ألف ـ يعني : مليون ـ .

قال حكيم : عليَّ خمس مئة ألف » [2] .

* ومن الأخبار الممتعة التي تتعلَّقُ بسيِّدنا حكيم ، قصَّة حلّة ذي يزن التي أهداها لحبيبنا رسولِ ٱلله ﷺ وهو مشركٌ ، فلم يقبلْها ﷺ ، ثمَّ اشتُريت له ﷺ ، فما قصَّة هـٰذه الحلَّة الجميلة النَّادرة ؟ !

* أخرجَ الطَّبرانيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ وغيرهُ بسندٍ عن عروةَ بنِ الزُّبير رَحِمَهُ ٱللهُ : أنَّ حكيمَ بنَ حِزام ـ رضي ٱلله عنه ـ ، خرجَ إلىٰ اليمن ، فاشترىٰ حلّة ذي يزن ، فقدم بها المدينةَ المنوَّرةَ علىٰ سيِّدنا وحبيبنا رسول ٱلله ﷺ ؛ فأهداها له ، فردَّها رسولُ ٱللهِ ﷺ وقال : « إنَّا لا نقبلُ هديَّةَ مشْرك » ، فباعَها حكيمٌ ، فأمر بها رسولُ ٱلله ﷺ فاشتُرِيَتْ له ، فلبسَها ، ثمَّ دخلَ فيها المسجد ، قال حكيمٌ : فما رأيتُ أحداً قطّ أحسنَ منه فيها ، لكأنَّه القمرُ ليلة البدر ! فما ملكتُ نفسي حين رأيته كذلك أنْ قُلْتُ :

ما ينظُرُ الحكَّامُ بالحكْمِ بَعْدَمَا ... بَدَا واضحٌ ذو غرَّةٍ وحُجولِ
إذا قَايَسوهُ المجدَ أربىٰ عليهمُ ... كمستفرغٍ ماءَ الذِّنَاب سَجِيلِ

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٩) بتصرّف .

(٢) « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٥٠) بتصرّف يسير . وكان حكيم ـ كما أسلفنا ـ ابن عمّ الزُّبير ـ رضي ٱلله عنهما ـ .

فسمعه رسول ٱلله ﷺ ، قال حكيمٌ : فالتفتَ إليَّ ﷺ يبتسمُ ، ثمَّ دخلَ وكسَاها أسامة بن زيد »[1] .

* وجاء الخبر عند الحاكم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سيِّدنا حكيم بن حزام ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « كان محمَّدٌ النَّبيُّ ﷺ أحبَّ النَّاسِ إليَّ في الجاهليَّة ، فلمَّا تَنَبَّأَ وخرجَ إلىٰ المدينةِ شَهِدَ حكيم بن حِزام الموسَم ، فوجد حلَّة لذي يزن تُباع بخمسين درهماً ، فاشتراها ليهديها إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ ، فقدم بها عليه ، وأراده علىٰ قبضها ، فأبىٰ عليه . قال عُبيد ٱلله : حسِبتُ أنَّه قال : « إنَّا لا نقبلُ

---

(١) « المعجم الكبير » (٣ / ١٩٣) رقم : (٣٠٩٤) ، و« مجمع الزوائد » (٨ / ٢٨٧) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٥) مع الجمع بينها والتنسيق .
وقوله « ذي يزن » : ذو يزن اسم وادٍ باليمن ، أضيف إليه ذو يزن نعمان بن قيس والد سيف بن ذي يزن . و« فأهداها له » : أي : في هدنة الحديبية . و« بدا واضح » : ظاهر متلألئ ، والمراد به : سيِّدنا وحبيبنا ونبينا محمَّد ﷺ . و« غرّة » : الغرة : بياض في جبهة الفرس . وأُطلق مجازاً علىٰ بياض وجه الإنسان ، يقال : في وجه فلان غرة : أي : تألق وبياض يسرُّ النَّاظرين إليه . و« حجول » : الحجل : البياض في رجل الفرس ، والجمع : أحجال وحجول ، ويُطلق مجازاً علىٰ ما في رجل الإنسان من بياض ، كما في الحديث الصحيح : « تُدعىٰ أمتي يوم القيامة بالغرِّ المحجَّلين من آثار الوضوء ، فمن أراد أنْ يطيل غرَّته فليفعلْ » . و« قايسوه » : بارَوْه مباراةً . و« أربىٰ » : زاد . و« ماء الذِّناب » : الذِّناب والذَّنوب : هي الدّلو الملأىٰ ماء . قال ابن السِّكيت رَحِمَهُ ٱللَّهُ : إنَّ الذّنوب تذكَّر وتؤنَّث ، ولا يقال لها وهي فارغة . و« سجيل » : سجل الماء : صبّه ، ودلو سجيل : أي : واسع ضخم ، والمراد هٰهنا جودُهُ ﷺ ، وٱلله تعالىٰ أعلم .

وللمزيد من مثل هٰذه الأخبار الماتعة اقرأ ذلك في كتابنا : « أبناء الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ » في الباب الأوَّل ، ترجمة سيِّدنا أسامة بن زيد ـ رضي ٱلله عنهما ـ .

من المشركين شيئاً ، ولـٰكنْ إنْ شئتَ أخذناها بالثَّمن » ، فأعطيتُها إيّاه حين أبىٰ عليَّ الهديَّة ، فلبَسَها ؛ فرأيتُها عليهِ علىٰ المنبر ، فلم أرَ شيئاً قطّ أحسَنَ منه فيها يومئذ ، ثمَّ أعطاها أسامة بن زيد ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، فرآها حكيمٌ علىٰ أسامة فقال : يا أسامة ! أنتَ تَلْبَسُ حلّة ذي يزن ؟ قال : نعم ، لأَنَا خيرٌ من ذي يزن ، ولأبي خيرٌ من أبيه ، ولأمّي خيرٌ من أمِّه .

قال حكيم : فانطلقتُ إلىٰ مكَّةَ أُعَجِّبهُم بقول أسامةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ »[1] .

* ويسوق سيِّدنا حكيمٌ نفسُه شيئاً من أخبارِه التي تتعلَّقُ بحياتهِ فيقول : « كنتُ أعالجُ البزَّ في الجاهليَّةِ ، فكنتُ رجُلاً تاجراً أخرجُ إلىٰ اليمن ، وآتي الشَّام في الرِّحلَتَيْن ، فكنتُ أربحُ أرباحاً كثيرة ، فإذا ربحتُ عُدْتُ علىٰ فقراء قومي ، ونحنُ لا نُعِدُّ شيئاً ، نريدُ بذلك ثراءَ الأموال والمحبَّة في العشيرة . وكنتُ أحضرُ الأسواق ، وكانت لنا ثلاثة أسواقٍ ، وكانت سوقُ عكاظ تقومُ صبح هلال ذي القعدة ، فتقومُ عشرين يوماً ، ويحضرهُ العربُ ، وابتَعْتُ زيدَ بنَ حارثة لعمّتي خديجةَ بنتِ خُويلد ، فأخذتُهُ بستِّ مئة درهم ، فلمَّا تزوَّجها رسولُ ٱللهِ ﷺ سألها زيداً ، فوهبتْه له ، فأعتقه رسولُ ٱلله ﷺ . وابتعتُ حلّة ذي يزن فكسوتُها رسولَ ٱلله ﷺ ، فما رأيتُ أحداً أجملَ ، ولا أحسنَ من رسول ٱلله ﷺ في تلك الحلَّة . . . . وكانت سوقُ مجنَّة تقومُ عشرة أيَّام ، حتَّىٰ إذا رأينا هلال ذي الحجّة انصرْفنَا ، فانتهينا إلىٰ سوقِ

(1) « المستدرك » (٣ / ٥٥١ ـ ٥٥٢) برقم : (٦٠٥٠) ، وقوله : « تنَبَّأ » : ادَّعىٰ النُّبوَّة . و« الموسم » : هو الوقت الذي يجتمعُ فيه الحاجُّ كلَّ سنةٍ ، فقد كان العربُ يخرجون في موسم الحجِّ ، ويأتون أسواقاً لهم ، فيبيعون ويشترون ، وينشدون الأشعار ، وغير ذلك . و« أراده علىٰ قبضها » : حمله علىٰ قبضها . و« عبيد ٱلله » : هو أحد الرُّواة ، واسمه : عبيد ٱلله بن المغيرة . و« خير من أبيه » : قاله تحدُّثاً بنعمة ٱلله .

ذي المجاز ، فقام ثمانية أيّام ، وكلّ هٰذه الأسواق ألقىٰ بها رسولَ ٱلله ﷺ في المواسم ، يستعرضُ القبائل قبيلةً قبيلةً ، يدعوهم إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فلا نرىٰ أحداً يستجيبُ له ، وأسرته أشدّ القبائل عليه ، حتّىٰ بعثَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ قوماً ، أراد بهم كرامته ، هٰذا الحيّ من الأنصار ، فبايعوه ، وصدَّقوا به ، وآمنوا به ، وبذلُوا أنفسَهم وأموالَهم ، فجعلَ اللهُ له دار هجرة وملجأ ، وسبقَ مَنْ سبقَ إليهِ ، فالحمدُ لله الذي أكرمَ محمَّداً ﷺ بالنُّبوَّة »[1] .

* كان سيِّدنا حكيمٌ يَصلُ الرّحمَ ، ويحملُ الكَلّ ، ويعطي في السَّبيل ، ويشتري الظَّهْر والأداةَ والزَّاد ، ثمَّ لا يجيئه أحدٌ يستحمله في السَّبيل إلا حمله .

* ومن لطيفِ الأخبارِ وعيونها وطريفها أنَّ حكيماً ـ رضي ٱلله عنه ـ كان يوماً في المسجد ، فجاء رجلٌ من أهل اليمن يطلبُ حملاناً يريدُ الجهاد في سبيل ٱلله ، فدلّوه علىٰ حكيم بنِ حزام ـ رضي ٱلله عنه ـ فجاءه وقال له : « يا هٰذا ! إنَّني رجلٌ بعيدُ الشّقّة ، وأردتُ الجهاد ، فدللتُ عليك لتحملَ رحلي ، وتعينَني علىٰ ضعفي » ، فقال له حكيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ : « اجلسْ يا أخي » ، فلمَّا ارتفعتِ الشَّمسُ ، ركعَ ركعات ثمَّ انصرفَ ، وأومأَ إلىٰ اليماني أنْ يتبعه فتبعَه ، فجعل حكيمٌ كلَّما مرَّ بِصُوفةٍ ، أو خِرقةٍ ، أو شملة نَفَضَها فأخذَها ، وتعجَّب اليمانيُّ من تصرُّفات سيِّدنا حكيم ؛ وقال في نفسه : « إنَّ مَنْ دلّني علىٰ هٰذا الرَّجُل قد لعبَ بي ، وسخرَ منِّي ، فأيّ شيءٍ عند هٰذا من الخير بعد الذي أرىٰ منه ؟ ! » . ودخل سيِّدنا حكيمٌ داره ، فألقىٰ الصُّوفة مع الصُّوف ، والخرقة مع الخرق ، والشَّملة مع الشِّمَال ، ثمَّ قال لغلام له : « يا غلام ! هاتِ لي بعيراً ذلولاً » ، فأتىٰ ببعيرٍ ذلولٍ ، ثمَّ دعا بجهاز فشدَّه علىٰ البعير ، ثمَّ أمر لليمانيّ بدقيقٍ وسَويق وزيتٍ وقال له : « انظرْ ملْحاً

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٥ ـ ٢٣٦) بشيءٍ من التَّصرُّف .

وجراباً من تمرٍ » حتَّىٰ لم يبقَ شيءٌ ممَّا يحتاجُ إليه المسافر إلا أعطاه اليماني وكسَاه ، ثمَّ دعا بخمسة دنانير فدفعها إليه وقال له : « هـٰذه الطَّريق » ، وكان هـٰذا فعل حكيم ـ رضي ٱللهُ عنه ـ مع مثل هـٰذا اليمانيِّ وأشباهه »[(١)] .

* وأخرج الطَّبرانيّ رَحِمَهُ ٱللهُ قريباً من قصَّة اليمانيّ ، ولـٰكنْ عن أعرابيَّيْن قد قَصَدا المدينةَ المنوَّرة يسألان مَنْ ينفقُ عليهما ؛ ويحملهما في سبيل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ترىٰ ماذا في الجعبةِ الطَّبرانيَّةِ ؟ !

* أخرجَ الطَّبرانيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ عن أبي حازم قال : « ما كان بالمدينةِ أحدٌ سمعنا به كان أكثر حِمْلاً في سبيلِ اللهِ من حكيمِ بنِ حزامٍ ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ لقد قدمَ أعرابيَّان المدينةَ يسألان مَنْ يحملُ في سبيلِ ٱلله ، فدُلاَّ علىٰ حكيمِ بنِ حِزام ، فأتياه في أهله ؛ فسألهما : ما يُريدان ؟ فأخبَراهُ ما يريدان . فقال لهما : لا تَعْجَلا حتَّىٰ أخرج إليكما ، وكان حكيم يلبس ثياباً يُؤتىٰ بها من مِصْرَ كأنَّها الشِّبَاكُ ، ثمنُها أربعة دراهم ، ويأخذُ عصاً في يده ، ويخرجُ معه غلامان له ، وكلَّما مرَّ بكُنَاسةٍ ، أو قمامةٍ فرأىٰ فيها خِرقةً تصلحُ في جَهَازِ الإبل التي يحمل عليها في سبيل ٱلله ، أخذها بطرفِ عصاه ، فنَفَضَها ، ثمَّ قال لغلامَيْهِ : أَمْسِكا بسلعتكما في جهازكما .

فقال الأعرابيّان أحدهما لصاحبه وهو يصنعُ ذلك : ويحك ! انْجُ بنا ، فواللهِ ما عند هـٰذا إلا لَقَطُ القَشْع .

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٧ / ٢٣٦) بتصرُّف يسير . ولله درُّ مَنْ قال :

عَشِقَ المكارمَ فهو مُشْتغِلٌ بها	والمكْرُمَاتُ قَليلةُ العُشَّاقِ
وأقامَ سُوقاً للثَّناءِ ولم يكُنْ	سُوقُ الثَّناء يُعَدُّ في الأسواقِ
بَثَّ الصَّنائعَ في البِلادِ فأصبحتْ	تُجبىٰ إليه مَحامدُ الآفاقِ

أقول : « هل يقتدي محبّو رجالِ الصَّحابة بسيِّدنا حكيم وأمثاله ، ويعشقون المكارمَ والفضائلَ ، ويكونون عوناً لطالبي الحاجات ؟ فما أجمل قضاء الحاجات ، وجَبْر الخواطر ، والعمل من أجلِ مرضاة العزيز الجبَّار ! » .

فقال له صاحبُه : ويحكَ ! لا تَعْجَلْ حتَّىٰ ننظر .

فخرجَ بهما إلىٰ السُّوق ، فنظرَ إلىٰ ناقتَيْن جليلَتَيْن سمينَتَيْن خَلِفَتَيْن ، فابتاعهما ، وابتاعَ جهازهما ، ثمَّ قال لغلامَيْه : رمَّا ـ أَصْلِحا ـ بهٰذه الخِرق ما ينبغي له المرمَّة من جهازكما ، ثمَّ أوقرهما طعاماً ، وبُـرّاً ، وَوَدَكاً ، وأعطاهما نفقةً ثمَّ أعطاهما النَّاقتَيْن .

قال : يقولُ أحدهما لصاحبِه : واللهِ ! ما رأيتُ من لقطِ قَشْع خيراً منَ اليوم »[1] .

* وكان حكيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ لا يشربُ كلَّ يومٍ من الماء إلاَّ شربة ، حتَّىٰ بلغَ مئة سنة ، فاستسقىٰ الغلام يوماً فقال له الغلامُ : « يا مولاي ، قد شربتَ شربكَ » .

قال : « وإنْ شربتُ » ، فأقامَ علىٰ شربَتَيْن كلَّ يوم حتَّىٰ مات ـ رضي ٱلله عنه ـ وأرضاه ؛ وحشرنا في المعيَّة النَّبويَّة أجمعين .

* وممَّا ينبغي معرفته أنَّ دارَ حكيم بمكَّة كانتْ بأسفلها ، وعنها قال النَّبيُّ ﷺ يوم الفتح : « مَنْ دخلَ دار حكيم فهو آمن » . فهي أمانٌ لقريش ، ولها ذْكرٌ مع دور مكَّةَ كماأوردَ الفاسيُّ ذلك في كتابه : « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » .

---

(١) أخرجه الطَّبرانيُّ (٣ / ١٨٧) برقم : (٣٠٧٤) . وقوله « حِملاً » : يعني : كان أكثـر النَّـاس إعطـاءً الظَّهـر للـرُّكـوب فـي سبيـل ٱلله ـ عـزَّ وجـلَّ ـ . و« أعـرابيـان » : الأعـرابـي : مَـنْ نـزلَ البـاديـة . و« دُلاَّ » : أرشـدا إليـه . « الشِّباك » : أي : لرقَّتها . و« كناسة » : ما جُمع من البيت من التُّراب فأُلقي بعضُه علىٰ بعـض . و« القمـامـة » : الكنـاسـة تجمـعُ مـن البيـوت والطُّـرق . و« جَهاز » : بالفتح : ما علىٰ الرَّحْل من قتب وأداته . و« نفَضَها » : حرَّكَها ليزول عنها ما علَقَ بها . و« القشع » : الفرو البالي الخَلق . و« جليلتين » : عظيمتين . و« خلفتين » : حاملتَيْن ، والخلفة : النَّاقة الحامل .

العَالِمُ ناقِلُ الحديث :

* بعد أن انتظمَ سيِّدنا حكيمٌ في عقْدِ الصَّحابة الثَّمين ، أقبلَ علىٰ العِلْمِ إقبالَ المحبِّين ، وشرعَ يقتبسُ من الأنوار المحمَّديَّة اقتباس الصَّادقين ، وأخذ يروي غلَّته ممَّا فاته في الأعوام الخوالي ؛ ويجتهد بتحصيل العلم في الأيّام والليالي .

* وسيِّدنا حكيمٌ من أصحابِ العشَرات ؛ إذ يبلغُ عددُ مسنده أربعين حديثاً ، له في « الصَّحيحين » أربعة أحاديث متَّفَقٌ عليها [١] . وله أحاديث في الكتُب السِّتَّة [٢] ؛ و« مسند أحمد » [٣] . وشملت الأحاديثَ التي رواها شيئاً من أبواب الفِقْه كالبيوع ، والعتق ، والزَّكاة ، والأدب ، والوصايا ، والرِّقاق ، والخمس ؛ كما أنَّ له لمساتٍ واضحةً في نقل بعض أحداث السِّيرة النَّبويَّة وأحكامها ، وقد قرأْنا ذلك في تضاعيف ترجمته وثناياها .

* حدَّث عن سيِّدنا حكيم : ابناهُ هشامُ بن حكيم وهو صحابيٌ ، وابنُه حِزامُ بنُ حكيم ، كما حدَّث عنه : عبدُ اللهِ بنُ الحارث بنِ نوفل ، وسعيدُ بنُ المسيِّب ، وعروةُ بنُ الزُّبير ، وموسىٰ بنُ طلحة ، ومحمَّدُ بنُ سِيرين ، ويوسُف بن مَاهَك ، وآخرون [٤] .

* وممَّا أخرجَهُ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ اللهُ فيما يتعلَّق بالصَّدقاتِ عن سيِّدنا

---

(١) « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٥١) .

(٢) « الإصابة » (١ / ٣٤٨) .

(٣) « المسند » (٥ / ٢٢٦ ـ ٢٢٩) ، وقد أورد له الإمامُ أحمد (١٨ حديثاً) . وأخرج له الحاكم في « المستدرك » (١١ حديثاً) .

(٤) « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٤٤) ، و« تهذيب التَّهذيب » (٢ / ٤٤٧) ، و« أسد الغابة » (١ / ٥٢٢) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٦٦) ، و« الإصابة » (١ / ٣٤٨) مع الجمع بينها .

حكيمِ بنِ حزام ـ رضي ٱلله عنه ـ : أنَّ رجُلاً سألَ رسولَ ٱلله ﷺ عن الصَّدقَات ، أيُّها أفضلُ ؟

قال : « علىٰ ذي الرَّحم الكاشح » (1) .

* وأخرجَ الحاكمُ رَحِمَهُ ٱللهُ في « المستدرك » عن سيِّدنا حكيمِ بنِ حزام ـ رضي ٱلله عنه ـ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ لمَّا بعَثَهُ والياً إلىٰ اليمن قال : « لا تمسَّ القرآنَ إلاَّ وأنتَ طَاهِرٌ » (2) .

* وفيما يتعلَّقُ بالمعاملاتِ والبيوع ، وثبوتِ خيارِ المجلس في البيع والشِّراء ، أخرجَ إماما أهل الحديث : البخاريُّ ومسلمٌ ؛ وغيرهُما من أئمةِ هٰذا الشَّأن ؛ بسندٍ رفعوهُ إلىٰ سيِّدنا حكيمِ بنِ حزام ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسولُ ٱلله ﷺ : « البيِّعان بالخيار ما لمْ يتفرَّقَا ، فإنْ صَدَقَا وبيَّنَا بُورِكَ لهما في بَيْعِهما ، وإنْ كتَما وكذَبا ، مُحقَتْ بركةُ بيعهما » (3) .

---

(1) « المسند » (٥ / ٢٢٨) برقم : (١٥٣٢٠) .

(2) « المستدرك » (٣ / ٥٥٢) برقم : (٦٠٥١) ، وقال : « هٰذا حديثٌ صحيحُ الإسناد ولم يخرِّجاه » .

(3) أخرجه الشّيخان : البخاريّ برقم : (٢٠٧٩ ، و٢٠٨٢ ، و٢١٠٨ ، و٢١١٠ ، و٢١١٤) ، ومسلم برقم : (١٥٣٢) كلاهما في البيوع ، وأحمد (٥ / ٢٢٧) برقم : (١٥٣١٤) . وهٰذا الحديث النَّبويّ الشَّريف من الأحاديث المشهورة في عالَم فقه البيوع . ومجمل معناه : أنْ يبيّن كلُّ واحدٍ لصاحبهِ ما يحتاجُ إلىٰ بيانهِ من عيبٍ ونحوه في السّلعة والثَّمن ، وصدق في ذلك ، وفي الإخبار بالثَّمن ، وما يتعلَّق بالعوضين .

وقوله « البيِّعان » : البائع والمشتري ، ويسمَّىٰ المشتري بيعاً من بابِ التَّغليب ؛ لأنَّ البيع هو البائع ، و« الخيار » : اسم من الاختيار ، أو التَّخيير ، وهو طلب خير الأمرين من إمضاء البيع أو فسخه . والمرادُ به خيار المجلس في الفسخ ؛ لأنَّ الإمضاءَ لا يحتاجُ إلىٰ شيءٍ زائدٍ علىٰ الإيجابِ والقبولِ ، ويكفي فيه السّكوت . =

* ونفهمُ من هٰذا الحديثِ الشَّريفِ الذي رواهُ سيِّدنا حكيمٌ ـ رضي ٱللهُ عنه ـ أنَّ الإنسانَ قد يشتري شيئاً من آخر لحاجةٍ له فيه ، ثمَّ يندمُ علىٰ الشِّراء لحدوثِ ما يدعو إلىٰ النَّدم من رغبةٍ عمَّا اشتراه ؛ أو استكثار الثَّمن ، أو ظهور أمر لم يكنْ بادياً من قَبْلُ يقتضي ردَّ المبيع ، وقد يبيعُ شيئاً من ماله لحاجةٍ عرضَتْ ، ثمَّ يتبيَّنُ له أفضلية بقائه ، إمَّا لتبيُّنِ خسارة في البيع ، واهتدائه إلىٰ مَخْلصٍ سوىٰ البيع من الحاجةِ التي دعَتْ إليه قيود كلّ منهما أنْ لو أقاله صاحبه ، وفسخَ ما بينهما من عقد ، أو وجدَ سبيلاً يحلّه من هٰذا التَّعاقد ، لذا بيَّن رسولُ ٱللهِ ﷺ أنَّ كلاً من البائع والمشتري بالخيار بعد الإيجاب والقبول بين إمضاءِ البيعِ أو فسخِهِ ما داما في مجلسِ البيع ، فلكل منهما أنْ يفسخَه دون رضا الآخر ، ويسمَّىٰ هٰذا : « خيار المجلس » أمَّا إذا تَرَكَ أحدهما صاحبَه فلا خيار لهما ، ولا لأحدهما ؛ لأن ما كان بينهما من عقْدٍ قد تأكَّد بالمفارقة ، فلا سبيلَ إلىٰ العدولِ إلا برضا الطَّرفين بالإقالة .

= و« يتفرّقا » : يفترقا بأبدانهما ؛ وقيل : يفترقا بالأقوال ؛ أي : ما لم يتمّ البيع بالإيجاب والقبول . وزعم بعضُهم أنَّه يُقالُ افترقا بالكلام وتفرَّقا بالأبدان ، وَرَدَ ذلك بقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ [البينة : ٤] ، فإنَّه ظاهرٌ في التَّفرّقِ بالكلام ؛ لأنَّه المخالفةُ في الاعتقاد ، ويرجح حمل التّفرّق في الحديث علىٰ تفرّق الأبدان ما رواه البيهقيُّ بلفظ : « حتَّىٰ يتفرَّقا من مكانهما » وبأنَّ سيِّدنا ابن عمر ـ رضي ٱللهُ عنهما ـ كان إذا باعَ أو اشترىٰ شيئاً ولم يشأ الرّجوع قام من مجلسهِ ومشىٰ هنيهة . و« صَدقَا وبيّنا » : أي : صدقَ البائعُ المشتري في نوع المبيع وسلامته من العيوب . وبيَّنَ له ما فيه ، وصدقَ المشتري البائع في نوع الثَّمن ، وجنسه ، وبيَّنَ له ما فيه من عيبٍ ، أو نحوه . و« كتَما وكذبا » : أي : أخفىٰ كلّ منهما عن الآخر ما في البدل الذي يكونُ من جهته ، وغشَّ كلّ منهما الآخر فيما عليه البدل . و« مُحقتْ بركةُ بيعهما » : أي : قلَّتْ وضاعتِ الزِّيادةُ والفائدةُ التي كان يرجوها كلٌّ منهما البائع في الثَّمن ، والمشتري في المبيع بما يبتليهما اللهُ به من الحوائج والمصائب التي تذهبُ بما في أيديهما . وفي هٰذا الحديث دلالةٌ علىٰ شُؤمِ التَّدليس والكذب ، ويُمْنِ الصّدق والإرشاد .

* فالتَّفرُّقُ المذكورُ في هـٰذا الحديث الشَّريف هو التَّفرُّقُ بالأبدان ؛ لأنَّه المفهومُ عند الإطلاق ، إذا قيل تفرَّق النَّاس ، ولأنَّ البَيِّعَيْن هما البائعُ والمشتري علىٰ ما تقدَّم ، ولا يسمَّىٰ أحدهما بيعاً حقيقةً إلا بعد حصول العَقْد منهما ، ومتىٰ حَصَلَ العقدُ لا يكون منهما تَفرُّقٌ بالأقوالِ ، بل بالأبدان ، ولأنَّ كلَّ واحدٍ يعلمُ بداهةً علماً عاماً أنَّ المشتري بالخيار ، ما لم يوجدْ منه قَبولُ المبيع ، وأنَّ البائعَ خيارهُ ثابتٌ في ملكه قبل أنْ يعقدَ البيع ، فلو كان المرادُ من التَّفرُّق الاختلاف في الأقوالِ وهي الإيجابُ والقبولُ ـ إذ ليس بينهما أقوال سواهما ـ لَخَلا الحديثُ عن الفائدة ، ولم يكنْ له معنىٰ ، وبهـٰذا تمسَّك مَنْ أثبتَ لكلّ من المتبايعَيْن خيار المجلس ، وهم جماعةٌ من الصَّحابة ، منهم : سيِّدنا عليٌّ ، وابنُ عمر ، وابنُ عبَّاس ، وأبو هريرةَ ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ ، ومن التَّابعين : شُريحٌ ، والشَّعبيُّ ، وعطاء رحمهم ٱلله .

* والمشهور أنَّ حدَّ التَّفرُّق بالأبدان موكولٌ إلىٰ العرف ، فما عدَّه العرفُ تفرُّقاً حكمَ به ، وإلا فلا .

* ومرويَّاتُ سيِّدنا حكيم منثورةٌ في الكتبِ المتخصِّصة ، وقد أوردنا منها ما يفصحُ عن شخصيَّته العِلْميَّة بين رجال الصَّحابة وأعيانهم .

أنا اليوم أرجوك :

* تركَ سيِّدنا حكيمُ بنُ حِزام ـ رضي ٱلله عنه ـ أثراً كريماً بين جيلِ الصَّحابةِ الكريم ، كما تركَ كُنوزاً ثمينةً من الأخبارِ والأعمالِ التي تشهدُ له بالفَضْل والمجد .

* ومن الأرصدةِ الثَّمينةِ المباركةِ لهـٰذا الصَّحابي النَّبيل ـ رضي ٱلله عنه ـ أنَّـه كـان مـن أعـلام الصَّحـابـة ، وأنَّ أولادَه صحـابيّـون أيضـاً ، قـال ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « الاستيعاب » عن سيِّدنا حكيم ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ وعن أولادِه : « تأخَّرَ إسلامُه إلىٰ عام الفتح ، فهو من مسلمةِ الفتح هو

وبنـوه : عبـد ٱلله ، وخـالـد ، ويحيـىٰ ، وهشـام ، وكلُّهـم صَحِـبَ النَّبيَّ ﷺ »[١] .

* وقـال ابـنُ قـدامـة رَحِمَهُ ٱللهُ كـذلـك فـي « التَّبييـن » عـن حكيـمٍ وأولاده ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ : « ومن وَلده : خالدٌ ، وعبدُ ٱلله ، ويحيىٰ ، وهشامٌ بنو حكيم بن حزام ؛ كلُّهم أسلمُوا يومَ الفتح ، وصحبوا النَّبيَّ ﷺ »[٢] .

* وأوجـزَ ابـنُ قـدامـة رَحِمَهُ ٱللهُ سيـرَ أولاده ، فكـان ممَّـا قـال : « فـأمَّـا خالد : فهو أكبرُ أولاده ، وبه كان يُكنىٰ ، روىٰ عنه الحديث . وأمَّا عبدُ ٱلله : فَقُتِلَ يوم الجمل ، وكان صاحب لواء طلحةَ والزُّبير يومئذ . وأمَّا هشام : فَلَهُ صحبةٌ وروايةٌ ، وكان من فُضَلاء الصَّحابةِ وخيارهم ، وممَّن يأمرُ بالمعروف ، وينهىٰ عن المنكر ، وكان سيِّدنا عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ إذا بلغه أمرٌ ينكره ، قال : « أمَّا ما بقيتُ أنا وهشامُ بنُ حكيم فلا يكون ذلـك » . وروىٰ مـالـكٌ عـن ابـن شهـاب الـزُّهـريِّ قـال : « كـان هشـامُ بـنُ حكيم ـ رضي ٱلله عنهما ـ في نَفَرٍ من أهل الشَّام يأمرون بالمعروف ؛ وينهون عن المنكر ، ليس لأحدٍ عليهم أمارة ؛ وكانوا يمشون في الأرضِ بالإصلاح والنَّصيحة وهم محتسبون ، وكان هشامُ بنُ حكيم كالسَّائح ، لم يتَّخذ أهلاً ولا وَلَـداً ، وهـو الـذي رآهُ عمـرُ يقـرأُ سـورة الفُـرقـان علـىٰ غيـر مـا أقـرأه رسولُ ٱلله ﷺ ، فأتىٰ به النَّبيّ ﷺ ، فاستقرأهما فصوَّبهما وقال : « نزل القرآنُ علىٰ سبعةِ أحرف »[٣] .

---

(١) « الاستيعاب » (١ / ٣١٩) .

(٢) « التَّبيين في أنساب القرشيين » (ص : ٢٣٩) .

(٣) انظر : « التبيين » (ص : ٢٣٩ ـ ٢٤٠) بشيء من التّصرّف . وللمزيد من هٰذه الأخبار الماتعة اقرأ كتابنا : « أبناء الصّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ » ففيه ما يسرّ النُّفوس ، ويمتع الأسماع بإذن ٱلله عزَّ وجلَّ .

* أما حكيمٌ فقد كان من الصَّحابة القرشيين المعمَّرين ؛ إذ عاش قرابة (١٢٠ سنة) منها (٧٤ عاماً) في الجاهليَّة ، (٤٦ عاماً) في الإسلام ، وٱلله أعلمُ .

* زعم ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللهُ أنَّ سيِّدنا حكيماً توفي في خلافةِ سيِّدنا معاوية سنة (٥٤ هـ) ، وقيل : (٥٨ هـ) [1] ، كما زعم أنَّه قد عمي قَبْل موته [2] ، وأوصىٰ إلىٰ عبد ٱلله بن الزُّبير ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ .

* وقيَّد عددٌ جَمٌّ من المصنِّفين وكُتَّاب التَّراجم في مؤلَّفاتهم ؛ بأنَّ وفاة سيِّدنا حكيم ـ رضي ٱلله عنه ـ كانت سنة أربع وخمسين من الهجرة النَّبويَّة ، وكانت وفاتهُ بالمدينةِ المنوَّرة في دارهِ عند بلاط الفاكهةِ وزقاق الصَّوّاغين [3] .

* رضي ٱلله عن سيِّدنا حكيمِ بنِ حزام ، وجعَلنَا ممَّن يُقال لهم : ﴿ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ﴾ [الحجر : ٤٦ ، وقٓ : ٣٤] ، وتعالوا نتذكَّر ونردّد دائماً قول سيِّدنا حكيم قبل وداعه : « لا إلـٰه إلا ٱلله ، قد كنتُ أخشاك ، وأنا اليومَ أرجوك » . يا ربَّنا نحنُ نرجوك ، فأكرمنا برحمتِكَ ، وارحمْ ضَعْفَنا ، واحشرنا مع حبيبنا محمَّد رسولِ ٱلله ﷺ .

✍ ✍ ✍

---

(١) « أسد الغابة » (١ / ٥٢٢) .

(٢) « أسد الغابة » (١ / ٥٢٣) . أقول : « عدت إلىٰ كتاب : « نكت الهميان » للصّفديّ ، فلم أجده ذكر شيئاً عن عمىٰ سيّدنا حكيم ، كما لم يذكر أحد من المصنِّفين ذلك ، وٱلله تعالىٰ أعلم .

(٣) « سير أعلام النُّبلاء » (٣ / ٥١) ، و« المعجم الكبير » (٣ / ١٨٦) ، و« الاستيعاب » (١ / ٣١٩) ، وغيرها كثير .






سُهيلُ بنُ عمرو

رضي ٱلله عنه

* كان خطيب قريشٍ ولسانها النَّاطق في المحاورات .
* أحدُ الأشرافِ العقلاء السَّادات ؛ وقصَّتُه مشهورةٌ يوم الحديبية .
* مواقفه تشهدُ بفضله ، ولقي اللهَ شهيداً ببلاد الشام .




سُـهيلُ بـنُ عَمْرو
رضي ٱلله عنه

الخطيبُ ذو السِّـيادة :

* عَلَمٌ عَيْلَمٌ من أفذاذِ قومه في الفصاحة والبلاغة والبيانِ ؛ جَمعَ في أغصانِ الألفاظ ثمار المعاني ، تَلذُّ لكلامه الأسماع ، وتطرب من جزالته على السَّماع ؛ عدَّهُ كثيرُ من العُلماء والمصنِّفين من أكابر خطباء قُريش البلغاء ؛ وذوي العقل والفَهْم والمكانةِ والسِّيادة والسَّخاء .

* وعندما ذكر أبو عثمان الجاحظ الخطباءَ والبلغاءَ والأبْيِنَاءَ ؛ ساق ترجمتَه معهم ، فقال : « ومن الخطباء : سهيلُ بنُ عمرو الأعلم ، وكان يكنىٰ أبا يزيد ، وكان عظيمَ القَدْر ، شريفَ النَّفس ، صحيحَ الإسلام » [١] .

* وسهيلٌ هـٰذا كان أحد أربعةٍ من الرِّجال ذوي الأفهام ، وذوي الأحلام ؛ ممَّن رغبَ لهم الصَّادق المصدوق ﷺ في الإسلام ؛ فقال : « إنَّ بمكَّة أربعةً من قريش أرغبُ بهم عن الشِّرك ، وأرغبُ لهم في الإسلام » .

قيل : ومن هم يا رسولَ ٱلله ؟

قال : « عتَّابُ بنُ أسيد ، وجبيرُ بنُ مطعم ، وحكيمُ بن حزام ، وسهيلُ بن عمرو » ، فرزقُوا كلّهم الإسلام [٢] ، وكانوا من رجال عصر النّبوّة الأعلام ؛ ومن خيار الصَّحابة الكرام .

---

(١) « البيان والتَّبيين » للجاحظ (١ / ٣١٧) .

(٢) « ثمارُ القلوب » للثَّعالبيّ (ص : ٥١٩) .

* إذن ، سيكون اللقاءُ السَّهل السَّعيد ؛ مع رجلٍ من العمالقة الأسياد الصِّيْد ؛ الذين تألَّقُوا في الجاهليَّة والإسلام ؛ وعُرفوا بالمكانة والرَّزانةِ والحصافةِ والاحترام ، ومن الذين كان حبيبنا وسيِّدنا رسول ٱلله ﷺ يتفاءَلُ بهم وبأسمائهم علىٰ الدَّوام .

* إنَّه سيِّدنا سهيلُ بنُ عمرو بن عبد شمس العامريّ القُرشيّ [1] ، يكنىٰ أبا يزيد ، كان خطيبَ قريش ، وفصيحَهم ، ومن أشرافهم . ولمَّا أقبل في شأْن صُلْح الحديبية ، قال الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ للذين معه : « سَهُلَ أمركم » وفي روايةٍ : « قد سُهِّلَ لكم منْ أمركم » [2] .

* وسهيلٌ طابَقَ اسمه مسمَّاه ، وكاد أنْ ينطق بلفظه معناه ، صاغَ بفضله حُلىٰ المكارم ، وله خلائق تشبه أخلاق حاتم ؛ وفصاحة جميلة الصياغة ، مستمدة من جواهر البلاغة :

سمح البديهة ليس يملك لفظه ... فكأنَّما ألفاظُه منْ ماله

* وصفه الإمامُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأوجز لفظٍ وأتمِّه فقال : « كان سهيل سمحاً جواداً مفوّهاً » [3] ، وقال : « سهيلٌ أحدُ خطباء قريش

---

(1) « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ١٩٤ ـ ١٩٥) ، و« المعارف » (ص : ٢٨٤) ، و« طبقات ابن سعد » (٧ / ٤٠٤ ـ ٤٠٥) ، و« نسب قريش » (ص : ٤١٧ ـ ٤١٩) ، و« المعجم الكبير » (٦ / ٢٥٩) ، و« تهذيب التَّهذيب » (٤ / ٢٦٤ ـ ٢٦٥) ، و« الاستيعاب » (٢ / ١٠٧ ـ ١١١) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٠ ـ ٢٣٠ ـ ٢٣٦) ، و« المغازي » (الفهارس : ٣ / ١١٨٢) وغيرها كثير .

(2) أخرجه البخاريُّ من حديث طويل في الشّروط برقم : (٢٧٣١ ، و٢٧٣٢) . وقال الأصبهاني عن سُهيل : « وهو الذي تفاءلَ النَّبيُّ ﷺ باسمه لمَّا أقبل يوم الحديبية فقال : سُهِّلَ لكم أمركم » » . « معرفة الصَّحابة » (٢ / ٤٥٣) .

(3) « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ١٩٤) .

وأشرافهم . . . . وكان سمحاً جواداً فصيحاً . . . »[1] .

* أمّا ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقد خلع عليه أثوابَ البلاغة فقال : « سهيلُ بنُ عمرو القرشيّ العامريّ . . . . وأمّه حُبَّىٰ بنتُ قيس الخزاعية . . . . يكنىٰ أبا يزيد ، احدُ أشراف قريش وعقلائهم ، وخطبائهم ، وساداتهم . . . . »[2] .

* ولمَّا ساق ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ترجمته لسهيل قال : « أحد خطباء قريش ، له صحبةٌ . . . كان أعْلَمَ الشَّفة ، وكان من أشراف قريش ، يُقال له : ذو الأنياب . وسئِل سعيدُ بن المسيّب عن خطباء قريش في الجاهليَّة فقال : الأسودُ بنُ المطلب بن أسد ، وسهيلُ بنُ عمرو . وسئل عن خطبائهم في الإسلام ، فقال : معاويةُ وابنُه ، وسعيدٌ وابنُه ، وعبدُ ٱلله بنُ الزُّبير . . . . »[3] .

* وفي كتابه : « نسب قريش » قال المصعب الزُّبيريّ ما مفاده : « سهيلٌ هٰذا هو الأعلمُ الخطيبُ ، وكان من أشراف قريش . . . وفي سهيل يقول حسَّانُ بنُ ثابت الأنصاريّ :

ألا ليتَ شعري هل تُصيبنَّ نُصرتي ... سُهيلَ بنَ عمرو بدؤُها وعقابُها

وإيَّاه عنىٰ ابن قيس الرّقيّات حين فخر بأشرافِ قريش ، فذكر فقال :

منهم ذو النَّدىٰ سُهيلُ بنُ عمرو ... عصمةُ الجار حين جُبَّ الوفَاء
حاطَ أخوالَه خزاعةَ لمَّا ... كَثَرَتْهم بمكَّةَ الأحياء »[4]

---

(١) « تاريخ الإسلام » للذّهبيّ (عهد الخلفاء الرّاشدين ، ص : ١٥٠ ـ ١٥١) .

(٢) « أسد الغابة » (٢ / ٣٢٨) ترجمة رقم (٢٣٢٥) .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٠ ـ ٢٣٦) باختصار وتصرّف .

(٤) « نسب قريش » (ص : ٤١٧ ـ ٤١٨) بتصرُّف . وانظر : « الاستيعاب » (٢ / ١٠٨) .

* أمتعَ الأسماعَ ابنُ قدامة المقدسيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « التَّبيين في أنساب القرشيين » ؛ وبيّنَ مكانة سيّدنا سُهيل وشرفه وسيادته في عالم السِّيادة والنُّبل ، فقال : « سهيلُ بنُ عمرو . . . . كنيتُه أبو يزيد ، أحدُ أشرافِ قريش وسادتهم ، وكان حلواً جميلاً فصيحاً خطيباً . . . . وهو الذي تولّىٰ صلح الحديبية مع رسول ٱللهِ ﷺ . كان خطيب قريش ، وكان أعلمَ الشَّفة السُّفلىٰ . . . . وكان ذا رأي سديد »[1] .

* بينما أوجز ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأجاد حينما سردَ السِّيرة السُّهيليَّة وساقَها واستوعبَها في « استيعابه » فقال : « سهيلُ بنُ عمرو القرشيّ العامريّ ؛ يكنىٰ أبا يزيد ؛ كان أحد الأشراف من قريش ، وساداتهم في الجاهليَّة . . . . وكان خطيب قريش . . . . وكان سهيلٌ أعلمَ مشقوقَ الشَّفَة . . . . وهو الذي مدحه أميَّةُ بنُ أبي الصَّلت فقال :

أبـا يـزيـدَ رأيـتَ سيبَـكَ واسعـاً ... وسجـالَ كفِّـكَ يستهـلُّ ويمطـرُ »[2]

مكانةُ الخَطـابة والخُطباء :

* هـٰذه فقرةٌ مهمَّةٌ ومفيدةٌ بإذن ٱلله تعالىٰ ؛ إذ نتعرَّفُ خلالَها علىٰ شيءٍ من الخطابةِ وأهميتها في عصْر سيِّدنا سهيل ، وكما نعلم فسيِّدنا سهيلُ بنُ عمرو من المخضرمين الذين نبغوا في مضمار الخطابة ، وتصدَّروا أفقَ هـٰذا الفنِّ النَّبيل .

* فقد أصابت الخطابةُ العربيةُ حظَّها الأوفىٰ من الرّقي والازدهار ، وتألّق

---

(١) « التَّبيين في أنساب القرشيين » (ص : ٤٢٢) .

(٢) « الاستيعاب في أسماء الأصحاب » (٢ / ١٠٨) بتصرُّف . ويقول ابنُ دريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سيّدنا سُهيل ـ رضي ٱلله عنه ـ : « كان من رجال قريش في الجاهليَّة ، ثمَّ أسلم فَحسُنَ إسلامه . وهو الذي بعثته قريشٌ يُحْكِمُ الهدنةَ بينهم وبين النَّبيّ ﷺ يوم الحديبية » . « الاشتقاق » (ص : ١١١) .

نجمُها في عصر النُّبوَّة ، وظهرت كوكبةٌ ممتازةٌ من الخطباء المفوَّهين الذين ملكوا أعنَّةَ الفصاحة ، وأَزِمَّةَ البيان ، ومقاليدَ البلاغة ، ودانت لهم ذرا المنابر .

* ومن المؤكَّد في تأريخ العرب وقصصهم وأحوالهم أنَّهم عرفوا الخطابة قبل الإسلام بزمنٍ طويل ، وكانت الحياةُ العامَّةُ في ذلك العصر تستدعي وجودَ هٰذا الفنِّ الأنيق ، وفي السِّيرة النَّبويَّة العطرة نماذجُ كثيرة عن الخطباء والخطابة ، خصيصىٰ عام الوفود ؛ إذ كلّ قبيلة تقدِّمُ خطيبَها وشاعرها ليلقي روعةَ البيان ، أمام الحضرة النَّبويَّة وكبار الصَّحابة الأعيان .

* وكان للخطباء في عصر الجاهليَّة وصدر الإسلام عاداتٌ جروا عليها ، كانوا في المواسم العظام والمحافل والاجتماعات يخطبون علىٰ رواحلهم ، ويلوثُون العمائم ، وكانوا يتَّخذون المخاصر ، وقد أبان (الجاحظ) في « البيان والتَّبيين » في ردِّه علىٰ الشُّعوبية [1] حينما عابوا علىٰ خطباء العرب اتِّخاذهم المخاصر والعصي .

* يذكر الجاحظُ أنَّ الخطباءَ الأبْيِناءَ قد اتَّخذوا العصا ؛ لأنَّهم مُقْدِمُون علىٰ أمْرٍ مهمّ ، فيقول : « وأيضاً أنَّ حمل العصا والمخصرة دليلٌ علىٰ التَّأهُّب للخطبة ، والتّهيؤ للإطناب والإطالة ، وذلك شيءٌ خاص في خطباء العرب ، ومقصورٌ عليهم ، ومنسوبٌ إليهم ، حتَّىٰ إنَّهم ليذهبون في حوائجهم والمخاصر بأيديهم إلفاً لها وتوقّعاً لبعض ما يُوجب حملها ، والإشارة بها » .

* كان للخطيب منزلةٌ عُلْيا ، ومكانةٌ سامقةٌ عند الجاهليين ، وربّما سبقت مكانةُ الخطباء منزلةَ الشُّعراء في بعض الأحايين والأوقات ؛ لأنَّ الشُّعراء كثروا ، وولغوا في أعراض النَّاس في بعض الأحيان ، لذلك صار الخطيبُ

---

(١) قال الجاحظُ : « وقد طعنت الشُّعوبيّةُ علىٰ أخْذِ العرب في خطبها المخصرة والقناة والقضيب ، والاتِّكاء والاعتماد علىٰ القوس ، والخدِّ في الأرض ، والإشارة بالقضيب بكلام مستكره » . « البيان والتَّبيين » (١ / ٣٨٣) .

عندهم فوق الشَّاعر ، فإليه يفزعون في الملمَّات والمناسبات . وقد ساق الجاحظُ في « بيانه وتبيينه » هٰذه الفكرة فقال : « وكان الشَّاعر أرفعُ قدراً من الخطيب ، وهم إليه أحوجُ لردِّه مآثرهم عليهم ، وتذكيرهم بأيَّامهم ، فلمَّا كثر الشُّعراء ، وكثر الشِّعر ، صار الخطيب أعظم قَدْراً من الشَّاعر » .

* وندركُ من هٰذه الموازنةِ بين الشَّاعر والخطيب بأنَّ الخطيبَ يكونُ في غالب الأوقات سيِّدَ القوم ورأْسهم ورئيسَهم ، أو عظيماً من عظمائهم ، أو حكيمَهم الحصيف الذي يسترشدون برأيه في الأيَّام العصيبةِ والمواقفِ العاصفة ، وهو الذي ينطقُ بلسانهم في المواسم والمحافل .

* ومن الطَّبيعي أنْ يكونَ الخطيبُ ذا مكانة عظمىٰ في عصر كانت الأميَّةُ متغلِّبةً علىٰ حياة القوم ، فمن الضَّروري أن يكون للقبيلة خطيبٌ حكيم تهتدي برأيه في الأزمات ، وتستنيرُ بمشورته في الملمَّات .

* وذكرت المصادر علىٰ اختلاف مشاربها أنَّ سهيلَ بنَ عمرو كان من مخضرمي الجاهليَّة والإسلام ، وكان خطيب قريش ، وفصيح قومه ، وله مواقفُ محمودةٌ في الجاهليَّة والإسلام ، ولخطبه أثرٌ كبيرٌ في قريش ، وقد وعت المصادرُ بعض خطبه وكلماته ممَّا سنعرفه في سيرته العذبة إنْ شاء ٱلله .

سهيلٌ وإسلامُ أولاده :

* تلقَّىٰ سهيلُ بنُ عمرو أَنْباءَ الدَّعوة إلىٰ الإسلام بإعراضٍ شديد ، ورأي غير رشيد ، وقلبٍ قُدَّ من حديد ، ونامَ ملء جفونه عن الدَّعوة ، وأراحَ فؤاده مُطَمْئِناً نفسه أن لن يستجيبَ إلىٰ ما يدعو إليه محمَّد بنُ عبد ٱلله رسول ٱلله ﷺ .

* ومن اللافت للنَّظر في حياة سيِّدنا سهيل وسيرته ؛ أنَّه صحا علىٰ إسلامِ أولادِه وبناته ، ولم يستطعْ أن يَسْتَلِبَ أفئدتهم من بين صدورهم ، ويصرفها عن الحقّ ؛ وعن نبيِّ الإسلام ، وطارت نفسُهُ شعاعاً لمَّا خرجَ هٰذا

الأمرُ من يده وفار فورَان التَّنُّور ، فقد كان أولادُهُ من السَّابقين إلىٰ مطلع النّور ، ومعدن السُّرور .

* فهـٰذا ابنهُ أبو جندل واسمُهُ العاص ، كان من خيار الصَّحابة ، وكان قد أسلم فحبَسَه وقيَّده ، فلمَّا كان يوم صلح الحديبية ، هرب يحجلُ في قيوده ، وأبوه حاضرٌ بين يدي سيّدنا رسول ٱلله ﷺ لكتاب الصّلح ، فقال : « هـٰذا أوَّلُ مَنْ أقاضيك عليه يا محمَّد » . فقال الحبيبُ الأعظمُ ﷺ لسهيل : « هَبْهُ لي » . فأبىٰ ، فردَّه وهو يصيحُ ويقول : « يا مسلمون ! أُرَدُّ إلىٰ الكفر ؟ » ، ثمَّ إنَّه هرب ، وهاجر ، وجاهد ، ثمَّ انتقلَ إلىٰ جهادِ الشَّام ، فتوفي شهيداً في طاعون عمواس بالأردن سنة (١٨ هـ) ـ رضي ٱلله عنه وعن أبيه وإخوته وحشَرنا في معيتهم ـ .

* وأمَّا الابنُ الآخر لسهيل فهو عبدُ ٱلله بنُ سهيل ، فقد أسلم مع ثلّة السَّابقين ، وكتم إيمانه ، ولمَّا كانت معركة بدر ، خرجَ مع أبيه إليها يكتمُ إيمانه ، فلمَّا التقىٰ الجمعان ، تحوَّل إلىٰ أهل الإيمان ، وقاتلَ في صفوفهم ، وعُدَّ بدريّاً ، وله غزواتٌ ومواقفُ ، واستُشْهِدَ يوم اليمامة ، وله ثمان وثلاثون سنة ـ رضي ٱلله عنه ـ .

* ولسيّدنا سهيل بناتٌ سابقات إلىٰ الدَّوحة الإيمانيَّة المنيفة مع أزواجهنَّ ، ومنهنَّ : سهلةُ بنتُ سهيل العامريَّة [1] امرأة أبي حذيفة بن عتبة العبشميّ أحد السَّابقين الأوَّلين لنور ٱلله ، وأختها أمّ كلثوم بنت سهيل من السَّابقات الأُول بمكة ، ومن المهاجرات إلىٰ الحبشة مع زوجها سبرة بن أبي رهم ـ رضي ٱلله عنها وعن أختها وزوجها ـ .

* كاد سهيلُ بنُ عمرو يتميَّزُ من الغيظ ، وينفجرُ من الغضب ؛ لأنَّ

---

(١) اقرأ سيرة السَّيِّدة المتألِّقة في سماء الصَّحابيات سهلة بنتُ سُهيل في موسوعتنا الجميلة : « نساء من عصر النُّبوَّة » (ص : ٣١٩ ـ ٣٢٥) ففي سيرتها دروس وأحكام وعبر تفيد بنات حوَّاء خاصة .

أولادَه ـ وهم من علْيةِ سادة قريش ـ قد انتظموا في سلْكِ المسلمين ، وانضووا تحت راية التَّوحيد ، ونبذوا خلفَهم لاتَ قريشٍ وعُزَّاها ومَنَاتَها وهُبلَها وأوثانَها ، وما ورثته عن آبائها الأوَّلين .

* نظر سهيلٌ إلىٰ الإسلام نظرةَ كراهيةٍ ، وشَعَرَ بالخطرِ علىٰ حياتهِ الجاهليَّة ، ومادت الأرضُ تحت قدميه ، والتفتَ فرأىٰ أبناءه وأصهاره قد أسلموا ، ورأىٰ أنَّ محمَّداً ﷺ قد اجتذبَ هٰؤلاء الشَّباب وهٰؤلاء الشَّابات ، فهم عنده ومعه مسلمون مؤمنون ، قد هجروا آلهة آبائهم وأسلافهم ، وسفّهوا معه أحلامهم ، وأصبحوا من جند دعوة محمَّد ﷺ ، وفارقوا الآباء والأمَّهات ، وأمسىٰ محمَّد ﷺ كلّ شيءٍ في حياتهم .

* وتنفَّس سهيلٌ الصُّعَداء غمَّاً وهمَّاً وكمداً ، فقد عصاه فلذات كبده ، وتناسوا رحمة الأبوّة من أجل دين لم يعرفْ سهيلٌ كُنْهَه ، وإنْ عرف أنَّ محمَّداً ﷺ صادقٌ فيما يدعو إليه .

من مواقفِ الكيدِ والعنَادِ :

* كان سيِّدنا وحبيبُنا رسولُ ٱلله ﷺ يسيرُ قدماً في نشْرِ دعوته ، وتبليغِ رسالة ربّه ، وظلَّ كذلك إلىٰ أنْ توفيت السَّيِّدة خديجة ـ رضي ٱلله عنها ـ ، وعمُّه أبو طالب ، فَسُدَّتْ عليه منافذ تبليغ الرِّسالة بمكَّة المكرَّمة .

* فمكَّةُ بِمَنْ فيها من العُتَاة المعاندين ، والفُجّار والمشركين ، وما فيها من مهانة الشِّرك وأوثانه ، أبتْ أنْ تستجيبَ إلىٰ الإسلام ، وأعرضت مدبرةً ماكرةً ، ووقفت سدّاً عنيداً دون نشر الدَّعوة إلىٰ الحقِّ والسَّلام ؛ وعندها سعىٰ رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ الطَّائف مع مولاه زيد بن حارثة ، فدعا أهلها إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فردّوا عليه أقبحَ ردّ ، وضربوه بالحجارة فخرج منها عائداً إلىٰ مكَّة ، ثم بعث إلىٰ الأخنس بن شريق ليجيرَهُ ، فكَعَّ الأخنسُ خيفةَ قريش وعتاتها أمثال سهيل وأبي جهل ، وابنَي خلَف أُبيّ وأميَّة وغيرهم ، وتعلَّل بعذر ممزوج بالجبن والرّعب والتَّخاذل وقال : « أنا حليفٌ ، والحليفُ لا يجير » .

* ثمَّ إنَّ رسولَ ٱلله ﷺ بعث إلىٰ سهيلِ بن عمرو يطلب إليه أنْ يجيرَهُ ، فاعتذر سهيلٌ بما لم يكن فيه معتذر ، وقال : « إنَّ بني عمرو لا تجيرُ علىٰ بني كعب »[(١)] ، ثمّ أجاره المطعمُ بنُ عديّ ، وقُبِلَتْ إجارتُهُ . وغاب عن سهيلٍ حينَها أنْ يكونَ صاحب هٰذا الشَّرف التَّليد ؛ والذِّكر الحميد ؛ لأنَّ الحقْد أعمىٰ قلْبَه ، وخيَّم علىٰ صدره ، فلم يعدْ ينظرُ إلىٰ الأمور ببصيرته .

* ظلَّ سهيل بنُ عمرو من أشدِّ النَّاس عداوةً للإسلام والمسلمين ، وحارب الدَّعوة بلسانهِ وسنانهِ ، ولم تفترْ همَّته طوال عشرين عاماً ، وهو يحسبُ أنَّه علىٰ الصَّواب والسَّداد ، وأنَّه يدافعُ عن دين الآباء والأجداد .

* لم يتقبَّلْ سهيلٌ دعوةَ الإسلام ، ولم ينظرْ إلىٰ نورها الذي أشرق علىٰ أمِّ القرىٰ ، ودعا إلىٰ الهدىٰ ، وإلىٰ نبذ عبادة الأحجار التي لا تنفع ، ولا تضرُّ ، ولا تملكُ لنفسها شيئاً .

* وقف سهيلٌ مع الواقفين في وجْهِ سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ ، ولطالما استعمل لسانَه وبيانَه في إطفاء نور الحقِّ ، وحاول أنْ يطمسَ معالم الحقِّ بفصاحته ، ولم يتركْ موطناً من مواطن العداء ، إلا ضرب فيه بالقدح المعلَّىٰ كما ستسفِرُ عنه الفقْرات الآتية بإذن ٱلله عزَّ وجلَّ .

مع أسارىٰ بدر :

* سمع رسولُ ٱلله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً في عير قريش من الشَّام ، فندب المسلمين إليها وقال لهم : « هٰذه عيرُ قريش فيها أموالُهم ، فاخرجوا إليها لعلَّ ٱلله ينفلكموها » .

* كانت العيرُ قرابةَ ألف بعير تحملُ مالاً كثيراً يقدَّر بخمسين ألف دينار لمعظم بيوتات قريش وأعيانها . ونُمي الخبرُ إلىٰ قريش بصوتِ ضمضم بن

---

(١) انظر بتوسُّع : « البداية والنِّهاية » (٣ / ١٦٥) ، و« السِّيرة النَّبويَّة » لمحمَّد أبو شهبة (١ / ٤٠٥) .

عمرو الغِفاريّ الذي أخذ يصرخُ ببطن وادي مكَّة علىٰ بعيره ، وينادي بأعلىٰ صوته : « يا معشرَ قريش ! اللطيمة اللطيمة ! أموالُكُم مع أبي سفيان قد عرضَ لها محمَّدٌ في أصحابه ، لا أرىٰ أنْ تدركوها ، الغوث الغوث » .

* أقام قريشٌ المُقيم المُقعد ، وبلغت قلوبُهم حلاقيمهم من الحقد والغيظ ، وراح الكبراءُ يحثّون القوم علىٰ الخروج لاستئصال شأْفة المسلمين الذين أرادُوا أنْ يقطعوا عليهم تجارتهم مع الشَّام في الرِّحلة الصَّيفيَّة .

* برز من بين الأعيان القرشيين سهيل بن عمرو في رجال من المعاندين ؛ ووقف فيهم خطيباً ممتلئ الفؤاد غيظاً علىٰ محمَّد رسول ٱلله ﷺ والذين معه من المؤمنين ، وأخذ يحرضهم قائلاً : « يا آلَ غالب ! يا معشرَ قريش ! هٰذا محمَّد والصُّباة من شبابكم ، وأهل يثرب قد عرضوا لعيركم ، ولَطِيْمتكم ، أتاركون محمّداً ومَنْ معه يأخذون عيركم ؟ ! مَنْ أراد ظَهْراً فهٰذا ظَهْرٌ ، ومَنْ أراد مالاً فهٰذا مالٌ ، ومَنْ أراد قوَّة فهٰذه قوَّة » [1] .

* وذكر ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللهُ أنَّ أميَّةَ بن أبي الصَّلْت قال في سهيلِ بنِ عمرو بعد أنْ دعا لتمويل قريش :

أأبا يزيدَ رأيتُ سيبَكَ واسعاً	وسجالُ كفِّكَ تستهلُّ وتمطرُ
بُسِطَتْ يداك بفضلِ عرفك والذي	يعطي يسارعُ في العلاء فيظفرُ
فوصلتَ قومَك واتّخذتَ صنيعةً	فيهم تُعدُّ وذو الصنيعة يُشْكَرُ
ونمىٰ ببيتك في المكارم والعلا	يا بن الكرام فروعُ مَجْدٍ تزخرُ
وجحاجحٌ بيضُ الوجوه أعزَّةٌ	غرٌّ كأنَّهم نجوم تزهرُ

(١) انظر : « المغازي » (١ / ٣٢) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ١٩٤) مع الجمع والتَّصرُّف . ومعنىٰ قوله « الصّباة » : الصّباة : جمع صابئ ، وهو مَنْ يترك دينه لدين آخر ، وكان المشركون في مكَّة يسمّون المسلمين الصّباة ؛ لأنَّهم خرجوا من دين الشِّرك إلىٰ دين الإسلام . و« لطيمتكم » : التّجارة . وقيل : العطر خاصة .

إنَّ التَّكـرُّم والنَّـدىٰ مـن عـامـرٍ أخـواك مـا سُلكـتْ لحـجٍّ عَـزْوَرُ »[1]

* خرجت قريشٌ إلىٰ بدر تختالُ بقوتها ، وخرج سهيلُ بنُ عمرو معها ، وهو يظنُّ أنَّ المسلمين سيكونون مقرَّنين في الأصفاد مع ساعةِ الجولة الأولىٰ ، وكان سهيلٌ من المُطْعمين في هٰذه المعركة ، والمطعمون ببدرٍ من قريش معظمهـم مـن أكـابـر المشـركيـن مثـل : عتبـةُ بـنُ ربيعـة ، وأخـوهُ شيبـةُ ، وأبو جهل ، وأميَّةُ بنُ خلف ، ونُبيهُ ومنبّه ابنا الحجَّاج ، وسهيلُ بن عمرو ، ونوفلٌ بنُ خويلد ، وغيرهم ، ومن العجيب أنَّ معظم هٰؤلاء المُطعمين قد لقي حتفه في بدر ، والذين نجوا منهم أنعم ٱللهُ عليهم بالإسلام فيما بعد .

* بدأت المعركةُ عند ماء بدر ، ولم ينتصفْ نهار ذلك اليوم حتَّىٰ أنزلَ اللهُ نصره علىٰ المؤمنين ، فقتلوا فريقاً من المشركين ، وأسروا فريقاً ، بينما لاذَ الباقون بالفرار ، وكان سهيلُ بنُ عمرو ذو الأنياب من بين الأسرىٰ السَّبعين الذين وقعوا بأيدي المسلمين من الأنصار الأبطال ، وقرنوا في الحبال .

* وراح رسولُ ٱللهِ ﷺ يتقدَّم نحو المدينة علىٰ ناقته القصواء ، وقد رُبِطَتْ يدا سهيلِ بنِ عمرو إلىٰ عنقه ، وقُرِنَ إلىٰ النَّاقة ، فتعجب النَّاس

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣١) . و« عَـزْوَر » : رمل بالجحفة ، وقيل : موضعٌ علىٰ الطَّريق بين المدينة ومكَّة .

أقول : « رجعتُ إلىٰ ديوان أميَّةَ بنِ أبي الصَّلت فلم أجدْ سوىٰ البيتِ الأوَّلِ علىٰ النَّحو الآتي :

يـا بـا يـزيـد رأيـتُ سيبـكَ واسعـاً وسمـاء جـودِكَ تَسْتَهِـلُّ فتُمْطِـرُ

والبيت السَّادس علىٰ النَّحو الآتي :

إنَّ التَّكـرُّمَ والنَّـدىٰ فـي عـامـر جـدّاك مـا سُلكـتْ لحـجٍّ عَـزْوَرُ

أمَّا الأبيات الأربعة الأخرىٰ فلا وجود لها » . « ديوان أميَّة » (ص : ٣٩٣) .

وقالوا : « هٰذا الذي كان يطعم بمكَّةَ » ؟ ! ! نعم ، هو ذا ، ولٰكنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أمْكَنَ منه ، بعد أنْ سعىٰ لإطفاء نورِ ٱللهِ ، وبعد أَنْ سعىٰ ليهربَ من الأسر ، فوقع فيه أيضاً ؛ إذ إنَّه أفلت بالرَّوحاء من مالكِ بنِ الدُّخشم الذي أسره ، فصاحَ مالكُ في النَّاس ، فخرجوا في طلبه ، فقال النَّبيُّ ﷺ : « مَنْ وجده فليقتلْهُ » فوجده النَّبيّ ﷺ فلم يقتلْهُ .

* ونجد تفصيل ذلك عند الواقديِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ حيثُ يقولُ ما حصيلته : « وكان سهيلُ بنُ عمرو مع مالك بن الدُّخشم الذي أسره ، فقال : خلِّ سبيلي للغائط . فقام به مالك وخلّىٰ يده .

فقال سهيلٌ : إنِّي أحتشمُ فاستأْخِرْ عنِّي ! فاستأخر عنه ، ومضىٰ سهيلٌ علىٰ وجهه ، انتزعَ يده من القِران ومضىٰ لا يلوي علىٰ شيء . فلمَّا أبطأَ سهيل علىٰ مالك بن الدُّخشم أقبل فصاح في النَّاس أنْ قد أُفْلتَ سهيلٌ ذو الأنياب ، فخرجوا في طلبه ، وخرج النَّبيُّ ﷺ في طلبه ، فقال : « مَنْ وجدَه فليقتلْهُ » فوجده رسولُ ٱللهِ ﷺ قد أخفىٰ نفسه بين سَمُرات ، فأمر بهِ ، فَرُبطت يداهُ إلىٰ عنقه ، ثمَّ قرنَه إلىٰ راحلتِهِ ، فلم يركبْ سهيلٌ خطوةً حتَّىٰ قدم المدينة المنوَّرة ورسول ٱلله ﷺ علىٰ راحلته القصواء ، ولقي أسامة بن زيد ـ رضي ٱلله عنهما ـ فأجلسَه بين يديه ، وسهيلٌ مجنوبٌ ، ويداه إلىٰ عنقه ، فلمَّا نظر أسامةُ إلىٰ سهيلٍ قال : يا رسولَ ٱلله ! أبو يزيد ؟ !

قال : « نعم هٰذا الذي كان يطعم بمكَّة الخبزَ » [1] .

* وراح مالكُ بنُ الدُّخشم الذي أسره يترنَّم ويقول :

أسرتُ سُهيلاً فلن أبتغي	**أسيراً به من جميع الأمم**
وخِنْدفُ تعلمُ أنَّ الفتىٰ	**سُهيلاً فتاها إذا تُصْطَلم**

---

(1) « المغازي » (١ / ١١٧ ـ ١١٨) بتصرُّف يسير . وقوله « مجنوب » : قاده إلىٰ جنبه فهو مجنوب وجنيب .

ضربتُ بذي الشّفر حتَّىٰ انثنىٰ وأكرهت سيفي علىٰ ذي العلم [1]

* ومن العجيب في السِّيرة السُّهيليّة الماتعة أنَّ كثيراً من النَّاس بمكَّة قد ارتابوا وشككوا في أنْ يقع سهيل بن عمرو أسيراً بأيدي المسلمين ، وأنْ يُقتل كبراء قريش في بدر ، ولم يتوقَّعوا نصر المؤمنين نظراً لظواهر الأسباب والمسبّبات ، فعندما قدم زيدُ بنُ حارثة ، وعبدُ ٱلله بنُ رواحة بشيرَيْن إلىٰ المدينة بنصرِ المؤمنين ، أصبح النَّاسُ مأخوذين وهم بين مصدِّق ومكذِّب ، وجعل فريقٌ من أعداء الإسلام يستهزئون بما يسمعون ، وفريق مكظومٌ يخاف أنْ يصدّق ما يسمعون ؛ لأنَّ زيد بن حارثة شرع ينادي ويبشِّر أهل المدينة عند المصلَّىٰ ويقول : « قُتِلَ عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة ، وابنا الحجاج ، وأميَّة بن خلف ، وأبو جهل ، وأبو البختري ، وزمعة بن الأسود ، وأُسِرَ سهيل بن عمرو ذو الأنياب في أسرىٰ كثير » . حتَّىٰ إنَّ أسامة بن زيد لمَّا رأىٰ إرجاف المنافقين وتكذيب اليهود لهٰذه البشائر قال : « فجئتُ حتَّىٰ خلوت بأبي ، فقلتُ : أحقٌّ ما تقول يا أبة ؟ فقال : إي واللهِ حقّ ما أقول يا بني » . فقويتْ نفسُ أسامة وراح يبشِّر المسلمين ويطمئنهم بنصر ٱلله ، حتَّىٰ جيء بالأسرىٰ فدخلوا المدينة ، وعليهم شقران مولىٰ رسولِ ٱلله ﷺ .

* ولمَّا قدمَ رسولُ ٱلله ﷺ المدينة المنوَّرة ، وقدم بالأسرىٰ ، كانت سودةُ بنْتُ زمعةَ أمُّ المؤمنين عند آل عفراء في مناحتهم علىٰ عوف ومعوِّذ ابنَي

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٠) ، وقوله « بذي الشّفر » : لقب سيفه . ومن الجدير بالذِّكر أنَّ الملائكةَ الكرامَ قد اشتركت في أسْرِ المشركين وقتالهم يوم بدر ، وقد شهد بهٰذا الأمر العظيم سهيل بن عمرو نفسه حيث قال : « لقد رأيتُ يومَ بدرٍ رجالاً بيضاً علىٰ خيلٍ بُلْقٍ بين السَّماء والأرض مُعْلَمين ، يقتلون ويأسرون » . « شرح حياة الصَّحابة » (٤ / ٣٣٠) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٠) .

أقول : « ومع رؤيةِ سهيل قتال الملائكة للمشركين يوم بدر ، لم يسلمْ إلا في أيَّام الفتح حيث فتح ٱلله علىٰ بصيرته ـ رضي ٱلله عنه ـ » .

عفـراء ، وذلـك قبـل أنْ يُضـرب الحجـاب . قـالـت أمّنـا أمّ المـؤمنيـن سودة [١] ـ رضي ٱلله عنها ـ : « فأَتَيْنا ؛ فقيل لنا : هٰؤلاء الأسرىٰ قد أُتي بهم ، فخرجتُ إلىٰ بيتي ورسول ٱلله ﷺ فيه ؛ وإذا أبو يزيد مجموعة يداه إلىٰ عنقهِ في ناحية البيت ، فوٱلله ما ملكتُ نفسي حين رأيته مجموعة يداه إلىٰ عنقه أن قلتُ : أبا يزيد ! أعطيتم بأيديكم ! ألا مُتمْ كراماً ؟ ! فوالله ِ! ما راعني إلا قول رسول ٱلله ﷺ من البيت : « أيا سودة ، أعَلىٰ ٱلله ، وعلىٰ رسوله تحرِّضين ؟ » .

قلت : يا نبيَّ ٱلله ! والذي بعثَك بالحقِّ نبيّاً ، ما ملكت نفسي حين رأيتُ أبا يزيد مجموعة يداه إلىٰ عنقه أنْ قُلْتُ ما قلتُ » [٢] .

*وقبِلَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ اعتذار أمّنا سودة ـ رضي ٱلله عنها ـ ؛ إذ إنَّ ما قالته عند رؤيتها سهيل بن عمرو كان أثراً من آثار تغلّب الطَّبيعة البشريّة التي تتأثَّر غالباً بالمواقف العاطفيّة ، ولم يهزّ ذلك القول إيمانها ، ولم يعكرْ صفاء نفسيتها المشرقة بنقاء الإسلام ووفاء الصِّدق ، بدليل أنَّها قالت في عفوية وبساطة : « ما ملكت نفسي أنْ قلتُ ما قلتُ » .

* وعن أَسْرِ سهيل بن عمرو أبي يزيد ؛ وموقفِ أمّنا سودةَ من ذلك ، وإقالة النّبيّ ﷺ عثرتها اللسانيّة هٰذه ، نبحرُ مع أنفاس الأدب ، وأنسام الشِّعر ، وهٰذه التَّغريدة الدَّافئة الحانية :

قـد جِـيءَ بـالأسـرىٰ وكـانـوا بـالحِبَـال مقيَّـديـن
تـروي الـرِّوايـةَ سـودةٌ مـن أمّهـات المـؤمنيـن

---

(١) اقرأ سيرة أم المؤمنين سودة في موسوعتنا : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٩٣ ـ ١٢٢) ط : ٦ ـ فسيرتها تهذّب النّفوس ، وتضفي إليها الصّفاء والنَّقاء .

(٢) « المغازي » (١ / ١١٨) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٣) ، و« تاريخ الطَّبرّي » (٢ / ٣٩) .

قـالـتْ فلمَّـا أنْ رأيـتُ أبـا يـزيـد فـي أنيـن

جُمِعَـتْ يـداه لعُنقـهِ ذلٌّ غشَـاهُ وقـد أُهيـن

قـد كـان مقْـداماً وكـان مـن الـرِّجـال البـارزيـن

فنسيـتُ أنِّـي زوجـةُ الهـادي رسـول العـالميـن

وهتفـتُ فـي الأسـرىٰ بقـولٍ فيـه عنـفُ القـائليـن

أعطيتُـم الأيـدي ألا متّـم كـرامـاً صـامـديـن

وإذا رسـولُ اللهِ يَسْمعُنـي فقـال لِيَسْتَبيـن

يـا سـودةٌ مـاذا دهَـاك أللعـدوِّ تُحـرِّضيـن

فـذهلـتُ ممَّـا قَـدْ عَـرانـي صِـرْتُ فـي حـزنٍ مُهيـن

وهتفـتُ معـذرةً أيـا خيـرَ الـورىٰ والمـرسليـن

مـا إنْ نظـرتُ إلـىٰ سهيـلٍ والأسـارىٰ المكـرهيـن

قـد غلَّـتِ الأيـدي وذُلٌّ قـد غشـاهـم أجمعيـن

حتَّـىٰ هتفـتُ بمـا هتفـتُ وإنَّنـي فـي النَّـادميـن [1]

* وصلت أنباءُ الهزيمة القرشيَّة مكَّة ، ومُلِئَتْ بيوت المشركين بالأحزان علىٰ قتلاهم ، كما جاشت الصُّدور بالغيظ علىٰ المسلمين الذين أسروا أكابرَهم ، فبكت البواكي ، وناحت النَّائحات ، فانبعث من أوقف البواكي من النساء ؛ وزعم أنَّ محمَّداً ﷺ سيشمتُ بهم صباح مساء ، أمَّا الأسرىٰ فلا يرىٰ أنْ تسرعَ قريش في الفداء ، إلا أنَّ زعمَهُ هـٰذا راح في الهباء ؛ فقد انسلَّ ابن أبي وداعة السَّهمي من مكَّةَ ، واتَّجه لفداء أبيه ، كما جاء مكرزُ بنُ حَفْص في فداءِ سهيلِ بنِ عمرو العامريّ ، وكان سهيلٌ لمَّا أُسر قال سيِّدنا عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ لرسول ٱلله ﷺ : « يا رسولَ ٱلله ! دعني أنزعُ ثنيتَي سهيل بن عمرو ، يدلع لسانه ، فلا يقومُ عليك خطيباً في موطن أبداً » .

---

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ٢٥٦) . وقوله « فيه عنف القائلين » : تعنيف وتأنيب لهم . و« عراني » : أصابني .

فقال رسولُ ٱلله ﷺ لعمر ـ رضي ٱلله عنه ـ : « لا أمثّل به فيمثّل ٱلله بي ، وإنْ كنتُ نبياً » . وقيل : إنَّ رسولَ ٱلله ﷺ قال لعمر : « إنَّه عسىٰ أنْ يقومَ مقاماً لا تذمّه » . وصار سهيلُ بنُ عمرو حرّاً بعد أنْ أدّىٰ الفدية [1] .

* وعن قضيَّة فداء أهل مكَّة أسراهم ، وما حدثَ لسهيلِ بنِ عمرو ، نقرأ هٰذه الهمزيَّة المنعشة التي تفترُّ عن مبسمها فتقول :

نـاحُـوا علـىٰ القَتْلـىٰ بمكَّـةَ ثـمَّ قـالـوا لا بكـاء
إن البكـاءَ دليـلُ ضعـفٍ فلتكـونـوا أقـويـاء
أمَّـا عـن الأسـرىٰ فصبـراً لا تـؤدُّوا للفـداء
لٰكـنَّ بعـضَ القـوم لـم يصبـرْ علـىٰ مُـرِّ العنـاء
فـانْسَـلَّ ابـن أبـي وداعـةَ نحـو يثـربَ فـي خفـاء
فـأتـىٰ لِفَـكِّ أبيـه كـان مـن الـرِّجـال الأغنيـاء
قـد أخبـرَ الهـادي صحـابتَـهُ بهٰـذا فـي صَفَـاء
مـن بعـده قـد جـاء مِكْـرزُ عـن سهيـل بـالـوفـاء
لٰكـنْ سهيـلٌ كـان قَبْـلَ الأسْـرِ للهـادي أسـاء

---

(١) قال الواقدي رَحِمَهُ ٱللهُ عن فداء سهيل : « لمَّا قدم مِكْرَز بن حفص انتهىٰ إلىٰ رضاهم في سهيل ، ودفع الفداء ، أربعة آلاف ، قالوا : هاتِ مالنا . قال : نعم ، اجعلوا رجلاً مكان رجل ، وخلُّوا سبيله . فكان عبدُ ٱلله بنُ جعفر يقول : رجلاً برجل ! وكان محمَّدُ بنُ صالح وابن أبي الزِّناد يقولان : رجلاً برجل ! فخلُّوا سبيل سهيل ، وحبسوا مِكْرز بن حفص ، وبعث سهيل بالمال مكانه من مكَّة » . « المغازي » (١ / ١٤٣) .

وفي حادثة الفداء يقول مكرزُ بنُ حفص :

فـديـتُ بـأذوادٍ كـرامٍ سبـا فتـىٰ ... ينـالُ الصَّميـمَ غـرمُهـا لا المـواليـا
وقلـتُ سهيـلٌ خيـرُنـا فـاذهبـوا بـه ... لأبنـائنـا حتَّـىٰ يـديـروا الأمـانيـا

« مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣١) .

قــد كــان يخطــبُ فــي المحــافــل كــان داعيــة العــداء
لمَّـــا أتـــوا لفـــدائـــه عمـــرٌ أرادَ لـــه الجـــزاء
عمـــرٌ يقـــولُ لنخلـــعَ الأسنـــان منـــه لكـــي يُسَـــاء
قـــال النَّبـــيُّ فـــلا أمثِّـــلُ ذاك تمقتُـــه السَّمـــاء
أخشـــىٰ مـــن التَّمثيـــل بـــي هـٰــذا لأجـــل الاقتـــداء
مـــن ثـــمَّ صـــار سهيـــل حـــرّاً بـــالفـــداء وبـــالعطـــاء

مواقفُ سهيليَّةٌ في صلْح الحديبية :

* تعالوا الآن نحضر مع سهيلِ بنِ عمرو ، وهو يعقدُ صلحَ الحديبية مع الهادي البشير محمَّدٍ رسولِ ٱلله ﷺ ، في وقتٍ حرج من حياته التي أزفَ من خلالها أنْ يودِّعَ الشِّركَ وأهلَه ، ويُودِع فطْنَته في خدمةِ الإسلام ، وتحت التَّصرُّف النَّبويّ ، ولـٰكنَّ الأوانَ لم يحِنْ بعد ، ولعلَّ الحكمةَ في ذلك أنْ يستفيدَ سهيل وأمثاله من التَّربية المحمَّديَّة المتأنية الهادفة ؛ إذ إنَّ الخيرَ كلّ الخير في هـٰؤلاء الرِّجال الذين فتحوا الدُّنيا فيما بعد ، ومنهم : خالدُ بنُ الوليد ، وعمرو بنُ العاص ، وسهيلُ بنُ عمرو ، والحارثُ بنُ هشام ، ويزيدُ بنُ أبي سفيان ، وأبوهُ أبو سفيان بنُ حرب ، وغيرُهم من أكابر القوم وأعلامهم وأعيانهم . . . أرأيتم الحلمَ النَّبويَّ الذي جعل هـٰؤلاء الأعداء أسيادَ الدُّنيا وسادةَ الفاتحين ؟ ! إنَّ للهِ في خلقه شؤوناً وهو الفتّاح العليمُ الخبير .

* ونعودُ إلىٰ صلح الحديبية بأحداثهِ المثيرة ودروسه الكثيرة ، فنحنُ نعلمُ أنَّ قريشاً كانت تأبىٰ أنْ تلقي أسماعَها إلىٰ محمَّد رسول ٱلله ﷺ ، فهي التي اضطهدته منذ أنْ تنفَّس صبحُ الإسلام ، وانبلج فجرُهُ من غار حراء بكلمة : ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ [العلق : ١] ، وكذلك عندما أخبرهم بأنَّه رسولُ ٱلله إليهم ليهديهم سواء السَّبيل . هنالك نال منه رجالُهم وبعضُ نسائهم ، وآذوه أشدَّ الأذىٰ ، وعذّبوا أصحابه وأرغموهم علىٰ أنْ يهاجروا في أرض اللهِ الواسعة . ولم ترضَ قريش عن هـٰذه الهجرة ، فنشب القتالُ بينها وبين المهاجرين والأنصار لا يخبو له أوار ، وكان أملُ قريش وهدفها أنْ تقضيَ علىٰ الرَّسولِ

الأمين محمَّد ﷺ الذي سفَّه أحلام الآباء ، وغضَّ من شأْن مواريث الأجداد .

* كانت قريشٌ ترومُ إبادة دعوة الإسلام واستئصال شأْفةِ المسلمين ، وتودُّ أنْ تقتلَ رسولَ ٱلله ﷺ ، وإذا بها اليوم تَقْبَلُ أنْ تجلسَ معه لتهادنه ، وتعقدَ معه معاهدة ذهبتْ بغطرستهم ، وألقتْها في غياهب النِّسيان ، وردّتهم إلىٰ صوابهم بعد حين من الدَّهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، لا يزيدُ عن عام بعد صلح الحديبية ، وكان سهيلُ بنُ عمرو هو صلةُ الوصل ، وروحُ الصُّلح بين رسول ٱلله ﷺ وقريش ، فكيف كان ذلك ؟ !

* لمَّا بلغ قريشاً أمرُ البيعة الرِّضوانيَّة في الحديبية تحت الشَّجرة ، وأدرك زعماؤها تصميمَ رسولِ ٱلله ﷺ علىٰ القتال ، أوفدت خطيبَ محافلِها سهيلَ بنَ عمرو في نَفَرٍ من أعيانها ، ومن أمراء البيان لديها ، ولمَّا رأىٰ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ سهيلاً مقبلاً سُرَّ واستبشرَ به ، وقال لأصحابه الكرام ـ رضي ٱلله عنهم ـ : « لقد أرادَ القومُ الصُّلح حين بعثوا هـٰذا الرَّجل » .

* ولعلَّه كان من يُمْنِ قريش ؛ أنْ يكونَ سهيلُ بنُ عمرو وباقي مرافقيه حاضرين في الحديبية ساعةَ مبايعة الصَّحابة لرسول ٱلله ﷺ علىٰ الموت ، وكيف كانت تعبق منهم أنفاسُ النُّبوَّة ، وتبدو علىٰ محيَّاهم آثار الفتوَّة .

* فقد رأىٰ سهيلٌ ومرافقوهُ إجراءات البيعة الرِّضوانيَّة ، فرأوا مظهراً من أعظم مظاهر التَّفاني في خدمة العقيدة ، والاستعداد للتَّضحية والفداء في سبيلِ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فمُلِئَتْ قلوبهم رعباً ، وقرَّ في أعماق نفوسهم أنَّه لا يمكن لقريش أنْ تنتصرَ علىٰ هـٰؤلاء المبايعين ؛ الذين يتسابقون إلىٰ الموت مستبشرين .

* في هـٰذا الموقف المتألِّق من الصَّحابة الكرام ، وبيعتهم الخالدة لنبيِّ السَّلام ، وقف سهيلٌ موقفَ العَقْل والرَّزانة ، فقد كان سهيلٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ نجماً لامعاً بين سادات قومه ، وعُرِفَ بينهم في رجاحةِ العقل ، وسَعَةِ الحلْمِ ، وأصالةِ الرَّأي ، وبُعْدِ النَّظر ، وكمالِ الهدوء . ولهـٰذه الأخلاق والصِّفات ،

كانت قريش تدّخره للقضايا وحلّ الأزمات ، وتفزعُ إليه عند نزول الملمَّات ؛ وحدوث المعضلات .

* روت مصادرُ السِّيرة الصَّحيحة ؛ التي استُقيت من كتب الحديث الصَّحيحة ؛ أنهَّ لمَّا اخلولقت مشكلةُ الحديبية تتعقَّدُ ، وكادت تتفَجَّرُ الحرب من أجلِ حبس سيِّدنا عثمان بن عفان ـ رضي ٱلله عنه ـ بمكَّة ، هنالك اشرأبَّتِ الأعناقُ القرشيَّةُ إلىٰ الفطنة السُّهيليَّة ، ونطقتِ الألسنُ : « أن كُنْ يا سهيلُ بنُ عمرو رئيسَ وفْد السَّلام ؛ لمفاوضاتِ رسول ٱلله ﷺ ومَنْ معه من رجال الإسلام الذين صدقوا ما عاهدوا ٱلله عليه » .

* رسمت قريشٌ خطوطاً واضحةً لمفاوضات السَّلام مع المسلمين ، ومنها أنَّ قريشاً لا تمانع في دخول المسلمين مكَّة للاعتمار ، ولـٰكنْ في العام القادم ، وذلك حفظاً لماء وجهها أمام القبائل الأخرىٰ ؛ وقالت لسهيل : « صالحْ محمَّداً ، ولا يكُنْ في صلحه ، إلا أنْ يرجعَ عنَّا عامه هـٰذا » . ثمَّ إنَّ قريشاً تركتْ باقي الأمور لسهيل يتصرَّفُ بحريَّةٍ ممزوجة بالحزم ، فهو من أهل الرَّزانة والفِطْنة والحصافة والفهم ، وهو خطيب مصقع ، ولفظه بالفصاحة مرصَّع ، وبالبلاغةِ مُلمَّع ، ومقداره مُرَفَّع ، ومجده مُوقَّع .

* والحقيقةُ ؛ فقد كان سيِّدنا سهيلٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ رجلاً يحبُّ الصَّراحة قولاً وفعلاً ، ويكرهُ أنْ يميلَ إلىٰ الرِّياء ، وكان سهيلٌ شهماً عفَّ اللسان ، لبِقاً ، فصيحاً ، مفوّهاً ، ثابتَ الجَنَان ؛ يعرفُ من أين تُؤكَلُ الكتف إذا ما تحدَّث أو وقف خطيباً ؛ إذ إنه يُعَطِّرُ المحافلَ طيباً .

* ولمَّا توجَّه سهيلٌ إلىٰ الحديبية ، إلىٰ حيثُ عَقْدِ الصُّلح ، استبشرَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ ، وبشَّرَ رجالَهُ بالفَرجِ القريب حينما بَصُرَ بسهيلٍ وهو قادمٌ ، فقال : « قد سهَّل ٱلله لكم منْ أمرِكم » ، وقال : « قد أراد القومُ الصُّلح حين بعثوا هـٰذا الرَّجُل » [1] . وفي رواية أخرىٰ عند الطَّبريِّ في « تاريخه » أنَّ

---

(١) « تاريخ الطّبريّ » (٢ / ١٢٢) طبعة دار الكتب العلميّة الثّانية ـ ١٩٨٨ م .

رسولَ ٱلله ﷺ قال لأصحابه الذين معه : « سهَّل اللهُ أمركم ، القومُ ماتُّون إليكم بأرحامكم ، وسائلوكم الصُّلح ، فابعثوا الهدي ، وأظهروا التَّلبية ، لعلَّ ٱلله يلين قلوبهم » ، ففعلوا ذلك ، فارتفعت أصواتُهم بالتَّلبية من نواحي العسكر تشقّ عنان السَّماء .

* بدأتِ المفاوضاتُ ، وأخذ سهيلٌ يتحدَّث بصوتٍ عالٍ ، وإذ ذاك لَفَتَ حارسا النَّبيّ ﷺ نَظَرَ سُهيل إلىٰ أنْ يخفضَ صوتَه عند رسول ٱلله ﷺ ، وأنْ يلتزمَ آداب أصحابه في مخاطبته ، فهو رسولُ ربِّ العالمين ، ولا ينبغي أنْ يرتفعَ صوتُ أحدٍ عنده وإن كان من المفوهين .

* وتنقلُ لنا هٰذه الصُّورة الكريمة سيِّدةٌ مجاهدةٌ من نساء عصر النُّبوَّة الفاضلات ، وترسمُ لنا كيف كان مجلس الصُّلح ، وكيف ارتفعتِ الأصواتُ وانخفضت ، وكيف أمرَ الصَّحابة سُهيلاً أنْ يخفضَ صوته في المجلس ، هٰذه السَّيِّدة الكريمة هي نسيبةُ بنتُ كعب المازنيَّة [1] أمُّ عمارة التي حضرت البيعة الرِّضوانيَّة ، وكانت ممن حفَّتهم العناية الرَّبَّانيَّة ، تقول أمُّ عمارة ـ رضي ٱلله عنها ـ : « إنِّي لأنظرُ إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ جالساً يومئذ متربِّعاً ، وإنَّ عبَّادَ بنَ بشر ، وسلمةَ بنَ أسلم بن حَريش مقنَّعان بالحديد ، قائمان علىٰ رأس النَّبيِّ ﷺ ؛ إذ رفع سهيلُ بن عمرو صوتَه قالا : اخفِضْ من صوتك عند رسول ٱلله ! وسهيلٌ باركٌ علىٰ ركبتَيْه ، رافعٌ صوتَه كأنِّي أنظرُ إلىٰ عَلَم في شَفَتِـهِ ، وإلىٰ أنيابه ، وإنَّ المسلمين لَحَوْلَ رسول ٱلله ﷺ جلوس » [2] .

* بدأت مراسيمُ صياغة الصُّلح بعد أخذٍ وردٍّ ، وبعد مراجعاتٍ ومفاوضاتٍ لتقريب وجهات النَّظر بين المسلمين وقريش بزعامة موفدها سهيل بن عمرو العامريّ .

---

(١) اقرأ سيرة الصحابية الجليلة المجاهدة في موسوعتنا : « نساء من عصر النُّبوَّة » (ص : ٢٦٠ ـ ٢٦٧) ، ط : ـ ٢٠٠٣ م ؛ ففي سيرتها مواقف تهم كل امرأة تؤمن بٱلله ، وتبتغي مرضاته .

(٢) انظر : « المغازي » (٢ / ٦٠٥ ـ ٦٠٦) .

* أمرَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ سيِّدنا عليَّ بنَ أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ أنْ يبدأَ كتابةَ المعاهدة بلفظ : « بسمِ اللهِ الرَّحمـٰنِ الرَّحيمِ » ، وهـٰهنا وقفَ رئيسُ الوفد القرشي ؛ النَّاطق باسمهم سُهيل بن عمرو ، ثمَّ اعترضَ قائلاً علىٰ بداية الكتابة : « لا أعرفُ الرَّحمـٰن ! اكتبْ باسمك اللهمَّ » . ضجَّ بعضُ كبراء الصَّحابة من المهاجرين والأنصار محتجِّين علىٰ الاعتراض السُّهيليّ ، وقالوا : « هو الرَّحمـٰن ، ولا نكتبُ إلا الرَّحمـٰن » .

* ولـٰكنَّ المهارةَ العظيمةَ في معرفة أسرار النُّفوس ، وعوامل الغضب والرِّضىٰ والثَّورة والهدوء قد برزتْ لتخفِّفَ من حدَّةِ الموقف ؛ فقد ظهرت الحكمةُ المحمَّديَّة المتألِّقة في مثل هـٰذه الأزمات ، فأوعزَ ﷺ إلىٰ الكاتب أن اكتب : « باسمك اللهمَّ » ، وشرعَ في الكتابة ، وأمرَ الكاتب أنْ يكتبَ : « هـٰذا ما اصطلحَ عليه رسولُ ٱلله » ، مرَّةً أخرىٰ يعترض سهيل بن عمرو علىٰ كلمةِ « رسول ٱلله » وأصرَّ أنْ تُبدَّلَ بغيرها وقال للصَّادق المصدوق ﷺ في صراحةٍ ممزوجةٍ بالجرأة والفِطْنة : « لو أعلمُ أنَّكَ رسولُ ٱلله ما خالفتُكَ ، واتَّبعتُك ، أفترغبُ عن اسمك ، واسم أبيك محمَّد بن عبد ٱلله ، اكتب اسمكَ ، واسمَ أبيك » .

* ويحسنُ بنا الآن أنْ نستظلَّ تحت ظلالِ الأدب سويعة ؛ وأنْ نَرِدَ منْهَلَه ؛ كي نستمتع بهـٰذه الأنسام الحانية التي تداعبُ همسات الأصيل ، وتروي لنا قصَّة كتابة صلح الحديبية مع سهيل :

نادىٰ الرَّسولُ علىٰ عليٍّ كاتبِ المُتَصَالحين
هو كاتبٌ للعهدِ بينَ المُصْطفىٰ والمشركين
أملىٰ رسولُ اللهِ قال لكاتبِ العهْد المتين
اكتبْ بِاسمِ ٱلله والرَّحمـٰن خير الرَّاحمين
لـٰكنْ سُهيلٌ قال لا لسنا لهـٰذي عارفين
لا تكتبنَّ سوىٰ التي كنَّا لها متوارثين
هي باسمكَ اللهمَّ فاكتُبْها كَكُلِّ الكاتبين

رضـــيَ الـــرَّســـولُ بهٰـــذه كـــي يـــرضـــيَ المُتَعنِّتيـــن
أملـــىٰ رســـولُ ٱلله تَقـــدِمـــة البنـــود الخـــالـــديـــن
هٰـــذا التَّصـــالـــحُ مـــعْ رســـولِ اللهِ والمتفـــاوضيـــن
لٰكـــنْ سهيـــلٌ قـــال لا لا تكتـــب القـــول المهيـــن
لا تـــذكـــرنَّ رســـالـــةً لَسْنـــا بهٰـــذا مُـــوقنيـــن
لـــو قـــد شَهـــدْنـــا بـــالـــرِّســـالـــةِ مـــا اختصمنـــا أجمعيـــن
لا تكتبـــنَّ لغيـــر اِسمـــك ولنكـــنْ متعـــادليـــن
رضـــيَ الـــرّســـولُ بمـــا أراد فَنِعْـــم خيـــرُ المُـــرسليـــن

* أثار تصرّفُ سهيلٍ واعتراضُه غضبَ بعض المسلمين ؛ وارتفعتْ أصواتُهم معلنين عن احتجاجهم وإصرارهم علىٰ بقاء كلمة « رسول ٱلله » ، وأشاروا إلىٰ الكاتب بألاّ يمحوها ، بيد أنَّ حبيبَنا وسيِّدنا ومعلِّمنا رسولَ ٱلله ﷺ ـ **بمهارته الممزوجة بالحكمةِ والتَّسامح ، وبُعْد النَّظَر** ـ حسم الخلاف ، وغرس الائتلاف ، فأشار إلىٰ أصحابه أنْ يلتزموا السَّكينة والوقار ، وأنْ يَدَعوا الخلافَ والمماراة والجدال ، فاستجابَ الصَّحابة أجمعون ، وسمعوا وأطاعوا ، فأشار ﷺ إلىٰ الكاتب أن يكتبَ « باسمكَ اللهم » ، فكتب ما أمرَهُ به ﷺ . وبهٰذا تلاشىٰ النِّزاعُ والتَّخاصمُ بين الفريقَيْن ، ثمَّ كُتِبت المعاهدةُ ، بعد أنْ تغلَّبت حكمةُ [1] رسول ٱلله ﷺ علىٰ

---

(١) كان سيِّدنا محمدٌ ﷺ عالماً بنفوسِ أصحابه ، عارفاً بنفوس مَنْ حوله ، واقفاً علىٰ دقائق أخلاقهم ، محيطاً بغوامضِ أمزجتهم ، يعلمُ ما يغضبُ له فلانٌ من الصَّحابة ، وما يرضىٰ به فلان ، ويعرفُ ما يستثيرُ فلاناً ، وما يهدأُ به فلان ، فعامَلَ كُلّ واحدٍ منهم المعاملةَ المناسبةَ له ، اللائقةَ به ، حتَّىٰ أشربتِ القلوبُ محبّته ، وانطَوتْ علىٰ طاعتِهِ ، فلمْ ينفضَّ أحدٌ من حوله ، وهٰذا منتهىٰ الحذقِ في سياسةِ النَّاس . وليس يعلمُ ما لهٰذه الأمور النَّفسيَّة من الأثر في سياسةِ الخلق إلا الذين كُتب لهم أنْ يمارسوا هٰذه السِّياسة ويعالجوها ، فما أكثر الذين ينفضّون من حول زعيمٍ من الزُّعماء ؛ لأنَّه فظّ غليظ القلب ، وما أكثر الذين ينضمّون إلىٰ رئيس من الرؤساء ؛ لأنّه رقيقُ القلب ،=

العقبات التي اعترضت مراسمَ الصّلح وشؤونَه .

* ثمَّ إنَّ المعاهدةَ تمَّت كتابتها علىٰ نسختَيْن ؛ إحداهما أخذها المسلمون ، والأخرىٰ أخذها زعيمُ الوفد القُرشيّ سهيلُ بن عمرو ، وها نحن أولاء نقرأ الصِّيغة الكاملة لهٰذه المعاهدة وهٰذا الصُّلح الخالد الذي كان فتحاً عظيماً للمسلمين ؛ تقولُ صيغةُ المعاهدة : « باسمكَ اللهمَّ ! هٰذا ما اصطلحَ عليه محمَّدُ بنُ عبد ٱلله ، وسهيلُ بنُ عمرو ، اصطلحا علىٰ وضع الحرب عشر سنين ، يأمنُ فيها النَّاس ، ويكفُّ بعضُهم عن بعض ، علىٰ أنَّه لا إسلال ولا إغلال ، وأنَّ بيننا عيبةً مكفوفةً ، وأنَّه مَنْ أحبَّ أنْ يدخلَ في عهد محمَّدٍ وعقْدِهِ فَعَلَ ، وأنَّه من أحبَّ أنْ يدخلَ في عهد قريش وعقدها فَعَل ، وأنَّه مَنْ أتىٰ محمَّداً منهم بغير إذن وليِّه ردّه إليه ، وأنَّه مَنْ أتىٰ قريشاً من أصحاب محمَّدٍ لم تردَّه ، وأنَّ محمَّداً يرجعُ عنَّا عامه هٰذا بأصحابه ، ويدخلُ علينا قابل في أصحابه ، فيقيمُ ثلاثاً ، لا يدخلُ علينا بسلاحٍ إلا سلاح المسافر ، السُّيوف في القُرَب » (١) .

= لطيفُ الحسّ ، ينزلُ النَّاسَ منازلهم ، ويخاطبُهم علىٰ قَدْر مراتبهم ، وهٰذه حكمةٌ يختصُّ ٱلله بها مَنْ يشاء ، ويحرمها مَنْ يشاء ، ولهٰذا الاختصاص ، ولهٰذا الحرمان أبلغ الأثر في التوفيق في سياسة النَّاس ، أو في الإخفاق فيها . « العناصر النَّفسيَّة في سياسة العرب » (ص : ١٠ ـ ١١) بتصرف يسير .

(١) « السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ٣١٧) ، و« المغازي » (٢ / ٦١١) ، و« تفسير القرطبي » (١ / ١٠٤) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (١ / ٢٨١ ـ ٢٨٣) ، وغيرها من كتب الحديث والسِّيرة والطَّبقات . وقوله « الإسلال » : السَّرقة الخفية . و« الإغلال » : الخيانة . و« العَيبة » : صدورٌ منطويةٌ علىٰ ما فيها ، لا نبدي عداوة ، وتكفّ عنَّا ، ونكفّ عنك . و« قابل » : العام القادم .

وفي هٰذه المعاهدة دروسٌ وأحكامٌ عظيمةٌ جداً ، وفي مقدمتها : حرصُ سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ علىٰ مصالحةِ قريش ، واستبقائها للإسلام ؛ إذ إنَّ قريشاً من أشدِّ العرب ذكاءً ، وفصاحةً ، وخبرةً ، ومكانةً بين القبائل ، فإذا انتظموا في الإسلام كان ذلك=

* ودعونا الآن نترنَّمُ بتغريدةٍ جميلةٍ تستوعبُ شروط صلح الحديبية بين همسَات حروفها ، ودفقَات كلماتها :

هٰـــذي شُـــروطُ الصُّلـــح بيـــن محمَّـــدٍ والمشـــركيـــن
لا حـــربَ بينهمـــا يكـــونُ قُبيـــل عشـــر مـــن سنيـــن
وإذا اهتـــدىٰ قـــومٌ وجـــاؤوا للمـــدينـــة مسلميـــن
فمحمَّـــدٌ سيـــردُّهُـــم حتَّـــىٰ يعـــودوا مُـــرغميـــن
والمسلمـــون إذا أرادوا أنْ يعـــودوا كـــافـــريـــن
هُـــمْ بـــالخيـــار فلَـــنْ يكُـــونُـــوا مـــرغميـــن وخـــائفيـــن
أمَّـــا التَّحـــالـــف فهـــو حـــقٌّ للتَّحـــالـــف أجمعيـــن
كُـــلُّ القبـــائـــل بعـــد هٰـــذا أصبحـــوا فـــي الآمنيـــن
ومحمَّـــدٌ فـــي عـــامـــهِ هٰـــذا وكـــلُّ المحـــرميـــن
لـــن يـــدخلـــوا أبـــوابَ مكَّـــة بـــل يعُـــودوا راجعيـــن
فـــي مثـــل هٰـــذا فليعُـــودوا بعـــد عـــامٍ زائـــريـــن
لا يحملـــون لغيـــر أنـــواع السُّيـــوف مسلَّحيـــن
ولســـوف تُخْلَـــىٰ مكَّـــةٌ لثـــلاثـــةٍ متتـــابعيـــن
حتَّـــىٰ يتمّـــوا للمنـــاســـك آمنيـــن مُـــؤَمَّنِيْـــن (1)

= نوراً علىٰ نورٍ ، وقوَّة إلىٰ قوة ، فقد قال ﷺ عن قريش : « النَّاس تبعٌ لقريش في الخير والشَّرِّ » (أخرجه مسلم برقم : ١٨١٨) . فكان استبقاء النَّبيّ ﷺ لقريش خيراً عظيماً ؛ إذ دخلوا في دين ٱلله أفواجاً ، وقد أثبتت الأيَّام والتَّجارب أنَّهم كانوا مصدر قوة تسهم في انتشار الإسلام في أرجاء المعمورة ، وٱلله تعالىٰ يخلق ما يشاء ويختار .

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (٣ / ٢٩٠) ، وقوله « حقّ للقبائل أجمعين » : كان التَّحالف محظوراً قبل صلح الحديبية علىٰ العرب . و« في مثل هٰذا » : أي : في العام القادم . و« لثلاثة متتابعين » : أي : لثلاثة أيام متواليات .

سهيلٌ وابنُه :

* كانت معاهدةُ الحديبية في هدنتها المعروفة هي الفتحُ المبينُ ؛ الذي بشَّرَ اللهُ به عبادَه المؤمنين ، وامتنَّ به علىٰ رسولهِ الأمين ، محمَّدٍ المبعوثِ رحمةً للعالمين ﷺ . وكان من بين شروطِ المعاهدة شرط ظنَّه بعضُ الصَّحابة إجحافاً بحقِّهم ، وقاسياً عليهم ، وهو أنَّه مَنْ أتىٰ رسول ٱلله ﷺ من قريش ردَّه إليهم ، ولو كان علىٰ دِينه ، ومَنْ أتىٰ قريشاً ممَّن مع رسولِ ٱلله ﷺ لم يردّوه عليه .

* هٰذا الشَّرط أدخلَ علىٰ بعضٍ من المسلمين الهمَّ والغمَّ ، وأذهل ألبابَهم ، وأظهرَ بعضُ أكابر الصَّحابة حيرته من قبول هٰذا الشَّرط وقالوا : « سبحان ٱلله ، كيف نَرُدُّ علىٰ المشركين مَنْ جاءنا مسلماً ، ولا يردّون علينا من ذهب إليهم كافراً ؟ » .

* وجاءت الإجابةُ النَّبويَّة التي كانت تنظرُ من وراء ستر الغيب ؛ لتبدّد حيرة هٰؤلاء الصَّحابة وتقول لهم : « مَنْ ذهب منَّا إليهم فأبعده اللهُ ، ومَنْ جاء منهم إلينا ، فسيجعل ٱلله له فرجاً ومخرجاً » .

* وقد عجَّل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ امتحان المسلمين في تحقيق الوفاء بهٰذا الشَّرط القاسي ظاهراً ، الخيِّر باطناً وسلوكاً ، وكان درساً تربوياً مفيداً اقتبسَه المسلمون من قولِ الرَّسول الكريم ﷺ الآنف الذِّكْر .

* فقد كان لرئيس الوفد القرشيّ وخطيبهم المصقع سهيل بن عمرو وَلَدٌ أسلمَ في مكَّةَ مع ثُلّةِ الأوَّلين ، فضيَّق عليه سهيلٌ ، وألقاه في السِّجن ، وطفق يذيقهُ ألوان العذاب ، لعلَّه يرجعُ عن الصَّواب ، ويعبد الأوثان بدل ربِّ الأرباب ، إلا أنَّ هٰذا الابنَ صَبَرَ صبراً جميلاً ، ولم يُفْتَنْ في دينه ، وبقي مُسلماً يرفضُ ما ألفىٰ عليه آباءه الأوّلين ، وقومه أجمعين .

* وبينما كان سهيلٌ في مفاوضتِهِ في إبرام اتِّفاق صلح الحديبية ؛ إذ دخل ابنُه أبو جندل بن سهيل يرسفُ في قيوده ـ وكان قد تمكَّن من الفرار من سجن

أبيه ـ ، ثمَّ رمىٰ بنفسه بين أظهر المسلمين طالباً منهم أنْ يحموه من أبيه وظلمه ، وممَّا عراه من السِّجن .

* وحانت التفاتةٌ سهيليَّةٌ إلىٰ جانب المسلمين ، ولم يكدْ صاحبُ السَّفارة القرشيّ ومتكلِّمها يرىٰ ابنه أبا جندل أمامه ، حتَّىٰ فقد صوابَه ، وانحطَّ عليه كجلمود صخر حطَّه السَّيلُ من عَلٍ ، وشرعَ يضربُهُ بصورة جنونيةٍ ، وأخذ يجرُّه من تلابيبه ، والتفت إلىٰ الصَّادق المصدوق ﷺ وقال له : « هٰذا يا محمَّد أوَّل ما أقاضيك عليه أن تردّه إليَّ » .

فقال النَّبيُّ ﷺ : « إنا لم نقضِ الكتاب بعد » ، فأبىٰ سهيلٌ إلا شرطه ، وقال : « فوٱلله إذاً لم أصالحك علىٰ شيءٍ أبداً » .

* ووافق الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ علىٰ أنَّ الشَّرطَ لازمٌ ، واجبُ الوفاء ، وإنْ لم يقْضِ الكتاب ، ولٰكنَّه ﷺ طلبَ من سهيل أنْ يتركَ له ابنه أبا جندل استثناء من الشَّرط ، فأبىٰ سهيل أشدّ الإباء .

* وتألَّم أبو جندل من تصرّفات أبيه ، ولمَّا علم أنَّه متروكٌ لأبيه ، وأنَّه سيردّه إلىٰ المشركين ، صرخ منادياً في المسلمين كيما يثيرَ فيهم حميَّة الإسلام وأريحيَّة الإيمان وقال : « أي معشر المسلمين ! أردُّ إلىٰ المشركين وقد جئتُ مسلماً ؟ ألا ترون ما لقيت ؟ » وكان أبو جندل قد عُذِّب عذاباً شديداً في ٱلله عزَّ وجلَّ .

* وهنا ظهرت آيةٌ من آيات السِّياسة النَّبويَّة الحكيمة في تصبير أبي جندل علىٰ المحنةِ ، وتثبيته علىٰ دِينه ، وتبشيره بالفرج القريب ، والمنحة الرَّبانيَّة فقال ﷺ له : « يا أبا جندل ! اصبرْ واحتسبْ ، فإنَّا لا نغدر ، وإنَّ الله جاعلٌ لكَ فرجاً ومخرجاً ، إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلحاً ، وأعطيناهم علىٰ ذلك وأعطونا عَهْد ٱلله ، وإنَّا لا نغدرُ بهم » .

* اطمأنَّ أبو جندل إلىٰ ما قاله ﷺ ، واستبشرَ بما بشَّره من الفرج ، فاستسلم لأبيه المشرك الذي عاد به إلىٰ مكَّة ، إلىٰ أنْ جعلَ اللهُ له فرجاً

ومخرجاً ، وأمناً وأماناً ، ومكانةً وهيبةً .

* ففي الكلمات النَّبويَّةِ المباركةِ المشرقة يظهرُ حرصُ الحبيب المصطفىٰ ﷺ علىٰ الوفاء بالعهد مهما كانت نتائجه وعواقبهُ فيما يبدو للنَّاس .

* « فهو ﷺ يرىٰ أحدَ المسلمين الذين عذِّبوا عذاباً شديداً ، لِيفتنَ عن دينه ، يرمي بنفسه بين أظهرِ المسلمين ، وهو في قيوده وأغلاله ، وأبو هـٰذا المسلم المضطهد هو الذي يعقدُ الصُّلح مع النَّبيِّ ﷺ ، فيستجيزهُ رسول ٱلله منه فيأبىٰ ويهدِّدُ بالتَّحلُّل من المعاهدة ، فلم يزدْ رسولُ ٱلله ﷺ علىٰ أنْ أوصىٰ المسلم المعذَّب بالصَّبر والاحتساب ، فيصرخُ هـٰذا المسلم في إخوانه المسلمين يستدرُّ عطفهم ، ويثيرُ حماستَهم يعرضُ حاله عليهم ، وهم يرونَه ويرونَ ما فيه ، وما لقيه من المشركين ، وما ينتظرُ أنْ يلقاه منهم بعد ردِّه إليهم ، ويخشىٰ رسولُ ٱلله ﷺ أنْ يحرِّكَ هـٰذا الموقف كوامنَ النُّفوس في المسلمين ، وتأخذهم الحميَّةُ الإيمانيَّةُ ، فيصنعون ما يعوق عقد المعاهدة ويحسم الأمر بقوله : « فإنَّا لا نغدر » ويبشِّرُ أبا جندل ليثبّته علىٰ الإيمان بأنَّ ٱلله جاعلٌ له فرجاً ومخرجاً ، ثمَّ يقولُ ﷺ كلمةً جامعةً ، لتقرَّ في أسماع كافَّة المسلمين وتعيها قلوبهم : « إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صُلحاً ، وأعطيناهم وأعطونا عهد ٱلله ، وإنا لا نغدرُ بهم » ، حتَّىٰ يكون كلّ مسلم شهد أو غاب علىٰ بيِّنةٍ من أمر منهج رسالة النُّور والخلود ، وتمسّك الإسلام به ، فلا تثيره عاطفة ، ولا تميل به حميَّة » [١] .

* ولا بأس بنا الآن أنْ نأوي تحت ظلال هـٰذه الشُّجيرات الأدبية الوارفة ؛ التي تداعبُ الأسماع ؛ وهي تروي بنود الصُّلح وقت كتابته مع سهيل وابنه أبي جندل المسلم الصَّابر :

تمَّتْ شروطُ الصُّلح بين محمَّدٍ والمشركين

---

(١) « محمَّد رسولُ ٱلله » (٤ / ٢٧٦) .

هٰـــذا سُهيـــلُ مـــع الـــرَّســـولِ فـــأَمْلَيَـــاهـــا مُـــرتضيـــن
كتَبَـــا نصـــوص الصُّلـــح بعـــد جـــدالهـــم متفـــاهميـــن
قـــد جـــاءَ ابـــنُ سُهيـــل بعـــد كتـــابـــةِ العقـــد المتيـــن
هـــو مُسْلـــمٌ وأبـــوهُ كـــان يســـومُـــه الضَّـــرب المهيـــن
نـــادىٰ رســـولَ ٱللهِ قـــال فـــإنَّنـــي فـــي المسلميـــن
قـــد قيَّـــدونـــي بـــالحـــديـــد ولـــم يكـــونـــوا راحميـــن
وإذا سهيـــلٌ هـــبَّ يضـــربـــه وصـــار لـــه يهيـــن
ويقـــولُ للهـــادي فـــإنَّـــا قـــد كتبْنـــا مـــوثقيـــن
فَلْتُـــوفِ بـــالشَّـــرط المـــدوَّن إنْ تكـــن فـــي الصَّـــادقيـــن
قـــال النَّبـــيُّ لـــه فـــإنَّـــا لـــن نكـــونَ النَّـــاكثيـــن
والابـــنُ حقّـــاً صـــار يصـــرخُ يـــا رســـولَ العـــالميـــن
أأُرَدُّ حتَّـــىٰ يفتنـــونـــي بعـــد إســـلامٍ أميـــن
قـــال النَّبـــيُّ لـــه فمهـــلاً ولتكُـــنْ فـــي الصَّـــابـــريـــن
فلقـــد عقـــدْنـــا الصُّلـــح حقّـــاً لـــن نكـــونَ النَّـــاقضيـــن
مَـــنْ جـــاء منكـــم مسلمـــاً سنُعيـــده للكـــافـــريـــن [1]

* ومرَّت الأيَّامُ ؛ وينفلتُ أبو جندل بن سهيل من آسريه ، ويلحقُ بأبي بصير عتبة بن أسيد الثَّقفيّ الذي هرب من أسْرِ قريش أيضاً ، واجتمعت حولهما ثلةٌ تزيدُ عن ثلاث مئة رجل ، وقد استطاعت هٰذه الثُّلة أنْ تعترضَ عير قريش في غدواتها وروحاتها إلىٰ الشَّام ، وهنا تأثَّرت التِّجارة القرشيَّة ، فأرسل المشركون إلىٰ النَّبيِّ ﷺ يناشدونه بٱلله والرّحم لما أرسل إلىٰ أبي جندل وأبي بصير ومن معهما ، ومن آتاه منهم فهو آمن ، وبالتَّالي تخلّوا عن أقسىٰ شروطهم في الحديبية ، ونصر ٱلله المسلمين نصراً مؤزَّراً ، وفرج عن أبي جندل بوقت غير بعيد ، وأضحىٰ السَّيّد المسوّد ، والفارس الذي يخشاه أبوه وتخشاه قريش .

---

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (٣ / ٢٩٢) .

* وقد رسمَ أحمد محرَّم بريشتِهِ السَّاحرة جانباً من قصَّة أبي جَنْدل ـ رضي ٱللهُ عنه ـ فقال :

يا أبا جندلٍ عليكَ سلامٌ	جئتَ بالخيلِ ترجُم الأرضَ رَجْما
اغتفِرْ ما جنىٰ أبوك سهيلٌ	يومَ يطغىٰ عليكَ ضرباً ولَطْما
إنَّما الصَّابرون أوفىٰ نصيباً	يا أبا جندل وأوفرُ قِسْما
إنَّ في حكمةِ الرسول لذكرىٰ	للبيبٍ أصابَ عقلاً وفهما
إنَّ للحقِّ بعدَ لينٍ وضعفٍ	قوّةً تحسمُ الأباطيلَ حسما (١)

* ودار العامُ ، وهَلَّ هلال شَهْر ذي القعدة من السَّنة السَّابعة للهجرة ، وهو الشَّهرُ الذي صدَّ المشركون فيه رسولَ ٱللهِ ﷺ عن المسجد الحرام ، فأمر ﷺ أصحابه أنْ يعتمروا ، وألا يتخلَّف أحد ممَّن شهد الحديبية .

* ودخل رسولُ ٱللهِ ﷺ والذين معه مكَّة ، وطافوا بالبيت ، وهم يلبّون تلبية التَّوحيد ، وخرج كبراء القوم المشركين إلىٰ ظاهر الحرم وفيهم سهيلُ بنُ عمرو حتَّىٰ لا يروا جموع المسلمين يعبدون ٱللهَ وحده لا شريك له ، ويسبّحون بحمده ، وهم يهتفون : « لا إلـٰه إلا ٱللهُ وحده ، نَصَرَ عبده ، وأعزَّ جنده ، وهزمَ الأحزابَ وحده » .

* دخل الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ إلىٰ الكعبة ، ولم يزلْ حتَّىٰ أذَّن بلال فوق ظهرها بصوتٍ شجي استجابت له قلوب المؤمنين ، ورددت النَّغم البِلالي السَّاحر : ٱللهُ أكبر ، ٱللهُ أكبر . . . . وراح السَّاداتُ القرشيّون يعجبون وهم ينظرون إلىٰ مؤذِّن النَّبيّ ﷺ وهو علىٰ الكعبة المشرفة ، وكادوا يصعقون وهم يسمعون نداء التَّوحيد الخالد ، وكاد يغمىٰ علىٰ الحارثِ بنِ هشام ، وعكرمةَ بنِ أبي جهل ، وصفوانَ بنِ أميَّة ، وخالد بن أسيد ، وكلّ واحد منهم حمد ٱللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ الذي أذهب أباه كيلا يرىٰ هـٰذا المشهد ويسمع صوت

---

(١) « ديوان مجد الإسلام » لأحمد محرم (ص : ٢٩٥ ـ ٢٩٧) بانتقاء .

هٰذا العبد ؛ أما خطيبُ قريش وسفيرها ورجال معه من طبقته ، فحين سمعوا الأذان غطّوا وجوههم [١] .

* قضىٰ المسلمون مناسك عمرتهم هٰذه ، وانقضت الأيَّام الثَّلاثة ، وكان الحبيبُ الأعظمُ ﷺ مع الأنصار يتحدَّث مع سيِّدنا السّخيّ النَّجيب سعد بن عبادة ، فجاء إليه سهيلُ بنُ عمرو ، وحويطبُ بنُ عبد العزَّىٰ في نفر من قريش ، فقال : « قد انقضىٰ أجلُكَ ، فاخرجْ عنَّا ! ننشدك ٱلله يا محمَّدُ والعهد الذي بيننا وبينَك إلاَّ خرجت مِنْ أرضنا ؛ فهٰذه الثَّلاث قد مضت » .

* وغضبَ سيِّدنا سعدُ بنُ عبادة غضبةً خزرجيَّةً ، لِما رأىٰ من غلظة كلامهم للحبيب الأعظم ﷺ ، فالتفت إلىٰ سهيلِ بنِ عمرو وقال له : « كذبتَ لا أمَّ لك ، ليست بأرضك ولا أرض أبيك ! وٱلله لا يبرح منها رسول ٱلله ﷺ إلا طائعاً راضياً » . فتبسَّم الحبيبُ الأعظمُ ﷺ ابتسامةً لطيفةً جميلةً ، وأشرقَ وجهُهُ المنيرُ إشراقةَ الشَّمس في وضح النَّهار ، ثمَّ قال لسيِّدنا سعد بن عبادة : « يا سعدُ ، لا تؤذِ قوماً زارونا في رحالنا » [٢] .

* لقد فعلت الأيَّام الثَّلاثة التي قضاها المسلمون في مكَّة فعلَتَها الرَّبيعيَّة في قلوب المشركين فأزهرت ، ثم أثمرت وأينعت ، وأيقظت نفوسهم من سباتها ، وحرَّكت ضمائرهم من غفلاتها ، فأخذوا يرصدون حركات المسلمين ، ويرقُبون صلواتهم بدقّة تامة ، ويلقون السَّمع إلىٰ القُرآن الكريم ، فتأثَّر كثيرون ، وكادوا يلتقون المسلمين لينهلوا من اليَنْبوع الصَّافي الرّقراق ؛ الذي هفَتْ إليه الأفئدة من الأعماق ، ولٰكنَّ الخوفَ الاجتماعي والقالةَ ، والحسدَ ، هٰذه الأشياء كلّها لا تزالُ تسيطرُ علىٰ الشَّطر الأكبر من أهل مكَّة ، إلاَّ أنَّ هٰذه العمرة تركت بصماتٍ واضحاتٍ في النُّفوس القُرشيَّة ، وهيأتها للفتح الأكبر فَتْحِ القلوب والضّمائر الحيَّة ، وكان من بين الذين فتح ٱلله عليهم

---

(١) « المغازي » (٢ / ٨٣٨) بشيءٍ من التصرف .

(٢) « المغازي » (٢ / ٧٣٩ ـ ٧٤٠) بشيء من التَّصرُّف والاختصار .

بالإسلام وأنار بصيرتهم ، سيِّدنا سهيل بن عمرو الذي غدا مثالاً يحتذىٰ في الإيمان .

حلولُ الهدايةِ في قَلْب سُهيل :

* كان يوم الفتح يومَ هدايةٍ وخير علىٰ القرشيين خصيصىٰ ، وعلىٰ الدُّنيا والبشريَّة كلّها عامة ؛ إذ فتح ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ به قلوباً غُلفاً ، وأعيناً عمياً ، وأنفساً مستكبرة ، وعلىٰ الرّغم من أنَّ سيِّدنا سهيلاً ، وصفوانَ بنَ أميَّة ، وعكرمة بن أبي جهل ، قد دعوا إلىٰ قتال المسلمين ، وتلبَّسوا السِّلاح ، وأقسموا بٱلله أغلظَ الأيمان بألاَّ يدخل محمَّد ﷺ مكَّة عنوةً أبداً ، إلاَّ أنَّ تجمُّعَهم قد بدَّده سيِّدنا خالد بن الوليد ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وفرَّ صفوان وفرَّ عكرمة ، وأبو يزيد سهيلُ بنُ عمرو وعددٌ من كبراء القوم ، فقد جاء الحقُّ وزهقَ الباطل ، إنَّ الباطل كان زهوقاً .

* لم يمض وقتٌ كبيرٌ حتَّىٰ تحرَّكتْ ألسنُ هٰؤلاء بشهادة أنْ لا إلـٰه إلا ٱلله وأنَّ محمَّداً رسولُ ٱلله ، ودخل النَّاس في دين ٱلله أفواجاً ، ولسان حال كلّ واحد منهم يقول :

فاليومَ آمنَ بالنَّبيِّ محمَّد ... قلبي ومخطئُ هٰذهِ محرومُ
مضَتِ العَداوةُ وانقضتْ أسبابُها ... وَدَعَتْ أواصرُ بيننا وحُلُومُ
أعطاكَ بعد محبّة برهانَه ... شرفاً وبرهانُ الإلـٰهِ عظيمُ

* وحلَّت الهدايةُ قَلْبَ سيِّدنا سهيل بن عمرو ، فحينما سمع بلالَ بنَ رباح يؤذِّنُ فوقَ الكعبة لم يعترضْ كغيره ، وإنَّما قال بلسان اليقين والتَّعقُّل : « إن كان هٰذا سَخَط ٱلله فسيغيره ، وإن كان رضاء ٱلله فسيقرّه »[1] .

---

(١) « المغازي » (٢ / ٨٤٦) ، بينما قال أبو سفيان يومها : « أمَّا أنا فلا أقول شيئاً ، لو قلت شيئاً لأخبرته هٰذه الحَصباء » ، فأتىٰ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ رسول ٱلله ﷺ فأخبره =

* ويسردُ لنا سيِّدنا سهيل كيف التقت يمينُه يمينَ الحبيبِ الأعظم ﷺ مبايعةً ، فيقول : « لمَّا دخلَ رسولُ ٱلله ﷺ مكَّةَ وظهرَ ، دخلْتُ بيتي ، وأغلقتُ عليَّ بابي ، وأرسلتُ إلىٰ ابني عبدِ اللهِ بنِ سُهيل أَنْ اطْلُبْ لي جواراً من محمَّد ، وإنِّي لا آمنُ أنْ أُقْتَل . وجعلتُ أتذكَّر أثري عند محمَّدٍ وأصحابِهِ ، فليس أحدٌ أسوأَ أثراً منِّي ، وإنِّي لقيتُ رسولَ ٱلله ﷺ يومَ الحديبية بما لم يلْقَهُ أحدٌ ، وكنْتُ الذي كاتبته ، مع حضوري بدراً وأحداً ، وكلَّما تحرّكَتْ قريشٌ كنْتُ فيها . فذهب ابني عبدُ ٱلله بنُ سهيل إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ فقال : يا رسولَ اللهِ تؤمِّنه ؟

فقال ﷺ : « نعم ، هو آمنٌ بأمانِ ٱلله ، فَلْيَظْهَرْ » .

ثم قال رسولُ ٱلله ﷺ لمن حوله : « مَنْ لقيَ سهيلَ بن عمرو فلا يُشدّ النَّظر إليه ، فليخرجْ ، فلعمري إنَّ سهيلاً له عقْلٌ وشرفٌ ، وما مثلُ سهيلٍ جَهِلَ الإسلام ، ولقد رأىٰ ما كان يوضع فيه أنَّه لم يكنْ له بنافع » [1] .

* خرج عبدُ ٱلله بنُ سُهيل إلىٰ أبيه ، فأخبره بمقالةِ رسول ٱلله ﷺ ، فقال سهيلٌ : « كان واللهِ برّاً صغيراً وكبيراً » فكان سهيلٌ يقبلُ ويدبرُ ، وخرجَ إلىٰ حنين مع النَّبيِّ ﷺ وهو علىٰ شركه ، حتَّىٰ أسلمَ بالجِعِرَّانة ، وأعطاهُ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ مئة بعير [2] .

* وذكر ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللهُ : « أنَّ رسولَ ٱللهِ ﷺ لمَّا فتح مكَّة ، دخلَ البيت ، فصلَّىٰ بين السَّاريتَيْن ، ثمَّ وضع يديه علىٰ عضادتي الباب ،

= خبرهم . « المغازي » (٢ / ٨٤٦) .

(١) « المغازي » (٢ / ٨٤٦ ـ ٨٤٧) بتصرُّف يسير . وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٤) .

(٢) « المغازي » (٣ / ٩٤٦) ، و« تفسير القرطبيّ » (٨ / ١٧٩) ، و« البداية والنِّهاية » (٤ / ٣٥٧ ـ ٣٦٠) .

فقال : « لا إلـٰه إلا ٱلله وحده ، صدقَ وعده ، ونصرَ عبده ، وهزمَ الأحزابَ وحْدَه ، ماذا تقولون ؟ وماذا تظنُّون ؟ » .

فقال سهيلُ بنُ عمرو : نقولُ خيراً ، ونظنُّ خيراً ، أخٌ كريمٌ ، وابنُ أخ كريم ، وقد قَدَرْتَ .

قال : « فإنِّي أقولُ كما قال أخي يوسُف : ﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] ألا إنَّ كلّ دمٍ ومالٍ ومأثرة كانت في الجاهليَّة تحت قدميَ إلا سدانة البيتِ ، وسقايةِ الحاج »[١] .

* سرتْ أنسامُ الإيمان في رُوحِ سيِّدنا سهيلِ بنِ عمرو ، وتفاعلَ مع دينِ اللهِ تفاعُلاً عجيباً ، وأصبحَ من المُخْبتين من الذين إذا ذُكرَ اللهُ وجلَتْ قلوبُهم ، وإذا تُليت عليهم آياته زادتْهُم إيماناً .

* عن هـٰذه الأحوال الصَّافية أورد سعيدُ بنُ مسلم بعض أخبار سُهيل ـ رضي ٱلله عنه ـ فقال : « لم يكن أحدٌ من كبراء قريش الذين تأخَّر إسلامُهم ، فأسلموا يوم فتح مكَّة ، أكثر صلاةً ولا صوماً ولا صدقةً ، ولا أَقْبَلَ علىٰ ما يعينه من أمرِ الآخرة من سهيلِ بنِ عمرو ، حتَّىٰ شحب لونُه ، وتغيَّر ، وكان كثيرَ البكاء رقيقاً عند قراءة القُرآن ، لقد رُئي يختلفُ إلىٰ معاذِ بنِ جبل ، يُقرئه القُرآن ، وهو يبكي حتَّىٰ خرج معاذ من مكَّة ، وحتَّىٰ قال له ضرارُ بنُ الخطَّاب : يا أبا يزيد تختلفُ إلىٰ هـٰذا الخزرجيّ يقرئكَ القُرآنَ ! ألا يكون اختلافك إلىٰ رجلٍ من قومك من قريش ؟

فقال سهيلٌ : يا ضرارُ ! هـٰذا الذي صنعَ بنا ما صنعَ حتَّىٰ سُبِقْنَا كلَّ السَّبْقِ ، لعمري أختلفُ إليه ، وقد وضع الإسلام أمرَ الجاهليَّة ، ورفعَ اللهُ أقواماً بالإسلام كانوا في الجاهليَّة لا يذكرون ، فليتنا كُنَّا مع أولئك فتقدَّمنا ، وإنِّي لأذكرُ ما قسمَ اللهُ لي في تقدّم إسلام أهل بيتي الرِّجال والنِّساء ، مولاي

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٣ ـ ٢٣٤) ، وانظر : « شرح حياة الصَّحابة » (١ / ٣١٥) ، و« الإصابة » (٢ / ٩٢) .

عُميرُ بنُ عوف فأسرَّ به ، وأحمدُ ٱلله عليه ، وأرجو أنْ يكونَ اللهُ نفعَني بدعائهم ، ألا أكون متُّ علىٰ ما ماتَ عليه نُظَرائي ، وقُتِلُوا ، قد شهدت مواطن كلّها أنا فيها معاندٌ للحقِّ : يوم بدر ، ويوم أُحد ، والخندق ؛ وأنا وليتُ أمْـرَ الكتاب يوم الحديبية .

يا ضِرارُ ! إنِّي لأذكرُ مراجعتي رسولَ ٱللهِ ﷺ يومئذ ، وما كنتُ ألزمُ به من الباطل ، فأستحي من رسولِ ٱلله ﷺ ، وأنا بمكَّةَ وهو بالمدينة ، ولـٰكن ما كان فينا من الشِّرك أعظم من ذلك ، ولقد رأيتني يوم بدر ، وأنا في حيز المشركين ، وأنظرُ إلىٰ ابني عبد ٱلله ، ومولاي عُمير بنُ عوف قد فرَّا منِّي فصارا في حيزِ محمَّد ، وما عميَ عليَّ يومئذ من الحقِّ ، لمَا أنا فيه من الجهالةِ ، وما أرادهما اللهُ به من الخير ، ثمَّ قُتِل ابني عبدُ ٱلله بنُ سُهيل يوم اليمامة شهيداً ، عزَّاني به أبو بكر ، وقال : قال رسولُ ٱلله ﷺ : « إنَّ الشَّهيد ليشْفَعُ لسبعين من أهل بيته » ، فأنا أرجو أنْ يكون أوَّل مَنْ يشفع له »[1] .

* وكان سيِّدنا أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضوانُ اللهِ عليه ـ يقول : « ما كان فتحٌ أعظمَ في الإسلام من فَتْح الحديبية ، ولـٰكنَّ النَّاسَ يومئذ قَصُرَ رأْيُهم عمَّا كان بين محمَّد وربِّه ، والعبادُ يعجلون ، واللهُ لا يعجلُ كعجلةِ العباد حتَّىٰ يبلغَ الأمور ما أراد ، لقد نظرتُ إلىٰ سهيلِ بنِ عمرو في حجَّة الوداع قائماً عند المنحر ، يقرِّبُ إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ هديه ، ورسول ٱلله ﷺ ينحرها بيده ، ودعا الحلاَّق فحلقَ رأسه ، ونظرَ إلىٰ سهيل يلقطُ من شعره ، وأراه يضعُه علىٰ عينَيْه ، وأذكرُ إباءه أنْ يقرّ يومَ الحديبية بأن يكتب : بسم ٱلله الرَّحمـٰن الرَّحيم ، ويأبىٰ أنْ يكتبَ محمَّد رسول ٱلله ﷺ ، فحمدتُ اللهُ الذي هداه للإسلام ، وصلوات ٱلله وبركاته علىٰ نبيّ الرَّحمة الذي هَدانا به ، وأنقذَنا به من الهلكة »[2] .

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٤ ـ ٢٣٥) ، و« أسد الغابة » (٢ / ٣٢٩) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٥) .

* وممَّا يدلُّ علىٰ صدقِ سيِّدنا سهيل ـ رضي ٱلله عنه ـ ما رواه سفيانُ الثَّوريّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال : « حضرَ بابَ عمرَ بنِ الخطَّاب جماعةٌ من مشيخة الفتح وغيرهم ، فيهم سهيلُ بنُ عمرو ، وعيينةُ بنُ حصن ، والأقرعُ بنُ حابس رضي ٱلله عنهم ، فخرجَ الإذن : أين صهيب ؟ أين عمَّار ؟ أين سلمان ؟ ليدخلوا ، فتمعَّرت ـ تغيَّرت ـ وجوه القوم ، فقال سهيل : لِمَ تمعر وجوهكم ؟ دُعُوا ودُعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، فلئن حسدتموهم علىٰ باب عمر ، فما أعدَّ اللهُ لهم في الجنَّة أكثر من هٰذا »[1] .

* ولذلك كان سيِّدنا سهيلٌ يكثر من قوله : « وٱلله ! لا أدعُ موقفاً وقفته مع المشركين علىٰ رسولِ ٱلله ﷺ ، إلا وقفت علىٰ المشركين مثله ، ولا أنفقت

---

(١) المصدر السَّابق (١٠ / ٢٣٦) ؛ وذكر ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ هـذه القصَّةَ علىٰ النَّحو الآتي : عن الحسن قال : « حضر النَّاسُ بابَ عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وفيهم سهيلُ بنُ عمرو ، وأبو سفيان بنُ حرب ، والحارثُ بنُ هشام ، وأولئك الشّيوخ من مُسْلمة الفتح ، فخرجَ آذِنُه ، فجعل يأذنُ لأهل بدر كصُهيب ، وبلال ، وعمَّار ، وأهل بدر ، وكان يحبُّهم ، فقال أبو سفيان : ما رأيتُ كاليوم قطّ ، إنَّه ليؤْذَن لهؤلاء العبيد ، ونحنُ جلوس لا يلتفت إلينا ؟ !

فقال سهيلُ بنُ عمرو : ـ قال الحسن البصريّ : وياله منْ رجل ، ما كان أعقله ! ـ أيُّها القوم ! إنِّي واللهِ قد أرىٰ ما في وجوهكم ، فإنْ كنتم غضاباً فاغضبوا علىٰ أنفسكم ، دُعي القوم ودُعيتم ، فأسرعوا وأبطأتم ، أما واللهِ لما سبقوكم به من الفضل أشدّ عليكم فوتاً من بابكم هٰذا الذي تنافسون عليه .

ثمَّ قال : أيُّها النَّاس ! إنَّ هؤلاء سبقوكم بما ترون ، فلا سبيل واللهِ إلىٰ ما سبقوكم إليه ، فانظروا هٰذا الجهاد فالزموه ، عسىٰ ٱلله أنْ يرزقكم الشَّهادةَ ، ثمَّ نفض ثوبه ، فقام ، فلحقَ بالشَّام » . « أسد الغابة » (٢ / ٣٢٨) ، و« التَّبيين » (ص : ٤٢٣) .

قال الحسن : « صدق سهيلٌ وٱلله ، لا يجعلُ ٱلله عبداً أسرع إليه ، كعبدٍ أبطأ عنه » . « المعجم الكبير » (٦ / ٢١١ ـ ٢١٢) برقم : (٦٠٣٨) .

نفقةً مع المشركين علىٰ رسول ٱلله ﷺ ، إلاَّ أنفقتُ علىٰ المشركين مثله »[1] .

* طبّقَ سيِّدنا سهيل ـ رضي ٱلله عنه ـ ما قاله عمليّاً ، فقد روىٰ أبو سعد بن أبي فضالة الأنصاريّ ، وكان له صحبة ، قال : « اصطحبتُ أنا وسهيل بن عمرو إلىٰ الشَّام ليالي أغزانا أبو بكر الصِّدِّيق ، فسمعتُ سهيلاً يقول : سمعتُ رسولَ ٱلله ﷺ يقول : « مقام أحدكم في سبيلِ اللهِ ساعة خيرٌ من عمله عمره في أهله » . قال سهيلٌ : « وأنا أرابط حتَّىٰ أموتَ ، ولا أرجعُ إلىٰ مكَّة أبداً ، فلم يزلْ بالشَّام حتَّىٰ مات بها في طاعون عمواس سنة ثمان عشرة في خلافة عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ »[2] .

* كانت المواقفُ السُّهيليَّةُ ذات ألَقٍ خاص بعد إسلامه ، فقد كان سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ قد قال لسيّدنا رسول ٱلله ﷺ يوم بَدْر وسهيل أسير : « دعني أنزع ثنيَّته حتَّىٰ يدلع ـ يخرج ـ لسانه فلا يقومُ عليك خطيباً أبداً » . فقال رسولُ ٱلله ﷺ لعمر : « لعلَّه يقوم مقاماً تحمده » . فأسلم سهيلٌ في الفتح ، وقام بعد ذلك بمكَّةَ خطيباً حين توفي رسول ٱلله ﷺ ، وماج أهل مكة ، وكادوا يرتدّون ، فقام فيهم سهيلٌ بمثل خطبة أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ بالمدينة ، كأنَّه يسمعها ، فسكن النَّاس ، وقبلوا منه .

* قال ابنُ هشام رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « إنَّ أكثر أهل مكَّة لمَّا توفي رسول ٱلله ﷺ همو بالرّجوع عن الإسلام ، وأرادوا ذلك حتَّىٰ خافهم عتّابُ بنُ أسيد ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فتوارىٰ ، فقام سهيلُ بن عمرو ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فحمد اللهَ ، وأثنىٰ عليه ، وذكر وفاة رسول ٱلله ﷺ وقال : إنَّ ذلك لم يزد الإسلام إلا قوّة ، فَمَنْ رابنا ضربْنَا عنقه ، فتراجعَ النَّاسُ ، وكفّوا عمَّا همّوا

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٧) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٠) ، و« شرح حياة الصحابة » (١ / ٦٩٩ ـ ٧٠٠) ، و« الإصابة » (٢ / ٩٣) .

به ، فظهر عتّابُ بنُ أسيد . فهٰذا المقامُ الذي أراد رسول ٱلله ﷺ في قوله لعمر بن الخطَّاب ـ يعني : حين أشار بقلع ثنيَّته حين وقع في الأسارىٰ يوم بدر ـ « إنَّه عسىٰ أن يقومَ مقاماً لا تذمنَّه » (١) .

* نقل شاهدُ عيان خطبةَ سيِّدنا سهيل ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ ومقامه الموفَّق بمكَّة عقب وفاة النَّبيّ ﷺ ، وهٰذا الشَّاهد هو أبو عمرو بن عديّ بن الحمراء الخزاعيّ ، قال : « نظرتُ إلىٰ سهيل بن عمرو يوم جاء نعي رسولِ ٱلله ﷺ إلىٰ مكَّة ، وقد تقلَّدَ السَّيف ، ثمَّ قام خطيباً بخطبةِ أبي بكر التي خُطِبَتْ بالمدينة كأنَّه كان يسمعها ، فقال : أيُّها النَّاس ! مَنْ كان يعبدُ محمَّداً فإنَّ محمَّداً قد مات ، ومَنْ كان يعبدُ اللهَ فإنَّ اللهَ حيٌّ لا يموت ، وقد نعىٰ اللهُ نبيَّكم إليكم ، وهو بين أظهركم ، ونعاكم إلىٰ أنفسكم فهو الموت حتَّىٰ لا يبقىٰ أحد ، ألم تعلموا أنَّ اللهَ قال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] ، وقال : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ، وقال : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥ ، والأنبياء : ٣٥ ، والعنكبوت : ٥٧] ، ثمَّ تلا : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾ [القصص : ٨٨] ، فاتَّقوا ٱلله ، واعتصموا بدينكم ، وتوكَّلوا علىٰ ربِّكم ، فإنَّ دينَ اللهِ قائم ، وكلمة ٱلله تامَّة ، وإنَّ اللهَ ناصرٌ مَنْ نَصَرَهُ ، ومعزٌّ دينَه ، وقد جمعكم اللهُ علىٰ خيركم ، فلمَّا بلغَ عمر كلام سهيل بمكَّة قال : أشهدُ أنَّ محمَّداً رسول ٱلله ، وأنَّ ما جاء به حقّ ، هٰذا هو المقامُ الذي عنىٰ رسول ٱلله ﷺ حين قال : « لعلَّه يقومُ مقاماً لا تكرهه » (٢) .

---

(١) « البداية والنِّهاية » (٥ / ٢٧٩) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٢) مع الجمع بينهما .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٦) ، وهاكم هٰذه التَّغريدة التي تداعبُ المشاعر ، وتوقظُها ، وهي ترسمُ خطبةَ سيّدنا سهيلِ بنِ عمرو ـ رضي ٱلله عنه ـ في أهلِ مكَّة عقبَ وفاة الحبيب المصطفىٰ ﷺ : =

* قال الزُّبير بنُ بكَّار : « كان سهيلُ بَعْدُ كثيرَ الصَّلاة والصَّوم والصَّدقة ، وخرجَ بجماعته إلىٰ الشَّام مجاهداً ، وقيل إنَّه صامَ وقامَ حتَّىٰ شحب لونه وتغيَّر ، وكان كثير البُكاء عند قراءة القرآن »[١] .

* روىٰ عن سيِّدنا سهيل يزيدُ بنُ عميرة الزَّبيديّ ، وغيره عن النَّبيِّ ﷺ ، واستشهد سهيل يوم اليرموك ، وكان أميراً علىٰ كردوس يومذاك ، وقيل : إنَّه توفي بطاعون عمواس .

* قال ابنُ الأعرابي : « استشهد باليرموك : عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ ، وسهيلُ بنُ عمرو ، والحارثُ بنُ هشام ، وجماعةٌ من بني المغيرة ، فأُتوا بماء ، وهم صرعىٰ ، فتدافعوه حتَّىٰ ماتوا ولم يذوقوه . قال : أُتيَ عكرمةُ بالماء فنظر إلىٰ سهيل بن عمرو ينظرُ إليه ، فقال : ابدؤوا بذا ، فنظر سهيلٌ إلىٰ الحارثِ بنِ هشام ينظرُ إليه ، فقال : ابدؤوا بهٰذا ، فماتوا كلّهم قبل أن

=
عــنْ أهــلِ مكَّــةِ لا تَسَــلْ قــد أسلمُــوا متكــاسلين
فــي فَتْــح مكَّــةَ أعلنــوا الإســلامَ لٰكــنْ كــارهين
مــنْ بعــد مــوتِ المصطفــىٰ همّــوا بكفــرٍ مُعلنين
لٰكــنْ سهيــلٌ قــامَ يخطُــبُ كــي يــردَّ المخطئين
بــالحمــدِ قــد بــدأ الحــديــثَ وبــالثَّنــاء الكــامِلين
مِــنْ قــولــهِ المــوت حــقٌّ لــن نكــون مخلَّــدين
المصطفــىٰ قــد مــاتَ حيــثُ أجــابَ ربَّ العــالمين
وبمــوتــه لا لــنْ يكــونَ الــدِّيــنُ فــي المُستضعفين
بــل إنَّــه سيكــونُ أقــوىٰ فلتكــونــوا فــاهمين
مَــنْ رَابنَــا فَلَســوفَ نقتلــه كقتــل المشــركين
النَّــاسُ عــادوا للصَّــواب لأنَّــه قــول مبين
هٰــذا مقــامٌ قــال عنــه المصطفــىٰ فــي السَّــابقين

(١) « تاريخ الإسلام » للذَّهبيّ (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ١٥١) .

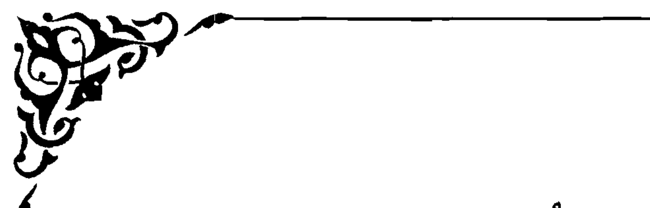
يشربوا ، فمرَّ بهم خالد بن الوليد فقال : بنفسي أنتم »[1] .

* وبَعْدُ ؛ عزيزي القارىء ؛ محبّ الصَّحابة ؛ هـٰذا هو سيّدنا سهيلُ بنُ عمرو الرّجل الفذُّ الذي تداركتْهُ العنايةُ الإلـٰهيّة وصقلته فجعلته من مشاهير الرِّجال ، الذين يسبحون ربَّهم بالغدوّ والآصال ، فرضي ٱلله عنه ، وحشرنا في معيته وقد رضي عنا وغفر لنا .

✍ ✍ ✍

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١٠ / ٢٣٧) .





صفوانُ بنُ أميَّة

رضي ٱلله عنه

* ظلَّ يعاندُ الإسلام عشرين عاماً ؛ ثمَّ فتح ٱلله عليه عام الفتح .
* صحابي شريفٌ حصيفٌ ، كريمٌ جواد صَقَلَه الإسلام .
* أكرمَه النَّبيّ ﷺ وأعطاه ، وله آثار جليلةٌ ومحامدُ نبيلة .






صفـوانُ بـنُ أُميَّـة
رضي ٱلله عنه

مشـــيئةُ ٱلله :

* مَنْ كان يظنُّ أنَّ هـٰذا الرَّجلَ سيغدو أحد الأصحابِ الأخيار الذين وعَدَ اللهُ الحُسنىٰ ؟

* مَنْ كان يظنُّ أنَّ هـٰذا الرَّجلَ السَّيِّد الثَّريّ ؛ الذي كان من سادات المشركين ؛ سيكون ممَّن حفَّتهم عنايةُ ربّ العالمين ، وانتظموا في سلك المؤمنين ؟

* عشرون عاماً وأكثرُ ظلَّ يقفُ وقْفَةَ المعاندين لِنَبيِّ الإسلامِ ﷺ ، ولرجالِ الإسلام ؛ ولكلِّ من هُدي إلىٰ الطَّيِّب من القول وإلىٰ كلام ربّ الأنام ؛ ولـٰكنَّ مشيئةَ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ورحمته جعلتْه من رجال عصر النُّبوَّة الكرام ذوي الشَّأْن والنَّباهة وحسنِ الختام .

* هل تصدِّقون أنَّ هـٰذا الرَّجل هو الذي رسمَ خطَّةً وبيئةً قميئةً لاغتيالِ الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ وهو في المدينةِ بين أصحابهِ الكرام ؟ وهل تصدِّقون أنَّه كلَّف ابن عمِّه عمير بن وهب الجمحيّ [١] بتنفيذها بعد أنْ وعدَهُ أنْ يكفلَ عيالَه وأهلَه مدىٰ مرور الأيّام والأعوام ؟

---

(١) اقرأ سيرة عُمير بن وهب ـ رضي ٱلله عنه ـ في الباب الرَّابع من هـٰذا الكتاب ، فسيرته نزهة في روض رياحين .

* هـٰذا الرَّجُل قُتِلَ أبوهُ وأخوهُ عليٌّ يوم بَدْرٍ بأيدي المسلمين ؛ الذين صدقوا ما عاهدوا ٱلله عليه وكانوا مخلصين صادقين ، بل إنَّ أباه قتلَه أحدُ المستضعفين ؛ وكان أبوهُ يذيقُهُ ألواناً من العذاب المهين ، وصبرَ حتَّىٰ ظَفِرَ بِهِ يوم بدر ، فهبَّره وابنَه علياً مع أنصار ٱلله بالسُّيوف ، وجعلوهما كهشيم المُحتظر ، إنَّهما أميَّةُ بنُ خلف [1] ، وابنه عليُّ بنُ أمية بن خلف ، وأمَّا الذي بَصُرَ بهما ، وجعل الأنصار يهبّرونهما ، فهو سيِّدنا بلالُ بنُ رباح صاحب الصَّوت النَّدي الشَّجيّ ؛ الذي ينسابُ في الآذان ، وينسكبُ نعيماً في القلوب ، فيوقظُها لتحيا بين يدي علاّم الغيوب ، وتسبّحه قبل الشمس وقبل الغروب .

* كما أنَّ عمَّه أُبيَّ بن خلف [2] كان من أكابر المجرمين الأشرار ، قتلَه النَّبيُّ ﷺ يوم أحد ؛ إذ قذفه بحربةٍ كسرتْ ضلعاً من أضلاعه ، وهلك وهو راجعٌ إلىٰ مكَّة ، يحملُ أشدَّ الغضب الإلـٰهيِّ ؛ لأنَّ رسولَ ٱلله ﷺ قتَلَه في سبيلِ اللهِ ، وفيه يقول سيِّدنا حسَّان بن ثابت ـ رضي ٱلله عنه ـ من أبيات :

ألا مَـــنْ مبلـــغٌ عنِّـــي أُبيّـــاً	لقـد أُلْقِيـتَ فـي سُحـق السَّعيـر
فقـد لاقَتْـك طعنـةُ ذي حفـاظٍ	كـريـم البيـت ليـس بـذي فجـور
لـه فضْـلٌ علـىٰ الأحيـاءِ طـرّاً	إذا نـابـتْ ملمَّـاتُ الأمـور [3]

* أغلبُ الظَّنِّ أنَّكم عرفتُم هـٰذا الرَّجل الذي حفَّته عناية ٱلله تعالىٰ ! إنَّه

---

(١) اقرأ سيرةَ هـٰذا الفاجر الأثيم في كتابنا : « المبشَّرون بالنَّار » (ص : ٤٥ ـ ٧٠) ، ولاحظْ نهاية هـٰذا الهُمزةَ اللمزةَ الذي نُبِذَ في الحطمة ، ولم ينفعْه مالٌ ولا بنون .

(٢) اقرأ سيرة هـٰذا الحاقد الكفور في كتابنا : « المبشَّرون بالنَّار » (ص : ٢٢٢ ـ ٢٤٠) ، ولاحظ نهاية هـٰذا الشَّقي السَّاخر ؛ وكيف أكبَّه اللهُ علىٰ منخريه في النَّار .

(٣) « ديوان حسَّان بن ثابت » (١ / ٤٩٠) طبعة دار صادر المحقَّقة .

صفوانُ بنُ أميَّةَ بنِ خلف بنِ وهْبِ القُرشيّ الجمحيّ المكّيّ [1] الذي أسلم عام فتح مكَّة ، وروىٰ أحاديث ، وشهدَ اليرموك وهو أميرٌ علىٰ كردوس ، ووفدَ علىٰ معاويةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ وأقطعه الزُّقاق المعروف بزقاق صفوان .

* كان صفوانُ بنُ أميَّة من كُبراءِ قريش وأعيانِ الأثرياء فيها ، وكان سيّد بني جُمَح .

* قال أبو عبيدة عن ثرائهِ الواسع : « قالوا : إنَّ صفوانَ بنَ أميَّة قَنْطَر في الجاهليَّة ، إلىٰ أنْ صار له قنطارٌ من الذَّهب ، وكذلك أبوه » [2] .

صفـوانُ والمجْـدُ المؤثَّل :

* علىٰ الرّغم من أنَّ أميَّةَ بنَ خلف والد سيِّدنا صفوان من كبار مجرمي الكفَّار الذين جابهوا دعوةَ الإسلام بِقواهم كلّها ، وأنَّه قُتِلَ مع أبي جَهْل في بدر ، إلا أنَّ هـٰذا لم يمنعْهُ من أنْ يكون شريفاً مِنْ أكابرِ مَنْ انتهىٰ إليهم الشَّرفُ من قريش . وينبغي أنْ نتذكَّرَ أنَّ الحسدَ والبغيَ والظُّلم جعلت أباه أميَّةَ في الدَّركِ الأسفل من النَّار ، ومن فئة المستهزئين الذين خسروا في الدَّارين ، نعوذُ بٱلله من الحسد ؛ وممَّا يجرُّ إليه هـٰذا الدَّاءُ الدَّفينُ الخطيرُ .

* قال معروفُ بنُ خَرَّبُوذ رَحِمَهُ ٱللهُ : « من انتهىٰ إليه الشَّرفُ من قريش فوصلَه الإسلام ، عشرةُ نَفَر من عشرة بطون : من هاشم ، وأميَّةَ ، ونوفل ،

---

(1) « طبقاتُ ابن سعد » (٥ / ٤٤٩) ، و« سيرُ أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٦٢ ـ ٥٦٧) ، و« تهذيب التَّهذيب » (٤ / ٤٢٤ ـ ٤٢٥) ، و« أسدُ الغابة » (٢ / ٤٠٥ ـ ٤٠٧) ترجمة رقم : (٢٥٠٨) ، و« المعجم الكبير » (٨ / ٤٦ ـ ٥٢) ، و« الاستيعابُ » (٢ / ١٧٦ ـ ١٨٠) ، و« الإصابةُ » (١ / ١٨٠ ـ ١٨١) ، و« المغازي » (انظر الفهرس : ٣ / ١١٨٥ ـ ١١٨٦) ، و« المسند » (٥ / ٢٢٢ ـ ٢٢٥) ، و« البداية والنِّهاية » (٨ / ٢٣) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (انظر الفهارس : ٤ / ٧٧٩) ، وغيرها .

(2) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٦٧) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ٩٣) .

وأسد ، وعبد الدَّار ، وتيم ، ومخزوم ، وعدي ، وسَهْم ، وجُمَح .

فمن هاشم : العبَّاس بنُ عبد المطَّلب ، كان قد سقىٰ في الجاهليَّة الحجيج ، وبقيَ له في الإسلام .

ومن بني أميَّة : أبو سفيان بنُ حرب .

ومن بني نوفل : الحارثُ بنُ عامر .

ومن بني عبد الدَّار : عثمانُ بنُ أبي طلحة .

ومن بني تَيْمٍ : أبو بكر الصِّدِّيق .

ومن بني أسد : يزيدُ بنُ زَمَعَة .

ومن بني مخزوم : خالدُ بنُ الوليد بنِ المغيرة .

ومن بني عديّ : عمر بنُ الخطَّاب .

ومن بني سَهْم : الحارثُ بنُ قيس .

ومن بني جُمَح : صفوانُ بنُ أميَّة » [(١)] .

* قال ابنُ خربوذ رَحِمَهُ اللَّهُ : « صارت مكارمُ قريش في الجاهليَّة إلىٰ هـٰؤلاء العشرة ، فأدركهم الإسلامُ ، فوصلَ ذلك لهم ، فكذلك كلُّ مَنْ شَرُفَ

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ٩١ ـ ٩٢) . قال ابن دريد رَحِمَهُ اللَّهُ في « الاشتقاق » عن معنىٰ صفوان : « واشتقاق « صفوان » من الصَّفا . والصَّفا : الحجارة والصَّخرة الصُّلبة . يُقال : صَفْوانٌ ، وصَفَا مقصور ، الواحدة صفاةٌ ، ويُجمع صُفِيٌّ أيضاً . وفي التَّنزيل : ﴿ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ ﴾ [البقرة : ٢٦٤] .

والصَّفاء من المصافاة ممدود . وصفاء الشَّيء ؛ أي : نقاؤه من الكدر . ويُقال : ماءٌ في متْن الصَّفا . وقد سمَّت العرب صَفِيًا ، وصفيَّة : اسم امرأة . وفلان صِفْوةُ فلانٍ : أي : صديقه . واصطفيتُ الشَّيء : أي : اخترته ، وهو افتعلت من الصَّفاء » . « الاشتقاق » (ص : ١٢٨) .

في الجاهليَّة أدركه الإسلام فوصله »[1] .

* وعن أبي الزِّناد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال : « اصطفَّ سبعةٌ يطعمون الطَّعام ، وينادون إليه كلّ يوم : عمرو بنُ عبد ٱلله بنِ صفوانَ بنِ أميَّةَ بنِ خلف بن وهْب بن حذافة »[2] .

* وقيل : « كان إلىٰ صفوان الأزلام في الجاهليَّة ، وكان سيِّد بني جمح »[3] .

نظرتُهُ إلىٰ الإســلام :

* نشأ صفوانُ بنُ أميَّة وترعرع في بيوتاتِ قريش ذات الشَّرف الرَّفيع ، بيد أنَّ أباه كان من أشدِّ النَّاس عداوةً للإسلام ونبيِّ الإسلام محمَّد ﷺ ، وقد تأثَّر صفوانُ بنُ أميَّةَ بأبيه تأثُّراً واضحاً ، فكان من أعداء الإسلام اللدودين ، ولـٰكنَّ عداوتَه لم تَصِلْ به إلىٰ حدِّ السَّفاه والانحطاط والشَّطط ، وإن كان فيها شيءٌ من الانتقام والثَّأر والغلط .

* ففي غزوة بدر كان أبوه أميَّة ممَّن تغنَّتْ برؤوسهم سيوفُ رجال الإسلام ، وممَّن وقعُوا في فخِّ أعمالهم السَّيِّئة ، ونالوا الجزاء الأوفىٰ العادل في معركة الفصل ومعركة الحقّ ، وقد أمر الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ أنْ يُطرَحَ قتلىٰ المشركين في بئرٍ هناك ، فَطُرِحُوا فيه ، إلا ما كان من أميَّة بنِ خلف ، فإنَّه انتفخَ في درعه فملأها ، فذهبوا ليخرجوه فتزايل ، فأقرّوه به ، وألقوا عليه التُّراب ، فغيَّبوه .

* ولمَّا وصل الخبرُ إلىٰ مكَّة علىٰ لسان الحيسمان بنِ عبد ٱلله الخزاعيّ ، كان صفوانُ بنُ أميَّة قاعداً في الحِجْر ، فأخذ يعدِّد مَنْ قُتِلَ من أعيان المشركين

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ٩٢) .

(٢) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٦٧) .

(٣) المصدر السَّابق عينه .

ومساند الوثنية ويقول : « قُتِلَ عقبةُ ، وشيبةُ ، وأبو جهل ، وأميَّةُ ، وزمعةُ بنُ الأسود ، ونبيهٌ ، ومنبِّهٌ ، وأبو البختريّ بنُ هشام » . فلمَّا جعل يعدِّدُ أشرافَ قريش ، قال صفوانُ بنُ أميَّة وهو قاعدٌ في الحِجْر ، وقد ظنَّ أنَّ الحيسمان يهذي ولا يعقلُ ما يقول : « واللهِ إنْ يعقل هـٰذا فاسألوه عنِّي ! » .

فقال : « ما فعل صفوان ؟ » .

قال : « ها هو ذاك جالسٌ ، قد واللهِ رأيتُ أباه وأخاه حين قُتِلا »[1] .

* تألَّم صفوانُ بنُ أميَّة أشدَّ الألَم لمصابِ أهل بدر ممَّن تربطُهُ بهم رابطة الدم ، وفي مقدّمتهم : أبوهُ وأخوه ، كما تجاذبتْهُ الأحزانُ لمن وقعَ في الأسر ، وكاد الأسىٰ يعصفُ به لولا أنْ تماسَك ؛ وبدأ يتظاهرُ بالصَّبر إلىٰ أن حانتْ فرصةٌ ذهبيّةٌ اهتبلهَا صفوان ، لمَّا التقىٰ ابنَ عمِّه عُمير بن وهب ، فاشتورا فيما بينهما علىٰ اغتيال النَّبيِّ ﷺ ، وذهب عميرٌ إلىٰ المدينةِ لينفِّذَ المهمَّة الصَّفوانيَّة العُميريَّة الغادرة ، فتلقَّفَتْه العنايةُ الإلـٰهيَّةُ ؛ ببركةِ النَّبيِّ ﷺ ومحاسنِ الأخلاقِ المحمَّديَّةِ ، فأسلمَ إسلامَ الموقنين ، وأصبحَ من سلْكِ المؤمنين ، ومن الدُّعاة إلىٰ دين ربِّ العالمين ، في حين أنَّ صفوانَ بنَ أميَّة ظلَّ بمكَّةَ تلهو به الأماني وتسْخَر ، وتعبثُ به الأحلام ويخدعه البَصَر ، إلىٰ أنْ قدم عميرٌ من المدينة ولم يلتقيه ، فأظهرَ الإسلام ، ودعا إلىٰ السِّلم والسَّلام ، ولم يألُ جهداً في دعوة صفوان إلىٰ دين ربّ العالمين ، بيد أنَّ صفوانَ أعرضَ عنه إعراض الكارهين ، ولم يجبْه بكلمةٍ واحدة ، وظلَّ علىٰ شركه إلىٰ ما بعد الفتح بقليل ؛ حيث فتحَ علىٰ بصيرته الفتَّاحُ العليمُ ، فأسلمَ وحَسُنَ إسلامه ، وصار من رجال الإسلام الذين نعموا بالإيمان ، ولاذوا برضا الرَّحمـٰن[2] .

---

(١) « تاريخ الإسلام » للذَّهبيّ (المغازي ، ص : ٦٦) ، و« البداية والنِّهاية » (٣ / ٣٠٨) ، و« السِّيرة النَّبويَّة » (٣ / ٥٤) طبعة دار الكتاب العربي ، وغيرها من مصادر .

(٢) انظر : « المغازي » للواقديّ (١ / ١٢٥ ـ ١٢٧) ، و« البداية والنِّهاية » =

* ولٰكنْ ما الأعمالُ التي قام بها صفوانُ بنُ أميَّةَ إلىٰ يوم الفَتْح ، هٰذا ما ستجلوه الصَّفحات الآتيةُ إنْ شاء اللهُ تعالىٰ .

صفوانُ وأحداثُ غزوة أُحد :

* ظلَّ قلبُ صفوانَ بنِ أميَّة يغلي كالمرجل حزناً ، ولمَّا أطلتْ معركةُ أُحد علىٰ النَّاس ، صمَّمَ صفوانُ علىٰ أنْ يخرجَ للقتال ، وكان أحد قادتها ومدبِّري أمرها ، ولئلا يحدِّثَ أحدٌ من الأعيان نفسَه بالتَّخاذل أو الفرار من المعركة مع المسلمين ، فإنَّهم استصحبوا معهم نساءهم إلىٰ المعركة ، وكانت قريشٌ قد اختلفَتْ في إخراج النِّساء معها ، فقال صفوانُ لقريش في حماسٍ شديد : « اخرجوا بالظُّعُن ، فأنا أوَّلُ مَنْ فَعَلَ ، فإنَّه أَقْمَنُ ـ أجدر ـ أن يُحْفِظْنَكم ويذكرنكم قتلىٰ بدر ، فإنَّ العهد حديثٌ ، ونحنُ قومٌ مستميتون ، لا نريدُ أنْ نرجعَ إلىٰ دارنا حتَّىٰ ندركَ ثأرنا أو نموتَ دونه » .

* وجدت الفكرةُ الصَّفوانيَّةُ الممزوجةُ بالفَوران والغليان صدًى عند بعض مَنْ أُصيب ذووهم في بدر ، كما وجدت مساحةً واسعةً عند بعضِ فُرسان قريش وقادتها ، من مثل : عِكْرمةُ بنُ أبي جهل ، وعمرو بنُ العاص ، والحارثُ بنُ هشام ، وغيرهم من الموتورين .

* وفي تلك اللحظات الحرجةِ الحاسمةِ تقدَّم عكرمةُ بنُ أبي جهل واقتربَ من صفوان وقال له : « أبا وهْبٍ ! أنا أَوَّل مَنْ أجاب إلىٰ ما دعوتَ إليه » .

* وشدَّ أزْرَ عِكْرمةَ عمرو بنُ العاص ، فقال مثل مقالة عكرمة ، وكذلك

= (٣ / ٣١٣ ـ ٣١٤) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (١ / ٣٣٨ ـ ٣٤٣) مع الجمع والاختصار والتَّصرُّف . وهٰكذا نجد أنَّ عميرَ بنَ وهب قد خرجَ من مكَّة كافراً جاهداً علىٰ أن يغتالَ رسولَ ٱلله ﷺ ، فإذا به يعودُ مؤمناً صادقاً داعياً إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ وغدا من رجال عصر النُّبوَّة الذين تلذّ لسيرتهم الأسماع .

فعل آخرون ممّن يتحرّقون غيظاً وشوقاً إلىٰ ملاقاة المسلمين وقتالهم .

* بينما لم تَلْقَ دعوة صفوان بن أميَّة ترحيباً وارتياحاً لدىٰ شطْرٍ من كُبراء قريش وأعيانهم ، وكان منهم نوفلُ بنُ معاوية الدَّيليّ الذي مشىٰ إلىٰ صفوانَ بنِ أميَّة وإلىٰ جموع قريش وقال لهم واعظاً ومحذِّراً : « يا معشرَ قريش ، هـٰذا ليس برأي أنْ تُعرِّضُوا حُرَمَكم عدوّكم ، ولا آمن أنْ تكون الدَّائرة لهم ، فتفتضحوا في نسائكم » . فردَّ عليه صفوانُ بحزمٍ ردّاً عنيفاً ، وسفَّه رأيه وقال : « لا كان غير هـٰذا أبداً ، ولا بدَّ من خروج النِّساء معنا » .

* وجاء نوفلُ بنُ معاوية إلىٰ أبي سفيان بن حرب لعلَّه يقبلُ مقالته ، ويقلعُ عن خروج النِّساء معهم إلىٰ أُحدٍ ، فألفىٰ هندَ بنتَ عتبة عنده ، فصاحَتْ في وجْه نوفلَ صيحةً منكرةً ، وقالت له في حزم : « إنَّك واللهِ سلِمْتَ يوم بدر فرجعْتَ إلىٰ نسائك ؛ نعم ، نخرجُ ، فنشهدُ القتال ، فقد رُدَّتِ القِيانُ من الجحفَة في سفرهم إلىٰ بدر ، فقُتِلَت الأحبّةُ يومئذٍ » . قال أبو سفيان للجمع القُرشيّ وفيهم صفوان : « لستُ أخالف قريشاً ، أنا رجلٌ منها ، ما فعلتْ فعلتُ »[1] ، فخرجوا بالظُّعُن ، واتَّجهوا نحو المدينة المنوَّرة وهم يحملون قلوباً تحبُّ الثَّأر في الغد قبل الأمس ، كما يحبُّ العطشىٰ الماء .

* وكان النِّساء اللواتي خرجْنَ مع الجيش إلىٰ أُحد قرابة خمس عشرة امرأة ، كي يثِرْنَ الحماسَ والحميَّة في الرِّجال ، فخرج أبو سفيان بنُ حرب بامرأتين : هند بنت عتبة العبشميَّة ، وأميمة بنت سعد بن وهب الكنانيَّة ، وخرج صفوانُ بنُ أميَّة بامرأتين : برزة بنت مسعود الثَّقفيّ ، وبامرأته البغوم بنت المعذّل[2] الكنانيّة ؛ وخرج طلحةُ بنُ أبي طلحة بامرأته سلافةَ بنت سعد بن شُهَيد ، وخرج عكرمةُ بنُ أبي جهل بامرأته أمّ حكيم بنت

---

(١) « المغازي » (١ / ٢٠١ ـ ٢٠٢) بشيءٍ من التّصرّف .

(٢) اقرأ سيرة البغوم بنت المعذّل في كتابنا : « بيعة النِّساء في القرآن والسِّيرة » (ص : ٢٣٥ ـ ٢٣٦) ، ففي سيرتها بعض الفوائد النّافعة .

الحارث بن هشام ، وخرج الحارثُ بنُ هشام بامرأته فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرجَ عمرو بنُ العاص بامرأته هند بنت منبه بن الحجَّاج ، وخرجت خناسُ بنتُ مالك بن المضرِّب مع ابنها أبي عزيز بن عمير العبدريّ ، وخرج الحارثُ بنُ سفيان بن عبد الأسد بامرأته رملة بنت طارق بن علقمة ، وخرج كنانةُ بنُ علي بن ربيعة بامرأته أمّ حكيم بنت طارق ، وخرج سفيانُ بنُ عويف بامرأته قتيلة بنت عمرو بن هلال ، وخرج النُّعمانُ وجابرُ ابنا مسك الذّئب بأمّهما الدُّغنيّة ، وخرج غرابُ بنُ سفيان بن عُويف بامرأته عمرةَ بنتِ الحارث بن علقمة ، وهي التي رفعت لوء قريش حين سقط حتَّىٰ تراجعت قريش إلىٰ لوائها [1] .

* وخرج النِّساء معهنَّ الدُّفوف ، يحرضْنَ الرِّجال ويذكِّرنَهم قتلىٰ بدر في كلِّ منزل ينزلونه ، وكانت قريشٌ لمَّا مرَّت بالأبواء قالت : « إنَّكم قد خرجتم بالظُّعُن معكم ، ونحنُ نخافُ علىٰ نسائنا ، فتعالوا ننبشْ قبرَ أمّ محمَّد ـ أي : آمنة بنت وهب ـ فإنْ يصبْ من نسائكم أحداً قلتم هـٰذه رمّةُ أمّك ، فإن كان برّاً بأمّه كما يزعمُ ، فلعمري ليفادينّكم برمّة أمّه ، وإن لم يظفرْ بأحدٍ من نسائكم ، فلعمري ليفدين رِمّة أمّه بمالٍ كثير إنْ كان بها برّاً » .

* استشار أبو سفيان بن حرب أهل الرَّأي والحرب والمكيدة من قريش في هـٰذا الأمر المُحْدَث فقالوا : « لا تذكُرْ من هـٰذا شيئاً ، فلو فعلنا نَبَشَتْ بنو بكر وخزاعة موتانا » [2] .

* ولمَّا اشتبك القتالُ في أُحد بين المسلمين والمشركين كان صفوانُ بنُ أميَّة ممَّن خاضَ غمار المعركة ، وكاد يُقْتل بأيدي رجال الأنصار لولا انْ أنقذه مولاه نِسْطاس ، وكان صفوانُ يحرِصُ علىٰ أن يُقْتَلَ رسولُ ٱللهِ ﷺ ، فلقد كان

---

(1) « المغازي » (١ / ٢٠٢ ـ ٢٠٣) بتصرُّف . وانظر : « البداية والنِّهاية » (٤ / ١١) .

(2) « المغازي »(١ / ٢٠٦) .

الشَّقيُّ عبدُ ٱللهِ بنُ شهاب الزُّهريّ يقولُ يومئذ : « دلّوني علىٰ محمَّدٍ ، فلا نجوتُ إنْ نجا » ؛ وكان رسولُ ٱللهِ ﷺ إلىٰ جنْبه ، ما معه أحدٌ ، ثمَّ جاوزه . ولقي عبدُ ٱللهِ بنُ شهاب صفوانَ بنَ أميَّة ، فقال له صفوانُ وقلبُه يفيضُ حنقاً : « ويحك يا بن شهاب ، تَرِحْتَ ، أَلَمْ يمكنك أنْ تضربَ محمَّداً ، فتقطع هٰذه الشَّأْفة ، فقد أمكنك ٱللهُ منه ؟ » .

قال ابنُ شهاب : « وهل رأيته ؟ » .

قال : « نعم أنتَ إلىٰ جنْبه » .

قال : « واللهِ ما رأيتُه ؛ أحلفُ بٱللهِ إنَّه منَّا ممنوعٌ ، خرجنا أربعةٌ تعاهدنا وتعاقدنا علىٰ قَتْله ، فلم نخلصْ إلىٰ ذلك » [1] .

* ومن العجيب أنَّ صفوانَ بنَ أميَّة كان يوم أحد بعدما انهزم المسلمون ينادي ويقول : « من رأىٰ خُبيب بن يساف ؟ » وهو يطلبه ولا يقدرُ عليه . وقد مثَّل صفوان يومئذ بخارجةَ بن زيد بن أبي زهير وقال : « هٰذا ممَّنْ أغْرىٰ بأبي يوم بدر ـ يعني : بأبيه أمية بن خلف الجمحي ـ الآن شَفيتُ نفسي حين قتلتُ الأماثل من أصحاب محمَّد ، قتلتُ ابن قوقل ، وقتلتُ ابن أبي زهير ، وقتلتُ أوس بن أرقم » [2] .

* وفي يوم أُحد نظرَ صفوان بن أميَّة إلىٰ سيِّدنا حمزة بن عبد المطَّلب ـ رضي ٱللهُ عنه ـ وهو يهدُّ النَّاسَ هدّاً ، ويفرّقُهم بسيفَيْهِ يمنةً ويسْرةً ، فَذُهِلَ صفوانُ من جرأته وقوّته وشجاعته وقال : « ويحكم ، منْ هٰذا الذي يهدُّ النَّاس ؟ » .

قالوا : « حمزةُ بنُ عبد المطَّلب » .

فقال : « ما رأيت كاليوم رجلاً أسرعَ في قومه من حمزة » .

---

(١) « المغازي » (١ / ٢٣٨) بتصرّف .

(٢) « المغازي » (١ / ٢٥٨) بتصرُّف يسير .

* ولمَّا وضعتِ الحربُ أوزارها ، انصرفَ المشركون نحو مكَّة ، فلمَّا كانوا بالرَّوْحاء ـ مكانٌ يبعدُ عن المدينة (٧٤ كيلاً) ـ قال مشركو قريش لأبـي سفيـان : « لا محمَّـداً أصبتـم ، ولا الكـواعـبَ أردفتـم ، فبئـس ما صنعتُم » ، وكادوا يرجعون لولا أنْ ردَّهم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بكلام صفوانَ بنِ أميَّة ـ وكان عاقلاً خبيراً بصيراً بالعواقب ـ فقال : « يا قوم ! لا تفعلوا ؛ فإنَّ القومَ قد حزنوا ، وأخشىٰ أن يجمعُوا عليكم مَنْ تخلَّف من الخزرج ؛ فارجعوا والدَّولة لكم ، فإنِّي لا آمنُ إنْ رجعتم أنْ تكونَ الدَّولةُ عليكم » [1] .

* ونقـلَ كـلامَ صفـوان إلـىٰ النَّبـيِّ ﷺ معبـدُ بـنُ أبـي الخـزاعـيّ ، فقال ﷺ : « أرشدهم صفوان وما كان برشيد ، والذي نفسي بيده ، لقد سُوِّمَتْ ـ أُعْلِمَتْ ـ لهم الحجارةُ ، ولو رجعوا لكانوا كأمس الذَّاهب » .

* وممَّا يتعلَّق بصفوان وغزوة أحد : « أنَّ أبا عزَّة الشَّاعر ، كان يحضّض علىٰ النَّبيِّ ﷺ ، فأُسر يوم بدر ، فقال : يا محمَّد ! إنِّي رجلٌ معيلٌ ، ولي بناتٌ ، فامنُنْ عليَّ فمنَّ عليه ، فقال : لا أقاتل محمَّداً أبداً . فلمَّا رجعَ إلىٰ مكَّة ، ضمنَ له صفوان بن أميَّة عياله ، فرجعَ يوم أحد يحضّضُ علىٰ النَّبـيِّ ﷺ ، فـأَسَـرَهُ النَّبـيُّ ﷺ ، فقـال : امنـنْ علـيَّ ، فقـال : « لا تمسـحْ عارضَيْك بالحِجْرِ وتقولُ : خدعتُ محمداً » فقتَلَه صبراً » [2] .

لا يزالُ الحقْـدُ مسـتمرّاً :

* غابت غزوةُ أُحدٍ عن عينَي صفوان ، ولـٰكنْ لم يغبْ حقدُهُ عن العيان ، ولم تأفلْ نارُ غضبته عن رجالِ الإسلام الشُّجعان ، فعندما غدرت بنو هُذيل برجال بَعْثِ الرَّجيع ، وأسروا زيدَ بن الدّثنّة ، وخُبيبَ بنَ عديّ ، جاء الآسرون الغادرون فباعوهما في مكَّة المكرّمةِ ، فاشترىٰ صفوانُ زيداً بمبلغ

---

(١) « المغازي » (١ / ٣٣٩) .

(٢) انظر : « الاشتقاق » (ص : ١٣١) .

كبير ؛ فقتله بأبيه كي يغيظَ المسلمين ، ولـٰكنَّ صفوانَ نفسه قد اغتاظ هو أشدَّ الغيظ من زيد بن الدّثنة ؛ لأنَّه رفضَ أعمال المشركين وضلالاتهم .

* فقد كان زيدُ بنُ الدَّثِنَّة عند آل صفوان بن أميَّة محبوساً في حديد ، وكان يتهجَّدُ بالليل ، ويصومُ النَّهار ، ولا يأكلُ شيئاً ممَّا أُتي به من الذَّبائح ، فشقَّ ذلك علىٰ صفوان ، وكانوا قد أحسنوا إساره ، فأرسل إليه صفوان : فما الذي تأكل من الطَّعام ؟

قال : « لستُ آكل ممَّا ذُبِحَ لغير ٱلله ، ولـٰكنِّي أشربُ اللبن » . وكان يصومُ ، فأمرَ له صفوان بعسٍّ من لبنٍ عند فطره ، فيشرب منه حتَّىٰ يكون مثلها في اليوم التَّالي . فلمَّا خرجوا به وبخبيب في يومٍ واحدٍ التقيا ، فأوصىٰ كلُّ منهما صاحبه بالصَّبر علىٰ ما أصابه ، ثمَّ افترقا . وكان الذي وليَ قتْلَ زيدٍ نِسطاسُ غلامُ صفوانَ بنِ أميَّة ، قتَلَه بالتَّنعيم ، فصلَّىٰ زيدٌ ركعتَيْن ، ثمَّ جعلوا يقولون : له : « ارجعْ عن دينك المُحدث واتّبعْ دِيننا ، ونُرسلك » .

قال : « والله ! لا أفارقُ دِيني أبداً » .

قالوا : « أيسرُّكَ أنَّ محمَّداً في أيدينا مكانك وأنتَ في بيتك ؟ » .

قال : « ما يسرّني أنَّ محمَّداً أُشيك بشوكة وأنِّي في بيتي » . فقتله ـ رضي ٱلله عنه [١] ـ .

* وتذكر كتبُ السِّيرة وغيرُها من المصادر المُعتمدة أنَّ صفوانَ بنَ أميَّة قد شارك في معظم المعارك التي كانت بين المسلمين والمشركين ، وأنفقَ فيها الأموال ليطفئَ نور الإسلام ، وما درىٰ أنَّ هـٰذا النُّور سيحلُّ في قلبه يوماً ما ، وسيكون ممَّن يدافع عن هـٰذا الدِّين الذي يحاربه الآن .

* ففي غزوة القضيَّة قضىٰ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ نسكَهُ ودخلَ البيت ،

---

(١) انظر : « زاد المعاد » (٣ / ٢٤٦) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (١ / ٨٠٣) مع الجمع والتَّصرُّف .

فلم يزلْ فيه حتَّىٰ أذَّنَ بلال بالظُّهرِ فوقَ ظَهْر الكعبة ، وكان رسولُ ٱللهِ ﷺ أمره بذلك ، فكاد أنْ يغشىٰ علىٰ كبراء قريش مثل : عكرمة بن أبي جهل ، وخالد بن أسيد ، وسُهيل بن عمرو ، وصفوان بن أميَّة ، فقد ساء صفوان هـٰذا الأذان علىٰ الرّغم من جمالِ صوتِ بلال ونَدَاوته وعذوبته ، وأخذ صفوانُ يقول : « الحمدُ للهِ الذي أذهب أبي قبل أنْ يرىٰ هـٰذا ! » .

* وفي عمرة القضاء أيضاً تغيَّبَ من المشركين خالدُ بنُ الوليد [1] ، فتعجَّب الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ كيف يغيبُ الإسلام عن مثل خالد ، وأنَّ مثله جَهلَ الإسلام ، ثمَّ أتاه كِتَاب النَّبيّ ﷺ يرغبه في الإسلام ، فازداد رغبةً في أن يكون واحداً من رجالهِ الكرام ، وأدركتْهُ لحظةٌ من لحظات التَّجلّي الإلـٰهيّ ، فعزم علىٰ الخروج إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ ليلقيَ إليه زمام أمره ، وعرض الفكرةَ علىٰ صفوانَ بن أميَّة ـ وكان صفوانُ من عُقلاء قريش وذوي مشورتهم ومن أصدقاء خالد ـ وأحبَّ خالد أن ينطلقا فَيُسْلما ، وكان خالدٌ يَتَسَاءَل : « مَنْ أصاحب إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ ؟ » قال خالد : « فلقيتُ صفوانَ بنَ أميَّة فقلت : يا أبا وهْبٍ ! أمَا ترىٰ ما نحنُ فيه ؟ إنَّما نحنُ أَكَلَةُ رأس ، وقد ظهر محمَّدٌ علىٰ العرب والعجم ، فلو قدمنا علىٰ محمَّدٍ ، فاتَّبعناه ، فإنَّ شرفَ محمَّدٍ لنا شرفٌ » . فأبىٰ صفوان أشدّ الإباء ، ولم يرحِّبْ بمقالةِ خالد ، وقال : لو لم يبقَ غيري من قريش ما اتَّبعْتُه أبداً » . فعذره خالد وقال : « هـٰذا رجلٌ موتورٌ يطلبُ وِتراً ، قد قُتِل أبوه وأخوه ببدر » [2] .

* ويوم فتح مكَّة أصرَّ صفوانُ بنُ أميَّة في ثُلَّةٍ من مشركي قريش أنْ يقاوموا وألا يستسلموا من غير إراقةِ دماء ، وأعدّوا عدّتهم للقتال ، ولم يرضَوا بما مُنِحُوا من أمانٍ نبويّ ، فلمَّا دخل جيشُ خالد بنِ الوليد من أسفل مكَّة

---

(١) اقرأ سيرة سيّدنا خالد بن الوليدفي الباب الأوّل من كتابنا : « فرسان من عصر النُّبوَّة » (ص : ٨٢ ـ ١٠٤) فقد عجزت النِّساء أن يلدنَ مثل خالد ـ رضي ٱلله عنه ـ .

(٢) « المغازي » (٢ / ٧٤٧) بشيءٍ من التَّصرُّف .

أمطروه بنبالهم ، ولـٰكنَّ خالداً لم يلبثْ أنْ فرَّقَهم ، ولم يلبثْ صفوان وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيلُ بنُ عمرو ، أن ولّوا الأدبارَ وهم منهزمون ؛ لا يلوون علىٰ شيءٍ وهم خائفون ؛ وقلوبهم وَجِلَة وهم متردّدون .

* ومن الطَّريف والممتع للأسماع والأرواح ما حدَث لرجلٍ من بني الدِّيل يُقال له : حماس بن قيس بن خالد الدِّيليّ ، فإنَّه لمَّا سمع برسولِ ٱلله ﷺ يوم الفتح ، جلس يصلحُ سلاحه ، فقالت له امرأته : « لمن تعدّ هـٰذا السِّلاح ؟ » .

قال : « أعدّه لمحمَّدٍ وأصحابه ، فإنِّي أرجو أنْ أخدمك منهم خادماً ، فإنَّك إليه محتاجة » .

قالت له بلسان النّصح والشَّفقة : « ويحك لا تفعلْ ، ولا تقاتلْ محمَّداً ، وٱلله ليضلَّنَّ هـٰذا عنك لو رأيتَ محمَّداً وأصحابه » .

قال حماسٌ في استخفافٍ لامرأته : « ستَرَيْنَ يا هـٰذه ما أفعل » .

* اشترك حماسُ بنُ قيس في القتال ضدَّ خالد بن الوليد مع المقاومين في الخَنْدمة ، ولـٰكنَّه لمَّا رأىٰ ما حلَّ بالمشركين عاد إلىٰ منزله ترتعدُ فرائصه من شدّة الخوف ، فطرق البابَ طرقاً عنيفاً وقد انخلع فؤادُهُ ، ففتحت امرأته الباب ، فدخل ، وهو يلهثُ ، وقد ذهبت روحهُ ، وطارت نفسُه شعاعاً ، فدهشت امرأتُه من حالتهِ المرعبةِ والمزرية ، ثمَّ قالت في سخريةٍ شديدة : « أين الخادمُ الذي وعدتني يا فارسَ بني الدِّيل ؟ ما زلتُ منتظرتك منذ اليوم » .

فقال والخوفُ يلجمُه : « ويحك ! دعي عنك هـٰذا ، وأغلقي بابي ، فإنَّه مَنْ أغلقَ بابه فهو آمن » .

قالت : « ألمْ أنهكَ يا قيسُ عن مقاومة محمَّد وقتاله ؟ وقلتُ لك : ما رأيتُه يقاتلكم مرَّةً إلاَّ ظهرَ عليكم » .

قال : « بابنا أغلقيهِ » .

قالت : « وما بابنا ؟ » .

قال : « إنَّه لا يُفتحُ علىٰ أحدٍ بابه » .

* ثمَّ اخلولق حماسٌ يقولُ لها :

إنَّكِ لو شهدتِ يوم الخَنْدمَه ... إذْ فَرَّ صَفْوانٌ وفرَّ عِكْرمَه

وأبو يزيد قائمٌ كالمؤتمه ... واستقبلتْهم بالسّيوف المسلمَه

يقطعْنَ كلَّ ساعدٍ وجمجمه ... ضرباً فلا يسمعُ إلاَّ غمغمَه

لهم نَهِيتٌ خلفنا وهمهمه ... لم تنطقي في اللوم أدنىٰ كلمه [1]

أشهدُ أنْ لا إلـٰه إلاَّ ٱللهُ :

* لمَّا كان فتحُ مكَّةَ المكرّمةِ ، جاء الحقُّ وزهقَ الباطلُ ، وتهاوىٰ زعماءُ المشركين أمامَ الحقِّ واحداً تلو الآخر ، فبعضُهم لاذَ بالرحمةِ المُهداة رسولِ ٱللهِ ﷺ وأسلم وشهد شهادةَ الحقِّ ، وبعضُهم لاذَ بالفرار كعكرمة وصفوان ، وقد جاء كلاهما مسلماً بعد أنْ جاءهما من النَّبيِّ ﷺ الأمان .

* كان فرار صفوانَ بنِ أميَّة من مكَّة يوم الفتح فرارَ خائف من آثامِ الجاهليةِ وأدرانها ، فرارَ متوجّس ممَّا ارتكبه في جانبِ النَّبيِّ ﷺ ، وما علم صفوان أنَّه ﷺ بالمؤمنين رؤوفٌ رحيمٌ ، وكذلك بمن أسلم وأذعنَ للهِ العَليّ العظيم .

---

(١) انظر : « السِّيرة النَّبويَّة » (٤ / ٩٢) طبعة دار الكتاب العربي ، و« نهاية الأرب » (١٧ / ٣٠٦) ، و« البداية والنِّهاية » (٤ / ٢٩٧) ، و« مجمع الزَّوائد » (٦ / ١٧٤ ـ ١٧٥) ، و« شفاء الغرام » (٢ / ٢٢٢) مع الجمع والتّصرّف .

وقوله « الخندمة » : المكان الذي كانت به الموقعةُ وهو جبلٌ بمكَّة . و« أبو يزيد » : هو سهيلُ بنُ عمرو العامريّ . و« المؤتمه » : المرأة التي مات عنها زوجُها وبقي لها أيتام . و« الغمغمة » : أصواتٌ غير مفهومة . و« نهيت » : صوت الصَّدر ، وقيل : زئير الأسد . و« همهمة » : كلام خفي أو صوت يتردّد في الصَّدر عند الحرب والطَّعن .

* لم يطمئنَّ صفوانُ علىٰ حياته ، وخاف أنْ يصادفَه أحدُ رجال النَّبيّ ﷺ ، فيذيقه كأْسَ المنيَّة ، ويجعله كأمس الذَّاهب ، فهربَ من مكَّة في اتِّجاه جُدَّةَ ، يريدُ ركوبَ البحر والإبحار في لججٍ لا نهايةَ لها ، وكان بصحبته غلامٌ له يُقال له يسار ، ليس معه غيره .

* ألقت عصا التّسيار بصفوان إلىٰ مرفأ الشُّعيبةِ ، وكان خائفاً يترقَّبُ ويتلفَّتُ خيفةَ أنْ يدركَهُ أحدٌ ؛ إذ لم يكنْ نكرةً من الرِّجال فيُجهَلُ أمرهُ ، وبينما كان يهمُّ هو وغلامه بامتطاء متْن البحر ، إذا بابن عمِّه وصديقه عُمير بن وهْب الجمحيّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قد أقبل ، فظنَّ صفوان الظُّنون ، وكاد يموتُ فرقاً ، ولـٰكنَّ عميراً جاءه ليرجعَ إلىٰ أهلهِ في مكَّة آمناً بأمان محمَّديٍّ ممزوجٍ بأمانٍ إلـٰهيٍّ رحيم ، فقد أعطاهُ سيِّدنا عُمير العمامةَ النَّبويَّة علامةَ الأمان الصَّفوانيّ ، فعاد صفوانُ ، وتركهُ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ علىٰ شركه بضعة أسابيع ، ثمَّ إنَّه أعلن إسلامه راغباً محبّاً صادقاً فحسُنَ إسلامه ، وغدا من خيرة رجال عصر النُّبوَّة وكرامهم .

* وها نحنُ أولاء الآن تاركو زمام القصّة للواقديّ رَحِمَهُ ٱللهُ كيما يحدّثنا عن قصّة إسلام سيِّدنا صفوان بن أميَّة ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وكيف انتظمَ في عداد الصَّحابة الكرام فيقول : « وأمَّا صفوانُ بنُ أميَّة ، فهربَ حتَّىٰ أتىٰ الشُّعيبةَ ، وجعل يقولُ لغلامه يسار وليس معه غيره : ويحك ! انْظُر مَنْ ترى ؟

قال : هـٰذا عُمير بنُ وهب .

قال صفوان : ما أصنعُ بعمير ؟ واللهِ ما جاء إلاَّ يُريد قتلي ، قد ظاهر محمَّداً عليّ .

فلحقه فقال : يا عُمير ! ما كفاك ما صنعتَ بي ؟ حمَّلتَنِي دَيْنَكَ وعيالك ، ثمَّ جئتَ تريدُ قتلي !

قال : أبا وهْبٍ ! جُعِلْتُ فداكَ ! جئتُك من عندِ أبرِّ النَّاس ، وأوصل النَّاس .

وكان عُميرٌ قال لرسولِ ٱلله ﷺ : يا رسولَ ٱلله ! صفوان ؛ سيِّدُ قومي ، خرجَ هارباً ، ليقذفَ نفسه في البحر ، وخاف ألاَّ تؤمّنه ، فأمِّنه فداك أبي وأمّي !

فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « قد أمَّنْتُه » .

فخرج عُميرٌ في أثرِ صفوان فقال له : إنَّ رسولَ ٱللهِ ﷺ قد أمَّنَكَ .

فقال صفوان : لا وٱلله ، لا أرجعُ معك حتَّىٰ تأتيني بعلامة أعرفُها من رسولِ ٱلله ﷺ .

فقال رسولُ ٱلله ﷺ لعمير : « خُذْ عمامتي » .

فرجع عميرٌ إلىٰ صفوان بها وهو البُرْدُ الذي دخل فيه رسولُ ٱلله ﷺ يومئذ مُعتجراً به ، بُرد حبَرَة ، فخرجَ عميرٌ في طلبه الثَّانية ، حتَّىٰ جاء بالبرد ؛ فقال : أبا وهب ، جئتُك من عند خيرِ النَّاس ، وأوصلِ النَّاس ، وأبرِّ النَّاس ، وأحلم النَّاس ، مجدُهُ مجدُكَ ، وعزُّهُ عزُّك ، وملكُهُ ملكُك ، ابنُ أمّك وأبيك ، أذكّرك ٱلله في نفسك .

قال له : أخافُ أنْ أُقْتَلَ يا عُمير .

قال : قد دعاك إلىٰ أن تدخلَ في الإسلام ، فإن رضيت وإلا سيَّرَكَ شهرين ، فهو أوفىٰ النَّاس وأبرّهم ، وقد بعثَ إليك ببردِه الذي دخلَ به معتجراً ؛ أتعرفه ؟

قال صفوان : نعم .

فأخرجه عميرٌ ، فقال صفوان : نعم ، هو هو ! فرجع صفوان حتَّىٰ انتهىٰ إلىٰ رسول ٱلله ، ورسولُ ٱلله ﷺ يصلِّي بالمسلمين العَصْر في المسجد ، فوقَفَا .

فقال صفوان : كم تصلُّون في اليوم والليلة ؟

قال عمير : خمس صلوات .

قال : يصلّي بهم محمَّد ؟

قال : نعم .

فلمَّا سلَّمَ صاح صفوان : يا محمَّدُ ! إنَّ عميرَ بنَ وهْب جاءني بِبُردِك ، وزعم أنَّك دعوتني إلىٰ القدوم عليك ، فإنْ رضيتُ أمراً ، وإلا سيّرتني شهرين .

قال ﷺ : « انزلْ أبا وهْبٍ » .

قال : لا وٱلله ، حتَّىٰ تبيّنَ لي .

قال : « بل تسيرُ أربعة أشهر » .

فنزل صفوان . وخرجَ رسولُ ٱلله ﷺ قِبل هوزان ، وخرجَ معه صفوان وهو كافرٌ ، وأرسلَ إليهِ ﷺ يستعيره سلاحه ، فأعاره سلاحه ، مئة درع بأداتها .

فقال صفوان : طوعاً أو كرهاً ؟

قال رسول ٱلله ﷺ : « عارية مؤدَّاة » .

فأعاره ، فأمره رسولُ ٱلله ﷺ فحملها إلىٰ حُنين ، فشهد حُنيناً والطَّائف ، ثمَّ رجع رسول ٱلله ﷺ إلىٰ الجعرّانة ، فبينما رسول ٱلله ﷺ يسيرُ في الغنائم ينظرُ إليها ، ومعه صفوان بن أميَّة ، فجعل صفوان ينظرُ إلىٰ شِعبٍ مُلئَ نَعَماً وشاءً ورِعاءً ، فأدام إليه النَّظر ، ورسولُ ٱلله ﷺ يرمقُه ، فقال : « أبا وهب ! يعجبُك هـٰذا الشِّعب ؟ » .

قال : نعم يا رسول ٱلله !

قال ﷺ : « هو لك وما فيه » .

فقال صفوانُ عند ذلك : ما طابتْ نفسُ أحدٍ بمثل هـٰذا إلا نفس نبيّ ، أشهـدُ أنْ لا إلـٰـه إلا ٱلله ، وأنَّ محمَّـداً عبـده ورسـولـه » . وأسلـم

مكـانه ـ رضـي ٱلله عنـه ـ » [1] .

* وعن الرَّحمة النَّبويَّة بصفوان وغيره من المشركين يقول عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ : « لمَّا كان يوم الفتح ، أرسلَ رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ صفوانَ بنِ أميَّة ، وإلىٰ أبي سفيان بنِ حرب ، وإلىٰ الحارثِ بنِ هشام ، فقلت : قد أمكنني اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ منهم ، لأعُرِّفنَّهم ما صنعوا ، حتَّىٰ قال رسول ٱلله ﷺ : « مثَلي ومثلكم كما قال يوسُف لإخوته : ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يـوسـف : ٩٢] ، قـال عمر : فانتفضتُ حياءً من رسولِ ٱلله ﷺ » [2] . وفي رواية : « فانفضحتُ حياء . . . » .

* وهـٰذه المعاملةُ المحمَّديَّة الرّفيقةُ الرَّقيقةُ التَّربويَّة بصفوانَ جعلته من الرَّاغبين في الإسلام عن متاع الدُّنيا وزخرفها ، فقد ورد : « أنَّه ﷺ لمَّا استعار مـن صفـوان أدراعـاً مـن حـديـد يـوم حنيـن ، ضـاع بعضُـهـا ، فقـال لـه النَّبيُّ ﷺ : « إنْ شئتَ غرمتها لك » .

فقال : لا ، أنا أرغبُ في الإسلام من ذلك » [3] .

---

(١) « المغازي » (٢ / ٨٥٣ ـ ٨٥٥) بتصرُّف يسير جدّاً . وانظر : « تفسير القرطبيّ » (٥ / ٢٥٧) و(٨ / ١٣٩) ، و« زاد المعاد » (٣ / ٤١٣ ـ ٤٦٨) ، و« البداية والنِّهاية » (٤ / ٣٢٤ ـ ٣٦٠) ، وغيرها .

وعن السَّخاءِ المحمَّديّ والجودِ النَّبويّ يقول صفوان بن أميَّة ـ رضي ٱلله عنه ـ : « لقد أعطاني رسولُ ٱلله ﷺ يومَ حُنين وإنَّه لمن أبغض النَّاس إليَّ ، فما زال يعطيني حتَّىٰ إنَّه لأحبُّ الخلق إليَّ » . « مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ٩١) ، « طبقات ابن سعد » (٥ / ٤٤٩) .

(٢) « مختصـر تـاريـخ دمشـق » (١١ / ٩١) ، وانظـر : « سيـر أعـلام النُّبـلاء » (٢ / ٥٦٥) .

(٣) « مختصـر تـاريـخ دمشـق » (١١ / ٩١) ، وانظـر : « سيـر أعـلام النُّبـلاء » =

* كما أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ استقرض من صفوان بن أميَّة بمكَّة خمسين ألفاً فأقرضه [1] .

* ولشدَّة حبّ سيِّدنا صفوان للإسلام ، ونبيّ الإسلام ﷺ ، ولشدّة حبّه للهجرة ، جاء عنه أنَّه قال : « أتيتُ فقلت : يا رسولَ ٱلله ! مَنْ لم يهاجر هلك ؟

قال : « لا ، يا أبا وهْب ! فارجعْ إلىٰ أباطح مكَّة » [2] .

* قال الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ معلِّقاً علىٰ هـٰذا الحديث : قلتُ : ثبتَ قولُه ﷺ : « لا هجرة بعد الفتح ، ولـٰكن جهادٌ ونيَّة » [3] .

* لقد شاء ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يكون صفوانُ من السُّعداء ومن المسلمين ، فتابَ عليه وأسلم [4] ، وصار من رجال نبي الإسلام محمَّد رسول ٱلله ﷺ ، فأكرمْ بهـٰؤلاء الرِّجال ! وأعظمْ بهم !

روايته للحديث :

* مَنْ كان يصدِّق أنْ يصبحَ سيِّدنا صفوانُ بنُ أميَّة راوياً للحديث

= (٢ / ٥٦٦) ، وانظر تخريج الحديث فيه .

(١) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٦٦) ، و« تاريخ الإسلام » للذّهبيّ (عهد معاوية ، ص : ٦٧) .

(٢) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٦٤) ، وانظر : « الإصابة » (٢ / ١٨١) .

(٣) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٦٤) ، والحديث أخرجه مسلم برقم : (١٣٥٣) .

(٤) جاء عن ابن عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ أن رسول ٱلله ﷺ لعن يوم أحد أبا سفيان ، والحارث بن هشام ، وصفوان بن أميَّة ، فنزلت : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٢٨] فتابَ ٱلله عليهم ، فأسلموا ، فَحَسُنَ إسلامهم . « تفسير ابن عطيَّة » (ص : ٣٥٤) ، وانظر : « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٦٤) وتخريج الحديث فيه .

النَّبويّ ، ومحبّاً للحبيب الأعظم محمَّد ﷺ لولا رحمةُ ٱلله ورأفتُه به ؟ ! ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل : ١٦] .

* روىٰ سيِّدنا صفوانُ الحديثَ عن حبيبنا رسولِ ٱللهِ ﷺ ، وروىٰ عنه أولادُه : أميَّةُ ، وعبدُ ٱلله ، وعبد الرَّحمـٰن ، وابنُ ابنه صفوان بن عبد ٱلله ، وابن أخته حميدُ بنُ حجير ، والتَّابعيُّ الجليل سعيدُ بنُ المسيّب ، وعطاءُ ، وطاووسُ ، وعكرمةُ ، وعبدُ ٱلله بن الحارث بن نوفل ، وعامرُ بن مالك ، وطارقُ بن المرقع وغيرهم » [1] .

* قال عنه الذَّهبيّ : « أسلمَ بعد الفتح ، وروىٰ أحاديث » [2]؛ وتتوزَّع الأحاديثُ التي رواها سيِّدنا صفوان في كُتب الصَّحيح ؛ والسُّنن ؛ والمسانيد ؛ وغيرها من أركان هـٰذا الشَّأن المبارك الطَّيِّب .

* وممَّا جاء لسيِّدنا صفوان في « صحيح مسلم » ما أخرجه بسنده عن ابن شهاب قال : « غزا رسولُ ٱلله ﷺ غزوةَ الفتح ، فتحِ مكَّة ، ثمَّ خرجَ رسولُ ٱلله ﷺ بِمَنْ معه من المسلمين ، فاقتتلوا بِحُنَين ، فنصرَ اللهُ دينَه والمسلمين ، وأعطىٰ رسولُ ٱللهِ ﷺ يومئذٍ صفوانَ بنَ أميَّة مئة من النَّعم ، ثمَّ مئة ، ثمَّ مئة » .

قال ابنُ شهاب رَحِمَهُ ٱللهُ : حدثني سعيد بنُ المسيّب : أنَّ صفوانَ قال : « واللهِ ! لقد أعطاني رسولُ ٱلله ﷺ ما أعطاني ، وإنَّه لأبغضُ النَّاس إليَّ ، فما برحَ يعطيني حتَّىٰ إنَّه لأحبُّ النَّاس إليَّ » [3] .

---

(١) انظر : « تهذيب التَّهذيب » (٤٢٤ ـ ٤٢٥) ، و« الإصابة » (٢ / ١٨١) ، و« أسد الغابة » (٢ / ٤٠٧) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٦٣) ، و« تاريخ الإسلام » (عهد معاوية ، ص : ٦٧) ، و« التَّبيين » (ص : ٤٠٦) مع الجمع بينها .

(٢) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٦٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الفضائل برقم : (٢٣١٣) .

* وأخرج الإمامُ أحمدُ بسنده عن عبدِ اللهِ بنِ الحارث قال : زوَّجني أبي في إمارة عثمان ، فدعا نفراً من أصحاب رسولِ ٱلله ﷺ ، فجاء صفوانُ بنُ أميَّة وهو شيخٌ كبير ، قال : إنَّ رسولَ ٱلله ﷺ قال : « انهسوا اللحمَ نَهْساً ، فإنَّه أهنا ، وأمرأ ، أو أشهىٰ وأمرأ »[١] .

* وفيما يتعلَّقُ بالشَّهادة ، ما أخرجه الإمام أحمدُ وغيرهُ بسندٍ عن عامرِ بنِ مالك ، عن صفوانَ بنِ أميَّة ، عن النَّبيِّ ﷺ قال : « الطَّاعون شهادة ، والغرقُ شهادة ، والبطنُ شهادة ، والنُّفَساء شهادة »[٢] وفي رواية : « الطَّاعون والبطن والغرق والنُّفساء شهادة » .

* وفي الحدودِ وما يتعلَّق بأحكامها ، أخرجَ الطَّبرانيّ بسنده عن حُميد بن حجير ابن أخت صفوان بن أميَّة ، عن صفوانَ بن أميَّة ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « كنتُ نائماً في المسجد ، عَلَىٰ خميصة لي ثمن ثلاثين درهماً ، فجاء رجلٌ إليَّ فاختلسَها منِّي ، فأُخِذَ الرَّجلُ ، فأُتي به النَّبيُّ ﷺ ، فأمرَ به ليقطع ، فأتيتُه فقلت له : أتقطعه من أجلِ ثلاثين درهماً هي له .

قال : « فهلاَّ كان هـٰذا قبل أنْ تأتيني به »[٣] . وفي روايةٍ قال : « فهلا قبل أنْ تأتيني به ، إنَّ الإمام إذا انتهىٰ إليه حدٌّ من حدودِ ٱلله أقامه » .

---

(١) « المسند » (٥ / ٢٢٢ ـ ٢٢٣) برقم : (١٥٣٠٠) ، وأخرجه الطَّبراني في « الكبير » برقم : (٧٣٣٢) .

(٢) « المسند » (٥ / ٢٢٤) برقم : (١٥٣٠٧ ـ ١٥٣٠٨) ، والطبراني (٨ / ٤٨) برقم : (٧٣٢٨ ، و٧٣٢٩ ، و٧٣٣٠) .

(٣) أخرجه الطَّبرانيّ (٨ / ٤٩ ـ ٥٠) برقم : (٧٣٣٥) ، وأبو داود برقم : (٤٣٩٤) ، والنَّسائيّ (٨ / ٦٨) ، وابن ماجه برقم : (٢٥٩٤) ، وأحمد برقم : (١٥٣٠٣) وغيرهم . وانظر : « البدر التَّمام » (٤ / ٤٣٦ ـ ٤٣٩) .

* وأحاديث سيِّدنا صفوان منثورةٌ في كتبِ الحديث ، فليراجعها مَن أرادَ الاستزادة .

آثـارٌ جليلةٌ ومحامدُ نبيلةٌ :

* إنَّ قيمةَ كلِّ إنسان هو ما يحسنُه ، وآثارُ الإنسان ناطقةٌ عنه ، إنْ خيراً فخير ، وإنْ شرّاً فشرّ ، وسيِّدنا صفوانُ بنُ أميَّة ـ رضي ٱلله عنه ـ أحدُ رجال عصر النُّبوَّة الأخيار ؛ الذين تركوا أنصع الآثار ؛ في مجالات المخلصين الأبرار .

* فقـد كـان صفـوان ـ رضـي ٱلله عنـه ـ أحـدَ أشـرافِ قـريـش فـي الجاهليَّة . . . . وكان أحد المُطعمين الأسخياء ، وكان يُقال له : سِداد البَطْحاء ، وهو أحدُ المؤلَّفَة قلوبهم ، وممَّن حَسُنَ إسلامُهُ ، وزيادة علىٰ ذلك كان من أفصحِ قريش بياناً ، وأحضرهم جنَاناً في مواقف الفصَاحة واللسن .

* وشهد للبيتِ الصَّفوانيّ بالجودِ والكرم ، أحدُ عُلَماء الصَّحابة وأعيـانِهـم سيِّـدنـا معـاويـةُ بـنُ أبـي سفيـان ـ رضـي ٱلله عنهمـا ـ حيـث قـال يوماً : « مَنْ يطعمُ بمكَّة من قريش ؟ » .

فقالوا : « عمرو بنُ عبد ٱلله بن صفوان » .

فقال : « بَخٍ ! تلك نارٌ لا تُطْفأ » (١) .

* ولمَّا أعطىٰ سيِّدنا عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ أوَّلَ عطاء ، أعطىٰ سيِّدنا صفوانَ بنَ أميَّة ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وكان صفوانُ قد افتُرِضَ في أهل القادسيَّة ؛ وافتُرِض معه سهيلُ بنُ عمرو ؛ فلمَّا دعا عمر صفوان ليعطيَه ، وقد رأىٰ ما أخذَ أهل بدر ومَنْ بعدهم إلىٰ الفتح ؛ فأعطاه في أهل الفتح أقلّ

---

(١) « الاستيعاب » (٢ / ١٧٩) ، و« التَّبيين » (ص : ٤٠٥) ، و« أسد الغابة » (٢ / ٤٠٧) مع الجمع بينها .

ممَّا أخذ من كان قبله ، أبىٰ أنْ يقبلَه وقال : « يا أمير المؤمنين ! لستُ معترفاً لأنْ يكونَ أكرم منِّي أحدٌ ، ولستُ آخذاً أقل ممَّا أخذَ من هو دوني ، أو من هو مثلي » .

فقال عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ : « إنَّما أعطيتُهم علىٰ السَّابقة والقدمة في الإسلام ، لا علىٰ الأحساب » .

قال صفوان : « فنعم إذن » . وأخذ وقال : « أهل ذاك هم »[1] .

* ومن أخبار سيِّدنا صفوان مع عمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ ما ذكره أبو محذورة ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « كنتُ جالساً عند عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ إذ جاء صفوانُ بنُ أميَّة بجفنةٍ يحملها نفرٌ في عناء ، فوضعها بين يدي عمر ، فدعا عمر ناساً مساكين ، وأرقّاء من أرقَّاء النَّاس حوله ، فأكلوا معه ، ثمَّ قال عند ذلك : فعل اللهُ بقوم ـ أو لحىٰ ٱلله قوماً ـ يرغبون عن أرقّائهم أنْ يأكلوا معهم .

فقال صفوان : أما واللهِ ما نرغبُ عنهم ، ولـٰكنَّا نستأثرُ عليهم ، لا نجدُ من الطَّعام الطَّيِّب ما نأكلُ ونطعمهم »[2] .

* وظلَّ سيِّدنا صفوان حميدَ السِّيرة في ظلالِ الخلافة الرَّاشدة حتَّىٰ وافتْه المنيةُ بمكة وقْتَ استشهادِ عثمان بن عفَّان ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ .

* أخرجَ الطَّبرانيّ رَحِمَهُ ٱللهُ وغيرُهُ عن عبد اللهِ بنِ صفوان أنَّه بينما هو يدفنُ أباه أتاهُ راكبٌ ، فقال : « قُتِلَ عثمانُ بنُ عفَّان ! » .

فقال : « واللهِ ما أدري أي المصيبتين أعظم ؟ موت أبي ، أم قتل عثمان »[3] .

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ٩٣ ـ ٩٤) بتصرُّف يسير .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ٩٤) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (٣ / ٢٨٠ ـ ٢٨١) .

(٣) « المعجم الكبير » (٨ / ٤٦) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ٩٤) .

* وقال ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « توفي صفوانُ بنُ أميَّة سنة إحدىٰ وأربعين . وقيل : سنة اثنتين وأربعين »[1] .

* وقال ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « مات صفوانُ بنُ أميّة بمكَّةَ سنة اثنتين وأربعين ، أوَّل خلافة معاوية ، وقيل : توفي مَقْتَلَ عثمان ـ رضي ٱلله عنه ـ »[2] .

* رضي ٱلله عن صفوان ، وأسكنَه أعالي الجِنَان .

---

(1) « مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ٩٥) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٦٧) .

(2) « أسد الغابة » (٢ / ٤٠٧) .




البَاب الرَّابِـع

رجـالٌ مـن قبـائلَ شـتَّىٰ

* ثُمـامـةُ بـنُ أُثـال رضـي ٱلله عنـه .
* جـريـرُ بـنُ عبـد ٱلله رضـي ٱلله عنـه .
* خبَّـابُ بـنُ الأرتّ رضـي ٱلله عنـه .
* دحيـةُ بـنُ خليفـة رضـي ٱلله عنـه .
* سـراقـةُ بـنُ مـالـك رضـي ٱلله عنـه .
* الطُّفيـلُ بـنُ عمـرو رضـي ٱلله عنـه .
* عُميـرُ بـنُ وهـب رضـي ٱلله عنـه .
* نُعيـمُ بـن مسعـود رضـي ٱلله عنـه .










ثُمَامَةُ بنُ أُثَال

رضي ٱللَّه عنه

* اجتَذَبَهُ الإسلامُ فدخل فيه طائعاً ؛ وصار من رجاله .
* قال لهُ ﷺ : « قد عفوتُ عنك يا ثمامةُ » .
* وردتْ قصَّته في الصَّحيحَيْن ، ولقي ٱللَّه شهيداً سنة (١١ هـ) .





ثُمـامةُ بـنُ أُثـال
رضي ٱلله عنه

محاسنُ العَفْو وآثارُهُ :

* العَفْو عن أرباب الزَّلَّات ، والحلمُ عن مُقْتَرفي الجنايات ، والصَّفْحُ عن ذوي الهيئات ، والتَّجاوزُ عنهم بإقالةِ العثرات ، وإسداءِ الإحسان وفعل الخيرات ، واصطناعُ المعروف مع أهل الدِّرايات ، ذلك كلّه معدودٌ من محاسن الحسنات ، ومكارمِ الأخلاق التي هي خير الصِّفات ، وقد نطقَ بذلك القرآنُ الكريمُ في كثير من الآيات ، وصَرَّحَتْ به السُّنَّةُ النَّبويَّةُ عن ألسنةِ الرُّواة والثِّقات ؛ فالعفو يمحو أثر الحزَازَات ، ويريحُ مِنْ هَمِّ العَداوَات .

* لا ريب في أنَّ كَرِيمَ الأخلاقِ لا يكونُ حَقُوداً ، ولا حسوداً ، ولا باغياً ، ولا ساهياً ، ولا لاهياً ، ولا فاجراً ، ولا فخوراً ، ولا كاذباً ، ولا ملولاً ؛ يؤَمِّنُ مَنْ يخاف ، ويعفو عن قُدْرة ، يجلُّ الكرام ، ولا يهينُ اللئام ، ولا يؤذي العاقل ؛ يسرعُ في المودَّة ، ويبطئُ عن العداوة .

* هـٰذا الرَّجلُ الذي نَسْمَرُ معه في هـٰذه الساعات من رجال عصر النُّبوَّة الذين اجتذبتْهم مكارمُ الأخلاق النَّبويَّة ، وأثَّر فيهم العفو والمعروفُ ، فكانوا من الخالدين في سجلَّات العظماء الذين نُحلِّي الأفواهَ بِذِكْرِهم ؛ والأسماعَ بِسِيرهم ، ونعطرُ المجالسَ بالحديث عنهم ؛ مع العِلْم أنَّه كان يتحيَّنُ الفرصة لاغتيال رسول ٱلله ﷺ ، ولـٰكنْ لاحظتْهُ نفحةٌ من العنايةِ الإلـٰهية ؛ فانتشلَتْه من وَهْدةِ الجاهليَّة ، وأمواجِ الظَّلام ، ووضعَتْه علىٰ بَـرِّ الأمان والنَّقاء والوفاء ،

وطريق النُّور والصَّفاء ، وكان هـٰذا اللقاء مع الإسلام في السَّنة السَّادسة من هجرة أمير الأنبياء ﷺ .

* ما أجمل أنْ نلتقيَ الآن مع ثمامةَ بنِ أثال بن النُّعمان الحنفيّ [1] ، أحد ملوك اليمامة ! !

* كان ثمامةُ أحدَ الملوك الذين بعثَ إليهم رسولُ ٱلله ﷺ رسُلاً من أصحابه ، وكتبَ إليهم يدعوهم إلىٰ الإسلام والسَّلام ، فقد بعثَ ﷺ سَليطَ بنَ عمرو العامريّ إلىٰ ثمامةَ بنِ أثال ، وهوذةَ بنِ عليّ الحنفيَّيْن ، وهما رئيسا اليمامة يدعوهما إلىٰ الإسلام ، فأعرضَ ثمامةُ ونأىٰ بجانبه ، فهو سيِّدٌ مرموقٌ من سادات قومه ، يصدرُ الأوامر ، ولا ينصاع لأوامرِ أحدٍ .

* لم يتوقَّفْ ثمامةُ بنُ أثال عند هـٰذا الحدِّ بادي الرَّأي ، وإنَّما سوَّلتْ له نفسُه أمراً وبيلاً ، ولعبَ به شيطانُ الغرور ذات اليمين وذات الشِّمال ، ومنَّاهُ الأماني الجوفاء الحمقاء ، وأغراه بأنْ يَعْرِضَ للنَّبيِّ ﷺ فيقتلَهُ ، ولمَّا قويَ عزمُ ثمامةُ علىٰ ذلك ، كان رسولُ ٱلله ﷺ قد مرَّ به ، فأراد ثمامةُ أنْ يغافلَه فيقتلَهُ ، ولـٰكنَّ عمَّه رآهُ يهمُّ بذلك ، فخوَّفَه ، ومنعه من الإقدام علىٰ هـٰذه الفِعْلة المتهوِّرة الرَّعناء الخرقاء ؛ فكفَّ يدَهُ عن ذلك ، وأهدر رسولُ ٱلله ﷺ دمَ

---

(١) « منح المدح » (ص : ٥٨ ـ ٦١) ، و« تاريخ الطّبريّ » (٢ / ٢٢٦ ، ٢٦٨ ، و٢٧٠ ، ٢٨٦ ، و٢٨٩ ، ٢٩٠) ، و« زاد المعاد » (١ / ١٢٢) ، و(٣ / ١١٠ ، و٢٢٧) ، و(٥ / ٦٦) ، و« طبقات ابن سعد » (٥ / ٥٥٠ ـ ٥٥١) ، و« السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ٦٠٧ ، و٦٣٨ ، و٦٣٩) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٤٠) ، و« أنساب الأشراف » (١ / ٣٦) ، و« أسد الغابة » (١ / ٢٩٤ ـ ٢٩٥) ترجمة رقم : (٦١٩) ، و« البداية والنِّهاية » (٥ / ٤٨ ـ ٤٩) ، و« الإصابة » (١ / ٢٠٤) ، و« الاستيعاب » (١ / ٢٠٥ ـ ٢٠٩) ، و« ثمار القلوب » (ص : ١٤٩) وغيرها كثير .

ثمامةَ بنِ أثال [1] ، وعَمَّمَ هٰذا القرار علىٰ جميع الصَّحابة الأبطال .

* وتمضي الأيَّامُ ، ويتعاقبُ الليلُ والنَّهار ، فإذا بثمامةَ قد جاء متنكِّراً لاغتيالِ النَّبيّ ﷺ بإيعازٍ من مُسيلمةَ الكذَّاب ، فوقعَ ثمامةُ أسيراً بيد سريّةٍ من السَّرايا النَّبويّة ، فأخذته وهي لا تعرفه ، وجاءتْ به إلىٰ النَّبيِّ ﷺ ، فهل أتاك خبر هٰذا الأمر الشَّهيّ ؟ !

السَّـيِّـدُ الأسـيـر :

* بعد غزوة الأحزاب ، بدأتِ السَّرايا النَّبويّة تنطلقُ من المدينة المنوَّرة لجميع الجهات ، ومن السَّرايا الموفَّقَة التي حقَّقَتْ نجاحاً باهراً للمسلمين ، سَرِيَّة محمَّد بن مسلمةَ الأنصاريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فقد بعثَهُ رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ القُرطاء ومعه ثلاثون راكباً ، وكان محمَّدُ بنُ مسلمة رئيسَ حرسِ النَّبيّ ﷺ الخاص ، وله خبرةٌ ودرايةٌ بالحروب والغارات ، وكان شديد الباس ، مفرط القُوَّة من غير التباس .

* انطلقَ محمَّدُ بنُ مسلمة وصحبُه الثَّلاثون إلىٰ القُرطاء ، ليغيروا علىٰ بني بكْرِ بنِ كلاب ، ويؤدِّبوهم في ديارهم ، وأمرهم ﷺ بألاَّ يتعرَّضوا لنساء بني كلاب بالسَّبي إذا ما ظفروا بهم في هٰذه السَّريَّة .

* أسرعت السَّريَّةُ بقيادة محمَّد بن مسلمة ، وإذا برهبانِ الليل ؛ والمستغفرين بالأسحار ، يصبحون في لحظاتٍ فرسانَ الخيل ؛ والمجاهدين بالنَّهار ، وكان محمَّدُ بنُ مسلمة ومَنْ معه يسيرون بالليل ، ويكمنون بالنَّهار ، وكانت لدىٰ محمَّد بن مسلمة أوامر نبويَّة تأمرهُ أنْ يشنَّ الغارة عليهم .

* قال ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللهُ في « طبقاته » ما مفادُهُ : « كان بنو بكر بن كلاب ينزلون البكرات بناحية ضَرِيَّة ، وقد أمرَ النَّبيُّ ﷺ محمَّدَ بنَ مسلمة الأنصاريَّ أنْ يشنَّ عليهم الغارة ، فسار الليل ، وكَمنَ النَّهار ، وأغارَ عليهم فقتل نفراً

---

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (٥ / ٥٥٠) بشيء من التَّصرُّف .

منهم ، وهربَ سائرهم ، واستاق خمسين بعيراً ، وثلاثة آلاف شاة ، ولم يعرض المسلمون للنِّساء . . . . »[1] .

* ثمَّ إنَّ محمَّدَ بنَ مسلمة الأنصاريَّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قفل راجعاً ، حتَّىٰ إذا كان في طريقه إلىٰ المدينة المنوَّرة ؛ أسرَ أفرادُ سرّيته سيِّداً من سادات بني حنيفة ؛ وهو ثمامةُ بنُ أثال سيِّد أهل اليمامة وهم لا يعرفونه .

* جيء بثمامةَ بنِ أثال الحنفيّ مجموعة يداه إلىٰ عنقه ، فلمَّا رآه الصَّادقُ المصدوق ﷺ ، قال لأصحابهِ الأوفياء المخلصين ـ رضي ٱلله عنهم ـ : « أتدرون مَن أخذتم ؟ هـٰذا ثمامةُ بنُ أُثال الحنفيّ ، فأحسِنُوا أساره » .

* رُبِطَ السَّيِّدُ الحنفيُّ ثمامةُ بنُ أثال بساريةٍ من سواري المسجد النَّبويّ ، ودخل رسولُ ٱلله ﷺ علىٰ أهله فقال : « اجمعوا ما كان عندكم من طعام فابعثوا به إليه » .

* وأمرَ له الحبيب المصطفىٰ ﷺ بتخصيص ناقةٍ يأتيهِ لبنُها سائغاً شرابُه صباحَ مساءَ ؛ وقد أحسن حبيبُنا وسيِّدنا رسولُ ٱللهِ ﷺ معاملةَ السَّيِّد الحنفيّ الأسير ، وكان يزورُهُ ويلاطفُهُ ، حتَّىٰ أثَّرت هـٰذه المعاملةُ النَّبويَّة الرَّاقيةُ في نفس ثمامةَ إلىٰ درجةٍ كبيرة ، تحوَّل معها بالتَّدريج من أشدّ النَّاس بغضاً للنَّبيِّ ﷺ إلىٰ أعظمهم حُبّاً وتفانياً في تدعيم دعوته .

* إنَّ هـٰذه المعاملةَ النَّبويَّة المتميِّزة لهـٰذا الرَّجل المتميِّز معاملةٌ مثمرةٌ ، أثَّرتْ في نفسِ ثمامةَ ، وجعلته يفكِّر في الإسلام تفكيراً صحيحاً ، ويفكِّر في نَبِيِّ الإسلام ﷺ تفكيراً سليماً ؛ فها هو ذا يقعُ في قبضتِه ، وقد أمكنه اللهُ منه ، ولـٰكنَّه ﷺ يحسنُ إليه ، ويعامله بلطفٍ ومودَّة ، ويغسلُ ما بنفسه من أدران الجاهليَّة ورذائلها ، ويأخذُ بروحهِ إلىٰ مراقي الصَّفاء ، ومعالي السَّناء ، وهـٰذا

---

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (٢ / ٧٨) بشيء من التَّصرُّف اليسير .

التَّصرُّف النَّبويُّ الحصيف ؛ يشيرُ إلىٰ التَّربيةِ النَّفسيَّة الحكيمة وأثرها اللطيف ، وعملها في تحويل النَّاس من الشَّرِّ إلىٰ الخير ، وذلك بالإحسان وحسن التَّدبير .

تربيةٌ نفسيَّـةٌ مثمرة :

* حبيبنا محمّد رسول ٱلله ﷺ هو الرَّحمةُ المهداةُ للعالمين ، فهو ﷺ يعرفُ كيف يداوي نفوس المُعرِضين ، ويدرّبُها علىٰ النَّقاء لتسلك درب المؤمنين .

* فقد جعلَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ ثمامةَ مربوطاً بالمسجد ، يرىٰ صلاةَ المسلمين ، وعبادتهم ، فيسمعُ من رسول ٱلله ﷺ ما يوجِّهُ به أصحابه ، وما يسعدهم ، فيمتلئُ عجباً وإعجاباً بهـٰؤلاء الرِّجال المخلصين القانتين في الليل ، الأبطال في النَّهار .

* جاء إليه رسولُ ٱلله ﷺ فقال له في هدوء : « مالكَ يا ثُمامُ ، هل أمكَنَ اللهُ منك ؟ » .

قال ثمامةُ : « قد كان ذلك » .

* صار الصَّادقُ الأمينُ ﷺ يأتي ثمامة وهو مربوطٌ ، فيقولُ له ملاطفاً باسماً : « ما عندك يا ثمامةُ ؟ » فيقول ثمامة مُجيباً بلسان الإعجاب : « يا محمَّد عندي خيرٌ ، إن تقتُلْ تَقْتُلْ ذا كَرَم ، وذا دمٍ ، وإنْ تَعْفُ تَعْفُ عن شاكر ، وإن كنتَ تريدُ المال ، فَسَلْ تُعْطَ منه ما شئْتَ » .

* تكرَّرَ السُّؤالُ من الصَّادقِ المصدوقِ ﷺ لثمامةَ مرَّات ، وكان أهلُ الصُّفَّة ـ رضي ٱلله عنهم ـ يلقون سَمْعَهم إلىٰ هـٰذا الحوار بين النَّبيِّ ﷺ وبين ثمامة فيعجبون ، ويقولون كما جاء عن أبي هُريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ : « فجعلنا نحنُ المساكين نقولُ : ما نصنعُ بدم ثمامةَ ؟ واللهِ لأكْلَةٌ مِنْ جَزورٍ سمينةٍ من فدائه أحب إلينا من دم ثمامة » .

* كان رسولُ ٱلله ﷺ ينظرُ لأبعدَ من أكلةِ جزورٍ سمينةٍ ، فقد كان ﷺ

يحبُّ أنْ يهديَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ سيِّد أهلِ اليمامة إلىٰ الإسلام ، فكرَّر قولَه لثمامة : « ما عندك يا ثمامةُ ؟ » ثلاثة أيَّام كوامل ، من باب التَّربية النَّفسيَّة ، وتأليف القلوب ، وملاطفة ثمامة وأمثاله ممَّن يُرجىٰ من إسلامهم إسلام الذين يتبعونهم ، وإذا ما أسلم ثمامةُ وهو سيِّدٌ شريفٌ ، فسيتبعه خلقٌ كثير من قومه أهل اليمامة ، فاليمامة كانت ريفاً لأهل مكَّة ، وكانت تمدُّهم بالحنطةِ ، فإسلام سيِّد اليمامة يهدِّدُ قريشاً بقطع الحنطة عنهم .

* انقضىٰ يومان والحوارُ دائرٌ بين رسولِ ٱلله ﷺ وبين ثمامة بن أثال ، وخلال هـٰذا الوقت كانت بذور الإيمان تُلقىٰ في أغوار سيِّد أهل اليمامة وأعماقه ، وكانت أحقادُهُ التي رانَتْ علىٰ قلبه تُكْشَطُ كشْطاً بحسن رقَّة النَّبيِّ ﷺ وإحسانه ، ولمَّا كان اليوم الثَّالث سأله ﷺ : « ما عندك يا ثمامةُ ؟ » فكانت الإجابة الثُّماميَّةُ هي هي أو قريبةٌ من هي .

* وهـٰهنا لم يقتلْه الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ ، ولم يطلب الفداء ، وإنَّما قال لأصحابه : « أطلقوا ثمامةَ » ، ثمَّ قال لثمامةَ في ابتسامةٍ هادئة ؛ وهمساتٍ دافئة : « قد عفوتُ عنك يا ثمامةُ » .

* أطلقَ الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ ثمامةَ بنَ أثال الحنفيّ دون مقابل ، أطلقَهُ وهو يعلمُ أنَّ أهلَ اليمامة أشدّ النَّاس بُغْضاً له ولرسالته ، أطلقه ليذهبَ حرّاً حيثُ يشاء ، وأنَّىٰ يريد .

* إنَّ سيِّدَ بني اليمامة مبهورٌ بهـٰذه التَّربية النَّبويَّة ، وهـٰذا العفو المحمّديّ ، مبهورٌ بسماحةِ دين الإسلام ، ونبيّ الإسلام ، وكَرمهِ ، ومعاملته الرَّاقية التي أخذتْ بزمام قلبه فاحتوته وملكته ؛ لقد سَعِدَ وهو في إساره بالحكمةِ التي تتدفَّق من فِيِّ الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، واستشعرَ كأنَّ النُّورَ المنبعثَ من المسجد النَّبويّ قد ملأ جوانحه وفاض ، فلم يعدْ إلىٰ قومهِ بني حنيفة في اليمامة ، وإنَّما انطلقَ إلىٰ ماء قريب من المسجدِ ، فاغتسلَ كأحسن ما يكونُ الاغتسال وطهَّر ثيابه ، ثمَّ عاد فدخلَ المسجدَ وقد طرحَ الجاهليَّة كلَّها وراء ظهره ، وطلَّقها إلىٰ الأبد ، ثمَّ توجَّه إلىٰ الحبيبِ

الأعظمِ ﷺ وقال في صدقِ الأصفياء ونبراتِ الصَّادقين : « أشهدُ أنْ لا إلـٰه إلا ٱلله ، وأشهدُ أنَّ محمَّداً عبده ورسوله » .

* انسكبت عبراتٌ دافئةٌ علىٰ وَجْنَتَي ثمامة ؛ وكان عنوانُها النَّدامة . ثم اقتربَ من رسولِ ٱلله ﷺ وقال في نبرةٍ صادقة : « يا محمَّدُ واللهِ ما كان علىٰ الأرض وجْهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك ، فقد أصبح وجهُكَ أحبَّ الوجوه كلّها إليَّ ، واللهِ ما كان علىٰ الأرض من دينٍ أبغض إليَّ من دينك ، فقد أصبحَ دينُكَ أحبَّ الدِّين كلّه إليَّ ، واللهِ ما كان من بَلَدٍ أبغض إليَّ من بلدك ، فقد أصبح بلدُكَ أحبَّ البلاد إليَّ » .

لماذا اعتقلَتْ قريشٌ ثمامَةَ ؟

* بعد أن شهدَ سيِّدنا ثمامةُ بنُ أثال شهادةَ الحقِّ ، صار من خيرةِ الصَّحابة ، وتحرَّر قلبُهُ من الأوهام ، واكتسبَ ضميرهُ معرفةً وخصباً ، فإذا بأنوار المعارف تشرقُ من أعماق قلبه ، وإذا به يستشعرُ أنَّه قد اقتربَ من اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ اقتراباً صَقَلَهُ من كلِّ متعلّقاتِ الجاهليَّةِ ، فقد تيقَّنَ ـ بعد أنْ ذاقَ حلاوة الإيمان ـ أنَّ القلوبَ المشغولةَ بغيرِ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ هي قلوبٌ خاويةٌ محرومةٌ من النَّعيم الحقيقيّ .

* شرعَ سيِّدنا ثمامةُ ينهلُ من معين النُّبوَّة الفُرات ، وينعُمُ بصفائه ، فأصبحَ مستأنساً بٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، يعيشُ في اللهِ ، وباللهِ ، ومع ٱلله ، لقد امتلأَ فؤادُه ، ومُلئَ مشاشُه بحبِّ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وحبِّ رسولهِ ﷺ ، حتَّىٰ إنه صار لا يقدرُ علىٰ أن يفارقه ساعةً من النَّهار ، ولـٰكن ماذا يفعل وحتَّام يبقىٰ سيِّد أهل اليمامة في المدينة ؟ لعلَّ عودته إلىٰ اليمامةِ تنفعُ قومه ؛ إذ إنَّه سيدعوهم إلىٰ صراطِ العزيزِ الحميد ، وإلىٰ دينِ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولعلَّه يأْمُلُ أنْ يهديهم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ فيشرحَ صدورهم للإسلام .

* أسئلةٌ كثيرةٌ ، وتساؤلاتٌ مثيرةٌ ؛ انثالت أمامَ سيِّدنا ثمامة ، ولـٰكنَّه رأىٰ أنْ يستشيرَ معلِّمَه وإمامه ، فجاء النَّبيّ ﷺ ليخرجَهُ من حِيرتهِ ، فقال

له : « يا رسولَ ٱلله ! إنِّي خرجتُ معتمراً ، وإنَّ خيلَكَ أخذتْنِي ، وأنا أريدُ العمرةَ ، فماذا ترىٰ ؟ » .

* لمسَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ صدْقَ ثمامةَ ، فبشَّره بالخير ، وأمره أنْ يعتمرَ ، فامتطىٰ راحلته ، وتوجَّه ليعتمرَ ، حتَّىٰ إذا قدم بطْنَ مكَّةَ ، ورأىٰ النَّاس يطوفون بالبيتِ العتيق ، وقد امتلأ بالأصنام ، ونداءات الشِّرك ترتفعُ هنا وهناك ، أخذَ يلبِّي بصوتٍ جهوري : « لبيكَ اللهمَّ لبيك ، لبيكَ لا شريك لكَ لبيك ، إنَّ الحمدَ والنِّعْمة لكَ والمُلْك ، لا شريكَ لك » .

* تساقطَتْ هـٰذه التَّلبيةُ علىٰ أسماعِ ساداتِ قريش تباعاً ، فطارتْ قلوبُهم ونفوسُهم شعاعاً ، وتعجّبوا من ثمَامةَ الذي يسمعُهم ما يكرهون ، وقاموا إليه يناقشونَه في صيغة هـٰذه التَّلبية البكر ، وكانت أوَّل تلبيةٍ [1] في مكَّة يُعْلَنُ فيها أنْ لا إلـٰه إلاَّ ٱلله وحده لا شريك له ، واشتدَّ الحوارُ والجدالُ فيما بينهم ، ثمَّ أعلنَ ثمامةُ علىٰ الملأ الوثنيِّ أنَّه قد أسلم ؛ وأنَّه يشهدُ أنْ لا إلـٰه إلا ٱلله ، وأنَّ محمَّداً رسولُ ٱلله .

* اعتبرت قريشٌ هـٰذا الأمرَ تحدّياً لِسُلطانها ، وأخذت الدِّماءُ تغلي في عروقِ ساداتها ، فقالوا له : « لقد اجترأتَ علينا ، أنتَ صَبَوْتَ يا ثمامةُ ؟ » .

* لم يأْبَهْ ثمامةُ لغوغائهم ، ولم يحفلْ بثورتهم وبسفهائهم ، فقد

---

(١) أشار محمود سامي البارودي في قصيدته « كشف الغمّة في مدح سيِّد الأمّة » إلىٰ أسْرِ ثمامة ، ثمَّ جهره بالتَّلبية في مكَّة فقال :

وسار بعثٌ فلمْ يخطِئْ ثمامةَ إذْ ... رآهُ فاخْتَازَهُ غنماً ولمْ يُلَمِ
ذاكَ الهُمامُ الذي لبَّىٰ بمكَّةَ إذْ ... أتىٰ بها مُعْلناً في الأشهرِ الحُرمِ

ومن الجدير بالذِّكْر أنَّ سيِّدنا ثمامةَ كان أوَّل مَنْ دخل مكَّةَ المكرَّمة يُلبِّي ، وفي هـٰذا الأمرْ قالَ أحدُ بني حنيفة في ذلك :

ومنَّا الذي لبَّىٰ بمكَّةَ مُحرماً ... برغمِ أبي سُفيان في الأَشْهُر الحُرم

« السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ٦٣٩) بتصرُّف .

كان ـ رضي ٱلله عنه ـ مطمئناً ، إنَّه عرفَ الهدىٰ بعد الضَّلالة ، وتفتَّح قلبُه علىٰ النُّور بعد الظُّلمات ، وذاقَ لذَّة الأُنْس باللهِ بعد الوحشة ، فقال وهو ثابتُ الجَنَان ، لا يخافُ إلا من الكريم المنَّان : « ما صبوتُ ، وإنَّما أسلمتُ وتبعتُ خيرَ دين ، دين محمَّد » فزادَ ذلك من غيظهم ، وغضبوا غضباً شديداً ، فلمَّا رآهم كذلك قال لهم : « واللهِ لا يَصِلُ إليكم حبَّةً من حنطةٍ حتَّىٰ يأذنَ فيها رسولُ ٱلله ﷺ » .

* كاد القومُ يتمَّيزون من الغَيْظ ، وحاولوا قَتْله ، وارتفعت أصواتٌ حانقةٌ تقول : « ويحكم اضربوا عنقَه » . وقَدَّمُوهُ ليضربوا عنقه ، فإذا هو ثابتٌ كالجبل الأشمّ ، لم يخفْ ، ولم يرتجفْ ، امتزج غضبُ القرشيين المتجمهرين حولَ ثمامة بشيء من الدَّهشة والإعجاب به ، لقد جعلَه الإسلامُ رجلاً غير الذي يعرفونه من قَبْلُ ، وانبعثَ صوتٌ من أحد عقلائهم ينصحُ لهم بألا يُقْدمُوا علىٰ قَتْل سيِّد اليمامة ثمامة ؛ وقال لهم : « ويحكم ! دعوه ؛ فإنَّكم تحتاجون إلىٰ اليمامة » .

* وصدق قائلهُم بأنَّهم يحتاجون إلىٰ اليمامة ، فقد كانت أرضُ الحنطةِ التي يعتمدون عليها في ميرتهم ، فإنْ قُتِلَ سيِّدهم ثمامة ، فإنَّ ذلك سيدفعهُم إلىٰ حَبْس الحنطة عنهم ، إنْ لم يثأروا له . لهٰذا خلّوا سبيله وهم راغمون ؛ فخرج ثمامةُ إلىٰ اليمامة ، وأمر قومه أنْ يحبسوا عن قريش ما كان يأتي إليها من اليمامة من حبوب ومنافع ، فأضرَّ ذلك بقريش ضرراً كبيراً إلىٰ درجة تفشَّتْ معها المجاعةُ في مكَّة ، حتَّىٰ أكلت أسوأ الطَّعام .

* اضطرت قريش تحت وطأةِ الجوع ، وتحت ذلّ الهزيمة في أعماقها أنْ تلتمسَ الوسَاطة المحمَّديَّة ؛ لِتُقْنِعَ سيِّد بني حنيفة بأنْ يرفع العقوبات التَّموينيَّة التي فرضَها عليهم ؛ حتَّىٰ قال ابن سعد رَحِمَهُ ٱللهُ : « فضيَّقَ علىٰ قريش ، فلم يدعْ حبَّةً تأتيهم من اليمامة » (١) .

* لم تجدْ قريشٌ بدّاً من أنْ تخُطَّ رسالةً إلىٰ النَّبيِّ ﷺ لرفْعِ الضَّائقة

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٥ / ٥٥٠) .

الاقتصاديّة التي نزلتْ بساحتِها ، فكتَبَتْ إلىٰ الصَّادق المصدوق ﷺ كتاباً مضمونه : « يا محمَّدُ ! ألستَ تقول : بأنَّك قد بُعِثْتَ رحمةً للعالمين ؟ إنَّ عهدنا بك تأمرُ بِصِلَة الرّحم ، وتحثُّ عليها ، وإنَّ ثمامةَ بنَ أثال الحنفيّ قد قطعَ عنَّا ميرتنا ، وأضرَّ بنا ، فإنْ رأيتَ أنْ تكتبَ إليه أنْ يخليَ بيننا وبينَ ميرتنا فافْعَلْ » .

* استجابَ رسولُ ٱلله ﷺ لاستغاثةِ قومه به ، ورجائهم رحمته ، وبرّه ومودّته ، علىٰ الرّغم من أنَّه في حالة حرب معهم ، فكتب إلىٰ سيِّد بني حنيفة ثمامة بن أثال : « أنْ خَلِّ بين قومي وبين ميرتهم » .

* امتثل ثمامةُ أمرَ النَّبيّ ﷺ ، ولم يتوقفْ لحظةً عن طاعته ، وسمح للحنفيين متابعة نشاطهم التِّجاريّ ، وفكَّ الحصارَ المفروض علىٰ قريش ، وبعثَ بالمحاصيل إلىٰ مكَّة المكرمة ؛ فارتفعَ عن أهلها شبَحُ المجاعة ، وفرحَ النَّاسُ بهٰذه المنح المحمَّديّة ؛ والأخلاق النَّبويَّة ، والشَّمائل المصطفويّة ، التي استلَّتِ الغيظَ من نفوسهم ، وجعلتهم يقتربون من نبيّ الإسلام ﷺ .

* ذكر عدد من المفسّرين قصّة ثمامة عندما تعرّضوا لقوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾[المؤمنون : ٧٦] ، فقالوا : « لمَّا أسلم ثمامة بن أثال الحنفيّ ، ولحق باليمامة ، حال بين أهل مكّة وبين الميرة من يمامة ، فأخذ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ قريشاً بسني الجدب ، حتَّىٰ أكلوا العِلْهز ، فجاء أبو سفيان بن حرب إلىٰ رسول ٱلله ﷺ ، فقال له : أنشدك ٱلله والرّحم ، ألست تزعم أنك بعثت رحمة للعالمين ؟

فقال ﷺ : « بلىٰ » .

فقال : قتلت الآباء بالسَّيف ، والأبناء بالجوع .

فنزلت الآية : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم ... ﴾ الآية . . . »[1] .

---

(١) « البحر المحيط » (٥ / ٣٨٣) ، و« أسباب النّزول » للواحديّ (ص : ٢٦٢) مع الجمع والتَّصرُّف .
=

قصَّةُ ثُمَامةَ في الصَّحيحَيْن :

* جاءت قصَّةُ سيِّدنا ثمامةَ بنِ أثال ـ رضي ٱلله عنه ـ في « الصَّحيحَيْن » ، كما جاءت في كثيرٍ من كتبِ السِّيرة ، والتَّراجم ، والتَّواريخ ، وغيرها ، وها نحنُ أولاء نسوقُ قصَّته الشَّائقة من « الصَّحيحَيْن » ، ونعرفُ بعضَ ما تنطوي عليه من أحكامٍ ، وعظاتٍ نافعةٍ ، وفوائد ودروس ماتعة .

* فقد أخرجَ الشَّيخان بسندٍ عن الليثِ بنِ سعد ، عن سعيدِ بنِ أبي سعيد المَقْبُرِي : أنَّه سمعَ أبا هريرة ـ رضي ٱلله عنه ـ يقول : « بعثَ رسولُ ٱلله ﷺ خيلاً قِبَلَ نَجْدٍ ، فجاءت برجلٍ من بني حنيفة يُقالُ له ثمامةُ بنُ أثال ، سيِّد أهل اليمامة ، فربطوهُ بساريةٍ من سواري المسجد ، فخرج إليهِ رسولُ ٱلله ﷺ فقال : « ماذا عندك يا ثمامةُ ؟ » .

فقال : عندي يا محمَّد خير ؛ إنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دم ، وإنْ تُنعم تنعمْ علىٰ شاكر ، وإن كنْتَ تريدُ المالَ فَسَلْ تُعْطَ منه ما شئْتَ .

فتركه رسولُ ٱلله ﷺ حتَّىٰ كان بعد الغَد ؛ فقال : « ما عندك يا ثمامةُ ؟ » .

قال : ما قلتُ لك ، إنْ تُنْعِم تُنْعم علىٰ شاكر ، وإنْ تَقْتُلْ تَقْتُلْ ذا دم ،

= والمعنىٰ : لو كشفَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عنهم هـٰذا الضّرّ ، وهو الهزال والقحط الذي أصابهم ، ووجدوا الخصب لارتدوا إلىٰ ما كانوا عليه من الاستكبار ، وعداوة رسول ٱلله ﷺ والمؤمنين ، وإفراطهم فيها .

وقيل المعنىٰ : ولو امتحنّاهم بكلِّ محنةٍ من القَتْل والجوع ، فما رُؤي فيهم استكانة ولا انقياد . ووزْن استكان : استفعل ؛ أي : انتقل من كون إلىٰ كون ، كما تقول : استحال : انتقل من حال إلىٰ حال . ومجيء مصدره : استكانة ، يدل علىٰ أنَّ الفعل وزنه : استفعل ، كاستقام استقامة . وٱلله تعالىٰ أعلم .

وإنْ كنتَ تريدُ المال ، فَسَلْ تُعْطَ منه ما شئْتَ .

فتركه رسولُ ٱلله ﷺ ، حتَّىٰ كان من الغَد ، فقال : « ماذا عندك يا ثمامةُ ؟ » .

فقال : عندي ما قلتُ لك ؛ إنْ تُنْعم تُنْعم علىٰ شاكر ، وإن تَقْتُل تَقْتُل ذا دم ، وإن كنتَ تريدُ المال ، فَسَلْ تُعْطَ منه ما شئْتَ .

فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « أطلقُوا ثمامةَ » .

فانطلقَ إلىٰ نَخْلٍ قريب من المسجدِ ، فاغتسلَ ، ثمَّ دخل المسجد ، فقال : أشهدُ أنْ لا إلـٰه إلا ٱلله وأشهدُ أنَّ محمداً عبده ورسوله ، يا محمَّدُ ! واللهِ ما كان علىٰ الأرض وجْهٌ أبغضَ إليَّ من وجهك ، فقد أصبحَ وجهك أحبَّ الوجوه كلَّها إليَّ ، وٱلله ! ما كان دِيْن أبغضَ إليَّ من دينكَ ، فأصبحَ دينُك أحبَّ الدِّيْن كلّه إليَّ ، واللهِ ! ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك ، فأصبح بلدُك أحبَّ البلاد كلّها إليَّ ؛ وإنَّ خيلك أخذتني وأنا أريدُ العمرةَ ، فماذا ترىٰ ؟

فَبَشَّرَهُ رسولُ ٱلله ﷺ ، وأمره أنْ يعتمرَ ، فلمَّا قدم مكَّة ، قال له قائلٌ : أَصَبوتَ ؟

فقال : لا ، ولـٰكنِّي أسلمتُ مع رسولِ ٱلله ﷺ ، ولا وٱلله لا يأتيكم من اليمامة حبَّة حنطة حتَّىٰ يأذنَ فيها رسولُ ٱلله ﷺ » [1] .

---

(١) متَّفَق عليه ، أخرجَهُ البخاريّ في المغازي برقم : (٤٣٧٢) ، باب : وفْد بني حنيفة ، وحديث ثمامة بن أثال ، ومسلم في الجهاد والسِّير برقم : (١٧٦٤) ، واللفظ له ، باب : ربط الأسير وحبسه ، وجواز المنّ عليه ، وأبو داود في الجهاد برقم : (٢٦٧٩) ، و« سبل الهدىٰ والرّشاد » (٦ / ١١٢ ـ ١٢٢) ، و« السّيرة النّبويّة » (٢ / ٦٣٨ ـ ٦٣٩) ، و« تاريخ الإسلام » للذَّهبيّ (المغازي ، ص : ٣٥٠) ، و« دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (٤ / ٧٨ ـ ٨١) ، و« صحيح السِّيرة النَّبويَّة » (ص : ٣٨٥ ـ ٣٨٦) وغيرها كثير . =

= ومعنىٰ قوله « ماذا عندك » : أي : ما الذي استقرَّ في ظنِّك أنْ أفعله بك ؟ فأجاب ثمامة بأنَّه ظنّ خيراً . فقال : عندي يا محمَّد خير ؛ أي : لأنَّك لسْتَ ممَّن يظلم ، بل ممّن يعفو ويحسن . و« ذا دم » : صاحب دم لدمه موقعٌ يشتفي قاتله بقتله ، ويدرك ثأره لرياسته وعظمته ؛ ويحتمل أنْ يكونَ المعنىٰ : أنَّه عليه دم وهو مطلوبٌ به ، فلا لوم عليك في قتله . و« فبشَّره » : أي : بخيري الدُّنيا والآخرة ، أو بشَّره بالجنَّة أو بمحو ذنوبه وتبعاته السَّابقة . و« أسلمتُ مع رسول الله ﷺ » : كأنَّه قال : لا ما خرجتُ من الدّين ؛ لأنَّ عبادةَ الأوثان ليست ديناً ، فإذا تركتها لا أكون خرجت من دين ، بل استحدثتُ دين الإسلام ، وقد وافقتُ رسولَ الله ﷺ علىٰ دينه ، فصرنا متصاحبين في الإسلام أنا بالابتداء وهو بالاستدامة .

وفي قصَّة سيِّدنا ثمامة بن أثال فوائد عديدة من أبرزها :

١ ـ جوازُ ربط الكافر في المسجد ، والمنُّ علىٰ الأسير الكافر .

٢ ـ تعظيمُ أمر العفو عن المسيء ؛ لأنَّ ثمامةَ أقسم أنَّ بغضَه انقلبَ حبّاً في ساعةٍ واحدة لما أسداهُ رسولُ الله ﷺ إليه من العفو ، والمنّ بغير مقابل .

٣ ـ الاغتسالُ عند الإسلام ، والتَّطهُّر للجسم والثّياب ، كما فعل ثمامةُ حين أسلم .

٤ ـ الإحسانُ يزيلُ البغض ، ويمحو العداوة ، ويثبتُ الحبّ ، ويؤسِّس المودّة .

٥ ـ إذا أراد الكافرُ عمل خير ، ثمَّ أسلم ، شرع له أنْ يستمرَّ في عمل ذلك الخير .

٦ ـ الملاطفةُ واللينُ المدروسُ المعتدلُ لمن يرجىٰ إسلامه من الأسارىٰ إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام ، ولا سيما مَنْ يتبعه علىٰ إسلامه العددُ الكثيرُ من قومه أو من أتباعه ومَنْ هم تحت إمرته .

٧ ـ الإسلامُ يغيِّر سلوك المؤمن ، فيعمل لصالح المسلمين ، كما فعل ثمامةُ حينما حَبَس الطَّعام عن أهل مكَّة ، إلىٰ أنْ جاءه الإذنُ النَّبويُّ بإطلاق الميرة والحبوب لهم .

٨ ـ إذا أراد الكافرُ الإسلام بادَرَ به ، ولا يؤخّره للاغتسال .

٩ ـ الإسلامُ يهدمُ ما كان قَبْلَه ، وقد تواترت الأحاديث الصَّحيحة بذلك .

ثباتُـهُ في وجوهِ المُرتدِّين :

* كان سيِّدنا ثُمامةُ بنُ أثال ـ رضي ٱلله عنه ـ ممَّن أخلصَ للإسلام إخلاصَ الموقنين ، فقد ظلَّ وفياً للحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ، مقيماً علىٰ العهد الذي فارقَهُ عليه ، ولمَّا ظهرَ زيغُ مُسيلمة الكذَّاب في بني حنيفة ، وقويَ أمْـرُهُ ، واشتدَّتْ شوكته ، أرسلَ رسولُ ٱللهِ ﷺ فُراتَ بنَ حيَّان العجليّ إلىٰ ثمامةَ في قتالِ مسيلمة الكذَّاب وقتله [١] .

* كان مسيلمةُ قد أعلنَ النُّبوَّة في اليمامة ، وادَّعىٰ الشَّركة مع النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ ، وفتَنَ أهلَ اليمامة ، وانقسموا بين مُصدِّق ومُكَذِّب ، وراضٍ وساخطٍ ، بل إنَّه افتعلَ كتاباً يذكرُ فيه أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ جعلَ له الأمْـرَ من بعده ، فصدَّقه أكثرُ بني حنيفة [٢] .

* وبلغ من تبرُّك بني حنيفة به أنَّهم كانوا يسألونه أنْ يدعوَ لمريضهم ، وأنْ يباركَ لمولودهم ، وهم يعلمون علْمَ اليقين أنَّه كذَّابٌ مفترٍ لعَّاب ، فقد جاءَهُ قومٌ بمولودٍ لهم فمسحَ رأْسه فصار أقرعَ قبيح الرَّأس ، وجاءه رجلٌ يسأله أن يدعوَ لمولودٍ له بطولِ العمر ، فماتَ المولودُ من يومه ؛ وعلىٰ الرّغم من هٰذا كلِّه ظلَّ شطرٌ كبيرٌ من الحنفيين يصدِّقونه في ترّهاته وألاعيبه عصبية وجهلاً ، وغلب الشَّقاء عليهم .

* وتذكرُ المصادر المتنوِّعة بأنَّ سيِّدنا ثمامةَ بنَ أثال ـ رضي ٱلله عنه ـ كان من فضلاء الصَّحابة ، وتوفي رسولُ ٱلله ﷺ وثمامة متمسِّكٌ بالإسلام لا يحيدُ عن الحقِّ قِيْدَ أَنْمُلة ، ولمَّا ارتدَّ أهلُ اليمامة لم يرتدَّ ثمامة ، وثبتَ علىٰ إسلامه ، هو ومَنْ اتَّبعه من قومه ، وكان مقيماً باليمامة ينهاهم عن اتّباع مسيلمة

= ١٠ ـ العمرةُ مستحبَّةٌ في كلِّ وقْتٍ .

(١) انظر : « أسد الغابة » (٤ / ٥٢) بشيء من التَّصرُّف .

(٢) « ثمار القلوب » (ص : ١٤٩) بتصرُّف .

الكذَّاب وتصديقه ؛ ويقولُ لهم : « إيَّاكم وأمْراً مُظلماً لا نورَ فيه ، وإنَّه لشقاءٌ كتَبَهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ علىٰ مَنْ أخذ به منكم ، وبلاءٌ علىٰ مَنْ لم يأخذْ به منكم يا بني حنيفة » [1] .

* قال أبو منصور الثَّعالبيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره : « وكان ثمامةُ بنُ أثال الحنفيّ يقشعرُّ جلدهُ من ذِكْرِ مسيلمة ، وقال يوماً لأصحابه يعظهم ويذكِّرهم : إنَّه لا يجتمعُ نَبِيَّان بأمرٍ واحد ، وإنَّ محمَّداً رسولُ ٱلله لا نبيَّ بعده ، ولا نبيَّ يُشْرَكُ معه ، كما أنَّ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا شريك له في ألوهيته ، فلا شريك لمحمَّد في نبوَّته . ثمَّ قال : أين قول مسيلمة : [يا ضفدع نِقّي نِقّي كم تنقّين ، لا الماء تكدّرين ، ولا الشُّرب تمنعين] من قول ٱلله تعالىٰ الذي جاء به محمَّدٌ ﷺ : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [غافر : ١ ـ ٣] ، فقالوا : أَوْقِحْ بمنْ يقولُ مثل ذلك مع مثل هٰذا ! فلمَّا قدم خالدُ بنُ الوليد ـ رضي ٱلله عنه ـ اليمامة شكر ذلك لثُمامةَ بنِ أُثال ، وعرف به صحَّة إسلامه » [2] .

* ومن الخير أن تُقالَ كلمةُ الخير في موضعها ، والخيرُ الذي ينبغي أنْ نقولَه بأنَّ بني حنيفة لم يكونوا كلّهم قد تابعوا مسيلمة الكذَّاب ، وساروا وراءه ضالِّين مضلِّين ، ولـٰكنَّما ظهرت ثلَّةٌ مباركةٌ أبدت سخريتها بمسيلمةَ ودعوته الخبيثة ، وهبَّتْ تقاومُ ترّهاته وتهاجمُهُ ، وتدعو إلىٰ التَّبرؤ منه ، وكان في مقدمة هٰذه الثُّلة السَّيِّد المفضال ، ثمامةُ بنُ أثال ، فكما علمنا أنَّه كان ممَّن ثبت علىٰ إسلامه ثبات الجبال ؛ لمَّا اندلعت نيران فتنةِ الارتداد والمرتدّين في الجزيرة بعامة ، وقومه خاصَّة ، وكانت مقاومةُ ثمامةَ ومَنْ معه من الثَّابتين علىٰ

---

(١) « أسد الغابة » (١ / ٢٩٥) .

(٢) « ثمار القلوب » (ص : ١٤٩) ، و« طبقات ابن سعد » (٥ / ٥٥٠ ـ ٥٥١) ، و« الاستيعاب » (١ / ٢٠٧ ـ ٢٠٨) مع الجمع والتّصرّف .

الإسلام مقاومةً ذات أثر بسيط ، فقد استطاع من خلالها أنْ يشغلَ المرتدّين حتَّىٰ وصلت جيوشُ الخلافة الرَّاشدة بقيادة سيف ٱلله وسيف رسوله خالد بن الوليد ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فدمَّرت تجمّعات مسيلمة الكذَّاب ، وبَتَرتْها ، وأعادت السَّلام والأمان إلىٰ أرض اليمامة وما حولها ، وَفَاءَ النَّاسُ إلىٰ دينِ اللهِ وأمره .

* ومن العجيب أنَّ أناساً من بني حنيفة موقنة تمام اليقين أنَّ مسيلمةَ أكذبُ النَّاس ، ومع معرفتهم بكذبه فإنَّ عناصر منهم وقفوا إلىٰ جانبه وقفةَ مصلحةٍ ، فطمعت في السُّلطان ، وتعصَّبَتْ للقبيلة ، وطمعت في الأموال والمغانم ، وكان في مقدِّمةِ هـٰؤلاء المنكرين والمفتونين ، طلحة النَّمريّ .

* وتبسطُ الرِّوايات محاورةً بين طلحةَ ومسيلمةَ مفادها : « أنَّ طلحةَ النَّمريّ جاءه ، فقال : أين مُسيلمة ؟

قالوا : مع رسول ٱلله .

فقال : لا ؛ حتَّىٰ أراه .

فلمَّا جاءه قال له : أنتَ مُسيلمة ؟

قال : نعم .

قال : مَنْ يأتيك ؟

قال : رحمـٰن .

قال : أَفي نور أو في ظُلمة ؟

فقال : في ظلمة .

فقال طلحةُ النَّمريّ : أشهد أنَّك كاذبٌ ، وأنَّ محمَّداً صادق ، ولـٰكن كذَّابَ ربيعة أحبُّ إلَينا من صادق مُضر .

فَقُتِلَ طلحةُ النّمريّ مع مسيلمةَ يوم عقرباء كافراً » [١] .

---

(١) « الكامل في التّاريخ » (٢ / ٣٦٢) بتصرُّف .

* لقد طغت أخبار ردَّة مُسيلمة الكذَّاب باليمامة علىٰ غيرها من أخبار ؛ ومنها : ثباتُ جماعات من المسلمين الصَّادقين في اليمامة بصفة عامة ، ولم يتعرَّضْ بعضُ الكتَّاب المعاصرين للحديث عن المسلمين الذين ثبتوا علىٰ دينهم في فتنة مُسيلمة الخبيثة اللئيمة ، وكيف جابهوه ووقفوا وقفةً مشرّفةً في وجهه ، ومن ثمَّ ساندوا جيوش الخلافة الرَّاشدة التي جاءت إلىٰ اليمامة لتقضيَ علىٰ فتنة مسيلمة التي استشرتْ وعظُم شررها ، فأطفأتْها الجيوشُ الإسلاميَّةُ في عهد سيِّدنا أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ ببركة صدقهِ وصفاء نيَّته ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه وحشَرنا في زمرته ـ .

* فقد أودعت التَّواريخُ في ثناياها أنَّ ثمامةَ بنَ أثال ـ رضي ٱلله عنه ـ كان من مشاهير بني حنيفة وأعيانهم ، وكان واحداً من أكابرهم ، وعقلائهم ، ومن ذوي الفهم والرَّأي السَّديد فيهم ، وكان مخالفاً لمسيلمة علىٰ ما هو عليه من الرّدّة ، وكان ممّا قاله لمن تابع مسيلمة الكذَّاب : « . . . ويحكم يا بني حنيفة ! اسمعوا قولي تهتدوا ، وأطيعوا أمري ترشدوا ، واعلموا أنَّ محمَّداً ﷺ كان نبيَّاً مرسلاً ، لا شكَّ في نبوَّته ، ومسيلمة رجل كذَّاب ، لا تغتروا بكلامه ، وكذبه ، فإنَّكم قد سمعتم القرآن الكريم كلام ٱلله تعالىٰ ، فأين هٰذا الكلام من كلام مسيلمة ؟ فانظروا في أموركم ، ولا يذهبنَّ هٰذا عنكم ، ألا وإنِّي خارجٌ إلىٰ خالد بن الوليد في ليلتي هٰذه ، طالباً منه الأمان علىٰ نفسي ، ومالي ، وأهلي ، وولدي » .

* ووقع كلامُ ثمامةَ موقعاً حسناً عند بعض عقلاء بني حنيفة ، فكان جواب مَنْ ثبتَ علىٰ الإسلام من قومه أنْ قالوا له : « نحنُ معك يا أبا عامر ، فكنْ من ذلك علىٰ علم » .

* وتذكرُ بعضُ الرِّوايات أنَّ ثمامةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ كان يرسلُ إلىٰ مسيلمة ، وينصحُ له بأنْ يرجعَ عن إفكه ، وتروي هٰذه الرِّوايات شعراً لثمامةَ منه قوله :

مُسيلمـــــةُ ارجـــعْ ولا تَمحـــكِ فــإنَّــكَ فــي الأمْــر لــمْ تُشْــرَكِ
كـــذبــتَ علـــىٰ اللهِ فــي وحْيــهِ فكــانَ هـــواكَ هـــوىٰ الأَنْـــوكِ
ومنَّـــاكَ قـــومُـــك أنْ يمنعُـــوك وإنْ يـــأْتِهـــمْ خـــالـــدٌ تُتْــركِ
فَمـا لـكَ مـنْ مَصْعـدٍ فـي السَّمـاء ولا لـكَ فـي الأرضِ مـن مسلـكِ

* أورد ابن سيِّد النَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمته الماتعة لسيِّدنا ثمامة من كتابه : « منح المدح » كلاماً نفيساً وشعراً سلساً لثمامة ، فقال : « كان ثُمامةُ بنُ أُثال ـ رضي ٱلله عنه ـ ممَّن ثبتَ علىٰ إسلامه حين الرِّدَّة عن الإسلام ، وله مقامٌ محمودٌ في الرَّدِّ علىٰ مسيلمة وقومه ، وكلام حسن صدر عنه في ذلك نظماً ونثراً . ولما أغلظَ لمسيلمة وبرئ منه ، قال : ما قضيتُ حقَّ رسول ٱلله ﷺ بعد ، فجمع بني حنيفة ، فخطبهم فقال : يا بني حنيفة ! إنِّي أرىٰ فيكم بغياً ولجاجةً ، والبغي هلاك واللجج نكد . . . . في كلام قال فيه : وإنكم وٱلله لو قاتلتم أمثالكم ، لمَّا خفتُ أنْ يغلبوكم ، ولـٰكنكم تقاتلون النُّبوَّة بالكهانة ، والقرآن بالشِّعر ، والأنصار بالكفَّار ، والمهاجرين بالأعراب ، وإنَّما النَّدامة عند العيان ، والشَّكّ عند السَّيف ، فلو كان لنادم إقاله ، أو لشاكّ بقاء ، لم نكره أنْ تذوقوا عواقب ما أنتم فيه ، ولـٰكنَّه هلاكُ الأبد . فأعظمه القوم أن يجيبوه ، وثبتوا علىٰ أمرهم ، فرجع مُغْضَباً وقال في ذلك :

أهـــمُّ بتـــركِ القَـــولِ ثـــمَّ يـــردُّنـــي إلـــىٰ القـــولِ إنعـــامُ النَّبـــيِّ محمَّـــدِ
شكـوتُ لـه فكِّـي مـن الغُـلِّ بعـدمـا رأيـــتُ خَيـــالاً مـــن حُسَـــامٍ مهنَّـــدِ
ومـــا كـــان إلاَّ مسحـــةً بـــذبـــابِـــهِ فأصبحَ صبحاً شايلَ الرِّجْلِ واليَد » [1]

* وذكر ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « الاستيعاب » : أنَّ بني حنيفة الذين أُشربتْ قلوبُهم ممخرقات مسيلمة قد عصوا ثمامة بن أثال ، فلمَّا خالفوه

---

(١) « منح المدح » (ص : ٥٩ ـ ٦٠) ، وانظر : « الإصابة » (١ / ٢٠٤) .

وأصرَّوا علىٰ عصيانهم ، ورأىٰ أنَّهم قد أصفقوا علىٰ اتّباع مُسيلمة الكذَّاب ومناصرته علىٰ أباطيله وإفكه ، عزمَ علىٰ مفارقتهم إلىٰ غير رجعة ، أو يقضي ٱلله أمراً كان مفعولاً .

* قال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ومرَّ العلاءُ بنُ الحضرميّ ومَنْ معه علىٰ جانب اليمامة ، فلمَّا بلغه ذلك ـ أي : ثمامة ـ قال لأصحابه من المسلمين : إنِّي واللهِ ما أرىٰ أنْ أقيمَ مع هؤلاء مع ما قد أحدثوا ، وإنَّ اللهَ تعالىٰ ضاربُهم ببليَّةٍ لا يقومون بها ، ولا يقعدون ، وما نرىٰ أنْ نتخلَّفَ عن هؤلاء وهم مسلمون ، وقد عرفنا الذي يريدون ، وقد مرّوا قريباً ، ولا أرىٰ إلا الخروج إليهم ، فمن أراد الخروج منكم فليخرجْ ، فخرج ممدّاً للعلاء بن الحضرميّ ، ومعه أصحابه من المسلمين ، فكان ذلك قد فتَّ في أعضاد عدوّهم حين بلغهم مدد بني حنيفة ، وقال ثمامةُ بنُ أُثال في ذلك :

دعَانَا إلىٰ تركِ الدِّيانة والهُدىٰ ... مسيلمةُ الكذَّاب إذْ جَاءَ يَسْجَعُ

فيا عجباً من معْشَرٍ قد تتابعُوا ... له في سبيلِ الغيِّ والغيُّ أشنعُ

في أبيات كثيرة ذكرها ابنُ إسحاق في الرّدّة ، وآخرها :

وفي البعدِ عن دارٍ وقد ضلَّ أهلُها ... هدىٰ واجتماع كلُّ ذلك مهيعُ » (١)

كيفَ نالَ ثُمامةُ الشَّهادة ؟

* لمَّا توفي حبيبنا رسولُ ٱلله ﷺ ارتدَّت قبيلةُ ربيعة بالبحرين فيمن ارتدَّ من العرب ، إلا الجارود بن المعلَّىٰ فإنَّه ثبتَ علىٰ الإسلام مَنْ معه من قومه .

---

(١) « الاستيعاب » (١ / ٢٠٨) ، وانظر : « أسد الغابة » (١ / ٢٩٥) .

وقال الإمامُ النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سيِّدنا ثمامةَ بنِ أثال ـ رضي ٱلله عنه ـ : « ثمامةُ بنُ أثال الصَّحابيُّ . . . أسلمَ وحَسُنَ إسلامه ، ولم يرتدَّ مع مَن ارتدَّ مِنْ أهل اليمامة ، ولا خرج من الطَّاعة قطُّ ـ رضي ٱلله عنه ـ » . « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٤٠) .

* وأصبحتْ في البحرين ـ الإحساء ـ جبهتان : إحداهما للإسلام بقيادة الجارود بن المعلَّىٰ ، والأخرىٰ للكفرة والمرتدّين بقيادة الحُطَم بنِ ضُبيعة العبديّ ، وكان الحُطم مرتدّاً خبيثاً وقائداً ماكراً ، استطاع أنْ يغويَ عدداً من النَّاس ، ويوقعهم في فخّ الرّدّة ، حتَّىٰ استفحل أمرهُ ، وكثر أنصارُهُ ، ولم تبقَ مدينة أو قرية في البحرين وساحل الخليج إلا رجعت عن الإسلام ، فقد ارتدَّ أهلُ مدينة هَجَر ، ومدينة القطيف ، ومدينة دارين ، وجميع القرىٰ التَّابعة لها ، وصار كلّ أهلها أنصاراً للحطم زعيم المرتدّين في هاتيك الأصقاع .

* وحينما سار العلاءُ بنُ الحضرميّ لإخماد فتنة الرّدّة في البحرين والخليج كلّه ، وحاذىٰ اليمامة ، جاءه ثمامةُ بنُ أثال في حشد كبير من مسلمي بني حنيفة ، فرحَّب بهم العلاء واحتفىٰ بثمامة وأكرم مثواه ، وصار ومَنْ معه جنداً من جنود العلاء بن الحضرميِّ .

* قال الطَّبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « تاريخه » ، وابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « بدايته » : « فلمَّا دنا العلاء بن الحضرميِّ من البحرين جاء إليه ثمامةُ بنُ أثال في محفل كبير ، وجاء كلّ أمراء تلك النَّواحي ، فانضافوا إلىٰ جيش العلاء بن الحضرميِّ ، فأكرمهم العلاء ، وترحَّب بهم ، وأحسن إليهم » .

* وشهد ثمامةُ مع جيش المسلمين قتالَ الحُطَم بن ضبيعة ، حتَّىٰ انهزمَ المشركون ، وقُتِلُوا ، وقُتل معهم زعيمهم الحُطم ، وقسَّم العلاء الغنائم ، ونفلَ رجّالاً ، فأعطىٰ العَلاء رجلاً من المسلمين خميصةً كانت للحطم بن ضبيعة وكان يباهي بها ، فاشتراها منه ثمامةُ ، فلمَّا رجع ثمامةُ بعد هٰذا الفتح ، رأىٰ قوم الحطم خميصته علىٰ ثمامة ، فاعتقدوا أنَّه قتله ، فقتلوه غدراً علىٰ سبيل الأخذ بالثَّأر ؛ فقضىٰ بذلك نحبه شهيداً بإذن ٱلله .

* جاء تفصيلُ ذلك وبيانه في المصادر المتنوِّعة من أمّهات التَّاريخ والتَّراجم فقالت : « وأقفلَ العلاءُ بنُ الحضرميِّ بالنَّاس إلا من أحبَّ المقام ، بعد أنْ قسم الأنفال ، ونفلَ رجالاً من أهل النَّجدة والبأس والبلاء في المعركة

ثياباً علىٰ وجه الخصوص ، فأعطىٰ ثمامةَ بنَ أثال الحنفيّ خميصةً ذات أعلام ، كانت للحُطم بن ضبيعة ، وكانت ثمينة يباهي بها ، فلمَّا رجع ثمامة من المعركة ، وَرَدَ علىٰ ماء لبني قيس بن ثعلبة قوم الحطم ، فرأَوه وعليه خميصة زعيمهم الحُطم المقتول ، فعرفوها ، فدسَّوا إليه رجلاً منهم ، وقالوا : سَلْه ، كيف صارت إليه الخميصة ؟ واسألْهُ عن الحُطم ، أهو قتله ؟ فسأله الرَّجل عن الخميصة ، فقال ثمامة : نُفِلْتُها .

قال الرَّجل لثمامة : أأنتَ قتلْتَ الحُطم ؟

قال ثمامة : لا ، ولودِدْتُ أنِّي كنتُ قتلته ـ وكان الذي قتل الحُطم قيس بن عاصم التَّميميّ ـ .

قال الرَّجل : فما بال هـٰذه الخميصة معك ؟

فقال : إنِّي نُفلتُها ـ يعني : أعطانيها القائد العام بصفة خاصَّة عند تقسيم الغنائم ـ ، فرجع الرَّجل إلىٰ قوم الحُطَم ، فأخبرهم بما قال له ثمامة ، فأضمروا قتله ، ولمَّا كان ثمامة شجاعاً ، لم يجرؤْ أحدٌ علىٰ مواجهته منفرداً ، تسلّلوا نحوه منفردين ، حتَّىٰ ضربُوا حوله نطاقاً ، وما كان يعلم أنَّهم باقون علىٰ جاهليَّتهم وردَّتهم الخبيثة ، فقال لهم مستفسراً : ما لكم ؟

قالوا : أنتَ قاتلُ سيِّدنا الحُطم ، هـٰذه خميصته معك .

قال ثمامة : كذبتم ، لوددتُ أنِّي قتلتُهُ ؛ أمَّا الخميصة فإنِّي قد نُفّلْتها ، نفلنيها العلاء بن الحضرميّ .

قالوا : وهل ينفّلُ إلا القاتل ؟

قال : إنَّها لم تكن عليه ، وإنَّما وُجِدَتْ في رحله .

قالوا : كذبت .

ثمَّ احتوشوه ، وهاجموه من كلِّ جانب ، فدافع عن نفسه دفاع الأسد ، بيد أنَّهم تكاثروا عليه ، حتَّىٰ استشهد ـ رضي ٱلله عنه ـ ،

ولقي ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ وهو يذودُ عن حياض الإسلام »[1] .

* كان استشهاد سيِّدنا ثمامة بن أثال في السَّنة الحادية عشرة من الهجرة النَّبويَّة المباركة ، استشهد وهو خارجٌ لإعلاء كلمة ٱلله ، ولقمعِ المرتدّين ، فنالَ الشَّهادة ، وكُتب من السُّعداء عند ٱلله عزَّ وجلَّ .

* رضي ٱلله عن ثمامةَ بنِ أثال ، ورزقنا الذّكر والتَّسبيح في الغدو والآصال ، وجعلنا من الذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكْر ٱلله وإقام الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة في جميع الأحوال ، والحمد لله الكبير المتعال .

✍ ✍ ✍

(١) « الكامل في التَّاريخ » (٢ / ٣٧٠ ـ ٣٧١) ، و« خلافة الصِّدِّيق والفاروق » (ص : ١١٦ ـ ١١٧) ، و« حروب الرِّدَّة » (ص : ٢٢٧ ـ ٢٢٨) مع الجمع والتَّصرُّف .




جرير بن عبد الله

رضي الله عنه

* آتاه الله بسطة في العلم والجسم والجمال .
* دعا له النبي ﷺ فقال : « اللهم ثبته واجعله هادياً مهدياً » .
* مجاهد فاتح لعدة مدن ؛ وروى مئة حديث ؛ وأخباره جميلة .




جريرُ بنُ عبد ٱلله
رضي ٱلله عنه

بطَاقـةٌ مشـرِّفَـة :

* سيِّدٌ ساد في الجاهليَّة والإسلام ، زادهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بسطةً في العلْمِ والجسمِ والجمالِ ، فكان من أجملِ رجالِ عصره ، كأنَّ وجهَه شِقَّةُ قمر .

* كان إسلامه عقبَ نزولِ سورة « المائدة » في السَّنةِ التي تُوفي فيها الصَّادقُ المصدوق نبيُّنا محمَّد ﷺ .

* قال عن حفاوة النَّبيِّ ﷺ به ، وإكرامه له : « ما حجبَني رسولُ ٱلله ﷺ منذ أسلمتُ ، ولا رآني إلا ابتسم » .

* وقال عن نفسه : « بايعتُ رسولَ ٱلله ﷺ علىٰ السَّمع والطَّاعة ، وأنْ أنصحَ لكُلِّ مسلم » .

* كان كريماً في قومه ، جاء إلىٰ النَّبيِّ ﷺ ، وهو في بيتٍ ، والبيتُ مملوءٌ بالنَّاس ، فلم يجدْ مجلساً ، فرمىٰ إليه رسولُ ٱلله ﷺ بإزاره أو بردائه ، وقال له : « اجلسْ علىٰ هٰذا » فأخذَهُ وقبَّلَه ، وضمَّه إليه ، وقال : « أكرمك اللهُ يا رسولَ ٱلله كما أكرمتني » فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرموه » .

* هٰذا الرَّجلُ الجميلُ الوسيمُ قال له الحبيبُ

الأعظمُ ﷺ : « ألا تريحني من ذي الخَلَصَة ؟ »[1] .

فقال له : « يا رسولَ ٱلله ! إنِّي رجلٌ لا أثبتُ علىٰ الخيل » .

فضربَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ بيده الشَّريفةِ في صَدْرِ الرَّجُل ، ودعا له ، فقال : « اللهم ثَبِّتْهُ ، واجعله هادياً مهديّاً » . قال الرَّجلُ : « فما سقطتُ عن فرسي بعد » .

* كما أنَّ هٰذا الرَّجل اجتذبَ إعجاب العبقريّ الفاروق الفذّ سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، حتَّىٰ قال له يوماً في مجلسٍ عامر بأصحابه : « يرحمك ٱلله ! نِعْمَ السَّيِّد كنتَ في الجاهليَّة ، ونعم السَّيِّد أنتَ في الإسلام » .

* ومن المعارف اللطيفةِ التي تطالعنا بها سيرةُ هٰذا الرَّجل أنَّه كان مع سيِّدنا أنسِ بنِ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ في سفَرٍ من الأسفار ، وكان أكبر من أنسٍ في السِّنّ ، فكان مع ذلك يخدمُ أنساً بفخرٍ واعتزازٍ ويقول : « إنِّي رأيتُ الأنصارَ تصنعُ برسول ٱلله ﷺ شيئاً ، فلا أرىٰ أحداً منهم إلا خدمتُه » .

* وهٰذا الرَّجُل الخيِّرُ كان يقولُ عن الإكرام النَّبويِّ له ، وعن الوصف المحمَّديِّ لخصائله : ما رآني رسولُ ٱلله ﷺ إلا تبسَّمَ في وجهي ، وقال ﷺ : « يطلعُ عليكم من هٰذا البابِ رجلٌ من خيرِ ذي يَمَن ، علىٰ وجهه مِسْحة ملك » .

* لهٰذا كان سيِّدنا عمر يصفُه بأنّه يوسف هٰذه الأمَّة ؛ لجمالهِ وحسنهِ واعتدالهِ وملاحتهِ ، وسيادتِهِ لقومِهِ ، فقد كان فاضلاً ذكيّاً ، واضح المحيّا بهيّاً ، حسَنَ الوجه مديد القامة ؛ ترفَ الجسم عليه وسامة .

---

(١) « **ذو الخلصَة** » : بيتٌ لقبيلةِ خثعم في الجاهليّة ، كان يدعىٰ الكعبة اليمانيّة ، فيه صنمٌ يدعىٰ الخَلصَة لدوس ، وخثعم ، وبجيلة ، وغيرهم ، فأمر رسولُ ٱلله ﷺ بهدمه فهدّم ، وأحرق ، حتَّىٰ تركوه كالجمل الأجرب ، فاستبشر ﷺ بذلك .

* هـٰذا الرَّجلُ هو جريرُ بنُ عبد ٱلله بن جابر البَجَلِيّ [1] ، نسبة إلىٰ بجيلةَ قبيلة من اليمن ، وهـٰذه النِّسبةُ جاريةٌ علىٰ القياس ؛ لأنَّ قياسَ النِّسبةِ إلىٰ فَعيْلَة فَعَلِيّ ، بفتح الياء والعين . وبجيلةُ بطونٌ عديدةٌ متفرِّقةٌ ، تفرَّقَتْ في أحياءِ العربِ منذ يوم حربها مع كَلْبِ بنِ وبرة بالفجار ، وقد أعاد شملَها وجمعَها جريرُ بنُ عبد ٱلله بن جابرِ البَجَلِيّ [2] .

« رجُـلٌ من خَيرِ ذي يَمَن » :

* أنفاسُ المدينةِ المنورة تسبيحٌ وتهليلٌ ممزوج بالتَّحميد ، وخفقاتُ فؤادها ابتهالاتٌ للهِ العزيزِ الحميد ، وليلُها ساجٍ يلفُّ بسواده الكون ، ولـٰكنَّ قلوبَ أهلها قد استضاءت بأنوار اليقين ، وسكونُها موحشٌ ، لـٰكنَّ عبادَ الرَّحمـٰن قد اطمأنتْ نفوسُهم بالأُنْسِ بٱلله الودود ، واستأنَستْ بإيناسِ رسوله الرَّؤوف الرَّحيم بالمؤمنين ، فقد شرحَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ صدورهم للإسلام فهم علىٰ نورٍ من ربِّهم ، وويلٌ للقاسيةِ قلوبهم من ذكْرِ ٱلله ، أولئك في الضَّلال البعيد ، والكُفْر المبين .

* في هدوءِ الليلِ ودجاه البهيم ، علا سيِّدنا بلالُ بنُ رباح ـ رضي ٱلله عنه ـ المسجدَ النَّبويَّ ، وراحَ ينظرُ إلىٰ الأفق الشَّرقيّ ينتظرُ الصُّبح ، حتَّىٰ إذا

---

(١) « البداية والنِّهاية » (٨ / ٥٥) ، و« الاشتقاق » (ص : ٢٣٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥٢٧) ، و« المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » (الفهارس : ١٠ / ٧٢) ، و« الشُّعور بالعُور » للصّفديّ (ص : ١٢٥ ـ ١٢٨) ، و« البرصان والعرجان » (ص : ٢٩ ، و١٢٠ ، و١٢١ ، و١٧٤ ، ٣٦٢) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٣٠ ـ ٥٣٧) ، و« الاستيعاب » (١ / ٢٣٤ ـ ٢٣٧) ، و« الإصابة » (١ / ٢٣٣ ـ ٢٣٤) ، و« صفة الصَّفوة » (١ / ٧٤٠ ـ ٧٤٢) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٤٧ ـ ١٤٨) ، و« المعجم الكبير » للطّبرانيّ (٢ / ٢٩٠ ـ ٣٥٩) ، وغيرها من مصادر متنوِّعة يصعب حصرها في هـٰذا المجال .

(٢) انظر : « المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام » لجواد علي (٤ / ٤٤٦) .

تبيَّنَ له الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ من الفجر نادىٰ : اللهُ أكبر ؛ اللهُ أكبر ، وعطَّر صوته الدُّنيا ، وأمتعَ بنداوته الأسماعَ والأرواح ، فهبَّ المسلمون يمشون في الظُّلَم يبتغون فَضْلَ ٱللهِ ورضوانه ومغفرته ، كانت أجسادهُم تسيرُ علىٰ الأرض لـٰكنَّ قلوبَهم تهفو إلىٰ العلي القدير ، ليجعلَ خطاهم شاهداً لهم ؛ ويدخلهم في رحمته : ﴿ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التحريم : ٨] .

* كان هـٰذا الأمنُ والأمانُ بعد أنْ افتتح الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ مكَّةَ المكرَّمة ، وفرغَ من تبوك ، وأسلمتْ ثقيفٌ وبايَعت ، وضربَ ﷺ أَمَدَ أربعة أشهر لقبائلِ العرب المُشْركة ، كي تقررَ مصيرها بأنفسها ، وعندها ضربتْ إليه وفودُ العرب آباطَ الإبل من كلِّ فجٍ عميق معلنةً إيمانها وولاءها لدينِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وسمّي ذلك العامُ بعام الوفود ، وقد أشار محمود سامي البارودي في قصيدته : « كشف الغمَّة في مدح سيِّد الأمَّة » إلىٰ هـٰذا الأمر المتألِّق في ثنايا السِّيرة النَّبويَّة فقال :

ثـمَّ استهلَّـتْ وفـودُ النَّـاس قـاطبـةً ... إلـىٰ حِمَـاهُ فـلاقَـتْ وافـرَ الكَـرَمِ
فكَـانَ عـامَ وفـودٍ كلَّمـا انْصَـرفَـتْ ... عصـابـةٌ أقبلَـتْ أخـرىٰ علـىٰ قَـدمِ
وأرسـلَ الـرُّسْـلَ تَتْـرىٰ للْملُـوك بمـا ... فيـه بـلاغٌ لأهـلِ الـذِّكْـر والفَهَـمِ

* كانت الوفود تشدُّ الرِّحال إلىٰ المدينةِ متدفّقةً ، والنَّاسُ يدخلون في دين اللهِ أفواجاً ، وكان الرِّجالُ يلقُون أسماعهم إلىٰ الصَّادق المصدوق ﷺ ، فيأخذُ بألبابهم جمالُ بيانه ، وحسنُ نظامه ، فهو ﷺ لا ينطقُ عن الهوىٰ ، إن هو إلا وحي يوحىٰ . وأصبحت مكارمُ أخلاقه الشَّريفة تمسُّ شغافَ قلوبهم ، وتداعبُ همسَ نفوسهم ، فهو ﷺ علىٰ خُلُق عظيم ، وهو أحسنُ النَّاس خَلْقاً ، وخُلُقاً ، ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] .

* ومن الجدير ذكْرُهُ ، والمفيدُ معرفته أنَّ كُتبَ الصَّحيح وغيرها قد احتفَتْ بأمرِ الوفود ، فقد ساقَ الإمامان : البخاريُّ ومسلمٌ رحمهما ٱللهُ في

« صحيحيهما »[1] معلوماتٍ ذات قيمة وفائدة عن وفود قبائل عديدة ، كوفد تميم ، وعبد القيس ، وبني حنيفة ، ونجران ، والأشعريين ، وأهل اليمن ، ودوس ؛ كما ساقَتْ بقيةُ كتب الحديث معلومات غزيرة النَّفع شملت قصص عددٍ من الوفود ، كما أنَّ ابن سعد رَحِمَهُ اللهُ قد فصَّل كثيراً في « طبقاته »[2] عن الوفود ، وقدَّم ترجمات وافيةً عن الرِّجال ممَّن كانت لهم صحبةٌ منهم .

* ولمَّا تحدَّث ابنُ سعد رَحِمَهُ اللهُ عن الوفودِ خصَّ وفْدَ بجيلةَ بالحديث أيضاً ، وذكر وفادة رئيسها جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فقال : « قدمَ جريرُ بنُ عبد ٱلله البجليّ سنة عشْرِ المدينةَ ، ومعه من قومه مئة وخمسون رجلاً ، فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « يطلعُ عليكم من هـٰذا الفجّ من خيرِ ذي يَمَن ، علىٰ وجههِ مِسْحَة ملك »[3] فطلع جريرٌ علىٰ راحلتِهِ ومعه قومه فأسلموا وبايعوا . قال جريرٌ : فبسَطَ رسولُ ٱلله ﷺ ، فبايَعَني ؛ وقال : « علىٰ أن تشهدَ أن لا إلـٰه إلا ٱلله ، وأنِّي رسولُ ٱلله ، وتقيمَ الصَّلاة ، وتؤتيَ الزَّكاة ، وتصومَ رمضان ، وتنصحَ المسلم ، وتطيعَ الوالي ، وإن كان عبداً حبشيَّاً » فقال : نعم ، فبايعه »[4] .

* وفي روايةٍ في مصادر أخرىٰ قال سيِّدنا جريرٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ : « لمَّا دنوتُ من المدينة ، أنختُ راحلتي ، وحللْتُ عيبتي ، ولبستُ حُلَّتي ، ثم دخلت المسجدَ ؛ فإذا برسولِ ٱلله ﷺ يخطبُ ، فرماني النَّاس بالحدق ، فقلتُ

---

(١) انظر مثلاً : « صحيح البخاريّ » برقم : (٤٣٦٥ ، و٤٣٦٨ ، و٤٣٧٢ ، و٤٣٩٢) .

(٢) انظر : « طبقات ابن سعد » (١ / ٢٩١ ـ ٣٥٩) .

(٣) قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ : « فلمَّا دخل جريرٌ نظرَ النَّاسُ إليهِ ، فكان كما وصف رسول ٱلله ﷺ وأخبروه بذلك فحمد ٱلله تعالىٰ » . « البداية والنِّهاية » (٨ / ٥٥ ـ ٥٦) . وانظر : « معرفة الصَّحابة » (١ / ٤٧٩) .

(٤) « طبقات ابن سعد » (١ / ٢٤٧) .

لجليسي : يا عبدَ اللهِ ! هل ذكرَ رسولُ ٱللهِ ﷺ من أمري شيئاً ؟

قال : نعم ، ذكركَ بأحسنِ الذِّكر ، بينما هو يخطبُ ؛ إذ عرضَ له في خطبته ، فقال : « إنَّه سيدخلُ عليكم من هٰذا الفجِّ من خير ذي يمن ، ألا وإنَّ علىٰ وجهه مسْحَةُ ملك » .

قال : فحمدتُ ٱللهَ [1] ، وفي رواية : فحمدتُ اللهَ علىٰ ما أبلاني .

* إنَّ قصصَ الوفودِ وأخبارَها وأحوالَها ، وكيفية تعامل الصَّادق المصدوق ﷺ معها ذاتُ أهميةٍ كبيرةٍ في استقراء السِّيرة ، ومعرفةِ أخبار رجال عصر النُّبوَّة من سادةِ القومِ وكبرائهم وأمرائهم وأسيادهم ، فقد أوضحتْ أخبارُ الوفود وأفصحت عن ثروةٍ هائلة من الأخلاقيَّاتِ والسُّلوكيَّاتِ والتَّربوياتِ النَّبويَّة المتألِّقةِ ؛ والهادفةِ الهاديةِ في تعاملهِ مع الوفودِ ، ولا تخلو هٰذه المعاملاتُ من تربيةٍ وتوجيهٍ وفقْهٍ وأحكامٍ متنوِّعةِ المجالاتِ والمحاور ، وخاصةً فيما يتعلَّقُ بالنَّواحي النَّفسيَّة ، والاجتماعيّةِ ، والسِّياسيَّةِ ، والإداريّةِ ، والعسكريّةِ ، وحتَّىٰ النَّواحي الاقتصاديّة .

* وممَّا ينبغي أنْ نعرفَه أنَّ رسول الله ﷺ والذين معه قد استعدّوا استعداداً مناسباً لاستقبال الوفود في المدينةِ المنوَّرةِ ؛ إذ عملوا مكاناً لإقامةِ الوفود ، وضيافتهم ، وكان المسجدُ النَّبويُّ مجمعَ الاستقبال . وقد اهتمَّ ﷺ بتلك الوفود ، وحرصَ علىٰ تربيتها التَّربيةَ الملائمة وتعليمها العلمَ المفيدَ ، وكانت تلك الوفودُ شديدةَ الحرصِ علىٰ فهمِ الإسلام ، وتعلّمِ أحكامه وآدابه ، وتطبيقِ شرائعه ، وحفظ آيات القرآن الحكيم .

---

(١) انظر : « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٣١) وتخريج الحديث فيه ، وانظر : « صحيح ابن حِبَّان » برقم : (٧١٥٥) ، و« معرفة الصَّحابة » (١ / ٤٧٩) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٣٠ ـ ٣١) وأخرجه البيهقيُّ في « دلائل النُّبوَّة » (١ / ٣٤٦ ـ ٣٤٧) .

* كما كان الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ يُوصي رؤساءهم بالحقِّ إذا رغبوا في الرَّحيل ، ويحثُّهم علىٰ الاعتصام بالحقِّ والصَّبر ، ثمَّ يعطيهم ما تجودُ نفسُه من الجوائزِ والعَطيّات المحبَّبةِ إلىٰ النُّفوس ، فإذا عادوا إلىٰ قبائلهم وذويهم كانوا مسلَّحين بالهداية والرّشد ، عامرةً قلوبُهم بأنوارِ الإيمان واليقينِ ، مشرقةً نفوسُهم بالسَّعادة ، فيفرغُون هٰذه المكارم في قلوبِ أقوامهم ويسكبون الهدايةَ في صدورهم ، فيصبحون في حالٍ طيِّبةٍ يحبّون الإسلامَ ، ونبيَّ الإسلام ﷺ ، ورجال الإسلام ، ويمسون جَسَداً واحداً بفضلِ اللهِ ورحمته وكرمه .

* وهٰذا ما صنعَهُ الصَّادقُ المصدوق ﷺ مع جرير البجليِّ ومَنْ معه ؛ إذ أمرَ سيِّدنا بلالاً أنْ يعطيَهم الجوائزَ ، ففعلَ ذلك ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ علىٰ أتمِّ وجْهٍ وأكمله .

« اللهمَّ ثَبِّتْه واجْعَلْه هادياً مهدياً » :

* هٰذا دعاءٌ مباركٌ خصَّ به الصَّادقُ المصدوق ﷺ سيِّدنا جريراً ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فصار ميمون النَّقيبة وله فضائلُ جسيمة ؛ وشمائلُ عظيمةٌ .

* ولهٰذا الدُّعاءِ النَّبويِّ الميمون لجرير قصَّةٌ شائقةٌ جاءت في « الصَّحيحَيْن » وغيرهما ؛ ومفادها أنَّ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ كان يسأل جريراً البجلي ـ رضي ٱلله عنه ـ عمَّا وراءه ، فقال : « يا رسولَ ٱلله ! قد أظهر اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ الإسلام ، وأظهرَ الأذان في مساجدهم وساحاتهم ، وهدمت القبائلُ أصنامَها التي كانت تُعبد » .

فقال ﷺ : « فما فعل ذو الخَلَصَة ؟ » .

* قال جرير : « يا رسولَ ٱلله ! هو علىٰ حاله ، قد بقي ، واللهُ مريحٌ منه إنْ شاء ٱلله » ، فبعثه رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ هدم ذي الخَلصَة ، وعقد له لواء ، فخرج مصحوباً بدعاء النَّبيِّ ﷺ ، ولم يُطِلِ الغيبة ، فهدم الصَّنم ، وأخذ ما عليه وأحرقه بالنَّار ، وجعله كهشيم المحتظر ، فدعا له ﷺ ولمن معه

مرّات[1] . وهـٰذا ما سنقرأ تفاصيله في « الصَّحيح » كما جاء عن سيِّدنا جرير بن عبد ٱلله البجليّ ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ .

* أخرج البخاريُّ ومسلمٌ بسند رفعاه إلىٰ قيسِ بنِ أبي حازم قال : « قال لي رسولُ ٱلله ﷺ : « ألا تريحني من ذي الخَلَصة ؟ .

فقلت : بلىٰ ؛ فانطلقتُ في خمسين ومئة فارس من أحمسَ ، وكانوا أصحاب خيل ، وكنتُ لا أثبتُ علىٰ الخيل ، فذكرتُ ذلك للنَّبيِّ ﷺ ، فضرب يده علىٰ صدري ، حتَّىٰ رأيتُ أثرَ يده في صدري ، وقال : « اللهمَّ ثَبِّتْهُ ، واجعله هادياً مهدياً » . فما وقعتُ عن فرس بعد .

قال : وكان ذو الخلصة بيتاً في اليمن لخثعمَ وبجيلةَ ، فيه نُصُبٌ تُعْبَدُ ، يقال له : الكعبة ؛ فأتاها فحرَّقها بالنَّار وكسَرهَا .

قال : ولمَّا قدم جرير اليمن كان بها رجلٌ يستقسمُ بالأزلام ، فقيل له : إنَّ رسولَ رسولِ ٱلله ﷺ هـٰهنا ، فإنْ قَدَرَ عليك ضرب عنقَك .

قال : فبينما هو يضربُ بها ؛ إذ وقف عليه جرير فقال : لتكسِرَنَّها ، ولتشهدنَّ أن لا إلـٰه إلا ٱلله أو لأضربنَّ عنقك ، فكسرهَا وشهد ، ثم بعث جرير رجلاً من أحمس يكنىٰ أبا أرطأة إلىٰ النَّبيِّ ﷺ يبشِّره بذلك ، فلمَّا أتىٰ النَّبيّ ﷺ قال : يا رسولَ ٱلله ! والذي بعثك بالحقِّ ما جئت حتَّىٰ تركتها كأنَّها جملٌ أجرب .

قال : فَبَرَّكَ النَّبيّ ﷺ علىٰ خيل أحمس ورجالها خمس مرَّات »[2] .

---

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (١ / ٣٤٩ ـ ٣٥٠) ، و« المعجم الكبير » (٢ / ٢٩٩ ـ ٣٠١) مع الجمع والتّصرّف .

(٢) أخرجه الشَّيخان : البخاريّ في المغازي برقم : (٤٣٥٧) واللفظ له ، ومسلمٌ في فضائل الصَّحابة برقم : (٢٤٧٦ / ١٣٧) ، وابن حِبَّان برقم : (٨١٥٧ ، و٨١٥٨) ، وانظر : « زاد المعاد » (٢ / ٤٦) ، و« المفصَّل في تاريخ العرب قبل=

= الإسلام » (٦ / ٢٧٣ ، ٤٤٥) ، و« دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (٥ / ٣٤٧ ـ ٣٤٨) ، وغيرها من مصادر متنوِّعة .

وقوله « ذي الخَلَصة » : الخلصة : نبات له حبّ أحمر كخرز العقيق ، وذو الخلصة : اسم للبيت الذي كان فيه الصَّنم ، وقيل اسم البيت : الخَلَصة ، واسم الصَّنم : ذو الخَلَصة ، وحكىٰ المبرّد أنَّ موضعَ ذي الخلصة صاراً مسجداً جامعاً لبلدة يُقال لها : العبلات من أرض خثعم . وكان ذو الخلصة لعمرو بن لحي بمكَّة ، وكانوا يلبسونه القلائد ، ويجعلون عليه بيض النَّعام ، ويذبحون عنده . وأمَّا الذي لخثعم ، فكانوا قد بنوا بيتاً يضاهون به الكعبة . و« الكعبة » : الكعبة اليمانيَّة ، سموها بذلك مضاهاة للكعبة . و« ألاَ تريحني » : طلب يتضمَّن الأمر ، وخصَّ جريراً بذلك ؛ لأنَّها كانت في بلاد قومه ، وكان هو من أشرافهم ، والمراد بالرَّاحة راحة القلب ، وما كان شيء أتعب لقلب النَّبيّ ﷺ من بقاء ما يشرك به من دون ٱلله تعالىٰ . و« اجعله هادياً مهدياً » : قيل : فيه تقديم وتأخير ؛ لأنَّه لا يكون هادياً حتَّىٰ يكون مهدياً ، وقيل : معناه كاملاً مكملاً . و« فكسرها وحرقها » : هدم بناءها ، ورمىٰ النَّار فيما فيها من خشب . و« يستقسم » : أي : يستخرج غيب ما يريد فعله من خير أو شرّ ، وكانوا يستقسمون ذي الخلصة ، وذكروا أنَّ امرأ القيس لمَّا خرج يطلب بثأر أبيه ، استقسم عنده ، فخرج له ما يكره ، فسبَّ الصَّنم ، ورماه بالحجارة ، وأنشد :

لـو كنـتَ يـا ذا الخَلَـصِ المـوتُـورا ... لـــم تَنْــهَ عـــن قَتْــل العـــداة زورا

و« أبا أَرْطَأَة » : اسمه : حصين بن ربيعة وهو صحابيٌّ ليس له ذِكْر إلا في هـٰذا الحديث . و« كأنها جملٌ أجرب » : هو كناية عن نزع زينتها ، وإذهاب بهجتها . والمراد : أنها صارت مثل الجمل المطلي بالقطران من جربه ، إشارة إلىٰ أنها صارت سوداء لمَّا وقع فيها من التَّحريق . و« أحمس » : رهط جرير ، وهم الذين دعا لهم ﷺ بالبركة . وفي هـٰذا الحديث الشَّريف فوائد كثيرة منها :

☆ مشروعيَّة إزالة ما يفتتن به النَّاس من بناء وغيره سواء كان إنساناً ، أو حيواناً ، أو جماداً .

☆ استمالة نفوس القوم بتأمير من هو منهم . =

وفي رواية : « فدعا لنا ولأحمسَ » .

من فضَائِلِ جَريرٍ وسـجَايَاه :

* حظي سيِّدنا جريرُ بنُ عبد ٱللهِ البَجَليّ ـ رضي ٱلله عنه ـ بمكانةٍ لائقةٍ عند حبيبنا وشفيعنا محمَّد رسول ٱلله ﷺ ، وهٰذه المكانةُ المتميِّزةُ جعلتْهُ من أعيان الصَّحابة ونبلائهم ؛ يدلُّ علىٰ ذلك ما ورد في فضائلهِ في الصَّحيحين ، وغيرهما من كتب السُّنن والمسانيد والتَّراجم ، وما ينطوي تحت هٰذه العلوم والمعارف ، بالإضافة إلىٰ كتب الأدب والمسامرات والمسايرات والرَّقائق .

* فمن فضائل [1] سيِّدنا جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ما جاء عنه في « الصَّحيحَيْن » قوله : « ما حجبني رسولُ ٱلله ﷺ منذ أسلمتُ ، ولا رآني إلا ضحك » [2] . وفي رواية : « ولا رآني إلا تبسَّم في وجهي » . وفي

= ☆ الاستمالة بالدّعاء والثّناء والبشارة في الفتوح ، واستحباب إرسال البشير بذلك .
☆ فضل ركوب الخيل في الحرب ، وقبول خبر الواحد ، والمبالغة في نِكاية العدو .
☆ ذكر وسَرْد مناقب جرير وقومه ؛ وبركة يد النّبيّ ﷺ ودعاؤه ، وأنّه كان يدعو وتراً ، وقد تجاوز الثّلاث . وٱلله تعالىٰ أعلم .

(١) قال عددٌ من علماء المسلمين رحمهم ٱلله في فضائل الصَّحابة ما خلاصته : « اختلفَ النّاسُ في تفضيل الصَّحابة علىٰ بعض ، والجمهور علىٰ أنَّ أفضلَهم الخلفاء الأربعة علىٰ التَّرتيب المعروف : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ ، ثمَّ تمام العشرة من المبشَّرين بالجنَّة وهم : طلحةُ ، والزُّبيرُ ، وعبد الرَّحمٰن بن عوف ، وأبو عبيدة بن الجرَّاح ، وسعدُ بن أبي وقَّاص ، وسعيدُ بن زيد ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ . ثمَّ أهل بدر ، ثمَّ أُحد ، ثمَّ بيعة الرّضوان ، وممَّن له مزية : أهل العقبتين من الأنصار ، وكذلك السَّابقون الأوَّلون ؛ وهم من صلّىٰ إلىٰ القبلتين » ، وٱلله أعلم .

(٢) أخرجه البخاريُّ في مناقب الأنصار برقم : (٣٨٢٢) ، ومسلمٌ في فضائل الصَّحابة برقم : (٢٤٧٥) ، وابن حِبَّان في « صحيحه » برقم : (٧١٥٦) . ومعنىٰ الحديث : ما منعني ﷺ الدُّخول عليه في وقت من الأوقات . ومعنىٰ =

روايـة : « ولا رآنـي إلا تبسَّـــم » .

* هٰذه الابتساماتُ النَّبويَّةُ ؛ والبشاشةُ المحمَّديَّةُ ؛ لجرير بنِ عبد ٱلله البَجَليّ ـ رضي ٱلله عنه ـ تدلُّ علىٰ المكانةِ والرِّفْعة التي كان يتبوَّأها جريرٌ في الجاهليَّة ؛ ثمَّ اتَّصل ذلك السُّؤدد في الإسلام ، ومن هٰهنا ذكر بعضُ أهل العلْم من سادوا في الجاهليّة والإسلام فقالوا : « إنَّ أربعةً اتَّصل سؤددهم في الجاهليَّة والإسلام : عروةُ بنُ مسعود ، والجارودُ واسمه : بشرُ بنُ المعلَّىٰ ، وجريرُ بنُ عبد ٱلله ، وسراقةُ بن مالك بن جعشم المُدلجيّ »[1] .

* لذلك لمَّا كانت مفاخرة[2] جرير البجليّ مع خالد بن أرطأة الكلبيّ

= « ضحك » : تبسَّم ، وقد فعل ذلك إكراماً ، ولطفاً ، وبشاشة ، وفيه استحباب اللطف للقادم ، وفيه فضيلة ظاهرة لسيّدنا جرير .

(١) « الاشتقـاق » لابـن دريـد (ص : ٣٠٦) ، وانظـر : « البـرصـان والعـرجـان » (ص : ٧٩) وفيه ثلاثة سادوا وأسقط عروة بن مسعود ، وانظر : « المفصَّل في تاريخ العرب » (٤ / ١٥٦) .

(٢) « **مفاخرة** » : المفاخرة : من التَّفاخُر ، وهو التَّعاظُم ، منْ أهم مظاهرِ الحياةِ الاجتماعيّةِ عند أهل الجاهليّة ، وفي المصادر العربيّة والتّراثيّة قصص وأحداث عن تفاخر الجاهليين بعضهم علىٰ بعض ، وتكون المفاخرة بالآباء والأجداد ، وبالسِّيادة والشَّرف ، وبالحسب والنَّسب ، وبالكثرة والعدد ، وكانوا أحياناً يتفاخرون بالأموات ويشيـرون إلـىٰ القبـور ويقـولـون : هـل فيكـم مثـل فـلان وفـلان ؟ فأنزل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر : ١] .

وتقع المفاخرات بحضور محكمين في الغالب ، أو طرف ثالث محترم ، وعلىٰ الطَّرفين قبول الحكَم وإطاعته ، وتكون المفاخرة بإظهار كلّ طرف ما عنده من المناقب والأمجاد التي انفرد بها دون خصمه ، وتكون المفاخرة بكلام منثور ومنظوم ، منسَّق منمّق ، وبعد أن ينتهي المتفاخرون من بيانهم وحُججهم ، يُبدي المحكّمون حكمهم ، وينبغي أن يكون الحكم لبقاً عادلاً لما له من أثر في نفوس المتفاخرين . =

إلىٰ الأقرع بن حابس ، حكم الأقرع لجرير في قصَّة جميلة نوجزها فيما يأتي :

* قال ابنُ الأعرابيّ في نوادره ما حصيلته : « كان جريرُ بنُ عبد ٱلله البجليّ ، تنافرَ هو وخالدُ بنُ أرطأة الكلبيّ إلىٰ الأقرع بن حابس ، وكان عالم العرب في زمانه . . . . .

فقال الأقرع : ما عندك يا خالد ؟

فقال : ننزلُ البراح ، ونطعنُ بالرِّماح ، ونحنُ فتيان الصَّباح .

فقال الأقرع : ما عندك يا جرير ؟

فقال : نحنُ أهل الذَّهب الأصفر ، والأحمر المعتصر ، نُخيفُ ولا نخاف ، ونطعمُ ولا نستطعم ، ونحنُ حيَّ لَقَاح ، نطعم ما هبَّت الرِّياح ، نضمن الدّهر ، ونصوم الشَّهر ، ونحنُ الملوك القسر .

فقال الأقرع : واللات والعزَّىٰ ، لو نافَرْتَ قيصر ملك الرُّوم ، وكسرىٰ عظيم الفرس ، والنُّعمان ملك العرب ، لنفرت عليهم »[1] .

* وظلَّ هـٰذا العزُّ الممدود لسيِّدنا جرير ممدوداً في ظلال الإسلام ،

= ويقال للمفاخرة : المنافرة . والمنافرة : المحاكمة في الحسب . والنِّفار : أن يتنافروا إلىٰ حاكم يحكم بينهم . والنّفورة : الحكومة . ويوم نفوره : يوم حكومه . والمساجلة في معنىٰ المفاخرة . وتساجلوا بمعنىٰ تفاخروا . وتُعرف المفاخرة بالمباهاة أيضاً ، فيقال : تباهوا إذا تفاخروا .

وطالما كانت تؤدّي هـٰذه المفاخرات والمساجلات إلىٰ وقوع حروب وسفك دماء ، ولهـٰذا أبطلها الإسلام ، ونهىٰ عنها ، وعدَّها من شعار الجاهليّة . وللمزيد من هـٰذا الموضوع الشَّائق راجع : « بلوغ الأرب » (١ / ٢٧٨ ـ ٣٠٨) .

(١) « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » للآلوسيّ (١ / ٣٠١ ـ ٣٠٤) ، عني بشرحه وتصحيحه وضبطه : محمّد بهجة الأثريّ ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ لبنان ـ دون تاريخ .

فَلِمكَانتِهِ وسؤددهِ كَلَّفه النَّبيّ الكريم ﷺ أن يستنصتَ النَّاس في حَجَّةِ الوداع ؛ إذ إنَّ الإنصات صفة لازمة للمتعلِّمين .

* جاء خبرُ هـٰذا العزِّ الكريمِ لسيِّدنا جريرٍ في « الصَّحيح » وغيره ، بسند رفعوه إلىٰ أبي زُرْعَةَ بنِ عمرو بن جرير ، عن جدِّه جرير بن عبد ٱلله البَجَليِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال لي النَّبيُّ ﷺ في حَجَّةِ الوَدَاع : « يا جريرُ ! اسْتَنْصِتِ النَّاسَ » . ثمَّ قال : « لا ترجعوا بعدي كفَّاراً يضربُ بعضُكُم رقاب بعض »[1] .

---

(١) أخرجه البخاريّ في العلم برقم : (١٢١) ، وفي مواضع أخرىٰ برقم : (٤٤٠٥ ، و٦٨٦٩ ، و٧٠٨٠) ، ومسلم في الإيمان برقم : (٦٥) ، وأحمد (٧ / ٥٧) برقم : (١٩١٨٨) ، وأخرجه كذلك (٧ / ٧٣ ـ ٧٤) برقم : (١٩٢٧٩ ، ١٩٢٨٠) ، وأخرجه النَّسائي (٧ / ١٢٧ ـ ١٢٨) ، والطَّبرانيّ في « الكبير » (٢ / ٣٣٦ ـ ٣٣٧) برقم : (٢٤٠٢) ، ومصادر أخرىٰ متنوعة .

ومعنىٰ قوله ﷺ : « ترجعوا بعدي كفَّاراً . . . . » قيل : « في معناه سبعة أقوال :

الأوَّل : أنَّ ذلكَ كفْرٌ في حقّ المستحلّ بغير حقّ .

الثَّاني : المرادُ كفرُ النّعمةِ ، وحقّ الإسلام .

الثَّالث : أنَّه يقرّب منَ الكفْر ويؤدّي إليه .

الرَّابع : أنَّه فعل كفعل الكفَّار .

الخامس : المرادُ حقيقةُ الكفْر ، ومعناه : لا تكفروا ، بل دوموا مسلمين .

السَّادس : المراد بالكفَّار : المتكفّرون بالسِّلاح ، يقال : تكفَّر الرَّجل بسلاحه ، إذا لبسه ، قال الأزهريُّ في كتابه : « تهذيب اللغة » : يُقال لِلاَبِسِ السِّلاح : كافر .

السَّابع : لا يكفّر بعضكم بعضاً ، فتستحلّوا قتالَ بعضِكم بعضاً » .

قال الإمام النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما مفاده : « وأظْهَرُ الأقوالِ الرَّابع ؛ وهو اختيار القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ » . وقوله « لا ترجعوا بعدي كفَّاراً » : معناه بعد فراقي من موقفي هـٰذا ، وكان هـٰذا يوم النَّحر بِمِنىٰ في حجَّة الوداع . وقوله « استنصت =

جريرٌ في الرِّحَاب النَّبويَّـة :

* حياةُ سيِّدنا جرير بن عبد ٱلله البجليّ ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ ، حياة علْمٍ وأدبٍ وتربية ، تمدّنا بكثير من الإشراقات التَّربويّة والنَّفسيَّة التي استقاها من الرِّحاب النَّبويَّة ، ومن المحضن المحمّديّ النَّبيل الذي كان ينزلُ النَّاسَ منازلهم .

= النَّاس » : مُرْهم بالإنصات ليسمعوا هـٰذه الأمور المهمَّة ، والقواعد التي سأقررها لكم ، وأحمّلكموها . وقوله « حجَّة الوداع » : سمِّيت بذلك ؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ ودَّع النَّاس فيها ، وعلَّمهم في خطبته فيها أمر دينهم ، وأوصاهم بتبليغ الشَّرع فيها ، إلىٰ مَنْ غاب عنها . وحَجَّة : يجوز فتح الحاء وكسرها . فالفتح : بالقياس ؛ والكسر : بالسَّماع ، وٱلله أعلم .

قال ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلِّقاً علىٰ الحديث بما فائدته : « معنىٰ الحديث : لا تفعلوا فِعْل الكفَّار ، فتشبهوهم في حالةِ قَتْل بعضهم بعضاً » .

وفي الحديث فوائد منها : « أنَّ الإنصات للعلماء لازم للمتعلِّمين ؛ لأنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء . وكان الجمعُ كثيراً يوم حجة الوداع ، ولمَّا خطبَهم ﷺ ليعلِّمهم ناسَبَ أنْ يأمرهم بالإنصات .

هناك فرق بين الإنصات والسُّكوت ؛ فالإنصاتُ هو السُّكوت ، وهو يحصل ممّن يستمعُ وممّن لا يستمعُ ، كأَنْ يكون مفكِّراً في أمرٍ آخر .

والاستماع : قد يكون مع السُّكوت ، وقد يكون مع النُّطق بكلام آخر لا يشتغل النَّاطق به عن فهم ما يقول الذي يستمع منه ؛ وقد قال سفيان الثَّوريّ وغيره : أول العلم : الاستماع ، ثمَّ الإنصات ، ثمَّ الحفظ ، ثمَّ العمل ، ثمَّ النَّشر . وعن الأصمعيّ تقديم الإنصات علىٰ الاستماع . وعن مُطَرّف قال : الإنصات من العينين ؛ فقال له سفيان بن عيينة : ما ندري كيف ذلك ؟

قال : إذا حدثْتَ رجلاً فلم ينظر إليك ، لم يكن منصتاً . وهـٰذا محمول علىٰ الغالب ؛ وٱلله عزَّ وجلَّ أعلم » . « فتح الباري » (١ / ٢٦٢ ـ ٢٦٣) بتصرُّف .

* من ذلك دعوته ﷺ جريراً ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ الشَّهادتَيْن والإيمان ، وتعليمه الفرائض ؛ وهـٰذا ما أخرجه البيهقيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « دلائله » بسنده عن قيسِ بنِ أبي حازم عن جرير بن عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « بعثَ إليَّ رسولُ ٱلله ﷺ فأتيتُه ، فقال : « يا جريرُ ؛ لأي شيءٍ جئْتَ ؟ » .

قلت : جئت لأُسْلِمَ علىٰ يديك يا رسول ٱلله !

قال : فألقىٰ إليَّ كِسَاءً ، ثمَّ أقبلَ علىٰ أصحابه ، ثمَّ قال : « إذا أتاكم كريم قومٍ فأكرموه » ، فقال لي رسولُ ٱلله ﷺ : « يا جريرُ ؛ أدعوك إلىٰ شهادة أنْ لا إلـٰه إلا ٱلله ، وأنِّي رسولُ ٱلله ، وأنْ تؤمنَ بٱلله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشرّه ، وتصلِّي الصَّلاة المكتوبة ، وتؤدّي الزَّكاة المفروضة » .

قال : ففعلت ، فكان بعد ذلك ، لا يراني إلاَّ تبسَّم في وجهي »[1] .

* وفي الرِّحابِ النَّبويَّةِ نلتقي سيِّدنا جريراً ـ رضي ٱلله عنه ـ مبايعاً علىٰ السَّمع والطَّاعة ، والنُّصح للمسلمين ، يقول جريرٌ ـ رضوان ٱلله عليه ـ في هـٰذا الأمر المحبَّب النَّافع : « بايعتُ النَّبيَّ ﷺ علىٰ السَّمع والطَّاعةِ ، والنُّصح للمسلمين » .

---

(١) « دلائل النُّبوَّة » للبيهقيُّ (٥ / ٣٤٧) ، ومعنىٰ قوله : « بعَثَ إليَّ » : أي : أرسل إليَّ أحداً من أصحابه يدعوني فأتيتُه . وقوله « فأكرموه » : لهـٰذا الكلام النَّبويُّ الجميل معنيان :

الأوَّل : أنَّه إذا كان شخصٌ ذا كرامة في قومه بأنْ كان رئيساً وسيِّداً فيهم فأكرموه ؛ فإنَّه إذا لم يكرمه كان له ولقومه ضغن وحقد منه ، ويحصل له الأذىٰ من جهتهم ، هـٰذا إذا كان القوم جهلة ، ولـٰكن ينبغي أنْ يحمل هـٰذا الأمر بالإكرام علىٰ ما إذا لم يحصل له ضرر علىٰ دينه ، فإنَّ تبجيل الكافر كفر . وفي الحديث : « مَنْ وقَّر صاحب بدعةٍ فقد أعان علىٰ هدم الإسلام » .

الثَّاني : ما أخرجه مسلم في « صحيحه » عن أمّنا الصِّدّيقة عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ قالت : « أمرنا النَّبيُّ ﷺ أنْ ننزلَ النَّاس منازلهم » .

* وفي حديث آخر نستمعُ ونستمتعُ بالبيعة الجريريّة المباركة ؛ إذ يقولُ سيِّدنا جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ : « أتيتُ النَّبيَّ ﷺ ، فقلتُ : أبايعكَ علىٰ السَّمع والطَّاعة ، فيما أحببتُ وفيما كرهتُ » .

فقال النَّبيُّ ﷺ : « أتستطيعُ ذلك أو تطيقُ ذلك قل فيما استطعتَ » .

فقلت : فيما استطعتُ ، فَبَايَعَنِي والنَّصْح للمسلمين » .

وفي روايةٍ أخرىٰ قال : « فبايعتُ رسولَ ٱللهِ ﷺ علىٰ السَّمع والطَّاعة ، وأنْ أنصحَ لكلِّ مسلم ، وكان إذا باع الشَّيء أو اشترىٰ قال أما إنَّ الذي أخذنا منك أحبَّ إلينا ممَّا أعطيناك ، فاخترْ » [1] .

* وروي عن سيِّدنا جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ : « أنَّه كان إذا باع رجلاً قال له : إنَّ الذي آخذُ منك أحبَّ إليَّ من الذي أعطيتك ، فقال له بنوهُ : إذا فعلتَ لم ترتفعْ إلىٰ بيع سلعة ، فقال : إنِّي بايعتُ رسولَ ٱللهِ ﷺ علىٰ الإسلام ؛ والنُّصح لكلِّ مسلم » [2] .

* ومن مستطرفات سيِّدنا جرير ومناقبه في هـٰذا المضمار : « أنَّه اشترىٰ له وكيله فرساً بثلاث مئة درهم ، فرآها جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ فتخيَّلَ أنَّها تساوي أربع مئة ، فقال لصاحبها : أتبيعها بأربع مئة ؟ قال : نعم ؛ ثمَّ تخيَّل

---

(١) « شرح حياة الصَّحابة » (١ / ٤٢٤ ـ ٤٢٥) بتصرّف يسير . وقوله « فيما استطعت » : هـٰذا تلقين لهم منه ﷺ ، وهو من كمال شفقته ورأفته بأمته ليقوموا بما يستطيعون .

وجاء عن سيِّدنا جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ أيضاً قال : « بايعتُ رسولَ ٱلله ﷺ علىٰ ما بايعتْ عليه النِّساءُ ، لمن مات منَّا ، ولم يأتِ شيئاً ضمنَ له الجنَّة ؛ ومَنْ مات منَّا وأتىٰ شيئاً منهنَّ ، فأقيم عليه الحدُّ فهو كفَّارته ، ومَنْ مات منَّا وأتىٰ شيئاً منهنَّ فسترَ عليه ، فعلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ حسابه » . « مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٣٥) .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٣٥) .

أنَّها تساوي خمس مئة ، فقال : أتبيعها بخمس مئة ؟ قال : نعم ، ثمَّ تخيَّل أنَّها تساوي ست مئة ، ثمَّ سبع مئة ، ثمَّ ثمان مئة ، فاشتراها بثمان مئة ـ رضي ٱلله عنه ـ » [١] .

* ومن الإشراقات السَّنيّة المتألِّقة التي نجدها في رصيد سيّدنا جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ : أنَّ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ كان يعدّه من أهل البيت ، وناهيك بهٰذا الأمر رفعةً وفخراً وإكراماً لجرير !

* فعن عَيْلم رجال البيت وعالمهم سيِّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ قال : سمعتُ رسولَ ٱلله ﷺ يقول : « لا تسبُّوا جريرَ بنَ عبد ٱلله ، إنَّ جريراً منَّا أهلَ البيت » [٢] .

* وأخرجَ الطَّبرانيّ رَحِمَهُ ٱللهُ عن سيِّدنا عليّ ـ رضوان ٱلله عليه ـ قال : قال رسولُ ٱلله ﷺ : « جريرُ منَّا أهل البيت ، ظهراً لبطن ، ظهراً لبطن ، ظهراً لبطن » [٣] .

* وهاكم هٰذهِ المكرمة الهادية النَّبيلة ؛ التي تفترُّ عن جمان المودَّة النَّبويَّةِ لجرير ، حيث روي عنه أنَّه قال : قال لي رسولُ ٱلله ﷺ : « إنَّكَ امرؤٌ قد حسَّنَ اللهُ خَلْقَكَ ، فحسِّنْ خُلُقَكَ » [٤] .

---

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٤٨) . وهٰذه القصة أخرجها الطَّبراني في « الكبير » برقم : (٢٣٩٥) ، وسكت عنها الحافظ ابن حجر في « فتح الباري » وما سكت عنه الحافظ في « الفتح » يكون عنده صحيحاً أو حسناً ، وٱلله تعالىٰ أعلم .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٣٥) .

(٣) « المعجم الكبير » (٢ / ٢٩١ ـ ٢٩٢) برقم : (٢٢١١) . وقال الذّهبيّ عن الحديث : « هٰذا منكر ، وصوابه من قول عليّ » .

(٤) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٣٤) ؛ نقلاً عن « مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٣٥) .

* وعن عيسىٰ بن يزيد : « كان النَّبيُّ ﷺ يَعْجبُ من عقل جرير وجماله » [1] .

* وظلَّ سيِّدنا جريرٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ وفياً للمودَّة النَّبويَّة ، مخلصاً للإسلام والمسلمين ، وقد اعتزل الفتنةَ بين سيِّدنا عليّ وسيِّدنا معاوية ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، وقد حدَّثنا عن هٰذا الأمر فقال : « بعث عليٌّ إليَّ ابن عبَّاس ، والأشعث ـ وأنا بقرقيسياء ـ فقالا : أمير المؤمنين يقرئك السَّلام ، ويقول : نِعْمَ ما رأيتَ من مفارقتك معاوية ، وإنِّي أُنزلك بمنزلة رسول ٱلله ﷺ التي أنزَلَكَهَا .

فقلت : إنَّ رسولَ ٱلله ﷺ بعثني إلىٰ اليمن أقاتلهم حتَّىٰ يقولوا : لا إلٰه إلا ٱلله ، فإذا قالوا ، حَرُمَتْ دماؤهم وأموالهم ، فلا أقاتل مَنْ يقول : لا إلٰه إلا ٱلله » [2] .

* وكان جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ يأتسي بالنَّبيِّ ﷺ في وضوئه وصلاته ، ففي الصَّحيح عن إبراهيم النَّخعيّ ، عن همام بن الحارث قال : « رأيتُ جريرَ بنَ عبد ٱلله بال ، ثمَّ توضّأ ، ومسح علىٰ خُفَّيه ، ثمَّ قام فصلَّىٰ ، فَسُئِلَ فقال : رأيتُ النَّبيّ ﷺ يصنعُ مثل هٰذا . قال إبراهيم : فكان يعجبهم هٰذا ؛ لأنَّ جريراً كان مِنْ آخر مَنْ أسلم » [3] .

---

(1) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٣٤) .

(2) المصدر السّابق (٢ / ٥٣٦) ، أقول : « إنَّ سيّدنا جريراً ـ رضي ٱلله عنه ـ يدلّ علىٰ ورعه وعلىٰ فقهه وعلمه ، ومعرفته أقدار الصَّحابة الذين سبقوه إلىٰ دوحة الإيمان ، وإلىٰ إلتزامه الهدي النّبويّ ، فرضي ٱلله عنه وعن الصّحابة أجمعين ، وحشرنا في معيتهم » .

(3) أخرجه البخاريّ في الصّلاة برقم : (٣٨٧) ، ومسلم في الطّهارة برقم : (٢٧٢) ، وأبو داود برقم : (١٥٤) ، والنّسائي (١ / ٨١) ، والتّرمذيّ برقم : (٩٣) ، وأخرج هٰذا الحديث ابن عساكر عن إبراهيم النّخعيّ قال : « توضّأ جرير ، ثمَّ مسح=

عُـمَرِيَّاتٌ ماتعَـةٌ في حَيَاةِ جَرير :

* في حياة سيِّدنا جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ صورٌ ثريَّةٌ ماتعةٌ بالعطاء والخير والفائدة ، فقد رزق اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ سيِّدنا جريراً جمالاً وهيئةً حسنةً ، حتَّىٰ وصفَه عبدُ الملك بنُ عُمير بقوله : « رأيتُ جريرَ بنَ عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وكأنَّ وجهه فلقة قمر » [1] .

* وسيِّدنا جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ من أعيان الصَّحابة الذين اشتهروا بجمال الوجْه ، واعتدالِ الجسم ، وهم كُثُر ومنهم : سيِّدنا الحسنُ والحسينُ وأبوهما عليُّ بن أبي طالب ، وسيِّدنا العبَّاس وأولاده ، وسيِّدنا جعفر بن أبي طالب ، وهـٰؤلاء أجمعون من أعيانِ أهلِ البيتِ ورجالهم المرموقين ، ويُضاف إليهم سيِّدنا جرير البجليّ ، ودحية الكلبيّ ، ومصعب بن عمير ، وعثمان بن عثمان المخزوميّ [2] ، وغيرهم ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ .

* وقد مرَّ معنا أنَّ الحبيبَ الأعظمَ حبيبنا رسول ٱلله ﷺ قد شهد لسيِّدنا جرير بالخيريَّة ، وأشار إلىٰ أنَّ علىٰ وجهه مسحة مَلَك ، وهـٰذا يعني أنَّ جمالَه هادىءٌ كجمالِ الملائكةِ الكرام ، وأنَّ جماله ربَّانيُّ الصَّنعة ، فتبارك ٱلله أحسن الخالقين .

= علىٰ خفَّيه ، فقيل له : أتمسحُ علىٰ خفَّيك ؟

قال : ومالي لا أمسح ! وقد رأيتُ رسول ٱلله ﷺ يمسح !

قال إبراهيم : فكان حديث جرير أوثقَ حديثٍ في المسح ؛ لأنَّه أسلم في العام الذي قُبِض فيه رسولُ ٱلله ﷺ بعد نزول سورة المائدة » . « مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٣٤) .

(١) « مختصر تـاريـخ دمشـق » (٦ / ٣٥) ، و« البـدايـة والنِّهـايـة » (٨ / ٥٦) ، و« تهذيب التَّهذيب » (٢ / ٧٣ ـ ٧٤) .

(٢) كان عثمان بن عثمان المخزوميّ لقبه شمّاس لملاحته . « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ١٤٩) .

* وهٰذا الجمالُ الجريريُّ المتألِّقُ الخارقُ صار مادَّةً دسمةً وينبوعاً ثرّاً يغترفُ منه مترجمو حياة سيِّدنا جرير ، ومنهم الإمامُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ اللهُ الذي قال : « كان بديعَ الحسنِ ، كاملَ الجمال » [١] . وقال : « وكان بديعَ الجمال ، مليحَ الصُّورة إلىٰ الغاية ، طويلاً ، يصلُ إلىٰ سنام البعير » [٢] . وقال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ : « وكان حسن الصُّورة » [٣] .

* وهٰذا الوصفُ الجميلُ لسيِّدنا جرير مشتقٌّ من قول سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ : « جريرُ يوسفُ هٰذه الأمَّة » [٤] وذلك لحسنه وجماله .

* وكان لجرير مقامٌ سامقٌ ومكانةٌ عُليا عند فاروق الإسلام سيِّدنا عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ولمَّا سمع قول الشَّاعر في جرير :

لولا جريرٌ هلكَتْ بَجِيْلَة نِعْمَ الفتَىٰ وبئْسَتِ القَبيلة

---

(١) «.سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٣١) ، وقال الأصبهانيّ : « فاقَ النَّاسَ في الجمالِ والقامةِ ، طولُه ستَّةُ أذرع ، وطولُ نَعْلهِ ذراع ، وكان عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ يسمّيه يوسف هٰذه الأمَّة لجماله » . « معرفة الصَّحابة » (١ / ٤٧٨ ـ ٤٧٩) .

(٢) « تاريخ الإسلام » للذّهبيّ (عهد معاوية ، ص : ١٨٦) ، وانظر : « الشُّعور بالعور » (ص : ١٢٥) .

(٣) « أسد الغابة » (١ / ٣٣٣) ترجمة رقم : (٧٣٠) .

(٤) « أسد الغابة » (١ / ٣٣٣) ، و« الاستيعاب » (١ / ٢٣٥) ، و« الإصابة » (١ / ٢٣٤) ؛ وعن جمال سيِّدنا جرير ، ما جاء عن جرير نفسه قال : « رآني عمرُ بنُ الخطَّاب متجرِّداً ، فناداني : خذْ ردَاءَك ، خذْ رداءك . فأخذت ردائي ، ثم أقبلتُ إلىٰ القوم ، فقلت : ماله ؟

قالوا : لمَّا رآك متجرِّداً ، قال : ما أرىٰ أحداً من النَّاس صُوِّر صورة هٰذا إلا ما ذُكر من يوسُف عَلَيْهِ السَّلَامُ » . « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٣٤) .

قال سيِّدنا عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ : « ما مُدِحَ من هُجِيَ قومه »[1] .

* وكانت قبيلةُ بجيلةَ متفرِّقة ، فجمعهم عمر بنُ الخطَّاب ـ رضوان ٱلله عليه ـ ، وجعل عليهم جريراً ؛ إذ كان جرير سيِّد قومه ورئيسهم ورأسهم[2] .

* وهـٰذه الرِّئاسةُ المتميِّزة كانت تعجبُ سيِّدنا عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ لذلك كان عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ يخاطبه بقولهِ : « ما زلتَ شريفاً في الجاهليَّة والإسلام » .

* والحقيقةُ ، فقد كان سيِّدنا جريرٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ سيِّداً لبقاً ، وشريفاً سيِّداً ، وفصيحاً لَسِناً ، وشاعراً وخطيباً ، وهو أحدُ الصَّحابة المشهورين بالبيان والتَّبيين ، يحسنُ المقال ، ويثني علىٰ الرِّجال ، بمقدرة عجيبة ، وبلاغة وجيزة ، وكان له مع الفاروقِ عمر إشراقاتٌ لطيفةٌ ، وجلساتٌ منيفةٌ ، وكلماتٌ خفيفةٌ ؛ ولـٰكنَّها مفيدةٌ طريفةٌ ، تدلُّ علىٰ علمه الدَّافق ، ومحلِّه البارق ، ومجده السَّامق .

* وضع ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللهُ أمام أعيننا فقراتٍ بلاغيّةً ، وجملاً بيانيّة تدلُّ علىٰ بيان سيّدنا جرير وفصاحته وصدقه أمام سيدنا عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فقال : « قدم جريرٌ علىٰ عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ من عند سعد بن أبي وقَّاص ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فقال له : كيفَ تركْتَ سَعْداً في ولايته ؟

فقال : تركتُه أكرمَ النَّاس مقدرةً ، وأحسنهم معذرةً ، وهو لهم كالأمِّ البرَّة ، تجمع لهم كما تجمع الذَّرَّة ، مع أنَّه ميمونُ الأثر ، مرزوق الظَّفر ، أشدّ النَّاس عند البأس ، وأحبّ قريش إلىٰ النَّاس .

---

(١) « الاستيعاب » (١ / ٢٣٥) ، و« التّذكرة الحمدونيّة » (٧ / ٤٤) ، و« الشّعور بالعور » للصّفديّ (ص : ١٢٨) .

(٢) « أسد الغابة » (١ / ٣٣٣) ، و« المفصَّل في تاريخ العرب » (٤ / ٤٤٦) مع الجمع والتَّصرُّف .

قال عمر : فأخبرني عن حال النَّاس .

فقال جرير : هم كسهام الجعبة ، منها القائمُ الرَّائش ، ومنها العضلُ الطَّائش ، وابن أبي وقَّاص يغمزُ عَضِلَها ، ويقيمُ ميلها ، والله أعلم بالسَّرائر يا عمر !

قال : أخبرني عن إسلامهم .

قال جرير : يقيمون الصَّلاة لأوقاتها ، ويؤتون الطَّاعة لِولاتها .

فقال عمر بن الخطَّاب : الحمدُ لله ، إذا كانت الصَّلاةُ أقيمت ؛ والزَّكاة أوتيت ، وإذا كانت الطَّاعة كانت الجماعة »[1] .

* تدلُّ أخبار سيِّدنا جرير مع سيِّدنا عمر علىٰ سيادته ، ومعرفته قَدْرَ نفسه ، ومعرفته الحليف للقبيلة من صميمها ، لذلك لم يقبلْ مرّةً واحدةً أنْ يسودَ قبيلته مَنْ ليس من عُلياها وصميمها ، وهـٰذا ما ذكرتْهُ المصادرُ عنه قالت : « أراد عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ أنْ يؤمِّر عرفجةَ بنَ هرثمة البارقيّ علىٰ بجيلةَ ، ليسيّرهم إلىٰ العراق ، فغضب جريرٌ ـ رضي الله عنه ـ ؛ وقال لبجيلة : كلّموا أميرَ المؤمنين .

فقالوا لعمر ـ رضي الله عنه ـ : استعملْتَ علينا رجلاً ليس منَّا !

فأرسل إلىٰ عرفجةَ ؛ وقال له : ما يقولُ هـٰؤلاء ؟

قال : صدقوا يا أمير المؤمنين ، لستُ منهم ، ولـٰكنِّي من الأزد ، كنَّا أصبنا في الجاهليَّة دماً من قومنا ، فلحقْنا ببجيلةَ ، فبلغْنا فيهم من السُّؤدد ما بلغك .

فقال عمر : فاثبتْ علىٰ منزلتك ، فدافعهم كما يدافعونك .

فقال : لستُ فاعلاً ، ولا سائراً معهم .

---

(١) « الاستيعاب » (١ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧) .

فأمَّـرَ عمرُ جريراً علىٰ بجيلةَ ، وسار معهم إلىٰ العراق . . . . »[1] .

* كان سيِّدنا جريرٌ فَطِناً لبقاً عاقلاً ، وله في مجلسٍ من المجالس العمريَّة وقفةٌ لطيفةٌ تدلُّ علىٰ ذكائِـهِ وحسنِ تدبيره ، ولنستمعْ إليه يروي لنا ذلك فيقول : « تنفَّس رجلٌ ـ أحدث ـ ونحنُ خلفَ عمر بن الخطَّاب نصلِّي ، فلمَّا انصرف قال : أعزمُ علىٰ صاحبها إلا قام فتوضَّأ ، وأعاد الصَّلاة ، فلم يقمْ أحد ، فقلت : يا أمير المؤمنين ! اعزم علينا جميعاً ، فتكون صلاتنا تطوّعاً وصلاته الفريضة ، فقال : عزمت عليَّ وعليكم لمَّا قمنا ؛ فتوضَّأنا ، ثمَّ صَلَّينا » ! ! !

* وفـي حـديـث بمعنـاه أنَّ سيِّـدنـا عمـر ـ رضـي ٱللهُ عنـه ـ قـال لجرير : « يرحمك ٱلله ! نِعْمَ السَّيِّد كنْتَ في الجاهليَّةِ ، ونعم السَّيِّد أنت في الإسلام » . وفي رواية أنَّه قال : « رحمك ٱلله ! إنْ كنتَ لسيّداً في الجاهليّة ، فقيهاً في الإسلام »[2] .

* ولجرير ـ رضي ٱللهُ عنه ـ موقفٌ يقطرُ بصفاء الإيمان ، وصدق العقيدة ، وذلك في الخلافةِ العمريَّةِ ، فقد ذكرت المصادرُ أنَّ عمرَ ـ رضي ٱللهُ عنه ـ قـال لجـريـر بـن عبـد ٱلله البجلـيّ ـ والنَّـاس يتحـامَـوْن العـراق وقتـال الأعاجم ـ : « سِرْ بقومك ، فما غلبْتَ فَلَكَ ربعُهُ ، فلمَّا جُمِعَت الغنائم ، غنائم جلولاء ، ادعىٰ جرير أنَّ له ربع ذلك كلّه ، فكتب سعدٌ إلىٰ عمر بنِ الخطَّاب ، فكتب عمر : صدق جرير ، قد قلت له ذلك ، فإنْ شاء أنْ يكونَ قاتَلَ هو وقومه علىٰ جُعْلٍ فأعطوه جُعْلَه ، وأن يكونَ إنَّما قاتلَ للهِ ولدينه ،

(١) انظر : « أسد الغابة » (١ / ٣٣٣) بتصرّف يسير .

(٢) انظر : « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٣٥) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٣٦) مع الجمع والتَّصرّف . وانظر : « كتاب الأشراف » لابن أبي الدُّنيا (ص : ١٤٠) ، و« التَّذكرة الحمدونيَّة » (٣ / ٥٠٠) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (٢ / ٦٤١) ، و« البداية والنِّهاية » (٨ / ٥٦) ، وغيرها .

وجاهد ، فهو رجلٌ من المسلمين له مالهم ، وعليه ما عليهم ، وكتبَ عمرُ بذلك إلىٰ سعد ، فلمَّا قدمَ الكتابُ علىٰ سعدٍ دعا جريراً ؛ فأخبره ما كتبَ به إليه عمر ، فقال جريرٌ : صدقَ أميرُ المؤمنين ، لا حاجة لي به ، بل أنا رجلٌ من المسلمين ، لي مالهم ، وعليَّ ما عليهم » [١] .

المجاهدُ الفَاتح :

* سيرةُ سيِّدنا جريرٍ الجهاديَّةِ سيرةٌ ماتعةٌ حافلةٌ بألوان المكارم ، فهو من المجاهدين الفاتحين ، وممَّن فتحَ عدَّة مدن وهي : « خانقين ، وحُلوان ، وقرميسين ، وهمذان » ، وهو ممن دوَّخ الفُرس ، وأذاقهم طعمَ الهزائم مرَّات ومرَّات ؛ وكذلك الرُّوم ، أذاقهم الويلات .

* وإنّا لنذكُر أنَّ أوَّلَ أعماله الجهاديَّة كانت في عهد النَّبيِّ ﷺ ؛ إذ أرسله لِهَدْمِ « ذي الخَلصَة » ، فذهب وهدمها وأحرقَها ، وعاد سالماً ، فزوَّدَه ﷺ بالدُّعاء ، ثمَّ أرسلَهُ ﷺ إلىٰ اليمن يقاتلهم ، ويدعوهم إلىٰ الإسلام ، فقد بعثَه النَّبيُّ ﷺ إلىٰ « ذي الكُلاع » ، وإلىٰ « ذي عمرو » يدعوهما إلىٰ الإسلام ، فأسْلَما ، وأسلمت « ضُرَيبة بنت أبرهة » امرأة ذي الكلاع ، وتوفي رسولُ ٱلله ﷺ وجريرٌ عندهم ، فأخبرَهُ ذو عمرو بوفاتهِ ﷺ ، فخرجَ جريرٌ متوجّهاً إلىٰ المدينة المنوَّرة [٢] .

* وصلَ جريرٌ المدينةَ المنوَّرةَ ، والتقىٰ خليفةَ رسولِ ٱلله ﷺ أبا بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وأعطاهُ تقريراً مفصَّلاً عن أهل اليمن ، وعمَّن ارتدَّ منهم عن دِينهِ ، وعمَّن ثبتَ عليه ، فأمره سيّدنا أبو بكر ـ عليه سحائب الرِّضوان ـ أنْ يعود إلىٰ اليمن ليشدَّ أزْرَ الثَّابتين علىٰ الإسلام من بجيلةَ ، ويثبتَ

---

(١) « صفة الصَّفوة » (١ / ٧٤١ ـ ٧٤٢) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٣٦) .

(٢) انظر : « المفصَّل في تاريخ العرب » (٤ / ١٨٢) ، و« زاد المعاد » (١ / ١٢٣) مع الجمع والتّصرّف .

أمامَ المرتدّين الذين جرفهم بعضُ شياطين الإنس ؛ فخرج جريرٌ ونفَّذَ أمر سيِّدنا أبي بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ثمَّ وصل المهاجرُ بنُ أميَّة اليمن من عند سيِّدنا أبي بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فانضمَّ جريرٌ إليه ، وكان بنجران ، فقاتل جريرٌ ومَنْ معه أهل الرِّدَّةِ تحت لواء المهاجر بن أميَّة ؛ وسار مِنْ نَصْرٍ إلىٰ نَصْرٍ حتَّىٰ نزل صنعاء ؛ ونلاحظ أنَّ ثباته علىٰ دينه كان ذا أثرٍ كبيرٍ في رجوع قبيلته بجيلةَ إلىٰ حياض الإسلام ، وقضىٰ جميعهم علىٰ المرتدّين من أهل اليمن .

* ثمَّ إنَّ جريراً صحب سيِّدنا خالد بن الوليد في معاركه في الشَّام ، وبرز اسمُ سيِّدنا جرير في معركة اليرموك ؛ إذ كان من الأبطالِ الميامين الذين انتخبهم سيِّدنا خالد لكي يؤثِّروا علىٰ معنويات الرُّوم قبل معركة اليرموك الفاصلة .

* وقاتل سيِّدنا جريرٌ وقومه أيضاً تحت راية المثنَّىٰ بن حارثة الشَّيبانيّ في بلاد العراق ، فقد قَاوَموا الفُرسَ في معركة البُويب ، وهزموهم بإذن ٱلله ؛ ولمَّا انهزم الفُرسُ ، قام المثنَّىٰ فقال : « مَنْ يتبع النَّاس ؟ »، فقام سيِّدنا جريرٌ في قومه وقال : « يا معشرَ بجيلةَ ! إنَّكم وجميعُ مَنْ شهد هـٰذا اليوم في السَّابقةِ والفضيلةِ والبلاء سواء ، وليس لأحدٍ منهم في هـٰذا الخمس غداً من النَّفل مثل الذي لكم منه ، ولكم ربعُ خمسه نَفْلاً من أمير المؤمنين ، فلا يكوننَّ أحدٌ أسرعَ إلىٰ هـٰذا العدو ، ولا أشدَّ عليه منكم للذي لكم منه ونية إلىٰ ما ترجعون ، فإنَّما تنتظرون إحدىٰ الحسنيين : الشَّهادة والجنَّة ؛ أو الغنيمة والجنَّة » ، فاستجابتْ بجيلةُ لأمرِ سيِّدها جرير لمطاردة الفرس ، فذهبوا وأغاروا حتَّىٰ بلغوا « ساباط » ؛ لا يخافون كيداً ، ولا يلقَوْن مانعاً يمنعهم من التَّقدُّم .

* ومع الرَّاية السَّعديةِ الوقَّاصيَّةِ بالعراق ، قاتلَتْ بجيلةُ تحت راية سعد بن أبي وقَّاص في القادسيَّة ، وكان لسيّدنا جرير ولبجيلة أثرٌ واضح في انتصار المسلمين علىٰ الفرس في هـٰذه المعركةِ الحاسمة ، تكفَّلَت بذكْرها مصادرُ التَّاريخ الإسلاميّ المعتمدة كالطَّبريّ ، وابنِ الأثير وغيرهما .

* وشهد سيِّدنا جريرٌ فَتْح المدائن عاصمة كسرىٰ ، كما شهد معركة

جلولاء ، وهاجم جريرٌ بقوّاته بلدةَ « خانقين » ؛ وكان فيها فلولٌ من الفرس ، فقتل بعضهم ، ولاذَ الباقون بالفرار .

* في هٰذه الأثناء أمدَّ سيِّدنا سعدُ بنُ أبي وقَّاص جريراً بثلاثةِ آلاف مقاتلٍ ، وأمرَهُ أنْ يسيرَ لفتح « حُلوان » فَفَعَلَ وفتحها صُلحاً ، ثمَّ سار إلىٰ « قرميسين » ففتحها صلحاً أيضاً ، وبقي جرير والياً علىٰ حُلوان ، حتَّىٰ جاءه الأمر بأنْ يلحقَ أبا موسىٰ الأشعريَّ في خوزستان ، فغادرها ، وتذكُرُ المصادرُ أنَّ قوماً من ولد سيِّدنا جرير نزلوا حلوان ، وأعقابهم بها .

* وتحت لواء النُّعمان بن مقرّن خاض سيِّدنا جريرٌ معركةَ نهاوند ، وأبلىٰ فيها بلاءً حسناً ، وكان سيِّدنا عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ قد كتب إلىٰ النُّعمانِ بنِ مقرن : « إنْ أُصِبْتَ فالأميرُ حذيفةُ بنُ اليمان ، فإنْ أُصيب فجريرُ بنُ عبد ٱلله البجليّ ، فإنْ أُصيب فالمغيرةُ بنُ شعبةَ ، ثمَّ الأشعثُ بنُ قيس » . وهٰذا التَّنويهُ العمريُّ بجرير يدلُّ علىٰ المكانةِ الرَّفيعة التي تبوَّأها هٰذا الرَّجُلُ الجميلُ النَّبيلُ .

* ولمَّا كان المغيرةُ بنُ شعبة والياً علىٰ الكوفةِ ، أرسل جريراً لفتح « همذان » ، فقاتل أهلها ، وأُصيبَتْ عينُه بِسهم فقال : « احتسبتُها عند ٱلله الذي زيَّن بها وجهي ، ونوَّرَ لي ما شاء ، ثمَّ سَلَبَنيْها في سبيله » ، ثمَّ فتح همذان صُلحاً علىٰ مثل صلح نهاوند ، وغلبَ علىٰ أرضها قَسْراً .

* وهٰكذا نجدُ أنَّ جريراً ـ رضي ٱلله عنه ـ مُجاهداً وفاتحاً لكثير من البلدان ، كما نستقرئُ من سيرته اللطيفة بأنَّه ورثَ السِّيادة ، وكان يقطرُ بالسُّؤدد والقيادة ، لذلك انتدبه الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ لهدم صنم ذي الخَلَصَة واجتثاث الشِّرك من أصوله ، فقام بالمهمَّة أحسنَ قيام ، كما قام الأبطالُ العظامُ بالمهمّة نفسها مثل سيِّدنا : عليّ بن أبي طالب ، وخالد بن الوليد ، والطُّفيل بن عمرو وغيرهم .

* وقد تميَّز سيِّدنا جريرٌ بالإقدام وتحمُّل المسؤوليَّة واتِّخاذ القرار

الحاسم في الأزمات ، فكان النَّصْرُ معقوداً له مصاحباً لجنده لصدقهِ وصدقهم ، وممَّا يزيدُ في رصيده الجهادي أنَّه كان يقاتل لتكون كلمةُ ٱلله هي العُليا ، ولم يقاتلْ لمغنمٍ أو لسمْعَةٍ أو لتحصيل نَفْع ، كما كان يستخدم كلّ جهوده في سبيل نُصْرةِ الدِّين ، وإعلاء شأن المسلمين .

* ترىٰ ماذا بقي لدينا في جعبةِ هـٰذا البطلِ الفاتحِ القائد الفصيح جرير بن عبد ٱلله البجَليّ ؟ هـٰذا ما ستجلوه الفقرة الآتية .

العالِمُ الفقيهُ والمحدِّثُ البليغُ :

* إنَّ المتأمِّل في سيرةِ سيِّدنا جرير بنِ عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنه ـ يجد خلالها الخير كلّه ؛ إذ إنَّ سيِّدنا جريراً لم تَطُلْ أيَّام صحبته مع النَّبيِّ ﷺ ، ومع ذلك فهو يُعَدُّ من علماء الصَّحابة وأعيانهم ومحدّثيهم .

* روي لجريرٍ عن رسول ٱلله ﷺ مئة حديث ، اتَّفق له الشَّيخان البخاري ومسلم علىٰ ثمانيةِ أحاديث ، وانفرد البخاريُّ بحديثَيْن ، ومسلم بستة [1] ، كما روىٰ عن عمرو بن معاوية ـ رضي ٱلله عنهما ـ .

* حدَّثَ عنه من علماء الصَّحابة سيِّدنا أنس بن مالك [2] ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وروىٰ عنه من أهلِ بيته أولاده الأربعة وهم : المنذر ، وعُبيد ٱلله ، وأيوب ، وإبراهيم ، وكذلك حفيده : أبو زرعة بن عمرو بن جرير ، وروىٰ عنه جماعة من أعيان علماء التَّابعين ومنهم : الشَّعبيُّ ، وقيسُ بنُ أبي حازم ،

---

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٤٧) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٣١) ، و« تهـذيـب التَّهـذيـب » (٢ / ٧٣) ، و« أسـد الغـابـة » (١ / ٣٣٤) ، و« الاستيعاب » (١ / ٢٣٧) مع الجمع بينها .

(٢) اقرأ سيرة خادم رسول ٱلله ﷺ أنس بن مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ في الباب الثَّاني من موسوعتنا : « علماء الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ » (ص : ٣٨١ ـ ٤٤٠) فسيرته إمتاع للأسماع .

وأبو إسحاق السَّبيعيّ وغيرهم [1] .

* وأحاديث سيِّدنا جرير شملت معظمَ أبواب الفِقْه ، والعلم ، ففي البخاريّ وحده نجدُ صنوفَ المعرفةِ المتنوّعة لروايةِ جريرٍ ومن تلك الأبواب : التَّوحيدُ ، والدَّعواتُ ، والعلْمُ ، والدّياتُ ، والإيمانُ ، ومواقيتُ الصَّلاةِ ، والمغازي ، والجهادُ والسّير ، والأدبُ ، والصَّلاةُ ، والزَّكاةُ ، والأحكامُ ، والشُّروطُ ، والبيوعُ ، والمناقبُ ، والتَّفسيرُ .

* وقد أخرجَ له الإمامُ أحمد في « مسندِهِ » (١٠٩) أحاديث ، شملت أيضاً معظمَ أبواب العلْم ، وكذلك أخرجَ له الطَّبرانيُّ في « الكبير » (٢٠٧) أحاديث بالمكَرَّر شملت غالب أبواب العِلْم .

* ومن مرويَّاته عند البخاريّ ما أخرجه عنه قال : قال رسولُ ٱلله ﷺ : « لا يرحمُ اللهُ مَنْ لا يرحم النَّاس » [2] .

* ومن مرويّاته في « الصَّحيح » أيضاً ما أخرجه البخاريُّ بسنده عن قيس بن أبي حازم ، عن جرير قال : « كنَّا جلوساً عند النَّبيِّ ﷺ ؛ إذ نظرَ إلىٰ القمر ليلةَ البدر ، قال : « إنّكم سترون ربَّكم ، كما ترون هٰذا القمر ، لا تضامّون في رؤيته ، فإنْ استطعتم ألاَّ تغلبوا علىٰ صلاةٍ قبل طُلوع الشَّمس ، وصلاة قبل غروب الشَّمس ، فافعلوا » [3] .

* ولسيِّدنا جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ مرويّاتٌ تدلُّ علىٰ علمهِ وفقههِ ، ومحبَّته للإسلام ونبيّ الإسلام ﷺ ، كما تدلُّ علىٰ بلاغتهِ وفصاحتهِ وجَوْدَةِ

---

(١) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٣١) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٤٧) وغيرها .

(٢) أخرجه البخاريّ برقم : (٧٣٧٦) .

(٣) أخرجه البخاريّ في التّوحيد برقم : (٧٤٣٤) . وقوله « لا تضامون » : ترونه في جهاتكم كلها .

حفظه ، وتدلُّ كذلك علىٰ اتباعه السُّنَّة الغرَّاء ، ومن هٰذه المرويَّات العبقة بفرائد الفوائد ، ما أخرجَهُ مسلمٌ وغيره عن جريرٍ في الحثِّ علىٰ الصَّدقة ، والابتداء بالخيرات ، والتَّحذير من اختراع الأباطيل .

* أخرج مسلمٌ والطَّبراني بسندٍ رفعاه إلىٰ المنذرِ بنِ جرير ، عن أبيه ، قال : « كنَّا عند رسولِ ٱلله ﷺ في صدر النَّهار ، فجاءه قومٌ حُفاةٌ ، عُراةٌ ، مُجْتَابي النِّمار ، أو العَبَاء ، متقلّدي السُّيوف ، عامّتهم من مُضَر ، بل كلُّهم من مضر ، فتمعَّرَ وجْهُ رسولِ ٱلله ﷺ لِمَا رأىٰ بهم من الفَاقَةِ ، فدخل ثمَّ خَرجَ ، فأمر بلالاً فأذَّن وأقام ، فصلَّىٰ ثمَّ خطبَ ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ إلىٰ آخر الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النِّساء : ١] ، والآية التي في الحشر : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ [الحشر : ١٨] ، تصدَّقَ رجلٌ مِنْ ديناره ، مِنْ درهمه ، مِنْ ثوبه ، مِنْ صاعِ بُـرّه ، منْ صاعِ تمره ـ حتَّىٰ قال ـ ولو بشقّ تمرة » . فجاء رجلٌ من الأنصار بصرّة كادت كفُّه تعجزُ عنها ، بل قد عجزت ، ثمَّ تتابعَ النَّاسُ ، حتَّىٰ رأيتُ كومَيْن من طعامٍ وثياب ، حتَّىٰ رأيتُ وجْهَ رسولِ ٱلله ﷺ يتهللُ كأنَّه مُذْهَبَةٌ ، فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « مَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً حسَنَةً ، فَلَهُ أجرها ، وأجْرُ مَنْ عمل بها بعده ، من غير أنْ ينقصَ من أجورهم شيء ، ومَنْ سَنَّ في الإسلام سُنَّةً سيئةً ، كان عليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها مِنْ بعده ، من غير أنْ ينقصَ من أوزارهم شيء »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم في الزَّكاة برقم : (١٠١٧) ، واللفظ له ، والطَّبرانيّ في « الكبير » بـرقـم (٢٣٧٢ ، و٢٣٧٣ ، و٢٣٧٤ ، و٢٣٧٥) ، وأحمـد (٥ / ٥٨ ـ ٥٩) برقم : (٩١٩٥) ، ومواضع أخرىٰ من « المسند » .

وقوله « صدر النَّهار » : أوَّله . و« عراة » : جمع عار ، مَنْ جاء يطلب المعـروف . و« مُجتـابـي النِّمـار » : مُجتـاب : اسـم مفعـول مـن اجتـاب ، والمعنىٰ : خرقوها وقوّروا وسَطها . و« النِّمار » : جمعٌ مفردُهُ : نَمِرة ، وهي ثيابٌ=

* ومرويَّات سيِّدنا جرير ـ رضي ٱلله عنه ـ منثورةٌ في كتب الحديث ، صحيحها ، وسُننها ، ومسانيدها ، ومعاجمها ، ويمكنُ الرّجوع إليها بسهولةٍ لنستشف من خلالها أنَّ سيِّدنا جريراً كان محدّثاً عالماً فقيهاً أخباريّاً مفسِّراً ، بل عدَّهُ عُلماء الإسلام وفقهاؤهم من أهل الفُتيا البارزين الذين تُؤْخذ عنهم الفتوىٰ في أمور الدِّين والفِقْه .

= صوفٍ يلبسُها الأعراب فيها تنمير . و« العَبَاء » : جمع عباءة وعباية لغتان . و« تمعَّر » : تغيَّر لون وجهه الشَّريف شفقة عليهم . و« الفاقة » : الفَقْر وشدة الحاجة ، وليس له فعل من لفظه ، بل يقال : افتاقَ الرَّجلُ : إذا افتقر فهو مفتاق ، ولا يقال : فَاقَ . و« فصلىٰ ثمَّ خطب » : فيه استحباب جمع النَّاس للأمور المهمَّة ، ووعْظِهم وحثّهم علىٰ مصالحهم ، وتحذيرهم من القبائح . و ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ الآية . . . . : سبب قراءتها ، أنَّها أبلغُ في الحثِّ علىٰ الصَّدقة عليهم ، ولما فيها من تأكيد الحقّ لكونهم إخوة . و« من ديناره ، من درهمه . . . . » : أي : من دنانيره ، من دراهمه ؛ لأنَّ المفردَ المضاف إلىٰ المعرفة يعمّ . و« الصّرّة » : شيء يجمع فيه الدَّراهم والدَّنانير . و« كومَيْن » : الكومُ : العظيمُ من كلِّ شيء ؛ والمكانُ المرتفع كالرَّابية ؛ والمقصودُ هـٰهنا الكثرة ، والتَّشبيهُ بالرَّابية . و« يتهلل » : يستنير فرحاً وسروراً ؛ لأنَّ أصحابه بادروا إلىٰ مساعدة هـٰؤلاء المحتاجين من مُضَر . و« مذهبة » : كأنَّه فضَّة مموَّهة بالذَّهب ؛ إذ علَتْ بياض وجهه الشَّريف ﷺ حمرة المسرَّة . و« السُّنَّة » : السِّيرةُ والطَّريقة حسنة كانت أو قبيحة ، والسُّنَّة في الاصطلاح الشَّرعيّ : ما أُثِر عن النَّبيِّ ﷺ من قول ، أو فعل ، أو تقرير . و« فله أجرها » : فيه الحثّ علىٰ الابتداء بالخيرات ، وسنّ السُّنن الحسنات ، والتَّحذير من اختراع الأباطيل والمستقبحات ، وسبب هـٰذا الكلام في هـٰذا الحديث : أنَّه قال في أوله : فجاء رجل بِصُرَّةٍ كادت كفّه تعجز عنها ، فتتابع النَّاس ، وكان الفضلُ للبادي في هـٰذا الخير ، والفاتح لبابِ هـٰذا الإحسان . وفي هـٰذا الحديث تخصيص قوله ﷺ : « كلُّ محدثة بدعة ، وكلُّ بدعة ضلالة » وأنَّ المرادَ به : المحدثات الباطلة ، والبدع المذمومة . والبِدَعُ خمسة أقسام : واجبة ، ومندوبة ، ومحرمة ، ومكروهة ، ومباحة . وٱلله تعالىٰ أعلم .

* يضاف إلىٰ ذلك أنَّه كان لسيِّدنا جريرٌ كلماتٌ خلَّابة جذَّابة تجري مجرىٰ الحكمة ومنها قوله : « الخرسُ خيرٌ من الخلابةِ ، والبكْمُ خيرٌ من البَذَاء »[1] .

* وتذكرُ سيرة سيِّدنا جريرٍ أنَّه كان معتزلاً الفتنة بين سيِّدنا علي ومعاوية ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، وكان رسولُ عليٍّ إلىٰ معاويةَ في قصَّةٍ طويلةٍ أوردها ابن عساكر[2] ، ولٰكنَّه ظلَّ معتزلاً بالجزيرة ونواحيها ، حتَّىٰ توفي بالسَّراة سنة (٥١ هـ) وقيل : (٥٤ هـ)[3] ، ويعدُّ جرير من سكَّان الكوفة ، وله بها دارٌ مشهورة ، فرضي ٱلله عن الصَّحابي الجليل ، والرَّجل النَّبيل ، والفارس الفاتح الجميل ؛ جرير بن عبد ٱلله ، وغفر لنا وإياه .

✍ ✍ ✍

---

(١) « الاستيعاب » (١ / ٢٣٧) .

(٢) انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٢٧ ـ ٣٠) . وانظر : « البداية والنِّهاية » (٧ / ٢٥٣ وما بعدها) .

(٣) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٣٦) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٦ / ٣٧) ، و« تهذيب التَّهذيب » (٢ / ٧٤) ، و« البداية والنِّهاية » (٨ / ٥٦) .



خبَّـابُ بـنُ الأرتِّ

رضي ٱلله عنه

* مـن نُجبـاء السَّـابقيـن ؛ كـان يُقـال لـه : سُـدس الإسـلام .
* تعـذَّبَ فصبـرَ ، وكـان لـه مكـانـةٌ جليلـةٌ عنـد النَّبـيِّ ﷺ .
* معلِّمٌ نبيل ، ومجاهدٌ جليل ، مات بالكوفة عام (٣٧ هـ) .



خَبَّابُ بنُ الأَرَتِّ
رضي ٱلله عنه

سُدْسُ الإسلام :

* من نجباء السَّابقين ، وممَّنْ كانوا بالحقِّ مُستمسكين ، عرفَ الإسلام مذْ هَبَّ طِيْبُ عَرْفه أوَّل ما هبَّ في البلد الأمين ، وانتظم في سلْكِ الأوَّلين ، وكان أحد ستَّة أظهروا إسلامهم ، حتَّىٰ كان يُقَال له : سُدْس الإسلام .

* قال مجاهد : « أوَّلُ مَنْ أظهر إسلامه : رسولُ ٱلله ﷺ ، وأبو بكر ، وخبَّابٌ ، وبلالٌ ، وصُهيبٌ ، وعمَّارٌ »[1] .

* وسُدْسُ الإسلام هٰذا هو الصَّحابيُّ الجليلُ خبَّابُ بنُ الأرتِّ بن جندلة التَّميميّ أو الخزاعيّ ، أبو يحيىٰ ، ويُقال : أبو عبد ٱلله[2] ؛ وهو عربيٌّ لحقه

---

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٧٤) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٣٢٤) ، و« تفسير القرطبيّ » (١٠ / ١٨١) ، و« معرفة الصَّحابة » (٢ / ١٦٩) .

(٢) « مسند أبي يعلىٰ » (ص : ١٣١٢) طبعة دار المعرفة الأولىٰ ببيروت عام ٢٠٠٥ م ، و« المستدرك » (٣ / ٤٢٩ ـ ٤٣٢) ، و« المعجم الكبير » (٤ / ٥٤ ـ ٨١) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٣٢٣ ـ ٣٢٥) ، و« طبقات ابن سعد » (٣ / ١٦٤ ـ ١٦٧) ، و« أسد الغابة » (١ / ٥٩١ ـ ٥٩٤) ترجمة رقم : (١٤٠٧) ، و« تاريخ الإسلام » للذَّهبيِّ (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ٥٦٠ ـ ٥٦٤) ، و« البداية والنِّهاية » (٧ / ٣١٠ ـ ٣١١) ، و« درّ السَّحابة » (ص : ٣٦٨) وغيرها كثير .

سباءٌ في الجاهليَّة ، فبِيْع بمكَّة ، فهو تميميُّ النَّسب ، خزاعيُّ الولاء ، زهريُّ الحِلْف .

* كان خبَّابٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ من المهاجرين الأوَّلين ، وممَّن تعذَّبَ في ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وكان سادس ستَّة في الإسلام ، وأسلم قبل أنْ يدخُلَ رسولُ ٱلله ﷺ دار الأرقمِ بنِ أبي الأرقم المخزوميّ [1] ، وقبل أنْ يدعوَ فيها .

* ذكر ابنُ سعد بسند عن عروةَ بنِ الزُّبير قال : « كان خبَّابُ بنُ الأرتِّ من المستضعفين الذين يُعذَّبون بمكَّة ليرجعَ عن دينه » [2] .

* وذكروا أنَّ خبَّاباً ـ رضوان ٱلله عليه ـ كان من أعلام الصَّحابة الصَّابرين ؛ الذين ثبتوا أمام عذاب المشركين ، وصبروا علىٰ ظلمهم وقسوةِ قلوبهم التي لا تلين ، ولم يعطهم ما سألوه ، فجعلُوا يلزقون ظهرَهُ بالحجارة المُحمَّاة ، وبأسياخ الحديد المُلتهبة ؛ حتَّىٰ ذهب لحمُ ظهره ، وتركوا علىٰ جسده آثاراً تشهدُ علىٰ غِلْظَتهم ووحشيتهم .

* وأوردت المصادرُ أنَّ سيِّدنا خبَّاباً دخل ذات مرَّةٍ علىٰ سيِّدنا عمرَ بنِ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فجعل يُريه آثاراً في ظهره ممَّا عذَّبه المشركون .

* وروىٰ الإمامُ الشَّعبيُّ التَّابعيُّ الجليلُ رَحِمَهُ ٱللهُ قصَّةً تزيدُ من رصيدِ سيِّدنا خبَّاب بن الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ومفاد هـٰذه القصَّة ومحصّلها : « أنَّ سيِّدنا خبَّاباً ـ رضوان ٱلله عليه ـ دخلَ علىٰ سيِّدنا عمرَ بنِ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ وعنده جماعة من أصحابه ، فأدنىٰ منه خبَّاباً ، وأجلَسَهُ علىٰ مُتّكئه وأكرمَ

---

(١) اقرأ سيرة الأرقمِ بن أبي الأرقم المخزوميّ في الباب الأوَّل من موسوعتنا : « فرسان من عصْر النُّبوَّة » (ص : ٣١٦ ـ ٣٢٧) ، ففي سيرته فوائد تُستجلىٰ ؛ ومحاسن تُستحلىٰ ؛ بإذن ٱلله تعالىٰ .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٦٥) ، وقال الأصبهاني : « خباب بن الأرت بدريّ مهاجري أوّليّ ، سادس الإسلام ، من السَّابقين الأوّلين ، يكنىٰ : أبا عبد ٱلله ، وكان من المعذّبين في ٱلله » . « معرفة الصَّحابة » (٢ / ١٦٩) .

مثواه ، وقال : ما علىٰ وجْهِ الأرض أحدٌ أحقّ بهـٰذا المجلس إلا رجلٌ واحدٌ من أصحاب رسول ٱلله ﷺ ، من أهل السَّبْق والإيمان فقال له خبَّاباً متعجّباً : مَنْ هو يا أميرَ المؤمنين ؟

قال سيِّدنا عمر : بلالُ بنُ رَبَاح .

فقال له خبَّابٌ : يا أميرَ المؤمنين ! ما هو بأحقَّ منِّي ، إنَّ بلالاً كان له في المشركين مَنْ يمنعُه ٱلله به ، ولم يكن لي أحدٌ يمنعني ، فلقد رأيتني يوماً أخذوني ، وأوقدوا لي ناراً ثمَّ سلقوني فيها ، ثم إنَّ رجلاً من المشركين وضع رِجْلَه علىٰ صدري ، فما اتَّقيتُ الأرضَ إلا بظهري .

ثم إنَّ خباباً كشفَ عن ظهره ، فإذا هو قد برص »[(١)] .

* وهـٰذه القصَّةُ تتوافقُ مع ما ذكره أئمةُ السِّيرة النَّبويّة وكاتبو التَّراجم ، بأنَّ أبا بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ ، قد منعه قومه ، وأمَّا خبَّاب وصحبه من المستضعفين ، فكان المشركون يعذّبونهم .

شذَراتٌ منْ حيَاة خَبَّاب :

* كان خَبَّابٌ في بدايةِ حياته يعملُ بصناعة السّيوف في الجاهليَّة ، وهي حرفةٌ تحتاجُ إلىٰ كثير من المهَارة ، وتدرُّ علىٰ صاحبها مالاً كثيراً . ولـٰكنَّ خبَّاباً لم يمكثْ في قومه بني تميم حتَّىٰ يشتدَّ عودُهُ ، ويتذوَّقَ جمالَ الشَّباب وينعم بالحرية ، وإنَّما ذاقَ مرارة العبوديَّة والرِّق والذُّلّ ؛ إذ وقع في السَّبيّ وبِيعَ بَيْعَ العبيد في مكَّةَ المكرَّمة ، واشترته أمُّ أنمار الخزاعيَّة ، فقضىٰ شطراً من حياته يعيشُ حياة الرَّقيق ، وهو مسلوبُ الحريَّة الجسديَّة ، ولـٰكنَّهم لم يستطيعوا أنْ يسلُبُوا عقْلَه وفطْنَتَه وصفَاءَه وحرّيته الفكريّة .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٦٥) بشيء من التَّصرُّف اليسير ؛ وانظر : « البداية والنِّهاية » (٧ / ٣٧) ، وقال الإمامُ الشَّعبيُّ أيضاً : « إنَّ خبَّاباً صبرَ ، ولم يُعْطِ الكفَّارَ ما سألوا فجعلُوا يلزقُون ظَهرَهُ بالرَّضف ، حتَّىٰ ذهبَ لحمُ متنه ـ ظهره ـ » . « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٧٤) ، و« أسد الغابة » (١ / ٥٩١) .

* كان سيِّدنا خبَّابُ بنُ الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ ممَّن اختصَّهم ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ برحمته ، فوهَبَهُ عقلاً متفتِّحاً ، وقلباً واعياً ، وحصافةً متميزةً ، ولمَّا بزغت شمسُ الرِّسالة المحمَّديَّة تضيء الدُّنيا كلّها ، أسرعَ خبَّاب ليخرج من ظلام الجاهليَّة ، ويعيش في نور الإسلام ، ويغدو ممَّن يعبدُ ربَّ الأنام ، ويترك عبادة الأوثان والأصنام .

* اشتُهر خبَّابٌ بمكَّة بحُسْنِ صناعةِ السّيوف ، فكان يعملُ في دكَّان من دكاكين مكَّة ، ولم يلبثْ مدَّةً من الزَّمن حتَّىٰ عرفه الغادي والرَّائح ، والكبراء والعامة ، وأحبَّه كلّ من كان يشتري منه السّيوف ، لمَّا كان عليه من الإتقان في عمله ؛ والصِّدق في معاملته ، والوضوح والصَّراحة في قوله وفعله .

* ولهٰذا لمَّا بدأ الخيطُ الأبيضُ من نور الإسلام يظهر واضحاً ، وتتلاشىٰ من أمامه أكداس الظَّلام ، تمسَّك بهٰذا الخيطِ العظيم حتَّىٰ وصل إلىٰ منبعِ النُّور ومطلعه ، والتقىٰ الهادي البشير ﷺ ، وسرعان ما نفذ النُّور إلىٰ قلبه ، فمدَّ يده وبايعَ الصَّادق المصدوقَ ﷺ بيعة النَّجاة ونطق بها مِنْ أعماق روحه ، وحناياه تردِّد معه وجوارحه تقول : « أشهد أنْ لا إلٰهَ إلا ٱلله ، وأنَّ محمَّداً رسول ٱلله » .

* وسرعان ما أضاءت هٰذه الشَّهادةُ روحَه ونفسَه وكيانه ، فاصطبغَ بصبغة الإسلام ، وصارت حركاتُه وسكناتُه تعملُ بمضمون : « لا إلٰه إلا ٱلله محمَّد رسول ٱلله » .

* لم تَخْفَ هٰذه الظَّاهرةُ اللطيفةُ المنيفةُ علىٰ أحدٍ ممّن كان حول خبَّاب ، وخصوصاً مولاته أمّ أنمار التي ارتابت من الإشراقات التي لاحظَتْها علىٰ خَبَّاب ، وكان قد بلغها أنَّه ودَّعَ أصنامها وأوثان قريش وداعاً أبديّاً غير مأسوف عليه ، ولمَّا سألت خبَّاباً عن حقيقة ما بلغها لم يكتمْ أمره ، وإنَّما قال لها بلسان عربي مبين : « يا سيِّدتاه ! لقد آمنتُ بٱلله ربّاً ، وبمحمَّدٍ رسولاً ، ورضيتُ الإسلام ديناً » .

* شرقَتْ سيِّدته بكلماته ؛ كاد يغشىٰ عليها ممَّا سمعته من ألفاظ التَّوحيد ، وطارت نفسُها شعاعاً ، وانهالت عليه تلكمُهُ وتضربُهُ وتشتُمهُ شتماً قبيحاً ؛ ثمَّ إنَّها أعلمَتْ أخاها سباع بن عبد العزَّىٰ ، وكان سيئاً شرسَ الخُلُق ، فكان يتفنَّنُ في تعذيب خبَّاب ، ويرهقُه ، ويسبُّه ، ويَعْمَدُ إلىٰ الحجارة المحمَّاة فيلصقُ ظهرَهُ بها ، ويتركُ الحديدَ المحمّىٰ علىٰ جسمه دون أنْ يستطيعَ أنْ يقومَ ، وكانوا يأخذون بِشَعْرِ رأسه فيجذبونه جذباً شديداً ، ويلوون عنقه تلويةً عنيفةً تكادُ روحه تزهقُ منها .

* كانت أمُّ أنمار تبدعُ في تعذيب فتاها خبَّاب بن الأرتِّ ، وكانت شديدة الحقد علىٰ النَّبيِّ ﷺ الذي أخرج فتاها خبّاباً من الظُّلمات إلىٰ النُّور ، فقد كان رسولُ ٱلله ﷺ يألفُ خبَّاباً ويأتيه في دكانه ، وزاد من غيظ هـٰذه المرأة الحاقدة أنَّها رأتْ رسولَ ٱلله ﷺ يمرُّ بدكَّانِ خبَّاب ، ويحادثُهُ ، وخبَّابٌ يُكلِّمه باحترام وتوقير ، ويَعي الكلماتِ المحمَّديَّة ، فطار صوابُها ، وثارتْ ثائرتُها ، وأقسمتْ باللات والعزَّىٰ ، ومناة الثَّالثة الأخرىٰ ، لتذيقنَّ خبَّاباً مرارةَ العذاب وقسوته ، فكانت تأتي بالحديدة المحميَّة من الموقد ، وتضعُها علىٰ رأسه حتَّىٰ يدخّنَ ، ويغمىٰ عليه ، ويفقد صوابه ، ولـٰكنَّه لم تَلِنْ له قناة ، ولم يواتها علىٰ ما تشتهيه من ردِّهِ إلىٰ غياهب الشِّرك وظلماته ، بل كان يدعو عليها ، فاستجابَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ دعاءه ، فأصيبتْ بصداعٍ أرَّقَها وأزعجَ مَنْ حولها ، حتَّىٰ نصحَ لهم الأطباءُ وأهل الخبرة أنَّه لا شفاء لها من آلامها ومرضها ، إلا إذا كُويَتْ بالحديد المحمي في النَّار ، فكان عذابها مضاعفاً ؛ إذ كانت تتلقّىٰ آلام الصُّداع ، وحرارة الكيّ وشدَّته ، وبهـٰذا استُجيبتْ دعوة خبَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ في مولاته الظَّلوم ، وذاقت حرَّ العذاب الذي كانت تذيقه لفتاها المؤمن المستسلم للحيّ القيّوم[1] .

---

(١) لخَّص ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ هـٰذه الحادثة فقال : « كان خبّاب قيناً يَطْبَعُ ـ يصنع ـ السُّيوف ، وكان رسولُ ٱلله ﷺ يألفُه ويأتيهِ ، فأُخبرت مولاتُه بذلك ، فكانت تأخذُ=

* أخذ المشركون يعذِّبون خبَّاباً ومَنْ آمَنَ مِنَ المُستضعفين ؛ حتَّىٰ عيل صبْرالكفَرة من ثباتِ هٰؤلاء المؤمنين ؛ الذين هانتْ عليهم نفوسُهم في سبيل الله ربّ العالمين ، وفي سبيل نُصْرةِ رسوله المبعوث رحمةً للعالمين .

* وذات يوم اشتدَّ عذابُ المشركين لخبَّاب وصحبه من الفتْيَةِ الذين آمنوا بربِّهم وزادهم هدًى ، فذهبَ خبَّابُ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ وطلب منه الدُّعاء علىٰ الكفَّار الذين اعتدوا عليهم ظُلماً وعدواناً ، فوجَّهَه ﷺ توجيهاً لطيفاً إلىٰ الصَّبر ؛ إذ إنَّ عاقبةَ ذلك النَّصر ، وجزيل الأجر .

* نقل سيِّدنا خبَّاب صورةً من صُور التَّوجيهات النَّبويَّة للمستضعفين بأنْ يصبروا ويثبتوا ولا يستعجلوا . فقد أخرج البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن قَيْسِ بنِ أبي حازم ، عن خبَّاب بن الأرتِّ قال : « شكونا إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ وهو متوسِّدٌ بردةً له في ظلِّ الكعبة ، فقلنا : ألا تستنصرُ لنا ، ألا تدعو لنا ؟

فقال : « قد كان من قبلكم يُؤْخَذُ الرَّجل ، فَيُحْفَرُ له في الأرض ، فَيُجْعَلُ فيها ، فَيُجاءُ بالمنشار ، فيوضع علىٰ رأسه ، فَيُجْعَلُ نصفَيْن ، ويمشط بأمشاط الحديد من دون لحمهِ وعظمهِ ، فما يصدُّه ذلك عن دينه ، واللهِ ليتمنَّ هٰذا الأمر حتَّىٰ يسيرَ الرَّاكبُ من صنعاء إلىٰ حضرموت ، لا يخاف إلا ٱلله ، والذِّئب علىٰ غنمه ، ولٰكنَّكم تستعجلون »[١] .

= الحديدةَ المحمَّاة ، فتضعُها علىٰ رأسه ، فشَكَا ذلك إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ ، فقال : « اللهمَّ انْصُرْ خبَّاباً » ، فاشتكتْ مولاتُه أمُّ أنمار رأسَها ، فكانت تعوي مثلَ الكلاب ، فقيل لها : اكتوي ؛ فكان خبَّابٌ يأخذ الحديدةَ المحمَّاة ، فيكوي بها رأسَها » . « أسد الغابة » (١ / ٥٩٢) .

(١) أخرجه البخاريُّ في الإكراه برقم : (٦٩٤٣) ، وأخرجه الطَّبرانيّ كذلك في « الكبير » (٤ / ٦٥) برقم : (٣٦٤٦) ، وأبو يعلىٰ في « مسنده » (ص : ١٣١٢) برقم (٧٢٠٩) .

وروىٰ ما يشبه هٰذا التَّابعيُّ الجليلُ سعيدُ بنُ جُبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال : « قلتُ =

* وهاكم صورة للْحَدَثِ ذاته ، ولٰكن بنَفَسٍ خَبَّابيٍّ آخر ، ساقه الحاكمُ في « مستدركه » بسنده عن قيس بن أبي حازم أيضاً ، عن سيِّدنا خبَّاب بن الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « أتيتُ رسولَ ٱلله ﷺ وهو مضطجعٌ تحت شجرة ، واضعٌ يده تحت رأسه ، فقلتُ : يا رسولَ ٱلله ! ألا تدعو ٱلله علىٰ هٰؤلاء القوم الذين قد خشينا أن يردّونا عن ديننا ؟ ! فصرفَ عنِّي وجهه ثلاث مرَّات ، كلّ ذلك أقولُ له ، فيصرف وجهه عنِّي ، فجلس في الثَّالثة ، فقال : « أيُّها النَّاس ! اتَّقوا ٱلله ، واصبروا ، فوالله إن كان الرَّجل من المؤمنين قبلكم ليوضع المنشارُ علىٰ رأسه ، فيشقّ باثنتَيْن ، وما يرتدُّ عن دينه ، اتّقوا اللهَ ؛ فإنَّ ٱلله فاتحٌ لكم وصانع » [(١)] .

* ساق ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « البداية والنِّهاية » روايةً ذات فائدة كبرىٰ عن صَبْر خبَّاب وجماعة المستضعفين ، وكشَفَ عن بعض الأمور المهمَّة ببراعة العَالِمِ وثقافةِ الفقيه ، حيث أورد حديثَ خبَّاب الذي جاء في الصَّحيح وغيره ، فقال : « شكونا إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ حرَّ الرَّمضاء فلم يَشْكُنا » . قال ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ موضِّحاً مدلول قول خبَّاب ومقصده : « والذي يقعُ لي وٱلله أعلم أنَّ هٰذا الحديثَ مختصرٌ من الأوَّل ، وهو أنَّهم شكوا إليه ﷺ ما يلقَون من المشركين من التَّعذيب بِحَرِّ الرَّمضاء ، وأنَّهم يسحبونهم علىٰ

= لعبدِ الله بنِ عبَّاس ـ رضي ٱلله عنهما ـ : أكانَ المشركون يبلغون من أصحابِ رسولِ ٱلله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في تركِ دينهم ؟

قال : نعم والله ! إنْ كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه ، حتَّىٰ ما يقدرُ أنْ يستويَ جالساً من شدَّةِ الضُّـرِّ الذي به ، حتَّىٰ يعطيَهم ما سألوه من الفتنةِ ، حتَّىٰ يقولوا له : اللات والعُـزَّىٰ إلٰهان من دون الله ، فيقول : نعم ، افتداءً منهم بما يبلغون من جهدهم » . « البداية والنِّهاية » (٣ / ٥٩) .

(١) « المستدرك » (٣ / ٤٣١ ـ ٤٣٢) برقم : (٥٦٤٣) ، وقال الحاكم : « هٰذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه . وقال الذَّهبيّ في « التّلخيص » : « صحيح » .

وجوههم ، فيتّقون بأكفِّهم ، وغير ذلك من أنواع العذاب ، وسألوا منه ﷺ أن يدعوَ ٱلله لهم علىٰ المشركين ، أو يستنصرَ عليهم ؛ فوعدهم ذلك ، ولم ينجزْهُ لهم في الحالة الرَّاهنة ، وأخبرهم عمَّن كان قبلهم أنَّهم كانوا يلقون من العذاب ما هو أشدّ مما أصابهم ، ولا يصرفهم ذلك عن دينهم ، ويبشّرهم أنَّ اللهَ سيتمُّ هـٰذا الأمر ، ويظهرُهُ ، ويعلنُهُ ، وينشرهُ ، وينصرُهُ في الأقاليم والآفاق حتَّىٰ يسيرَ الرَّاكب من صنعاء إلىٰ حضرموت لا يخاف إلاَّ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، والذّئب علىٰ غنمه ، ولـٰكنَّكم تستعجلون ، ولهـٰذا قال : شكونا إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ في وجوهنا وأكفنا فلم يشكنا ؛ أي : لم يدع لنا في السَّاعة الرَّاهنة » [1] .

* ولعلَّ حبيبنا رسول ٱلله ﷺ أراد من خبَّاب بن الأرتِّ والمستضعفين أنْ يظلّوا رجالاً أبطالاً ، وأَجْبُلاً ثقالاً ، لا يسأمون ، ولا يتعجّلُون ، حتَّىٰ يكونوا في المستقبل القريب أهلاً للنَّصر الأكبر ، والفتح المؤزَّر ، وٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ غالبٌ علىٰ أمره ، ومتمّ نوره ، ولـٰكنَّ أكثرَ النَّاس لا يعلمون .

* لقد ثبت سيِّدنا خبَّاب وصبر ، فحفظ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ جهاده في صدور الصَّحابة والأمَّة من بعدهم ، كما حفظ سبحانه ذِكْرَ عددٍ من المُستضعفين ، من مثل سيِّدنا بلال بن رباح مؤذِّن الإسلام ، وصاحب الصَّوت النَّدي الآسر المؤثِّر ، فما أنْ يُذكر هـٰذا الصَّابر المُصابر بين المسلمين إلا يتذكَّرون جهاده وثباته ، ويعرفون أنَّه مؤذِّنُ الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، وصاحب الحداء الخالد : أَحَدٌ أَحَدٌ ؛ ويذكرون كذلك خبَّاب بن الأرتِّ ، وعمَّار بن ياسر ، وصُهيب بن سنان ، وغيرهم من السَّابقين الصَّادقين ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ .

خبَّابٌ ونفَحاتٌ من القُرآن :

* مواقفُ خبَّاب بن الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ باهرة المعاني ، مندَّاة

---

(١) « البداية والنِّهاية » (٣ / ٦٠) ، وانظر الحديث في « المعجم الكبير » (٤ / ٧٩ ـ ٨٠) بعدة روايات ، وأخرجه مسلم برقم : (٦١٩) .

بالخير ، أيَّدها القرآنُ العظيمُ ، بما أنزله اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ علىٰ رسوله الكريم ﷺ ، ومن الخير أنْ نسوقَ بعض هـٰذه النَّفحات العطرات التي شملَتْ خبَّاباً وأمثاله من المؤمنين الضُّعفاء الذين رفعهم الإسلام عالياً ، فكانوا سادة الدُّنيا في دنيا السَّادة والسِّيادة .

* ومن العجيب في دنيا الصَّحابة وحياتهم الزَّاخرة بالعطاء والمعرفة والتَّربية ، أنَّ سادةَ النَّاس من المشركين في عصرهم كانوا يأنفون من مجالستهم ، ويتأفَّفون من وجودهم في المجالس النَّبويَّةِ ، لذلك جاء المشركون إلىٰ الحبيبِ الأعظم سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ يزعمون أنَّهم لا يرضون أنْ يجالسُوا خبَّاباً وبلالاً وصُهيباً وسلمان ومَنْ في طبقتهم من فقراء المسلمين وضعفَتِهم ، وطلبوا من الصَّادق المصدوق ﷺ أن يكتبَ لهم بذلك ، فهمَّ ﷺ بذلك ، ودعا سيِّدنا عليّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ ليكتب ، فقام الفقراء ، وجلسوا ناحية ، وكان النَّبيُّ ﷺ قد مال إلىٰ ذلك الأمر طمعاً في إسلامهم ، وإسلام قومهم ، ورأىٰ أنَّ ذلك لا يفوِّت أصحابه شيئاً ، ولا ينقصُ لهم قدراً ، فمال إليه ، فأنزل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ **وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ** ... ﴾ [الأنعام : ٥٢] [1] . والمرادُ في قوله : ﴿ **ٱلَّذِينَ** ﴾ ضعفة المؤمنين في ذلك الوقت في أمور الدُّنيا : بلال ، وعمَّار ، وعبد ٱلله بن مسعود ، ومرثد الغنويّ ، وخبَّاب ، وصُهيب ، وصُبيح ، وذو الشِّمالين ، والمقداد ، ونحوهم .

* وأورد المفسِّرون أنَّ سببَ نزول هـٰذه الآية أنَّ الكفَّار قال بعضهم للنبي ﷺ : « نحن لشرفنا وأقدارنا لا يمكننا أن نختلطَ بهـٰؤلاء ، فلو طردتهم لاتَّبعناك وجالسناك » [2] .

---

(١) « تفسير القرطبيّ » (٦ / ٤٣١) بشيء من التَّصرُّف ، وانظر : « حلية الأولياء » (١ / ١٤٦ ـ ١٤٧) .

(٢) « تفسير ابن عطيّة » (ص : ٦٢٣) .

* وقيل : إنّما قال هٰذه المقالة أبو طالب عمّ النّبيِّ ﷺ علىٰ جهة النّصح لابن أخيه رسولِ ٱلله ﷺ ، قال له : « لو أزلْتَ هٰؤلاء لاتّبعَك أشرافُ قومك » [١] .

* وروي أنَّ ملأَ قريش اجتمعوا إلىٰ أبي طالب بن عبد المطَّلب في ذلك الأمر ، أرادوا بذلك الخديعة ، فصوَّب هٰذا الرَّأي من أبي طالب سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وغيره من المؤمنين ، فنزلت الآية .

* وجاءت هٰذه الرِّوايةُ جليّة عند (الواحديّ) في « أسباب النُّزول » ، فقال رَحِمَهُ ٱللهُ : « قال عكرمةُ : جاء عتبةُ بنُ ربيعة ، وشيبةُ بنُ ربيعة ، ومُطعِمُ بنُ عديّ ، والحارثُ بنُ نوفل ، في أشراف بني عبد مناف من أهل الكفْرِ إلىٰ أبي طالب ، فقالوا : لو أنَّ ابن أخيك محمّداً يطردُ عنه موالينا وعبيدنا وعسفاءنا ، كان أعظم في صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنىٰ لاتِّباعنا إيّاه ، وتصديقنا له . فأتىٰ أبو طالب النَّبيَّ ﷺ فحدَّثَه بالذي كلّموه ، فقال عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ : لو فعلتَ ذلك حتّىٰ ننظرَ ما الذي يريدون ، وإلامَ يصيرون من قولهم . فأنزل اللهُ تعالىٰ هٰذه الآية ، فلمَّا نزلتْ أقبل عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ يعتذرُ من مقالته » [٢] .

* وتذكرُ المصادرُ الموثوقةُ موقفاً عظيماً لسيِّدنا خبَّابِ بنِ الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ مع أحد كبار المستهزئين [٣] برسولِ ٱلله ﷺ من أشرافِ

---

(١) المصدر السَّابق ذاته .

(٢) انظر : « أسباب النّزول » للواحديّ (ص : ١٨٤) .

(٣) « **المستهزئون** » : جماعة من أشراف قريش وكبرائهم كانوا يؤذون رسول ٱلله ﷺ ، منهم : أبو جهل عمرو بن هشام المخزوميّ ، وأميّةُ وأُبيّ ابنا خلف ، وأبو لهب ، وعقبةُ بنُ أبي معيط ، والنَّضر بن الحارث ، والعاصُ بنُ وائل ، والوليدُ بن المغيرة ، وغيرهم ، وقد استوفينا سيرتهم في كتابنا : « المبشَّرون بالنَّار » طبعة دار ابن كثير بدمشق .
=

قـريـش ، وهـو العـاصُ بـنُ وائـل السَّهمـيّ فقـد كـان يقـول فـي استهـزاء وانتقاص : « غَـرَّ محمَّدٌ نفسَه وأصحابَه أنْ وعدهم بأنَّهم يَحْيَوْنَ بعد الموت ! واللهِ ! ما يهلكنا إلا الدَّهرُ ، ومرورُ الأيَّام والأحداث » .

* وكان يهزأُ بخبَّاب ويسخرُ منه سخريةً لاذعةً ، ويعبث به ، ويؤذيه ، ولا يَفِيـهِ حقّـه ، ويطلـب منـه أنْ يكفـرَ بمحمَّـد رسـول ٱلله ﷺ ، فأنزل اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ آياتٍ تُتْلىٰ في المحاريب ترسم ذلك .

* قال جمهورُ المفسِّرين ، وطائفةٌ من أهل الحديث وأهل العِلْم

= ومن المؤكَّد والمُتعالَم بين النَّاس أنَّ الاستهزاءَ نوعٌ من الحنق والغيظ ، والمقاومة السَّلبيَّة العنيفة ، يمارسُها في الغالب المتكبّرون للنّكاية بخصومهم ، وقد يكون من أفتكِ الأسلحةِ في المقاتل الأدبيَّة ، وهو أشدّ ما كان يكافح به قريش رسول ٱلله ﷺ في بدء الدَّعوة إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ . وكان رسولُ ٱلله ﷺ يحزنُ كثيراً لمَّا يصيبهُ من استهزاء المستهزئين ، وكان من أشدّهم عليه : العاص بن وائل ، والحارث بن عطيَّة ، والأسود بن عبد يغوث ، وعمّه الأسود بن المطَّلب ، والوليد بن المغيرة وغيرهم ، وفي هؤلاء نزل قوله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾ [الحجر : ٩٥] ، وقد أشار البُوصيريّ رَحِمَهُ ٱللهُ في همزيّته اللطيفة إلىٰ هؤلاء المستهزئين بقوله :

وكَفَـاهُ المُستهـزئيـن وكـم سـا ... ءَ نبيّـاً مـن قـومـهِ استهـزاءُ
ورمـاهـم بـدعـوةٍ مـن فنـاء البـ ... ـيـت فيهـا للظَّـالميـن فنـاءُ
خمسـةٌ كلُّهـم أُصيبـوا بـداءٍ ... والـرَّدَىٰ مـن جنـوده الأدواء
فـدهـىٰ الأسـودَ بـنَ مطّلـبٍ أيُّ ... عمًـى مَيِّـتٌ بـه الأحيـاء
ودهـى الأسـود بـن عبـد يغـوثٍ ... أن سقـاه كـأسَ الـرّدىٰ استسقـاء
وأصـاب الـوليـدَ خـدشـةُ سهـمٍ ... قصَّـرتْ عنهـا الحيَّـةُ الـرّقطـاء
وقضَـتْ شـوكـةٌ علىٰ مهجـة العـا ... صـي فللـه النَّقعـة الشَّـوكـاء
وعـلا الحـارثَ القيـوحُ وقـد سـا ... ل بهـا رأسـه وسـالَ الـوعـاء

« ديوان البوصيريّ » (ص : ٥٥) .

ما مفاده : « كان خبَّابُ بنُ الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قيناً ـ حداداً ـ في الجاهليَّة ، فعمل للعاص بن وائل عملاً فاجتمع له عنده دين ، فجاءه خبَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ يتقاضاه ، فقال له العاص بن وائل : لا أنصفك حتَّىٰ تكفرَ بمحمَّد .

فقال خبَّاب ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ : وٱلله ! لا أكفر بمحمَّد ﷺ ، حتَّىٰ يميتَك ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ثمَّ يبعثك .

قال العاص : أَوَ مبعوثٌ أنا بعد الموت ؟ !

قال خبَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ : نعم .

قال : فإذا كان ذلك ، فسيكون لي مالٌ وولد ، وعند ذلك أقضيك دَيْنَك ؛ فنزلت الآياتُ : ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ [مريم : ٧٧ ـ ٨٠] [(١)] » .

* وفي سبب نزولِ قولهِ تعالىٰ : ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الشُّورىٰ : ٢٧] ، يقول سيِّدنا خبَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ : « فينا نزلَتْ ، نظرنا إلىٰ أموال بني النَّضير وقريظة وبني قينقاع ، فتَمنّيناها ، فنزلَت » [(٢)] .

---

(١) « تفسيرُ ابن عطيَّة » (ص : ١٢٤٠) ، و« تفسيرُ القرطبيّ » (١١ / ١٤٥ ـ ١٤٦) ، و« زادُ المسير » (ص : ٨٩٥) ، و« أسباب النّزول » للواحديّ (ص : ٢٥٤) ، و« التّفسير الكبير » للرّازيّ (٢١ / ٢١٣) ، و« تفسير الماوردي » (٢ / ٥٣٥) مع الجمع والتَّصرُّف بينها .

وللحديث أصل في « الصَّحيحين » ، فقد أخرجه البخاريُّ في مواضع من « صحيحه » برقم : (٢٠٩١ ، و٢٢٧٥ ، و٢٤٢٥ ، و٤٧٣٢ ، و٤٧٣٣ ، و٤٧٣٤ ، و٤٧٣٥) ، ومسلم برقم : (٢٧٩٥) ، والتِّرمذيّ برقم : (٥١٧٢) وغيرها .

(٢) « زاد المسير » (١٢٦٩) ، و« تفسير القرطبيّ » (١٦ / ٢٧) ، و« تفسيرُ =

دُلَّنِي يا خَبَّابُ علىٰ مُحمَّدٍ ﷺ :

* يُعَدُّ سيِّدنا خبَّابُ بنُ الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ من الصَّحابةِ المقرئين لكتابِ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ومن الآخذين لبعضِ سور القُرآن العظيم مِنْ فِيِّ رسول ٱلله ﷺ ، وقد شهد له بهـٰذا الفَضْل العميم أحدُ علماء الصَّحابة العَالِمين سيِّدنا عبدُ ٱلله بنُ مسعود الهُذَليّ [1] ـ رضي ٱلله عنه وحسبُك بشهادة ابن مسعود فَضْلاً ـ فقد جاءه جماعةٌ من أهل القُرآن العظيم يسألونه عن شيءٍ من القرآن ، فأرشدهم إلىٰ خبَّاب بن الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ .

* ذكر هـٰذه الشَّهادةَ المباركةَ لسيِّدنا خبَّاب أبو نُعَيم في « الحِلْية » بسنده عن أبي إسحاقَ ، عن معدي كرب قال : « أتينا عبدَ ٱلله بنَ مسعود ـ رضي ٱلله عنه ـ ، نسأله عن طَسَمَ الشُّعراء . قال : ليست معي ، ولـٰكنْ عليكم بِمَنْ

= ابن عطيّة » (ص : ١٦٦٨) وغيرها كثير .

وفي سبب نزول هـٰذه الآية العظيمة يقولُ عمرو بنُ حُريث وغيره : « إنَّها نزلتْ ؛ لأنَّ قوماً من أهل الصُّفَّة طلبوا من رسولِ ٱلله ﷺ أنْ يُغنيهم ٱلله تعالىٰ ، ويبسطَ لهم الأرزاق والأموال ، فأعلمهم ٱللهُ تعالىٰ أنَّه لو جاء الرِّزقُ علىٰ اختيار البشر واقتراحهم لكان سبب بَغْيهم وإفسادهم ، ولـٰكنَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ أعلم بالمصلحة في كلِّ أحد ، وله بعبيدهِ خِبْرةٌ وبَصَرٌ بأخلاقهم ومصالحهم ، فهو ينزلُ لهم من الرِّزق القدر الذي به صلاحهم ، فربَّ إنسانٍ لا يصلح ولا تكتف عاديته إلا بالفقر ، وآخر بالغنىٰ ، وروىٰ أنسُ بنُ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ في هـٰذا المعنىٰ والتَّقسيم حديثاً عن النَّبيِّ ﷺ ، ثمَّ قال أنس ـ رضي ٱلله عنه ـ : اللهمَّ إنِّي من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنىٰ ، فلا تفقرني » ، وٱلله تعالىٰ أعلم . « تفسير ابن عطيَّة » (ص : ١٦٦٨) .

(١) اقرأ سيرةَ العالم العَيلم سيِّدنا عبد ٱلله بن مسعود في الباب الأوَّل من موسوعتنا : « علماء الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ » (ص : ٢٢١ ـ ٢٨١) ، ففي سيرته ينابيعُ من المعارفِ والخيراتِ بإذن ٱلله .

أَخذَهَا من رسول ٱلله ﷺ ، عليكم بأبي عبدِ اللهِ خبّاب بن الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ » [(١)] .

* عرف سيّدنا خبّاب نعمةَ القرآن الكريم ، ومكانةَ القُرَّاء عند ربِّ الأرض والسَّماء ، فطفقَ يُعَلِّمُ النَّاسَ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ ويفقّهُهُم في الدِّين ، فقد كان يُعلِّم سعيدَ بنَ زيد وامرأتَه فاطمةَ بنتَ الخطَّاب القرآنَ الكريم ، وهو الذي دلَّ عمرَ بنَ الخطَّاب لحظةَ أسلم علىٰ دار الأرقمِ بن أبي الأرقم ليذهبَ عمرُ ويسلمَ أمام الحبيبِ المصطفىٰ ﷺ ؛ لأنَّ خبَّاباً كان قد سمع دعاءَ النَّبيِّ ﷺ لعمرَ وهو يقول : « اللهمَّ أعزَّ الإسلام بعمرَ بنِ الخطَّاب » ، أو : « اللهمَّ أعزَّ الدِّين بعمر بنِ الخطَّاب » ، أو : « اللهمَّ أعزَّ الإسلام بعمرَ بنِ الخطَّاب خاصَّة » [(٢)] ، أو : « اللهمَّ اشدُدِ الدِّين بعمر ، اللهم اشددِ الدِّين بعمر ، اللهمَّ اشدُدِ الدِّين بعمر » [(٣)] .

---

(١) « حلية الأولياء » (١ / ١٤٣) .

(٢) أخرجهَ ابنُ ماجه في المقدمة برقم : (١٠٥) ، وانظر : « عيون الأثر » (١ / ٢١٦) إذ أورد هـٰذا الحديث . وكان حبيبُنا رسولُ ٱلله ﷺ يناجي ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ في ضراعةِ الإشفاق والرَّحمة لأصحابه وهو يراهم يؤْذَون وهم صابرون صبراً جميلاً ، لا يستطيعون أنْ يدفعوا عن أنفسهم ، ويقول : اللهمَّ أعزَّ الإسلام بعمرَ بنِ الخطَّاب خاصَّة » ، ولعلَّه ﷺ شعَر بما يهجسُ في قلوب بعض أصحابه من الأماني والرَّغبات في أنَّ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ يهدي لهم رجلاً ممّن عرفتهم قريش بالشِّدَّة والبأس ، ولا سيما أولئك الذين يشتدّون علىٰ المؤمنين ، فأراد الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ تقوية قلوب المؤمنين من المستضعفين من أصحابه ، فأعلنَ هـٰذا الدُّعاء المبارك ، وقيّده بمن أعلمه اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ به من خلال الوحي ، وأنَّه عمرُ بنُ الخطَّاب خاصَّة ، وٱلله تعالىٰ أعلم . « محمّد رسول ٱلله » (١ / ٦٢٧) بتصرّف .

(٣) أشار إلىٰ هـٰذا الشَّيخ يوسُف النَّبهانيّ في همزيته الجميلة : « طيبة الغراء في مدح سيّد الأنبياء » حيثُ تحدَّث عن استجابة دعاء النَّبيّ ﷺ لعمر ـ رضي ٱلله عنه ـ فقال :

والإمامُ الفاروقُ بَعْدُ منَ المُخْـ ـتارِ في حقِّهِ استُجيبَ الدُّعاءُ =

* كان سيِّدنا عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ يومَ أنْ دعا له النَّبيُّ ﷺ رجُلاً قد بلغَ أشدّه واستوىٰ ، فهو في مرحلة الشَّباب وعنفوانه ، وكان في الصَّف المُعَادي للإسلام ، يمخرُ في بحرِ الشِّرك ، ويسري في صحراء الضَّلال ، ويؤذي مَنِ اهتدىٰ واستضاءَ بنور الإسلام ولو كانوا من ذوي رحمهِ ، ومنهم : صهرهُ الصَّحابي الجليلُ والمخلصُ النَّبيل سعيدُ بنُ زيد ، وأختُه الصَّافيةُ الصَّادقةُ فاطمةُ بنت الخطَّاب ، ويروي لنا صهرهُ سعيدُ بنُ زيد كيف كان عمر يربطه إهانةً له ؛ لأنَّه أسلمَ ، فيقولُ فيما أخرجه البخاريُّ عنه : « واللهِ لقد رأيتني وإنَّ عمرَ لموثقي علىٰ الإسلام قبل أنْ يسلم عمر »[1] ، وفي روايةٍ أخرىٰ : « لو رأيتني موثقي عمر علىٰ الإسلام أنا وأختُه ، وما أسلم »[2] .

* ومع هـٰذه الشِّدَّة العمريَّة والغلْظَةِ العارمة كان حبيبُنا رسول ٱلله ﷺ يطمعُ في إسلام عمرَ ، ويدعو ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ له لينتظمَ في صفِّ المؤمنين ، واستجيبتِ الدَّعوةُ المحمَّديَّة ، وساقتِ الأقدارُ الإلـٰهيَّةُ عمرَ إلىٰ سَنَا الحقِّ

= كـان إسـلامُـهُ علـىٰ الشِّـركِ خَفْضـاً وبـــهِ صَـــارَ للهُــدىٰ استعـــلاءُ
عَمـرُ القـرمُ ذو الفُتـوح الـذي عـزَّ بـــهِ الـدِّيــنُ حيــن عــزَّ العَــزاءُ

« المجموعة النَّبهانيَّة » (١ / ١٩٣ ـ ١٩٤) .

وهناك روايةٌ شهيرةٌ جاءت في « المسندِ » و« سننِ التِّرمذيّ » ، و« طبقاتِ ابن سعد » وغيرها من مصادر عن خبَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ : « اللهمَّ أعزَّ الإسلام بأحبَّ هـٰذين الرَّجُلَيْن إليك : بعمر بن الخطَّاب ، أو بأبي جهل بن هشام » .

ولعلَّ النَّبيَّ ﷺ قد دعا بإيمان أبي جهل ، وعمر بن الخطَّاب أوَّلاً ، ولمَّا علمَ ﷺ أنَّ كُفْر أبي جهل مُقدَّرٌ في تقدير إلـٰهيّ ، أيس من إيمانه ، ودعا لعمر بن الخطَّاب خاصَّة . وهناك رواية تقولُ عن سيّدنا عمر : فغدا علىٰ النَّبيِّ ﷺ فأسلم ، ثمَّ صلَّىٰ في المسجد ظاهراً . وٱلله تعالىٰ أعلم .

(١) أخرجه البخاريّ في مناقب الأنصار برقم : (٣٨٦٢) .

(٢) أخرجه البخاريّ في مناقب الأنصار برقم : (٣٨٦٧) .

والخير ، وبدأت الأنوارُ تتسلَّلُ إلىٰ قلبه في مواقف متعدِّدةٍ كان آخرها يوم أن اهتزَّ قلبُهُ هِزَّةُ الخاشعين في بيت أختهِ فاطمةَ بنتِ الخطَّاب ، وصهره سعيد بن زيد ، وكانا يتعلَّمان ويحفظان القُرآن الكريم علىٰ يَدِ سيِّدنا خبَّاب ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ، وحشَرنا في معيّتهم ، ونفَعَنا بِسِيَرِهم ـ .

* كان ذلك اليوم ، يوم أنْ خرجَ عمرُ من داره متوشِّحاً سيفَه ، تداعبُه الجائزةُ المُغريةُ التي يقابلها القضاء علىٰ محمَّدٍ ﷺ . خرج عمرُ يمشي في دروب مكَّة يبحث عن رسول ٱلله ﷺ يريدُ أنْ يقتلَه ، ولـٰكنَّه يلتقي نُعيمَ بنَ عبد ٱلله النَّحَّام العَدَويّ [1] ـ وكان مُسلماً يخفي إسلامه ويكتُمُه عن قريش ـ فقال لعمرَ وقد رآهُ متسربلاً بالغضب ، متوشّحاً بالسَّيف : « أين تريدُ أنْ تذهبَ يا عمر فإنِّي أراكَ مضطرباً ؟ » .

فقال عمر والشَّررُ يتطايرُ من عينَيْه : « أريدُ محمَّداً هـٰذا الصَّابئَ الذي فرَّقَ أمْـرَ قريش ، وسفَّه أحلامها ، وعابَ دينها ، وسبَّ آلهتها ، فأقتله » .

* صمتَ نُعيم هنيهةً ريثما التقطَ عمرُ أنفاسه ، ثمَّ أحبَّ أنْ ينبِّهَ عمر إلىٰ خطورة الأمر الذي يقدمُ عليه فقال له : « واللهِ لقد غرَّتْكَ نفسُكَ من نَفْسِك يا عمر ! أتظنُّ أنَّ بني عبد مناف تاركيك تمشي علىٰ الأرض ، وقد قتلْتَ محمَّداً ؟ » .

* كانت هـٰذه الكلماتُ تقرعُ وجدان عمر الذي أحسَّ من خلالها بأنَّ نُعيماً ليس علىٰ دينِ قريش ، لذلك قال لِنُعيم متوعداً ومستفهماً : « يا نُعيم ! ما أراكَ إلا قد صبوتَ ، وفارقتَ دينك الذي أنتَ عليه ، واتَّبعْتَ محمَّداً ! » .

* لم يردَّ نُعيمٌ علىٰ عمر ، وإنَّما صرفَهُ عن مقصدهِ بطريقةٍ ذكيَّة ، تظهرُ إخلاصَه للهِ ولرسولهِ ولدينهِ ، فقال له : « يا عمرُ ! أفلا ترجعُ إلىٰ أهل بيتك فتقيمُ أمرهم ؟ » .

---

(١) اقرأ سيرة نُعيم بن عبد الله النَّحَّام في الباب الأوَّل من هـٰذه الموسوعة المباركة .

قال عمرُ في دهَشٍ : « وأيّ أهل بيتي تقصدُ يا نُعيم ؟ » .

فقال نُعيمٌ : « خَتَنُك وابنُ عمِّك سعيدُ بنُ زيد بن عمرو ، وأختُك فاطمةُ بنتُ الخطَّاب ، فَقَدْ واللهِ أسلما ، وتابعا محمَّداً علىٰ دينه ، فعليكَ بهما ! » .

* وبَرَدَ ما كان من عمرَ من حرارة الانتقام من رسولِ ٱللهِ ﷺ ، ونسيَ وجهته التي خرجَ من أجلها ، وكاد صوابُهُ أنْ يطيرَ عندما علم أنَّ أختَه وصهرَهُ قد تركا دِينَ الآباء والأجداد ، وصَبَوا ، واتَّبعا محمَّداً ﷺ ؛ ورجع عمر عامداً إلىٰ أختِهِ وختنهِ ، وعندهما المقرئُ خبَّابُ بنُ الأرتِّ ، معه صحيفةٌ فيها سورة طه ، يُقْرِئهما إيَّاها ، فلمَّا سمعوا حسَّ عمر ، تغيَّب خبَّابُ في مخدعٍ لهم ، وأخذتْ فاطمةُ بنتُ الخطَّاب الصَّحيفة ، فجعلتها تحت فخذها ، وكان عمر قد سمعَ حين دنا من البيت قراءة خبَّاب عليهما ، فلمَّا دخل قال : « ما هٰذه الهَيْنَمةُ التي سمعتُ ؟ » .

قالا له : « ما سمعتَ شيئاً » .

قال : « بلىٰ واللهِ ! لقد أُخْبِرْتُ أنَّكما تابعتما محمَّداً علىٰ دينه » .

* وبطشَ بختنِهِ سعيدِ بنِ زيد ، فقامَتْ إليه أختُه فاطمةُ بنت الخطَّاب لِتكفَّهُ عن زوجها ، فضربَها فشجَّها ، فلمَّا فَعَلَ ذلك ، قالت له أختُه وختنه : « نعم قد أسلمنا وآمنَّا بٱلله ورسوله ، فاصنعْ ما بَدَا لكَ » .

* ولمَّا رأىٰ عمر ما بأخته من الدمِ ، ندمَ علىٰ ما صنعَ ، وارعوىٰ ، وقال لأخته ضارعاً : « أعطيني هٰذه الصَّحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفاً ؛ أنظرُ ما هٰذا الذي جاء به محمَّد » ـ وكان عمر قارئاً كاتباً ـ .

فقالت له أخته : « إنَّا نخشاك عليها » .

قال : « لا تخافي يا أُخيّة » ، وحلَفَ لها بآلهته لَيَرُدَّنَّها إذا قرأها إليها ؛ فلمَّا قال ذلك طمعَتْ بإسلامه ، فقالت له : « يا أخي إنَّك نَجِسٌ علىٰ

شركك ، وإنَّه لا يمسّها إلا الطَّاهر » .

فقام عمرُ فاغتسل ، فأعطتْه الصَّحيفة ، وقرأ : ﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ إلىٰ قوله : ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾ [طه : ١ ـ ١٤] ، ولمَّا أن انتهىٰ من هـٰذه الآيةِ الكريمةِ هَتَفَ قائلاً : « ما أحسنَ هـٰذا الكلام وأكرمه ، دلّوني علىٰ محمَّد » .

* تساقطت هـٰذه الكلماتُ النَّاعمة المتناغمةُ الممزوجةُ بالرِّقةِ علىٰ سمع خبّاب تساقط الرَّحمة علىٰ القُلوب ، فخرجَ إليه وقال له : « يا عمرُ ! واللهِ إنِّي لأرجو أنْ يكونَ اللهُ قد خصَّك بدعوة نبيِّه ، فإنِّي سمعْتُه أمسِ يدعو ٱللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يؤيِّدَ الإسلام بك ، فاللهَ اللهَ يا عمرُ » .

* نزلت الكلماتُ الخبَّابيَّةُ الموقظةُ علىٰ كيان عمرَ نزولاً لطيفاً ، فغسلَتْ قلبَه ، وأزالت عنه ما عَلَقَ عليه من غشاوةِ الجاهليَّة ، وقسوتها ، وأدرانها ، وفي لحظات مباركة استنارت بصيرةُ عمر بما سمع من الذِّكْر والقُرآن الحكيم ، وما سمع من مبشِّرات النُّبوَّة ، فقال لخبَّابٍ في رفقٍ ورقَّةٍ وَوَجَلٍ من اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ : « دُلَّني يا خبَّابُ علىٰ محمَّدٍ حتَّىٰ آتيه فأسلمَ وأشهدَ شهادةَ الحقِّ » .

فقال خبَّابٌ وعلاماتُ الاستبشار ترتسمُ علىٰ وجهه : « هو في بيتٍ عند الصَّفا ، معه نَفَرٌ من أصحابه وفيهم عمُّه حمزةُ » .

* لم يتوقفْ عمرُ لحظةً واحدةً بعد أن عرفَ مكانَ رسولِ ٱللهِ ﷺ ، فأخذَ سيفه ؛ فتوشَّحه ، وجعل يغذُّ السَّير ليلتقي رسولَ ٱللهِ ﷺ وأصحابه في دار الأرقم المباركة التي تشعُّ منها الأنوارُ الهاديةُ إلىٰ سبلِ النَّجاة والنَّعيم .

* وأمام بيتِ الأرقم ، وقفَ عمرُ وضربَ الباب ، فلمَّا سمعوا صوتَه وَجلَ بعضُهم ، وقام رجلٌ ، فنظرَ من خَلَلِ الباب ، فألفىٰ عمرَ متوشحاً سيفَه ، فرجعَ إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ وهو فَزِعٌ وَجِلٌ فقال : « يا رسولَ ٱللهِ ! هـٰذا عمرُ بنُ الخطَّاب متوشِّحاً سيفه » .

فقال سيِّدنا حمزةُ في أدبٍ ممزوجٍ بالشَّجاعة : « فَأْذَنْ له ، فإن كان جاء يريدُ خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريدُ شرّاً قتلناه بسيفه » . فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « ائذنْ له » .

* فأذنَ له الرَّجلُ ، فدخل عمرُ دخولَ الصَّادقين ، فنهضَ إليه الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ ، حتَّىٰ لقيه في الحُجْرةِ ، فأخذَ بِمجْمَعِ ردائه بإحكام ، ثمَّ جَبَذَهُ جبذةً شديدةً ، وقال له : « ما جاء بك يا بنَ الخطَّاب ؟ فواللهِ ما أرىٰ أنْ تنتهيَ حتَّىٰ ينزلَ اللهُ بك قارعة ! ! » ، فقال عمرُ في استسلام الأصفياء وعلامات الهدوء ترتسمُ علىٰ وجهه : « يا رسولَ ٱلله ! جئتُك لأومنَ باللهِ وبرسولهِ ، وبما جاء من عند ٱلله » . فكبَّر رسولُ ٱللهِ ﷺ تكبيرةً عرفَ أهلُ البيت من أصحابه أنَّ عمرَ بنَ الخطَّاب قد أسلم وشهد شهادة الحقِّ والنَّجاة (١) .

* وما أجمل أنْ نقرأَ الآن هـٰذه القَبْسَةَ الشَّوقيَّةَ التي ندتْ بها قريحةُ (أحمد شوقي) من كتابه : « دُولُ العربِ وعظماءُ الإسلام » حيث أفردَ منظومةً أنيقةً عن سيِّدنا عمرَ بنِ الخطَّاب ومراحل حياته ، ومنها هـٰذه الهينَمةُ المعبِّرةُ :

ثَارَ إلىٰ حيثُ النَّبيِّ مُوعِدا	ومُبرِقاً بسيفهِ ومُرْعِدا
فجاءَهُ موحِّدٌ منَ الزُّمر	وقال جيءْ أهلكَ فانظرْ يا عمر
وحَّدتِ اللهَ ابنةُ الخطَّاب	وآمنَ السَّعيدُ في الأخطاب
فجاءَها معتزِمَ الشِّراس	وكان صلباً خَشِنَ المِراس
فَراعَهُ منَ الخِبَاءِ هَيْنَمه	وصوتُ مستخفِيَةٍ مُرنِّمه
فقالَ ما أسمعُ قالتْ طه	فلم يصوِّبْها ولا خطَّاها
قالَ وعِرفانُ الصَّواب مَكْرُمَه	فَاطِمُ هـٰذا منطِقٌ ما أكرمَه
وآنستْ سكينةَ الحَواري	من رجلٍ في صَحْوهِ سَوَّار

---

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ٢٦٧ ـ ٢٧١) بشيء من التّصرّف .

كَحَمَـــلٍ مُـــدلـــلٍ صَـــارَ الأَسَـــدْ وَالصَّـــارِمُ المَسْلُـولُ عـــاد كــالمَسَـدْ
فجـــاءَ نـــاديَ النَّبـــيِّ فـــاهتـــدىٰ وكبَّـــر الهـــادي وهَـــلَّ المُنْتـــدىٰ
إســـلامُـــهُ للـــدِّيْـــنِ كـــان عِـــزّا رنَّـــحَ عِطْـــفَ المُصْطَفـــىٰ وهـــزَّا
فلـــم يـــزلْ دِعَـــامـــةَ الإســـلامِ وهـــامـــةَ الصَّحـــابـــةِ الأعـــلامِ [1]

* لقد أسلم سيِّدنا عمر ، وزادَ من رسوخ يقينه ما نقله إليه خبَّابُ بنُ الأرتِّ من دعاء رسولِ ٱللهِ ﷺ له ، أنْ يؤيِّدَ ٱللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ به الدِّين ، ولا شك في أنَّ إسلام سيّدنا عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ قد دفع خبَّاباً ليدعوَ إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ علانيةً ، وأنْ يقرئَ القرآن الكريم لمن يحبُّ أنْ يتعلَّمه دون وَجَلٍ أو خوف من أحدٍ مهما كان شأنهُ وكانت مرتبتُه من أشراف قريش وكبرائهم .

المهَـاجرُ المُجَـاهدُ :

* لمَّا ساقَ أبو نُعيم الأصبهاني رَحِمَهُ ٱللهُ ترجمةَ سيِّدنا خَبَّاب في « حلْيته » نقرأُ عنده ما تتحلَّىٰ به الأفواهُ والأسماعُ من رقائق الكلام ورقيق المعاني ، فقـال : « السَّـابـقُ المُفْتَتَـنُ ، المُعَـذَّبُ المُمْتَحـنُ ، خبَّـابُ بـنُ الأرتِّ ، أبو عبد ٱلله . أسلمَ راغباً ، وهاجرَ طائعاً ، وعاشَ مجاهداً ، وثبتَ في إسلامه شاكراً ، كان من النَّواحين البكَّائين ، وكانت نياحتُه علىٰ اكتوائه لمَّا ابتلي في جسمه ، وبكاؤه لافتتانهِ لما اجتمع له من سهمه . كان من فقراء المهاجرين والسَّابقين ، وكان أحد الجلَّاس للنَّبيِّ ﷺ والأُنَّاس ، كان بذكْرِ اللهِ مُستأنساً ، وللنَّبيِّ ﷺ ملازماً ومجالساً » [2] .

* ولمّا أخذ المهاجرون طريقَهم إلىٰ المدينةِ المنوَّرة ، سار خبَّابٌ

---

(١) « دول العرب وعظماء الإسلام » (ص : ٣٩ ـ ٤١) بانتقاء وتصرُّف ، مطبعة مصر ـ ١٩٣٣ م .
(٢) « حلية الأولياء » (١ / ١٤٣) .

والمقدادُ بنُ عمرو ـ رضي ٱلله عنهما ـ مهاجِرَيْن ، ونزلا في المدينةِ علىٰ كُلْثُوم بن الهِدْم ، فلمْ يبْرَحَا منزلَه حتَّىٰ توفي قَبْل أنْ يخرجَ رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ بَدْرٍ بيسير ، فتحوَّلا فنزلا علىٰ سعدِ بنِ عُبادة ، فلم يزالا عنده حتَّىٰ فُتِحَتْ بني قُريظة .

* آخىٰ رسولُ ٱلله ﷺ بين خبَّابٍ ، وبين تميم مولىٰ خِراش بن الصِّمَّة ، وقيل : آخىٰ بينَه وبين جُبْر بن عتيك ، وشهد خبَّابٌ بدراً وأُحُداً والخندق والمشاهدَ كلَّها مع رسولِ ٱلله ﷺ .

* كان رسولُ ٱلله ﷺ يكرمُ خبَّاباً ، ويقدرُ قَدْرَهُ ، فإذا ما خرجَ في سَريَّةٍ من السَّرايا ، كان ﷺ يتفقَّدُ أهْلَه وأولادَه ويكرمهم ، ويرعىٰ مصالحهم ، وينظرُ في شؤونهم ، وهٰذا ما وافتْنَا به ابنةُ خبَّاب حيثُ قالت : « خرجَ خَبَّابٌ في سريةٍ ، فكان رسولُ ٱلله ﷺ ، يتعاهدنا حتَّىٰ يحلبَ عنزاً لنا في جفنةٍ لنا ، وكان يحلبُها حتَّىٰ تطفحَ وتفيضَ ، فلمَّا رجع خبَّاب حلبَهَا فرجعَ حلاَبُها ـ نَقَصَ ـ ، فقلنا له : كان رسولُ ٱلله ﷺ يحلبها حتَّىٰ تفيضَ ، فلمَّا حَلَبْتَها رجعَ حلابها »[1] .

* ونقرأ هٰذه الحادثةَ المباركةَ الطَّريفةَ بشكلٍ أوسعَ وأكثرَ تفصيلاً عند ابن سعد وغيره فيما أخرجَهُ عن بنْتِ خبَّاب بن الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنها ـ وكانت قد أسلمت وأدركت رسولَ ٱلله ﷺ ، وروتْ عنه قالت : خرجَ أبي في غزوة[2] ، ولم يتركْ لنا إلا شاةً ، وقال : إذا أردتم أنْ تحلبوها فأتوا بها أهلَ

---

(١) انظر : « طبقات ابن سعد » (٨ / ٢٩٠ ـ ٢٩١) ، و« المسند » (١٠ / ٣١٢) برقم : (٢٧١٦٥) .

(٢) يظهرُ ـ وٱلله أعلم ـ أنَّ سيِّدنا خباباً ـ رضي ٱلله عنه ـ قد خرجَ في سريّةٍ وليس في غزوة بدليل أنَّ رسول ٱلله ﷺ كان لا يزالُ في المدينة ، وقد حلبَ لأهل خبَّاب شاتهم ، وكان الحبيبُ الأعظم ﷺ يرسلُ خباباً في السَّرايا ، وقد أخرج الطَّبراني بسنده عن مجاهد ، عن خبَّاب قال : « بعثَنَا رسولُ ٱلله ﷺ في سريَّةٍ ، فأصابنا العَطَشُ ، وليس=

الصُّفَّة . قالت : فانطلقنا بها ، فإذا رسولُ ٱللهِ ﷺ جالسٌ ، فأخذَهَا فاعتقلَها ، فحلبَ ، ثمَّ قال : « ائتوني بأعظم إناء عندكم » . فذهبتُ فلم أجدْ إلا الجفنة التي نعجنُ فيها ، فأتيتُه بها ، فحلبَ حتَّىٰ ملأها ، قال : « اذهبوا فاشربوا وأميهوا جيرانكم ، فإذا أردتم أنْ تحلبوا فأتوني بها » .

فكنَّا نختلفُ بها إليه ، فأخصبنا ، حتَّىٰ قدمَ أبي ، فأخذها فاعتقلها ، فصارت إلىٰ لَبنِها ؛ فقالت أمّي : أفسدتَ علينا شاتنا .

قال : وما ذاك ؟

قالت : إن كانت لتحلب ملء هـٰذه الجفنة .

قال : ومَنْ كان يحلبها ؟

قالت : رسولُ ٱللهِ ﷺ .

قال : وقد عدلتني به ! هو واللهِ ! أعظمُ بركَةَ يدٍ منِّي » [1] .

* وذات مرَّةٍ أرسل الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ خبَّاباً في بَعْثٍ ، وعلَّمَه ما ينفعُهُ في الدَّارَيْن ، فَلْنُصْغِ سوياً إلىٰ سيِّدنا خبَّاب وهو يعلِّمنا ما تعلَّمه من حبيبنا رسولِ ٱللهِ ﷺ وهو في طريقه لينفِّذَ الأوامرَ النَّبويَّة في مكان بعيد .

* أخرجَ الطَّبرانيُّ بسندهِ عن عُبادةَ بن نُسَي الكنديّ ـ أبو عمر الشَّاميّ وهو ثقةٌ فاضلٌ كان قاضي طبريّة توفي سنة ١١٨ هـ ـ عن خبَّابِ بنِ الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ قال : « بعثَنِي رسولُ ٱللهِ ﷺ مبعثاً ، فقلتُ : يا رسولَ ٱلله ! إنَّك تبعثني بعيداً وأنا أشفقُ عليك .

قال : « وما بلغ من شفقتِكَ عليَّ ؟ » .

= معنا ماء ، فتنوّخت ـ بركَتْ ـ ناقةٌ لبعضنا ، وإذا بين رجليها مثل السَّقاء ، فشربْنا من لبنها » . « المعجم الكبير » (٤ / ٧٨) برقم : (٣٦٩٧) .

(١) « طبقات ابن سعد » (٨ / ٢٩١) ، و« المسند » (١٠ / ٣١٢) برقم : (٢٧١٦٥ ، و٢٧١٦٦) .

قلت : أصبحُ فلا أظنُّكَ تمسي ، وأُمسي فلا أظنُّك تُصبح .

قال : « يا خبَّاب ! خمسٌ إنْ فعلتَ بهنَّ رأيتني ، وإنْ لم تفعلْ بهنَّ لَمْ تَـرَني » .

فقلت : يا رسولَ اللهِ ! وما هُنَّ ؟

قـال : « تعبـدُ اللهَ لا تشـركُ بـه شيئـاً وإنْ قُطِّعْـتَ وحُـرِّقْـتَ ، وتـؤمـن بالقَدَر » .

قلتُ : يا رسولَ ٱلله ! وما الإيمانُ بالقدر ؟

قال : « تعلم أنَّ ما أصابكَ لم يكن ليخطئك ، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبكَ ، ولا تشرب الخَمْرَ ، فإنَّ خطيئتَها تقرعُ الخطايا كما أنَّ شجرتها تعلُق الشَّجر ، وبرَّ والدَيْك وإن أمراك أن تخرجَ من الدُّنيا ، وتعتصمَ بحبل الجماعة ، فإنَّ يدَ اللهِ علىٰ الجماعة ، يا خبَّابُ ! إنَّك إنْ رأيتني يوم القيامة لم تفارقْني »[1] .

* وهـٰكذا نرىٰ سيِّدنا خبَّابَ بنَ الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ من نبهاء المجاهدينَ الذين نذروا حياتهم للإسلام ، ولإعلاء كلمة ٱلله ، وقد بايع رسولَ ٱللهِ ﷺ بيعةَ الصَّادقين ، وأخلصَ في بيعتهِ ، وثبتَ وصبرَ ، وامتُحِنَ فشكَرَ ، ولم يتأخَّرْ عن مشهدٍ واحدٍ من المشاهد النَّبويَّة .

* قال عنه أبو عمر بن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللهُ في « الاستيعاب » : « كان فاضلاً من المهاجرين الأوَّلين ، شهدَ بدراً وما بعدها من المشاهد مع النَّبيِّ ﷺ ، وكـان قـديـم الإسـلام ممَّـنْ عُـذِّبَ فـي ٱلله ، وصبـرَ علـىٰ دينـهِ ـ رضـي ٱلله عنه ـ »[2] .

---

(١) أخرجه الطَّبرانيّ (٤ / ٨١) برقم : (٣٧٠٩) .

(٢) « الاستيعاب » (١ / ٤٢٣) .

مرويَّـاتُـهُ وختَامُ حيَاته :

* هـٰذا الصَّاحبُ النَّبيلُ الصَّابر خبابُ بنُ الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ من الصَّحابة الأعلام أصحاب العشَرات وشيء ، قال عنه النَّوويُّ والذَّهبيُّ : « له عدَّة أحاديث » وقالا : « لخبَّاب اثنان وثلاثون حديثاً ، ومنها ثلاثة في « الصَّحيحَيْن » ، وانفرد له البخاريّ بحديثين ومسلمٌ بحديث » [1] .

* وقال ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن مرويَّات سيِّدنا خبَّاب : « روىٰ عن النَّبيِّ ﷺ ، وروىٰ عنه أبو أمامة الباهليّ ، وابنه عبد ٱلله بن خبَّاب ، وأبو معمر عبدُ ٱلله بنُ سخبرة ، وقيسُ بنُ أبي حازم ، ومسروقُ بن الأجدع ، وعلقمةُ بنُ قيس ، وأبو وائل ، وحارثةُ بنُ مضرب ، وأبو الكنود الأزديّ ، وأبو ليلىٰ الكنديّ . وأرسل عنه مجاهدٌ ، والشَّعبيُّ ، وسليمانُ بنُ أبي هنديَّة » [2] .

* وتشملُ مرويَّات سيِّدنا خبَّاب بن الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ عدداً من أبواب العلْم من مثل : المناقب ، والتَّفسير ، والبيوع ، وصفة الصَّلاة ، والدَّعوات ، والمغازي ، والطِّبّ ، وغيرها كثير موزَّعة في كتب الصَّحيح والسُّنن والمسانيد والمصنَّفات الحديثيَّة .

---

(١) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٣٢٤ ـ ٣٢٥) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٧٤ ـ ١٧٥) ولعلَّ سبب قلة رواية سيِّدنا خبَّاب وبعض الصَّحابة الكرام ، هو خوفهم وورعهم الشَّديد ، وانصرافهم إلىٰ العمل في مرضاة ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فقد أورد ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ خبراً عن أحد الذين كانوا يجالسون خباباً فقال : « بينما نحنُ في المسجدِ ؛ إذْ جاء خبَّاب بن الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فجلس فسكت ، فقال له القوم : إنَّ أصحابك قد اجتمعوا إليك لتحدِّثهم أو لتأمرهم .

قال : بمَ آمرهم ؟ ولعلِّي آمرهم بما لستُ فاعلاً » . « أسد الغابة » (١ / ٥٩٣) .

(٢) « تهذيب التَّهذيب » (٣ / ١٣٣) ، وانظر كذلك : « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٧٤ ـ ١٧٥) .

* فمن مرويّات سيّدنا خبّاب في صفة صلاتي الظُّهر والعصر ، ما جاء عند البخاريّ وغيره بسندٍ عن أبي معمر عبد ٱلله بن سخبرة الأزدي قال : « سألنا خبّاباً أكان النّبيّ ﷺ يقرأُ في الظُّهر والعصر ؟

قال : نعم .

قلنا : بأي شيء كنتم تعرفون ؟ وفي رواية : تعلمون قراءته ؟

قال : باضطراب لحيته »[1] .

* وفي فضل الدُّعاء أخرج الطَّبرانيُّ بسنده عن خبّاب قال : سمعتُ رسولَ ٱلله ﷺ يقول : « اللهمَّ استرْ عورتي ، وآمنْ روعتي ، واقضِ عنِّي دَيْني »[2] .

* وأخرج أبو يعلىٰ في الزُّهد بالدُّنيا أنَّ خبّاباً ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسولُ ٱلله ﷺ : « إنَّما يكفي أحدكم من الدُّنيا كزاد الرَّاكب »[3] .

* ومرويّات سيدنا خبّاب كثيرةٌ ومتنوعةٌ ، وقد مرَّ بعضها في ثنايا هـٰذه الترجمة ، ومَـنْ أراد المزيد ، فليرجعْ إلىٰ مصادر الحديث .

* امتـدَّت الحيـاةُ بسيِّـدنـا خبّـاب إلـىٰ خـلافـة سيِّـدنـا علـيّ بـن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وكان جليل المكانة عند الخلفاء الرَّاشدين .

* زارت الأمراضُ جسدَ سيِّدنا خبّاب ، وطال مرضُه ، وصبرَ واكتوىٰ ،

---

(١) أخرجه البخاريّ برقم : (٧٦٠ ، و٧٦١ ، و٧٧٧) ، والطّبرانيّ برقم : (٣٦٨٣ ، و٣٦٨٤ ، و٣٦٨٥ ، و٣٦٨٧ ، و٣٦٨٨ ، و٣٦٨٩) ، وقوله « باضطراب لحيته » : فيه الحكم بالدّليل ؛ لأنّهم حكموا باضطراب لحيته علىٰ قراءته . واستدلَّ به المصنِّفُ علىٰ مُخَافَتهِ ﷺ القراءة في الظُّهر والعصر .

(٢) « المعجم الكبير » (٤ / ٨١ ـ ٨٢) برقم : (٣٧١٠) .

(٣) « مسند أبي يعلىٰ » (ص : ١٣١٢) حديث رقم : (٧٢١٠) .

ذكر قيسُ بنُ أبي حازم قال : « دخلْنَا علىٰ خبَّابِ بنِ الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ وقد اكتوىٰ سبْعَ كيَّات ، فقال : لولا أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ نهانا أنْ ندعو بالموت لدعوتُ به »[1] .

* وجاء أنَّ نفراً من أصحابِ رسولِ ٱلله ﷺ قد زاروا خبَّاباً في مرضه فقالوا له : « أبشرْ أبا عبد الله تَرِدُ علىٰ إخوانك الحوض .

فقال : إنَّكم ذكرتُم لي إخواناً مضوا ، ولم ينالوا من أجورهم شيئاً ، وإنا بقينا بعدهم حتَّىٰ نلْنا من الدُّنيا ما نخاف أنْ يكونَ ثواباً لتلك الأعمال »[2] .

* ومرض سيِّدنا خبَّابٌ مرضاً شديداً طويلاً توفي منْهُ بالكوفةِ سَنَةَ (٣٧ هـ) . قال ابنُ الأثير : « ونزل الكوفةَ وماتَ بها ، وهو أوَّل مَنْ دُفِنَ بظهر الكوفة من الصَّحابة ، وكان موته سنة سبع وثلاثين »[3] .

* وقد أكَّد عبدُ ٱلله بنُ خبَّاب هـٰذا الأمر عندما سُئِلَ : « متَّىٰ مات أبوك ؟ » .

قال : « سنة سبع وثلاثين ، وهو يومئذٍ ابنُ ثلاثٍ وسبعين سنة »[4] .

* وروىٰ ابنُ خبَّاب أيضاً اللحظاتِ الأخيرةَ من حياةِ خبَّاب فقال : « لمَّا ثَقُلَ خبَّابٌ قال لي : أَيْ بنيّ ، إذا أنا مِتُّ فادفنّي بهـٰذا الظَّهْرِ ، فإنَّك لو قد دفنتني بالظَّهر ، قيل : دُفِنَ بالظَّهر رجلٌ من أصحابِ رسولِ ٱللهِ ﷺ ، فَدَفَنَ النَّاسُ موتاهم ، فلمَّا ماتَ خبَّابٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ دُفنَ بالظَّهر ، فكان أوَّل

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٦٦) ، و« أسد الغابة » (١ / ٥٩٣) ، و« الحلية » (١ / ١٤٤) .

(٢) « أسد الغابة » (١ / ٥٩٣) ، و« حلية الأولياء » (١/ ١٤٦) .

(٣) « أسد الغابة » (١ / ٥٩٣) . ومعنىٰ « ظهر الكوفة » : خارجها .

(٤) « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٦٧) .

مدفونٍ بظهر الكوفة خبَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ »[1] .

* وزعمت بعضُ المصادر بروايتها عن زيد بن وهب قال : « سرنا مع عليّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، حين رجع من صفّين ، حتَّىٰ إذا كان عند باب الكوفة ، إذا نحنُ بقبور سبعة عن أيماننا ، فقال : ما هٰذه القبور ؟

فقالوا : يا أميرَ المؤمنين ! إنَّ خبَّابَ بنَ الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ توفي بعد مخرجك إلىٰ صفّين ، فأوصىٰ أنْ يُدْفَنَ في ظاهر الكوفة .

فقال عليٌّ ـ رضي ٱلله عنه ـ : رحم ٱلله خبَّاباً ؛ أسلم راغباً ، وهاجر طائعاً ، وعاش مجاهداً ؛ وابتُلي في جسمه أحوالاً ، ولن يضيعَ اللهُ أجْرَ مَنْ أحس عملاً . . . طوبىٰ لمن ذكرَ المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضي عن ٱلله عزَّ وجلَّ »[2] .

* **وبعد** : فهٰذه شذراتٌ من سيرة صحابي صابر منْ أعلامِ الصَّابرين ، قضىٰ نحبه وهو يرجو رحمةَ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فرضي اللهُ عن سيِّدنا خبَّاب ، وحشرنا معه يوم الحساب ، وغفرَ لنا إنَّه الكريم الوهَّاب .

---

(١) « المستدرك » (٣ / ٤٣١) بتصرّف يسير جدّاً . وانظر : « طبقات ابن سعد » (٣ / ١٦٧) ، و« معرفة الصَّحابة » (٢ / ١٧٠) .

(٢) « حلية الأولياء » (١ / ١٤٧) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٧٥) ، و« الإصابة » (١ / ٤١٦) مع الجمع والتّصرّف . وانظر : « أسد الغابة » (١ / ٥٩٣) ، و« المعجم الكبير » (٤ / ٥٦) ، وقال الهيثميُّ في « مجمع الزّوائد » (٩ / ٢٩٩) : « وفيه معلَّىٰ بن عبد الرَّحمٰن الواسطيّ ، وهو كذَّاب » .



دحية بن خليفة

رضي ٱلله عنه

* حازَ جمال الخصَال ؛ ولطفَ الخلال ؛ وكان من أجملِ الرِّجال .
* كان يُشبَّه بجبريل ، وحَمل رسالةً نبويَّةً إلىٰ عظيم بصرىٰ .
* له أخبارٌ وقصصٌ وضيئةٌ كهيئتِهِ ، وماتَ بالشَّام سنة (٥٠ هـ) .







دحيةُ بنُ خليفةَ

رضي ٱلله عنه

شخصيَّةٌ متميِّزةٌ :

* شخصيَّةُ هٰذا الصَّحابيّ شخصيَّةٌ متميِّزةٌ من بين شخصيَّات هٰذا الكتاب ؛ الذين تربَّوا في مدرسةِ الصَّادق المصدوق ﷺ ، فهٰذا الصَّحابيُ الجليلُ حاز جمالَ الخصال ، وملاحةَ الخلال ، فكان من أجمل الرِّجال ؛ وقد صَحِبَ النَّبيَّ ﷺ فاستقىٰ منه صفاء القلب ونقاء الحال .

* هٰذا الرَّجلُ الجميلُ الأليفُ هو : دحيةُ بنُ خليفةَ الكلبيّ القُضاعيّ [1] ، صاحبُ الحبيب المحبَّب ، الصَّادق الأمين رسول ٱلله ﷺ ، ورسولُه بكتابه إلىٰ عظيم بصرىٰ ليوصله إلىٰ هرقل صاحب الرُّوم ورئيسهم .

* إنَّ سيرةَ دحية الكَلْبيّ [2] سيرةٌ ثريّةٌ في كثير من المواقف ، بَيْدَ أنّنا

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٤٩ ـ ٢٥١) ، و« معرفة الصَّحابة » (٢ / ٢٣٧ ـ ٢٣٩) ترجمة رقم : (٨٧٨) ، و« الاشتقاق » لابن دريد (ص : ٥٤١) ، و« تاريخ الإسلام » للذَّهبيِّ (عهد معاوية بن أبي سفيان ، ص : ٤٨ ـ ٤٩) ، و« المعجم الكبير » للطَّبرانيّ (٤ / ٢٢٤ ـ ٢٢٦) ، و« الاستيعاب » (١ / ٤٦٣ ـ ٤٦٥) ، و« الإصابة » (١ / ٤٦٣ ـ ٤٦٤) ، و« أسد الغابة » (٢ / ٦) ترجمة رقم : (١٥٠٧) ، و« البداية والنِّهاية » (٨ / ٤٧) وغيرها كثير جداً .

(٢) « الكَلْبيّ » : بفتح الكاف وسكون اللام ، هٰذه النِّسبة إلىٰ قبائل ، منها كلب من =

لا نمتلك معلوماتٍ وافيةً تفصحُ عن حياته قبل الإسلام ، مع العلم أنَّ ابنَ سعد قد وافانا في « طبقاته » بقولٍ جميل : « أسلم دحيةُ بنُ خليفة قديماً ، ولم يشهدْ بدراً ، وكان يُشَبَّه بجبرائيل » (١) .

= اليمن ، منها : زيدٌ وجَبَلَةٌ ابنا شراحيل بن كعب من كلب اليمن ، وأسامةُ بنُ زيد بن شراحيل صاحب رسول ٱلله ﷺ ، ودحيةُ بنُ خليفة الكَلْبيّ من كلب اليمن ، له صحبة . « اللباب في تهذيب الأنساب » (٣ / ١٠٤) .

ودِحية : بكسر الدال وفتحها لغتان مشهورتان . « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٨٥) ، وكان دحية الكَلْبيّ تاجراً يجوبُ الآفاق ، وكثيراً ما كان يذهب بتجارته إلىٰ بصرىٰ الشّام وبيت المقدس ، ولذلك بعثه النَّبيُّ ﷺ ليحملَ رسالةً إلىٰ هرقل ملك الروم .

(١) « طبقاتُ ابن سعد » (٤ / ٢٤٩ ـ ٢٥٠) . أوردَ الثّعالبيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ معلوماتٍ طريفةً وممتعةً عن رجال عصْرِ النُّبوَّة كان بينهم وبين الملائكة سببٌ ، فقال ما مفادُهُ ومحصّلُه وملخّصُه :

« **غسيل الملائكة** » : هو حنظلةُ بنُ أبي عامر الأنصاريّ ، غسّلته الملائكة ، وذلك أنَّه خرجَ يوم أحد فأُصيب ، فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « هـٰذا صاحبكم قد غسَّلته الملائكة » . فسئلت امرأتهُ عن ذلك فقالت : « إنَّه كان معي علىٰ ما يكون عليه الرّجل من امرأتهِ ، فأعجلته حَطْمةٌ بالمسلمين منعتْه عن الاغتسال ، فخرجَ فأُصيب ، وفيه يقولُ الأحوص ـ وكان حنظلة خال أبيه ـ :

غسّلَتْ خالِيَ الملائكةُ الأبرا رُ ميْتاً أكْرِمْ بهِ مِنْ صَريعِ

ومنهم : « **سعدُ بنُ معاذ الأنصاريّ** » ، هبطَ لموتهِ سبعون ألف ملك ؛ لم يهبطوا إلىٰ الأرض قبلها ، واهتزَّ لموته عرشُ ٱلله ، وفي ذلك يقول حسَّان بنُ ثابت ـ رضي ٱلله عنه ـ :

وما اهتزَّ عرشُ ٱلله من موت هالك سمعنا به إلا لموتِ أبي عمرو

ومنهم : « **حسَّانُ بنُ ثابت الأنصاريّ** » ، قال له رسول ٱلله ﷺ : « اهجهم وروحُ القُدس معك » ؛ وقال في حديث آخر : « إنَّ ٱللهَ مؤيِّدٌ حسَّان بروح القدس =

* وفي المجال ذاته ، أخرجَ ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن عامر بن شراحيل الشَّعبيّ قال : شبَّه رسولُ ٱلله ﷺ ثلاثةَ نَفَر من أُمَّتِهِ فقال : « دحيةُ الكلبيُّ يُشْبِهُ جبرائيل ، وعروةُ بنُ مسعود الثَّقفي يشبه عيسىٰ بن مريم ، وعبد العزَّىٰ بن قطن يشبه الدَّجَّال » .

* وفي روايةٍ أخرىٰ : « كان دحيةُ يشبَّه بجبرائيل ، وكان عروةُ بنُ مسعود مَثَلُهُ كَمَثَل صاحب يس ، وكان عبد العزَّىٰ بن قطن يشبّه بالدَّجَّال »[1] .

* وعن حيثيةِ الصُّحبةِ النَّبويَّة وقدمها عند دحيةَ نقرأُ عند ابن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ

= ما نافح عن نبيِّه » ؛ وكان يوضع لحسَّان منبرٌ في مؤخّر المسجد يقومُ عليه فينافح عن رسول ٱلله ﷺ .

ومنهم : « **عمرانُ بنُ حُصين** » : كان تصافحهُ الملائكةُ وتعودُهُ ، ثمَّ افتقدها ، فأتىٰ رسول ٱلله ﷺ ، فقال : يا رسولَ ٱلله ! إنَّ رجالاً كانوا يأتونني لم أرَ أحسنَ وجوهاً ، ولا أطيبَ أرواحاً منهم ، ثمَّ انقطعوا عنِّي .

فقال رسول ٱلله ﷺ : « أصابك جرحٌ فكنتَ تكتمه ؟ » .

قال : أجل ـ وكان جرحٌ أصابه في سبيل ٱلله ـ .

قال : « ثمَّ أظهرته ؟ » .

قال : قد كان ذاك .

قال : « أما لو واللهِ أقمتَ علىٰ كتمانه لزارتْكَ الملائكة إلىٰ أنْ تموت » .

ومنهم : « **جريرُ بنُ عبد ٱلله البجليّ** » ، قال رسولُ ٱلله ﷺ : « يطلعُ عليكم من هٰذا الفجّ خيرُ ذي يمن ، فإنَّ عليه مسحةَ مَلَك » .

ومنهم : « **دحيةُ بنُ خليفة الكلبيّ** » ، وكان جبريل يهبطُ في صورته » . « ثمار القلوب » (ص : ٦٤ ـ ٦٦) بتصرُّف .

(١) « الطَّبقات الكبرىٰ » لابن سعد (٤ / ٢٥٠) ، وانظر : « السِّير والمغازي » لابن إسحاق (ص : ٢٩٧) .

قوله : « شهد دحيةُ مع رسولِ ٱلله ﷺ المشاهد بعد بدر ، وبقي إلىٰ خلافةِ معاويةَ بنِ أبي سفيان ـ رضي ٱلله عنهما ـ » [1] .

* بينما صاغ ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللهُ المعلومات السَّابقة فقال عن سيِّدنا دحية [2] : « كان من كبار الصَّحابة ، لم يشهدْ بدراً ؛ وشهد أحداً وما بعدها من المشاهد ، وبقي إلىٰ خلافة معاوية ، وهو الذي بعثَه رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ قيصر في الهدنة ، وذلك في سنة ستّ من الهجرة . . . . » [3] .

« ذَاكَ جِبْــــرِيل » :

* لم يغبْ سيِّدنا دحيةُ عن مشهدٍ من المشاهد النَّبويَّة بعد غزاةِ بدر ، وكان له حضورٌ متميِّزٌ في بعض المغازي ، لذلك كان جبريلُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينزلُ في

---

(١) المصدر السَّابق (٤ / ٢٥١) ، وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٦٠) .

وأخرجَ ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللهُ بسنده عن جابر بنِ عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، عن رسولِ ٱلله ﷺ قال : « عُرِض عليَّ الأنبياء ، فإذا موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رجلٌ ضَرْب من الرِّجال كأنَّه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسىٰ بن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، فإذا أقرب من رأيتُ به شبهاً عروة بن مسعود ، ورأيتُ إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فإذا أقرب مَنْ رأيتُ به شبهاً صاحبكم ـ يعني : نفسه ـ ، ورأيتُ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، فإذا أقرب من رأيت به شبهاً دحية » . « مختصر تاريخ دمشق » (٣ / ١٥٠) .

(٢) « دحيةُ » : قال ابن دريد رَحِمَهُ ٱللهُ في « الاشتقاق » : « دِحْية : فِعْلَة ، من قولهم : دحيتُ ، ودحوت ، ودحَا المكان ، إذا اتّسعَ فهو داحٍ . وأُدحيُّ النّعام : الموضع الذي تصلحه لتبيضَ فيه » . « الاشتقاق » (ص : ٥٤١) . وقال الفيروزآبادي : « الدِّحية : بالكسر : رئيس الجند » . « القاموس المحيط » (ص : ١٦٥٤) . وقال ابن الأثير : « الدّحية : رئيس الجند ومُقَدّمهم ، وكأنّه من دحاه يدحوه ، إذا بَسَطه ومهَّده ؛ لأنَّ الرَّئيسَ له البَسْط والتَّمهيد ، وقلب الواو فيه ياء نظير قلبها في صِبْيَة وفِتية » . « النِّهاية في غريب الحديث والأثر » (ص : ٣٠٠) .

(٣) « الاستيعاب » (١ / ٤٦٣ ـ ٤٦٤) .

صورته ، وكان يراهُ عددٌ من جلّة الصَّحابة وأعيانهم .

* كان هـٰذا في غزوة بني قُريظةَ بعد غزوة الخندق ؛ إذ إنَّ القرظيّين ألّبوا قريشاً علىٰ رسول ٱلله ﷺ والذين معه ، وتكتَّلُوا معهم في الأحزاب ، وقطعُوا المؤن عن المسلمين ، حتَّىٰ مسَّهم الضّرُّ ، ولولا أنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ أرسلَ جنوده ، وهزمَ الأحزاب ، لخذلَ المسلمون ، ولم تقمْ لهم قائمة بعد .

* لهـٰذا لمَّا اتَّجه رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ المدينة المنوَّرة ، بعد أنْ رأىٰ الأحزاب بجموعها ترتدُّ راجعةً نحو مكَّة ، تحمل معها النَّدامةَ ، والحسرةَ ، والغيظَ ، والهلعَ ، أتىٰ جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُعْتمّاً بعمامةٍ من استبرق ، علىٰ بغلةٍ عليها سرجٌ ، عليها قطيفةٌ من ديباج ، فقال لرسولِ ٱلله ﷺ : « أَوَقَدْ وضعتَ السّلاح يا رسولَ ٱلله ؟ » .

قال ﷺ : « نعم » .

قال جبريلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فما وضعت الملائكةُ السِّلاح بعد ، وما رجعتُ الآن إلا منْ طلب القوم ، إنَّ اللهَ ـ عزَّ وجلَّ ـ يأمرُكَ يا محمَّد بالمسير إلىٰ بني قريظة ، فإنِّي عامدٌ إليهم فمزلزلٌ بهم » .

* وكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ قد نزل في صورة دحيةَ الكلبيّ ـ رضي ٱلله عنه ـ . وهـٰذا الأمر وردَ في المصادر المتنوِّعة ، ومنها ما أخرجه البيهقيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « الدَّلائل » عن أمّنا عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ : « أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ كان عندها ، فسلَّم علينا رجل ونحنُ في البيت ، فقام رسولُ ٱلله ﷺ فزعاً ، فقمت في أثره ، فإذا بدحيةَ الكلبيّ ، فقال : هـٰذا جبريلُ يأمرني أنْ أذهبَ إلىٰ بني قريظة . . . » . وتتابعُ أمّنا عائشةُ حديثها : « . . . وخرجَ النَّبيُّ ﷺ فمرَّ بمجالس بينه وبين بني قريظة ، فقال : « هل مرَّ بكم منْ أحد ؟ » .

قالوا : مرَّ علينا دحية الكلبيّ علىٰ بغلة شهباء ، تحته قطيفة ديباج .

فقال النَّبيُّ ﷺ : « ليس ذلك بدحيةَ ، ولـٰكنَّه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أُرسل

إلىٰ بني قريظة لِيزلزلَهم ، ويقذفَ في قلوبهم الرُّعب . . . » [1] .

* وفي روايةٍ أخرىٰ عن أمّنا عائشةَ قالت : « . . . ثمَّ خرجتُ ، فذهبتُ أنظرُ ، فإذا هو دحيةُ الكلبيّ .

قال ﷺ : « أَوَرَأَيته ؟ » .

قلت : نعم .

قال : « ذاك جبريل ، أمرني أنْ أخرجَ إلىٰ بني قريظة » [2] .

* وتقول أمّنا أيضاً : « فكأنّي أنظرُ إلىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ يمسحُ الغبار عن وجْهِ جبريل .

فقلت : هٰذا دحيةُ يا رسولَ ٱلله .

فقال : « هٰذا جبريل » [3] .

* وقد رأىٰ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ نفرٌ من الصَّحابة الكرام في صورة سيِّدنا دحية الكلبيّ ؛ إذ مرَّ بهم النَّبيّ ﷺ فقال : « هل مرَّ عليكم أحد ؟ » .

---

(1) « دلائل النُّبوَّة » (٤ / ٨ ـ ٩) باختصار ، وانظر : « تفسير القرطبيّ » (١٤ / ١٣٨) ، وقال الأصبهاني : « كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتي في الأحايين النّبيّ ﷺ متصوّراً في صورته » . « معرفة الصَّحابة » (٢ / ٢٣٧) .

(2) « دلائل النُّبوَّة » (٤ / ١٠) ، وانظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٦٢) وفي رواية أخرىٰ قال : « أو رأيتيه ؟ » .
قالت : نعم .
قال : « ذاك جبريل ، وهو يقرئُك السَّلام » .
قالت : وعليه السَّلامُ ورحمةُ ٱلله وبركاته ، جزاه ٱلله من صاحبٍ ودخيلٍ ـ ضيفٍ ـ خيراً ، فنِعْمَ الصَّاحب ونعم الدّخيل » . « مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٦٢) .

(3) « دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (٤ / ١١) .

فقالوا : نعم مرَّ علينا دحيةُ بنُ خليفة الكلبيّ علىٰ بغلةٍ بيضاء ، عليها رحالة ، عليها قطيفة ديباج .

فقال رسول ٱلله ﷺ : « ذاك جبريل ، بعثه ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ إلىٰ بني قريظة يزلزلُ بهم حصونهم ، ويقذفُ الرّعب في قلوبهم » [1] . وكان رسولُ ٱللهِ ﷺ يشبّه دحيةَ الكلبيّ بجبريل [2] عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ .

* ومن المؤكَّد أنَّ جبريلَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ، هو صاحبُ الوحي إلىٰ الأنبياء والرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وهو المقدَّمُ علىٰ سائر الملائكة [3] ، وكان ينزلُ في بعض

---

(١) « دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (٤ / ١١) ، بتصرُّف يسير . وانظر : « تاريخ الإسلام » للذّهبيّ (المغازي ، ص : ٣٠٩ ـ ٣١٠) .

(٢) « دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ (٤ / ١٢) ، وانظر : « شرح حياة الصَّحابة » (٤ / ٣٣٨ ـ ٣٣٩) .

ومن الجدير بالذِّكر هٰهنا أنَّ العارفَ بٱلله الشَّيخ عمر بن الفارض رَحِمَهُ ٱللهُ قد أشار في تائيتهِ الكبرىٰ إلىٰ أنَّ جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كان يأتي سيِّدنا وحبيبنا رسول ٱلله ﷺ علىٰ صورة دحية الكلبيّ فقال :

وهَـا دِحيـةٌ وافـىٰ الأميـنَ نبيَّـا	بصـورتـهِ فـي بـدء وحـي النُّبـوَّةِ
أجبـريـلُ قـلْ لـي كـان دحيـةَ إذ بـدا	لِمُهْـدِي الهُـدىٰ فـي هيئـة بشـريَّـةِ

« العقد النَّفيس » (ص : ١٨٧) .

(٣) « الملائكة » : الملائكةُ مخلوقاتٌ غيبيةٌ عنَّا ، ذواتُ أجسام نورانيّةٍ لطيفةٍ ، لا نراهم في الحالاتِ العاديّة ، قادرون علىٰ التَّشكُّل بالأشكال الجسمانيّة المختلفة المرئيّة لنا ، ذوو قدرات خارقة ، لا حصْرَ لهم ، مقرّبون إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، طائعون لا يعصون اللهَ ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، لا يتناكحون ولا يتناسلون ، ولا يأكلون ولا يشربون ، إنَّما هم عبادٌ مكرمون ، يحملون رسالاتِ ٱلله في العالَمين ، ويؤدّون وظائفهم في الأكوان بحسب مجرىٰ الأقدار ، علىٰ مراد العزيز الجبَّار .

=

الأحايين علىٰ صورة دحية الكلبيّ ـ رضي ٱلله عنه ـ .

دحيةُ في غـزوة خيـبر :

* كان سيِّدنا دِحْيةُ الكلبيّ ـ رضي ٱلله عنه ـ من أعيان المجاهدين المخلصين الذين يؤثرون الحياة الباقية علىٰ الحياةِ الفانية ، فقد خرجَ بالمعيَّة النَّبويَّة نحو خيبر تلك الواحة الخضراء علىٰ طريق الشَّام ، وكانت غنيَّة بالزَّرع والشَّجر والنَّخيل ، ولعلَّ خيبرَ هٰذه كانت من أغنىٰ بلاد الحجاز ، وكان يسكنُها جماعةٌ من اليهود في حصونٍ وقلاعٍ قامت فوق الصُّخور والجبال ، وكانوا من أقوىٰ طوائفهم بأساً ، وأكثرهم مالاً ، وأوفرها سلاحاً ، ولٰكنَّ حصونَهم تهاوت حصناً إثر حصنٍ تحتَ وطأة رجال صدقوا ما عاهدوا ٱلله

= ومن أركان العقيدةِ الإسلاميَّةِ الإيمانُ بالملائكة ، وقد جاء الحديثُ عنهم في القُرآن العظيم بمناسباتٍ مختلفةٍ في نحو خمس وسبعين آية من نحو ثلاث وثلاثين سورة ، كما جاء في السُّنَّة الشَّريفة ، والأحاديث النَّبويَّة المنيفة التَّنصيص علىٰ أنَّ الإيمان بالملائكة جزءٌ من أركان العقيدة الإسلاميَّة . وقد بيَّن رسولُ ٱلله ﷺ أنَّ غير الأنبياء ، من المؤمنين الأتقياء الأصفياء يمكن أنْ يقابلوا الملائكةَ في أحوالٍ خاصّة ، وقد حدثَ هٰذا مع عددٍ من رجال عصر النُّبوَّة من الصَّحابة الكرام رضوان ٱلله عليهم .

وقد ثبتَ أنَّ الملائكة قادرون علىٰ التَّمثُّل بأمثال الأشياء ، والتَّشكُّل بالأشكال الجسمانيَّة ، فقد كان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يأتي إلىٰ مجلس رسولِ ٱلله ﷺ علىٰ النَّحو الآتي :

أ ـ علىٰ صورة إنسان مجهول ، كما في قصَّة نزول جبريل علىٰ مريم .

ب ـ علىٰ صورة إنسان معلوم ، فكثيراً ما كان يأتي المجلس النَّبويّ علىٰ صورة دحية الكلبيّ .

والملائكة لا يُحصون عدداً في علم المخلوقات لكثرتهم الكاثرة ، ولأنَّهم من جنود ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولهم أصنافٌ ووظائفٌ تكفّلت بذكرها الكتب والمصنّفات المتخصصة ، وٱلله أعلم .

عليه ، علىٰ الرّغم من دفاع اليهود المستميت عنها ، وكان من بين المجاهدين الشُّجعان سيِّدنا دحية الكلبيّ ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ ، الذي كانت صفيَّةُ بنتُ حُيي[1] من نصيبه في هٰذه الغزوة المباركة علىٰ الرِّجال المخلصين لله ورسوله .

* فقد جاء في الآثار الصِّحاح ؛ والسِّيرة ؛ وكتب الطَّبقات ؛ وغيرها أنَّ أمَّ المؤمنين صفيَّة بنتَ حُيي كانت من بين أسرىٰ الخيبريين ، وكانت حديثة عهد بِعُرس ، وكانت تحت كنانة بن الرَّبيع ملك خيبر ، وكانت قد رأتْ في المنام وهي عروسٌ أنَّ قمراً وقع في حجرها ، فذكَرتْ رؤياها لزوجها ، فقال : « ما هٰذا إلا أنَّك تمنين ملك الحجاز[2] ـ يعني النَّبيّ ﷺ ـ » وغضب غضباً شديداً ، ثمَّ لطمَها علىٰ وجهِها لطمةً خضَّر عينها .

* ولمَّا وقعتِ السَّيِّدةُ الصَّافيةُ صفيَّة في سهم سيِّدنا دحية الكلبيّ، قال بعضُ رجال الصَّحابة للحبيبِ المصطفىٰ ﷺ : « يا نبيَّ ٱلله ! أعطيتَ دحيةَ الكلبيّ صفيَّة بنت حيي سيِّدة قريظة والنَّضير ، وهي ما تصلح إلا لك » .

فقال ﷺ لدحيةَ : « خذْ جاريةً من السَّبي غيرها » ، فأعتقَها رسولُ ٱلله ﷺ ، ثمَّ تزوَّجها ، تخفيفاً من مصابها ، وحفظاً لكرامتها ، وجعل عتْقَها صَدَاقَها ، وعندما سألها ﷺ عن سبب اخضرار عينها ، قصَّت عليه القَصَص ، وأخبرته برؤياها .

---

(١) اقرأ سيرة أمّ المؤمنين صفيّة بنت حييّ في موسوعتنا اللطيفة : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٣٥٥ ـ ٣٨٠) دار اليمامة ـ دمشق ـ ط : ٦ ـ ٢٠٠٥ م .

(٢) جاء في بعض مصادر السِّيرة النَّبويَّة أنَّ كنانةَ بنَ أبي الحقيق لطم صفيّةً لطمةً شديدة وقال لها : « أتتمنّين ملك يثرب أنْ يصيرَ بعلك ؟ » . « المغازي » (٢ / ٧٦٤) ، و« البداية والنِّهاية » (٤ / ١٩٧) ، نقلاً عن « السِّيرة النَّبويَّة » لابن هشام (٢ / ٣٣٦) .

* أوجز هٰذه الأحداثَ الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ في « صحيحه » بسنده عن أنسِ بنِ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فكان ممَّا قال : « . . . وكان في السَّبي صفيّة ، فصارت إلىٰ دحيةَ الكلبيّ ، ثمَّ صارت إلىٰ النَّبيِّ ﷺ ، فجعل عتقها صداقَها . . . . » [1] .

* ثمَّ جاء ابنُ حجر رَحِمَهُ اللهُ فأفرغَ براعته وبلاغته في شرح هٰذا الحديث ، وجمع آراء العُلماء وأقوالهم في قصَّة دحيةَ وصفيّةَ ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، فقال ما بيانه وإيجازه : « جاء دحيةُ ـ رضي ٱلله عنه ـ عقب غزوة خيبر ، وقال للصَّادق المصدوق ﷺ : يا رسولَ ٱلله ! أعطني جاريةً من السَّبي .

فقال الحبيب المصطفىٰ ﷺ له : « اذهبْ فخذْ جاريةً » .

فذهب فأخذَ صفية ؛ فجاء رجلٌ إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ وقال : يا نبيَّ ٱلله ! أعطيتَ دحية صفيَّة سيِّدة قريظة والنَّضير ، ولا تصلحُ إلا لك .

قال ﷺ : « ادعوه بها » .

فلمَّا نظرَ إليها النَّبيُّ ﷺ قال لدحيةَ : « خذْ جارية من السَّبي غيرها » .

ولمَّا استرجع النَّبيُّ ﷺ صفيّة من دحيةَ أعطاهُ بنت عمها ؛ لأنَّه لمَّا قيل للنَّبيِّ ﷺ إنَّها بنتُ ملك من ملوكهم ، ظهرَ له أنَّها ليست ممَّن تُوهبُ لدحيةَ لكثرة مَنْ كان في الصَّحابة مثل دحية وفوقه ، وقلّة مَنْ كان في السَّبي مثل صفيَّة في نفاستِها ، فلو خصَّه بها لأمكن تغيير خاطر بعضهم ، فكان من المصلحةِ العامةِ ارتجاعها منه واختصاص النَّبيّ ﷺ بها ، فإنَّ في ذلك رضا الجميع ، وليس ذلك من الرُّجوع في الهبةِ من شيء ؛ ولعلَّه عوَّضَه عنها بنت عمّها ، أو بنت عمّ زوجها ، فلم تطبْ نفسه ، فأعطاه من جملة السَّبي زيادة علىٰ ذلك » [2] .

---

(١) أخرجه البخاريّ في المغازي برقم : (٤٢٠٠) .

(٢) « فتح الباري » (٧ / ٥٣٧) المكتبة السَّلفيَّة ـ القاهرة ـ ط : ٤ ـ ١٤٠٨ هـ . =

* وفي هٰذا الزَّواج الاختياري أصبحت صفيَّةُ بنتُ حُيي بن أخطب إحدىٰ أمّهات المؤمنين الطَّاهرات ، وإحدىٰ نساء أهل البيتِ العابداتِ العالمات . . « وممَّا ذكرْنَا يتبيَّن لنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ أراد بزواجه من صفيَّة إعزازَها وتكريمَها وصيانتَها من أن تُفترش لرجل لا يعرفُ لها شرفها ونسبَها في قومها . . . وقد ضربَ النَّبيُّ ﷺ بزواجه منها في باب التَّسامح والعفو المثلَ الأعلىٰ ، فطالما نال النَّبيَّ ﷺ والمسلمين من قومها الشَّـرُّ الكثيرُ ، ولا سيما أبوها الذي كان دائم التّأليب علىٰ النَّبيِّ ﷺ » [1] .

= ولأستاذنا الدّكتور محمّد فوزي فيض ٱلله تعليقٌ نفيسٌ علىٰ هٰذه القصَّة فيقول : « إنَّ زواجَ النَّبيِّ ﷺ من صفيَّة ، كان من أمرِ اللهِ ، وقد أشارتْ إليه رؤياها ، وهي عروسُ زوجها الأوَّل ، أنَّ قمراً وقع في حجرها ، ففسَّرها لها زوجها برغبتها في محمَّد ، ولطمها لطمة أثَّرت في عينها . . . وقد استكثرها الصَّحابة أنْ تكونَ لواحدٍ منهم في قسمة السَّبي ، ورأوا أنَّها لا تصلحُ إلا لرسول ٱلله ﷺ ؛ إنَّها سيِّدةُ بني قريظة وبني النَّضير ، واستجاب رسولُ ٱلله ﷺ لرغبةِ أصحابه ، ورأىٰ في ذلك تكريماً لهٰذه العزيزة الشَّريفة في قومها ، فتزوَّجها تخفيفاً لمصابها ، في قتل زوجها وبعض قومها في تلك الغزوة . أرأيتَ إلىٰ الإيثار ، وتكريم الرَّسول ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ، وتقديم الصَّحابة مرضاته ومسرَّاته علىٰ أنفسهم ، لقد صدَّقوا كلمات ٱلله ، وطبّقوا فيه شرعَهُ وحكْمَهُ : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٦] ، وارتقوا إلىٰ الذّروة في درجات كمال الإيمان ، التي وُصِفَ ذووها بقوله ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتّىٰ يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما » . « صور وعبر من الجهاد النَّبويّ في المدينة » (ص : ٣١٧) .

(١) « السِّيرة النَّبويَّةُ في ضوء القرآن والسُّنَّة » لمحمَّد أبو شهبة (٢ / ٣٨٥) باختصار وتصرُّف . إنَّ قصَّة صفيَّة بنت حيي ، واسترجاعها من دحية الكلبيّ ، واصطفائها ﷺ لنفسه زوجة ؛ قد جعل بعض أعداء الإسلام يتّهمون الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ بأنَّه ما استرجع صفيَّة وتزوَّجها إلا بدافع رغبة شخصيَّة . بينما الحقائق الكثيرة الواضحة تؤكِّدُ بأنَّ صفيَّة ابنة ملك ، وزوجة ملك ، ومثلها لا يُوهب كما تُوهب السَّبايا الأخريات . =

= ولهٰذا استرجعها سيِّدنا محمَّد رسول ٱلله ﷺ من دحية لمَّا علم بمكانتها وشرفها ، وأكرمها بزواجه منها ، ومواساتها في قومها وإعزازها وتكريمها ، فأعتقها ، وخيَّرها أنْ تسلمَ أو تعودَ إلىٰ أهلها ، فاختارت دين الهدىٰ والحقّ ، وأسلمت ، ودخلت صرح أمَّهات المؤمنين لتغدو من نساء أهل البيت الطَّاهرات ، ومن خيرة نساء الدُّنيا وأشرفهنَّ وأعظمهنَّ ، ولو أراد رسولُ ٱلله ﷺ أنْ يأخذها لنفسه جاريةً يتسرَّىٰ بها لفعلَ ، ولا يقدرُ أحد أنْ يطعنَ في ذلك ؛ لأنَّ قوانين الحرب آنذاك تبيحُ له ﷺ أنْ يعاملَ صفيَّة معاملة الرَّقيق ، فيتّخذها لنفسه جارية ؛ لأنَّها أسيرةُ حرب .

وكان الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ يبالغُ في إكرامها ، ويراعي مشاعرها ، تعليماً منه وتفهيماً لأمته في إكرام العزيز الذي ذلّ . لذلك لمَّا سُبيت بنات كسرىٰ في العهد العُمريّ استشار الفاروقُ أميرَ علماء الصَّحابة وسيِّدهم عليّ بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ كيف تكون معاملتهنَّ ؟ فأشار سيِّدنا عليٌّ علىٰ الفاروق بأنْ يُقَوّمْنَ ، ومهما بلغ ثمنهنَّ قام به منْ يختارهنَّ ، فاستصوب سيِّدنا عمر رأي علي ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، فقوِّمْنَ ، فاشتراهنَّ سيِّدنا عليّ ثمَّ أعتقهنَّ ، فزوَّج إحداهنَّ ابنه الحُسين ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وزوج الثَّانية محمَّد بن أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، وزوَّج الثَّالثة عبد ٱلله بن عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، وذلك تكريماً لهنَّ ، وجبراً لخواطرهنَّ ؛ لأنَّهنَّ عزيزات ذللْنَ بعد عزّةِ الملك .

وقد سعدنَ بهٰذا الزَّواج من الأكْفَاء سعادةً غامرةً نسينَ من خلالها الماضي ؛ وقد أنجبت زوجةُ الحسين بن عليّ ابنه علي المعروف بلقب زين العابدين ، وناهيك بهٰذا الابن من مكانة امتدّت منه أغصان الدّوحة الهاشميَّة الطَّاهرة .

وهٰكذا يتّضح شرف القصد ونبله في كلِّ عملٍ يعمله رسولُ ٱلله ﷺ وأصحابه الكرام ، فهل يدرك المغرضون هٰذه الحقائق المشرقة ، والمقاصد النَّبيلة التي تبعثُ الإعجاب في النُّفوس ؟ ! لا شكَّ في أنَّ الصُّبحَ لا يمكن تغطيته بقطعةِ قماش ومن ثم نقول : إنَّ الظلام يلفُّ الكون ! ولله ِدرّ أحمد المتنبّي إذ يقول :

وهبْنِـي قلـتُ هـٰذا الصُّبـحُ ليـلٌ ... أيعمـىٰ العـالمـون عـن الضِّيـاء ؟ ! !

من حَمَلةِ رسَائل النَّبيِّ ﷺ :

* من المُتَعالم في مجريات السِّيرة النَّبويَّة وأحداثها أنَّه عقب صُلح الحديبية قد توسَّعَتْ دعوةُ الإسلام داخلَ الجزيرة العربية وخارجها . فقد أرسل الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ سيدنا دحيةَ بنَ خليفة الكلبيِّ إلىٰ قيصر ، وعبدَ ٱلله بنَ حذافةَ السَّهميِّ إلىٰ كسرىٰ ، وعمرو بنَ أميَّة الضّمريّ إلىٰ نجاشي الحبشة ، وحاطبَ بنَ أبي بلتعة اللخميّ إلىٰ المقوقس حاكم مصر ، وسليطَ بنَ عمرو العامريّ إلىٰ هوذةَ بن عليّ الحنفيّ في اليمامة .

* قال سيِّدنا أنسُ بنُ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ : « كتبَ النَّبيُّ ﷺ إلىٰ كلِّ جبَّارٍ يدعوهم إلىٰ ٱلله » . وسمَّىٰ منهم كسرىٰ وقيصر والنَّجاشي ، قال : وليس بالنَّجاشي الذي أسلم .

* وقد أخرج الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « صحيحه » نصَّ كتاب الحبيب الأعظم ﷺ الذي بعثَ به سيِّدنا دحيةَ بن خليفة الكلبيِّ إلىٰ عظيم بصرىٰ ، فدفعه إلىٰ هرقل ، « وهو النَّصُّ الوحيدُ الذي ثبتتْ صحَّتُهُ وفْقَ شروط المحدِّثين من بين سائر نصوص الكتب التي وجّهتْ إلىٰ الملوك والأُمراء التي ينبغي أنْ تنقدَ من جهة المتْن والسَّند معاً بل اعتمادها تاريخيّاً ، فضلاً عن الاستدلال بها في مجال التَّشريع »[1] .

* أمَّا نصُّ كتاب رسول ٱلله ﷺ الذي بعث به دحية إلىٰ عظيم بصرىٰ ، فدفعه إلىٰ هِرَقْل ، فهو كما جاء في « صحيح البخاريّ » :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

من محمَّد عبدِ اللهِ ورسوله ، إلىٰ هرقلَ عظيمِ الرُّوم ،
سلامٌ علىٰ من اتَّبعَ الهدىٰ .

---

(١) « السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة » للدّكتور أكرم العمريّ (٢ / ٤٥٦) .

أمَّا بعد : فإنِّي أدعوكَ بدعايةِ الإسلام ، أسلمْ تسلمْ ، أسلمْ يؤْتك اللهُ أجرَكَ مرَّتَيْن ، فإنْ تولَّيت فإنَّ عليك إثمَ الأريسيين ، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران : ٦٤] »[١] .

---

(١) أخرجه البخاريُّ في بدء الوحي برقم : (٧) ، وهو من حديث طويلٍ مشهور ، وأخرجه أيضاً في مواضع أخرىٰ متعدِّدة من صحيحه . ومعنىٰ قوله « من محمَّد » : فيه أنَّ السُّنَّة أنْ يبدأ الكتاب بنفسه ، وهو قولُ الجمهور أو فيه إجماع الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ . و« عظيم الرُّوم » : فيه عدولٌ عن ذِكْرِهِ بالملك أو الإمرة ؛ لأنَّه معزول بحكم الإسلام ، لـٰكنَّه لم يخْلهِ من إكرامٍ لمصلحة التَّألّف . و« سلامٌ علىٰ من اتَّبع الهدىٰ » : ليس المرادُ من هـٰذه التَّحية ، وإنَّما معناه سَلِمَ من عذاب ٱلله مَنْ أسلم . و« بدعاية الإسلام » : وهي : شهادة أنْ لا إلـٰه إلا ٱلله ، وأنَّ محمَّداً رسول ٱلله . و« توليتَ » : أعرضت عن الإجابة إلىٰ الدّخول في الإسلام . و« الأريسيين » : جمع أريسيّ وهو الفلاح ، وقيل : الأمير ، وقيل : التَّابع ، وقيل : الحرَّاث .

قال ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « اختلف في هـٰذه اللفظة صيغة ومعنىٰ ، فقيل : هم الخدم والخول لصدّه إيَّاهم عن الدِّين . وقيل : فرقة من قوم هرقل قتلت نبيَّها . وقيل : الملوك . وقيل : العشارون » .

قال الإمام الخّطابيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « أراد أنَّ عليك إثم الضُّعفاء والأتباع إذا لم يسلموا تقليداً له ؛ لأنَّ الأصاغر أتباع الأكابر » .

وقال ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « إنَّ عليك مع إثمك إثم الأريسيين » .

وقد اشتملت هـٰذه الجُمل القليلة التي تضمَّنها هـٰذا الكتاب علىٰ الأمر بقوله : « أسلمْ » ، وعلىٰ التَّرغيب بقوله : « تسلم ويؤتك » ، وعلىٰ الزَّجر بقوله : « فإنْ توليت » ، وعلىٰ التَّرهيب بقوله : « فإنَّ عليك » ، وعلىٰ الدَّلالة =

* كان الكتابُ النَّبويُّ الذي حمله سيِّدنا دحيةُ إلىٰ هرقْلَ كتاباً أنيقاً بكلِّ ما تحملهُ الكلمةُ من معنىٰ ، « ويلاحظ أنَّ الكتاب الموجَّه لهرقل يتّسم بالمحافظةِ علىٰ الصِّبغةِ الإسلاميَّة حيث يبدأُ بالبسملةِ ، كما يتّسم بالصَّراحة في الدَّعوة إلىٰ الإيمان بالإسلام ، وبنبوَّة محمَّد ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ ، لٰكنَّه بنفس الوقت يصطبغُ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنة واحترام المخاطب (عظيم الرُّوم) لمكانته بين قومه ، وترغيباً له في الإسلام ، ومع التَّرغيب بالأجر ذكر التَّرهيب من الإثم الذي يلحقه إذا حجب قومه عن الإسلام »[1] .

* وقد ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ اتَّخذ الخاتمَ لمَّا أراد أنْ يكتبَ إلىٰ الرُّوم ، جاء

= بقوله : « يا أهلَ الكتاب » ، وفي ذلك من البلاغة ما لا تخفىٰ ، وكيف لا ؟ وهو كلامُ مَنْ أوتي جوامع الكلم ﷺ .

وذكر السُّهيليُّ : « أنَّه بلغه أنَّ هرقلَ وضع الكتاب في قصبة من ذهب تعظيماً له ، وأنَّهم لم يزالوا يتوارثونه حتَّىٰ كان عند ملك الفرنج الذي تغلَّب علىٰ طليطلة ، ثمَّ كان عند سبطه ، فحدثني بعضُ أصحابنا أنَّ عبد الملك بن سعيد أحد قوَّاد المسلمين اجتمعَ بذلك الملك ، فأخرج له الكتاب ، فلمَّا رآهُ استعبرَ ، وسأل أنْ يمكّنه من تقبيله ، فامتنعَ » .

وحدَّث سيف الدِّين فليح المنصوري قال : « أرسلني الملكُ المنصورُ قلاوون إلىٰ ملك الغرب بهدية ، فأرسلني ملكُ الغرب إلىٰ ملك الفرنج في شفاعةٍ فقبلتها ، وعرض عليَّ الإقامة عنده فامتنعتُ . فقال لي : « لأتحفنَّك بتحفة سنيّة ؛ فأخرج لي صندوقاً مصفّحاً بذهب ، فأخرجَ منه مقلمة ذهب ، فأخرج منها كتاباً قد زالت أكثرُ حروفه ، وقد التصقت عليه خرقةُ حرير ، فقال : « هـٰذا كتابُ نبيِّكم إلىٰ جدِّي قيصر ، ما زلنا نتوارثه إلىٰ الآن ، وأوصانا آباؤنا أنَّه ما دام هـٰذا الكتابُ عندنا لا يزالُ الملك فينا ، فنحنُ نحفظُه غايةَ الحفظ ، ونعظِّمُه ، ونكتُمه عن النَّصارىٰ ليدوم الملك فينا » . « فتح الباري » (١ / ٥٨) ، و« السِّيرة الحلبيّة » (٣ / ٢٨٩) مع الجمع بينها والتَّصرُّف .

(١) « السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة » (٢ / ٤٦٠) .

في « الصَّحيح » عن سيِّدنا أنسِ بنِ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « لمَّا أراد النَّبيُّ ﷺ أن يكتبَ إلىٰ الرُّوم ، قيل له : إنَّهم لن يقرؤوا كتابك إذا لم يكن مختوماً . فاتَّخذ خاتماً من فضَّة ونقشه : محمَّد رسول ٱلله . فكأنَّما أنظرُ إلىٰ بياضه في يده » [١] .

* وساق ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللهُ وغيرهُ قصَّة بعث النَّبيّ ﷺ دحية بن خليفة الكلبيّ إلىٰ قيصر ، وذكر الأحداث التي جرت لسيِّدنا دحية في هٰذه الرحلة .

* وها نحنُ أولاء نرهفُ الأسماعَ ، ونصغي إلىٰ حديث سيِّدنا دحية الذي يسردُ لنا قصَّة رحلته الشَّائقة فيقول : « بعث النَّبيُّ ﷺ معي بكتاب إلىٰ قيصر ، فقمتُ بالباب فقلت : أنا رسولُ رسولِ ٱلله ﷺ ، ففزعوا لذلك ، فدخل عليه الآذن فقال : هٰذا رجلٌ بالباب يزعمُ أنَّه رسولُ رسولِ ٱلله ﷺ ؛

---

(١) أخرجه البخاريُّ في اللباس برقم : (٥٨٧٥) . إنَّ اتّخاذ الخاتم يدلُّ علىٰ مرونة السِّياسة الشَّرعية .

قال الدّكتور العمريّ بعد أنْ أوردَ هٰذا الحديث : « ممَّا يدلُّ علىٰ مرونة السِّياسة الإسلاميّة في الإفادة من الوسائل والرّسوم المعاصرة ، ما دامت لا تتعارض مع أحكام الشَّريعة وروحها العامة » . « السِّيرة النَّبويَّة الصَّحيحة » (٢ / ٤٥٩) .

وكان نقش خاتمه ﷺ ثلاثة أسطر : محمَّد سطر ، ورسول سطر ، و ٱلله سطر ، والأسطر الثَّلاثة تقرأ من أسفل إلىٰ فوق : فمحمّد آخر الأسطر ، ورسول في الوسط ، وٱلله فوق ؛ علىٰ النّحو الآتي :

ٱلله
رســول
محــمّــد

وختم رسول ٱلله ﷺ بذلك الخاتم الكتب ، وكان في يده الشَّريفة ، ثمَّ في يد سيِّدنا أبي بكر ، ثمَّ في يد سيِّدنا عمر ، ثمَّ في يد سيِّدنا عثمان ـ رضي ٱلله عنهم ـ حتَّىٰ وقع في بئر أريس في السَّنة التي تُوفي سيِّدنا عثمان ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فالتمسوه ثلاثة أيَّام ، فلم يجدوه . وٱلله تعالىٰ أعلم .

فأذِنَ لي ، فدخلتُ عليه ، فأعطيتُه الكتاب ، فقُرئَ عليه : بسم ٱلله الرَّحمٰن الرَّحيم ، من محمَّدٍ رسول ٱلله ، إلىٰ قيصر صاحب الرُّوم ، فإذا ابنُ أخٍ له أحمر أزرق سَبْطُ الشَّعْر ، قد نخَرَ ، ثمَّ قال : لِمَ لَمْ يكتب : إلىٰ ملك الرُّوم ولم يبدأْ بك ؟ ! لا تقرأْ كتابه اليوم . فقال لهم : اخرجوا ؛ فدعا الأسقف ، وكانوا يصدرون عن رأيه ويقبلون قوله ، فلمَّا قُرئَ عليه الكتاب ، قال : هو واللهِ رسول ٱلله الذي بشَّرنا به موسىٰ وعيسىٰ ، هو وٱلله رسول ٱلله الذي بشَّرنا به موسىٰ وعيسىٰ ، هو واللهِ رسول ٱلله الذي بشَّرنا به موسىٰ وعيسىٰ .

قال : فأي : شيء ترىٰ ؟

قال : أرىٰ أنْ تتبعه .

قال قيصر : وأنا أعلمُ ما تقول ، ولـٰكنْ لا أستطيعُ أنْ أتبعه ، يذهبُ ملكي ، ويقتلُني الرُّوم »[1] .

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٦١ ـ ١٦٢) ، وأخرجه الطّبرانيّ في « الكبير » (٤ / ٢٢٥) برقم (٤١٩٨) ، وانظر : « مجمع الزَّوائد » (٥ / ٣٠٦) ، و« معرفة الصَّحابة » (٢ / ٢٣٨) ، وهـٰذا الحديث فيه نظر ؛ لأنَّ في رجاله ضعفاء ومتروكين .

وقوله « أحمر أزرق » : أي : أحمر الوجه ، وأزرق العينَيْن . و« سبط الرَّأس » : أي : شعره مسترسلاً غير جَعْدٍ . و« نخر » : النَّخر : مدّ الصَّوت والنَّفس في الخياشيم . و« الأسقف » : هو عالم رئيس من علماء النَّصارىٰ ، ورؤسائهم ، وهو سرياني ، ولعلّه سمّي به لخضوعه وانحنائه في عبادته ، وجمع أسقف : أساقف . و« يصدرون عن رأيه » : أي : صاحب مشورتهم وأمرهم .

وفي حديث آخر عن سيِّدنا دحية قال : « وجّهني النّبيُّ ﷺ إلىٰ ملك الرُّوم بكتابه وهو بدمشق ، فناولته كتاب النّبيّ ﷺ ، فقبّلَ خاتمه ، ووضعَه تحت شيء كان عليه قاعداً ، ثمَّ نادىٰ ؛ فاجتمعَ البطارقةُ وقومُه ، فقام علىٰ وسائدَ بُنِيَتْ له ـ وكذلك كانت=

* وأخرج هٰذا الخبر ابن حِبَّان في « صحيحه » بسنده عن أنس بن مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : قال رسولُ ٱلله ﷺ : « مَنْ ينطلق بصحيفتي هٰذه إلىٰ قيصر ، وله الجنَّة ؟ » .

فقال رجلٌ من القوم : وإن لم أُقْتَل ؟

قال : « وإن لم تُقْتَل » .

= فارس والرُّوم لم يكن لها منابر ـ ، ثمَّ خطب أصحابه فقال : هٰذا كتاب النَّبيّ الذي بشَّرنا به المسيحُ من وَلَد إسماعيل بن إبراهيم ، قال : فنخروا نخرةً ، فأومىٰ بيده أن اسكتوا ، ثمَّ قال : إنَّما جرّبتكم كيف نصرتكم للنَّصرانيَّة .

قال : فبعث إليَّ من الغد سرّاً ، فأدخلني بيتاً عظيماً فيه ثلاث مئة وثلاث عشرة صورة ، فإذا هي صورُ الأنبياء والمرسلين . قال : انظرْ أين صاحبك من هؤلاء ؟

قال : فرأيتُ النَّبيَّ ﷺ كأنَّه ينطق .

قلت : هٰذا .

قال : صدقتَ .

فقال : صورةُ مَنْ هٰذا عن يمينه ؟

قلت : رجلٌ من قومه يُقال له أبو بكر الصِّدِّيق .

قال : فمنْ ذا عن يساره ؟

قلت : رجلٌ من قومه يُقال له عمر بن الخطَّاب .

قال : أمَا إنَّه نجدُ في الكتاب أنَّ بصاحبيه هٰذين يتمّم ٱلله هٰذا الدّين . فلمَّا قدمتُ علىٰ النَّبيِّ ﷺ أخبرتُه فقال : « صَدَقَ ، بأبي بكر وعمر يتمّمُ ٱلله هٰذا الدِّين بعدي ، ويفتح » . « مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٦٢) .

وكان إرسال الكتاب لقيصر سنة ستّ من الهجرة النَّبويَّة الشَّريفة ، وذلك بعد رجوعِ الحبيبِ الأعظم ﷺ من الحُديبية ، وكان وصوله إليه في المحرم سنة سبع من الهجرة ، وكان إرساله مع سيِّدنا دحية الكلبيّ ـ رضي ٱلله عنه ـ . وقيل : إنَّ النَّبيَّ ﷺ كتب لقيصر من تبوك في السَّنة التَّاسعة ، وجمع بينهما بأنَّه كتب لقيصر مرَّتَيْن ؛ وٱلله تعالىٰ أعلم .

فانطلق الرَّجلُ به ، فوافقَ قيصر وهو يأتي بيت المقدس ، قد جُعِلَ له بساط لا يمشي عليه غيره ، فرمىٰ بالكتاب علىٰ البساط ، وتنحَّىٰ ؛ فلمَّا انتهىٰ قيصر إلىٰ الكتاب ، أخذه ، ثمَّ دعا رأس الجاثليق ، فأَقْرَأَهُ ، فقال : ما عِلْمي في هـٰذا الكتاب إلا كعِلمك ، فنادىٰ قيصر : من صاحب الكتاب فهو آمن ، فجاء الرَّجل ، فقال : إذا أنا قدمت فائتني ، فلمَّا قدم أتاه ، فأمر قيصر بأبواب قصره فغلّقت ، ثمَّ أمر منادياً ينادي : ألا إنَّ قيصر قد اتَّبع محمَّداً ، وترك النَّصرانية ، فأقبل جنده وقد تسلّحوا حتَّىٰ أطافوا بقصره ، فقال لرسولِ رسول ٱلله ﷺ : قد ترىٰ أنِّي خائف علىٰ مملكتي .

ثمَّ أمر منادياً فنادىٰ : ألا إنَّ قيصر قد رضيَ عنكم ، وإنَّما خَبِركم لينظرَ كيف صبركم علىٰ دينكم ، فارجعوا فانصرفوا .

وكتب قيصرُ إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ : إنِّي مسلم ، وبعثَ إليه بدنانير .

فقال رسولُ ٱلله ﷺ حين قرأ الكتاب : « كذب عدوّ ٱلله ، ليس بمسلم ، وهو علىٰ النَّصرانيَّة » وقسم الدَّنانير [1] .

---

(١) أخرجه ابنُ حِبَّان في « صحيحه » برقم : (٤٤٨٧) في باب : « ذكر الإباحة للإمام قبول الهدايا من المشركين إذا طمع في إسلامهم » . وسند الحديث صحيح .

وقال ابنُ قيِّم الجوزيَّة رَحِمَهُ ٱللهُ عن هـٰذا الأمر : « وبعث ﷺ دحيةَ بن خليفة الكلبيِّ إلىٰ قيصر ملك الرُّوم ، واسمه هرقل ، وهمَّ بالإسلام وكاد ، ولم يفعل ، وقيل : بل أسلمَ ، وليس بشيء » . « زادالمعاد »(١ / ١٢٠ ـ ١٢١) .

وأورد ابنُ قيم الجوزيَّة رَحِمَهُ ٱللهُ في « الزَّاد » أسماء رسله ﷺ إلىٰ الملوك فقال ما ملخَّصه : « فأوَّلهم عمرو بنُ أميَّة الضَّمريّ ، بعثه إلىٰ النَّجاشي ؛ وبعث دحية بن خليفة الكلبيِّ إلىٰ قيصر ملك الرُّوم ، وبعث عبد ٱلله بن حذافة السَّهميّ إلىٰ كسرىٰ ، وبعث حاطب بن أبي بلتعة إلىٰ المقوقس ، وبعث شجاع بن وهب الأسديّ إلىٰ الحارث بن أبي شَمِر الغسَّانيّ ملك البلقاء ، وبعث سَليط بن عمرو إلىٰ هوذة بن علي الحنفيّ باليمامة ، فهؤلاء السِّتة قيل : هم الذين بعثهم رسول ٱلله ﷺ في يوم واحد . =

* وقبلَ أن نغادرَ هـٰذه الفقْرة ، دعونا نسرّح النّظر في رياضِ هـٰذه الأنفاس الأدبيَّة التي تحكي ما فصَّلْنَاه في السُّطور السَّابقة :

قــد أرســلَ الهــادي لِقَيْصــرَ عــاهــل الــرُّوم الفَطيــن
مــع دحيــةَ بــنِ خليفــةٍ هــو مــنْ خيــارِ المسلميــن
فيهــا يقــولُ لــه الــرَّســولُ مقــالــةَ النُّصــح الأميــن
يــا صَــاحِ بســمِ اللهِ أبــدأُ كــلَّ قــولــي عــن يَقيــن
منِّــي إليــك رســالــةٌ وتحيَّــةٌ للمهتــديــن
أَسْلِــمْ فعنــد اللهِ تلقــىٰ ضِعْــفَ أجْــرِ الآخــريــن
وإذا أبيــتَ فســوفَ تحمِــلُ كُــلَّ إثــمِ التَّــابعيــن
إنِّــي لــربٍّ واحــدٍ أدعــوكَ ربّ العــالميــن
لا تعبــدنَّ ســوىٰ الإلٰــهِ مُخــالفيــن المُشــركيــن
قــرأ الــرِّســالــةَ ثــمَّ نــادىٰ شعْبَــه كــي يستبيــن
قــال المنــادي إنَّ قيصــرَ قــد غــدا فــي المسلميــن

= وبعث عمرو بن العاص إلىٰ جيفر وعبد ٱلله ابني الجُلندىٰ الأزديين بعُمان ، وبعث العلاء بن الحضرميّ إلىٰ المنذر بن ساوىٰ ملك البحرين ، وبعث المهاجر بن أبي أميّة المخزوميّ إلىٰ الحارث بن عبد كلال الحِميريّ باليمن ، وبعث أبا موسىٰ الأشعري ، ومعاذ بن جبل إلىٰ اليمن ، ثمَّ بعث بعد ذلك عليّ بن أبي طالب إليهم ، ووافاه بمكَّة في حجَّة الوداع ، وبعث جرير بن عبد ٱلله البجليّ إلىٰ ذي الكَلاع الحميريّ وذي عمرو ، وبعث عمرو بن أميّة الضَّمريّ إلىٰ مسيلمة الكذَّاب بكتاب ، وكتب إليه بكتاب آخر مع السَّائب بن العوام أخي الزُّبير فلم يُسلمْ ، وبعث إلىٰ فروة بن عمرو الجذاميّ يدعوه إلىٰ الإسلام ، فأسلم ، وبعث إليه ﷺ هدية مع مسعود بن سعد ، وهي بغلة شهباء يقال لها : فضَّة ، وفرس يقال له : الظَّرب ، وحمار يُقال له : يعفور ، وبعث أثواباً وقباء من سندس مُخوَّص بالذَّهب فقبل ﷺ هديته ، وبعث عيَّاش بن أبي ربيعة المخزوميّ بكتاب إلىٰ الحارث ومسروح ونعيم بني عبد كُلال من حمير » ، وٱلله أعلم . « زاد المعاد » (١ / ١٢٠ ـ ١٢٤) باختصار وتصرُّف .

الجنـــدُ ثـــاروا بـــالسِّـــلاح ليبطِشُـــوا كـــالمجـــرميـــن
فـــوراً تـــراجـــعَ ثـــمَّ قـــالَ فـــلا تكـــونُـــوا خـــائفيـــن
قـــد شـــاءَ قيصـــرُ أنْ يـــراكـــم للمسيـــحِ مُتَـــابعيـــن
أبـــدىٰ تـــأسُّفَـــه لِـــدِحْيَـــةَ صـــارَ فـــي خجـــلٍ مُبيـــن
بـــل قـــالَ إنِّـــي مسلـــمٌ لٰكـــنْ لملكـــي مُستكيـــن
قـــال الـــرَّســـولُ فـــإنَّ قيصـــرَ فـــي عـــدادِ الكـــاذبيـــن

* عادَ سيِّدنا دحيةُ من مهمَّته موفَّقاً بعد أنْ أدَّاها بصدقٍ ونجاح كبيرَيْن [1] ، وبينما كان مقبلاً من عند قيصر ـ وكان قد أجازه بمالٍ وكسوة ـ لقيهُ ناسٌ من قبيلة جذام بأرض يُقال لها حِسْمىٰ ، فقطعوا عليه الطَّريق ، وأصابوا كلَّ شيء كان معه ، ولم يتركُوا عليه إلا ثوباً قديماً ، فجاء دحيةُ

---

(١) تذكر مصادرُ السِّيرة وأحداثُها : « أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ قد كتبَ كتاباً لقيصر يدعوه إلىٰ الإسلام ، وبعَث به دحية الكلبيّ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وأمره أنْ يدفعَه إلىٰ قيصرَ ففعل ذلك ؛ أي : بعد أنْ قالَ ﷺ : « مَنْ ينطلقُ بكتابي هٰذا ، فيسيرُ إلىٰ هرقلَ وله الجنَّة ؟ » .

وقيل : أمر ﷺ دحية أنْ يدفعَه إلىٰ عظيم بصرىٰ ، وهو الحارثُ ملك غسَّان ليدفعه إلىٰ قيصر . ولمَّا انتهىٰ دحية ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ الحارث أرسل معه عدي بن حاتم ـ رضي ٱلله عنه ـ ليوصله إلىٰ قيصر ، فذهب به إليه ؛ فقال قومه لدحية ـ رضي ٱلله عنه ـ : « إذا رأيتَ الملك فاسجد له ، ثمَّ لا ترفع رأسك أبداً حتَّىٰ يأذن لك . فقال دحية ـ رضي ٱلله عنه ـ : لا أفعل هٰذا أبداً ، ولا أسجدُ لغير ٱلله . قالوا : إذن لا يؤخذ كتابك . فقال له رجل منهم : أنا أدلّك علىٰ أمْرٍ يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له . فقال دحيةُ ـ رضي ٱلله عنه ـ : وما هو ؟ قال : إنَّ له علىٰ كلِّ عتبة منبراً يجلس عليه ، فضع صحيفتك تجاه المنبر فإنَّ أحداً لا يحركها حتَّىٰ يأخذها ، ثمَّ يدعو صاحبها ، ففعل دحية ذلك ، فلمَّا أخذ قيصر الكتاب وجدَ عليه عنوان كتاب العرب ، فدعا التُّرجمان الذي يقرأ العربيَّة ، وعلم ما هية الكتاب » . « السِّيرة الحلبيَّة » (٣ / ٢٨٣ ـ ٣٨٣) بشيء من التَّصرُّف .

رسولَ ٱللهِ ﷺ قبل أنْ يدخلَ بيته ، فأخبره بما صنعَ معه الجذاميّون في أرض حسمىٰ ، فبعث رسولُ ٱللهِ ﷺ زيدَ بنَ حارثة إلىٰ حسمىٰ في خمسِ مئة رجل ، وردَّ معه دحية ، حتَّىٰ نفَّذوا المهمَّة بنجاح ، واستطاعوا أن يؤدِّبوا هٰؤلاء ، ويرجعوهم إلىٰ جادَّة الصَّواب [1] .

أزاهيرُ من مكارمه :

* كان سيِّدنا دحيةُ بنُ خليفةَ الكلبيِّ ـ رضوان ٱلله عليه ـ ممَّن يهدي إلىٰ النَّبيِّ ﷺ ، وممَّن تَصله الهديَّة النَّبويَّة ، فقد ذكر ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللهُ أنَّ سيِّدنا دحيةَ أهدىٰ لرسول ٱلله ﷺ خفَّيْن فلبسهما [2] . وهٰذا الأثر مقتبسٌ من سيِّدنا دحية نفسه ؛ إذ قال : « أهديتُ لرسولِ ٱلله ﷺ جبَّةَ صوفٍ وخفَّيْن ، فلبسهما حتَّىٰ تخرَّقا ، ولم يَسَلْ عنهما ذكيتا أمْ لا » [3] .

* وثبت في سِير الصَّحابةِ وثنايا السِّيرة العطرة أنَّ سيِّدنا دحيةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ قد أهدىٰ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ بغلةً بيضاء ، ويوم فتح مكَّة حمل النَّبيّ ﷺ عمَّه العبَّاس ـ رضي ٱلله عنه ـ علىٰ هٰذه البغلة البيضاء التي كان أهداها إليه دحية الكلبيِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ .

* كما أورد ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللهُ في « تاريخه » عن سيِّدنا دحية قال : « قدمتُ من الشَّام ، فأهديتُ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ فاكهةً يابسةً من فستقٍ ولوزٍ وكعك ، فوضعته بين يديه فقال : « اللهمَّ ائتني بأحبِّ أهلي إليك ـ أو قال : إليَّ ـ يأكل معي من هٰذا » ، فطلعَ العبَّاس فقال : « ادن يا عم ، فإنِّي

---

(١) انظر : « السِّيرة الحلبيَّة » (٣ / ١٧٩) ، و« زاد المعاد » (٣ / ٢٨٤) مع الجمع والتّصرّف .

(٢) « أسد الغابة » (٢ / ٦) ترجمة رقم : (١٥٠٧) .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٦١) ، والحديث أخرجه الطّبرانيّ في « الكبير » (٤ / ٢٢٦) برقم (٤٢٠٠) ، وانظر : « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٥٢) .

سألت ٱلله أنْ يأتيني بأحبِّ أهلي إليَّ ـ أو إليه ـ يأكلُ معي من هٰذا ، فأتيتَ » . فجلسَ فأكل » .

* وقال ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضاً : « إنَّ دحيةَ الكلبيّ أهدىٰ رسول ٱلله ﷺ بغلته الشَّهباء » .

* وجاء عن دحيةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ أنه أخذ الهديَّة النَّبويَّة فقال : « أُتي رسول ٱلله ﷺ بقباطيّ ، فأعطاني منها قبطيَّة ، فقال : اصدعها صدعَيْن ، فاقطعْ أحدهما قميصاً ، وأعطِ الآخر امرأتك تختمر به » . فلمَّا أدبرتُ قال : « وأْمُرِ امرأتك تجعل تحته ثوباً لا يصفُها » [1] .

* كان سيِّدنا دحية ـ رضي ٱلله عنه ـ جميلَ الصُّورة مليحاً ، وكان جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ينزلُ في صورته ، وقد رآه عددٌ من الصَّحابة وأمّهات المؤمنين علىٰ هٰذه الصُّورة ، وممّن رآه أمّنا عائشة ، وأمّنا أمّ سلمة ـ رضي ٱلله عنهما ـ .

* قالت أمُّ سلمة [2] ـ رضوان ٱلله عليها ـ : « كان النَّبيُّ ﷺ يحدِّثُ رجلاً ، فلمَّا قام ، قال : « يا أمّ سلمة ، مَنْ هٰذا ؟ » .

فقلتُ : دحية الكلبيّ ، فلم أعلمْ أنَّه جبريل حتَّىٰ سمعتُ رسول ٱلله ﷺ

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٦٠) ، و« أسد الغابة » (٢ / ٦) ترجمة رقم : (١٥٠٧) ، والحديث أخرجه الطَّبرانيّ في « الكبير » (٤ / ٢٢٥) ولفظه : أخذ رسولُ ٱلله ﷺ قباطي ، فأعطاني قبطيّة ، فقال : « اصدعها صَدْعَيْن ، فاقطع أحدهما قميصاً ، واعطِ الآخر امرأتك لِتختمر بها » فلمَّا أدبرتُ قال : « مُـرْ امرأتك أنْ تجعلَ تحت صدعتها ثوباً لا تَصِفُها » . وقوله : « قبطية » : هي ثياب كتَّان بيض رقاق ، تُصنع في مصرَ ، وهي منسوبةٌ إلىٰ القبط ، وجمعها : قباطي .

(٢) اقرأ سيرة أمّنا أمّ المؤمنين أمّ سلمة ـ رضي ٱلله عنها ـ في كتابنا : « نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث » (ص : ٢٤٣ ـ ٢٩٠) ، ط : ٦ ، فسيرتها إمتاع للأسماع ؛ ونزهة علمية مفيدة .

يحـدّثُ أصحـابه ما كـان بيننـا »[1] .

* وعـن سيّـدنـا أنـس ـ رضـي ٱلله عنـه ـ : « أنَّ النَّبـيَّ ﷺ كـان يقول : « يأتيني جبريل في صورة دحية »[2] ، وكان دحيةُ جميلاً بحيث إذا قدم ، لم تَبْقَ مُعْصِرٌ إلا خرجت تنظرُ إليه لجماله »[3] .

* قال الإمامُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ولا ريب أنَّ دحيةَ كان أجمل الصَّحابة الموجودين بالمدينة ، وهو معروفٌ ، فلذا كان جبريل ربَّما نزلَ في صورته »[4] .

* وقال رجل لعوانةَ بنِ الحكم : « أجملُ النَّاس جرير بن عبد ٱلله » فقال له عوانةُ : « أجمل النَّاس مَنْ نزل جبريلُ علىٰ صورته ـ يعني : دحية الكلبيّ ـ »[5] .

* إنَّ نعمة الجمال[6] والملاحة من أتم النِّعم وأجلّها علىٰ الإنسان ،

---

(١) انظر : « سير أعلام النُّبلاء » للذَّهبيّ (٢ / ٥٥٣) .

(٢) المصدر السَّابق نفسه .

(٣) « تهـذيـب الأسمـاء واللغـات » (١ / ١٨٥) ، و« مختصـر تـاريـخ دمشـق » (٨ / ١٦٣) ، و« المعصر » : الفتاة التي دنا حيضها ، وبلغت شبابها وأدركتْ ، وهـٰذه يُقال لها معصر ، كما قيل للغلام : مراهق ؛ أي : راهق الاحتلام .

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « النِّهاية » : « وإنَّما خصَّ المُعْصِرَ بالذّكر للمبالغة في خروج غيرها من النساء » .

(٤) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٥٤) .

(٥) « مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٦٣) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٥٤) ، واقرأ سيرة سيدنا جرير بن عبد ٱلله البَجَليّ في هـٰذا الباب ؛ من هـٰذا الكتاب .

(٦) أقول : « من الموصوفين بالجمال والحُسن من رجال عصر النُّبوَّة : سيدنا جعفر بن أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وسيِّدنا الحسن بن عليّ وأخوه الحسين ـ رضي ٱلله عنهم ـ ، وقد استوفيتُ سيرة هؤلاء الأطهار في كتابي : « رجال أهل البيت في ضوء=

وخاصَّة إذا اجتمع جمال الصُّورة مع حسن الفعال مع طيبِ المنبت والأصلِ والحسب الزَّاكي .

* وسيِّدنا دحيةُ ـ رضوان ٱلله عليه ـ ممَّن رَوىٰ الحديث الشَّريف عن الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، قال الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ وغيره : « روىٰ أحاديث ، ولدحية في مسند بقيّ بن مخلد ثلاثة أحاديث غرائب ، وحدَّث عنه : منصور بن سعيد الكلبيّ ، ومحمَّد بن كعب القرظيّ ، وعبد ٱلله بن شدَّاد بن الهاد ، وعامر الشَّعبيّ ، وخالد بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان »[1] .

* قال ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللهُ في « الإصابة » عن رواية سيِّدنا دحية الكلبيّ ما محصّله ونتيجته وخلاصته : « يجتمع لنا عنه نحو السّتة . . . وقد روىٰ التِّرمذيُّ من حديث المغيرة أنَّ دحية أهدىٰ إلىٰ النَّبيِّ خُفَّين فلبسهما ؛ وعند أبي داود من طريق خالد بن يزيد بن معاوية عن دحية قال : أُهْدِيَ إلىٰ النَّبيِّ ﷺ قباطي فأعطاني منها قبطيَّة ، وروىٰ أحمد من طريق الشَّعبيّ عن دحية الكلبيّ قال : قلتُ : يا رسولَ ٱلله ! ألا أحملُ لك حماراً علىٰ فرس ، فينتجُ

= القرآن والحديث » . ومن الموصوفين بالجمال والحُسْن أيضاً : « الفضلُ بنُ العبَّاس بن عبد المطَّلب ، وكان الفضلُ رجلاً وضيئاً ، قدم المدينة المنوَّرة بعد الفتح .

وقد كان حبيبنا وشفيعنا وسيِّدنا رسول ٱلله ﷺ أحسن النَّاس ، وأجمل قريش ، وأكمل الخلق وأفضلهم ، وفي كتب الشَّمائل كثير من الوصف لشخصه الطَّاهر ، وجماله الباهر ﷺ ، نرجو ٱلله أنْ يحشرنا تحت لوائه ، وأنْ يسقينا من حوضهِ ، وأنْ يعفو عنَّا بكرمه ورحمته إنَّه غفَّار توَّاب » .

(١) « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٥١ ـ ٥٥٦) ، و« تهذيب التَّهذيب » (٣ / ٢٠٦ ـ ٢٠٧) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ١٨٥) ، و« أسد الغابة » (٢ / ٦) ، و« تاريخ الإسلام » للذَّهبيِّ (عهد معاوية بن أبي سفيان ، ص : ٤٩) وغيرها كثير .

لك بغلاً فتركبها ؟ قال : « إنَّما يفعلُ ذلك الذين لا يعملون »[1] .

* ومن المكارمِ الجليَّة والفضائل النَّبيلة التي تُضاف إلىٰ سيِّدنا دحية ـ رضي ٱلله عنه ـ ما رواه ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللهُ بسنده عن مجاهد قال : « بعث رسولُ ٱلله ﷺ دحيةَ الكلبيّ سريةً وحده »[2] .

* كما أنَّ سيِّدنا دحية من رجال عصر النُّبوَّة الفاتحين المجاهدين فقد شهد معركة اليرموك بالشَّام ، وكان أميراً علىٰ كردوس وقد نزلَ مدينة دمشق ، وسكنَ قرية المِزَّة ، وعاش إلىٰ خلافة سيِّدنا معاوية بن أبي سفيان ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ »[3] .

* وذكر ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللهُ وغيره : أنَّ سيِّدنا دحية كان من الفاتحين ، ومن أمراء السَّرايا ، فقال : « وبعث يزيدُ بنُ أبي سفيان دحيةَ بن خليفة الكلبيّ في خيلٍ بعد فتح دمشق إلىٰ تدمر » .

* وكان سيِّدنا دحيةُ ـ رضي ٱلله عنه ـ شديدَ التَّمسُك بالسُّنَّة النَّبويَّة والهدي المحمَّديّ ، فقد أخرج أصحابُ كتُب الحديث عن منصور الكلبيّ : « أنَّ سيِّدنا دحيةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ قد خرج من قريته بدمشق المِزَّة إلىٰ قَدْر قريةٍ عقبة من الفسطاط ، وذلك ثلاثة أميال في رمضان ، ثمَّ إنَّه أفْطَر ، وأفطرَ معه ناسٌ ، وكره آخرون أنْ يفطروا ، فلمَّا رجعَ إلىٰ قريته ، قال : وٱللهِ لقد رأيتُ اليوم أمراً ما كنتُ أظنُّ أنِّي أراه : إنَّ قوماً رغبوا عن هدي رسولِ ٱلله ﷺ وأصحابه ـ يقول ذلك للذين صاموا ـ ، ثمَّ قال عند

---

(١) « الإصابة في تمييز الصَّحابة » لابن حجر العسقلانيّ (١ / ٤٦٤) .

(٢) « الطَّبقات الكبرىٰ » لابن سعد (٤ / ٢٥١) .

(٣) « مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٥٩ ـ ١٦٠) وقوله « كردوس » : القطعة من الخيل العظيمة . و« المِزَّة » : قرية كبيرة غناء في وسط بساتين دمشق من جهة الغرب ، وأضحت اليوم من أحياء دمشق المشهورة .

ذلك : اللهمَّ اقبضني إليك »[1] .

* ومن الأخبار المفيدة التي تخصُّ سيِّدنا دحية الكلبيّ ـ رضي ٱلله عنه ـ ما ذكرته المصادر من أنَّه نزلت فيه آية سورة الجمعة : ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا ... ﴾ [الجمعة : ١١][2] ، فكيف كان ذلك ؟

* قال المفسِّرون : « نزلت هٰذه الآيةُ بسبب أنَّ رسول ٱلله ﷺ كان قائماً علىٰ المنبر يخطبُ يوم الجمعة ، فأقبلت عيرٌ من الشَّام تحملُ ميرةً ـ وكان قد أصاب أهل المدينة الحاجة والجوع والغلاء ـ وصاحبِ أمرِها دحية بن خليفة الكلبيّ ، قال مجاهد : وكان منْ عرفهم أنْ تدخلَ العيرُ المدينةَ بالطَّبْلِ والمعازفِ والصِّياح من ورائها ؛ لكي تؤذنَ النَّاس بقدوم التِّجارة والميرة ، فدخلت العير بمثل ذلك ، فانفضَّ أهلُ المسجد إلىٰ رؤية ذلك وسماعه ، وتركوا رسولَ ٱلله ﷺ قائماً علىٰ المنبر ، ولم يبقَ معه غير اثني عشر رجلاً ، قال جابرُ بنُ عبد ٱلله ـ رضي ٱلله عنهما ـ أنا أحدهم ، فنزلت هٰذه الآية ، فقال النَّبيُّ ﷺ : « والذي نفسُ محمَّد بيده ، لو تتابعتم حتَّىٰ لم يبقَ أحدٌ منكم لسال بكم الوادي ناراً »[3] .

---

(١) أخرجه الطّبرانيّ (٤ / ٢٢٤) برقم : (٤١٩٧) وسنده حسن ، وأخرجه أبو داود برقم : (٢٤١٣) ، وانظر : « سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٥٥) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٦٠) ، و(٢٥ / ٢٥٦) ، و« معرفة الصَّحابة » (٢ / ٢٣٧) ، وغيرها كثير .

(٢) انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٦٠) .

(٣) « تفسير ابن عطيَّة » (ص : ١٨٥٨) ، و« أسباب النُّزول » للواحديّ (ص : ٣٥٢) ، و« تفسير القرطبيّ » (١٨ / ١٠٩ ـ ١١١) مع الجمع والتّصرّف ، وانظر : « زاد المسير » (ص : ١٤٣٧) ، و« روح المعاني » (٢٨ / ١٥٤) ، وغيرها كثير .

وقوله ﴿ ٱنفَضُّوٓاْ ﴾ : تفرّقوا عنك ، فذهبوا إليها ، والضّمير للتّجارة ، وإنّما =

* قال ابنُ الجوزيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « زاد المسير » : « قال المفسِّرون : كان الذي قدم بالتِّجارة دحية بن خليفة الكلبيّ ، قال مقاتل : وذلك قبل أنْ يسلم . قالوا : قدم بها من الشَّام ، وضربَ لها طبلٌ يُؤذن النَّاس بقدومها ، وكانت هٰذه عادتهم إذا قدمت عير . وكانت التِّجارة طعاماً ، وقيل : زيتاً . والمراد باللهو : ضرب الطَّبل »[1] .

* وقال أبو بكر ابن العربيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سبب نزول الآية (١١) من سورة

= خصَّت بردّ الضمير إليها ؛ لأنَّها كانت أهمّ إليهم . وللمزيد من هٰذا انظر كتاب : « المستفاد من مبهمات المتن والإسناد » لأبي زرعة العراقيّ (٣ / ١٥٣٩ ـ ١٥٤٢)برقم : (٦١٥) .

(١) « زاد المسير في علم التَّفسير » (١٤٣٧) ، وانظر : « روح المعاني » للآلوسيّ (٢٨ / ١٥٤) .

قال الآلوسيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تعليقهِ علىٰ هٰذهِ الآيةِ الكريمةِ : « وطعَنَ الشِّيعةُ لهٰذهِ الآيةِ الصَّحابة ـ رضي ٱلله تعالىٰ عنهم ـ ، بأنَّهم آثروا دنياهم علىٰ آخرتهم حيث انفضُّوا إلىٰ اللهو والتِّجارة ، ورغبوا عن الصَّلاة التي هي عمادُ الدِّين ، وأفضل من كثيرٍ من العباداتِ ، لا سيما مع رسولِ ٱلله ﷺ ، وروي أنَّ ذلك قد وقع مراراً منهم ، وفيه أنَّ كبارَ الصَّحابة كأبي بكر ، وعمر ، وسائر العشرة المبشَّرين لم ينفضّوا ، والقصَّة كانت في أوائل زمن الهجرة ، ولم يكن أكثر القوم تامّ التّحلّي بحلية آداب الشّريعة بعد ، وكان قد أصابَ أهلَ المدينة جوعٌ وغلاءُ سعر ، فخاف أولئك المنفضُّون اشتداد الأمر عليهم بشراء غيرهم ما يقتاتُ به لو لم ينفضوا ، ولذا لم يتوعَّدهم ٱلله تعالىٰ علىٰ ذلك بالنَّار أو نحوها ، بل قصارىٰ ما فعل سبحانه أنه عاتبهم ووعظهم ونصحهم ، ورواية أنَّ ذلك وقع منهم مراراً إن أريد بها رواية البيهقيّ في « شعب الإيمان » عن مقاتل بن حيَّان أنَّه قال : بلغني وٱلله تعالىٰ أعلم أنَّهم فعلوا ذلك ثلاث مرَّات ، فمثل ذلك لا يلتفت إليه ، ولا يعول عند المحدّثين عليه ، وإن أريد بها غيرها فلْيُبيِّنْ ولتثبت صحّته ، وأنىٰ بذلك ؟ ! والجملة الطَّعن بجميع الصَّحابة لهٰذه القصَّة التي كانت من بعضهم في أوائل أمرهم ، وقد عقبها منهم عبارات لا تُحصىٰ سَفَهٌ ظاهر وجهل وافر » . « روح المعاني »(٢٨ / ١٥٧) .

الجمعة : « نزلَتْ مع دحية الكلبيّ تجارةٌ بأحجار الزَّيت [1] فضربوا طبلهم ، يعرّفون بإقبالهم ، فخرج إليهم النَّاس بمثله ، فعاتبهم ٱلله ونزلت الآية ، وقال النَّبيُّ ﷺ : « لو تفرَّق جمعهم لسال الوادي عليهم ناراً » [2] .

* ولسيِّدنا دحيةُ بنُ خليفة الكلبيّ أخبارٌ وضيئةٌ كهيئتِهِ وشكله ، وهي منثورةٌ في ثنايا المصادر المتنوِّعة التي ترجمت لأصحاب النَّبيِّ ﷺ ؛ وقد أوردنا منها شذرات تبلُّ الصَّدىٰ ، وتوضحُ صورة هٰذا الصَّحابي الجليل الجميل الذي لم ينلْ ترجمةً وافيةً من الكُتَّاب المعاصرين في حدود علمي واطِّلاعي .

* عاش سيِّدنا دحيةُ الخلافةَ الرَّاشدة كاملةً ، وشطراً من خلافة سيِّدنا معاوية ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ووافته المنيةُ سنة (٥٠ هـ) في دمشقَ بقرية المِزَّة غربي دمشق [3] ، وقد شهد عددٌ جمٌّ من الأعيان وفاتَه ، وودَّعوا واحداً من

---

(١) « أحجار الزَّيت » : موضعٌ في المدينة المنوَّرة قريب من الزَّوراء ، كان يبرزُ إليه النَّبيُّ ﷺ إذا استسقىٰ ، وتقع غرب المسجد النَّبويّ ، حيث كان يقع سوق المدينة في صدر الإسلام .

(٢) « أحكامُ القرآن » لابن العربيّ (٤ / ١٨٠٩) . وقال القرطبيُّ معللاً أسباب نزول هٰذه الآية الكريمة : « إنَّ الذي قدم بها ـ أي : بالتِّجارة ـ دحية بن خليفة الكلبيّ من الشَّام عند مجاعةٍ وغلاءِ سعر ، وكان معه جميع ما يحتاج النَّاس من برّ ودقيقٍ وغيره ، فنزل عند أحجار الزَّيت ، وضرب بالطَّبل ليؤذن النَّاس بقدومه ، فخرج النَّاس إلا اثني عشر رجلاً كانوا في خطبة الجمعة ، فانفضّوا إليها » . « تفسير القرطبيّ » (١٨ / ١٠٩) . وذكر بعض العلماء أنَّه بقي مع النَّبيِّ ﷺ العشرة المبشَّرون بالجنَّة ؛ وبلال ، وعبد ٱلله بن مسعود ، أو عمَّار بن ياسر ، وٱلله أعلم .

(٣) « الإشارات إلىٰ أماكن الزِّيارات ، المسمَّىٰ زيارات الشَّام » لابن الحورانيّ (ص : ١٢٤) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (٨ / ١٦٠) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (٢ / ٥٥١) ، و« الاستيعاب » (١ / ٤٦٤) ، وغيرها كثير .

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ الشَّيخ عبد الغني النَّابلسيّ قد أكَّدَ في مصنَّفه « الحقيقة =

فضلاء الصَّحابة الأخيار الذين توفي رسولُ ٱلله ﷺ وهو راضٍ عنهم .

* رضي ٱلله عن سيِّدنا دحيةَ بن خليفة الكلبيِّ الصَّحابي الجميل الجليل ، ورضي ٱلله عن الصَّحابة أجمعين وحشرنا في معيتهم وجعلنا بأحسن مقيل .

✍ ✍ ✍

= والمجاز في رحلة بلاد الشَّام ومصر والحجاز » علىٰ أنَّ قبر سيِّدنا دحية الكلبيّ بقرية المزَّة في دمشق فقال : « وزُرنا قبرَ دحية الكلبيّ الصَّحابيّ الجليل ، علىٰ حسب ما هو بين أهل تلك القرية مشهور ، والرَّاجح أنَّه مدفون في بلادنا دمشق الشَّام في قرية المزَّة . . . . وليس في الصَّحابة من اسمه دحية سواه . . . والظَّاهر من العلماء أنَّه دُفنَ في هٰذه القرية « المِزَّة » ؛ لأنَّه كان يسكنُها .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلانيّ رَحِمَهُ ٱللهُ في ترجمة دحية : وقد نزلَ دمشق ، وسكن المزَّة ، وعاش إلىٰ خلافةِ معاوية ـ رضي ٱلله عنه ـ » . « الحقيقة والمجاز » (١ / ١١٠) بشيء من التَّصرُّف والاختصار .

ومن الجدير بالذِّكر أيضاً أنَّ الشَّيخ عبد الغني النَّابلسيّ أوردَ في زيارته للبلاد المصريَّة بأنَّه التقىٰ عند قبة الإمام الشَّافعيّ بالشَّيخ محمّد الكلبيّ من ذرية دحية الكلبيّ الصَّحابي المشهور ، وهو رجلٌ من الصَّالحين ، له النَّظر والخدمة في مزارِ الإمام الشَّافعي ! !

أقول : « إنَّ سيِّدنا دحية لم يُعقب ، وكان بعضُ النَّاس ينتسبون إليه ، ولذلك قال ابن عُنين يعرّف بذلك ويعرّض بابن دحية المكنىٰ « أبو الخطَّاب ابن دحية » :

دحيــةُ لــم يُعقــبْ فَلِــمْ تعتــزي ... إليـــه بـــالبُهتـــانِ والإفـــك
مــا صــحَّ عنــد النَّــاسِ شــيءٍ سـوىٰ ... أنَّــك مــن كلــبٍ بــلا شــك »

« نفح الطِّيب » (٣ / ١٣٦ ـ ١٣٧) بتصرُّف .

وللمزيد من أخبار ابن دحية هٰذا اقرأْ ما كتبَ عنه الذَّهبيُّ في « سير أعلام النُّبلاء » (٢٢ / ٣٨٩ ـ ٣٩٥) ففي ذلك فوائد جليلة إنْ شاء ٱلله تعالىٰ .




سُـــراقةُ بنُ مالك

رضي ٱللهُ عنه

* لحق النَّبيَّ ﷺ أيَّامَ الهجرة ليقتلَه أو يأسِرَهُ ؛ فأسْلَمَ .
* وعدَهُ النَّبيُّ ﷺ أنْ يلبسَ سواريَ كسرىٰ .
* روىٰ (١٩ حديثاً) ؛ ولقي اللهَ في أوَّلِ خلافةِ عثمان سنة (٢٤ هـ) .




سُـــراقةُ بـنُ مالك
رضي ٱلله عنه

نُـــورُ الإســلام :

* أخذ الإسلامُ ينتشرُ في القبائلِ المحيطةِ بمكَّةَ بفضل مبادئهِ القويمةِ السَّمحةِ ، وكان الصَّادقُ المصدوقُ ﷺ الذي اصطفاه اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لتبليغِ رسالته في مكَّةَ يحتملُ في صبرٍ ومصابرة السُّخريةَ والاستهزاء والتَّكذيب ، يشاطرهُ في هٰذا الأمر الذين اتَّبعُوه ، ومع هٰذا كلّه كان الإسلامُ نوراً يتسلَّلُ إلىٰ أفئدة الذين أراد اللهُ بهم خيراً ، وكان الكافرون يحاولون جاهدين أنْ يطفؤوا نورَ ٱلله بأفواههم ؛ ويأبىٰ اللهُ إلا أنْ يتمَّ نوره ولو كَرِهَ المشركون .

* كان الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ يسعىٰ دائماً ليلقيَ أضواء الاستنارة الرُّوحيَّة علىٰ كلِّ عمل من أعمال أتباعه ، وأن يغرسَ في نفوسهم ووجدانهم كلَّ ما يقرّبهم إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، مهما كان الموقف ، وبالتَّالي ينتظمُ في سلك الإسلام مَنْ تَصِلُه الدَّعوةُ بشكلٍ مباشرٍ من الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، وهٰذا ما حدثَ في واحد من المواقف الحَرِجَةِ الصَّعبة ، ولٰكنَّ الرَّجلَ أصغىٰ إلىٰ الحقِّ والسَّناء ، وكُتب من السُّعداء .

* هٰذا الرَّجلُ الذي عرف الحقَّ في ساعة نورانيّة صافية هو سُراقةُ بنُ مالك بنِ جعشم أبو سفيان المدلجيّ الحجازيّ الصَّحابيّ [1] ، وهو من

---

(١) « الرَّوضُ الأنفُ » (٢ / ٢٣٣) ، و« ثمارُ القلوب » (ص : ٦٦ ـ ١٢٠) ، =

مشهوري الصَّحابة ، كان ينزلُ قُديداً بين مكَّة والمدينة ، وقيل : سكن مكَّة ، ويُعدُّ في أهل المدينة .

* كان سراقةُ بنُ مالك من قبيلة عرفت بالقيافة ، والقيافةُ عِلْمٌ اختصَّتْ به العرب من بين سائر الأمم ، وهو إصابةُ الفِراسة في معرفة الأشياء في الأولاد ، والقرابات ، ومعرفة الآثار ، وهي في كنانةَ أكثر منها في غيرها ؛ وبنو مُدلج القافة منهم ، وما ظنُّك بقوم يُلْحقون الأسودَ بالأبيض ، والأبيض بالأسود ، والوضيء بالدَّميم ، والدَّميم بالوضيء ، والطَّويل بالقصير ، والقصير بالطويل ! فمنهم : سراقةُ بنُ مالك المدلجيّ ، أخرجهُ أبو سفيان ليقتافَ أثر رسولِ ٱلله ﷺ حين خرج إلىٰ الغار مع أبي بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فلمَّا رأىٰ أثَرَ قدمه ، قال : « أمَّا محمَّد فإنِّي لم أرهُ ، ولٰكنْ إن شئتم أنْ ألحقَ هٰذا الأثر » .

قالوا : « فالحقْهُ » .

قال : « هو أشبهُ شيء بالأثر الذي في مقام إبراهيم » .

فضرب أبو سفيان بِكُمّهِ علىٰ الأرض ليعفوَ الأثر ، وقال : « قد خرفَ الشَّيخُ » [(١)] .

= و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٢٠٩ ـ ٢١٠) ، و« أسدُ الغابة » (١ / ١٧٩ ـ ١٨١) ترجمة رقم : (١٩٥٥) ، و« الاستيعاب » (٢ / ١١٨ ـ ١٢٠) ، و« الإصابة » (٢ / ١٨ ـ ١٩) ، و« تاريخ الإسلام » (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ٣٠٨ ـ ٣٠٩) ، و« دلائل النُّبوَّة » للأصبهانيّ (٢ / ٤٢٨ ـ ٤٣٥) ، و« البرصان والعرجان » (ص : ٧٧ ـ ٧٨) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (الفهارس : ٤ / ٧٧١) وغيرها كثير .

(١) « ثمار القلوب » (ص : ١٢٠ ـ ١٢١) بتصرُّف يسير . وممَّن اشتُهِرَ بالقيافة في عصر النُّبوَّة : مجزّز بنُ الأعور بن جعدة المدلجيّ ، الصَّحابيّ ، دخل علىٰ رسول ٱلله ﷺ ، فرأىٰ زيد بن حارثة ، وأسامة بن زيد قد ناما في قطيفة ، وغطَّيا =

* كانت هٰذه الأحوال جميعها أيام الهجرة النَّبويّة إلىٰ المدينة المنوّرة ؛ إذ حدَّدَ الوحيُ غارَ ثور منطلقاً للهجرة ، وتمَّ ضرب الموعد مع الدَّليل إلىٰ المدينة في ذلك المكان ، وكان خروجُ رسولِ ٱللهِ ﷺ وصاحبه أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ للغار ليلاً ، وقد حمل سيِّدنا أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ ثروته كلّها حتَّىٰ تظلَّ تحت تصرُّف الصَّادق المصدوق ﷺ . روىٰ هٰذا الخبر الحاكم رَحِمَهُ ٱللهُ بإسناد حسَنٍ إلىٰ أسماء بنت أبي بكر ـ رضي ٱلله عنها ـ قالت : « لمَّا توجَّه رسولُ ٱلله ﷺ من مكَّة إلىٰ المدينة ومعه أبو بكر ، حمل أبو بكر معه جميع ماله خمسة آلاف ، أو ستَّة آلاف درهم . . . . » [1] .

« أخْفِ عنَّا يا سُـــراقَـةُ » :

* إنَّ قصَّةَ سيِّدنا سراقة بن مالك المدلجيّ من قصص السِّيرة النَّبويَّة الشَّهيرة الجميلة ، ولا تكادُ تُذكَرُ أحداثُ الهجرة إلا تُقْرنُ بها قصَّةُ سراقةَ بنِ مالك ؛ ولحاقه بالحبيب الأعظم ﷺ ؛ ابتغاء الجائزةِ القرشيَّةِ الثَّمينةِ المغريةِ آنذاك ، وفي الحقيقة كَسِبَ سراقةُ جائزةً مضاعفةً أعظم بكثير من الجائزة التي جعلتْها قريشٌ لمن يدلُّ علىٰ محمَّدٍ ﷺ ، فقد انتظم سراقةُ في سلك دُرر الصَّحابة ، وهٰذا من أعظم الكسب والثَّروة والجواهر والدّرر ؛ إذ فيه النَّجاةُ

= رؤوسهما ، وبدت أقدامهما ، فقال : « إنَّ هٰذه أقدام بعضها من بعض » ، فَسُرَّ بذلك رسول ٱلله ﷺ .

ومن جميل الشّعر ومَليحه في القيافة قول أبي محمَّد بن مطران الشَّاشيّ في أَخَويْن متفاوتَيْن :

بيـن أخـلاقـك التـي هـي أخـلا قٌ وأخـلاقـهِ العِتـاق مسـافَـه

ولعمـري لفـي ادّعـائـك إيَّـا هُ كمـن رام إبطـال علـم القيـافـه

(1) أخرجه الحاكم (٣ / ٦) برقم : (٤٢٦٧) وقال : « هٰذا حديث صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه » .

والفوزُ بجنَّاتٍ ونَهَر ، والأمر الآخر أنَّ الحبيبَ الأعظم ﷺ بشَّرَهُ بأنَّه سيلبسُ سواري كسرىٰ عظيم الفرس ؛ وقد تحقَّقَ ذلك الأمرُ في العهد الرَّاشدي إبَّان الخلافة العمريَّة المباركة ، كما سنعرفُ من خلال سيرة سيِّدنا سراقة ـ رضي ٱلله عنه وعن الصَّحابة أجمعين وحشرنا في زمرتهم ـ .

* إنَّ سيرة سراقةَ مفعمةٌ بالدروس العظيمة ، وفيها كثيرُ من الدَّلائل القويمة ، وعجائب الإعجاز التي أكرم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بها نبيَّه محمَّداً ﷺ ، كما فيها من الآيات الباهرة ، والعجائب الكونيَّة الظَّاهرة ؛ ما يشيرُ إلىٰ حفاوةِ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ بنبيِّه ﷺ ، وحمايته ونصرته بما لا قِبل لأحدٍ من الخلْق أنْ يصنَعَه ، أو أن يقومَ به أو يختاره .

* استوتْ قصَّةُ سراقةَ علىٰ سُوقها يومَ الهجرة ، حينما خرجَ رسولُ ٱلله ﷺ من مكَّة المكرمةِ يشقُّ طريقَه مع صاحبه أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ عبر الصَّحراء والهضاب والجبال ، ليقيمَ دولةَ الإسلام في أرضِ طَيْبَةَ الطَّيِّبة التي هيَّأَها اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ له ، وهيَّأَ فيها رجالاً كراماً صدقوا ما عاهدوا ٱلله عليه ، فكانوا حُرَّاسَ الوحي ، وأمناء الحبيب الأعظم ﷺ ، وسادة من خيار السَّادات ؛ فأكرمْ بهم !

* علمت قريشٌ بالهجرة النَّبويَّة ، فأخذَهَا ما قَرُبَ وبَعُدَ ، وكاد يقضي عليها الأسىٰ ، وامتلأ قلبها بالحسرة ؛ إذ فاتتها دقائق هٰذه الهجرة ؛ ومن ثمَّ أعلنت عن مكافأةٍ عظيمةٍ لمن يتمكَّنُ من قَتْلِ رسولِ ٱللهِ ﷺ وصاحبه ، أو مَنْ يستطيعُ أنْ يأسرهما ، أو يصدّهما عن الهجرة إلىٰ بلد النُّصرة .

* لم تفلحْ قريشٌ في هٰذا الأمر ، وأخفقَتْ في محاولتها في أن تعثرَ علىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ وصاحبه ، وأخزاها ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأعمىٰ بصرَ فرسانها وبصيرتهم ، وقد وصلوا إلىٰ الغار الذي احتوىٰ في داخلهِ الحبيب المصطفىٰ ﷺ ، مع أحبِّ النَّاس إليه أبي بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فقد كانت السَّكينةُ تتنزلُ عليهما ، فيمحو ٱلله بها آثار القلقِ والخوف ، وهٰذا ما أكَّدهُ الصِّدِّيق الأكبرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ إذ قال فيما رواه البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللهُ بسنده

عنه : « كنتُ مع النَّبيِّ ﷺ في الغار ، فرفعتُ رأسي ، فإذا أنا بأقدام القوم ، فقلتُ : يا نبيَّ ٱلله ! لو أنَّ بعضَهم طأطأَ بَصَرَهُ رآنا » .

قال : « اسكتْ يا أبا بكر ! اثنان اللهُ ثالثهما » [1] .

* ولم يأخذْ أحدٌ الجائزة القرشيَّة ، أمَّا سراقةُ بنُ مالك فقد روىٰ بعد إسلامه قصَّة تلك المغامرة العجيبة ، وركوبه الأهوال ؛ بغية أنْ يحظىٰ بالجائزة وهي مئة ناقة ، ويدلَّ علىٰ محمَّدٍ ﷺ أو يتتبع أثره ، وقد فعل ؛ لـٰكنَّه بعد أنْ عرفَ الحقَّ ولَمَسَهُ وأبْصَرهُ ؛ صار يردُّ النَّاس عن طريقِ رسولِ ٱللهِ ﷺ ويُضلِّلهم ، وعزفَ عن المكافأة المُغرية التي يسيلُ لها لعاب الطَّامعين ، وتداعِبُ أحلامَ الكثيرين ، وتهفو إليها قلوب الفارغين .

* ولا بأْسَ أنْ نجلوَ العيون بحديث سيِّدنا سراقةَ بنِ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ونجلوَ القُلوب أيضاً ونحن نمتعُ الأسماع بالقصَّةِ الشَّائقة التي أخرجها البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « صحيحه » بسنده إلىٰ سراقة بن مالك بن جعشم المدلجيّ ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ إذ يقول : « جاءنا رسلُ كُفَّار قريش ، يجعلون في رسول ٱلله ﷺ ، وأبي بكر دية كلّ واحد منهما لِمَنْ قَتَلَه أو أسره . فبينما أنا جالسٌ في مجلسٍ من مجالس قومي بني مُدلج ؛ إذ أقبل رجلٌ منهم حتَّىٰ قام علينا ونحنُ جلوسٌ ، فقال : يا سراقةُ ! إنِّي رأيتُ آنفاً أَسْوِدةً بالسَّاحل أراها محمَّداً وأصحابه .

قال سراقةُ : فعرفتُ أنَّهم هم ، فقلتُ له : إنَّهم ليسوا بهم ، ولـٰكنَّك رأيتَ فلاناً وفلاناً انْطَلَقُوا بأعيُنِنا .

---

(١) أخرجه البخاريّ في مناقب الأنصار برقم : (٣٩٢٢) ، وما أجمل قول القائل في هـٰذا المقام النَّفيس في أبي بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ :

وفي الغار ثاني اثنين واللهُ ثالثٌ ... بنصِّ كلام اللهِ في محكم الذِّكْر
بصحبتهِ ربُّ البريَّةِ شاهدٌ ... وذلك عند اللهِ من أعظم القدر !

ثمَّ لبثتُ في المجلس ساعةً ، ثمَّ قمتُ فدخلتُ ، فأمرتُ جاريتي أنْ تَخْرُجَ بفرسي ـ وهي من وراء أكمة ـ فتحبسَها عليَّ ، وأخذتُ رمحي ، فخرجتُ به من ظهر البيت ، فخططتُ بِزُجِّهِ الأرض ، وخفضتُ عاليه ، حتَّىٰ أتيتُ فرسي فركبتُها ، فرفعتها تقرَّبُ بي ، حتَّىٰ دنوتُ منهم ، فعثرتْ بي فرسي ، فخررتُ عنها ، فقمتُ فأهويتُ يدي إلىٰ كنانتي ، فاستخرجتْ منها الأزلامَ ، فاستقسمتُ بها : أضرُّهم أمْ لا ؟ فخرجَ الذي أكرهُ ، فركبتُ فرسي ـ وعصيتُ الأزلام ـ تقرّبُ بي ، حتَّىٰ إذا سمعتُ قراءةَ رسولِ ٱللهِ ﷺ وهو لا يلتفتُ ، وأبو بكر يكثرُ الالتفاتَ ، ساخَتْ يدا فرسي في الأرض حتَّىٰ بَلَغَتَا الرُّكْبَتَيْن ، فخررتُ عنها ، ثمَّ زجرتُها ، فنهضتْ فلم تكدْ تُخْرِجُ يديها ، إذا لأثر يديها عُثانٌ ساطعٌ في السَّماء مثلُ الدُّخان ، فاستقسمتُ بالأزلام ؛ فخرج الذي أكرهُ ، فناديتهم بالأمان ، فوقفوا ، فركبتُ فرسي حتَّىٰ جئتُهم ، ووقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيتُ من الحبس عنهم أن سيظهرُ أمر رسول ٱلله ﷺ ، فقلت له : إنَّ قومك قد جعلوا فيك الدِّيةَ ، وأخبرتهم أخبار ما يريدُ النَّاس بهم ، وعرضتُ عليهم الزَّاد والمتاع ، فلم يرزآني ، ولم يسألاني ، إلا أنْ قالَ : « أَخْفِ عنَّا » .

فسألته أنْ يكتبَ لي كتاب أمْنٍ ، فأمرَ عامرَ بنَ فُهيرة ، فكتبَ في رقعةٍ من أدم ، ثمَّ مضىٰ رسولُ ٱللهِ ﷺ »[1] .

---

(١) أخرجهُ البخاريّ في مناقب الأنصار برقم : (٣٩٠٦) ، ومسلم برقم : (٢٠٠٩) ، والطَّبرانيُّ في « الكبير » (٧ / ١٣٢ ـ ١٣٣) برقم : (٦٦٠١) ، وانظر : « صحيح السِّيرة النَّبويَّة » (ص : ١٧٦ ـ ١٧٧) ، و« سُبل الهدىٰ والرَّشاد » (٣ / ٣٥١ ـ ٣٥٣) ، و« المستفاد من مبهماتِ المتنِ والإسناد » لأبي زرعة العراقيّ (١ / ١٢٠٣ ـ ١٢٠٥) برقم : (٤٦١) ، وغيرها ممَّا لايحصىٰ .

ومعنىٰ قوله « دية كلّ واحد » : أي : مئة من الإبل . و« رأيت آنفاً » : في هـٰذه السَّاعة . و« أسْوِدَة » : جمع سواد ، وهو الشَّخص . و« انطلقوا=

= بأعيننا » : في نظرنا معاينة يبتغون ضالةً لهم . و« أراهما » : أظنُّهما . و« أكَمة » : رابية . و« فخططتُ » : أمسكتُ بأعلاه وجعلت أسفله في الأرض . و« زجّه » : الزُّج : بضم الزّاي : الحديدة التي في أسفل الرّمح . و« خفضتُ عاليه » : أي : أمسكه بيده وجرَّ زَجَّه علىٰ الأرض فخطها به لئلا يظهر بريقه لمن بَعُد منه ؛ لأنَّه كره أنْ يتبعه منهم أحد فيشركه في الجعالة . و« فرفعتها » : أسرعت بها السّير . و« تُقَرِّب بي » : التّقريب : السّير دون العدو وفوق العادة ، وقبل أن ترفعَ الفرس يدها معاً وتضعهما معاً . و« فأهويتُ يدي » : بسطتُها للأخذ . و« كنانتي » : الكنانة : وعاء من جلد يُجْعَل فيه السِّهام . و« الأزلام » : الأقداح وهي السِّهام التي لا ريش لها ولا نصل . ومفرد الأزلام : زَلَم . و« فخرج الذي أكرهُ » : أي : لاتضرّهم . و« ساخت » : غاصَتْ . و« عُثَان » : دُخان ، أو شبه الدّخان . وقال أبو عمرو بن العلاء : « العثان الدّخان من غير نار » . و« يرزآني » : لم ينقصاني مما معي شيئاً . و« أخْفِ عنا » : استر الخبر لمن سألك عنا . و« كتاب أمن » : يعني : كتاباً يكون علامةً بيني وبينك . و« أدم » : خرقة .

وسنقرأ الآن التَّغريدة التي تتحدَّثُ عن سراقةَ بنِ مالك وهو يلحقُ برسول ٱلله ﷺ يوم الهجرة المباركة :

فَقَدَتْ قريشٌ رشْدها إذ فاتَها الصَّيدُ الثَّمين
فلقد تفجَّر غيظهم من واقعِ الحقدِ الدَّفين
قد أعلنوا جُعلاً سخياً مغرياً للرَّاغبين
مئةٌ من النُّوق العطاءُ لمن أتاهم بالأمين
الجُعلُ قد أغرىٰ سراقة مثل كل الطَّامعين
وعلىٰ جواد سابق قد طار يدفعه الحنين
لمَّا رأىٰ ركْبَ الرَّسول أتاه ظنّ الغانمين
والنَّفسُ صارت بالأماني في حساب الحاسبين
وإذا الجوادُ به كبا طارتْ أماني الحالمين
ساختْ قوائمهُ لِيَعْجز عن لحاق الرَّاحلين

* وفي موضعٍ آخرَ بلفظٍ آخر ، أخرج البُخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ من حديث سيِّدنا أنسِ بنِ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ قال : « أقبلَ نبيُّ ٱلله ﷺ إلىٰ المدينة وهو مردفٌ أبا بكر ، وأبو بكر شيخٌ يُعرفُ ، ونبيُّ الله ﷺ شابٌ لا يُعرف ، فيلقىٰ الرَّجل أبا بكر فيقول : يا أبا بكر ! مَنْ هـٰذا الرَّجل الذي بين يديك ؟

فيقول : هـٰذا الرَّجلُ يهديني السَّبيل ؟ فيحسبُ الحاسب أنَّه إنَّما يعني الطَّريق ، وإنَّما يعني سبيلَ الخير .

فالتفتَ أبو بكر فإذا هو بفارسٍ قد لحقَهم ، فقال : يا رسولُ ٱلله ! هـٰذا فارسٌ قد لحقَ بِنَا ، فالتفتَ نبيُّ الله ﷺ فقال : « اللهمَّ اصرعْهُ » فَصَرَعَهُ الفَرس ، ثمَّ قامت تُحَمْحِمُ ، فقال : يا نبيَّ ٱلله ! مُرني بما شئت .

قال : « فقِفْ مكانك ، لا تتركنَّ أحداً يلحق بنا » .

قال : فكان أوَّلُ النَّهار جاهداً علىٰ نبيِّ ٱلله ﷺ ، وكان آخر النَّهار مَسْلَحةً له . . . . »[1] .

= نـــادىٰ علـــىٰ ركـــبِ الـــرَّســـول وقـــال كـــونُـــوا آمنيـــن
لٰكـــن أنـــاشـــدكـــم كتـــابـــاً فيـــه أمـــنُ الخـــائفيـــن
ولقـــد أردّ القـــوم عنكـــم إنْ أتـــوكـــم لاحقيـــن
حصـــلَ المُغيـــرُ علـــىٰ الكتـــاب وظـــلَّ يخفيـــه السِّنيـــن
مـــن يـــومهـــا أمســـىٰ ســـراقـــةُ فـــي عـــداد المسلميـــن
والـــرّكْـــبُ واصَـــلَ سيـــره كـــانـــوا ليثـــربَ ذاهبيـــن

(١) أخرجه البخاريّ في مناقب الأنصار برقم : (٣٩١١) . وقوله « مردف أبا بكر » : راكبٌ خلفه علىٰ راحلته . و« أبو بكر شيخ يُعرف » : يريد أنَّه قد شَاب . و« يهديني السَّبيل » : يريدُ الهداية في الدِّين . و« هـٰذا فارسٌ » : هو سراقةُ بنُ مالك . و« تحمحم » : الحمحمةُ : صوت الفرس دون صهيله . و« المسلحة » : القوة المدافعة .

أقول : « يحسن بنا أنْ نشيرَ هـٰهنا إلىٰ ذكاء أبي بكر الصِّدِّيق ـ رضي ٱلله عنه ـ ،=

* وقد ترجم محمود سامي البارودي قصَّةَ سُراقة شِعْراً في قصيدته الميميَّة البديعة : « كَشْف الغُمَّة في مدحِ سيِّد الأُمَّة »[1] التي افتتحها بقوله :

يـا رائـدَ البـرقِ يمـمْ دارةَ العَلَـم   وَاحْـدُ الغَمَـامَ إلـىٰ حَـيٍّ بـذي سَلَـم

ثمَّ تعرَّضَ إلىٰ قصَّةِ سُراقةَ فتألَّقَ وأجَادَ لمَّا قال :

فبينمـا هُـوَ يَطْـوي البيـدَ أدركَـه   ركْضـاً سُـراقـةُ مثـلَ القَشْعَـمِ الضَّـرم
حتَّـىٰ إذا مـا دَنَـا سَـاخَ الجـوادُ بـه   فـي بُـرقَـةٍ فهـوىٰ للسَّـاقِ والقَـدم
فَصَـاحَ مُبتهـلاً يـرجـو الأمـانَ ولـو   مضـىٰ علـىٰ عـزمـهِ لانْهـارَ فـي رجَـم

= وإلىٰ حصافتِهِ عندما يُسأل : مَنْ هـٰذا الرَّجلُ الذي بين يديك ؟

فيقولُ ـ رضي ٱلله عنه ـ : هـٰذا الرَّجُلُ يهديني السَّبيل . وهـٰذا من لطيفِ المعاريض التي يخرجُ بها المتكلِّمُ عن مضائق السُّؤال دون أنْ يُشْعِرَ سائله بإعراض عن إجابته ، أو يطّلع علىٰ سرٍّ من أسرارِ نفسه ، وهو مذهبٌ من أدقِّ مذاهبِ الأسلوب العربيِّ وألطفه » .

(١) وللشَّيخ يوسفُ النَّبهانيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ همزيّةٌ ألْفِيَّةٌ عنوانها : « طيبة الغرَّاء في مدح سيِّد الأنبياء » ﷺ ، وزَانَ بها همزية البوصيريّ المسمَّاة : « أمّ القرىٰ في مدح خير الورىٰ » ، ومطلعُها :

نُـورُك الكُـلُّ والـورىٰ أجـزاءُ   يـا نبيَّـاً مِـنْ جُنْـدهِ الأنبيـاءُ

وتحدَّثَ من خلال هـٰذه القصيدةِ الطَّويلةِ عن الهجرةِ إلىٰ المدينة ، وساق قصَّة سراقة بن مالك ، فقال :

واقْتَفَـاهَـا سُـراقـةُ لاستـراقِ النُّـو   رِ منهـا كـأنَّـهُ الحِـرْبَـاءُ
وَعَـدَ النَّفـسَ بـالثَّـراء ولٰكـنْ   رُبَّ فقْـرٍ أشـرُّ منـه الثَّـراءُ
صيَّـرَ الخَسْـفُ تحتـه الأرضَ بحـراً   غـرقَـتْ فيـه سـابـحٌ جـرداءُ
فَفَـدَىٰ نفسـه ببـذلِ خضـوعٍ   حيـن منهـا لـم يبـقَ إلا الـذّمـاءُ
وحَبَـاهُ وعـداً بـإسـوارِ كسْـرىٰ   فـأَتَـاهُ مـن بَعْـدِ حيـنٍ وفـاءُ

« المجموعة النَّبهانيَّة في المدائح النَّبويَّة » (١ / ٢٠٥) .

وكيــفَ يبلــغُ أمْــراً دونَــه وَزَرٌ ... مِــن العنــايــةِ لــم يبلغْــه ذو نَسَــم
فكَــفَّ عنْــهُ رســولُ اللهِ وهــو بــه ... أدرىٰ وكــم نِقَــمٍ تَفْتَــرُّ عــن نِعَــم

* كما شاركَ أحمد محرَّم في صياغةِ قصَّةِ سُراقة في هـٰذا الموقفِ الحرجِ الخطير ، فأنشأَ هـٰذه الأبيات العذبة السَّهْلة :

اتّــقِ اللهَ يــا ســراقــةُ وانظــرْ ... هــل تــرىٰ الأمْــرَ هيّنــاً ميســورا
أمْ تظــنُّ الجــواد تُمسكــهُ الأر ... ضُ وتلــوي عنــانَــه مسحــورا
أمْ هـــو اللهُ ذو الجـــلال رمــاه ... يُمســك الشَّــرَّ راكضــاً مُستطيــرا
غــرَّكَ القــومُ فــانطلقــتَ تــرجِّيـ ... ـــه خسيســاً مــن الجــزاءِ حقيــرا
وضــحَ الحــقُّ فــاعتــذرتَ وأَوْلا ... كَ الــرَّســولُ الأميــنُ فضْــلاً كبيــرا
فــزْتَ بــالعهــدِ فــاغْتَنِمْــه وأبشــرْ ... بِســواري كســرىٰ فُــدِيــتَ البشيــرا
قــلْ لأهــلِ النِّيــاق أُوتيــتُ أجــري ... جَلــلاً فــابْتَغُــوا سِــوايَ أجيــرا
ليــس مَــنْ رامَ رفعــةً أو سَنــاءً ... مثــلَ مَــنْ رامَ نــاقــةً أو بعيــرا (1)

« لا تحــزَنْ » :

* « لا تحــزنْ » همْسَــةٌ حــانيــةٌ شــافيــة مــن الحبيــبِ المصطفــىٰ ﷺ لأبي بكرٍ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، عندما رأىٰ سراقةَ بنَ مالك يتبعُهم يومَ الهجرة ، فقد كان سراقةُ من فرسانِ العرب المشهورين ، وخاف الصِّدِّيقُ الأكبرُ من سراقةَ علىٰ حبيبهِ وهاديهِ السَّبيل رسول ٱلله ﷺ ، وخصوصاً لمَّا غدا سراقةُ قريباً منهما قَدْر رُمحَيْن أو أكثر قليلاً ، وهـٰهنا هتفَ الحبيبُ الأعظمُ ﷺ قائلاً لِصَديقهِ وصدِّيقهِ : « لا تحزنْ إن اللهَ معَنا » .

* ويكشفُ سيِّدُنا أبو بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ اللثامَ عن هـٰذا الموقف المثير ، واقتراب سُراقةَ من الرَّكْب المهاجر فيقول : « وتبعنا سراقةُ بنُ مالك ونحنُ في جَلْدٍ ، فقلتُ : يا رسولَ ٱلله ! هـٰذا الطَّلب قد لحقنا .

---

(1) « ديوان مجد الإسلام » لأحمد محرَّم (ص : ٥٥ ـ ٥٦) .

قال : « لا تحزنْ إنَّ اللهَ معنا » .

فلمَّا دَنَا منا ، وكان بيننا وبينه قَدْرَ رمْحٍ ، أو رمحَيْن ، أو ثلاثة ، قلتُ : هٰذا الطَّلب قد لحقنا ، وبكيتُ .

قال ﷺ : « ما يبكيك ؟ » .

قلتُ : أَما واللهِ ما علىٰ نفسي أبكي ، ولٰكنِّي أبكي عليك » .

فدعا عليه رسولُ ٱلله ﷺ فقال : « اللهمَّ اكفِنَاهُ بما شئْتَ » .

فساخَتْ به فرسُه في الأرض إلىٰ بطنها ، فوثبَ عنها ، ثمَّ قال : يا محمَّدُ ! قد علمتُ أنَّ هٰذا عَمَلُك ، فادعُ اللهَ أنْ ينجيني ممَّا أنا فيه ، فواللهِ لأعمينَّ علىٰ مَنْ ورائي من الطَّلب ، وهٰذه كنانتي فخذْ منها سهماً ، فإنَّك ستمرُّ علىٰ إبلي وغنمي بمكانِ كذا وكذا ، فخذْ منها حاجَتَكَ .

فقال رسولُ ٱللهِ ﷺ : « لا حاجةَ لنا في إبلك وغنمك » .

ودعا له رسولُ ٱلله ﷺ ، فانطلقَ راجعاً إلىٰ أصحابه لا يلقىٰ أحداً إلا قال : قد كُفيتُم ما هٰهنا ، ولا يلقىٰ أحداً إلاَّ ردَّه ، ووفىٰ لنا » (١) .

---

(١) « سُبُل الهدىٰ والرَّشاد » (٣ / ٣٥٤) ، وللحديث أصل في « الصَّحيحين » ، ومصادر أخرىٰ كثيرة .

أقول : « أورد عدد من المصنّفين قصيدة طويلة قوامها عشرون بيتاً زعموا أنَّ أبا بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ صاغها ، وهي تتحدَّثُ عن دخوله الغار مع رسول ٱلله ﷺ ، وعن طلب سراقة لهم ، ومن هؤلاء المصنِّفين : أبو نُعيم في « الدّلائل » (٢ / ٤٣٢ ـ ٤٣٣) ، والسُّهيليّ في « الرّوض الأنف » (٢ / ٢٣٤) ، والصَّالحيّ في « سُبُل الهدىٰ والرَّشاد » (٣ / ٣٥٤ ـ ٣٥٥) ، والصَّفديّ في « مِنح المِدَح » (ص : ١٤٥ ـ ١٤٨) ، وأوّل هٰذه القصيدة :

قال النَّبيُّ ولم أجزعْ يوقّرني ... ونحنُ في شدّة من ظلمة الغار

وهي قصيدة يظهرُ عليها التّكلّف والنَّظم والوضع ، ولم يثبت أنَّ =

* وذكرَ ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن زيد بن أسلم وغيره : « أنَّ سراقةَ بنَ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ ركب في طلب النَّبيِّ ﷺ ، بعدما استقسم بالأزلام ؛ أيخرجُ أمْ لا يخرج ، فكان يخرجُ له أنْ لا يخرج ـ ثلاث مرَّات ـ فركبَ فَلَحقَهم ، فدعا النَّبيُّ ﷺ أنْ ترسخَ قوائم فرسه ، فرسخت ، فقال : يا محمَّد ! ادعُ ٱلله أنْ يطلقْ فرسي ، فأردَّ عنك .

فقال النَّبيُّ ﷺ : « اللهمَّ إنْ كان صادقاً ، فأطْلِقْ له فرسَه » .

فخرجَتْ قوائمُ فرسه »[1] .

= أبا بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ قال الشِّعر في الجاهليَّة ولا في الإسلام ، وقد أحببتُ أنْ أنوِّه إلىٰ هـٰذا الأمر طلباً للفائدة وإحقاقاً للحقِّ ، وحبًّا للعِلْم .

ومن الجدير بالذِّكر أنَّ أبا نُعيم قد أوردَ قصيدةً أخرىٰ زعم أنَّ أبا بكر أنشدها ، وموضوعها نفس موضوع القصيدة السَّابقة ، ومطلعها :

أَلَمْ ترني صاحبْتُ أيمنَ صاحبٍ　　علىٰ واضح من سنّةِ الحقّ منهجِ

ومنها يذكر قصَّة سراقة :

فقد زادَ نفسي واطمأنَّتْ وآمنتْ　　به اليوم ما لاقىٰ جوادُ ابن مدلجِ

سراقةُ إذ يبغي علينا وليدهُ　　علىٰ أعوجي كالهراوة مدلجِ

فَسَاخَتْ بهنَّ الأرضُ حتَّىٰ تغيّبتْ　　حوافره في بطن وادٍ مُعججِ

فأغناهُ ربُّ العرش عنَّا وردَّه　　ولولا دفاعُ ٱلله لم يتفرجِ

« دلائل النُّبوَّة » (٢ / ٤٣٤) . ويلاحظُ القارئُ الكريم أثر التَّكلُّف والتَّنطُّع في هـٰذه الأبيات التي اقتطفناها من قصيدة تعدّ (١٢ بيتاً) ، وٱلله تعالىٰ أعلم » .

(١) « طبقاتُ ابنُ سعد » (١ / ١٨٨) ، ومعنىٰ قوله « استقسم بالأزلام » : استقسم : هو طلب ما قسم له ، والأزلام : هي السِّهام ، واحدها زَلَم ، وكانت ثلاثة ، وقد كتب علىٰ أحدها : « افعل » ، وعلىٰ الآخر : « لا تفعل » ، والثَّالث مهمل ، فإذا أراد الإنسانُ أنْ يعملَ أمراً جعلها في خريطة ـ وعاء من جلد ـ وأدخل يده ، وأخرج أحدها ، فإنْ خرجَ له الذي =

* وساق ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضاً من حديثٍ طويلٍ في الهجرة ، عن أبي معبد الخزاعيّ ، قال : « . . . فلمَّا راحوا عرضَ لهم سراقة بن مالك بن جعشم وهو علىٰ فرسٍ له ، فدعا عليه رسولُ ٱللهِ ﷺ ، فرسخَتْ قوائم فرسه ، فقال : « يا محمَّدُ ! ادعُ ٱللهَ أنْ يطلقَ فرسي وأرجع عنك ، وأردّ من ورائي ، ففعل ، فأُطلق ، ورجع ، فوجد النَّاس يلتمسون رسولَ ٱللهِ ﷺ ، فقال : ارجعوا قد استبرأتُ لكم ما هٰهنا ، وقد عرفتم بصري بالأثر ، فرجعوا عنه » [1] .

* وعند ابنِ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضاً بسنده عن عُمير بن إسحاق قال : « خرجَ رسولُ ٱللهِ ﷺ ، ومعه أبو بكر ، فعرضَ لهما سراقةُ بنُ جعشم ، فساخَتْ فرسه ، فقال : يا هٰذان ادعُوَا لي ٱللهَ ؛ ولكما ألا أعود ، فَدَعَوَا ٱللهَ ، فعاد ، فساخَتْ فقال : ادعوا لي ٱللهَ ، ولكما ألا أعود .

قال : وعرض عليهما الزَّاد والحُمْلان ، فقالا : اكفنا نفسك .

فقال : قد كفيتُكُماها » [2] .

= فيه : « افعلْ » فعل ما أراد ، وإنْ خرجَ له الذي فيه : « لا تفعل » تركَه ، وإنْ خرجَ المهمل أعادَ الضّرب ، وقد حرَّم ٱللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ الاستقسام بالأزلام ، وجعله فسقاً ؛ لأنَّه دخولٌ في عالَم الغيب الذي انفردَ ٱللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ به ، وٱللهُ تعالىٰ أعلم .

(١) « طبقات ابن سعد » (١ / ٢٣٢) ، ومعنىٰ قوله « استبرأت لكم » : استبرأ الخبر : تقصَّىٰ بحثه ليقطع الشُّبهة عنه .

(٢) « طبقاتُ ابنُ سعد » (١ / ٢٣٢) ، وقوله « ساخت » : غابت ، أو غاصت في الرَّمل . و« الحُمْلان » : ما يحمل عليه من الدَّواب .

أقول : « من المؤكَّد أنَّ الهجرةَ ذات معان عظيمة ، منها : التَّضحية بالنَّفس ، والمال ، والأهل ، والأولاد ، والوطن ، وقد هاجر سيِّدنا أبو بكر ـ رضي ٱللهُ عنه ـ بأعلىٰ أنواع التَّضحية في سبيل ٱللهِ ، ورافق الحبيب المصطفىٰ ﷺ في رحلة عظيمة=

وَاللهِ لو كُنْتَ شَاهداً :

* صدقَ سراقةُ ما عاهدَ ٱللهَ ورسوله عليه ، وطفق يردُّ مَنْ يلقاهُ عن رسول ٱلله ﷺ وعن أبي بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، لقد تبدَّل سراقةُ من رجل يريدُ أن يلقيَ القبض علىٰ رسول ٱلله ﷺ ، وأن يسلمه إلىٰ كبراء المشركين وزعيمهم أبي جهل بن هشام ، فأصبحَ رجُلاً يذبُّ عن رسول ٱلله ﷺ ، وجعل لا يلقىٰ أحداً ممن يطلبُ طلبه إلا ردَّه قائلاً بصدقٍ وصفاء : « ارجعوا ، فقد كُفيتم هٰذا الوجه . . . وقد عرفْتُم بصري بالأثر » فيرجعُ الطَّلب عن رسول ٱلله ﷺ نزولاً عند بصيرة سراقة بِقَفو الأثر ، ولمكانته عند العرب ؛ إذ كان سراقةُ أحدَ أربعة نفرٍ مشهورين اتَّصل سؤددهم في الجاهليّة والإسلام ، وهم : عروةُ بنُ مسعود ، وبشرُ بنُ المعلَّىٰ ، وجريرُ بنُ عبد ٱلله [1] ، وسراقةُ بنُ مالك المدلجيّ [2] .

* ولمّا تيقَّن سراقةُ ـ رضي ٱلله عنه ـ أنَّ الحبيبَ الأعظم ﷺ قد وصل المدينةَ المنوَّرةَ واستقرَّ فيها مع الأنصار ، شرع سيِّدنا سراقةُ يروي للنَّاس ما حصلَ معه ، ويقصُّ عليهم قصَّته وقصَّة فرسه ، وكيف عفا عنه رسولُ ٱلله ﷺ وتركَهُ ووعَدَهُ سوارَي كسْرىٰ ، وفَشَا هٰذا الأمرُ عنه ، وعرفه الخاصُّ والعام ، وتناقلَتْه الألسنةُ في المجالس والأندية ، حتَّىٰ وصلت هٰذه

= القدر ، ابتدأت بالغار ، وثنَّت بالمقام مع الأنصار ، وقدم كلّ ما يرضي ٱلله ورسوله من أجل إعلاء كلمة ٱلله ، وإنَّ أمةً أنجبتْ مثل أبي بكر الصِّدِّيق أمةٌ لا تموت ، ولهٰذا حظي الصِّدِّيق بالمعيَّة النَّبويَّة ، وإنزال السَّكينة عليه ، فهو أفضل الصَّحابة وشيخهم ، ولله درُّ مَنْ قال في حقِّه :

لا تفضّلْ علىٰ العَتيق صَدِيقاً ... فهو صدّيقُ أحمدَ المختار
وإن ارتبْتَ في الأحاديث فاقرأ ... « ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ ﴾ »

(١) اقرأ سيرة سيّدنا جرير بن عبد ٱلله البجليّ في هٰذا الباب من هٰذه الموسوعة المباركة .

(٢) انظر : « الاشتقاق » لابن دريد (ص : ٣٠٦) .

القصَّة أسماعَ المشركين في مكَّة ، فتوجَّسَ أبو جهل خيفةً من الأمر ، واقشعرَّ جلدُهُ ، واضطرب فؤادُهُ ، وخشي أنْ يسلمَ بعضُ أهل مكَّة ، وخاف من ذلك خوفاً شديداً أقضَّ مضجعَه ، وزلزلَ كيانَه ، وأخذ يفكِّرُ في هٰذا السَّيِّدِ المُدلجيِّ رئيس قومه وأميرهم ، فما كان منه إلا أنْ صاغَ قصيدةً ينبِّه من خلالها بني مُدلج ألا يستمعوا إلىٰ سراقةَ الذي أصبح من السُّفهاء ، وإذا ما استمعوا له فسوف يفرِّقُ جموعهم ، لذلك كَتَبَ إليهم محذِّراً وواعظاً لهم ؛ ومبيِّناً تخاذُل سراقةَ وجُبْنَه وغوايته :

بنـي مُـدلـج إنِّـي أخـافُ سفيهَكـم ... سُـراقـةَ مُسْتَغْـوٍ لِنَصْـرِ محمَّـدِ
عليكـم بـهِ ألا يفـرِّق جمعكـم ... فتصبـحَ شتَّـىٰ بعـد عـزّ وسـؤددِ
يظُـنُّ سفيـهُ الحـيِّ أنْ جـاءَ شبهـة ... علـىٰ واضـحٍ مـن سنّـة الحـقِّ مهتـدِ
فـأنَّـىٰ يكـون الحـقّ مـا قـال إذ غـدا ... ولـم يـأتِ بـالحـقِّ المُبيـن المسـدَّد
ولٰكنَّـه ولَّـىٰ غـريبـاً بسخطـةٍ ... إلـىٰ يثـرب مِنَّـا فَيَـا بُعْـد مَـوْلـدِ
ولـو أنَّـه لـمْ يـأْتِ يثـربَ هـاربـاً ... لأشْجـاهُ وقْـعُ المُشْـرفـيّ المهنَّـدِ

* وكان سراقةُ من فَصَحَةِ بني مُدلج وشعرائهم الكبار ، فعندما سمع شعر أبي جَهْل أخزاهُ ٱللهُ ، شرع يجيبُه ويردُّ عليه فيما زعمَ وكذبَ وقالَ باطلاً من القَول وزُوراً فكان مما قال :

أَبـا حَكَـمٍ واللهِ لـو كُنْـتَ شـاهـداً ... لأمْـرِ جـوادي إذ تسيـخُ قـوائمـه
عجبـتَ ولـم تشكُـكْ بـأنَّ محمَّـداً ... نبـيٌّ بِبُـرهـانٍ فَمَـنْ ذا يقـاومـه
عليـكَ بكـفِّ القـوم عنـه بـأنَّنـي ... أرىٰ أمْـرَهُ يـومـاً ستبـدو معـالمـه
بـأمـرٍ تـودُّ النَّـاسُ فيـه بـأسـرهـم ... بـأنَّ جميعَ النَّـاسِ طُـراً مُسَـالمُـه [1]

---

(١) انظـر : « دلائـل النُّبـوَّة » لـلأصبهـانـيّ (٢ / ٤٣٤ ـ ٤٣٥) بتصـرُّف يسيـر ، وانظـر : « فتـح البـاري » (٧ / ٢٨٦) ، و« البـدايـة والنِّهـايـة » (٣ / ١٨٦) ، و« أسد الغابة » (٢ / ١٨٠) ، و« الاستيعاب » (٢ / ١١٩) وغيرها .

« هـٰذا يومُ وفاءٍ وبرّ » :

* عَرَفَ سراقةُ بنُ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ الإسلامَ منذ أَنِ التقىٰ رسولَ ٱلله ﷺ ، ولعلَّه أسلمَ منْ يومها ، لـٰكنَّه لم يعلنْ إسلامه إلاَّ بعد غزوة الطَّائف .

* قال الإمامُ النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن إسلام سيِّدنا سراقة : « أسلم عند النَّبيِّ ﷺ بالجِعِرَّانةِ حين انصرفَ من حُنَينٍ والطَّائف » (١) .

* وروىٰ سيِّدنا سراقةُ قصَّة إسلامه بعد أَنِ احتفظَ بالكتاب النَّبويّ يوم الهجرة فيقول : « . . . حتَّىٰ إذا فتح اللهُ علىٰ رسوله مكَّة ، وفرغ من حُنين والطَّائف ، خرجتُ ، ومعي الكتاب لألقاهُ ، فلقيتُه بالجِعِرَّانةِ ، فدخلتُ في كتيبةٍ من خيل الأنصار ، فجعلُوا يقرعونني بالرِّماح ويقولون : إليكَ إليكَ ، ماذا تريدُ ؟ حتَّىٰ دنوتُ من رسولِ ٱلله ﷺ ، وهو علىٰ ناقتهِ ، واللهِ لكأنِّي أنظرُ إلىٰ ساقه في غَرْزِه كأنَّها جمَّارة ، فرفعتُ يدي بالكتاب ، ثم قلتُ : يا رسولَ اللهِ ! هـٰذا كتابُك لي ، وأنا سُراقةُ بنُ مالك بن جعشم ، فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « هـٰذا يومُ وفاءٍ وبرّ ، ادْنُهُ » ، فدنوتُ منه ، فأسلمتُ » (٢)

---

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٢١٠) .

(٢) « أسد الغابة » (٢ / ١٨٠) . وقال الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ثمَّ أسلم وحسن إسلامه » . « تاريخ الإسلام » (عهد معاوية ، ص : ٣٠٨) .

أقول : « صاغَ الشَّاعرُ أحمد محرم هـٰذه الحادثة بقصيدةٍ لطيفةٍ خفيفةٍ تتفتَّقُ عن أدبٍ أنيق ، يداعبُ الوجدان ، ويملأُ القلبَ بالحنان » . والقصيدة هي :

ارفــعْ كتــابــكَ يــا سُــرا	قــةُ إنَّــهُ عَلَــمُ النَّجــاة
هــو جُنَّــةٌ لــكَ مــن سُيــو	فِ الضَّــاربيــن طُلــىٰ الكُمــاة
عَهْــدُ النَّبــيّ فــأيُّ ذخــ	ــرٍ مثلــه للحــادثــات
أســدىٰ الجميــلَ ومَــنْ يــأ	خُــذْ نفســه بــالمكْــرُمــات=

وفي رواية : « فأسلمتُ ، وسقْتُ له صدقَةَ أموالي » [1] .

* وفي العهد العُمريّ تحقَّقَتْ نبوّةُ الحبيب المصطفىٰ ﷺ حينما قال لسراقةَ : « كيف بك إذا لبستَ سواري كسْرىٰ ومنطقته وتاجه ؟ » فلمَّا أُتي عمرُ بِسواري كسرىٰ ومنطقتِهِ وتاجه دعا سراقةَ وألبسه إيَّاهما ، وكان سراقةُ رجُلاً كثير الشَّعْر ، كثير شَعر السَّاعدين ، فقال له سيِّدنا عمر : « ارفع يديك ، وقلْ : اللهُ أكبر ، الحمدُ لله الذي سَلَبَهُما كسرىٰ بنَ هُـرْمُز ، الذي كان يقولُ : أنا ربُّ النَّاس ، وألبسهما سراقةَ رجُلاً أعرابياً من بني مُدلج » ورفع عمرُ صوته [2] .

=

ويقيـمُ أعـلامَ الهُـدىٰ ... للتّـابعيـن مـن الهُـداة

لـو شـاءَ قتلـكَ يـا سُـرا ... قـةُ لـم تـذقْ طعـم الحيـاة

إذْ جئْـتَ تطلـبُ قَتْلَـهُ ... وتُطيـعُ فيـه هـوىٰ الغـواة

أرأيـتَ حِلْـمَ محمَّـدٍ ... وعـرفْتَـه جـمَّ الأنـاة

أدْرِكْ بـديـنِ اللهِ نفـ ... ـسَـكَ واستقـمْ قبـل الفـوات

دِيْـنِ المفـاخـرِ والمـآ ... ثـرِ والخِـلال الصَّـالحـات

دِيْـنِ الغَطـارفـةِ الأمـا ... جـدِ والجهـابـذة الثّقـات

ديـن الـرَّشـاد بـأسـره ... والخيـر مـن مـاضٍ وآت

اللهُ ربُّ العـالميـ ... ـنَ فمـا اتّبـاع التُّـرهـات

إنْ كنْـتَ ذا عقْـلٍ فَحسْـ ... ـبُـكَ نظـرةٌ فـي الكـائنـات

تلـك المعـالـمُ واضحـا ... تٍ والشّـواهـدُ بيّنـات

دَعْ مـا مضـىٰ لـك يـا سُـرا ... قـةُ مـن جنـايـات العصـاة

أيّـامَ تضـربُ فـي الغِـوا ... يـةِ بـالعشـيِّ وبـالغـداة

أنـتَ اتّقيـتَ اللهَ ربَّـ ... ـكَ فـاغتنـمْ عقبـىٰ التّقـاة

« ديوان مجد الإسلام » (ص : (٤٠٦ ـ ٤٠٧) .

(١) « المعجم الكبير » للطّبرانيّ (٧ / ١٣٥) .

(٢) « الاستيعاب » (٢ / ١١٩) ، و« أسد الغابة » (٢ / ١٨٠) .

* روىٰ هـٰذه القصَّة الشَّائقة الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ اللهُ ، وذكر : « أنَّ عمرَ بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ أُتي بفروةِ كسرىٰ بن هرمز ، فَوضعَتْ بين يديه ، وفي القوم سراقةُ بنُ مالك بن جعشم ـ رضي ٱلله عنه ـ ، فألقىٰ إليه سواري كسرىٰ بن هرمز فجعلهما في يديه ، فبلغا منكبَيْه ، فلمَّا رآهما في يدي سراقة قال : الحمدُ لله ، سواري كسرىٰ بن هرمز في يدِ سُراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج ! ثمَّ قال : اللهمَّ إنِّي قد علمتُ أنَّ رسولَكَ ﷺ كان يحبُّ أنْ يصيبَ مالاً فينفِقَه في سبيلك وعلىٰ عبادك ، وزويتَ ذلك عنه نظراً منك له وخياراً ، ثمَّ قال : اللهمَّ إنِّي علمتُ أنَّ أبا بكر ـ رضي ٱلله عنه ـ كان يحبُّ أنْ يصيبَ مالاً فينفقَه في سبيلك وعلىٰ عبادك ، فزويتَ ذلك عنه نظراً منك له وخياراً ، اللهمَّ إنِّي أعوذُ بك أنْ يكون هـٰذا مَكْراً منك بعمر ! ثمَّ تلا : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ـ ٥٦] »[1] .

---

(١) « البداية والنِّهاية » (٧ / ٦٢) نقلاً عن « دلائل النُّبوَّة » للبيهقيّ . ومعنىٰ قوله « فروة » : هي بمعنىٰ ثروة . و« السِّوار » : الحلية التي تلبسه المرأة في زندها . و« زويت » : صرفْتَ . و« نظراً منك له » : نظر له : ترحم . و« خياراً » : الخيار : الاسم من الاختيار : وهو طلب خير الأمرين . و« مكراً منك بعمر » : إمهالاً .

قال بعض الصَّالحين : « منْ مكْرِ الله إمهالُ العبد وتمكينه من أعراض الدُّنيا » ؛ ولذلك قال سيِّدنا عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضي ٱلله عنه ـ : « مَنْ وُسِّعَ عليه دنياه ، ولم يعلمْ أنَّه مكر به فهو مخدوعٌ عن عقله » . ومعنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ أَيَحْسَبُونَ ﴾ : أيظنُّ هؤلاء الكفَّار أنَّ الذي نُعطيهم في الدُّنيا من الأموال والأولاد . و ﴿ نُسَارِعُ ﴾ : هو تعجيل ومسارعة لهم في الإحسان ، كلا ليس الأمر كما يظنُّون ، بل هو استدراجٌ لهم واستجرار إلىٰ زيادة الإثم ، ولهـٰذا قال : ﴿ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ ؛ أي : بل هم أشباه البهائم ، لا فطنة لهم ، ولا شعور حتَّىٰ يتفكروا في الأمر ، أهو استدراج ، أم مسارعة في الخير ، والآية ردّ علىٰ المشركين في زعمهم أنَّ أموالهم وأولادهم دليل =

* وفي رواية أخرىٰ عن القاسمِ بنِ محمَّد بن أبي بكر قال : « بعثَ سعدُ بن أبي وقَّاص ـ رضي ٱلله عنه ـ أيَّام القادسيَّة إلىٰ عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ بقباء كسرىٰ ، وسيفِهِ ، ومنطقتِهِ ، وسواريه ، وسراويله ، وقميصِهِ ، وتاجِهِ ، وخُفَّيْهِ ؛ فنظر عمرُ في وجوه القوم ، وكان أجسمُهم وأَبْدَنُهم قامةً سراقةُ بنُ مالك بن جعشم ، فقال : يا سُراقَ ! قُم فالبسْ .

قال سراقةُ : فطمعتُ فيه ، فقمتُ ، فلبستُ .

فقال : أَدْبِرْ ، فأدبرتُ ، ثمَّ قال : أقبلْ ، فأقبلتُ .

ثمَّ قال : بخٍ بخٍ ! أُعَيْرابيٌّ من بني مُدلجٍ ، عليه قباءُ كسرىٰ ، وسراويلُهُ ، وسيفُهُ ، ومنطقتُهُ ، وتاجُهُ ، وخُفَّاهُ ، رُبَّ يوم يا سُراق بن مالك ، لو كان عليك فيه هـٰذا من متاع كسرىٰ وآل كسرىٰ ، كان شرفاً لكَ ولقومك ، انزعْ ، فنزعتُ ، فقال : اللهمَّ ! إنَّك منعتَ هـٰذا رسولك ونبيّك ، وكان أحبّ إليك منِّي ، وأكرم عليك منِّي ، ومنعته أبا بكر وكان أحبّ إليك منِّي ، وأكرم عليك منِّي ، وأعطيتنيه فأعوذُ بك أنْ تكون أعطيتنيه لِتَمكُرَ بي ؛ ثمَّ بكىٰ حتَّىٰ رحمه مَنْ كان عنده ، ثمَّ قال لعبد الرَّحمـٰن بن عوف : أقسمتُ عليك لما بعته ، ثمَّ قَسَمْته قبل أنْ نمسي »[(١)] .

= رضىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ عنهم كما حكىٰ ٱلله عنهم ـ أي : بعد هـٰذا ـ ، وٱلله أعلم .

(١) « البداية والنِّهاية » (٧ / ٦٢) . وجاء في رواية أخرىٰ مفادها : « غنم المسلمون غنائم لا تُحصىٰ في معركة القادسيَّة ، وحُملتِ الغنائمُ إلىٰ سيِّدنا عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وحُمِلَ تاجُ كسرىٰ وجواهرُهُ إلىٰ عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ولم يلبث أنْ دعا سراقةَ بنَ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وألبسهُ سِواري كسرىٰ ومنطقته ، وتاجه ، وقال له عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ : ارفعْ يديك وقل : اللهُ أكبر ، الحمدُ لله الذي سَلَبَ السِّوارين كسرىٰ بن هرمز الذي كان يقول : أنا ربُّ النَّاس ، وألبسهما سُراقة رجلاً أعرابياً من مدلج . ورفع عمر صوته ينادي النَّاس ، ثمَّ أركبَ سراقةَ ، وطيفَ به في المدينة ، والنَّاسُ من حوله يحتفلون بهزيمةِ كسرىٰ ، ويصدقون رسولَ ٱلله ﷺ ، إظهاراً لدلائل=

مِنْ نَـقَـلَةِ الحديثِ :

* ممَّا يشرحُ الصُّدور ، ويثلجُ القلوب بأنداء الخير أنَّ سيدنا سراقةَ قد وعىٰ الحديث النَّبويَّ ورواهُ علىٰ الرّغم من قِصَرِ صحبته ، ولٰكنَّه بُوركَ له فيها ؛ إذ حفظ عدداً من الأحاديث النَّبويَّة المباركة .

* روي لسيِّدنا سراقةَ بنِ مالك (١٩ حديثاً) [١] عن رسول ٱلله ﷺ ، وهي مبثوثةٌ في كتب الصَّحيح والسُّنن والمسانيد والمعاجم ومصنَّفات الحديث ، وكتُب التَّراجم والطَّبقات .

* وممَّا يُحْتَسَبُ في رصيد هـٰذا الصَّحابي الكريم أن روىٰ عنه عددٌ من كبار علماء الصَّحابة وأعيانِهم ، فقد روىٰ عنه اثنان من علماء العبادلة [٢] وهما : عبد ٱلله بنُ عبَّاس [٣] ، وعبد ٱلله بن عمرو [٤] ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ ، كما روىٰ عنه عالم آخر من علماء الصَّحابة المكثرين لرواية

= نبوَّته يوم أنْ بشَّر سراقة بأنَّه سيلبس سواري كسرىٰ ، بشَّره بذلك وهو مهاجرٌ من مكَّة إلىٰ المدينة ، والمشركون يلاحقونه من كلِّ حدب وصوب . . . . إنَّها حقّاً معجزةٌ من معجزاته العظيمة ﷺ ، وسرٌّ من أسرار الرِّسالةِ المحمّديّةِ حققته الأيَّامُ بزمنٍ قصير . وما أكثر معجزات سيِّدنا وحبيبنا رسول ٱلله ﷺ ! ! » .

(١) « تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٢١٠) .

(٢) اقرأ سيرةَ العبادلة في الباب الأوَّل من موسوعتنا : « علماء الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ » (ص : ١٩ ـ ٢٨١) .

(٣) اقرأ سيرةَ العالم العيلم الحبر البحر عبد ٱلله بن عبَّاس ـ رضي ٱلله عنهما ـ في كتابنا : « علماء الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ » الباب الأوَّل (ص : ٢١ ـ ٧٨) حيث نستمدّ من سيرته الفائدة والإمتاع والمؤانسة .

(٤) اقرأ سيرته في الباب الأوّل من موسوعتنا : « علماء الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ » (ص : ١٢٧ ـ ١٦٦) فسيرته بهاء في بهاء في بهاء .

الحديث وهو جابرُ بنُ عبد ٱلله الأنصاريّ [١] ـ رضي ٱلله عنهما ـ .

* وروىٰ عنه عددٌ من أقربائه وأهلِ بيته ، ومنهم : ابنه محمّدُ بنُ سراقة بن مالك ، وأخوه : مالكُ بنُ مالك بن جعشم ، وابنُ أخيه : عبد الرَّحمـٰن بن مالك وغيرهم .

* أمَّا مَنْ روىٰ عنه من علماء التَّابعين وأسيادهم فكُثُر ، ومنهم : سعيدُ بنُ المسيِّب ، والحسنُ البصريّ ، وطاووس ، وعطاء ، وعُلَيٌّ بن رباح ، ومجاهد ، وجماعة [٢] .

* وقد مرَّتْ معنا آنفاً روايةُ البخاريّ رَحِمَهُ ٱللهُ لِسُراقةَ ـ رضي ٱلله عنه ـ في المناقب ، وله روايةٌ في بعض أبواب الفقه ، ومنها ما رواه الإمام أحمد بسنده عن عبد الرَّحمـٰن بن مالك بن جعشم ، عن أبيه ، عن عمِّه سُراقة بن مالك بن جعشم قال : « سألتُ رسولَ ٱلله ﷺ عن الضَّالة من الإبل تغشىٰ حياضي ، هل لي من أجر أسقيها ؟

قال : « نعم ، في كلِّ ذات كبد حرَّاء أجْرٌ » [٣] .

* وممَّا أخرجه أحمد والطَّبرانيّ بسندهما عن سراقةَ بنِ مالك ـ رضي ٱلله عنه ـ أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ قال : « يا سراقةُ ! ألا أخبرك بأهل الجنَّة ، وأهل النَّار ؟ » .

---

(١) اقرأ سيرته في الباب الثَّاني من موسوعتنا « علماء الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ » (ص : ٤٤١ ـ ٥٠٠) فسيرته إمتاع للأسماع .

(٢) انظر : « أسد الغابة » (٢ / ١٧٩) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (١ / ٢١٠) ، و« الاستيعاب » (٢ / ١١٨ ـ ١١٩) ، و« الإصابة » (١ / ١٩) ، و« تهذيب التَّهذيب » (٣ / ٤٥٦) ، و« تاريخ الإسلام » للذّهبيّ (عهد الخلفاء الرَّاشدين ، ص : ٣٠٨ ـ ٣٠٩) مع الجمع بينهما والتّصرّف اليسير .

(٣) « المسند » (٦ / ١٨٢ ـ ١٨٣) برقم : (١٨٥٩٢) ، وانظر : « المسند » (رقم : (١٧٥٩٥ ، و١٧٥٩٨ ، و١٧٥٩٩) .

فقال : بلىٰ يا رسولَ ٱلله !

قال : « أمَّا أهل النَّار فكلُّ جَعْظَرِيٍّ جوَّاظ مستكبر ، وأمَّا أهلُ الجنَّة فالضُّعفاء المغلوبُون » [1] .

* وفي حقِّ الزَّوج علىٰ زوجته أخرج الطَّبرانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن سراقةَ بنِ مالك قال : قال رسولُ ٱلله ﷺ : « لو كنت آمراً أحداً أنْ يسجدَ لأحدٍ ، لأمرتُ المرأة أنْ تسجدَ لزوجها » [2] .

* ومرويَّات سيِّدنا سراقة موجودةٌ في المصادر الحديثية ، وهي سَهْلةٌ لمن أراد أنْ يستقصيها .

* عاش سيّدنا سراقة شطراً من الخلافة الرَّاشدة ، وفي أوَّل خلافة سيِّدنا عثمان ـ رضي ٱلله عنه ـ في سنة (٢٤ هـ) [3] توفي سيِّدنا سراقة بن مالك ، وهو ينعمُ بظلال الإسلام بعد غزوة الطَّائف ، وكان من الذين رضي ٱلله عنهم ، وممّن مات رسولُ ٱلله ﷺ وهو راض عنهم ، فرضي ٱلله عن سراقة بن مالك ، وجمعنا معه في الجنَّة هنالك .

---

(١) « المسند » (٦ / ١٨٣) برقم : (١٧٥٩٦) ، و« المعجم الكبير » (٧ / ١٢٩) برقم : (٦٥٨٩) ، و« الجعظريّ » : المتكبّر . و« جوّاظ » : متكبّر جافي .

(٢) « المعجم الكبير » (٧ / ١٢٩) برقم : (٦٥٩٠) .

(٣) « أسد الغابة » (٢ / ١٨١) وغيره .





الطُّفيــلُ بــنُ عمرو

رضي ٱلله عنه

* كـان رجـلاً شـريفـاً شـاعـراً ؛ مليئـاً لبيبـاً ؛ يلقّـبُ ذا النّـور .
* أسلمَ مبكّراً ؛ وقصّةُ إسلامهِ ماتعةٌ نافعةٌ ؛ تدلُّ علىٰ حصافته .
* من خيار المجاهدين ، قُتِل شهيداً باليمامةِ دفاعاً عن الإسلام .





الطُّفَيلُ بنُ عمرو
رضي ٱلله عنه

الشَّــريف المُطــاع :

* مُعْظَمُ مَنْ تحدَّث عن هٰذا الرَّجُل أشار إلىٰ سيادته ورفعته وتصدُّره في قومهِ ، وشرفهِ ومكانتهِ بينهم ، ثمَّ وصفوه بأنَّه شاعرٌ شريفٌ لبيبٌ فَطِنٌ لَبِقٌ . . . . ، له آداب موصوفة ، وكمالات معروفة .

* هٰذا الرَّجلُ الهُمامُ هو الطُّفيل بنُ عمرو الدَّوسيّ [1] أحدُ نبلاء العرب وأذكيائهم الذين عَرفوا الإسلام في المرحلة المكيَّة ، وأسلموا قيادهم لله الواحد القهَّار ، ونطقُوا بالشَّهادة أمام النَّبيّ المختار ﷺ ، فبشَّرهم بجنَّات تجري من تحتها الأنهار .

* وقبل أنْ نبحرَ مع سيِّدنا الطُّفيل بنِ عمرو ومع أخباره العِذاب ، وشمائله التي تشبه الرّضاب ، دعونا نتعرَّف معنىٰ اسمهِ واشتقاقهِ ، فإنَّ في ذلك

---

(١) « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٤٤ ـ ٣٤٧) ، و« مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ١٧٧ ـ ١٨٢) ، و« معرفة الصَّحابة » (٣ / ٨٢ ـ ٨٤) ترجمة رقم : (١٥٤١) ، و« البداية والنِّهاية » (٦ / ٣٣٧) ، و« المغازي » (الفهارس : ٣ / ١١٨٨) ، و« طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٣٧ ـ ٢٤٠) ، و« أسد الغابة » (٢ / ٤٦٠ ـ ٤٦٣) ترجمة رقم : (٢٦١١) ، و« الاستيعاب » (٢ / ٢٢١ ـ ٢٢٦) ، و« الإصابة » (٢ / ٢١٦ ـ ٢١٨) وغيرها كثير من المصادر المتنوِّعة .

فائدةً لا تخفىٰ علىٰ القُرّاء ، وعلىٰ محبّي العلم والمعرفة .

* قال ابنُ دريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « الطُّفيل : تصغير طفْل . والطِّفْلُ : الوليد ، طفـلٌ مـن الطُّفـولـة . قـال الأصمعـيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : لا أدري مـا حـدُّ الطُّفـولـة والطِّفل . . . . والطَّفَل : اختلاط ظلمةِ الليل بباقي ضوء النَّهار . . . . طفل الليل تطفيلاً : إذ أقبلَ . والطُّفيل : اسمُ فرسٍ من خيلِ العرب مشهور »[(١)] .

* بعـد أنْ عـرفنـا اشتقـاق كلمـة الطُّفيـل ، سنتعـرَّفُ شخصيَّـةَ سيِّـدنـا الطُّفيل بن عمرو من خلال ما رسمتْه ريشةُ المصنِّفين القدامىٰ لهٰذا الرَّجلُ الكريم .

* ولنبدأْ بابن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، فنسْعَدُ معه في بدايةِ رحلته مع الصَّحابيّ الجليل الطُّفيل بن عمرو حيث يقول : « كان الطُّفيلُ بنُ عمرو الدَّوسيّ رجُلاً ، شريفاً ، شاعراً ، مليئاً ، كثير الضّيافة . . . . »[(٢)] .

* أمَّـا ابـنُ الأثيـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فصـاغ مجمـل الشَّخصيَّـة بهٰـذه الكلمـات فقال : « طفيلُ بنُ عمرو الأزديّ الدَّوسيّ ، يلقَّب ذا النَّور ، وكان الطُّفيل شريفاً شاعراً لبيباً »[(٣)] .

* وفي « تاريخهِ » اللطيفِ الجامع الواسع ، يوجزُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَعالِمَ شخصيَّة الطُّفيل فيقول : « الطُّفيلُ بنُ عمرو الدَّوسيّ الأزديّ ، كان يسمَّىٰ ذا القُطنتَيْن . . . . وكان شريفاً شاعراً لبيباً . . . . »[(٤)] .

---

(١) « الاشتقاق » لابن دريد (ص : ٨٣ ـ ٨٤) بتصرُّف واختصار .

(٢) « طبقاتُ ابنُ سعد » (٤ / ٢٣٧) .

(٣) « أسد الغابة » (٢ / ٤٦٠ ـ ٤٦١) بتصرُّف .

(٤) « تـاريـخ الإسـلام » للـذَّهبـيّ (عهـد الخلفـاء الـرَّاشـديـن ، ص : ٦٢) . وذكـر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال : « كان سيِّداً مطاعاً شريفاً في دَوْس » . « البداية والنِّهاية » (٣ / ٩٩) .

* واكتفىٰ ابنُ عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمته للطُّفيل بقوله : « الطُّفيلُ بنُ عمرو الدَّوسيّ ؛ له صحبةٌ ، وكان سيِّداً في قومه . . . . أسلم الطُّفيلُ بمكَّة ، وكان يسمَّىٰ ذا القطنتَيْن ؛ قيل : كان يجعلُ في أذنيه قطنتَيْن لئلا يسمع كلام النَّبيّ ﷺ . . . . »[1] .

* وزاد ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ مَنْ تقدم ، بأنَّ الطُّفيل ممَّن أسلم مبكِّراً ، وأورد له أربعة أبيات يخاطبُ خلالها قريشاً ، وكانوا هدَّدوه لمَّا أسلم[2] .

* بينما أوردَ قبله ابن سيِّد النَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « منح المدح » أنَّ للطُّفيل شعراً ، وقد أنشدَ له المرزبانيّ :

ألا أبلغْ لديكَ بني لؤي ... علىٰ الشَّنآن والغَضَب المردّي
بأنَّ اللهَ ربَّ العرش فردٌ ... تعالىٰ جدُّه عن كلِّ ندِّ
وأنَّ محمّداً عبدٌ رسولٌ ... دليلُ هدًى وموضحُ كلِّ رشدِ
رأيتُ دلائلاً قد أنبأتْني ... بأنَّ سبيلَه يهدي لقصدِ
وأنَّ اللهَ جلَّله بهاءً ... وأعلىٰ جدّه في كلِّ جدِّ[3]

---

(1) « مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ١٧٧ ـ ١٧٨) .

وقال الأصبهاني : « الطُّفيل بن عمرو الدَّوسي ؛ كان سيِّد دوس ، مُطاعاً فيهم ، شاعراً لبيباً ، قدم مكَّة أوّل الدَّعوة ، فحذّرته قريش عن الاستماع من النَّبيِّ ﷺ ، والإصغاء إلىٰ كلامه ، فسدَّ أذنه بالكُرسف خوفاً من أنْ يقعَ كلامه في مسامعه ، فأبىٰ ٱللهُ تعالىٰ إلا أنْ يهديه ، فهداه فأسلم بمكَّة ، وبايعه علىٰ الإسلام ، ورجع إلىٰ قومه فدعاهم إلىٰ الإسلام ، وأسلم أبوهُ وزوجتُه ، ثمَّ عاد إلىٰ مكَّة ، فشكىٰ دوساً إلىٰ النَّبيِّ ﷺ ، فدعا لهم بالهدىٰ ، فاهتدوا ، وقدموا معه المدينة بعد الخندق عام خيبر . . . . » . « معرفة الصَّحابة » (٣ / ٨٢) .

(2) انظر : « الإصابة » (٢ / ٢١٧) ، أقول : « البيت الرَّابع غير موجود عند ابن حجر ، وهناك بعض الاختلافات البسيطة في الألفاظ بين ابن حجر ، وابن سيِّد النَّاس » .

(3) « منح المدح » لابن سيّد الناس (ص : ١٣٨ ـ ١٣٩) ، تحقيق : عفَّت وصال =

قصَّةُ الطُّفَيل في رحلةِ إســلامهِ :

* قصَّةُ إسلام سيِّدنا الطُّفيل بن عمرو الدَّوسيّ ـ رضي ٱلله عنه ـ من أحْسنِ القَصَص وأبهاها ، ومن ألطفها أثراً في النُّفوس وأمضاها ؛ فالقلوب الصَّافية تحبُّ الحقَّ وأهلَ الحقِّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، وخاصَّةً في عصر النُّبوَّة المزهر الزَّاهر الفينان .

* أسلم سيِّدنا الطُّفيل بمكَّة في وقتٍ مبكِّر ، والإسلام لا يزالُ برعماً لمَّا يتفتَّح بعد ، ليصبح وَرْداً يعطِّر الدُّنيا كلّها ، بل كانت العواصفُ الوثنيّةُ الهوجاءُ تعيبُ الدِّين ، وتعيبُ محمَّداً ﷺ ، وتسفّه كلَّ ما يأتي به ، وتحذِّر كلَّ قادمٍ إلىٰ مكَّة من سِحْر كلامهِ ، ونصاعة بيانه .

* لقد غابَ عن ذهنِ قريش أنَّ اللهَ غالبٌ علىٰ أمرهِ ، ناصرٌ دينَه ونبيَّه ، وقاهرٌ الشِّركَ وأهلَه ، وجاعلٌ كلمتَه هي العُليا ، فهو يمحو الباطل ، ويحقُّ الحقَّ بكلماته ، ويجعلُ لكلِّ شيء سبباً .

* ولا ريب في أنَّ للنَّاس عُقولاً تَزِنُ ما تسمعُ وما ترىٰ ، وكان كثيرٌ من العُقلاء لا يلتفتون إلىٰ صيحات الحاقدين من سُفهاء قريش ، ولا يجنحون إلىٰ الإشاعات التي يعيبون بها محمَّداً ﷺ ، ويشوّهُون بها دعوته الصَّافية النَّقيَّة ، وما جاء به من هدًى وهدايةٍ ، وصلاحٍ وإصلاحٍ ، وهـٰذا ما جعل الدَّعوة المحمَّديَّةَ إلىٰ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ تسري إلىٰ خارج مكَّة ، وتجدُ لها أنصاراً من ذوي العقولِ والأحلامِ والأفهام ، وكان من هـٰؤلاء العُقلاء النُّبهاء سيِّدنا الطُّفيلُ بنُ عمرو الذي كان إسلامُه إسلامَ الألبّاء ، وأعرضَ عن المشركين حينما تحقَّقَ له الحقّ فيما يدعو إليه سيّد الأنبياء ﷺ .

* وسنعيشُ أحداثَ القصَّةِ الأنيقةِ لإسلام الطُّفيل ، مع شيخ كاتبي السِّيرة

= حمزة ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط : ١ ـ ١٩٨٧ م . وقوله « الشّنآن » : البغض ، و« جدُّه » : عظمته . و« جِدّه » : حظه : جدِ : الجِد هنا ضد الهزل .

النَّبويَّة محمَّد بن إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، الذي خصَّصَ مساحةً كبيرةً لقصَّةِ إسلام هـٰذا الرَّجُل البليغ الشَّاعر اللبيب ، رقَّشَ بها صحائف السِّيرة العطرة .

* ساق الإمامُ محمَّدُ بنُ إسحاق في سيرتهِ الكريمةِ أحداثاً من تحذير قريش للطُّفيل من الاستماع لرسولِ ٱللَّه ﷺ ، ثمَّ عدوله عن ثرثرتهم وحقدهم ، وسماعه من رسولِ ٱللَّه ﷺ ، فقال ما حصيلتُه وصفوته : « وكان رسولُ ٱللَّه ﷺ علىٰ ما يرىٰ من قومه ، يبذلُ لهم النَّصيحة ، ويدعوهم إلىٰ النَّجاة ممَّا هم فيه ، وجعلت قريش ـ حين منعه ٱللَّه عزَّ وجلَّ منهم ـ يحذِّرونه النَّاس ، ومَنْ قدمَ عليهم من العرب . وكان الطُّفيلُ بنُ عمرو الدَّوسيّ ـ رضي ٱللَّه عنه ـ يحدِّثُ : أنَّه قدمَ مكَّةَ المكرَّمة ، ورسولُ ٱللَّه ﷺ بها ، فمشىٰ إليه رجالٌ من قريش ـ وكان الطُّفيلُ رجُلاً شريفاً شاعراً لبيباً ـ فقالوا له : يا طفيلُ ! إنَّك قدمتَ بلادنا ، وهـٰذا الرَّجلُ الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا ـ اشتدَّ أمره ـ ، وقد فرَّقَ جماعتنا ، وشتَّتَ أمرنا ، وإنَّما قولُه كالسِّحر ، يفرِّقُ بن الرَّجل وبين أبيه ، وبين الرَّجل وبين أخيه ، وبين الرَّجل وبين زوجته ، وإنَّا نخشىٰ عليكَ ، وعلىٰ قومكَ ما قد دخل علينا ، فلا تكَلمنَّه ، ولا تسمعنَّ منه شيئاً ، ومكروا ومكرَ اللهُ ، واللهُ خيرُ الماكرين ، وذهبَ سعيُهم هباءً منثوراً تذروهُ رياحُ العقْل عند الطُّفيل ـ رضي ٱللَّه عنه ـ .

قال الطُّفيل : فواللهِ ما زالوا بي يذهبون بأقوالهم ذات اليمين وذات الشِّمال ، ويصعدون وينزلون ، حتَّىٰ أجمعتُ أنْ لا أسمعَ منه شيئاً ولا أكلمه ؛ حتَّىٰ إنِّي حشوتُ في أذنيّ كُرسُفاً ـ قطناً ـ حين غدوتُ إلىٰ المسجد فَرَقاً ـ خوفاً ـ من أنْ يبلغَني شيءٌ من قوله ، وأنا لا أريد أنْ أسمعَه .

فغدوتُ إلىٰ المسجد ، فإذا رسولُ ٱللَّه ﷺ قائمٌ يصلِّي عند الكعبة ، فقمتُ قريباً منه وأنا متوجسٌ خيفةً منه ، فأبىٰ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ إلا أنْ يُسمعَني بعض قوله ، فواللهِ لقد سمعتُ كلاماً حسَناً جميلاً ولطيفاً ، فقلتُ في نفسي : واثُكْلَ أُمّي ؟ واثكْلَ أبي ؟ واللهِ إنِّي لرجلٌ لبيب شاعر ، وما يخفىٰ عليَّ الحسنُ من القبيح ، فما يمنعني أنْ أسمعَ من هـٰذا الرَّجل ما يقول ؟ ! فإنْ

كان الذي يأتي به حسَناً قبلتُه ، وإن كان قبيحاً تركْتُه .

قال الطُّفيل : فمكثتُ حتَّىٰ انصرفَ رسولُ ٱللهِ ﷺ إلىٰ بيته فاتَّبعْتُه ، حتَّىٰ إذا دخل بيتَه دخلتُ عليه ، فقلتُ : يا محمَّد ! إنَّ قومَك قد قالوا لي كذا ، وكذا ـ للذي قالوا ـ ، فوٱلله ما برحوا يخوفونني أمركَ حتَّىٰ سددتُ أذنيَّ بكرسف لئلا أسمعَ قولك ، ثمَّ أبىٰ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ إلا أنْ يسمعَني قولك ، فسمعتُه قولاً حسَناً ، فاعرضْ عليَّ أمركَ .

قال : فعرض عليَّ رسولُ ٱللهِ ﷺ الإسلام ، وتلا عَلَيَّ القرآن ، فلا واللهِ ما سمعتُ قولاً قطَّ أحسنَ منه ، ولا أمراً أعدل منه ، ولا خطاباً أرقَّ منه ، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحقِّ ، وآمنتُ بخالق الخلق ، وبرسوله محمَّد كامل الخلق ﷺ » [1] .

---

(١) « السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٣٨٢ ـ ٣٨٣) بتصرُّف يسير . وقصة إسلام الطُّفيل رواها ابن سعد (٤ / ٢٣٧ ـ ٢٣٩) ، والبيهقيّ في « دلائل النُّبوَّة » (٥ / ٣٦٠ ـ ٣٦٣) ، والأصبهانيّ في « معرفة الصَّحابة » (٣ / ٨٢ ـ ٨٣) ، وغيرهم كثير .

أقول : « إنَّ القرآن الكريم قد أسر بروعة بيانه ، ولطافة روعته ، وحسن اتّساقه ، وكمال إعجازه كثيراً من الشَّخصيَّات البارزة من رجال عصر النُّبوَّة ، وقد اجتذب هدي القرآن الكريم وجمال وقعه سيّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، ومعظم النَّاس يعرفون قصَّة إسلامه التي تعتبر مشهورة يحفظها الصَّغير والكبير ، وفي الحقيقة هناك رجال أسرَتْهم معانيه ، واجتذبتهم مغانيه ، ومنهم : سيّدنا الطُّفيل بن عمرو الدَّوسيّ ، وأبو ذرّ الغفاري ، وأسيد بن الحضير ، وسعد بن معاذ ، وكذلك الأنصار الذين بايعوا الصَّادق المصدوق ﷺ بيعة العقبة الأولىٰ قد سمعوا القرآن وأسلموا ، ولـٰكن قصة إسلام سيدنا عمر ـ رضوان ٱلله عليه ـ قد طغت علىٰ قصص إسلام هؤلاء ، ولها جرس خاص عند قراء السِّيرة ، نرجو ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يحشرنا في معيّة سيّدنا عمر ، وفي معيّة هؤلاء الذين تذوَّقوا حلاوة معاني القرآن الكريم ، وعملوا بمضمونه إنَّه سميع مجيب » .

* وهٰكذا استجاب سيِّدنا الطُّفيل ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ نداء عقله المتَّزن ، وإلىٰ أعماقه التي تناديه إلىٰ النَّجاة ، ورفض النُّصح المزعوم من رجالِ قريش الذين حذَّروه تحذيراً شديداً من السَّماع والاستماع إلىٰ محمَّد ﷺ ، ولا غرو فنداء الضَّمير هو صوت الحقِّ ، وهو يشبهُ وميضُ البرق حينما يمزِّقُ حجبَ الظَّلام وأستار السَّواد ، كان ذاك النِّداء يهمسُ قائلاً : « أين عقلُكَ يا طُفيل ؟ اذهبْ واستمعْ إلىٰ هٰذا الرَّجل ، فهو ليس ساحراً كما يزعُمون ويفترون » .

* استجاب الطُّفيل واهتدىٰ ، وفي بيتِ رسولِ ٱلله ﷺ أعلنَ إسلامه راضياً مختاراً ، وزهدَ في الوثنيَّة وفي دينِ الآباء والأجداد ، وعبدَ الواحد الجَواد ؛ الذي يقبلُ التَّوبة من العباد .

* ومن المستجاد الآن أنْ نجنيَ ثمر هٰذه الشُّجيرة المباركة ؛ التي تتدلَّىٰ قطوفُها ؛ لترويَ التقاء الطُّفيل رسولَ ٱلله ﷺ في مكَّةَ ، وقبوله الدَّعوة ثمَّ إسلامه في البيت النَّبويّ المبارك :

هٰـذا الطُّفيـلُ أتـىٰ لمكَّـةَ زائـرَ البيـت الحـرام
قـد كـان ذا عقْـلٍ وفَهْـم شـاعـراً فيـه احتشـام
لاقـاه بعـضُ المشـركيـن جـوارَ زمـزمَ والمقـام
فتحـادثـوا وتسـاءَلـوا فيمـا يثيـرُ الاهتمـام
قـالـوا فـلا تلـقَ الأميـنَ فَسِحْـرهُ مثـلُ السِّهـام
إيَّـاك أنْ تلقـاه أو أنْ تَسْمَعَـنْ منـه الكـلام
سمـعَ الطُّفيـلُ لقـولهـم بـالحـرصِ ثـمَّ الاحتـرام
وضـع الطُّفيـلُ القُطْـنَ فـي أذنيـه خـوفـاً مـن مـلام
نـاداهُ مـن أعمـاقـهِ صـوتٌ كبـرقٍ فـي الظَّـلام
مَـنْ قـد سمعـتَ لِنُصْحِهـم هـم أهـلُ شـرٍّ واختصـام
لا تستمـعْ للنُّصـح منهـم إنَّهـم قـومٌ لئـام
اذهـبْ إلـىٰ هٰـذا النَّبـيِّ فـإنَّـه خَيـرُ الأنـام

اذهـــبْ إليـــه فـــإنَّـــه قـــد جـــاء يـــدعـــو للسَّـــلام

سمـــعَ الطُّفيـــلُ إلـــىٰ نـــداءِ ضميـــره ثـــمَّ استقـــام

قـــد أعلـــنَ الإســـلامَ فـــي بيـــت النَّبـــيِّ بـــلا خصـــام (١)

آيةُ إعجازٍ للطُّفَيل مع قومهِ :

* لا نزال الآن مع سيِّدنا الطُّفيل ـ رضي ٱلله عنه ـ وهو يقصُّ علينا نبأَ إسلامه ، والنُّور الذي سطعَ في سوطه كرامةً له ، فيقولُ : « فأسلمتُ ، وشهدتُ شهادةَ الحقِّ ، وقلتُ : يا نبيَّ ٱلله ! إنِّي امرؤٌ مطاع في قومي ، وأنا راجعٌ إليهم ، وداعيهم إلىٰ الإسلام ، فادعُ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يجعلَ لي آيةً تكونُ لي عوناً عليهم فيما أدعوهم إليه ، فقال ﷺ : « اللهمَّ اجعلْ له آية » .

قال الطُّفيلُ : فخرجتُ إلىٰ قومي ، حتَّىٰ إذا كنتُ بثنيَّةٍ تطلعني علىٰ الحاضر ، وقع نورٌ بين عيني مِثْلُ المصباح ، فقلت : اللهمَّ في غير وجهي ، إنِّي أخشىٰ أنْ يظنُّوا أنَّها مُثْلَة وقعتْ في وجهي لِفراقي دينهم ، فتحوَّل فوقع في رأس سوطي (٢) ، فجعل الحاضرُ يتراءَون ذلك النُّور في سوطي كالقنديل

---

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٢٣٦) ، وقوله « جوار زمزم والمقام » : عند الكعبة المشرفة . و« سحره مثل السِّهام » : يصيب سامعيه فلا يخطئهم . و« كبرق في الظَّلام » : صوت العقل ونداء الضَّمير .

(٢) وفي هـٰذه الحادثة الميمونة يسردُ محمود سامي البارودي في قصيدتهِ الماتعةِ : « كشف الغّمة في مدح سيِّد الأمة » معجزات النَّبيّ ﷺ فيقول :

كفَىٰ الطُّفيلَ بن عمرو لمعةٌ ظهرتْ ... في سوطهِ فأنارت سُدْفَة القَتمِ

هَدىٰ بها اللهُ دوساً من ضلالتها ... فتابعتْ أمرَ داعيها ولم تهمِ

وأشار إلىٰ آية الإعجاز للطّفيل ابن جُزَيّ الأندلسيّ فقال رَحِمَهُ ٱللهُ :

وحسبُكَ من سَوطِ الطُّفيلِ إضاءةً ... كمصباحِ زيتٍ في قناديل ذبَّال

« نفح الطِّيب » (٥ / ٥١٩) . =

المُعَلَّق ، وأنا أهبطُ إليهم من الثَّنيَّة ، حتَّىٰ جئتُهم فأصبحتُ فيهم . فلمَّا نزلتُ أتاني أبي ـ وكان شيخاً كبيراً قد اشتعلَ رأسُه شيباً ـ فقلتُ : إليك عنِّي يا أبتِ ، فلستُ منك ولستَ منِّي . قال أبي متعجِّباً : ولمَ ذاكَ يا بنيَّ ؟ !

قلتُ : يا أبي ! إنِّي أسلمتُ ، وتابعتُ دِيْن محمَّدٍ ﷺ .

فقال أبي دون تردُّد : أي بُنَيّ ! فَدِيْني دينُكَ .

فقلتُ له : يا أبتِ ! اذهبْ فاغتسل وطهِّر ثيابك ، ثمَّ تعالَ حتَّىٰ أعلِّمَك ما عُلِّمت .

فذهبَ أبي غير بعيدٍ ، فاغتسل ، ومن ثمَّ طهَّر ثيابه ، ثمَّ جاء ، فعرضتُ عليه الإسلام ، فأسلمَ ، وشهدَ شهادةَ الحقِّ .

قال الطُّفيلُ : ثمَّ أتتني صاحبتي ـ زوجتي ـ فقلتُ لها : إليكِ عنِّي ، فلستُ منك ، ولستِ منِّي .

قالت : لِمَ ؟ بأبي أنتَ وأمّي ؛ وماذا حدث ؟

قلت : يا هٰذه ! قد فرَّقَ الإسلامُ بيني وبينك ، وإنِّي قد أسلمتُ ، وتابعتُ دين النَّبيِّ محمَّد ﷺ .

قالت : فَدِيني دينُك وٱلله .

فقلت لها : اذهبي إلىٰ حِمَىٰ ذي الشرىٰ ـ صَنَم لِدَوس ـ فتطهّري منه .

فقالت : بأبي أنتَ وأمّي ، أتخشىٰ علىٰ الصَّبيَّة من ذي الشَّرىٰ شيئاً ؟

قلتُ : لا ، أنا ضامنٌ لذلك .

= كما أشار الإمامُ السُّبكيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ إلىٰ هٰذا الأمر في تائيته الجامعة الماتعة فقال :

وفـي جَبْهـةِ الـدّوسيّ ثـمَّ بِسَـوْطـهِ　　　جَعَلْـتَ ضيـاءً مثْـلَ شمـسٍ منيـرةِ

« المجموعة النَّبهانيَّة » (١ / ٤٢٢) .

فذهبتْ فاغتسلَتْ ، ثمَّ جاءتْ فعرضتُ عليها الإسلام فأسلمتْ ، وانتظمتْ في ركب المؤمنين »[1] .

* هلمّوا نطالع هـٰذه الرَّوضة التي تفتَّحت كمائمها عن زهر المعاني الرَّائقة التي تحكي ما أسلفنا من إسلام أسرة الطُّفيل ، ورؤية قومه النُّور في سوطه :

عــاد الطُّفيــل لقــومــهِ فــي ســوطــه ضــوءٌ ينيــر
يبــدو علــىٰ بُعْــدٍ مضيئــاً فــي المقَــام وفــي المسيــر
قــد كــان ذاك لــدعــوةٍ مــن صــاحــبِ القلــب الكبيــر
لمَّــــا أتــــاهُ ببيتــــهِ مستسلمــــاً كــــي يستنيــــر
قــالَ الطُّفيــلُ فــإنَّنــي فــي القــوم ذو فضْــلٍ كبيــر
مُــرْنــي لأدعــوَ قــوم دوس إنَّنــي فيهــم أميــر
فــأجــابــه الهــادي فقــال لــه فــأنــتَ لهــم نــذيــر

---

(١) « السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٣٨٣ ـ ٣٨٤) بشيءٍ من التَّصرُّف . وانظر : « معرفة الصَّحابة » (٣ / ٨٣) .

وللشَّيخ محمَّد عرجون رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقٌ نفيسٌ علىٰ هـٰذه الفقرة يحسُنُ بنا أن نسوقَه هـٰهنا لفائدته ، فيقول : « وباءتْ قريشٌ بالخيبةِ والخسران المبين ، ووقعَ ما كانت تخافُه وتحذرهُ ، وانفلتَ من عقال خداعها الرَّجلُ اللبيبُ الشَّاعرُ الذي تخشىٰ لبابته وشاعريته ، وأسلم الطُّفيلُ الدَّوسيّ الذي لم يكتف بأن يسلمَ وحده ، ولـٰكنَّه أراد الخيرَ والهدىٰ لأهله وقومه ، وهو زعيمُهم المطاعُ فيهم ، وأخبر رسول ٱلله ﷺ أنَّه راجع إلىٰ قومه ، وداعيهم إلىٰ الإسلام ، وسألَ رسولَ ٱلله ﷺ أنْ يجعلَ له آية تعينه علىٰ قومه فيما يدعوهم إليه من الإيمان بٱلله ورسوله ، ودعا له رسول ٱلله ﷺ ، فقال : « اللهمَّ اجعل له آية » فاستجاب ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ دعاء نبيّه محمّد ﷺ ، وجعلَ للطّفيل آية نورانيّة ، وبدأ الطُّفيل ؛ إذ حلَّ بين قومه بدعوة أبيه وصاحبته إلىٰ الإسلام ، فأسلما وعلّمهما شرائع الدّين التي عُلِّمَها » . « محمَّد رسول ٱلله » (٢ / ٢٧٢) .

عـــاد الطُّفيـــل ومعْـــه إذْنٌ مـــن لـــدىٰ الهـــادي البشيـــر
أهـــلُ الطُّفيـــل جميعُهـــم قـــد أسلمُـــوا حتَّـــىٰ الصَّغيـــر [1]

* ويتابعُ الطُّفيل ـ رضي ٱلله عنه ـ في سَرْدِ قصَّة إسلامه وإسلام قومه فيقول : « ثمَّ دعوتُ دوساً إلىٰ الإسلام ، فأبطؤوا عليَّ ، فجئتُ رسولَ ٱلله ﷺ بمكَّـةَ فقلـتُ : يـا رسـولَ ٱلله ! غلبتنـي دَوْس ، فـادْعُ اللهَ عليهـم ، فقال ﷺ : « اللهمَّ اهْدِ دوساً » . وفي روايةٍ : « فقلتُ : يا رسولَ ٱلله ! إنَّ دوساً عصَتْ وأبتْ ، فادعُ ٱلله . فرفعَ يديه ، فقلتُ : هلكَتْ دَوْس ، فقال : « اللهمَّ ! اهدِ دوساً ، وائتِ بهم » . فقال لي رسولُ ٱلله ﷺ : « اخرجْ إلىٰ قومك ، فادعُهم ، وارفقْ بهم » . فخرجتُ إليهم ، فلم أزلْ بأرضِ دوس أدعوها حتَّىٰ هاجرَ رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ المدينة ، ومضىٰ بدر ، وأُحد ، والخنـدق ، ثـم قـدمـتُ علـىٰ رسـولِ ٱلله ﷺ بمـن أسلـم مـن قـومـي ، ورسولُ ٱلله ﷺ بخيبر ، حتَّىٰ نزلتُ المدينةَ بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس ، ثمَّ لحقْنَا رسولَ ٱلله ﷺ بخيبر ، فأسهمَ لنا مع المسلمين » [2] .

* ومع الوصيَّة النَّبويَّة للطُّفيل بأنْ يدعو قومه إلىٰ الإسلام ، ثمَّ قدومه بهم في خيبر ، نقرأُ التَّغريدة المعبِّرة الآتية :

المصطفـىٰ أوصـىٰ الطُّفيـلَ بـأنْ يـواصـلَ فـي الـدُّعـاء
قـال ادعُ دوسـاً بـالتَّـرفُّـق إنَّهـم أهـل الـدّهـاء
اصبـرْ عليهـم ولتكُـنْ منهـم علـىٰ بـابِ الـرَّجـاء

---

(1) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٢٣٨) ، وقوله « في سوطه ضوء ينير » : ضوء في طرف سوطه كرامة له . و« صاحب القلب الكبير » : دعا النَّبيّ ﷺ ربّه أن يجعل للطُّفيل كرامة . و« أمير » : رئيس مطاع .

(2) « مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ١٨٠) بشيء من التّصرّف ، وانظر : « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٣٩) ، و« السيرة الحلبيّة » (٢ / ٦٩ ـ ٧٠) ، و« معرفة الصَّحابة » (٣ / ٨٣ ـ ٨٤) .

حتَّـــــىٰ يجيئـــــوا مسلميـــــن ويستجيبُـــــوا للنِّـــــداء
ظـــلَّ الطُّفيـــلُ بهـــم رفيقـــاً لا يبـــالـــي مـــن جفـــاء
قـــد كـــان مـــن خيـــر الـــرِّجـــال بـــه الكَفَـــاءةُ والمضـــاء
مضـــت السِّنـــون وهـٰكـــذا ظـــلَّ الطُّفيـــل علـــىٰ الـــوفـــاء
ومحمَّـــد مـــرَّت بـــه كـــلُّ الحـــوادثِ فـــي بطـــاء
بـــدءاً ببـــدرٍ ثـــمَّ كـــانـــت خيبـــرٌ دون انتهـــاء
جـــاء الطُّفَيـــلُ وقـــومُـــهُ فـــي فتـــح خيبـــرَ بـــالـــولاء
جـــاؤوا جميعـــاً مسلميـــن بغيـــرِ خبـــثٍ والتـــواء
النَّصـــرُ تَـــمَّ بخيبـــر قـــد كـــان مـــن ربِّ السَّمـــاء
قســـمَ النَّبـــيُّ لقـــوم دوسٍ فـــي الغنيمـــةِ والعطـــاء
فـــرح النَّبـــيُّ بخيبـــر وبقـــوم دوسٍ بـــالسَّـــواء [(١)]

* وهـٰكذا نجد أنَّ الحبيبَ المصطفىٰ ﷺ يدعو لدوسٍ بالهدايةِ ، ولم يدعُ عليهم بهلاك يدمرهم لإبطائهم في إجابة الدَّاعي إلىٰ ٱلله ، ثمَّ أوصىٰ الطُّفيل بأنْ يتخلَّق بالآداب والصَّبر في تبليغِ الرِّسالة قائلاً له : « ارجعْ إلىٰ قومك فادعُهم وارفقْ بهم » ورجعَ الطُّفيلُ ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ قومه مزوَّداً بالرِّفقِ وبالوصيَّة النَّبويَّة ، فدعاهم إلىٰ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وإلىٰ دينه ، وكان بهم رفيقاً رقيقاً حفياً ، فأجابوه قضّهم بقضيضهم ، رجالهم الكبار ، وكذلك نساؤهم والصِّغار ، وأسلموا باللهِ الواحد القهَّار ، ثمَّ هاجروا ، وأدركوا رسولَ ٱلله ﷺ ، وقد فرغ من فتْح خيبرَ ، قائماً علىٰ غنائمها يقسمُها بين جند ٱلله ، وعرفَ ﷺ للطُّفيل وقومِهِ مكانتهم في الإسلام بين صفوفِ المجاهدين لإعلاء كلمةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فأكرمَهم ، وأسْهَمَ لهم من الغنائم الخيبريَّة كإخوانهم المقاتلين في سبيلِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فكانت قبيلةُ دَوْس وزعيمُها الطُّفيلُ بنُ عمرو كتيبةً صادقةً من كتائبِ الإسلام التي أسهمتْ في

(١) « تغريدة السّيرة النبويّة » (١ / ٢٤٢) .

تقويض الوثنيَّة ، ونشرت راية التَّوحيد ، وعملت ما بوسعها لتكون كلمةُ اللهِ هي العُليا ، وكلمةُ الذين كفروا السُّفلىٰ ، فنالوا النَّجاح وحظوا بالسَّعادة في الدَّارَيْن بإذن اللهِ وفضله ومنِّه وهدايته .

صـورٌ مـن جهَـاده :

* أحبَّ سيِّدنا الطُّفيلُ ـ رضي ٱلله عنه ـ اللهَ ورسولَه ، وعملَ الإيمانُ بقلبه عملَه الصَّحيح ، ووضع لسانَه وسنانه وقومَه في سبيل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فتقدَّم من الحبيب الأعظم ﷺ مع ثلَّة من أكابر دوس وقالوا : « يا رسولَ ٱلله ! اجعلنا ميمنتَك ، واجعلْ شعارنا : مبرور » ففعلَ ﷺ ، فأضحىٰ شعارُ الأزد كلّها إلىٰ اليوم كلمة « مبرور » [1] .

* لزم سيِّدنا الطُّفيل سيِّدنا الحبيب الأعظم الشَّافع المشفَّع رسول ٱلله ﷺ ، ولم يزلْ معه حتَّىٰ فتحَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ عليه مكَّة المكرمة ، ودخل النَّاسُ في دين اللهِ أفواجاً ، وسبّحوا بحمد ربِّهم واستغفروه ، إنَّه كان توَّاباً ، وبالمؤمنين رحيماً .

* ولمَّا أخذ الصَّادقُ المصدوقُ رسول ٱلله ﷺ في إزالةِ الأصنام مِنْ علىٰ أرضِ الجزيرة العربيَّة ، تقدَّم منه سيِّدنا الطُّفيلُ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وقال له : « يا رسولَ اللهِ ! ابعثني إلىٰ ذي الكَفَّين ـ صنم عمرو بن حَمَمَة ـ حتَّىٰ أحرقَه » ، فبعثَه ﷺ إليه ، فأحرقَه الطُّفيلُ ، وجعل يقول وهو يوقدُ النَّار عليه ، وكان من خَشَب :

يا ذا الكفَّيْن لَسْتُ مِنْ عُبَّادِكَا ميلادُنا أكبرُ من ميلادكا
أنا حشَشْتُ النَّار في فؤادكا

* ويروي سيِّدنا الطُّفيل قصة نهايةِ هٰذه الحادثة فيقول : « لمَّا أحرقتُ ذا

---

(١) انظر : « مختصر تاريخ دمشق » (١ / ١٨١) بشيءٍ من التَّصرُّف ، وانظر : « المستدرك » (٣ / ٢٩١) .

الكفَّيْن ، بانَ لمن بقي ممَّن تمسَّك به أنَّه ليس علىٰ شيءٍ ، فأسلموا جميعاً »[1] .

* وفي رواية أُخرىٰ عن إحراق صنم ذي الكفَّين نسمعُ من ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله : « لمَّا افتتحَ رسولُ ٱلله ﷺ حُنيناً ، وأراد المسير إلىٰ الطَّائف ، بعثَ الطُّفيلَ بنَ عمرو ـ رضي ٱلله عنه ـ إلىٰ ذي الكفَّين ـ صنم عمرو بن حممة ـ يهدمه ، وأمره أن يستمدَّ قومه ، ويوافيهِ بالطَّائف .

فقال الطُّفيلُ : يا رسولَ ٱلله ! أوصني .

قال ﷺ : « أفشِ السَّلام ، وابذلِ الطَّعام ، واستحي من اللهِ كما يستحي الرَّجل ذو الهيئة من أهله ، إذا أسأتَ فأحسن ، فـ : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود : ١١٤] .

فخرج مسرعاً إلىٰ قومه ، فهدمَ ذا الكفَّين ، وأسرعَ معه قومه ، انحدرَ معه أربع مئة من قومه ، فوافوا النَّبيّ ﷺ بالطَّائف بعد مقدمه بأربعة أيَّام بدبابة ومنجنيق ، وقال : « يا معشرَ الأزد ! مَنْ يحملُ رايتكم ؟ » .

قال الطُّفيلُ : مَنْ كان يحملُها في الجاهليَّة .

قال : « أصبتم » وهو النُّعمان بن الزَّرافة اللِّهبيّ »[2] .

* ظلَّ الطُّفيلُ ـ رضي ٱلله عنه ـ في المدينةِ المنوَّرة ، وكان يذهبُ إلىٰ سيِّدنا أبيَّ بن كعب[3] ـ رضي ٱلله عنه ـ فيقرؤه القرآنَ الكريم ، ويعلِّمه بعضَ

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٣٩ ـ ٢٤٠) ، و« أسد الغابة » (٢ / ٤٦٢) ، و« الاستيعاب » (٢ / ٢٢٥) مع الجمع بينها .

(٢) « مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ١٨٢) .

(٣) اقرأ سيرة سيِّدنا أبيِّ بن كعب الأنصاريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ في الباب الثَّالث من موسوعتنا : « علماء الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ » (ص : ٥٥٣ ـ ٥٨٦) ، ففي سيرته فوائدُ تنفعُ العالم والمتعلِّم بإذن ٱلله .

أحكامه ، وقد روىٰ لنا سيِّدنا الطُّفيل خبرَ هـٰذه الواقعة فقال : « أقرأني أبيُّ بنُ كعب القرآن ، فأهديتُ له قوساً ، فغدا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ متقلِّدها ، فقال له النَّبيُّ ﷺ : « مَنْ سلَّحك هـٰذه القوس يا أُبيّ ؟ » .

قال : الطُّفيلُ بنُ عمرو الدَّوسيّ ، أقرأْتُه القُرآنَ .

فقال له رسولُ ٱلله ﷺ : « تقلَّدها شلوةً من جهنَّم » .

فقال : يا رسولَ ٱلله ! إنَّا نأكلُ من طعامهم .

فقال : « أمَّا طعامٌ صُنِعَ لغيرك ، فَحَضَرْتَه فلا بأس أنْ تأكلَه ، وأمَّا ما صُنِعَ لك ، فإنَّك إنْ أكلته ، فإنَّما تأكلُ بخلافك » [1] .

* أقام سيِّدنا الطُّفيلُ بالمدينة المنوَّرة مع سيِّدنا رسول ٱلله ﷺ ، حتَّىٰ توفي ﷺ وهو راضٍ عن الطُّفيل ؛ ولمَّا ارتدت العربُ ، ونجمَ في بعض أحيائهم عددٌ من المتنبِّئين ، خرج الطُّفيلُ مع المجاهدين من رجال عصْرِ النُّبوَّة الأخيار ، فجاهد حتَّىٰ فرغوا من طليحةَ الأسديّ ، وأهل نجد كلّها ، ثمَّ سار مع المسلمين إلىٰ اليمامةِ ومعه ابنُهُ عمرو بنُ الطُّفيل ، فقال لأصحابه : « إنِّي قد رأيتُ رؤيا ، فاعبروها لي إنْ كنتم للرُّؤيا تعبرون : رأيتُ أنَّ رأسي قد حُلِقَ ، وأنَّه قد خرجَ من فمي طائر ، وأنَّ امرأةً لقيتني فأدخلتني في فرجِها ، ورأيتُ أنَّ ابني يطلبني طلباً حثيثاً ، ثمَّ رأيتُه حُبِس عنِّي » .

قالوا : « خيراً رأيتَ يا أبا عمرو » .

فقال : « أما والله إنِّي قد أوّلتُها » .

قالوا : « وما ذاك ؟ » .

قال : « أمَّا حَلْقُ رأسي فوضْعُه ، وأمَّا الطَّائرُ الذي خرج من فمي

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ١٧٨) .

فروحي ، وأمَّا المرأةُ التي أدخلتني في فرجها ، فالأرضُ تُحْفَرُ لي ، فأُغَيَّبُ فيها ، وأمَّا طلب ابني إيايّ ، ثمَّ حبسه عنِّي ، فإنِّي أراهُ سيجهدُ لأنْ يصيبَه من الشَّهادة ما أصابني ولا أراه يلحقُ في سفره هـٰذا » .

فَقُتِلَ الطُّفيل شهيداً باليمامة ، وجُرِحَ ابنه جراحاً شديدة ، ثمَّ قُتِلَ عام اليرموك شهيداً في زمنِ أميرِ المؤمنين عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين [1] ـ .

* وتذكرُ بعضُ المصادر بأنَّ عمرو بنَ الطُّفيل ـ رضي ٱلله عنهما ـ قد أصابتْه الجراحةُ يومَ اليمامة ، وقُطِعَتْ يدُهُ وهو يجاهدُ المرتدّين في سبيل ٱلله ، ثمَّ برأ وصحَّ ، وصَّحتْ يدُهُ ، فبينما هو عند سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ؛ إذ أُتي بطعام فتنحَّىٰ عنه عمرو بن الطُّفيل ، وقام غير بعيد ، فشاهده سيِّدنا عمر ، فقال له : « مالكَ ! لعلَّك تنحَّيتَ لمكان يدك ؟ » .

قال عمرو : « أجل ! يا أميرَ المؤمنين » .

قال سيِّدنا عمر : « واللهِ لا أذوقُهُ حتَّىٰ تسوطَه ـ تحرِّكُهُ ـ بيدك ، فواللهِ ! ما في القوم أحدٌ بعضُه في الجنَّة غيرُكَ » [2] .

---

(١) « مختصر تاريخ دمشق » (١١ / ١٨٢) ، و« سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٤٦) ، و« طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٤٠) مع الجمع والتَّصرُّف بينها .

قال الإمامُ الذَّهبيُّ رَحِمَهُ ٱللهُ : « قلتُ : وقد عُدَّ ولده عمرو في الصَّحابة ، وكذا أبوه ينبغي أنْ يُعدّ في الصَّحابة ، فقد أسلم فيما ذكرنا ، لـٰكنْ ما بلغنا أنَّه هاجر ، ولا رأىٰ النَّبيّ ﷺ » . « سير أعلام النُّبلاء » (١ / ٣٤٧) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٤٠) ، و« المستدرك » (٣ / ٢٩١) مع الجمع بينهما والتّصرّف اليسير .

* ثمَّ خرجَ عمرو عام اليرموك في الخلافةِ العمريَّة الميمونة مع رجالِ المسلمين وفرسانهم ، فلقيَ اللهَ شهيداً ـ رضي ٱلله عنه ـ .

* رضي ٱلله عن الشَّهيدَيْن السَّعيديْن الطّفيل وابنه عمرو ، ورضي ٱلله عن الصَّحابة أجمعين ، وحشَرنا معهم ، وعفَا عنَّا بفضله وكرمه ، وجعل آخر كلامنا : « لا إلـه إلا ٱلله ، محمَّد رسول ٱلله » .

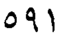
✍ ✍ ✍



عُميرُ بنُ وهْب

رضي ٱلله عنه

* قصَّةُ إسلامهِ تهزُّ الكيان هزَّةَ إعجابٍ ؛ وتنبئُ عن الصَّفاء .
* خرجَ ليطفئَ نورَ ٱلله ، فاستضاء بنورِ ٱلله وأسلم .
* شهدَ أُحُداً وما بعد ذلك من المشَاهد ؛ وشاركَ في الفتوح .



عُميرُ بنُ وهب
رضي ٱلله عنه

كلمةُ حقّ :

* قصَّةُ هٰذا الرَّجل من أعذبِ قصص رجال عصر النُّبوَّة ؛ إذ نجتلي من خلالها رحمةَ ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ به ، ونَقْله من أفجر فجورِ الغدر إلىٰ أبرِّ أعمال الإيمان .

* وكلَّما قرأتُ قصَّةَ هٰذا الصَّحابيَ الجريءَ الذَّكيَّ ازددتُ محبَّةً له ؛ لأنَّه عرفَ الحقَّ فلزمه ، بعد أنْ أدارَ مؤامرةً خطيرةً لاغتيال النَّبيِّ ﷺ ، ومن العجيب أنَّه أخذَ الأمان من النَّبيِّ ﷺ لمن دفعه إلىٰ غدر الحبيب المصطفىٰ ﷺ واغتياله في وضح الضُّحىٰ ! !

* إنَّ قصَّةَ عميرِ بنِ وهب الجمحيّ [1] ـ رضي ٱلله عنه ـ ذات وقْعٍ متميِّز ، يهزُّ الكيان هزةَ إعجاب ، وتحملُ القارئَ إلىٰ عمق الحكمة فيها ، وتسلمه إلىٰ عينها الصَّافية الجارية ، وتضعه أمام رحمة الإسلام بمن ضلَّ بهم

---

(١) « البداية والنِّهاية » (٣ / ٣١٣) ، و« تاريخ الإسلام » للذَّهبيّ (المغازي ، ص : ٥٥ ، و٧١ ـ ٧٢ ، و٩٩ ـ ١٠٠ ، و٥٣٤ ، ٥٥٩) ، و« شرح حياة الصَّحابة » (الفهارس : ٤ / ٨١٦) ، و« طبقات ابن سعد » (٤ / ١٩٩ ـ ٢٠١) ، و« معرفة الصَّحابة » (٣ / ٤٦٨ ـ ٤٧٠) ترجمة رقم : (٢١٨٩) ، و« أسد الغابة » (٣ / ٧٩٧ ـ ٧٩٨) ترجمة رقم : (٤٠٩٠) ، و« الإصابة » (٣ / ٣٦ ـ ٣٧) وغيرها .

السَّبيل وضلّوا هم السَّبيل ، فإذا هم بلحظةٍ يتحسَّسون الحقَّ ، ويلمسون سنَاه ، ويصبحون رجالاً لهم شأنٌ في التَّاريخ النَّاصع ، ببركة سيِّدنا وحبيبنا محمَّد رسول ٱلله ﷺ .

* كان عميرُ بنُ وهب بن خلف الجمحيّ القُرشيّ من مشاهير رجالات قريش وأعيانهم ، وكان يكنىٰ أبا أميَّة ، وله من الولد وهبُ بنُ عمير ـ وكان سيِّد بني جُمَح ـ وأميَّةُ وأُبيٌّ [(١)] .

* نشأ عميرُ بنُ وهب في مكَّةَ كغيره من سراةِ أهلها ، ولم يستجبْ إلىٰ داعي الإسلام عندما سطعَ بنوره علىٰ مكَّة ، وسمع بدينِ اللهِ من محمَّد بنِ عبد ٱلله ﷺ فلم يُعِرْهُ أيَّ اهتمام ، وانصرف إلىٰ تعلُّم الفروسيَّة حتَّىٰ غدا أحد فرسان قريش وأبطالها وشياطينها [(٢)] .

* ذكره ابنُ الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « أسد غابته » فكان ممَّا قال عنه : « كان له قَدْرٌ وشرفٌ في قريش ، وهو ابنُ عمّ صفوان بن أميَّة . . . . وكان من أبطال قريش وشياطينهم . . . » [(٣)] .

* وقال عروةُ بنُ الزُّبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « كان عميرُ بنُ وهْب شيطاناً من شياطين قريش ، وممَّن كان يؤذي رسولَ ٱلله ﷺ وأصحابَهُ ، ويلقَوْنَ منه عناءً وهو بمكَّة » [(٤)] .

البَـلايا تحملُ المنَـايَـا :

* البلايا تحملُ المنايا ؛ كلمةٌ تحملُ معناها ، نطقَ بها عميرُ بنُ وهب قبل بدء معركة بدر بسويعة . فقد خرج عميرُ بنُ وهب ومعه ابنه وهبُ بنُ عمير

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ١٩٩) .

(٢) « التَّبيين في أنساب القرشيين » (ص : ٤٠) .

(٣) « أسد الغابة » (٣ / ٧٩٧) .

(٤) « السِّيرة النَّبويَّة » (١ / ٦٦١) .

مع المشركين في حشودهم الفوّارة بالحقد علىٰ المجتمعِ المسلم ، وكان الغيظُ يأكلُ قلوبَهم ، والحسدُ ينهشُ لحومَهم ويدغدغُ أضغانهم علىٰ المسلمين الذين تعرّضُوا لتجارتهم .

* أقبلت قريشٌ بالدُّروع السَّائرة ، والجموعِ الوافرة ، والأسلحة الشَّاكية الكاثرة ، فلمَّا رآها الصَّادق المصدوق ﷺ توجَّه إلىٰ البارئ العليم عزَّ شأْنه وقال : « اللهمَّ هـٰذه قريشٌ قد أقبلتْ بخيلائها ، وعجبِها ، وفخرها تحادّك ، وتخالفُ أمرَك ، وتكذِّبُ رسولَكَ ، فنصرك الذي وعدتني . اللهمَّ إنَّك أنزلتَ الكتابَ ، وأمرتني بالثَّبات ، ووعدتني إحدىٰ الطَّائفتين ، وإنَّك لا تخلفُ الميعاد . اللهمَّ أَحْنِهم ـ أهلكْهم ـ الغَداة » .

* اطمأنَّتْ قريشٌ إلىٰ عدّتها وعديدها ، فأوعزت إلىٰ عمير أن يعرفَ عددَ المسلمين ويحزرَهم ، وكان عميرٌ ممَّن عصمَتْ بهم أعيانُ قريش وكبراؤُها سياسةَ تدبيرها في حربِ رسولِ ٱللهِ ﷺ وأصحابِهِ في موقعة بدر ، فوكلت إليه أن يحزرَ لهم أعداد جندِ ٱللهِ ، وأنْ يعرفَ قوّة شوكتهم ، وما يحملون من سلاح وعدّة ليجابهوا قريشاً .

* امتطىٰ عميرُ بنُ وهب صهوة جواده كالنّمر الجائع ، وجال به قربَ معسكر المسلمين وحولهم ، يذهبُ ويجيءُ ، ويعيدُ الكرَّة بعد الكرَّة ، حتَّىٰ ضبط لهم عددَ جنودِ المسلمين ضبطاً أتىٰ علىٰ واقعهم العددي ، فهو رجلُ استخبارات ممتاز من رجال الدَّرجة الأُولىٰ في هـٰذا الميدان الخطير ، وهو رجلٌ شديد جسور ذو دهاء ورأي ومكيدة .

* رأىٰ عميرٌ في وجوهِ الأنصار العجب العُجاب ، رأىٰ وجوهاً كأنَّها الحيَّات تتلمّظُ ولا تتكلَّم ، ورأىٰ في سيوفهم الموت النَّاقع تحملُه رؤوسُها مع أَسِنَّةِ رماحهم .

* رجع عميرٌ مسرعاً وأخبر سادة الفجَّار بقوله : « يا معشر قريش ! هم ثلاث مئة يزيدون قليلاً ، أو ينقصونه ، ولـٰكنْ أمهلوني حتَّىٰ أنظرَ للقوم كميناً أو مدداً » .

* فذهبَ في الوادي حتَّىٰ أبعد وضرب في جوانبه ذات اليمين وذات الشِّمال ، فلم يرَ شيئاً ، فرجع إليهم وقال لهم مقالةَ خبير عسكري ، يحملُ النُّصح للقادة ، ويحذِّرهم من عاقبة الأمر ، ويصفُ لهم رجالَ الجيش المسلم : « ما رأيتُ شيئاً ، ولـٰكنْ قد رأيتُ ـ يا معشرَ قريش ! ـ البلايا تحملُ المنايا ، نواضحُ يثرب تحملُ الموتَ النَّاقع ، قومٌ ليس لهم منعةٌ ولا ملجأٌ إلا سيوفهم ، واللهِ ! ما أرىٰ أنْ يُقْتلَ رجلٌ منهم حتَّىٰ يَقْتُلَ رجلاً منكم ، فإذا أصابوا منكم أعدادهم ، فما خير العيش بعد ذلك ؟ فَـرُوْا رأيكم »[1] .

* ولمَّا علمت قريشٌ بالنَّبأ الذي يحملهُ عميرٌ ـ إذ كان عنده الخبرُ اليقين ـ لم يأْبهوا له علىٰ الرّغم من أنَّ استكشافَه صحيحٌ مئة بالمئة ، وأصرَّ أغلبهم علىٰ القتال ، واغترّوا بما عندهم من السِّلاح والعدَّة ، والقضِّ والقضيض ، بل إنَّهم استهتروا بقوله الذي وصفَ لهم أنصار ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وقالوا له : « دعْ عنكَ هـٰذا يا عُمير ! واذهبْ فأوقدْ نارَ الحرب ، وأشعلْ فتيلَها ، وحرِّضْ بين القوم » .

* وهـٰهنا نَفَخَ الشَّيطانُ في خياشيم عُمير ، وأخذتْهُ العزَّةُ بالإثم ، ورمىٰ بنفسه عن صهوة جواده ، وألقاها بين رجال المسلمين ، وكان أوَّل مَنْ أنشبَ الحرب وأشعلَ فتيلها ، وأوقدَ ضرامها ، علىٰ الرَّغم من أنَّه كان يرغبُ في عدم نشوب الحرب . قال ابن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وقد كان حريصاً علىٰ ردِّ قريش عن

---

(١) « تاريخ الإسلام » للذَّهبيِّ (المغازي ، ص : ٥٥) ، وفي رواية أنَّ عُميراً قال : « رأيتُ يا معشرَ قريش البلايا تحملُ المنايا ، ألا ترونهم خرساً لا يتكلَّمون ، يتلمَّظون تلمُّظ الأفاعي ، لا يريدون أنْ ينقلبوا إلىٰ أهليهم . . . » . وقوله « البلايا تحمل المنايا » : النُّوقُ تبركُ علىٰ قبْرِ صاحبها فلا تعلفُ ولا تُسقىٰ حتَّىٰ تموت ، ويقصدُ الإبل تحملُ الموت . و« نواضح » : جمع ناضح : البعير ، أو غيره الذي يُسْتَقىٰ عليه الماء .

لُقِـيّ رســول ٱلله ﷺ ببـدر »[1] .

* دارت رحىٰ الحرب تطحنُ حشود الكفْر طحناً أتىٰ علىٰ صناديدهم قَتْلاً ، وأشرافهم أسْراً ، وعلىٰ غوغائهم هرباً ، وكان وهبُ بنُ عمير فيمن أُسِر يوم بدر مع السَّبعين ، أسرَهُ رفاعةُ بنُ رافع بن مالك الزّرقيّ . أمَّا عميرُ بنُ وهب فكان ممَّن أسلم ساقَيْه للرِّيح فارّاً نحو مكَّة هرباً من المنايا التي تطلُّ برؤوسها من سيوف المسلمين . وقيل : « إنَّ عميرَ بنَ وهب جُرِحَ يوم بدر ، فوقع في القتلىٰ ، فأخَذَ الذي جرحَه السَّيفَ فوضعَه في بطنِهِ حتَّىٰ سمع صريفَ السَّيف في الحصىٰ ، حتَّىٰ ظنَّ أنَّه قد قتلَه ، فلمَّا وجدَ عميرٌ بَـرْدَ الليل ، أفاقَ إفاقةً فجعل يحبو حتَّىٰ خرجَ من بين القتلىٰ ، فرجع إلىٰ مكَّة ، فبرأ منه »[2] .

* وللشَّيخ محمَّد عرجون رَحِمَهُ ٱللهُ تعليقٌ نفيسٌ ، وكلامٌ مفيدٌ علىٰ بَعْثِ عميرِ بن وهب ليحزِرَ لهم عددَ المسلمين ، فيقولُ ما محصّله : « كانت حالةُ أصحابِ رسول ٱلله ﷺ في قلَّة عددهم ، وضعفِ عدّتهم ، موضعَ عَجَبٍ وغرابةٍ عند أعدائهم ، فتشككوا في أنْ يكونَ وراء هـٰذا العدد القليل أكمنةٌ متخفيَّةٌ وراء هـٰذه القلّة الظَّاهرة ، فأرسلوا داهيتهم عميرَ بنَ وهب ليحزرَ لهم أصحاب محمَّد ﷺ ، ويتعرَّفَ حالَهم ، وهل لهم كمينٌ وراء عددهم الظَّاهر القليل ؟ هـٰذا العددُ الذي استهتر به الفاسقُ أبو جهل ، فقال مستخفّاً بهم : إنَّهم أَكَلَة جزور . ولـٰكنَّ أبا جهل في حمقه لا يعرفُ إلا ما تبصرهُ عينُه الحولاء من الأشباحِ التي تمشي علىٰ الأرض وهو أجهلُ من الجهل في معرفتهِ بالقوىٰ المعنويَّة من العزائم الإيمانيَّة التي تكمنُ في صدورِ الرِّجال ، فلا تظهرها إلاَّ مقابلة المِحَن الممحِّصة لمعادن البطولة ، فتحدَّث عمَّا رأىٰ ببصره ؛ ولـٰكنَّ داهيتَهم عميراً جاءهم بما خلعَ قلوبَهم من بين جوانحهم فقال لهم : (قد رأيتُ يا معشرَ قريش البلايا تحملُ المنايا ، نواضحُ يثرب تحملُ

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ١٩٩) .
(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٠٠) .

إليكم الموتَ النَّاقع) وعميرٌ بهٰذا القول ينفضُ لقريش وقائدها أبي جهل ما في كنانتهِ ، وهو إذ ذاك كان لا يزالُ يتمرّغُ في حَمْأةِ الشِّرك ، وأوحالِ الوثنيَّة ، فوصفَ لقومهِ ما أملاهُ عليه دهاؤه وحذره عليهم أنْ تفتكَ بهم سيوفُ نواضح يثرب ، وأنْ يذهبَ أشرافُهم طعمةً لنيران هٰؤلاء الأبطال الذين لا منعةً لهم إلاَّ سيوفُهم ، والذين لن يُقْتَل منهم رجلٌ حتَّىٰ يكونَ جَنْدَلَ إلىٰ جانبه رجُلاً من أشرافهم . ولو كان عميرُ بنُ وهب يومئذ يعرفُ عن الإيمان وعزائمه شيئاً لقالَ لقومه : لقد رأيتُ أصحابَ محمَّدٍ ﷺ لا منعة لهم إلاَّ إيمانهم ، وعزائمهم ، وصدق إخلاصهم في لقائكم ، ولن يُقْتَلَ منهم رجلٌ حتَّىٰ يكونَ قد قتلَ عشرةً منكم ، فإذا أصابوكم إفناءً وهواناً وإذلالاً فما بقاء مَنْ بقي مِنْ أشباحِكم بعد هٰذا ؟ » [1] .

* كانت هٰذه الحقيقةُ هي التي ملأتْ قلوبَ ذي التَّعقُّلِ واحتساب العواقب مِنْ أمثال : عتبةَ بنِ ربيعة ، وحكيمِ بن حِزام [2] ، وكانت هي الحقيقةُ الواقعيَّةُ التي تكشَّفَ عنها الغيبُ ، فقد استأصلت هٰذه القلَّةُ المؤمنةُ سادةَ قريش ، وأَسَرتْ آخرين ، فدفعوا الفِداء وهم صاغرون .

تآمرٌ وبيءٌ :

* وصل عميرُ بنُ وهب مكَّة المكرَّمة كاسفَ البال ، مهموماً ، قد لفَّه الحزنُ علىٰ ابنهِ الذي وقعَ أسيراً بأيدي رجال الصَّحابة وأبطالهم ، وكان خبرُ الهزيمة المنكرة التي حاقت بالكفَّار قد سبقه علىٰ لسان عددٍ ممَّن شهد المعركة ، ووجد النَّاس يتحدَّثون ، ويذكرون أسماء مَنْ لقي حتفه مقتولاً من صناديد قريش ، ومن أُسِرَ من أشرافهم وسراتهم وذوي النَّباهة فيهم ؛ وكان من بين القتلىٰ : أميَّة بنُ خلف الجمحيّ ، وابنهُ عليٌّ بن أميَّة ، وعتبةُ بنُ ربيعة

---

(١) « محمَّد رسول ٱلله » (٢ / ٢٩٩ ـ ٣٠٠) بتصرُّف واختصار يسيرَين .

(٢) اقرأ سيرة حكيم بن حِزام في الباب الثَّالث من هٰذه الموسوعة ، فالسيّرة الحكيميّة تحكم فينا محبّة الصَّحابة أجمعين .

وأخوه شيبةُ وغيرهُم من أعمدةِ الكفْر ومساندهِ في قريش .

* كان صفوانُ بنُ أميَّة جالساً في الحِجْر يسمعُ ما يدور من أحاديثَ وأعاجيبَ فلا يكاد يصدِّق ، ويأخذهُ الدَّهش ممَّا يقولون ، وإذا بعُمير بن وهب يأتي مجلسه ، فيقعدُ إليه ، وهو غارقٌ في همومه وأسفِهِ وحزنه علىٰ مَنْ قُتِلَ في بدر ، فسمعهُ عميرٌ يقول : « قبّح اللهُ العيشَ بعد قتلىٰ بدر » .

فقال له عميرٌ : « أجل ، واللهِ لولا دَيْنٌ عليَّ لا أجدُ قضاءه ، وعيالٌ لا أدعُ لهم شيئاً ، أخشىٰ عليهم الضَّيعة بعدي ، لخرجتُ إلىٰ محمَّدٍ فقتلتُه إنْ ملأتُ عيني منه ، إنَّ لي عنده علَّة أعتلُّ بها ، أقول : قدمتُ علىٰ ابني هـٰذا الأسير » .

* التقط صفوانُ بنُ أميَّة الكلماتِ العُميريَّة الحماسيَّةَ التي كانت تسيلُ مع لعابهِ تشوّقاً للانتقام ، فاهتبلهَا فرصةً سانحةً لا تُعوّض ، وفرحَ بهـٰذا العرض السَّهل ، فقال لابن عمّه عُمير يغريه ويحرِّضه : « عليَّ دَيْنُك يا عُميرُ أقضيه عنك وافياً ، لا يتبعكَ بشيء منه أحدٌ قطّ ، وعيالُك مع عيالي ، أواسيهم ما بقوا ، وأنفقُ عليهم كما أنفقُ علىٰ عيالي » .

فقال عمير وقد اتَّسع صدرهُ : « فاكتمْ شأْني وشأْنَكَ يا بنَ عمّ » .

قال صفوان : « أفعلُ ذلك فامْضِ لشأنك » .

* تكفَّل صفوانُ بتجهيز عميرِ بنِ وهب ، وأمرَ له بسيفٍ بالغَ في صقْله ، وشحذه ، وأشبعه سمَّاً زعافاً . نهضَ عميرٌ من مكانه وغادر المسجدَ ونيرانُ الحقدِ تتأجَّجُ في فؤاده تكاد تكظمُ أنفاسَه ، وأخذ يودّع ابن عمّه صفوان وهو يعدهُ ويمنّيه ، وما يعدهُ إلا الغرور ، وما يمنّيه إلا خواء الكلام وهرائه .

* تعاهد عميرٌ وصفوان علىٰ الكتمان ، لـٰكنَّ الوحيَ الأمينَ أخبرَ الرَّسولَ الأمينَ ﷺ بذلك الاتِّفاق ، وتلك المؤامرة الوبيئة النَّذلة .

* وتعالوا الآن نستمتعُ بروضِ الأدب ، ونستروحُ عبيرَ زهره من خلال

هٰـذه الهمسةِ التي تتحدّثُ عن المؤامرة الصَّفوانيَّة العُميريَّة لاغتيالِ رسولِ ٱللهِ ﷺ :

وهنـــاكَ عنـــد البيـــت كـــان اثنـــان فـــي همْـــسٍ يُثيـــر
صفـــوانُ يجلـــسُ مـــع عُميـــرٍ إنَّـــه أمـــرٌ عسيـــر
فتَحـــادثـــا فـــي شـــأن بـــدرٍ ذاكُـــمُ الأمـــرُ المثيـــر
الاتّفـــاق يتـــمُّ بينهمـــا علـــىٰ أمـــرٍ خطيـــر
هٰـــذا سيـــذهـــبُ نحـــو يثـــربَ يقتـــلُ الهـــادي البشيـــر
ويقـــومُ صفـــوانٌ بِحَمْـــلِ الـــدَّيـــن عنـــه كـــذا الصَّغيـــر
قـــالا لنكتـــمْ أمـــرنـــا عـــن كـــلِّ ذي عَيْـــن بصيـــر
قـــد خـــابَ ظنّهمـــا لقـــد عـــرفَ الـــرَّســـولُ مـــن القـــديـــر

* لقد ظنَّ صفوانُ وعميرٌ أنَّهما بهٰـذا التَّدبير الوبيء من اغتيال النَّبيِّ ﷺ يتخلّصان منه ، وكانت هٰـذه المؤامرةُ أوَّلَ مؤامرةٍ تُـدَبَّر في مكَّةَ لاغتيالهِ ﷺ بعد معركة بدر الكبرىٰ ؛ وكان من السَّهل تنفيذ هٰـذه المؤامرة ، لولا العنايةُ الرَّبانيَّةُ واللطفُ الإلـٰهيُّ الذي حفَّ الحبيب المصطفىٰ ﷺ . ترىٰ كيف كان ذلك ؟

« أدخلْـهُ علـيَّ » :

* سار عميرٌ يقطعُ الفيافي والقفار حتَّىٰ وصلَ المدينة المنوَّرة ونزل بباب المسجد النَّبويّ ، واعتقل بعيره ، وتوشَّح سيفه ، وهم بالدُّخول علىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ متظاهراً بأنَّه جاء لدفع الفداء عن ابنه وهب ، وإطلاق سراحه .

* في هٰـذه الأثناء رآهُ الألمعيُّ العبقريُّ فاروقُ رجال عصر النُّبوَّة وقويُّهم الأمينُ عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ ، وكان عمر يجلسُ إلىٰ نفر من الأنصار ، يتحدّثون عن وقعة بدر ، ويذكرون أنْعُم ٱلله عليهم فيها ، وما أراهم اللهُ في عدوهم ، ففزعَ عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وارتاب في أمره ؛ إذ رأىٰ شيطان قريش عمير بن وهب يهمُّ بدخولِ المسجد ، وسيفُه في رقبتِه ،

فصاح : « هـٰذا عدوُّ ٱلله عُمير بنُ وهب الذي حَـزَرَنا للقوم ، الذي أشعلَ نار الحرب » .

* نهـض سيِّـدنـا عمـر ـ رضـي ٱلله عنـه ـ ، ثـمَّ أسـرعَ فـدخـلَ علـىٰ رسول ٱلله ﷺ ، فقال : « يا رسولَ ٱلله ! هـٰذا عميرُ بنُ وهب قد دخل المسجد متقلِّداً سيفه ، وهو الغادرُ الفاجرُ ، يا رسولَ ٱلله ! لا تأمنه علىٰ شيء » .

فقـال الصَّـادقُ المصـدوقُ ﷺ لعمـر : « أدخلْـه علـيَّ » فخـرج عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ فأمرَ أصحابه : « أن ادخلوه علىٰ رسولِ ٱللهِ ﷺ ، واحترسوا من عمير » .

* أقبل سيِّدنا عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ علىٰ عُميرِ بنِ وهب ، وأخذ بحمالةِ سيفـه ، ولبَّبـه ، ودخـل بـه علـىٰ رسـولِ ٱللهِ ﷺ وسيفـه فـي رقبتِـهِ ، فقـال عُمير : « أنعموا صباحاً » .

فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « قد أكرمنا اللهُ بتحيَّة خير من تحيَّتك ، بالسَّلام ، تحيَّة أهل الجنَّة ، فما أقدمك يا عمير ؟ » .

قال : « قدمتُ في أسيري ، ففادونا في أسيركم ، فأنتم العشيرةُ والأهل » .

* توهَّم عميرٌ أنَّه قد استطاع أنْ يملكَ الحيلة ، ويمتلك الحجَّة ، وأنَّه أقنعَ ووصلَ ، وانطلتْ أكذوبتُهُ البلهاء علىٰ محمَّد رسول ٱلله ﷺ ، وعلىٰ الذين آمنوا معه ؛ وتحلّقوا حوله ، ولـٰكنَّ رسولَ ٱلله ﷺ صدع فؤاده فقال له : « فما بال السَّيف في رقبتك ؟ » .

فقال عميرٌ وقد انخلع قلبُه ، واستطار لبُّه : « قبّحها اللهُ من سيوف ، وهل أغنتْ عنَّا من شيء ، إنَّما نسيتُهُ حين نزلتُ » .

* تفرَّسَ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ في وجْهِ عمير فألفىٰ شيطنةَ عُمير تتلاشىٰ فقال : « اصدقني ما أقدمَك ؟ » .

قال عميرٌ مردّداً أكذوبة أسْرِ ابنه : « قدمتُ في أسيري ، وما جئتُ إلاَّ لذاك » .

* ظنَّ عميرٌ أنَّ دهاءه ينطلي علىٰ النُّبوَّة ، وأنَّ الأمورَ تستقيمُ له كما يشاءُ ، غير أنَّ الصَّادقَ المصدوقَ ﷺ قطعَ عليه طريقَ الكذب والدَّهاء ، وأنبأَهُ بما أخبرهُ به العليمُ الخبيرُ ممَّا كان بينه وبين صفوان بنِ أميَّة من مناجاةٍ بالإثمِ والعُدوان والغدرِ وهما في الحِجْر بمكَّةَ المكرَّمة بجوار البيتِ العتيق ، ثمَّ قال ﷺ لعمير : « فما الذي شرطتَ لصفوان بن أميَّة في الحجر ؟ » وفزعَ عميرٌ فزعَ الخائنين الخائفين ؛ إذ رأىٰ ولمس أنَّ أوّل خيطِ الفضيحة ، وعقْدِ المؤامرة الصَّفوانيَّة العُميريَّة قد أخذ يعرّي كذبه ودهاءه ، فتماسكَ وهو يبتلعُ ريقه ، وظنَّ أنَّ هـٰذه الكلمة من قُبيل المصادفات ، فقال : « ما شرطتُ لصفوان بنِ أميَّةَ شيئاً » .

فقال رسولُ ٱلله ﷺ لعمير كاشفاً أسرار مؤامرته الخبيثة مع ابن عمِّه صفوان : « تحمَّلتَ له بقتلي علىٰ أنْ يعول بنيكَ ، ويقضي لك دَيْنك ، واللهُ حائلٌ بيني وبينك » .

* وفي رواية قال له : « بل قعدتَ أنتَ وصفوان بن أميَّة في الحجر ، فذكرتما أصحاب القُلَيب من قريش ، ثمَّ قلتَ : لولا دَيْنٌ عليَّ وعيالٌ عندي ، لخرجتُ حتَّىٰ أقتلَ محمَّداً ، فتحمَّلَ لك صفوانُ بنُ أميَّة بِدَيْنكَ وعيالك علىٰ أن تقتلني له ، واللهُ حائلٌ بينك وبين ذلك » .

* ولنتحول الآن في رحاب هـٰذه القبسةِ الجميلةِ التي تصور موقفَ الحوار بين رسولِ ٱلله ﷺ وبين عُمير ، ثم نتابع الرحلة :

هـٰـذا رسـولُ اللهِ يسـألُ وابـنُ وهـبٍ إذْ يجيـب
مـاذا أتـىٰ بـكَ يـا عُميـر أجـبْ بصـدقٍ لا يـريـب
فـأجـابَـهُ إنِّـي أتيـتُ لكـي أرىٰ ولـدي الحبيـب
هـو عنـدكـم فـي الأسْـرِ طـالَ بقـاؤُهُ هـٰذا مـريـب

قـال النَّبـيُّ فمـا تـريـدُ بـذلـك السَّيـف العضيـب
فـأجـاب فـي خبـثٍ خبيـث إنَّـه رجـلٌ لبيـب
لـم تغْـنِ عنَّـا يـوم بَـدْرٍ بئـس أسيـافـاً تعيـب
قـالَ النَّبـيُّ لـه بلـىٰ قـد جئـتَ فـي أمـرٍ رهيـب
فجلسـتَ عنـد البيـت مـع صفـوانَ سـرّاً عـن قـريـب
فـذكـرتُمـا يـومَ الهـزيمـة يـوم بَـدْرٍ والقليـب
لا شـكَّ ذاك اليـوم يكْمُـنُ فـي النُّفـوس فـلا يغيـب
الاتّفـاق يتـمُّ بينكمـا علـىٰ أمْـرٍ غـريـب
صفـوانُ يحمـلُ عنـك دَينَـك والعيـال لكـي تطيـب
مـن ثـمَّ جئـتَ تـريـدُ قَتْلـي قـد فشلـتَ ولـن تصيـب
اللهُ يحفظنـي فَنِعْـمَ الحـافـظُ المـولـىٰ الـرّقيـب (١)

* لم يمتلكْ عميرُ بنُ وهب أمام كشْفِ هـٰذه الحقائق وجلوتها علىٰ صورتها الحقيقية إلا أنْ يستسلم للحقِّ ، فانقلبَ من شيطانٍ مريد ، إلىٰ مؤمنٍ رشيد ، وانسكبتْ قطراتُ غيثِ الإيمان علىٰ قلبه ، وقال بلسان اليقين والصِّدق : « أشهـدُ أنْ لا إلـٰه إلا ٱلله ، وأشهـد أنَّ محمَّـداً رسـول ٱلله ، يا رسولَ ٱلله ! كنَّا نكذّبك بالوحي ، وبما يأتيك من السَّماء ، وأنَّ هـٰذا الحديثَ بيني وبين صفوان في الحِجْر ، لم يطلعْ عليه أحدٌ إلا ٱلله تعالىٰ ، والحمدُ للهِ الذي ساقني هـٰذا المساق ، وقد آمنتُ بٱلله ورسوله » (٢) .

« فقِّـهُوا أخَـاكم » :

* بعد أنْ غدا عميرُ بنُ وهب أحدَ رجالِ الإسلام ، وانتظم في سِلْك ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] ، التفتَ رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ أصحابه ،

---

(١) « تغريدة السِّيرة النَّبويَّة » (٢ / ٢٩٠) .

(٢) « صحيح السِّيرة النَّبويَّة » (ص : ٢٥٩) بتصرُّف يسير ، وانظر : « المغازي » (١ / ١٢٧) .

وقال لهم بلطفٍ ومودّةٍ وإيناس : « فقِّهوا أخاكم في دينه ، وعلِّموه القرآن ، وأطلقوا أسيره » .

* وفي روايةٍ أنَّ الحبيب المصطفىٰ ﷺ قال لعمير متلطّفاً به ، مسروراً بإيمانه وانتقاله من بحار الظُّلمات إلىٰ آفاق النُّور ، وإلىٰ صراطِ العزيزِ الحميد : « اجلسْ يا عمير نؤانسك » وفي رواية : « نواسيك » ، ثمَّ أمرَ الحبيب المصطفىٰ ﷺ أن يطلقوا ابنَه وَهْباً دون فداء .

* دُهِشَ عميرٌ لهٰذه الرَّأفةِ النَّبويَّة به ، فقد قدم من مكَّةَ يحملُ بين جنبيه وجوانحه قلباً مملوءاً حقداً وعداءً للإسلام ونبيّ الإسلام ، فلمَّا عرفَ الحقيقة ، وذاقَ حلاوةَ الإيمان ، تبدَّلَت عداوته حبّاً مستفيضاً للإسلام ونبيّ الإسلام ، واستقرّتْ مشاعرهُ الدَّاخلية ، وهدأتْ نفسُه ، ونظرَ إلىٰ ماضيه في ميزان حاضره ، فرأىٰ أنْ يكفِّر عمَّا سلفَ بأنْ يدعوَ إلىٰ ٱلله ، فقال للهادي البشير ﷺ : « يا رسولَ ٱلله ! إنِّي كنْتُ جاهداً علىٰ إطفاء نور ٱلله ، شديدَ الأذىٰ لمن كان علىٰ دين ٱلله ، وأنا أحبُّ أنْ تأذنَ لي ، فأقدم مكَّة ، فأدعوهم إلىٰ ٱلله ، وإلىٰ رسوله ، وإلىٰ الإسلام ، لعلَّ اللهَ يهديهم ، وإلا آذيتُهم في دينهم كما كنتُ أوذي أصحابَك في دينهم » .

* فأذن له الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ ، فلحق بمكَّة المكرمة ، وكان ابنُ عمّه صفوان بن أميَّة لا يزالُ يلعبُ به شيطان الغرور ويظنُّ كلَّ الظَّنِّ أنَّ مؤامرته ستتوّجُ بالنَّجاح ، وسيطفئُ عُميرٌ حرقةَ نفسه ونيرانَ قلبه ، وكان يقولُ لقريش : « أبشروا بوقعةٍ تأتيكم الآن في أيَّام ، تنسيكم وقْعَةَ بدر » .

* وكان صفوانُ بنُ أميَّة يسألُ عنه الرّكبان القادمين عليه من المدينةِ ، هل كان بها حَدَثٌ ؟ حتَّىٰ قدم عليه رجلٌ فأخبره أنَّ عُميراً أسلم ، وأصبحَ من رجالِ محمَّدٍ ﷺ الذين صدقُوا ما عاهدوا ٱلله عليه ، فكاد الأسىٰ يقضي علىٰ صفوان لولا تأسّيه ، وحلفَ ألا يكلِّمَه أبداً ما بلَّ بحرٌ صوفه ، ولا ينفعَه بنفعٍ أبداً[1] .

---

(١) « صحيح السِّيرة النَّبويَّة » (ص : ٢٥٩ ـ ٢٦٠) بتصرُّف يسير ، وانظر : « أسد =

* أمَّا مشركوا مكَّة وفجَّارها الذين أصرُّوا علىٰ الكفْر ومحبّةِ الأصنام ، فقد كرهوا عُميراً كراهيةً شديدةً ، وقالوا : صبأَ ، بينما لعنَه آخرون ونسبوهُ إلىٰ الخطأ والخَطَل ، وأنَّه قد أصابه سِحْرٌ فتركَ ما ألفىٰ عليه الآباء والأجداد .

* لم يأبَه سيِّدنا عميرٌ لهـٰذا كلِّه ، ولم يُعِرْ سَمْعَهُ أيَّة كلمة تنبعثُ من أفواه المشركين ، فقد عَمَرَ الإيمانُ قلبَه ، واستحوذَ الإسلامُ عليه ، فطفقَ يدعو قريشاً إلىٰ الإسلام والسَّلام ، ويؤذي مَنْ خالفه ، فأسلم علىٰ يدهِ بشَرٌ كثير نعموا بدين ٱلله كما نَعِمَ هو .

* لم يتوقَّفْ سيِّدنا عُميرٌ عند هـٰذا الحدِّ فحسب ، وإنَّما مرَّ ذات يوم بصفوانَ بنِ أميَّة وهو في الحِجْر ، فدعاه إلىٰ الإسلام دعوةً رقيقةً رفيقةً فأعرضَ عنه صفوان ، ولم يكلِّمْه مطلقاً [1] .

= الغابة » (٣ / ٧٩٨) ، و« السِّيرة النَّبويَّة » لابن هشام (١ / ٦٦١ ـ ٦٦٣) ، و« المغازي » (١ / ١٢٧) ، و« معرفة الصَّحابة » (٣ / ٤٦٩) ، وغيرها كثير .

(١) من الكراماتِ الجليَّة لسيِّدنا عمير أنَّه استأمن لصفوان يومَ الفتح ، فقد استأمن النَّبيّ ﷺ لصفوانَ بن أميَّة يوم فتح مكَّة المكرمة ، فأمّنه رسولُ ٱلله ﷺ ، وبعثَ إليه بردائه ، أو بردة أماناً له ، فأسلم صفوانُ بعد لأيٍ ، وحَسُن إسلامه بعد أنْ ظلَّ مدَّةً من المؤلّفة قلوبهم علىٰ الإيمان بالعطاء الكثير الغامر حتَّىٰ قال : « أشهد أنَّه لا يعطي هـٰذا إلا نبيّ » .

وذكر ابنُ قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصَّة هـٰذا العفو فقال : « لمَّا كان يوم الفتح هرب صفوانُ بنُ أميَّة فقال عميرٌ : يا رسولَ ٱلله ! صفوانُ بنُ أميَّة سيِّدُ قومي ، وقد خرجَ ليقـذفَ بنفسـهِ فـي البحـر ، فـأمِّنْـه صلَّـىٰ ٱلله عليـك ، قـال : « قـد أمَّنْتُـه » قال : يا نبيَّ ٱلله ! أعطني شيئاً يَعرِفُ به أمانك ؛ فأعطاهُ النَّبيّ ﷺ بُـرْدَهُ الذي دخلَ وهو معتجر به ، فخرج عميرٌ في طلبه ، فأدركه بجدّةَ ، وهو يريدُ أنْ يركبَ البحر ، فقال : يا صفوانُ فداك أبي وأمّي خيرُ النَّاس ، وأبرُّ النَّاس ، وأحلمُ النَّاس ، وأوصلُ النَّاس ، مجدُهُ مجدُك ، وعزُّهُ عزُّك ، وشرفُهُ شرفُك ، وملكُه ملكك ، يا صفوان ! اتّقِ ٱلله في نفسك . قال : ويلك إنِّي أخشاه علىٰ نفسي ، إنَّه إنْ رآني قتلني . =

* ورُوي أنَّه لمّا قدم عميرُ بنُ وهب مكَّة بعد أنْ أسلم ، نزلَ بأهلهِ ، ولم يقفْ بصفوانَ بنِ أميَّة ، وأظهرَ الإسلام ، ودعا إليه ، فبلغَ ذلك صفوان فقال : « قد عرفتُ حين لم يبدأ بي قبل منزله أنَّه ارتكسَ وصبأَ ، فلا أكلِّمه أبداً ، ولا أنفعهُ ولا عياله بنافعة » . فوقفَ عليه عُميرٌ وهو في الحجر ، فناداه فأعرضَ عنه ، فقال له عمير : « أنتَ سيِّدٌ من ساداتنا ، أرأيتَ ما كنَّا عليه من عبادة حجر ، والذَّبح له ، أهٰذا دِين ؟ أشهدُ أن لا إلٰه إلا ٱلله وأنَّ محمداً عبده ورسوله » فلم يجبْه صفوان بكلمة »[1] .

* أمَّا المسلمون فقد فرحوا فرحاً شديداً حين هدىٰ اللهُ عميراً إلىٰ الإسلام والدِّين الحنيف ، بحيث إنَّ سيِّدنا عمرَ بنَ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ كان يحبُّ عُميراً أكثر من بعضِ أولاده ، وقد عبَّر عمرُ عن هٰذا الأمر فقال : « والذي نفسي بيده ، لخنزيرٌ كان أحبّ إليّ من عُمير حين طلعَ ، ولَهُوَ اليوم أحبُّ إليَّ من بعض ولدي »[2] . وفي رواية أنَّ عمر قال : « لقد جاء عميرٌ وإنَّه لأضلّ

= قال : هو أحلمُ من ذلك وأكرمُ ، وهٰذا أمانه معي قد بعثَ به إليك فرجعَ معه إلىٰ النَّبيِّ ﷺ ، فقال : إنَّ هٰذا قال : إنَّك قد أمنتني . قال : « إنَّه قد صدق » . « التَّبيين » (ص : ٤٠٤) .

(١) « التَّبيين في أنساب القرشيين » (ص : ٤٠٣ ـ ٤٠٤) .

(٢) « أسد الغابة » (٣ / ٧٩٨) . وأوردَ الواقديُّ في « مغازيه » حواراً لطيفاً بين سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ، وسيدنا عُمير بن وهب فقال : « قالوا : وقال عمرُ بنُ الخطَّاب في مجلس ولايته : يا عُميرُ بنُ وهب ، أنتَ حازِرُنا للمشركين يوم بَدْر ، تُصعِّد في الوادي وتصوّب ، كأنّي أنظرُ إلىٰ فرسك تحتك ، تخبرُ المشركين أنَّه لا كمين لنا ولا مدَد !

قال : إي واللهِ يا أمير المؤمنين ! وأُخرىٰ ؛ أنا واللهِ الذي حرّشتُ بين النَّاس يومئذٍ ؛ ولـٰكنَّ اللهَ جاء بالإسلام وهَدانا له ، فما كان فينا من الشِّرك أعظم من ذلك .

قال عمر : صدقْتَ » . « المغازي » (١ / ٦٥) . =

من خنزير ، ثمَّ رجع وهو أحبّ إليَّ من ولدي » .

* ومع نهاية هـٰذه الفقرة من السِّيرةِ العُميريَّة التَّربويَّةِ الهادفةِ ، ما رأيكم

= وفي قصَّة عمير بن وهب العمريَّةِ الأنيقةِ فوائدُ وعظاتٌ ، ودروسٌ وعبرٌ ، منها :

١ ـ حرصُ المشركين من المترفين علىٰ استغلال الفقراء للوصول إلىٰ مآربهم الدّنيئة ومنها إرسال النَّاس إلىٰ هلاكهم بحجَّة كفالة أهليهم مادياً ومعنوياً ، كما فعل صفوانُ بنُ أميَّة مع عمير بن وهب .

٢ ـ فراسةُ رجال عصر النُّبوَّة ، وتوفر الحسّ الأمني عندهم ، ومنهم سيِّدنا عمر الذي راقب حركات عمير وتحرّكاته ، فحذَّر منه ، وأمرَ بحراسةِ النَّبيّ ﷺ ، وأحبطَ محاولة الغدر العُميريَّة الصَّفوانيَّة ، وجعلها نسياً منسيّاً ، وعادت علىٰ صفوان وعمير بالخير .

٣ ـ السَّلامُ شعار تحيَّة المسلمين ودثارهم ، والسَّلام تحيةُ أهل الجنَّة ، فلا مجال لأي تحيَّة مهما كان مصدرها ، وينبغي أنْ نحذرَ الآن من التَّفرنج والميوعةِ في هـٰذا المجال الذي يعدّهُ بعضُ النَّاس من الحضارة والتَّقدُّم .

٤ ـ الإسلامُ دين الإحسان ، فقد أحسنَ النَّبيُّ ﷺ إلىٰ عُمير وابنه فأسلما .

٥ ـ ثبات عمير بن وهب وقوّة إسلامه ، وحبّه لدين ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فقد صمَّم سيِّدنا عميرٌ أنْ يقفَ ثابتاً بوجْهِ المشركين في مكَّةَ المكرمةِ ، وأنْ يدعوهم إلىٰ الإسلام دون وَجَلٍ أو خوف ، وقد أخذَ بذلك الإذن النَّبويّ ، فواجه ، وتحدَّىٰ ، وأسلم علىٰ يده ناس كثير ، وعاد أدراجه إلىٰ المدينة المنوَّرة ليتابع الرِّحلة الإيمانيّة المباركة العطرة الخيِّرة .

٦ ـ رجالُ عصر النُّبوَّة رجالٌ متميِّزون بقدراتهم المتنوِّعة ، وكان حين تُعدُّ الرِّجال يَجْعَلُ سيِّدنا عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ سيِّدنا عُميراً ممَّن يزِنُ عنده ألف رجل ، وكان عميرٌ ـ رضوان ٱلله عليه ـ أحد الرِّجال الأربعة الذين أمدَّ بهم سيِّدنا عمرُ عمرَو بن العاص ، الذين كان كلّ واحدٍ منهم يُوزَنُ بألف ، فباركَ ٱلله بهم ، وأكرمْ بهؤلاء الرِّجال !

أنْ نتذوّق رحيقَ هٰذه الأزاهير الأدبيَّة التي تهفو إليها النُّفوس ؟

قــال ابــنُ وهْــبٍ للنَّبــيِّ بلهجــةِ المتنــدِّميــن
يــا خيــرَ خلْــقِ اللهِ إنِّــي كنــتُ شــرَّ الكــافــريــن
قــد كنــتُ خَصْمــاً عــاتيــاً لله ثــمَّ المسلميــن
بــل كنــتُ أعمــلُ جــاهــداً كــي أطفــئَ النُّــور المبيــن
مُــرْنــي لأدعــوَ أهــلَ مكَّــة مــن كبــار المشــركيــن
فلعلَّهــم أنْ يــؤمنــوا بــاللهِ ربِّ العــالميــن
أو ســوفَ أوذيهــم كمــا آذيــتُ قبــلُ المــؤمنيــن
قــال الــرَّســولُ لــه لتــذهــبْ فــادْعُ كُــلَّ الغــافليــن
قــد ظــلَّ صفــوانُ بمكَّــةَ حــالمــاً فــي الآمليــن
قــد كــان ينتظــرُ ابــنَ وهــب يقتــلُ الهــادي الأميــن
ويقــولُ للكُفَّــار ســوف يجيئُكُــم خبــرٌ يقيــن
قــد ظــلَّ يســألُ عــن عُميــر كُــلَّ ركْــبٍ قــادميــن
وإذا عميــرٌ جــاءَ لٰكــنْ داعيــاً فــي المُصلحيــن
يــدعــو لِــدِيــنِ ٱلله بــالحسنــىٰ ويُــؤذي المعــرضيــن
قــد أسلــم العــددُ الكثيــرُ فــأصبحــوا فــي المهتــديــن

المجَــاهدُ المُخلــصُ :

* كان لسيِّدنا عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ مكانةٌ لائقةٌ بين صفوف الصَّحابة ، وغدا عَلَماً مهمّاً يُشار إليه بالبَنَان ، وخصوصاً بعد غزوة بَدْرٍ ، فقد أسلم من الأسرة العُميريَّة ابنُه وهبُ بنُ عمير ، فقد أُسِرَ وهبٌ يومَ بدر فيمن أُسِرَ من قريش ، وقدم أبوهُ في فدائه ، فأسلمَ ، وأطلقه له رسولُ ٱلله ﷺ ، فأسلمَ وهبٌ أيضاً ، وكان له قَدْرٌ وشَرفٌ ، وروي أنَّ رسولَ ٱلله ﷺ بسطَ له رداءه ، ومات بالشَّام مجاهداً ـ رضي ٱلله عنه وعن أبيه [1] ـ .

(١) « التَّبيين » (ص : ٤٠٤) ، و« الاستيعاب » (٢ / ٤٧٩) .

* وأمَّا سيِّدنا عميرٌ فقد فتح صحيفةً جديدةً مونقة ؛ من صحائف الجهاد المشرقة ، فقد قيل : « إنَّه شهد أُحُداً مُسلماً ، وعاشَ إلىٰ صدرٍ من خلافةِ عثمانَ ـ رضي ٱلله عنه ـ » [١] .

* قال ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « ثمَّ هاجرَ إلىٰ المدينةِ ، فشهدَ أُحُداً مع النَّبيِّ ﷺ ، وما بعد ذلك من المشَاهد » [٢] .

* وبعد غَزَاتَي حُنين والطَّائف ، أعطىٰ رسولُ ٱلله ﷺ ناساً من المؤلَّفة قلوبهم بعضَ المالِ والأَنْعَام ، وأعطىٰ عميراً مع مَنْ أعطاه من القرشيين . وشهد عميرٌ كذلك غَزَاة تبوك بالمعيَّة النَّبويَّة ، وهي ـ كما نعلمُ ـ آخر غزوةٍ من المغازي النَّبويَّة التي قادها رسولُ ٱلله ﷺ بنفسه ، وكُتِبَ عميرٌ من المجاهدين في سجلِّ الصَّحابة الكرام الذين ما فارقوا النَّبيَّ ﷺ في غزواتهِ بعد إسلامهم . وبهـٰذا يظهرُ حُسْنُ إسلام سيِّدنا عمير الذي أخذَ يبذلُ جهده كلّه لينشرَ الإسلام بالدَّعوة ، ويجاهدَ هنا وهناك لإعلاء كلمة ٱلله عزَّ وجلَّ .

* وكما عرفْنَا فإنَّ سيِّدنا عُميراً قد افتتح سجلّ جهاده في أُحدٍ ، ثمَّ ما بعدها من المشاهد تحت قيادةِ رسولِ ٱلله ﷺ ، ولمَّا انتقلَ رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ الرَّفيقِ الأعلىٰ ، تابع سيِّدنا عميرٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ مسيرةَ الجهاد ، فسار لجهاد المرتدين حتَّىٰ هدأتْ فورتهم ، وقُطِعَ دابرهُم ، وعادت نعمةُ الإسلام تعمُّ الجزيرةَ العربيَّة ، عندها كانت الفتوحاتُ الإسلاميَّةُ قد بدأت تدقُّ أبوابَ المدنِ وأسوارها ، وينتشرُ الإسلام في كلِّ مكان شرقاً وغرباً ؛ وشمالاً وجنوباً .

* ولمَّا بدأت الفتوحاتُ تتجه نحو أرضِ الكنانةِ أرضِ مصرَ الطَّيبةِ الخيِّرةِ المعطاء ؛ الموصّىٰ بها من خاتم الأنبياء ﷺ ، كان الذي فتحها سيِّدنا عمرو بنُ العاص ـ رضوان ٱلله عليه ـ ، ولمَّا قصدها سيِّدنا عمرو ليفتحها ، أمدَّه سيِّدنا

---

(١) « التَّبيين » (ص : ٤٠٤) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٠٠) .

عمرُ ـ رضي ٱلله عنه ـ بثلَّةٍ من أبطالِ الإسلام ورجالهم وشجعانهم وقادتهم ، وكان سيِّدنا عُميرٌ أحد هـٰؤلاء المشاهير الأبرار ؛ الذين أَثْروا جيشَ عمرو ببسالتهم ، وانتصروا علىٰ الرُّوم في معركةِ حصْن بابليون .

* قال ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سيِّدنا عُمير وبعْثِهِ إلىٰ مصرَ : « وهو أحدُ الأربعةِ الذين أمدَّ بهم عمرُ بنُ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ عمرو بنَ العاص ـ رضي ٱلله عنه ـ بمصر ، وهم الزُّبيرُ بن العوَّام ، وعميرُ بنُ وهْب الجمحيّ ، وخارجةُ بنُ حذافة ، وبسْرُ بن أرطأة ، وقيل : المقدادُ موضع بسْر »[(١)] .

* أثبتَ سيِّدنا عمير كفاءته الحربيّةَ والقياديّةَ في فتح مصر ، فأحلَّه سيِّدنا عمرو مكاناً لائقاً عنده ، فبعد أنْ فتح سيِّدنا عمرو الفسْطَاط ، وجَّه سيِّدنا عُميراً إلىٰ ثمانية بلاد ، وهي : « تِنِّيس ، تُونة ، دمياط ، دَميرة ، شَطَا ، دقَهْلة ، بنام ، وبوصير »[(٢)] ، فغلبَ عميرُ علىٰ أرضها ؛ وصالَحَ أهلَ قراها علىٰ مثل

---

(١) « الاستيعاب » (٢ / ٤٧٨) ، أقول : « أمدّنا البلاذريّ بمعلومات مهمّة عندما تحدّث عن فتوح مصر والمغرب إبَّان الخلافة العمريَّة الفاروقيَّة الميمونة سنة (١٩ هـ) ، فقال : « قالوا : ولم يلبث عمرو بن العاص ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وهو محاصرٌ أهل الفسطاط أنْ ورَدَ عليه الزُّبير بن العَّوام بن خويلد ـ رضي ٱلله عنه ـ في عشرة آلاف ، ويقال : في اثني عشر ألفاً ، فيهم : خارجة بن حذافة العدويّ ، وعمير بن وهب الجمحيّ ؛ وكان الزُّبير قد همَّ بالغزو ، وأراد إتيان أنطالية ، فقال له عمر ـ رضي ٱلله عنه ـ : « يا أبا عبد ٱلله هل لك في ولاية مصر ؟

فقال : لا حاجة لي فيها ، ولـٰكنِّي أخرجُ مجاهداً ، وللمسلمين معاوناً ، فإن وجدتُ عَمْراً قد فتحها لم أعرضْ لعمله ، وقصدت إلىٰ بعض السَّواحل فرابطتُ به ، وإن وجدتُه في جهادٍ كنت معه ، فسار علىٰ ذلك » . « فتوح البلدان » (ص : ٢٤٩ ـ ٢٥٠) .

(٢) راجع موقع هـٰذه المدن وأخبارها وتفاصيل فتوحها في « معجم البلدان » لياقوت الحمويّ .

صلحِ الفسطاط . قال البلاذريُّ ما ملخّصه : « لمَّا فتح عمرو بنُ العاصِ ـ رضي ٱلله عنه ـ الفسطاطَ . . . . وجَّه عميرَ بنَ وهب الجمحيّ إلىٰ تنِّيس ، ودِمْياط ، وتُونة ، ودَميرة ، وشَطَا ، ودِقَهْلة ، وبَنَا ، وبوصير ، فغلب علىٰ أرضها ، وصالحَ أهلَ قراها علىٰ مثل حكْمِ الفسْطاط . . . »[1] .

* وشهد سيدنا عميرُ بنُ وهب ـ رضي ٱلله عنه ـ بعد ذلك كلِّه معركة فتح الإسكندريَّة تحت لواء القائدِ الفاتحِ سيِّدنا عمرو بن العاص ـ رضي ٱلله عنه وأرضاه ـ ؛ إذ أكملَ فرسانُ المسلمينَ وأبطالُهم فتحَ مصرَ جميعها .

* وظلَّ سيِّدنا عُميرٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ يتابعُ رحلةَ العمل والجهاد والفُتوح مع رجالِ الإسلامِ خِلالَ الخلافةِ الرَّاشدة ، قال ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللهُ : « وبقي عميرُ بنُ وهب بعد عمرَ بنِ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ »[2] .

* وما أجمل أنْ نختمَ سيرةَ هٰذا الرَّجل الفذّ بهٰذهِ الفقرات الماتعةِ الجامعةِ (لمحمود شيت خطَّاب) حيثُ ختمَ سيرةَ سيِّدنا عميرٍ بكلمات مفادُها ومحصَّلُها : « كان عميرُ بنُ وهب ـ رضي ٱلله عنه ـ سيِّدَ قومه في الجاهليَّة علىٰ الرّغم من فَقْرِهِ ، ممَّا يدلُّ علىٰ أنَّه تبوَّأ هٰذا المركزَ المرموقَ بين قومه بمزاياه الإنسانية : شجاعتُه ، وكَرمُهُ ، ونخوتُهُ ، وشهامتُهُ . . . . وكان مخلصاً لعقيدته غايةَ الإخلاص : أخلصَ لعقيدته ، واندفعَ للدِّفاعِ عنها يوم أن كان مشركاً ؛ فلمَّا أسلمَ ، وَحَسُنَ إسلامه اندفعَ للدِّفاع عن عقيدته الجديدة الصَّحيحةِ السَّليمة بإخلاصٍ وحماسٍ شديدَيْن ، وقد عاش عميرٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ حياته كلَّها فقيراً ، وكان بإمكانه أنْ يصبحَ غنياً بعد الفتح ، ولٰكنَّ كرمَهُ ، وبذْلَهُ ما يملكُ في سبيل عقيدته ، لم يُبْقِ له شيئاً من المال . . . . لقد بقي سيِّدنا عمير ـ رضي ٱلله عنه ـ بعد سيِّدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وعاش إلىٰ صَدْرِ خلافة سيِّدنا عثمان بن عفَّان ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وتوفي

(١) « فتوح البلدان » (ص : ٢٥٤) .

(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٠١) .

حوالي سنة (٢٤ هـ) . ومن خلالِ دراسة حياة عُمير العسكريَّة ، يتَّضح لنا أنَّه كان يحسنُ الاستطلاع . . . . ويحسنُ تقديرَ الموقف ، فقد نَصَح لقريشٍ ألا تقاتل المسلمين علىٰ الرّغم من تفوّقها العسكريّ بالعَدَدِ والعدَّة ، وهـٰذا يدلُّ علىٰ بُعْدِ نظره وذكائه الخارقِ ، وخبرته الصَّحيحة . . . . وكان كذلك من أبطالِ قريش المعدودين ، فقد ذهب وحده لاستطلاع عدد المسلمين وعدَّتهم في بَدْرٍ علىٰ الرّغم من خطورة هـٰذا الواجب الحَرِج . . . ثمَّ إنَّه جازفَ بالإقدام علىٰ اغتيالِ رسولِ ٱلله ﷺ ، وهو في المدينةِ حِصْنه الحصين ، وبين أصحابه المخلصين الأوفياء الذين يَفْدُونه بأرواحهم وأبنائهم وأموالهم ، وأقدم وحده علىٰ الذَّهاب إلىٰ مكَّة معقل المشركين يومذاك ، ليدعو أهلها إلىٰ الإسلام . . . . وكان أوَّلُ مَنْ رمىٰ بنفسِهِ عن فرسِهِ بين أصحابِ رسولِ ٱلله ﷺ ، وأنْشَبَ الحربَ يوم بدر . . . . ولا ريب في أنَّ شجاعتَه الخارقةَ ، ومكانتَه وقَدْرَهُ بين قريش من أجَلِّ الدَّلائل وأكبرها علىٰ تمتُّعِهِ بشخصيَّةٍ نافذة ، وإرادة قويَّة ، لذلك كان موضع ثقة رجاله وحبِّهم ، ورفع معنوياتهم واطمئنانهم إلىٰ النَّصر . . . . ولهـٰذا كلّه يذكر التَّاريخُ لسيِّدنا عمير جهودَهُ المخلصة لنشْرِ الإسلام في مكَّة وغيرها ، ويذكرُ شجاعتَه وبطولتَه وجهادَه لأعلاء كلمة ٱلله ، كما يذكرُ له فَتْحَه منطقةً واسعةً من أرضِ الكنانة ، ونشره الإسلام ولغة القرآن في ربوعها النَّضرة » [١] .

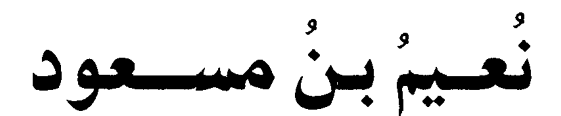
* رضي ٱلله عن الصَّحابي عمير ، وختم لنا بخير ، وأبعد عنا كل ضير ، وجعلنا من أهل الخير .

✍ ✍ ✍

---

(١) « قادة فتح الشَّام ومصر » (ص : ٢٤٧ ـ ٢٤٨) بشيء من التَّصرُّف .





نُعيمُ بنُ مسعود

رضي ٱللهُ عنه

* من الرِّجالِ الأفذاذِ النَّابهين ؛ ممَّن خدمَ سيِّد المرسلين .
* استطاع بذكائِه أنْ يبذرَ الشَّكّ بنفوس جيوش الأحزاب .
* سكنَ المدينةَ المنوَّرة ينعمُ بالإسلام ؛ ولهُ أخبارٌ جميلة .



نُعَيمُ بنُ مسعود
رضي ٱلله عنه

ذكريات جاهليَّة :

* برزت شخصيَّاتٌ كثيرةٌ في غزوة الأحزاب ، وتألَّقت في سماء العظائم تُناصي متْنَ السَّحاب ، ولمعت في سجلِّ الخالدين ، وبقيتْ في ذاكرة المحبِّين ؛ تشعُّ بما قدَّمتْهُ من جلائلِ الأعمال ، ولطائفِ الأقوال ، وفضائل الخصال .

* ومن الرِّجال البارزين ، والأذكياء النَّابهين ، الذين تداركتهم العنايةُ الإلـٰهيَّةُ ، ولاحظتهم عيونُ السَّعادة الأبديَّة ، وجعلتهم خَدَماً لأفضل البريَّة ، وصار لهم العزُّ الممدود ، والخيرُ المعقود : نُعيمُ بنُ مسعود [1] ؛ أبو سَلَمة الغطفانيّ الأشجعيّ ، الذي هَدَاهُ الباري ـ جلَّ شأنه ـ للإسلام زمن الخندق ، وهو الذي خذَّل بين الأحزاب ، وبين بني قريظة ، حتَّىٰ صرف ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ

(١) « الإصابة » (٣ / ٥٣٩) ، و« الاستيعاب » (٣ / ٥٢٨ ـ ٥٢٩) ، و« المغازي » للواقديّ (الفهارس : ٣ / ١٢٤٥) ، و« طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٧٧ ـ ٢٧٩) ، و« أنساب الأشراف » (١ / ٣٤٠ ، و٣٤٥ ، و٥٣٠) ، و« تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٣١) ، و« أسد الغابة » (٤ / ٥٧٢) ترجمة رقم : (٥٢٧٤) ، و« تهذيب التَّهذيب » (١٠ / ٤٦٦) ، و« البداية والنِّهاية » (٧ / ٢٢١ ـ ٢٢٢) ، و« تفسير القرطبيّ » (١٤ / ١٣٥ ـ ١٣٧) ، و« تاريخ الإسلام » للذّهبيّ (عهد الخلفاء الرّاشدين ، ص : ٣٥٨) وغيرها كثير جداً .

المشركين ، بعد أنْ أرسلَ عليهم ريحاً وجنوداً لم يروها ، ورحلُوا عن المدينةِ المنوَّرة خائبين خاسرين لم ينالوا خيراً ، وكفىٰ اللهُ المؤمنين القتال .

* إنَّ سيرةَ هـٰذا الصَّحابيِّ سيرةٌ شائقةٌ ؛ فيها ألوانٌ جميلةٌ ورائقة ، فقد كانت حياتُهُ وذكرياتُهُ الجاهليَّة واضحةَ المعالم ، وإن كانت قاتمةً لبعدها عن نُور ٱلله الذي يدعو إلىٰ المكارم ، وكان قد مضىٰ علىٰ ظهور الإسلام قرابة عشرين سنة ، ولـٰكنَّ نُعيماً لم يجذبه هـٰذا النُّور ؛ علىٰ الرّغم من أنَّه كان يتردَّدُ علىٰ مكَّةَ والمدنيةِ ، ويلتقي البارزين في هاتَيْن المدينتَيْن العظيمتَيْن .

* كان لِنُعيم صلاتٌ مع زعماء قُريظةَ وأعيانهم ، وكان يؤاكلُهم ويشربُ من شرابهم ، ويهدونه ما يستطرفون من تمر المدينة ، وقد أوضح نُعيم ببساطة هـٰذا الأمر فقال متحدِّثاً عن ذكرياته الجاهليَّة : « كنتُ أقدمُ علىٰ كعبِ بنِ أسد ببني قُريظةَ ، فأُقيمُ عندهم الأيَّام ، أشربُ من شرابهم ، وآكلُ من طعامهم ، ثمَّ يحمّلونني تمراً علىٰ ركابي ما كانت ، فأرجعُ به إلىٰ أهلي . . . . »[1] .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٧٧ ـ ٢٧٨) . ومن الجدير بالذِّكر أنَّ المصادرَ وبعضَ كتب السِّيرة أفادت بأنَّ نعيماً بنَ مسعود كان صديقاً ليهود بني النَّضير ، فكان يشربُ الخمر معهم قبل أنْ يسلمَ ، وقد أوردَ هـٰذا الخبر الواقدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « مغازيه » فقال في معرضِ حديثه عن سريَّة القَرَدة فقال : « وقدم المدينةَ نُعيم بنُ مسعود الأشجعيّ ، وهو علىٰ دِيْنِ قومه ، فنزل علىٰ كِنانة بن أبي الحُقَيق في بني النَّضير ، فشرب معهم . . . . » . « المغازي » (١ / ١٩٨) .

ولمَّا كانت غزوةُ بني النَّضير وإجلاؤهم عن المدينة المنوَّرة بعد أنْ حاصرهم رسولُ ٱلله ﷺ خمسة عشر يوماً ، قال نُعيم بنُ مسعود يومها : « فِدًى لهـٰذه الوجوه التي كأنَّها المصابيحُ ظاعنين من يثرب ؛ من لِلْمُجتدي الملهوف ؟ ومَنْ للطَّارق السَّغبان ؟ ومَنْ يسقي العُقار ؟ ومَنْ يُطعم الشَّحم فوق اللحم ؟ مالنا بيثربَ بعدكم مقام » .

فيقولُ أبو عَبْس بن جبر وهو يسمعُ كلامَه : « نَعَمْ ، فالحقْهم حتَّىٰ تدخلَ معهم النَّار » .
=

* وعُرِفَ هٰذا الرَّجلُ بأنَّه داهيةٌ باقعةٌ ، تظهر علىٰ قسماته علامات الذَّكاء ، وكان كثير المداخل والمخارج ، عرفه أهلُ المدينة بهٰذه الصِّفة ، كما عرفوه بأنَّه ذكيٌّ في نَشْرِ الإشاعاتِ ، والأخذِ والرَّدِّ بين النَّاس ، وقد رسَمَتْ أمّنا أمّ المؤمنين عائشة ـ رضي ٱلله عنها ـ بعضَ مَعَالم شخصيَّة نُعيم بأنَّه كان رجلاً نموماً ـ أي : ينمُّ الحديثَ وينقلُهُ ـ ، في حين أنَّ ابن دريد رَحِمَهُ ٱللهُ وافانا بقبسةٍ جميلةٍ عن نُعيمِ بنِ مسعود ـ رضي ٱلله عنه ـ فقال : « ومن أشجع : بنو دُهْمان ، منهم : نُعيم بنُ مسعود ، وكان من أنمِّ النَّاس ، فألقىٰ النَّبيّ ﷺ إليه أنَّه يريدُ أنْ يشخصَ للقتال ، فأفشىٰ السِّرَّ »[1] .

* ومن مكنونِ السِّيرة النَّبويَّة ومغازيها نستخرجُ هٰذه الصُّورة التي نلمحُ من خلال خطوطها سمة الإرجاف عند نُعيمِ بنِ مسعود ، وذلك في غزوة بدر الآخرة التي كانت في شعبان من السَّنةِ الرَّابعةِ للهجرة ؛ إذ نجد أنَّ أبا سفيانَ بنَ حرب قد أرسل إلىٰ المدينة المنوَّرة مَنْ يشيعُ بين المسلمين أنَّ قريشاً قد خرجت إلىٰ بدرٍ بجيشٍ عظيم لم تشهدْ جزيرةُ العرب مثله في العدد والعدَّة والتَّنظيم ، وذلك لتثبيط هِمَمِ المسلمين ، وبث الرّعب في ظهرانيهم ، بحرب نفسيَّة تعتمد علىٰ روح الدِّعاية المزوَّقة بزخرفِ القَول ، وتنميقِ المقال ، والتَّلاعب بالألفاظ ، ودغدغةِ العواطف بالوهم والإيهام ، وما شابه ذلك .

= فقال نُعيم : « ما هٰذا جزاؤهم منكم ، لقد استنصرتموهم علىٰ الخزرج فنصروكم ، ولقد استنصرتم سائرَ العرب فأبوا ذلك عليكم » .

قال أبو عبس ـ رضي ٱلله عنه ـ معلّماً ومصحّحاً لنُعيم ما فاته : « قَطَع الإسلامُ العُهود » . « المغازي » (١ / ٣٧٥) بتصرُّف يسير .

أقول : « وعندما أسلم سيِّدنا نُعيم بنُ مسعود ـ رضي ٱلله عنه ـ عرفَ صحَّة ما قَالَه أبو عبس بن جبر ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وأدرك أنَّ اليهودَ لا يوفون بشيء وأنَّهم غادرون كذّابون » .

(١) « الاشتقاق » (ص : ٢٧٦) .

* وقد استأجر زعيمُ مكّة ؛ وقائدها الحربيُّ الأوّل أبو سفيان رجل المواقف هٰذه ، ورجل الشّائعات نُعيم بن مسعود ليقوم بأداء هٰذه المهمّة الإعلاميّة (١) التي تحتاجُ إلىٰ مهاراتٍ خاصّة ، ولوّح أبو سفيان مُغْرياً نعيماً بأنّه سيقدّم له مكافأةً مغريةً نفيسةً إنْ هو نجحَ في مسعاه بهٰذه المهمّة الخطيرة الحاسمة .

* ترىٰ ما المكافأة التي أعدّها أبو سفيان لِنُعَيم ؟ وكيف استدرجه ليذهبَ إلىٰ المدينةِ المنوّرة ليفتَّ في عضد المسلمين ويخيفَهم ؟ هٰذا ما ستشفُّ عنه السُّطور الآتية ؛ فَلْنرهفِ الأسماعَ لنعرفَ قصّة ذلك .

جائزةٌ سُـفيانيّةٌ لِنُعَيم :

* علىٰ الرّغم من شحّ أبي سفيان وبخله ؛ إلا أنّه وعدَ نُعيماً أن يدفعَ له جائزةً قيّمةً إن هو أرجفَ بين المسلمين .

* كان هٰذا الأمر في شعبان من السّنة الرّابعة للهجرة ، بُعَيد غزوةِ أُحُد ، وقُبَيلَ غزوة الخندق ؛ وذلك أنَّ أبا سفيانَ بنَ حرب أشرف يومَ أُحُدٍ علىٰ جَبَل ، ونادىٰ بأعلىٰ صوتهِ متحدّياً المسلمين : « موعدُ بيننا وبينكم بدر الصَّفراء رأس الحول ، نلتقي فيه فنقْتَتِل » .

---

(١) إنَّ من الأسباب التي تجعلُ أمّةً من الأمم تنهار ، وتضعف في أتونِ الحرب النَّفسيَّة ، هو خوفُها من الموت ، أو الفقر ، أو الهيمنة ، ولذلك كان من أعظم ما تواصىٰ به المسلمون القدرة الدَّائمة علىٰ التَّصدّي ومواجهة الحرب النَّفسيَّة التي تحاول انتزاع الإسلام من نفوسهم ، وإخراجهم من مبادئهم وقيمهم .

لذلك دعا الإسلام أتباعه إلىٰ اليقظة إزاء الحرب النَّفسيَّة التي تعمل علىٰ إثارة الشُّبهات ، وإدخال مفاهيم وتفسيرات غريبة تختلف عن التَّفسيرات الأصيلة . ومن المؤكّد أنَّ الإنسان لا يسمع من عدوّه إلا ما يؤذيه ويهزّ إيمانه ، ويفقده الثقة ، لذا فعلىٰ المسلم أن يكون واعياً عارفاً بكيد الأعداء .

فقال رسولُ ٱللهِ ﷺ لعمر بنِ الخطَّاب ـ رضي ٱلله عنه ـ : « قل : نعم إنْ شاء اللهُ » .

* افترق النَّاسُ علىٰ هـٰذا الأمر ، وأخذ الفريقان يستعدَّان لخوض معركة ثانية في بدر ، غير أنَّ أبا سفيان قائد عام جيش مكَّة تخاذَلَ وجَبُنَ عن اللقاء ، وكره الخروج إلىٰ رسولِ ٱلله ﷺ ، ورغب في أنْ يقيمَ رسول ٱلله ﷺ وأصحابه بالمدينة ولا يوافقون الموعد ، فكان كلُّ مَنْ وردَ عليه مكَّة يُريد المدينة أظهر له بأنَّه يريدُ أنْ يغزوَ محمَّداً في جمعٍ كثيف ، فيقدم القادمُ علىٰ أصحاب رسول ٱلله ﷺ ، فيراهم علىٰ تجهُّز فيقول : « تركتُ أبا سفيان قد جمعَ الجموع ، وسار في العرب ليسيرَ إليكم لموعدكم » . فيكرهُ ذلك المسلمون ويهيِّبُهُم ذلك .

* وتـذكـرُ مصـادر السِّيـرة العطـرة علـىٰ اختـلاف مشـاربهـا فتقـولُ مـا مفـاده : « وقـدم نُعيـمُ بـنُ مسعـود الأشجعـيّ مكَّـة المكـرَّمـة ، فجـاءه أبو سفيان بنُ حرب في رجالٍ من قريش ، فقال : يا نُعيم ! إنِّي وعدتُ محمَّداً وأصحابَه يومَ أُحُدٍ أنْ نلتقيَ نحنُ وهو ببدر الصَّفْراء علىٰ رأس الحول ، وقد جاء ذلك .

فقال نُعيمٌ : ما أقدمني إلاَّ ما رأيتُ محمَّداً وأصحابه يصنعون من إعداد السِّلاح والكُراع ، وقد تجلَّب إليه حلفاء الأوس من بَليٍّ وجُهَيْنَةَ وغيرهم ، فتركْتُ المدينة أمس وهي كالرُّمَّانة .

فقال أبو سفيان : أحقاً ما تقول ؟ !

قال نُعيم مؤكِّداً مقالته : إي واللهِ يا بن حرب .

فَجَزَوا نُعيماً خيراً ووصلُوه وأعانُوه ، ثمَّ قال أبو سفيان لنُعيم : أسمعُكَ تذكرُ ما تذكر ، ما قد أعدّوا ؟ وهـٰذا عامُ جَدْب ! والأرض مثل ظَهر التُّرس ، ليس فيها لبعير شيء ، وإنَّما يصلحُنا عام خِصْب واسع ترعىٰ فيه الأنعامُ والخيلُ ونشربُ اللبن ، وأنا أكرهُ أنْ يخرجَ محمَّدٌ وأصحابُهُ ولا أخرجَ فيجترئون

علينا ، ويكون الخلفُ من قِبَلهم أحبّ إليّ ، ونجعل لك عشرين ناقة ، وتوضع لك علىٰ يَدَي سهيل بن عمرو ، ويضمنُها لك .

قال نُعيم ـ وقد سَرَّه ما قال أبو سفيان ـ : رضيتُ .

وكان سهيلُ بنُ عمرو صديقاً لِنُعيم ، فجاء سُهيلاً فقال : يا أبا يزيد ! تضمنُ لي عشرين ناقة علىٰ أنْ أقدمَ المدينة ، فأخذّلَ أصحاب محمّد ؟

قال سهيلٌ في سرور بالغ : نعم يا أبا سَلَمة .

فقال نُعيم : فإنّي خارجٌ إذاً يا أبا يزيد .

فخرج نُعيمٌ علىٰ بعير حملُوه عليه ، وأسرع السَّير ، فقدم وقد حَلَقَ رأسه معتمراً ؛ فوجَدَ أصحابَ رسولِ ٱلله ﷺ يتجهَّزون .

فقال أصحابُ رسول ٱلله ﷺ : من أين يا نُعيم ؟

قال : خرجتُ معتمراً إلىٰ مكَّة .

فقالوا : لك عِلْمٌ بأبي سفيان ؟

قال نُعيمٌ : أَجَل ، تركتُ أبا سفيان قد جمعَ الجموع ، وأجلب معه العرب ، فهو جاءٍ فيما لا قِبَل لكم به ، فأقيموا ولا تخرجوا ، فإنَّهم قد أتوكم في داركم وقراركم ، فلن يُفلتَ منكم إلا الشَّريد ، وقُتِلَتْ سراتكم ، وأصاب محمَّداً في نفسه ما أصابه من الجراح ، فتريدون أنْ تخرجوا إليهم فتلقوهم في موضع من الأرض ؟ بئس الرّأي رأيتم لأنفسكم ، والله ما أرىٰ أنْ يُفلت منكم أَحَدٌ .

وجعل نُعيمٌ يطوفُ بهٰذا القول في أصحابِ رسولِ ٱلله ﷺ حتَّىٰ رغَّبهم ، وكرَّه إليهم الخروج ، حتَّىٰ نطقوا بتصديق قول نُعيم ، أو مَنْ نطق منهم .

واستبشرَ بذلك المنافقون واليهود وقالوا : محمَّدٌ لا يُفلتُ من هٰذا الجمع ! واحتمل الشَّيطان أولياءه من النَّاس لخوف المسلمين ، حتَّىٰ بلغ رسول ٱلله ﷺ ذلك ، وتظاهرت به الأخبارُ عنده ، حتَّىٰ خاف رسولُ ٱلله ﷺ

ألا يخرجَ معه أحدٌ . فجاءَه أبو بكر وعمر ـ رضي ٱلله عنهما ـ ، وقد سمعَا ما سمعَا ، فقالا : يا رسول ٱلله ! إنَّ اللهَ مُظهرٌ دينَه ومعزٌّ نبيَّه ، وقد وعدنا القومَ موعداً ونحنُ لا نحبُّ أنْ نتخلَّفَ عن القوم ، فيرون أنَّ هـٰذا جُبْنٌ منَّا عنهم ، فَسِرْ لموعدهم ، فوالله ِإنَّ في ذلك لَخِيرة !

فَسُرَّ رسولُ ٱلله ﷺ بذلك ثمَّ قال : « والذي نفسي بيده ، لأخرجنَّ وإنْ لم يخرجْ معي أحد » .

فلمَّا تكلَّمَ رسولُ ٱلله ﷺ ، تكلَّم بما بصَّر ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ المسلمون ، وأذهبَ ما كان رعَّبهم الشَّيطان ، وخرج المسلمون بتجارات لهم إلىٰ بدر ، وكانوا حوالي ألف وخمس مئة مقاتل ، تحرك بهم الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ نحو بدر ، يحملُ لواءَ الجيش سيِّدنا عليُّ بنُ أبي طالب ـ رضوان ٱلله عليه ـ ، وأقام المسلمون في بدرٍ ثمانية أيام حتَّىٰ تفرَّق أهلُ الموسم من ذلك المكان ـ وكان بدر الصَّفراء مجمعاً يجتمع فيه العرب ، وسُوقاً تُقام لمدَّة ثمانية أيام ، ثم تفرَّق النَّاس إلىٰ بلادهم ـ ولـٰكنَّ أبا سفيان ومَنِ التفَّ حولَه خافوا ملاقاة الجيش النَّبويّ ، وَجَبُنُوا عن الاصطدام بهم علىٰ الرَّغم من أنَّ قواتِهم كانت أكثر من قوَّات المسلمين في العدد والعدَّة ، وكان أبو سفيان قد خرجَ بِمَنْ معه وسار بضعة أميال ، ثم وقف خطيباً في جيشه معلِّلاً عدم ملاقاة المسلمين وشارحاً الأسباب المباشرة للعودة فقال : يا معشرَ قريش ! ارجعوا ، إنَّه لا يصلحنا إلا عام خِصْب غيداق ، نرعىٰ فيه الشَّجر ، ونشرب فيه اللبن ، وإنَّ عامكم هـٰذا عام جَدْب ، وإنِّي راجعٌ فارجعوا .

وأطاع الجيشُ الأوامر السُّفيانيّة المفتعلة ، وعاد أدراجه إلىٰ مكَّة مفضّلاً عار العودة علىٰ عار الهزيمة السَّاحقة التي يتوقّع نزولها به لو أنَّه أقدم علىٰ مناجزة الجيش المسلم في بدر ، كما أنَّه تحمَّل سخرية أهل مكَّة الذين سمّوا ذلك الجيش : جيش السُّويق ، وقالوا : خرجُوا يشربون السّويق . وأتىٰ صفوانُ بنُ أميَّة الجمحيّ أبا سفيان وقال له بشيء من التَّعنيف والعتاب : يا أبا سفيان ! قد والله ِنهيتك يومئذ أنْ تعد القوم ، وقد اجترؤوا

علينا ورأوا أن قد خلفناهم ، وإنّما خلّفنا الضَّعفُ عنهم .

وأنزلَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ قوله : ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران : ١٧٣] ، وقال كعبُ بنُ مالك الأنصاريّ ـ رضي ٱلله عنه ـ قصيدةً يذكرُ فيها ذلك ومطلعُها :

وعَدْنا أبا سفيانَ بدراً فَلَمْ نجدْ — لموعدِهِ صدقاً وما كان وافيا

فأقسمُ لو وافيتَنا فَلَقيتَنا — رجعتَ ذميماً وافتقدتَ المواليا »[1]

* وفي هٰذا المقام الجميل صاغ « أحمد محرَّم » قصيدةً رسمَ بها خطوط أحداثِ هٰذه الواقعة ، ودور نُعيم بن مسعود وإرجافه بالمسلمين ، فكان ممَّا قال :

إليكَ أبا سُفيان لا الوعدُ صادقٌ — ولا أنتَ ذو جِدٍّ ولا القومُ أبطالُ

أتاكَ ابنُ مسعود بأنباءِ يثربٍ — فما تنقضي منكم همومٌ وأوجالُ

لكم عند بَدْر في لواءِ محمَّدٍ — خطوبٌ تراميٰ بالنُّفوس وأهوالُ

دعِ المرء يذهبْ بالأباطيل مُرجفاً — وَعِدْهُ جزاء الإفْكِ لا حبَّذا المالُ

مضىٰ يصفُ الكُفَّار وصْفَ مهوِّلٍ — يقولُ جموعٌ ما تُعَدُّ وأرسَالُ

فما وجفَتْ تلك القلوبُ ولم تكنْ — كأخرىٰ لها من هَدَّةِ الرّعب زِلْزالُ

تداعَوْا فقالوا حسْبُنا اللهُ إنَّه — لِمَا شاء من نَصْر الهُداةِ لفعَّالُ

وأرسلها الصِّدِّيقُ ديمةَ حكمةٍ — لها من فمِ الفاروقِ سحٌّ وتَهطَالُ

محمَّدُ إنَّ اللهَ ناصرُ دينه — ومظهره والحقّ أقطعُ فصَّالُ

---

(١) انظر : « سبل الهدىٰ والرَّشاد » (٤ / ٤٧٨ ـ ٤٨١) ، و« السّيرة الحلبيّة » (٢ / ٥٧٩ ـ ٥٨١) ، و« طبقات ابن سعد » (٢ / ٥٩ ـ ٦٠) مع الجمع والتّصرّف ، وانظر : « المغازي » (١ / ٣٨٥ ـ ٣٨٩) ، و« تفسير القرطبيّ » (٤ / ٧٤) ، و« أنساب الأشراف » (١ / ٣٤٠) وغيرها كثير . والمراد بقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿ٱلنَّاسُ﴾ الأول واحد ، وهو نعيم بن مسعود ، ومن ﴿ٱلنَّاسَ﴾ الثَّاني أهل مكة . وٱلله تعالىٰ أعلم .

لهم موعدٌ لا بدَّ منه وموردٌ　　من الحتفِ تغشاه نفوسٌ وآجالُ
وخفَّ أبو سفيان يكذبُ نفسه　　ويشهدها من خيفةٍ كيف يحتالُ
أيا قومَنا إنَّا نرىٰ العام مُجدباً　　وشر عتاد الحرب جَدْبٌ وإمْحالُ
تقدَّمَ جيش ٱلله وارتدَّ جيشهم　　وما كان فيه أكْفاء تُهاب وأمثالُ
هو النُّورُ نورُ اللهِ يملأُ أرضَه　　فتلقىٰ الهدىٰ فيه عصورٌ وأجيالُ [1]

سُبْحان مُقَلِّب القُلوب :

* في أيَّام غزوة الأحزاب أراد اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ الخيرَ لِنُعيم الذي أمضىٰ شطراً من عمره ، وهو بعيدٌ عن منبع النُّور ، ويَنْبوع الصَّفاء والسَّناء ، فقلَّب العزيزُ الغفَّار قلْبَه ، وجعلَه من السُّعداء ؛ إذ انضوىٰ تحت لواء سيِّد الأنبياء .

* كان فجراً باسماً لِنُعيم يوم أنْ أسلم ؛ وغدا من رجالِ عصر النُّبوَّة الأخيار ، كان يوماً جميلاً شعرَ فيه نُعيمٌ بأنَّه رجلٌ آخر عندما دخل الإسلامُ قلبَه ، ونَوَّرَ لُبَّه ، ومنذ أنْ أسلمَ سخَّر مواهبَهُ وألمعيَّتَهُ وذكاءَهُ ودهاءَهُ لخدمةِ دينِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، وخدمةِ رسول ٱلله ﷺ ، وخدمةِ المسلمين ، واستطاع بدهائه أنْ يشتِّتَ قلوبَ الأحزاب ، ويفرِّقَ كلمتهم ؛ إذ بذرَ بمهارة عجيبة وكلام متماسك بذورَ الشَّكِّ والرّيب في نفوس قادة الأحزاب ، واليهود الأخابث بعضهم ضدّ بعض ، حتَّىٰ تلاشتِ الثِّقة بين هٰؤلاء الزُّعماء والقادة ، فتصدَّعَتْ جبَهاتُهم ، وتفتَّتتْ وحدتهم ، ثم أرسل ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليهم جنوده فتفرَّقُوا ورجعوا من حيث أتوا ، لم ينالوا خيراً وكفىٰ اللهُ المؤمنين القتال .

* إنَّنا نعرفُ الخطوطَ العريضةَ العامة لغزوة الأحزاب ، ونعرفُ أيضاً أنَّ سيِّدنا نُعيمَ بنَ مسعود الغطفانيّ ، من قبيلة غطفان النَّجديَّة التي يمثِّلُ رجالُها أكبرَ الأجنحةِ في جيش الأحزاب الذي جاء وحاصر المدينة المنوَّرة .

---

(١) « ديوان مجد الإسلام » لأحمد محرَّم (ص : ١٧٤ ـ ١٧٧) بانتقاء . والقصيدة تعدّ (٣١ بيتاً) .

* ولقد عرفنا في السُّطور والفِقْرات السَّابقة أنَّ نعيماً هـٰذا هو واحدٌ من وجوه القوم ، وأعيان الشَّخصيَّات البارزة المشهورة في المحيط العربيّ واليهوديّ ، وكان كذلك من كبار المستشارين في جيش الأحزاب الذي جمعهم الباطلُ علىٰ الرّغم من اختلافِ قلوبهم وأديانهم وبلدانهم .

* وفي الليلة الأخيرة من ليالي الأحزاب الباردة التي كانت تزمجرُ فيها الرِّياحُ ، فتحَ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ قَلْبَ نُعيم للإسلام ؛ إذ تفكَّر في أمره ومآله ، وعاينَ خُبْثَ اليهود ، فمالَتْ نفسُه إلىٰ الهدىٰ ودين الحقِّ ، فأسلمَ وهو في معسكر الأحزاب لم يعلمْ به أحدٌ إلا العليم الخبير .

* ولمَّا أنْ أشرقَ قلبُه بنور ٱلله تعالىٰ ، وعانقت روحُه نسمات الإيمان ، انسلَّ من معسكر الأحزاب أمام الخندق ، واتَّجه تحت جنح الظَّلام وغيهب الغسق نحو جيش النَّبيّ ﷺ ؛ حيث كان مع رجالِهِ وأصحابهِ وراء الخندق ؛ يجاهدون جموعَ الأحزاب والمشركين الذين جاؤوا من كلِّ حدب ينسلون .

* التقىٰ نُعيمٌ رسولَ ٱلله ﷺ فألفاه يُصلِّي ، فلمَّا رآه ﷺ ، جلس ، ثمَّ قال : « ما جاء بك يا نُعيم ؟ » ونزلت كلمة « يا نُعيم » علىٰ قلب نُعيم برداً وسلاماً ، وأحسَّ بالطُّمأنينةِ تسري في كيانه ، وتدغدغُ قلبه ، وتلمسُ روحه بحنان ، فقال والأملُ يملأ عينيه : « إنِّي جئتُ أصدِّقك ، وأشهدُ أنَّ ما جئتَ به حقّ ، فَمُرْني بما شئتَ يا رسولَ ٱلله » .

قال : « ما استطعتَ أنْ تخذّل عنَّا النَّاس فخذِّلْ » ، وفي رواية : « أنتَ رجلٌ واحدٌ ، فخذّلْ عنَّا إن استطعتَ ، فإنَّ الحربَ خدعةٌ » .

فقال نُعيمٌ : « ولـٰكنْ يا رسولَ ٱلله ! أنّىٰ أقول ؟ » ـ أي : ما يقتضيه الحال وإن كان خلافَ الواقع ـ .

قال رسولُ ٱلله ﷺ : « قُلْ ما بدا لك فأنتَ في حلّ » (١) .

---

(١) عندما جاء نُعيم رسول ٱلله ﷺ مسلماً يكتمُ إيمانه ، كانت الأمورُ قد بلغَتْ بالمسلمين=

* وبعد أن أعطىٰ الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ نُعيماً ـ رضي ٱلله عنه ـ حريّةَ القول والتَّلاعب بالكلمات والألفاظ ، ليعملَ قَدْرَ طاقته أيّ أمْر من شأنه أنْ يحدثَ الفرقة والانقسام والتَّخذيل والتَّشويش داخل صفوف الأحزاب وكتائبهم ، قام مسرعاً لتنفيذ الأوامر النَّبويَّة ، ونجح بمهمّته نجاحاً باهراً ، ولٰكن قبل أنْ نعيشَ مع خطَّة نُعيم الباهرة ، سنعيش مع هٰذه التَّغريدة الآسرة ، التي تسفرُ عن معانٍ ساحرة ، وترسمُ قصَّة إسلام نُعيم بين يدي خير المرسلين ﷺ :

هٰـــذا ابـــنُ مسعـــود نُعيـــمٌ مـــن صفـــوف المشـــركيـــن

هـــو مـــن بنـــي غطفـــانَ أكبـــرِ قـــوَّةٍ فـــي المُعتـــديـــن

قـــد شـــاء ربُّـــكَ أنْ يكـــونَ مـــن الجنـــود المخلصيـــن

وعلـــىٰ يـــديـــه يتـــمُّ نصـــرٌ للـــرِّجـــال المسلميـــن

= المدىٰ من الشَّدائد والمحن والتَّأزّمات ، وكان رسولُ ٱلله ﷺ يترقَّبُ الفرجَ ويستشرفه من آفاقِ العزَّةِ الإلٰهيَّة ، فأسرعَ إلىٰ توجيهِ نُعيم مثيراً في نفسه مشاعرَ الصِّدق والإخلاص في أن يعملَ عملاً يسجّله له تاريخ الجهاد الإسلاميّ ، ويرفعُ به عن المجتمع المسلم آصار الحصار والشَّدائد ، ويدخل علىٰ قلب رسول ٱلله ﷺ في توجيهه : « إنَّما أنتَ رجلٌ واحدٌ فينا » ؛ أي : فماذا تستطيع أنْ تفعلَ وحدك في تراكم المعضلات والبلايا التي أحاطتْ بكتائبِ الجهاد .

وهٰذا في الحقيقة إغراءٌ يحرِّكُ الحميَّة في نفس نُعيم ، وقد أشار إليه رسولُ ٱلله ﷺ إلىٰ ما يستطيع أنْ يعملَه من عملٍ قد يكون انفراده به مساعداً علىٰ نجاحه فيه ، فقال له : « خذِّلْ عنَّا ما استطعت » . وحمل نُعيم هٰذا التَّوجيه القياديّ من القائدِ الأعظمِ رسولِ ٱلله ﷺ ، ومضىٰ به إلىٰ الأحزابِ يكيدهُم ، ويمكرُ بهم ، ويخادعُهم حتَّىٰ أنجزَ فيهم ما أراده رسولُ ٱلله ﷺ ، فألقىٰ بينهم بذورَ الشَّكِّ ، وجعل بأسهم بينهم ، مع ما أنزل ٱلله تعالىٰ من آيات غيبيّة معجزة لنبيِّه ﷺ ، من الرِّيح التي أكْفأَتْ قدورهم ، وهدمَتْ بنيانهم ، مع شدّة البرد التي أهرأتْ أجسامهم بصقيعها ، فترحّلوا مدحورين . « محمد رسول ٱلله » (٤ / ١٨٨ ـ ١٨٩) بتصرُّف .

قــد جــاء للهــادي بليــلٍ فــي خطــىٰ المُتَسلِّليــن
نــاداهُ يــا خيــرَ الــورىٰ يــا خــاتمــاً للمــرسليــن
إنِّــي أتيتُــك مسلمــاً أبغــي طــريــقَ المهتــديــن
أسلمــتُ للمــولــىٰ وجئتُــك عــن عيــونِ النَّــاظــريــن
إنِّــي مــن القــومِ الــذيــن أتــوا إليكــم هــاجميــن
لــم يعلمــوا قــومــي بــإســلامــي فَهُــمْ فــي الغــافليــن
مُــرْنــي بــأمــرٍ مــا تجــدنــي فــي عــدادِ الطَّــائعيــن
قــال الــرّســولُ لــه فــإنَّــا لا نــريــدُ مقــاتليــن
لٰكــنْ نُــريــدُك أنْ تُخــذّل هٰــؤلاءِ الظَّــالميــن
فــإن استطعــتَ خــديعــةً للقــوم كــنْ فــي الخــادعيــن
إنَّ الخــديعــةَ خيــرُ أسلحــة الحــروب عــن يقيــن

كيف خادعَ نُعيمٌ القُرظيين ؟

* كان سيِّدنا نُعيم بن مسعود ـ رضي ٱلله عنه ـ من رجال العرب المعروفين والمألوفين لدىٰ يهود بني قريظة ، فقد كان ينادمُهم في الجاهليَّة ، ويصادقُ بعضَ شخصيَّاتهم المرموقة ؛ لذلك لمَّا وصل نُعيمٌ إلىٰ حصونهم تلقَّوْهُ بالتَّرحيب دون أن يعلموا بإسلامه ، وأوسعوا له صدور مجالسهم ظنّاً منهم أنَّهم يبالغون في إكرامه ، وما علموا أنَّهم كانوا يغزلون حبال الخيانة التي سيطوّقُون بها ، والتي سيُقْرنون بها ، وهم يقادون إلىٰ مصارعهم جزاء غدرهم بٱلله ورسوله .

* أخذ نُعيمٌ مقعده عند كبرائهم ، ولمَّا استقرَّ بهم المقام بدأ في ترتيب كلامه ، ونَسْج نظامه ؛ ليخدعَ هٰؤلاء الأخابث الغادرين ، فقال لهم في أسلوب وُدّي مُحبّب ؛ وبهمسات متموّجة النَّبرات : « يا بني قُريظة ! قد عرفتم ودّي إياكم ، وخاصة ما بيني وبينكم » . ولم ينكر القرظيّون مقالة نُعيم ، بل إنَّهم أيدوه قائلين : « صدقْتَ أبا سَلَمة ، لسْتَ عندنا بمتَّهم » .

قال : « فهل أنتم تكتمون عنِّي ما أقول لكم ؟ » .

قالوا بصوت واحد : « نفعل ، قلْ ما تحبُّ ، فأنت ذو مودّة قديمة » .

* وهـٰهنا عرف نُعيم من أين تُؤكلُ الكتفُ ، فجميع بني قريظة يعرفونه ويثقون به ثقةً كبيرة ، وقد رآهم نُعيم يُلْقُون أسماعَهم إليه ، ويرهفون حواسهم نحوه ، ليسمعوا ما يريد أنْ يقولَه لهم ، وعندها اطمأنَّ نُعيمٌ إلىٰ أنَّه مَلَكَ قلوبهم ، فقال لهم بلسان النَّاصحين كأنَّه واحدٌ منهم يحرصُ علىٰ مصالحهم : « إنَّ قريشاً ، وغطفان ليسوا كأنتم ، البلدُ بلدُكم ، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم ، لا تقدرون علىٰ أنْ تتحوّلوا منه إلىٰ غيره ، وإنَّ قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمَّد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإنْ رأوا نَهْزَةً ـ فرصةً ـ أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم ، وخلّوا بينكم وبين الرَّجل ببلدكم » .

* وأخذ سيِّدنا نُعيم يفتلُ في الذّروة والغارب لهـٰؤلاء الذين تحلّقوا حوله ، ثمَّ استمرَّ يحشو نفوسَهم بالخوف والشَّكِّ ويقول لهم مُلفتاً نظرهم إلىٰ أمر مهمّ غاب عنهم : « . . . وأنتم لا طاقة لكم بمحمَّد إنْ خلا بكم ، وصرتم وحدكم في الميدان » .

* ثمَّ إنَّ نعيماً لمَّا رأىٰ الرّعب قد استولىٰ علىٰ القرظيّين ؛ ودوّخهم وجعلهم مضطربين ، ضرب الضَّربةَ القاضيةَ فقال : « يا هـٰؤلاء ! أرىٰ ألا تقاتلوا مع القوم ـ الأحزاب ـ حتَّىٰ تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ـ سبعين رجلاً ـ يكونون بأيديكم ثقةً لكم علىٰ أنْ تقاتلوا معهم محمَّداً حتَّىٰ يناجزوه » .

* كان القرظيُّون مشدودين بحواسهم جميعها إلىٰ ما يقوله صديقُهم ونديمُهم نُعيمُ بنُ مسعود ، لذلك وقع قوله من نفوسهم موقعَ القبول ، وتزعزعت ثقتُهم بمن حولهم ، وانتابتهم موجاتٌ من الخوف والفزع ، ورأوا الضَّمان في كلام نُعيم ، وصدَّقُوه ، ومن ثمَّ شكروا له مَسْعَاهُ ، وعرفوا نصحه لهم وقالوا له : « أشرتَ بالرَّأي علينا ، والنُّصح لنا ، فأنت صديقٌ ودود » .

* وقبل أن ننتقل مع نُعيم بنِ مسعود إلىٰ قريش ليتمّ خطته معهم ، وزلزلة

عقولهم ونفوسهم ، تعالوا نستجمّ في روض هٰذه التَّغريدة المنعشة الفينانة التي تُجملُ ما فصَّلْنَاهُ آنفاً من قصَّة نُعيم مع القرظيين :

جـــاء ابـــنُ مسعـــود يهـــودَ بنـــي قُـــريظـــةَ يَسْتَبيـــن
قـــد جـــاءهـــم سِـــرّاً بعيـــداً عـــن عيـــونِ الآخـــريـــن
مِـــنْ قـــولـــهِ قـــد جئتكـــم بـــالسِّـــرِّ والخبـــر اليقيـــن
لٰكـــنْ عليكـــم أنْ تكـــونـــوا للمقـــالـــةِ كـــاتميـــن
قـــد تعلمـــونَ صَـــداقتـــي قـــالـــوا فَلَسْنـــا منكـــريـــن
أنـــتَ الـــذي صَـــدَقَ المـــودَّةَ مـــن خيـــار المُخلصيـــن
قـــال ابـــنُ مسعـــودٍ لهـــم أنتـــم علـــىٰ خطـــأ مُبيـــن
فَقُـــريـــشُ مَـــعْ غطفـــانَ جـــاؤوا مـــن بعيـــد هـــاجميـــن
جـــاؤوا لِقَتْـــلِ مُحمَّـــد ولقَتْـــلِ كـــلّ المسلميـــن
عـــاهـــدتمـــوهـــم أنْ تكـــونـــوا فـــي الصُّفـــوف مُقَـــاتليـــن
هٰـــذا هـــو الخطـــأ الـــذي لستـــم لـــه مُتَبيِّنيـــن
أنتـــم هُنـــا فـــي أرضكـــم لَسْتُـــم كمثْـــلِ القَـــادميـــن
هُـــمْ إنْ أصـــابـــوا غِـــرَّةً فـــازوا وعـــادوا غـــانميـــن
أو كـــانـــتِ الأخـــرىٰ تَـــولَّـــوْا فـــي البَـــراري هـــاربيـــن
مـــن ثـــمَّ تلقَـــوْن المصيـــرَ لِنَقْضكـــم كمعـــاهـــديـــن
فمحمَّـــدٌ ورجـــالـــه لـــن يتـــركـــوكـــم ســـالميـــن

* انطلىٰ دهاءُ نُعيم وحيلتُه علىٰ القرظيّين ، ولمَّا تيقَّنَ من نجاحه الباهر بين ظهرانيهم ، وفوزه عليهم ، سارع لإتمام مهمته من قبل أنْ يسحبَ الليلُ أذيالَه ، ومن قبل أن ترشِف شمسُ الضُّحىٰ ريقَ الغوادي من ثغور الأقاحي . ترىٰ إلىٰ أين ذهب نُعيم ؟ وماذا فعل ؟ تعالوا نصاحبه في مهمّته . . . . .

مع قائدِ الأحزاب :

* تـرك سيِّـدنـا نُعيـمٌ جمـوعَ القـرظيّيـن وهـم مضطـربـون لا يـدرون

ما يفعلون ، ثم توجَّه نحو معسكر الأحزاب والليلُ معتكرٌ قد احلولك ظلامُهُ ، وغارت نجومُه ، وزمجرتْ رياحه ، واشتدَّتْ برودتُه ؛ ولمَّا أنْ وصلَ إلىٰ خيمةِ أبي سفيان ؛ طلب أنْ يجتمعَ به مع فريق من كبراء القوم وقادتهم ، وذكر أنَّه جاء لأمر جَلَلٍ متعلّق بِسيادتهم !! .

* عقد أبو سفيان مجلساً جمع فيه عدداً ممّن لهم الحلُّ والعقد في هٰذه الحرب ، وهنا انبرىٰ سيِّدنا نُعيمٌ ليخبرهم بأنَّه ما جاء في هٰذا الوقت الحرجِ إلا لمصلحتهم ، ولما يتعلَّقُ بسلامتهم وسلامة جيوشهم ، وأنَّ محبَّتَه لهم ، وحرصه علىٰ سلامتهم ؛ تجعله مخبراً إيَّاهم بأمرٍ في غاية الأهميَّة والخطر ، وقد عرفه واطَّلع عليه من قِبَلِ يهود بني قريظة الذين يبغونهم الغوائل .

* اشتدَّ وجيبُ القلُوب القرشيَّة ؛ وفي مقدمتها قلب أبي سفيان الذي جَذَبَهُ حديثُ نُعيمٍ عندما خاطبه ومَنْ معه قائلاً : « يا معشرَ قريش ! قد عرفتُم ودّي لكم وإخلاصي لحربكم وعداوتي لمحمَّد » .

* أجاب القومُ أجمعون بأنَّهم مصدّقوه فيما يقولُ ، لم ينكروا عليه شيئاً ، كانوا يظنّون كلَّ الظَّنِّ أنَّه لا يزالُ علىٰ دينهم القديم ، بل إنَّه كان من أعيان الأحزاب ووجهائهم الذين شاركوا في الحصار الأليم ، ومناوشة من يدعون إلىٰ الصِّراط المستقيم .

* ولمَّا استوثق نعيم من أنَّه قبضَ علىٰ أَزِمَّةِ قلوب القرشيين ، وأنَّ عقولَهم قد أصبحت مهيَّأة لسماع عباراته وآرائه قال لهم : « إنَّه قد بلغني أمرٌ أقضَّ مضجعي ، وأرَّق مسمعي ، وقد رأيتُ عليَّ حقاً أنْ أبلغكموه ؛ إذ إنِّني لكمُ ناصحٌ أمينٌ ، ولٰكنْ أرجو أنْ تكتموا عنِّي » .

قالوا : « نفعلْ يا أبا سَلَمة ، فَقُلْ » .

فقال لهم : « تعلمون أنَّ معشر يهود قد ندموا علىٰ ما صنعوا فيما بينهم وبين محمَّد ـ أي : ما قاموا به من نقض العهد ـ وقد أرسلوا إليه فقالوا : إنَّا قد ندمنا علىٰ ما فعلنا ، فهل يرضيك أنْ نأخذَ لك من القبيلتَيْن : من قريش

وغطفان رجالاً من أشرافهم ، فنعطيكهم ، فتضربَ أعناقهم ، ثمَّ نكون معك علىٰ مَنْ بقي منهم حتَّىٰ تستأصلهم ، فأرسلَ إليهم محمَّد : أنْ نَعَم » .

* تأكَّد نُعيمٌ أنَّه قد استحوذَ علىٰ عقول قريش ؛ وانصاعوا لما سمعوا منه ، فرأىٰ أنَّ موعد وضع النُّقاط علىٰ الحروف قد حان ، قال لهم بلسان النُّصح : « فإنْ بَعَثَتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم ، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً ، واحذروهم ؛ لأنَّهم قوم غَدْرٍ وخيانة ، ولا أمانَ لهم » .

* ونتوقف الآن مع أنداء هـٰذه الهمسَات الأدبيَّة التي تزيِّن رقائقَ السُّطور ، وتزيدُ من نشاطنا ونحنُ نتابع هـٰذه الرِّحلة بغاية السُّرور ، مع نُعيم بن مسعود ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وهو يحذِّر قريشاً من اليهود أصحاب الشّرور والغرور :

جاء ابنُ مسعود قُريشاً في ثياب النَّاصحين
أوحىٰ إليهم هامساً كونوا لقولي كاتمين
إنِّي علىٰ ودّي لكم وفراق دين الصَّابئين
ولقد أتيتُ مُحذِّراً غدر اليهود الخائنين
قد أرسلوا لمحمَّدٍ قالوا أتينا نادمين
ولسوف نأتي بالرِّجال من الخصوم مُقَيَّدين
هم من قريش عشرةٌ ومثيلهم من آخرين
لا تُسلمُوا لرجالكم لا تأْمنوا للفاسقين

نُعيمٌ يخدعُ غَطَفان :

* لله درُّ مَنْ قال :

يا نافِثَ السِّحْرِ من فِيْهِ بمعجزةٍ عَقَدْتَ أَلْسُنَ أهْلَ البدو والحضَر

* خرجَ سيِّدنا نُعيمٌ ـ رضي ٱلله عنه ـ من عند قريش ، وقد ترك نفوسهم أسيرةَ سِحْر كلامِهِ الذي عقَدَ من خلالهِ علىٰ عقولهم ، وتركهم نهباً لنوازعَ شتَّىٰ

من شكٍّ وريبةٍ وحقدٍ علىٰ حلفائهم القرظيّين ، تركهم وهم يحسبون أنَّ نُعيماً قد محضهم الودّ ، وأسدىٰ إليهم نُصْحَه المغلَّف بالذّكاء والفطنة والدَّهاء ، ومن العجيب أنّهم ـ علىٰ الرّغم من عدائهم للحقِّ ـ قبلوا نُصْحَ نُعيم من دون أن يساورهم شكّ في كلمةٍ واحدة ممّا قاله لهم ؛ ذلك لأنَّهم كانوا يعتبرونه أوفىٰ الأصدقاء ، وأخلص الأوفياء ، وكذلك اعتبره القرظيُّون من قَبْلُ صديقهم الذي أصفاهم الودّ والحنان ، وقبلوا ما نَصَحَ لهم وهم مطمئنون له كلَّ الاطمئنان .

* ودَّع سيِّدنا نُعيمٌ القرشيين ليواصلَ مسيرته الخالدة التي وعتْها أذن السِّيرة النَّبويَّة ، ودوَّنَتْها له بأحرفٍ من سناء ونور ، وذكرت بأنَّه بذكائه خدعَ العربَ واليهود معاً .

* سار نُعيمٌ تحت أستار الظَّلام الذي يلفُّ الكون ، توجَّه إلىٰ مضارب قومه الغطفانيين ، وكانوا مركزَ القوَّة والثِّقل في جيش الأحزاب الغازي الغاشم ، وكانت غطفان ثالثة الضَّلال في حلْفِ الشَّيطان ؛ المؤلَّف من مشركي قريش ويهود بني قريظة وغطفان .

* وفي وسط معسكر الغطفانيين ، رغب أنْ يجتمعَ بعدد من زعمائهم وقادتهم من مثل : عُيينةَ بن حصن الفزاريّ ، وطُليحة بن خويلد الأسديّ ، والحارث بن عوف المريّ ؛ ولمَّا اجتمع بهم والْتَقَاهُم ، خاطبَهم في ألفاظ رواقص تداعبُ مخيلتهم فتجعلهم مشدوهين ينتظرون ما يحدّثهم به فقال : « يا معشرَ غطفان ! إنكم أَهْلي وأَصْلي وعشيرتي ، وأحبّ النَّاس إليَّ ، ولا أراكم تتهموني ، أو تشكّون في صدقي وإخلاصي ، وإنَّني لا أدخر جهداً في جَلْب أي خير لقبيلتي غطفان ، ودفع كلّ ضرّ وشرّ عنها بما أوتيتُ من قوّة وحيلة » .

قالوا له : « صدقْتَ يا أبا سَلَمة ، ما أنتَ عندنا بمتّهم ، ولم نجربْ عليك خيانةً لقومك مطلقاً » .

* وحينما اختبر نُعيم أنَّ قومه قد وثقوا به ، أبلغهم أنَّ لديه أخباراً في

غاية الخطورة تتعلَّق بسلامتهم ومستقبلهم في هٰذه الحرب ، وقال : « هل تكتمون عنِّي ما أقوله لكم ؛ لأنَّ الكتمان في هٰذا الأمرِ المهمّ ، هو سبيلُ النَّجاح والنَّجاة ؟ » .

قالوا : « نفعل يا أبا سَلَمة ، فما الأمر ؟ » .

* أخذ نُعيمٌ يسردُ لهم خيانةَ اليهودِ لمحمَّد ﷺ ، نقضهم العهد الذي بينه وبينهم ، ليكونوا مع قريش وغطفان عليه ، ثمَّ ندمهم علىٰ هٰذا النَّقض ، واتّفاقهم مع محمَّد ﷺ علىٰ أخذ رهائن من خيرةِ رجالِ قريش وغطفان ، ليقدموهم إلىٰ محمَّد ﷺ استرضاء له ، وذلك كي يتجاوزَ ويصفحَ عن نقضهم العهد .

* كان نُعيمٌ يُحْكِمُ كلامه وأفكاره بألْمعيَّةٍ رقيقة ، وذكاءٍ وقّادٍ ، استقطب به عقول القوم وأحلامهم ، ثمَّ قال لهم : « يا قوم ! لا تأمنوا لليهود ، فهم أهلُ غَدْرٍ وخيانةٍ ، ولا ترسلوا رجالكم إليهم ، وإلا فسوف تندمون ويطولُ ندمكم » .

* شكروا لِنُعيم فكرته الأمنيَّة الأمينة ، وأكَّدوا له أنَّهم لن يسلموا لقريظةَ رهينة ، وبهٰذا استطاع نُعيم أنْ يخدعَ ثالوث الضَّلال بقصَّةٍ اخترعها ، ونجحَ بذلك نجاحاً كاملاً ؛ إذ تمَّ تنفيذ القصَّة كما رسَمَها لهم ، وكما تخيّلها لفضِّ جموعهم .

* وهٰذه طاقةٌ مزهرةٌ من الكلام المنظوم ، نحلِّي به هٰذه الفقرة التي عشنا من خلالها مع نُعيم وقومه ونجاح خطته :

قبلــتْ قــريــشٌ للنَّصيحــة مــن نعيــمٍ عــن يقيــن
مــن قبلهــم كــان اليهــود لنصحــهِ مُستحسنيــن
وأتــىٰ إلــىٰ غطفــانَ ثــالثــة الضَّــلال المعتــديــن
وبقــولــه المعســول خــاطبهــم فبئــسَ مُخَــاطَبيــن
أنتــم أحــبُّ النَّــاس عنــدي بــل وأهلــي الأقــربيــن

قـــد تعلمـــون الـــودّ منِّـــي للقبيلـــةِ أجمعيـــن
وأظنّكُـــم لا تنكـــرون بـــأنّنـــي فـــي الصَّـــادقيـــن
قـــالـــوا فحـــاشـــا لَسْـــتَ أنـــتَ مـــن الـــرِّجـــال الكـــاذبيـــن
فـــأجـــابهـــم لا تـــذكـــروا مـــا قـــد أقـــولُ لآخِـــريـــن
ولتكتمـــوا تلـــك النَّصيحـــة عـــن جميـــعِ العـــالميـــن
قـــالـــوا سنكتمهـــا فقـــال وقـــد بـــدا كـــالنَّـــاصحيـــن
أفضـــىٰ لهـــم بـــالسِّـــرِّ عـــن غـــدْرِ اليهـــود الخـــائنيـــن
ختـــم المقـــالـــةَ قـــائـــلاً لا تـــأمنـــوا للغـــادريـــن
لا تـــرسلـــوا بـــرجـــالكـــم كـــي لا تظلُّـــوا نـــادميـــن
عجبـــوا كمـــا عجبـــت قـــريـــش واستجـــابـــوا مـــوقنيـــن [1]

نجاحُ مهمَّـةِ نُعيم رضي ٱلله عنه :

* اهتمَّ القرشيّون والغطفانيّون بالأنباء والأحداث التي نقلَها نُعيمُ بنُ مسعود لهم ، وأحلُّوها المكانَ الأوَّل من أعمالهم ، وكادت قلوبهم تنفجر من الغيظِ والحقدِ علىٰ القرظيّين ، وباتوا بِشَرِّ ليلةٍ من القلق والحنق والاضطراب ، وعَظُم في نفوسهم غش يهود بني قريظة الذين بالغوا في الغدر والارتياب .

* لم يمضِ وقتٌ كبيرٌ حتَّىٰ علمت قريش وغطفان بالأمر وبأنَّ بني قريظة يريدون رهناً من خيرة رجالهم ، وبالتَّالي قال قادة الأحزاب بعضُهم لبعض : « وٱلله إنَّ الذي حدّثكم به نُعيمُ بنُ مسعود لحقٌّ » .

* وبهٰذه الحنكة النُّعيميَّةِ الحصيفةِ دبَّ الخلافُ بأمر ربِّ النَّاس بين المعتدين ، وأصبح من المستحيل التَّوفيق فيما بينهم ، ونجحت خطّة نُعيم في تفريق شمل الأحزاب ، وكان نُعيم ـ رضي ٱلله عنه ـ يقول : « أنا خذّلتُ بين

---

(١) « تغريدة السّيرة النبويّة » (٣ / ١٧٨) .

الأحزاب حتَّىٰ تفرّقوا في كلِّ وجه ، وأنا أمينُ رسولِ ٱلله ﷺ علىٰ سرِّه »[1] .

* وممَّا لا ريب فيه أنَّ الشَّكَّ سلاحٌ فعَّالٌ ، له أثره الواضح في نقض الهمم ، وفسخِ العزائم[2] ، ولا سيما إذا كان هٰذا الأمرُ بين قوم تحالفوا علىٰ الشَّرِّ ، وتعاقدوا علىٰ السُّوء .

* ومن المُتَعالم بين مصنِّفي السِّيرة أنَّ جيوشَ قريش وغطفان كانوا نازلين في العراء ، علىٰ ربىٰ الصَّحراء المكشوفة ، وكان الجو شتاءً ، والبردُ شديداً ، فهبَّت في تلك الليلة رياحٌ عاصفةٌ ، أرسلها ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ علىٰ الأحزاب ، فقَلَبَتْ موازينهم ، وأكفأَتْ قدورهم ، وهدمَتْ خيامهم ، وأطفأَتْ نيرانهم ، فاحلولك الظَّلامُ ، وحجبت الرّؤية ؛ إذ لم يَبْدُ في الأفق نجمٌ واحدٌ يرنو ليبددَ جيوش الظَّلام ، وساعد في ذلك أنَّ السَّماء كانت مشحونة بِسُحب كثيرة ، فدبَّ الذُّعر والخوفُ في قلوب الأحزاب ، وولوا الأدبار وهم يقولون : « إنَّ هٰذا من سحر محمَّد ! ! »[3] .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٧٩) .

(٢) إنَّ إحداثَ الشَّكِّ والشِّقاق والفرقة في صفوف الأعداء ، هو سلاحٌ عظيمٌ من أكبر الأسلحة التي تؤتي ثمارها لصالح خصوم هؤلاء الأعداء . وقد تفعلُ الفرقة بالعدو ما تفعله جيوش كثيفة ، مزودة بالأسلحة الثَّقيلة والخفيفة ، ولهٰذا فإنَّ رسولَ ٱلله ﷺ طلبَ من نُعيمِ بنِ مسعود الدَّاهية الذَّكي أنْ يستخدمَ سلاح الشِّقاق ضد الأعداء المتحالفين المتحلِّقين حول الخندق ؛ إذ قال له : « يا نُعيم ! إنَّما أنتَ فينا رجلٌ واحدٌ ، فخذِّلْ عنَّا ما استطعتَ فإنَّ الحربَ خدعةٌ » . وقد وُفِّق نُعيمٌ ونجحَ في استخدام سلاح الفُرقة والشّقاق ضدّ الأعداء ؛ إذ استطاع أنْ يحطم بهٰذا السِّلاح الخفيف النّظيف وحدةَ الأحزاب ، وأن ينسفَ اتّحادهم مع اليهود من أساسه ، ممّا جعل زعيم الأحزاب أبا سفيان يأمرُ بالانسحاب ، وينعىٰ غدر بني قريظة ، وكان أمر ٱلله قدراً مقدوراً .

(٣) انظر تفصيل هٰذا الأمر ، وقصَّة سيِّدنا نُعيم بن مسعود في كتب السِّيرة النَّبويَّة =

* وقد ساق ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصَّة نُعيم ـ رضي ٱلله عنه ـ موجزةً خاليةً من التَّفاصيل السَّابقة ، وهي مع وجازتها تفي بالغرض المطلوب ، وها نحنُ أولاء نوردُ روايةَ ابن سعد ؛ إذ يقول : « كان نُعيم بنُ مسعود الأشجعيّ ـ رضي ٱلله عنه ـ ، قد أسلم فَحسُنَ إسلامه ، فمشىٰ بين قريش وقريظةَ وغطفان ، وأبلغ هٰؤلاء عن هٰؤلاء كلاماً ، يُرِي كلَّ حزْبٍ منهم أنَّه ينصحُ له فقبلوا قوله ، وخذَّلهم عن رسولِ ٱلله ﷺ ، واستوحش كلُّ حزبٍ من صاحبه ، وطلبتْ قريظةُ من قريش الرّهنَ حتَّىٰ يخرجوا فيقاتلوا معهم ، فأبتْ ذلك قريش ، واتّهموهم ، واعتلّتْ قريظةُ عليهم بالسَّبْت وقالوا : لا نقاتل فيه ؛ لأنَّ قوماً منَّا عَدَوا في السَّبتِ ، فَمُسِخُوا قردةً وخنازيرَ ، فقال أبو سفيان بنُ حرب : ألا أراني أستعينُ بإخوةِ القردةِ والخنازير ، وبعثَ اللهُ الرّيحَ ليلة السَّبْت فَفَعَلَتْ بالمشركين ، وتركَتْ لاتُقِرُّ لهم بناء ولا قدْراً » [1] .

* وما دمنا في نهايةِ هٰذه الفِقْرة الماتعةِ ، تعالوا نقتطف هٰذه الأزاهرَ الطَّريفة من « الإلياذة الإسلامية » لأحمد محرّم ، وهو يجمعُ طاقات قصَّة نُعيم بن مسعود وينسِّقُها بشعره السَّلس الجميل ، فيقول :

أقبلْ نُعيمٌ هداكَ ربّك ساريا	وكفىٰ بربّك ذي الجلالةِ هاديا
جئتَ النَّبيَّ فقلتَ إنِّي مسلمٌ	منْ أشجعٍ لم يَدْرِ قومي ما بيا
مُرْني بما أحببتَ في القوم الأُلىٰ	كرهوا الرّشاد أكنْ لأمرك واعيا
قال ارمهم بالرّأي يصدعُ بأسَهم	عنا ويتركه ضعيفاً واهيا
عُدْ يا بن مسعودٍ إليهم راشداً	واصنعْ صنيعَكَ آمراً أو ناهيا
ومضىٰ فهزَّ بني قريظةَ هِزَّةً	يغتال راجفها الأشمَّ الرَّاسيا
قال اتبعوا يا قوم رأي نديمكم	إنِّي محضتكمُ الوداد الصَّافيا

= والمغازي ، وانظر كذلك كتب التَّفاسير لسورة الأحزاب فإن فيها تفاصيل مهمَّة ومفيدة .

(١) « طبقات ابن سعد » (٢ / ٦٩) .

فَـدَعُـوا قـريشـاً لا تظنّـوا أمـرهـا ... مـن أمـركـم أمَمـاً ولا متـدانيـا
إن تـأخـذوا سبعيـن مـن أبطـالهـم ... رِهنـاً يكـن حـزمـاً ورأيـاً شـافيـا
وأتـىٰ قـريشـاً فـي مخيلـةِ نـاصـحٍ ... يبـدي الهـوىٰ ويـذيـع سـرّاً خـافيـا
يـا قـومُ إنَّ بنـي قـريظـة أحـدثـوا ... أمـراً طفقـت لـه أعـضّ بنـانيـا
ومشـىٰ إلـىٰ غطفـانَ يُنبئهـم بمـا ... سمعـتْ قـريـشٌ أو يـزيـدٌ محـابيـا
أهلـي منحـتُ نصيحتـي وعشيـرتـي ... نبَّهْـتُ أخشـىٰ أن يحـلَّ مُصَـابيـا
هَفَـتِ المخـاوف بـالنُّفـوس فَـزلـزلـت ... ومضـت بهـا هُـوجُ الظنـون سـوافيـا
لـم يُبـقِ منهـا الأشجعـيُّ بمكـره ... ودهـائـه غيـر الهـواجـسِ سـاقيـا
غضـبَ ابـنُ حـربٍ ثـمَّ قـال لقـومـهِ ... صـدق ابـن مسعـودٍ وخـاب رجـائيـا
غـدرَ اليهـود وتلـكَ مِـنْ عـاداتهـم ... يـا قـوم مـا للغـادريـن ومـا ليـا
مـا كنـتُ أحسـبُ والخطـوبُ كثيـرةٌ ... أنَّ الأحبَّـة يصبحـون أعـاديـا [1]

نُعَيم وسجايا نبيلة :

* أثبتَ نُعيمُ بنُ مسعود ـ رضي ٱلله عنه ـ أنَّه رجلٌ صادقُ الإيمان ، إذ قام بَدوْرهِ المتألّق منذ اللحظات الأولىٰ لإسلامه أيّام معركة الخندق ، قال ابنُ سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وكان صحيح الإسلام بعد ذلك » [2] .

* وتضيفُ إلينا مصادر ترجمة سيّدنا نُعيم بأنَّه هاجرَ بعد إسلامه ، وسكن المدينة المنوَّرة ، وأولاده موجودون بها ، وكان نُعيمٌ يغزو مع رسول ٱلله ﷺ إذا غزا ، وبعثه الحبيبُ المصطفىٰ ﷺ لمَّا أراد أنْ يخرجَ إلىٰ تبوك إلىٰ قومه غطفان ، ليستنفرهم إلىٰ غزو عدوّهم » [3] .

* وفي فتح مكّة كان لِنُعيم دورٌ مهم ، ذكره ابن سعد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن

---

(١) « ديوان مجد الإسلام » (ص : ٢٢٤ ـ ٢٢٦) بانتقاء واختيار .
(٢) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٧٩) .
(٣) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٧٩) بتصرُّف .

سعيد بن عطاء بن أبي مروانَ ، عن أبيه ، عن جدّه قال : « بعثَ رسولُ ٱللهِ ﷺ نُعيم بن مسعود ، ومَعْقِلَ بن سِنان إلىٰ أشجع يأمرانهم بحضور المدينة لغزو مكّة » [١] .

* ولمَّا كان يوم فتح مكّة المكرّمة ، كان سيّدنا نُعيمُ بنُ مسعود ـ رضي ٱلله عنه ـ يحملُ راية قومه غطفانَ ، ورأىٰ أبو سفيان رجلاً يحملُ رايةَ غطفان ، فقال لمن معه : « مَنْ هٰذا الرَّجُلُ ؟ » .

قالوا : « نُعيمُ بنُ مسعود » .

فتذكَّر أبو سفيان أيامَ الخندق ، وما فَعَلَه نُعيمٌ بهِ وبالأحزاب فقال : « بئس ما صنعَ بنا يوم الخندق ، واللهِ لقد كان من أشدِّ النَّاس عداوةً لمحمّد ، وها هو ذا اليوم يحملُ رايةَ قومه بين يديه ، ويمضي لحربنا تحتَ لوائه ؟ » .

* ولم يكن لِنُعيم هٰذه الخصوصيّة فحسب ، وإنَّما ولاَّهُ رسول ٱلله ﷺ علىٰ صدقاتِ أشجع بن ريث قومه [٢] .

* ولسيّدنا نُعيم أيضاً روايةٌ عن النَّبيِّ ﷺ ، فقد روىٰ عنه ولده : سلمة ، وابنته زينب [٣] .

* أخرج الإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللهُ بسنده عن سلمة بن نُعيم بن مسعود الأشجعيّ عن أبيه نعيم قال : « سمعتُ رسولَ ٱلله ﷺ يقولُ حين قرأ كتاب مسيلمة الكذّاب قال للرسولَيْن : « فما تقولان أنتما ؟ » .

قالا : نقولُ كما قال .

---

(١) « طبقات ابن سعد » (٤ / ٢٧٩) .

(٢) « أنساب الأشراف » (١ / ٥٣٠) .

(٣) « تهـذيـب التّهـذيـب » (١٠ / ٤٤٦) ، و« الاستيعـاب » (٣ / ٥٢٩) ، و« الإصابة » (٣ / ٥٣٩) ، و« أسد الغابة » (٤ / ٥٧٢) .

فقال رسولُ ٱلله ﷺ : « واللهِ لولا أنَّ الرّسل لا تُقْتَلُ لضربتُ أعناقكما » [1] .

* وعاش سيّدنا نُعيم شطراً من الخلافة الرَّاشدة ينعمُ في أفيائها ، وكان يسكنُ المدينةَ المنوّرة ، وولده من بعده ، وبقي إلىٰ زمنِ سيِّدنا عثمانَ بنِ عفَّان ـ رضي ٱلله عنه ـ ، وذكر الإمام النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ نُعيماً توفي في آخر خلافة عثمان ، وقيل أوّل خلافة عليٍّ ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين [2] ـ .

* بينما ذكر ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنَّ نعيماً قُتِل في أوّل خلافةِ عليّ قبل قدومه البصرة في وقعةِ الجمل ، وقيل : ماتَ في خلافةِ عثمان ، وٱلله أعلم [3] .

* رضي ٱلله عن نُعيم بنِ مسعود ، ورحمنا يوم الخلود ، وعفا عنَّا بفضله المعهود ، وحشرنا تحت لواء النَّبيِّ المحمود .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

---

(١) « المسند » (٦ / ٣١٣ ـ ٤١٤) حديث رقم : (١٥٩٨٩) ، وذكره ابن حجر في « الإصابة » (٣ / ٥٢٩) . والأصبهاني في « معرفة الصَّحابة » (٤ / ٣٢٦) ، وغيرها .

(٢) « تهذيب الأسماء واللغات » (٢ / ١٣١) .

(٣) « الإصابة » (٣ / ٥٢٩) ، و« تهذيب التَّهذيب » (١٠ / ٤٦٦) .



الخاتمة

* بحمد اللهِ وفضله ومنِّهِ ، كانت رحلتنا ماتعة مع سِيَرِ أصحاب النَّبيِّ ﷺ ، أولئك الرِّجالُ الذين كانوا يمتطون المصاعبَ والشَّدائد ، ويصبرون الصَّبْرَ الجميل ، حتَّىٰ نشروا دِيْنَ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ في طولِ البلادِ وعرضها ، وتركوا من الآثار الحِسَان ما زيَّنُوا به جِيْدَ الزَّمان ، وكانوا يلهجون بحمد اللهِ وذكْرِهِ آناءَ الليلِ وأطرافَ النَّهار ، فرضي اللهُ عنهم وأرضاهم :

أُولئـكَ آبـائـي فجِئْنـي بمثْلِهِـم ... إذا جمَعَتْنـا يـا جـريـرُ المجَـامـعُ

* وقد تبيَّن معنا في هٰذا السِّفْرِ المبارك أثرَ هٰؤلاء الرِّجال الأبطال الأخيار ، في نصرة رسولِ ٱلله ﷺ ؛ إذ افتَدَوهُ بأنفسهم ، وما ملكتْ أيديهم ، وصدقُوا ما عاهدوا اللهَ عليه ، ووفوا لرسولهِ ﷺ ، فَبَنَوا صروحَ الحياة بالعِلْم والجهاد ، فنشروا العِلْم في كلِّ مكانٍ حلُّوا فيه ، وقدَّموا الشُّهداء في كلِّ بلدٍ فتحوه ، ففتحوا بإخلاصهم القلوب ، وأحبَّهم مَنْ سمع أخبارهم ، وحازوا قبل هٰذا كلِّه محبَّة النَّبيِّ ﷺ ، فأوصىٰ بهم في أحاديثَ كثيرةٍ ملأتْ رحْبَ الصَّحيحَيْن ، وغيرهما من أردان كتُب الحديثِ الأخرىٰ .

* ومن خلال الكتابِ خَلَصْتُ إلىٰ نتائجَ رشيدة ، ونقاطٍ مفيدة ، وفوائدَ نفيسةٍ ، تتلخّص في نقاطٍ رئيسةٍ :

الأُولىٰ : مرَّتْ بنا أخبارٌ وقصصٌ تفصحُ عن صبر هٰؤلاءِ الرِّجالِ ، وما لاقَوْه من شدائدَ في سبيلِ إعلاء كلمةِ الكبيرِ المُتعالِ ، ونَشْر العلْم في كلِّ مجال ؛ ولم يكن لهم هدف مِنْ جاهٍ أو مال ، وإنّما مرضاة ٱلله ورسوله في

جميع الأحوال ، ومنهم : مصعبُ بنُ عُمير ، وخَبَّابُ بنُ الأرتِّ ، والطُّفيلُ بنُ عمرو ، وعثمانُ بنُ مظعون ـ رضي ٱلله عنهم ـ . وعلىٰ الرّغم من كثرةِ هـٰذه الأخبار الوضيئة ، فإنَّها قبسٌ يسيرٌ من سناءِ حياتهم المُضيئة ؛ التي أَغْنَوها بالمفيد ؛ وهم يرجون مرضاة العزيز الحميد .

الثَّانية : شهدنا في قراءتنا لِسِيَرِ هـٰؤلاء النُّبلاء ؛ الذين ملأَ طيبُ ذكْرهم الأرض والسَّماء ، أنَّهم كانوا ذوي فضائلَ نادرة ، وأعمال باهرة ، فهم علماءُ ، مجاهدون ، فاتحون ، حافظون ، راكعون ، ساجدون ، لا يركنون إلىٰ الدَّعةِ والرَّاحةِ والرَّخاء ؛ بل حياتهم طاعةٌ في عَمَلٍ في عطاء ، أوقفوا أعمالَهم في نُصْرة الإسلام ونَشْره ، ولم يلتفتوا إلىٰ منصبٍ أو مكانة ، وأدركوا أنَّ ما هم عليه من شَظَف العيش ، والتَّقشُّف في أمور الحياة ، شَطْرٌ من النَّعيم العاجل ، وقسْطٌ من رضا ٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ ، فطابتْ نفوسُهم ، وزكَتْ مقاصدهُم ، فأكرمْ بقصدهم ونهجِهم ومنهاجِهم ! ومن هـٰؤلاء الرِّجال علىٰ سبيلِ المثال : عتبةُ بنُ غزوان ؛ وجرير بن عبد الله ؛ وأسيد بن الحضير ؛ رضي ٱلله عنهم أجمعين .

الثَّالثةُ : عرفنا من خلال سيرةِ حياتهم شيئاً من بطولاتهم وتضحياتهم ، وعزائمهم القويَّة ، وهمَّتهم العالية ، فكانوا مهاجرين وأنصاراً وحلفاءَ يداً واحدةً في ارتقاءِ معالي الأمور ، وسَخَّروا مواهبهم لخدمةِ هـٰذا الدِّين الذي ارتضاهُ اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ للنَّاس ، وفي سيرة كلِّ صحابيّ من هـٰذا الكتاب نموذجٌ جميلٌ تؤكِّدُ صحَّة ما قُلْناه .

الرَّابعةُ : خَدَمَ هـٰؤلاء الميامينُ الإسلامَ خدمةَ الأوفياء المُخلصين ، فما وهنَتْ عزائمهم ، ولا استكانت هممهم ، ولم يتأثَّروا بالشَّدائد التي اعترضَتْ حياتهم ، وإنَّما تجاوزوا المفاوزَ ليفوزوا ، ويحقّقوا النَّجاح في كلِّ شيء يدعو لمرضاة اللهِ ورسوله ، فسهروا الليالي عابدين ، وقاموا في النَّهار صابرين وثبتوا في ملاقاةِ الأخطار ، ومكابدة الأهوال والأسفار ، وهـٰذه الأمورُ جميعها لم

تؤثِّـرْ في قوّة شكيمتهم ، وحرصهم علىٰ متابعةِ طريقِ الفلاح المُوصل إلىٰ طريق نجاتهم .

الخامسةُ : من خلال الاستقراء عرفنا أنَّ مكارمَ المعالي ، ومعالي المكارم ، منوطةٌ بالمصاعب ، ومحفوفةٌ بالمكاره ، لا يوصل إليها إلا علىٰ جِسْرٍ من التَّعب ، فمن طمحَتْ نفسُهُ إلىٰ مراقي الفلاح ، فعليه أنْ يسيرَ علىٰ الطَّريقةِ القويمةِ التي سلكها الصَّحابةُ أهل الفلاح ، فقد أكرهوا أنفسهم علىٰ الجدِّ والنَّصب ، وساقوها إلىٰ المعالي سوقاً حميداً ، فوصلوا إلىٰ رياضٍ مونقة ، ومقاماتٍ موفّقة ، ومواقفَ مشرقة ، ومقعدٍ كريم ، ونعيمٍ مقيم ، ورضا العزيز الرَّحيم .

السَّادسةُ : تحمَّلَ هـٰؤلاء السَّادةُ الآسادُ الأسيادُ جميع المشاقِّ ، وغالبوا العقباتِ والصِّعابَ وأعدوا العدّة ليوم التَّلاق ؛ فأكرمهم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ ، ولم يخيِّبْ مسعاهم ، وهـٰذا ما عرفناهُ في السِّيرة الخبَّابيّة المباركة ؛ إذ أخبرَ رسولُ ٱلله ﷺ صاحبَه خبَّابَ بنَ الأرتِّ ـ رضي ٱلله عنه ـ لمَّا جاءه يشكو عذابَ المشركين وقسوتهم ، فبشَّره ﷺ وقال له : « . . . واللهِ لَيُتِمَنَّ هـٰذا الأمر حتَّىٰ يسيرَ الرَّاكبُ من صنعاءَ إلىٰ حضرموتَ ، لا يخافُ إلا ٱلله ، والذِّئب علىٰ غنمه » . وما أجمل أنْ نتذكَّر دائماً أنَّ : « من كانتْ بدايتُه محرقةً ، كانت نهايتُه مشرقةً » !

السَّـابعـةُ : كـان رجـالُ عَصْـر النُّبـوَّة مـن طبقـات شتَّـىٰ ، فكـان منهم : الأشرافُ ، والكبراءُ ، والأغنياءُ ، وأصحابُ اللسن والفصَاحة وفَصْل الخطـاب ، وأصحـابُ النُّبـل والكمـالِ ، والسِّيـادة والـرِّيـادة والجمـال ، والأمراء ، والفقراء ، والمستضعفين والأقوياء ، فصقَلَهم الإسلامُ وجعلَهم أشقَّاء أخلاَّءَ ، فسادوا علىٰ السَّادات ، وبلغوا أعلىٰ الدَّرجات ، وأخلصوا للهِ فآتاهم في ذلك العجائب المُدهشات ، ولم يزالوا بذلك أحياء في ضمائر المحبّين ، وإن ماتوا منذ مئات السِّنين :

جَمالَ ذي الأرضِ كانُوا في الحياةِ وهم بَعْـد الممَـاتِ جمـالُ الكتـبِ والسِّيَـرِ

الثَّامنةُ : أيقنَّا أنَّ الصَّحابة هم سادةُ النَّاس وخيرهُم ، فهم أبرُّ الأمَّة قلوباً ، وأعمقُها علماً ، وأقلُّها تكلّفاً ، ومن المؤكَّد أنَّ مَنْ جاء بعدهم هو أقلُّ منهم علْماً ، وأكثرُ تكلّفاً ، فكيف نطمئنُّ إلىٰ مَنْ ينتقصُ خَيْرَ أمَّةٍ أُخرجَتْ للنَّاسِ ؟ ! أو مَنْ ينتقدُ أكابر الصَّحابة ويغضُّ من شأنهم ؟ ! :

وبقيَّـــةُ الصَّحـــب الكـــرامِ لِكُلِّهـــم فَخْـــرٌ لـــه فـــوقَ المَجَـــرَّةِ يُسحـــبُ
قـــامُـوا لِـــدِينهـــم القـــويـــم فلـــمْ يـــزلْ يُشْجَـــىٰ ببـــأسهـــم العـــدوُّ ويشجـــبُ
أفنـــىٰ نهـــارَهُـــم دوامُ جهـــادِهـــم طَـــوعـــاً وليلهـــم الطَّـــويـــل تـــرهّـــبُ
حكـــم الإلـــٰه لهـــم وليـــس لحكمـــهِ لَهـــمُ بكلْتَـــا الحُسنَيَيْـــن مُعَقِّـــبُ

التَّاسعةُ : لا شكَّ في أنَّ أهلَ العِلْمِ الذين عرفوا حدودهم ، يعترفون بفضل مَنْ سَبَقَهم ، وأنَّهم عاجزون ـ مهما فعلوا ومهما تعلّموا ـ عن بلوغِ مراتبهم ، أو مقاربة مكانتهم ، ولقد أجاد الإمامُ أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ ، حينما سُئِلَ عن الأسودِ بنِ يزيد بن قيس النَّخعيِّ وعلقمةَ بنِ قيس النَّخعيِّ ـ وكلاهما من أفاضل التَّابعين ومن أهل بيت اشتُهر بالعلم والعمل ـ فقال مقالةَ عالمٍ فقيهٍ مؤدَّب : « واللهِ ما نحنُ بأهل أنْ نذكرهم ، فكيف نفضِّلُ بينهم ؟ ! » . وكان عبدُ ٱلله بنُ المبارك عالمُ زمانه ؛ وأميرُ الأتقياء في أوانهِ ، إذا ذكرَ أخلاقَ مَنْ سَلَفَ وتذكَّر أعمالهم ينشدُ :

لا تعـــرضـــنَّ لـــذكْـــرِنـــا مـــع ذِكْـــرِهـــم لَيْـــسَ الصَّحيـــحُ إذا مشَـــىٰ كـــالمُقْعَـــدِ

العاشرةُ : إذا اطَّلعَ المحبُّ المنصفُ علىٰ أقوال علماء التَّابعين في أسيادنا الصَّحابة ، علمَ أيَّ محلٍّ ارتقوا ، وأية طرق الخير سلكوا ، ومن عجيب البلاء والوباء أنْ كثُرَ في أيَّامنا هـٰذه نَقْدُ السَّلَف الصَّالح ؛ ونقدُ العلماء المعاصرين ، وأصبح هـٰذا الأمرُ سهلاً عند بعضهم ، فلا يتورَّعُ عن انتقاصِ أحدِ كُبراء الصَّحابة ، أو أحد علمائِهم ، أو ساداتهم ، أو فرسانهم ، أو أحد العلماء السَّابقين الذين أفنوا أعمارهم في خدمةِ العلْم ، أو ينتقصُ عالماً جليلاً مشهوراً في وقتنا الحاضر ممَّن طبقَتْ شهرتُه الآفاق ، ويقول هو كذا وكذا ،

وأخطأَ في كذا ، وصنعَ كذا ، و . . . . . وهـٰذا الذي ينتقدُ الأكابر لا يحسنُ قراءة آيتَيْن ؛ ولا يستطيعُ أنْ يقيمَ حرفَيْن متجاورين ، ولا يعرفُ مَنِ البخاريّ ومَنْ مُسْلم ، بل لا يعرفُ أحداً من أئمة العلْم الذين ملؤوا الدُّنيا بعلمِهم ، وشغلُوا النَّاس بمفيد كتبِهم ـ ومع هـٰذا الجهل المطبق ـ ينتقدُ ، وينتقصُ ، ويُفْتي ، ويطبِّبُ ، ويوجِّهُ ، و . . . . . ونسألُ اللهَ السَّلامةَ والسَّدَادَ ، وأنْ يعلّمنا أصول الأدب والوداد ، وأن يجعلنا ممّن يسلكون سبيل الرَّشاد ؛ في طاعة ربِّ العباد .

الحادية عَشْرة : سيرةُ هـٰؤلاء السَّادةِ القادةِ الأخيارِ الأبرارِ ؛ الأصفياءِ النُّجباءِ ؛ الأصحابِ الأحبابِ ؛ تثيرُ الإعجابَ ، فقد فارقوا الأهلَ والوطنَ ، وساروا مهاجرين في أرضِ اللهِ الواسعة ، وأفنوا أعمارَهم في سبيلِ مرضاةِ اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ابتغاءَ رحمتهِ الواسعة ، وقد استقرَّ كثيرٌ منهم في البلدِ الذي فتَحَه ، أو مات شهيداً فوق أرضهِ ؛ بعد أنْ عمل علىٰ إصلاحِ الأرض ، وبنىٰ الأسواقَ ؛ ونَظَرَ في مصالح النَّاس ، وأرشدهم إلىٰ ما ينفعهم في دينهم ودنياهم .

الثَّانية عَشْرة : تبيَّن لنا من خلال قراءةِ أبواب الكتاب أنَّ في الصَّحيحَيْن ، وسائر الكتب كمصنّفات الحديث الأخرىٰ أبواباً متخصِّصةً في فضائل رجال عَصْر النُّبوَّة الكرام ، الذين سعدوا بصحبةِ النَّبيِّ ﷺ وشرفُوا بها ، فقد عَقَدَ الإمامُ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « صحيحهِ » المبارك باباً عنوانه : « باب فضائل الصَّحابة ؛ وكتاب مناقب الأنصار » ، ذكرَ من خلالهما أسماء ثلَّةٍ من رجال عَصْر النُّبوَّة ، ومنهم في هـٰذا الكتاب : مصعبُ بنُ عمير ، وجريرُ بنُ عبد ٱلله البَجَليّ ، كما ذكرَ في كتاب « المغازي » قصَّة دوسٍ والطُّفيل بن عمرو وغيره . وكذلك صنعَ الإمامُ مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في « صحيحه » ؛ إذ عَقَدَ باباً كبيراً نافعاً عنوانه : « كتاب فضائل الصَّحابة رضي ٱلله تعالىٰ عنهم » ، وأورد طاقاتٍ مزهرةً من مناقبهم ، ومنهم في هـٰذا الكتاب : جريرُ بنُ عبد ٱلله البَجَليّ وغيره . كما أنَّ البخاريَّ ومُسلماً قد عَقَدا أبواباً عدَّة بفضائل أهل بَدْر ،

وفضائل أهل بيعة الرِّضوان ، وفضائل المهاجرين والأنصار ، وقِسْ علىٰ ذلك سائر كتب الحديث الأخرىٰ .

* **وفي الختام** : ينبغي الاستفادة والاستنارة بما ذكرَهُ عُلماء الأمَّة السَّابقين عن احترام الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ والكفّ عمَّا شجرَ بينهم ؛ ومن هٰؤلاء العُلماء الأفذاذ أبو بكر محمَّد بن الحسين الآجريّ البغداديّ (٢٨٠ هـ ـ ٣٦٠ هـ) الذي قال في كتابه : « الشَّريعة » (ص : ٧٠٨ ـ ٧٠٩) ما خلاصتُه : « ينبغي لمن تدبَّر ما رسمناه من فضائل أصحابِ رسولِ ٱلله ﷺ ، وفضائل أهل بيته ـ رضي ٱلله عنهم أجمعين ـ ، أنْ يحبَّهم ، ويترحَّمَ عليهم ، ويستغفر لهم ، ويتوسَّلَ إلىٰ ٱلله الكريم بهم ، ويشكرَ ٱلله العظيم ؛ إذ وفَّقه لهٰذا ، ولا يذكر ما شجرَ بينهم ؛ لأنَّهم أهلُ الجنَّةِ ، عليهم نزلَ القرآن ، وشاهدوا رسولَ ٱلله ﷺ ، وجاهدوا معه ، وشهدَ لهم اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ بالرّضوان ، والمغفرة ، والأَجْر العظيم ، وشهد لهم الرَّسولُ ﷺ أنَّهم خيرُ قرن ، فكانوا بٱلله ـ عزَّ وجلَّ ـ أعرف ، وبرسولهِ ﷺ ، وبالقرآن وبالسُّنَّة ، ومنهم يُؤْخَذُ العِلْم ، وفي قولهم نَعيشُ ، وبأحكامهم وبأدبهم نتأدَّب ، ولهم نتبّع ، وبهٰذا أُمِرنا . . . . قد صحبوا الرّسول ﷺ وصاهرهم وصاهروه ، فبالصّحبة يَغْفِرُ اللهُ الكريم لهم . . . . وقد ذكر لنا ٱلله تعالىٰ في كتابه أنَّه وصفَهم في التَّوراة والإنجيل ، فوصفهم بأجمل الوصف ، ونعتَهم بأحسن النَّعت ، وأخبرنا مولانا الكريم أنَّه قد تابَ عليهم ، وإذا تاب عليهم لم يعذّبْ واحداً منهم أبداً : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [المجادلة : ٢٢] » .

* وما أجملَ قول مَنْ قال في الصَّحابة ـ رضي ٱلله عنهم ـ :

كُـلُّ الصَّحـابـةِ عنْـدي قـدوةٌ عَلَـمٌ ... فَهَـلْ علـيَّ بهٰـذا القـولِ مِـنْ عَـارِ

إنْ كُنْـتَ تَعْلَـمُ أنّـي لـمْ أحبّهـم ... إلا لـوجهـكَ أعتقنـي مـن النَّـارِ

* **اللهمَّ ! وفّقْنا لِصَالح الأقوال والأعمال ، واغفرْ لنا ما جَرحْنا بالليل وما بَدرَ منّا بالنَّهار ، يا كريم يا غفَّار .**

* اللهمَّ ! اجعلنا منَ الذين قُلْتَ فيهم : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

* اللهمَّ ! احشرنا مع الذين رضيتَ عنهم ورضوا عنك ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصَّالحين .

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦]

وكتب

مُحبّ الصَّحابة وخادمُهم

أحمد بن خليل جُمُعة

غفر اللهُ له ولوالديه وللمسلمين أجمعين

فهرسُ المصادر والمراجع [1]

١ ـ القُرآنُ الكريم .
٢ ـ الصَّحيحان : البخاريُّ ومُسلم وشروحهما .
٣ ـ السُّنَنُ الأربعةُ وشروحُها .
٤ ـ المسانيدُ والمستدركاتُ والمصنَّفاتُ والمعاجمُ ، وكتبُ الحديث .
٥ ـ أحكامُ القرآن : لابن عربي ، تحقيق : علي محمَّد البجَّاوي ، دار المعرفة ـ بيروت ، دون تاريخ أو ذكْر رقم الطَّبعة .
٦ ـ أخبار القُضاة : لوكيع ، عالم الكتب ـ بيروت ، دون تاريخ .
٧ ـ أخبارُ مكَّة : للأزرقيّ ، تحقيق : رشدي ملحس ، دار الأندلس ـ بيروت ، ط : ٤ ، ١٩٨٣ م .
٨ ـ الأخبارُ الموفّقيّات : للزُّبير بن بكَّار ، تحقيق : د . سامي مكّي العاني ، بغداد ، ١٩٧٢ م .
٩ ـ أسبابُ النُّزول : للواحِديّ ، تحقيق : د . مصطفىٰ البغا ، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٢ م .

---

(١) تعددت المصادر والمراجع التي اعتمدتُ عليها في إنشاء هٰذا الكتاب وصياغته ، وكانت متنوِّعة كثيرة ، وخصوصاً فيما يتعلَّق بعلوم القرآن ، والتَّفسير ، وعلوم الحديث النَّبويّ ، والتّواريخ ، وكتب الفقه ، واللغة ، والأدب ، وبعض دواوين الشُّعراء القديمة والحديثة ، وأوردتُ نماذج منها في هٰذا الفهرس ، في حين أنَّ معظمها منثور في تضاعيف الكتاب .

١٠ ـ **الاستبصارُ في نَسَبِ الصَّحابة من الأنصار** : لابن قدامة المقدسيّ ، تحقيق : علي نُويهض ، دار الفكْر ـ بيروت ، دون تاريخ .

١١ ـ **الاستيعابُ بهامشِ الإصابة** : لابن عبد البرّ ، دارُ الكتاب العربي ـ بيروت ، دون تاريخ .

١٢ ـ **أسدُ الغابة في معرفةِ الصَّحابة** : لابن الأثير ، طبعة مصوَّرة عن طبعة دار الشَّعب المحقَّقة بمصر ـ بيروت ، ١٩٨٩ م .

١٣ ـ **الإشاراتُ إلىٰ أماكنِ الزِّيارات المسمَّىٰ زيارات الشَّام** : لابن الحورانيّ ، تحقيق : بسَّام الجابي ، مكتبة الغزالي ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٨١ م .

١٤ ـ **الاشتقاقُ** : لابن دريد ، تحقيق : عبد السَّلام هارون ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

١٥ ـ **الأَشْرافُ** : لابن أبي الدُّنيا ، تحقيق : د . وليد قصَّاب ، دار الثَّقافة ـ الدَّوحة ، ط : ١ ، ١٩٩٣ م .

١٦ ـ **الإصابةُ في تمييزِ الصَّحابة** : لابن حجر ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، دون تاريخ .

١٧ ـ **إعجازُ القُرآن** : للباقلانيّ ، تحقيق : السَّيد أحمد صقر ، دار المعارف ـ مصر ، ط : ٤ ، دون تاريخ .

١٨ ـ **الأعلامُ** : لخير الدِّين الزِّركليّ ، دار العلْم للملايين ـ بيروت ، ط : ٨ ، ١٨٨٤ م .

١٩ ـ **الأغاني** : للأصفهانيّ ، مصوَّرة دار الفكْر ـ بيروت ، دون تاريخ .

٢٠ ـ **أنسابُ الأشراف** : للبلاذريّ ، تحقيق : محمَّد حميد ٱلله ، دار المعارف ـ مصر ، دون تاريخ ، وكذلك عدّة أجزاء متفرّقة بتحقيق عدّة أساتذة .

٢١ ـ **الأوائلُ** : لأبي هلال العسكريِّ ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٧ م .
٢٢ ـ **البدايةُ والنِّهايةُ** : لابن كثير ، دار الفكر ـ بيروت ، ١٩٨٧ م .
٢٣ ـ **البدرُ التَّمام شرح بلوغ المرام** : لحسين محمَّد المغربيّ ، تحقيق : د . محمَّد شحّود خَرفان ، دار الوفاء ـ المنصورة ، ط : ١ ، ٢٠٠٤ م .
٢٤ ـ **البرصانُ والعرجانُ والعميانُ والحولان** : لأبي عثمان الجاحظ ، تحقيق : د . محمَّد مرسي الخولي ، مؤسَّسة الرِّسالة ، ط : ٤ ، ١٩٨٧ م .
٢٥ ـ **البصائرُ والذَّخائر** : لأبي حيَّان التَّوحيديّ ، تحقيق : د . وداد القاضي ، دار صادر ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٨ م .
٢٦ ـ **بلوغُ الأرب** : للآلوسيّ ، تحقيق : محمَّد بهجة الأثريّ ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، طبعة مصوَّرة دون تاريخ .
٢٧ ـ **بناتُ الصَّحابة** : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار اليمامة ـ دمشق ، ط : ٢ ، ٢٠٠٥ م .
٢٨ ـ **بهجةُ المجالس** : لابن عبد البرِّ ، تحقيق : محمَّد مرسي الخولي ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، دون تاريخ .
٢٩ ـ **البيانُ والتَّبيين** : للجاحظ ، تحقيق : عبد السَّلام هارون ، لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ـ القاهرة ، ١٩٤٨ م .
٣٠ ـ **بيعةُ النِّساء في القُرآن والسِّيرة** : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار اليمامة ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٤٢٥ هـ .
٣١ ـ **تاريخُ الإسلام** : للذَّهبيِّ ، تحقيق : د . عمر تدمري ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٧ م .
٣٢ ـ **تاريخُ الأمم والملوك** : للطَّبريّ ، دار الكتُب العلميَّة ـ بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٨٨ م .

٣٣ ـ **تاريخُ بغداد** : للخطيب البغداديّ ، دار/الكتاب العربي ـ بيروت ، دون تاريخ أو ذكْر رقم الطَّبعة .

٣٤ ـ **تاريخُ المدينةِ المنوَّرة** : لابن شبَّه ، حقَّقه : فهيم شلتوت ، دار التُّراث ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٠ م .

٣٥ ـ **تأويلُ مختلفِ الحديث** : لابن قُتيبة ، تحقيق : محمَّد الأصفر ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٩ م .

٣٦ ـ **التَّبيين في أنساب القرشيِّين** : لابن قدامةَ المقدسيّ ، حقَّقه : محمَّد نايف الدَّيلميّ ، المجمعُ العِلْميّ العراقيّ ـ بغداد ، ١٨٨٢ م .

٣٧ ـ **التَّذكرة الحمدونيَّةُ** : لابن حمدون ، تحقيق : د . إحسان عبَّاس وبكر عبَّاس ، دار صادر ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٦ م .

٣٨ ـ **التَّراتيبُ الإداريَّةُ** : للكتَّانيّ ، علَّق عليه : علي دندل ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، ط : ١ ، ٢٠٠١ م .

٣٩ ـ **تغريدةُ السِّيرة النَّبويَّة** : لمحمّد عايش عبيد ، دار التُّراث ـ القاهرة ، دون تاريخ أو ذكْر رقم الطَّبعة .

٤٠ ـ **تفسيرُ ابن عطيَّة** : لابن عطيَّة الأندلسيّ ، دار ابن حزم ـ بيروت ، ط : ١ ، ٢٠٠٢ م .

٤١ ـ **تفسيرُ البحر المحيط** : لأبي حيَّان الأندلسيّ ، حقَّقه جماعة من العُلماء في الأزهر ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٣ م .

٤٢ ـ **تفسيرُ روح المعاني** : للآلوسيّ ، دار الفكْر ـ بيروت ، ١٩٩٤ م .

٤٣ ـ **تفسيرُ الطَّبريّ** : للطَّبريّ ، دار الفكر ـ بيروت ، ١٩٨٤ م .

٤٤ ـ **تفسيرُ القُرطبيّ** : للقُرطبيّ ، دار إحياء التُّراث العربيّ ـ بيروت ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبعة .

٤٥ ـ **التَّفسير الكبير** : للرَّازيّ ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٠ م .

٤٦ ـ **تفسيرُ الماورديّ** : للماورديّ ، تحقيق : خضر محمَّد خضر ، وزارة الأوقاف والشُّؤون الإسلاميَّة ـ الكويت ، ط : ١ ، ١٩٨٢ م .

٤٧ ـ **التَّفسيرُ المنيرُ** : د . وهبة الزُّحَيلي ، دار الفكر ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩١ م .

٤٨ ـ **تقريبُ التَّهذيب** : لابن حجر ، تحقيق : عبد الوهَّاب عبد اللطيف ، دار المعرفة ـ بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٧٥ م .

٤٩ ـ **تلقيحُ فهوم أهل الأثر في عُيون التَّاريخ والسِّير** : لابن الجوزيّ ، مكتبة الآداب ـ القاهرة ، دون تاريخ أو ذكْرٍ لرقم الطَّبعة .

٥٠ ـ **تهذيبُ الأسماء واللغات** : للنَّووي ، دار الكُتب العلميَّة ـ بيروت ، دون تاريخ أو ذكْر رقم الطَّبعة .

٥١ ـ **تهذيبُ التَّهذيب** : لابن حجر ، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة ، دون تاريخ أو ذكْر رقم الطَّبعة .

٥٢ ـ **تيسيرُ الكريم الرَّحمـٰن « تفسير السَّعديّ »** : للسَّعديّ ، مؤسسة الرِّسالة ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٦ م .

٥٣ ـ **ثمارُ القُلوب في المضاف والمنسوب** : للثَّعالبيّ ، تحقيق : محمَّد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف ـ القاهرة ، ١٩٦٥ م .

٥٤ ـ **جامعُ بيانِ العِلْم وفضله** : لابن عبد البرِّ القرطبيّ ، قدَّم له : عبد الكريم الخطيب ، دار الكُتُب الإسلاميّة ـ القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٨٢ م .

٥٥ ـ **جمهرةُ أنسابِ العرب** : لابن حزم الأندلسيّ ، دار الكُتُب العلميَّة ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٣ م .

٥٦ ـ **حجَّةُ اللهِ علىٰ العالمين** : ليوسُف النَّبهانيّ ، تحقيق : محمَّد مصطفىٰ أبو العلا ، مكتبة الجندي ـ القاهرة ، ١٩٧١ م .

٥٧ ـ حروبُ الرِّدَّة : لمحمَّد أحمد باشميل ، دار الفِكْر ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٧٩ م .

٥٨ ـ الحقيقةُ والمجازُ في الرِّحلة إلىٰ بلاد الشَّام ومصر والحجاز : لعبد الغني النَّابلسيّ ، تحقيق : رياض مراد ، دار المعرفة ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٨ م .

٥٩ ـ حليةُ الأولياء : لأبي نُعيم الأصفهانيّ ، دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٦٧ م .

٦٠ ـ حياةُ الحيوان : للدّميريّ ، مطبعة البابي الحلبيّ ـ القاهرة ، ط : ٤ ، ١٩٦٩ م .

٦١ ـ حياةُ رجالاتِ الإسلام : لمحمَّد الصَّادق عرجون ، دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠٠ م .

٦٢ ـ حياةُ الصَّحابةِ : للكاندهلويّ ، بعناية : نايف العبَّاس ومحمَّد علي دولة ، دار القلم ـ دمشق ، ط : ٤ ، ١٩٨٦ م .

٦٣ ـ خلافةُ الصِّدِّيق والفاروق : لعبد العزيز الثَّعالبيّ ، تحقيق : د . صالح الخرفي ، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٨ م .

٦٤ ـ درُّ السَّحابة في مناقب القرابةِ والصَّحابة : للشَّوكانيّ ، تحقيق : د . حسين العمريّ ، دار الفكر ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٨٤ م .

٦٥ ـ الدُّررُ في اختصار المغازي والسِّير : لابن عبد البرِّ ، تحقيق : د . مصطفىٰ البغا ، مؤسّسة علوم القرآن ـ دمشق ، ط : ٤ ، ١٩٨٤ م .

٦٦ ـ الدُّرُّ المنثور في التَّفسير المأثور : للسّيوطيّ ، دار الفكر ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٣ م .

٦٧ ـ دلائلُ النُّبوَّة : للأصبهانيّ ، تحقيق : محمَّد رواس قلعجي ورفيقه ، دار التُّراث ـ حلب ، ط : ١ ، ١٩٧٠ م .

٦٨ ـ **دلائلُ النُّبوّة** : للبيهقيّ ، تحقيق : د . عبد المعطي قلعجي ، دار الكتُب العلميَّة ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٥ م .

٦٩ ـ **دولُ العرب وعظماء الإسلام** : لأحمد شوقي ، مطبعة مصر ، ١٩٣٣ م .

٧٠ ـ **ديوانُ أميّة بنِ أبي الصَّلْت** : لأميَّة ، جمع وتحقيق : د . عبد الحفيظ السَّطْليّ ، المطبعة التَّعاونيّة ـ دمشق ، ١٩٧٤ م .

٧١ ـ **ديوانُ البُوصيريّ** : للبوصيريّ ، تحقيق : محمَّد سيِّد كيلاني ، مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٧٣ م .

٧٢ ـ **ديوانُ حافظ إبراهيم** : لحافظ إبراهيم ، تحقيق : أحمد أمين ورفيقَيْه ، دار الكتُب المصريَّة ـ القاهرة ، ١٩٧٣ م .

٧٣ ـ **ديوانُ حسَّان بن ثابت** : لحسَّان ، تحقيق : د . سيِّد حنفي حسين ، دار المعارف ـ مصر ، ١٩٧٤ م . وطبعة بتحقيق : د . وليد عرفات ، دار صادر ـ بيروت ، ١٩٧٤ م .

٧٤ ـ **ديوانُ المتنبّي** : للمتنبّي ، طبعاتٌ محقَّقةٌ مختلفةٌ بالقاهرة وبيروت .

٧٥ ـ **ديوانُ مجد الإسلام** : لأحمد محرّم ، حقَّقه : محمود أحمد محرّم ، مكتبة الفلاح ـ الكويت ، ط : ١ ، ١٤٢١ هـ .

٧٦ ـ **ربيعُ الأبرار** : للزَّمخشريّ ، تحقيق : د . سليم النُّعيميّ ، دار الذَّخائر للمطبوعات ـ إيران ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبعة .

٧٧ ـ **رجالُ أهلِ البيت في ضوءِ القرآنِ والحديث** : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار اليمامة ـ دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠٧ م .

٧٨ ـ **رجالٌ مبشَّرون بالجنَّةِ** : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ٥ ، ٢٠٠٣ م .

٧٩ ـ **الرَّحيق المختوم** : للمباركفوريّ ، دار الوفاء ـ المنصورة ، ط : ٥ ، ١٩٨٥ م .

٨٠ ـ **الرِّسالةُ المحمَّديَّةُ** : لعبد العزيز الثَّعالبي ، تحقيق : د . صالح الخرقي ، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٦ م .

٨١ ـ **الرَّوضُ الأنفُ بهامش السِّيرة النَّبويَّة** : للسّهيليّ ، تحقيق : طه عبد الرّؤوف سعد ، مكتبة الكليّات الأزهريَّة ـ القاهرة ، ١٩٧١ م .

٨٢ ـ **الرَّوضُ المعْطَار في خبر الأقطار** : للحميريّ الصَّنهاجيّ ، تحقيق : د . إحسان عبَّاس ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٥ م .

٨٣ ـ **زادُ المسير في علْم التَّفسير** : لابن الجوزيّ ، المكتب الإسلاميّ ، ودار ابن حزم ـ بيروت ، ط : ١ ، ٢٠٠٢ م .

٨٤ ـ **زادُ المعاد** : لابن قيِّم الجوزيَّة ، تحقيق : شُعيب الأرناؤوط ورفيقه ، مؤسّسة الرِّسالة ـ بيروت ، ط : ٢٥ ، ١٩٩١ م .

٨٥ ـ **زهرُ الآداب وثمرُ الألباب** : للحصريّ القيروانيّ ، تحقيق : علي محمَّد البجاوي ، دار إحياء الكتُب العربيَّة ـ القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٧٠ م .

٨٦ ـ **سُبُل الهدىٰ والرَّشاد في سيرة خير العباد** : للصَّالحي ، تحقيق : د . مصطفىٰ عبد الواحد وآخرين ، دار إحياء التُّراث الإسلامي ـ القاهرة ، ١٩٩٣ م .

٨٧ ـ **سيرُ أعلام النُّبلاء** : للذَّهبيِّ ، تحقيق : عدد من العلماء ، مؤسّسة الرِّسالة ـ بيروت ، ط : ٣ ، ١٩٨٥ م .

٨٨ ـ **السِّيرةُ الحلبيَّةُ** : للحلبيّ ، مطبعة البابي الحلبيّ ـ القاهرة ، ط : ١ ، ١٩٦٤ م .

٨٩ ـ **السِّيرُ والمغازي** : لابن إسحاق ، تحقيق : د . سُهيل زكَّار ، دار الفكر ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٧٨ م .

٩٠ ـ **السِّيرةُ النَّبويَّةُ** : لابن هشام ، تحقيق : السَّقَّا ورفاقه ، مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٥٥ م .

٩١ ـ **السِّيرةُ النَّبويَّة الصَّحيحةُ** : د . أكرم العمريّ ، مكتبة المعارف والحكم ـ المدينة المنوّرة ، ط : ١ ، ١٤١٢ هـ .
٩٢ ـ **السِّيرةُ النَّبويَّة علىٰ منهج الوحْيَيْن** : د . مأمون حموش ، ط : ٢ ، دون تاريخ ، أو ذكر اسمٍ لمطبعة ، أو ذكر اسمٍ لدار .
٩٣ ـ **السِّيرةُ النَّبويَّةُ في ضوء القرآن والسُّنَّة** : لمحمَّد أبو شهبة ، دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٨٨ م .
٩٤ ـ **شذراتُ الذَّهب** : لابن العماد الحنبليّ ، تحقيق : محمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٨٦ م .
٩٥ ـ **شرحُ حياةِ الصَّحابة للكاندهلويّ** : لمحمَّد إلياس البارة بنكوي ، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠٠ م .
٩٦ ـ **شرحُ شواهد المغني** : للسّيوطي ، منشورات دار مكتبة الحياة ـ بيروت ، دون تاريخ .
٩٧ ـ **الشِّعرُ والشُّعراء** : لابن قُتيبة ، تحقيق : أحمد شاكر ، دار المعارف ـ مصر ، دون تاريخ .
٩٨ ـ **الشُّعورُ بالعُور** : لصلاح الدِّين الصَّفديّ ، حقَّقه واستدرك عليه : د . عبد الرَّزاق حُسين ، دار عمَّار ـ عمَّان ، ط : ١ ، ١٩٨٨ م .
٩٩ ـ **شفاءُ الغَرام بأخبار البلد الحرام** : للفاسيّ ، تحقيق : د . عمر تدمريّ ، دار الكتاب العربيّ ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٥ م .
١٠٠ ـ **الشَّمائلُ المحمَّديَّة** : للتِّرمذيّ ، تحقيق : عبده علي كوشك ، دار اليمامة ـ دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠٢ م .
١٠١ ـ **صحابةُ رسولِ ٱلله ﷺ في الكتاب والسُّنَّة** : لعيادة الكبيسي ، دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٨٦ م .
١٠٢ ـ **صحيحُ ابن حِبَّان** : لابن حِبَّان ، اعتنىٰ به : جاد ٱلله الخداش ، بيت الأفكار الدَّوليّة ـ الأردن ، دون تاريخ .

١٠٣ ـ **صحيحُ الجامع الصَّغير وزيادته** : للألبانيّ ، المكتب الإسلاميّ ـ بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٨٦ م .
١٠٤ ـ **صحيحُ السِّيرةِ النَّبويّة** : لإبراهيم العلي ، دار النَّفائس ـ بيروت ، ط : ٣ ، ١٩٩٨ م .
١٠٥ ـ **الصِّدِّيقُ أبو بكر** : لمحمَّد حُسين هيكل ، دار المعارف ـ مصر ، ط : ٨ ، دون تاريخ .
١٠٦ ـ **صفةُ الصَّفوة** : لابن الجوزيّ ، تحقيق : محمود فاخوري ورفيقه ، دار المعرفة ـ بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٧٩ م .
١٠٧ ـ **صورٌ وعبرٌ من الجهاد النَّبويّ في المدينة** : د . محمّد فوزي فيض ٱلله ، دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٦ م .
١٠٨ ـ **الطَّبقاتُ الكبرىٰ** : لابن سعد ، تحقيق : إحسان عبَّاس ، دار صادر ـ بيروت ، دون تاريخ .
١٠٩ ـ **الطَّبقاتُ الكبرىٰ** : للشَّعراني ، دار الفكر ـ بيروت ، طبعة مصورة .
١١٠ ـ **الطَّبقاتُ الكبرىٰ والصُّغرىٰ « طبقات الصُّوفيّة »** : للمناويّ ، تحقيق : محمَّد أديب الجادر ، دار صادر ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٩ م .
١١١ ـ **العِقْدُ الفريدُ** : لابن عبد ربّه ، تحقيق : أحمد أمين ورفاقه ، لجنة التَّأليف والتَّرجمة والنَّشر ـ القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٦٢ م .
١١٢ ـ **العِقْدُ النَّفيسُ** : لمحمَّد فرغلي الأنصاريّ ، تحقيق : محمد نعيم منصور ، دار التَّقدم ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٧ م .
١١٣ ـ **علماءُ الصَّحابةِ ـ رضي ٱلله عنهم ـ** : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار اليمامة ـ دمشق ، ط : ١ ، ٢٠٠٦ م .
١١٤ ـ **العمدةُ في صناعة الشِّعر ونَقْده** : لابن رشيق القيروانيّ ، تحقيق : د . النَّبوي شعلان ، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ، ط : ١ ، ٢٠٠٠ م .

١١٥ ـ **عيونُ الأثر في فنون المغازي والسِّير** : لابن سيِّد النَّاس ، تحقيق : د . محمَّد العيد الخطراوي و د . محيي الدِّين مستو ، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٢ م .

١١٦ ـ **عيونُ الأخبار** : لابن قُتيبة ، مصوَّرة عن طبعة دار الكُتب ـ القاهرة ، ١٩٦٣ م .

١١٧ ـ **غُررُ التِّبيان في مَنْ لم يُسَمَّ في القرآن** : لابن جماعة الحمويّ ، تحقيق : د . عبد الجواد خلف ، دار قتيبة ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٠ م .

١١٨ ـ **فتحُ القدير** : للشَّوكانيّ ، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٤ م .

١١٩ ـ **الفتنةُ ووقعةُ الجمل** : لسيف بن عمر الضَّبّيّ ، جمع وتصنيف أحمد راتب عرموش ، دار النَّفائس ـ بيروت ، ط : ٥ ، ١٩٨٤ م .

١٢٠ ـ **فتوحُ البلدان** : للبلاذريّ ، نَشَرهُ : د . صلاح الدّين المنجّد ، مكتبةُ النَّهضة المصريةّ ـ القاهرة ، دون تاريخ أو ذكْر رقم الطَّبعة .

١٢١ ـ **فدائيّون في تاريخ الإسلام** : د . أحمد الشَّرباصيّ ، دار الرّائد العربي ـ بيروت ، ط : ٢ : ١٩٨٢ م .

١٢٢ ـ **فُرسانٌ من عَصْر النُّبوَّة** : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار اليمامة ـ دمشق ، ط : ٢ ، ٢٠٠٣ م .

١٢٣ ـ **فضائلُ الصَّحابة** : للإمام أحمد ، تحقيق : وصيّ ٱلله عبَّاس ، مؤسّسة الرِّسالة ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٣ م .

١٢٤ ـ **الفقهُ الإسلامي وأدلّتُه** : د . وهبة الزُّحيلي ، دار الفكر ـ دمشق ، ط : ٣ ، ١٩٨٩ م .

١٢٥ ـ **القاموسُ المحيط** : للفيروزآبادي ، مؤسَّسة الرِّسالة ـ بيروت ، ط : ٢ ، ١٩٨٧ م .

١٢٦ ـ **قادةُ فتح الشَّام ومصر** : محمود شيت خطَّاب ، دار الفكر ـ بيروت ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبعة .

١٢٧ ـ **القيادةُ العسكريَّة في عهد الرّسول ﷺ** : د . عبد ٱلله الرّشيد ، دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٠ م .

١٢٨ ـ **الكاملُ في التَّاريخ** : لابن الأثير ، دار صادر ـ بيروت ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبعة .

١٢٩ ـ **الكاملُ في اللغة والأدب** : للمبرّد ، تحقيق : محمَّد أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر العربي ـ القاهرة ، دون تاريخ .

١٣٠ ـ **كتابُ الغريْبَيْن في القرآن والحديث** : لأبي عبيد الهرويّ ، تحقيق : أحمد فريد المزيدي ، المكتبة العصريَّة ـ صيدا ، ط : ١ ، ١٩٩٩ م .

١٣١ ـ **كُتَّاب الوحي** : د . أحمد عيسىٰ ، دار اللواء ـ الرِّياض ، ط : ١ ، ١٩٨٠ م .

١٣٢ ـ **لسانُ العرب** : لابن منظور ، دار صادر ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٠ م .

١٣٣ ـ **لطائفُ الأخبار وتذكرة أولي الأبصار** : لأبي القاسم التَّنوخيّ ، تحقيق : د . علي حُسين البوّاب ، دار عالم الكتب ـ الرِّياض ، ١٩٩٣ م .

١٣٤ ـ **المبشّرون بالنَّار** : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ٢ ، ٢٠٠١ م .

١٣٥ ـ **مجمعُ الأمثال** : للميدانيّ ، تحقيق : محمَّد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي ـ القاهرة ، ١٩٨٧ م .

١٣٦ ـ **مجمعُ الزَّوائد** : للهيثميّ ، دار الكتاب العربي ـ بيروت ، ١٩٧٠ م .

١٣٧ ـ **المجموعةُ النَّبهانيّة في المدائح النَّبويّة** : ليوسُف النَّبهانيّ ، دار الكتب العلميَّة ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٦ م .

١٣٨ ـ **محاسنُ الوسائل في معرفة الأوائل** : لمحمَّد الشَّلبيّ الدّمشقيّ ، تحقيق : د . محمَّد التّونجي ، دار النَّفائس ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٤ م .

١٣٩ ـ **محاضراتُ الأدباء** : للرَّاغب الأصفهانيّ ، دار مكتبة الحياة ـ بيروت ، دون تاريخ ، وطبعة دار صادر المحقّقة .

١٤٠ ـ **محمدٌ رسول ٱلله** : لمحمّد الصَّادق عرجون ، دار القلم ـ دمشق ، ط : ٢ ، ١٩٩٥ م .

١٤١ ـ **مختصرُ تاريخ دمشق لابن عساكر** : لابن منظور ، تحقيق : عدد من الأساتذة ، دار الفكر ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٠ م .

١٤٢ ـ **المدينةُ النَّبويَّة في فجر الإسلام والعصر الرّاشديّ** : لمحمّد شرّاب ، دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٤ م .

١٤٣ ـ **مرآةُ الجنان وعبرةُ اليقظان** : لليافعيّ ، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٩٣ م .

١٤٤ ـ **المستطرفُ** : للأبشيهيّ ، تحقيق : إبراهيم صالح ، دار صادر ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٩ م .

١٤٥ ـ **المستفادُ من مبهمات المَتْن والإسناد** : لأبي زُرعةَ العراقيّ ، تحقيق : د . عبد الرَّحمٰن البرّ ، دار الوفاء ـ مصر ، ط : ١ ، ١٩٩٤ م .

١٤٦ ـ **مشاهيرُ علماء الأمصار** : لابن حبّان ، تحقيق مرزوق إبراهيم ، دار الوفاء ـ المنصورة ، ط : ١ ، ١٩٩١ م .

١٤٧ ـ **المعارفُ** : لابن قتيبة ، تحقيق : د . ثروت عكاشة ، دار المعارف ـ القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٧٧ م .

١٤٨ ـ **المَعَالِمُ الأثيرةُ في السُّنَّة والسِّيرة** : لمحمَّد شرّاب ، دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩١ م .

١٤٩ ـ **معجمُ البلدان** : لياقوت الحمويّ ، دار إحياء التُّراث العربي ـ بيروت ، دون تاريخ أو ذكر رقم الطَّبعة .

١٥٠ ـ **معرفةُ القرّاء الكبار علىٰ الطَّبقات والأعصار** : للذَّهبيّ ، تحقيق : بشّار عوّاد ورفيقَيْه ، مؤسّسة الرِّسالة ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٤ م .

١٥١ ـ **المغازي** : للواقديّ ، تحقيق : مارسدن جونس ، عالم الكتب ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩٦ م .

١٥٢ ـ **مفرداتُ ألفاظ القرآن** : للرَّاغب الأصفهانيّ ، تحقيق : صفوان الدَّاوودي ، دار القلم ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٩٢ م .

١٥٣ ـ **المُفَصَّلُ في تاريخ العرب قبل الإسلام** : د . جواد علي ، القاهرة ، ط : ٣ ، ١٤١٣ هـ .

١٥٤ ـ **منحُ المدح « أو شعراء الصَّحابة »** : لابن سيِّد النَّاس ، تحقيق : عفّت حمزة ، دار الفكر ـ دمشق ، ط : ١ ، ١٩٨٧ م .

١٥٥ ـ **المنمَّقُ في أخبار قريش** : لابن حبيب ، تحقيق : خورشيد فاروق ، عالم الكتب ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٨٥ م .

١٥٦ ـ **المواهبُ اللدنيّة بالمنح المحمَّديَّة** : للقسطلانيّ ، تحقيق : صالح أحمد الشَّامي ، المكتب الإسلامي ـ بيروت ، ط : ١ ، ١٩٩١ م .

١٥٧ ـ **نساءُ أهل البيت في ضوء القُرآن والحديث** : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار اليمامة ـ دمشق ، ط : ٦ ، ٢٠٠٥ م .

١٥٨ ـ **نساءٌ مبشَّرات بالجنَّة** : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ٥ ، ٢٠٠٣ م .

١٥٩ ـ **نساءٌ من عصر التَّابعين** : د . أحمد خليل جُمُعة ، دار ابن كثير ـ دمشق ، ط : ٤ ، ٢٠٠٤ م .

١٦٠ ـ نَسَبُ قريش : لمصعب الزُّبيريّ ، تحقيق : ليفي بروفنسال ، دار المعارف ـ القاهرة ، ط : ٣ ، دون تاريخ .

١٦١ ـ نفحُ الطِّيْب : لِلْمَقّريّ ، تحقيق : إحسان عبّاس ، دار صادر ـ بيروت ، ١٩٦٨ م .

١٦٢ ـ نكتُ الهِمْيان في نكَت العُميان : لصلاح الدِّين الصَّفديّ ، تحقيق : أحمد زكي ، القاهرة ، ١٩١١ م .

١٦٣ ـ النِّهايةُ في غريب الحديث والأثر : لابن الأثير ، بعناية رائد أبي علفة ، بيت الأفكار الدّوليّة ـ الأردن ، دون تاريخ .

١٦٤ ـ نوادرُ المخطوطات : لعددٍ من المصنِّفين ، تحقيق : عبد السَّلام هارون ، مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة ، ط : ٢ ، ١٩٧٢ م .

١٦٥ ـ وفاء الوفا : للسَّمهوديّ ، تحقيق : محيي الدِّين عبد الحميد ، دار إحياء التُّراث ـ بيروت ، ط : ٤ ، ١٩٨٤ م .

١٦٦ ـ وفَيات الأعيان : لابن خَلّكان ، تحقيق : د . إحسان عبّاس ، دار صادر ـ بيروت ، بدون تاريخ .

١٦٧ ـ وقعةُ صفّين : لنصر بن مزاحم المنقريّ ، تحقيق : عبد السَّلام هارون ، دار الجيل ـ بيروت ، ١٩٩٠ م .

١٦٨ ـ ولاةُ مصر : لمحمّد بن يوسُف الكنديّ ، تحقيق : د . حسين نصار ، دار صادر ـ بيروت ، دون تاريخ .

مع مصادر ومراجعَ ومقالات كثيرة جاءت في ثنايا الكتاب .

عنوان المؤلِّف

سُوريا ـ دمشق

هـ : (٥٣١٨١١١ ـ ٥٣١٣٠٦٤)

✍ ✍ ✍



فهـــرس الموضـــوعات

الموضوع	رقم الصفحة

الباب الثَّاني
رجال سابقون من الأنصار

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الباب الثّالث

رجالٌ أسلموا عام الفتح

الموضوع	رقم الصفحة

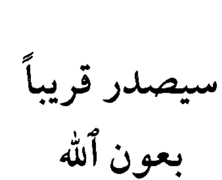
الباب الرّابع

رجالٌ من قبائل شتّىٰ

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة





سيصدر قريباً

بعون ٱلله

كتاب

نساء
في حياة المشاهير

تأليف الدكتور

أحمد خليل جمعة





صدر للمؤلِّف عن دار ابن كثير

رجال مبشَّرون بالجنَّة

نساء مبشَّرات بالجنَّة

نساء من عصر النُّبوَّة

نساء من عصر التَّابعين

نساء الأنبياء

المبشَّرون بالنَّار

أبناء الصَّحابة

وسيصدر قريباً بإذن الله

علماء التَّابعين

رجال من عصر التَّابعين

تأليف الدَّكتور

أحمد خليل جمعة